


اقرأ

سندباد في رحلة الحياة







الدكتور حسين فوزي

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز

١٠

الدكتور حسين فوزي

سندباد
في رحلة الحياة

اقرأ ٣٠٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٦ – يونية – سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

فى ضباب الذكريات البعيدة

لم أكن بلغت السادسة من العمر ، أو ربما الخامسة ، عندما وعدنى والدى بالتوجه سوياً لمشاهدة أهرام الجيزة وأبى الهول . بيد أنى أذكر ذلك اليوم أكثر مما أستعيد وقائع أهم وأقرب إلى الحاضر فى حساب السنين . ولا يمكننى مع هذا التوكيد بأن الأهرام وأبا الهول وحدها مسئولة عن اغتباطى بالرحلة من وسط القاهرة المعزية — كنا نسكن حينئذ أمام مسجد سيدى الشعرانى ، ونسميه الشعراوى — حتى أطراف العمران ، على حافة الصحراء ، ربما كان مبعث سرورى هو ترقب نزهة خلوية ، كانت تعد سفراً طويلا بالنسبة لى . وكنت مثل كل أطفال ذلك الزمان أحب ركوب الترام أكثر من عربات الخيل ، والأتوبوس أكثر من الترام . أما القطار فكان يمثل لمخيلتى متعة العمر وأنا أراه ينفث دخانه ويزفر ويصفر ويزمجر : توت توت ، تشلك ، تشلك ، تشلك ، تف ، تف ، تو . . و . : ت !

جاء اليوم الموعود ، يوم جمعة ، فصحوت من النجمة والجميع نيام . وأنا أحس فى تلك السن الباكرة أننا أسرة عنيدة ، أفراداً وجماعة . فما إن رأيت الشمس ترتفع فى كبد السماء والأسرة ما زالت نائمة حتى خشيت أن تسوق « العند » وتعطل رحلتى المرتقبة . وبعد صحيان الجميع ، ظل الوالد نائماً وليس من يجسر على إيقاظه ، ممن لهم عليه بعض السلطان .

وبعد الساعة الحادية عشرة سحبنى والدى من يدى وخرجنا . . أخيراً . . لنقف عند الحلاق ! ماذا تصنع إرادة طفل ؟ ماذا لو انسقت لعنادى وركبت رأسى ، وطالبت بالعودة إلى المنزل لأمارس ألعابى

الكثيرة ؟ لأنى أعرف دكان ذلك الحلاق أمام محطة ترام الخليج المصرى المسماة « خميس العدس » ونسميها « خميس عتس » . لم تلك أول مرة يصحبنى إليها والدى ، وأعرف أن الوقت يضيع هناك بين مرآتين كبيرتين متواجهتين ، تعكس كل منها الأخرى فيتحول الحانوت الذى يشبه شق الثعبان . . إلى نوع من بهو المرايا الذى فى فرساى . صاحب الصالون يونانى ، وزبائنه خليط من المصريين واليونان والطليان والأرمن ، وكل من يجود به درب الجنينة ودرب البرابرة من جاليات أجنبية .. محترمة ، وليت الأمر يقتصر على حلاقة ذقن أو تصليح شعر — هذا إلى أن صاحبنا الرومى كان على نقيض حلاق اندرسن فى إحدى قصصه الذى أثر عنه أنه « يحلق للأرنب فى عدوه » — فقد عرفت بالتجربة أن ضروباً من المناقشة تنشب ولا تنتهى بين الأسطوات والزبائن ، حول أمور لم أفقه منها شيئاً ولا يعنينى أن أدرك منها فتيلا .

وربما كان هذا هو السبب الذى طبع فى ذاكرتى بعض الصور التى تزين الحانوت بأعلى المرايا ، وهى صور لم أفهم قصتها إلا بعد ذلك بسنوات غير قليلة . صورة تمثل سيدة تلبس ملابس قومية — يونانية كما عرفت فيما بعد — تجلس ساهمة تعتمد رأسها بيدها ، بين أطلال أبنية ذات عمد سامقة متناسقة تشمخ بتيجانها فوق ربوة — البارتينون فوق الأكروبول كما عرفت فيما بعد — وإلى جانب من الصورة جندى من جنود الأفزون لابسى الفستان القصير . وأحسب الآن أن الصورة من آثار حرب تحرير اليونان فى النصف الأول من القرن الماضى ، وما تلا الاستقلال من استنهاض الهمم لاستعادة مجد الإغريق الأول بناة الحضارة .

والصورة الثانية تمثل محارباً يلبس الخوذة اليونانية القديمة ذات العذبة الحمراء ، ويركب عربة حرب ذات عجلتين ، يقف فيها ويسوق جوادين ركضا ، وتجر العربة وراءها ، وتجرجر فى التراب ، رجلا عارياً ،

ميتاً ، ربطت رجلاه بمؤخرة العربة ، وانطرح جسده فوق الغبراء . . إنه منظر النشيد الثانى والعشرين من الإلياذة ، يصف فيه الشاعر اليونانى الأكبر بطل ملحمته أخيليس ، وقد انتقم لمقتل خدنه الحبيب فطروكليس بسيف هطكور بن فريام ملك طروادة . فقتل هكطور وراح يمرمغ جثمانه فى الرغام ، وهو يدور بعجلته حول أسوار « اليون » الحصينة .

« وعندما بلغت الأسوار ، حيث احتشد الرجال ، ارتقت اندروماك أحد الأبراج ، وألقت ببصرها تتبين ما يجرى فوق الساحة ورأتهم يسحبون زوجها هكطور على مرأى من المدينة — كانت الخيل الجياد تسحبه فى خبب يسير ، نحو مرسى سفن الإغريق من آل اخايا » — الإلياذة : من النشيد الثانى والعشرين .

والمنظر الثالث يصور وداع هكطور لزوجته أندروماك (فى النشيد السادس) قبل أن يخرج للقتال ، فلا يعود . فالوصيفة تحمل الطفل اسكامندر ، ويسميه الجميع «استياناكس» ، وينفر الطفل من مرآى أبيه بخوذته ودرعه وسلاحه . وربما كان هذا الموقف ، وموقف فريام يجثو أمام أخيليس فى خيمته ، يستعطفه ، ويرجوه أن يسلم رفات ابنه هكطور ، ها أروع ما فى الإلياذة ، على كثرة ما تحتويه من روائع .

كانت تسليتى الوحيدة إذن ، وأنا أحرق الأرم غيظاً وتشوقاً لرؤية أهرام أجدادى ، أن أجول ببصرى لأشاهد آثار أجداد الحلاق اليونانى .. ولكنى بطبيعة الحال لم أك أعرف فى ذلك الزمان أن تلك الصور تمثل أمجاد أسلافه ، ولا أننى أحج فى ذلك اليوم البعيد لأول مرة ، إلى مقابر أسلافى .. أو على الأقل ملوك أسلافى. فلا شك أن البون بين خوفو وخفرع ومنقرع وبينى هو البون بين الحلاق اليونانى بقنطرة « خميس عدس » وأخيليس وأجا ممنون و إياس بن تلامون وديوميدس وأوديسيوس ابن لايرت. وسحبنى والدى من دكان الحلاق . . أخيراً . . إلى مطعم ! وكان

فى ذلك بعض الصبر والعزاء ، فأنا من الطفولة الأولى أفضل الأكل السوقى على الطعام البيتى ، ويشاركنى فى ذلك الصديق رائد القصة المرحوم طاهر لاشين . عندما كان يعقد المقارنة بين كنافة البيوت ، وهى تخر ساجدة من السمن والسكر المعقود والمسجوق . . وبين كنافة الكنفانى تذوب خفة ! . . ولا أنسى يوم وصف لى فلافل البيوت وكأنها حجر الرحى ، لا فى منظرها فحسب بل فى رسخانها على القلب . أو عندما كان يسمى « لقمة القاضى » البيتى ، « طقة القاضى » ويزعم بأن واحدة منها تشبع محكمة بحالها .

وبعد العصر ، بدأنا رحلتنا الطويلة بين العتبة الخضراء والأهرام ، على خطين أحدهما كان واحداً من أول خطوط الأتوبوس فى تاريخ القاهرة ، نقلنا من العتبة الخضراء وفوق كوبرى قصر النيل القديم ، حتى بلغنا كوبرياً خشبياً ، سمعت اسمه العجيب لأول مرة : الكوبرى الأعمى (أى كوبرى البحر الأعمى ، وهو كوبرى الجلاء حالا) وكان بر الجيزة فى ذلك الزمان هيشاً وقصباً يشبه الحرج الاستوائى ، والترام أخضر اللون ، ويسير حتى الأهرام على قضبان مفتوحة ، أى كقضبان السكك الحديدية . ويخترق شارع الهرم فى وسطه تماماً ، وعلى جانبى الطريق أشجار باسقة وارفة الظلال ، وراءها المزارع المترامية الأطراف ، إلا وقت الفيضان حين يمتلئ حوض كرداسة بالماء ، ويسير الترام الأخضر على جسر فوق بحيرة واسعة الأرجاء .

وكلما اقتربنا من الأهرام كبر جرمها وقد بدت فى مخيلتى أولا فى حجم صورتها على طابع البريد . ثم شبت عن الطوق قليلا عندما بدأت أراها من بر الجيزة ، ثم اكتشفت وأنا أقترب منها أنها ليست مسمطة ملساء ، كما تبدو فى صورة طابع البريد ، بل هى صخور بعضها فوق بعض طبقات . وعندوصولنا كنا فى « صفار شمس » فلم يبق لنا إلا أن

ندور حولها وبينها . وحتى معبد أبى الهول لم ندخله لأن « العرب » كما كنا نسمى أهل المنطقة ، اختلفوا فيما بينهم عمن يفتح باب المعبد ويصطحبنا ، ورأى الوالد أن نعدل عن زيارة المعبد فى سبيل إعادة الوفاق إلى الصف العربى ، وربما خوفاً من أن تنتهى خناقتهم على حسابنا .

ولم أعد لزيارة الأهرام إلا بعد دخولى المدرسة الابتدائية ، حيث علمونا أن أول ملوك مصر كان اسمه مينا أو مصرايم ، وأنه غير مجرى النيل . . وأن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار . وهو أسخف بيت عرفته طول حياتى لأن عجزه نوع من الزائدة الدودية .

ومنذ ذلك اليوم البعيد جداً ، وأنا أحمل فى ذكرياتى ، وأحتفظ فى ركن من قلبى بحب عميق لحضارة مصر الأولى ، وحضارة يونان القديمة . وعندما وقفت ذات يوم بمعبد « آفيا » على أكروبول جزيرة إيجينا وتطلعت من فوق البحر الأزرق إلى معبد البارتينون فوق أكروبول أثينا ، رجعت بصرى عبر البحر الواسع : بحر الروم ، واستحضرت فى ذهنى صورة الأهرام وأبى الهول الرابض فوق ربوة الجيزة ، أروع ما يكون بياناً فى صمته الألفى .

رفقاً أنجشه

كان خطر هواية الفنون علينا يتفاوت عند أهلنا : فالشعر لوثة مقبولة ، لقربه من الكتابة والمحفوظات . والرسم تسلية بريئة كلعب الكرة . والتصوير بالألوان المائية ، وداهية التصوير بالزيت ، ذات تكاليف وأعباء لا يبتسم الأهل لها . ونقترب من منطقة الخطر عندما نهوى التمثيل — برغم صلته بالكتابة والمحفوظات . ولكن الطامة الكبرى كانت غواية الموسيقى .

وقد تنقلت فى صغرى من اللعب الميكانيكية « والعجلة » الثلاثية

إلى الكورة ، والتصوير الفوتوغرافى — كاميرا براونى بثلاثين قرشاً — والعرض السينمائى : لا أراك الله ذلك الصندوق الصفيح الأسود يضاء بمسرجة بترول ، وله فيلم واحد لا ثانى له ، يدور على نفسه كقواديس الساقية ، ويعرض « قصة » طفل جلس على حافة جدول يصيد السمك بسنارته ، فى حركة دائمة ، يلقى السنارة ، يرفع السنارة ، يلقى السنارة ، وهكذا «آد پرپتيوام» .

وابتسم الوالد لمحاولتى الرسم بالحبر الشينى أو الفحم الكونتيه ، أو بالألوان المائية . حتى إذا ما حم القضاء ، وطالبته بثمانين قرشاً ثمن أول كمنجة لى بقوسها ، دخل فى دور الحمرأة — أقصد الحمرقة : مش ناقصنا إلا ده ، عاوز تطلع آلاتى تدور مع السكارى والمساطيل .

طيب السكارى وعرفناهم ، أما المساطيل فقد ساءلت نفسى من يكونون ، ولم أجسر على الاستفهام ، واكتفيت بالظن أنهم نوع أضل سبيلا من السكارى ، وإن كانوا أرفع مكاناً ، لا سيما وأن اسمهم فيه تنغم فخم كأساطين وأساطيل .

وبرغم ذلك كان الوالد أوسع ذهناً من طالب بالمعلمين المتوسطة كان يدرس خصوصياً لشقيقين من زملائنا ، فعز على حماسه وتفانيه فى مهنته أن يبعزق جهده على زولين ، وحشد فصلا كاملا من فريق الكورة الذى يلعب مع الشقيقين فى حوارى البغالة . وشاء لى سوء الطالع أن أكون ضمن الفريق ، فحاولت التملص ادعاء بأنى على الهامش ، احتياطى فحسب . ولكن الأستاذ الطالب بالمعلمين المتوسطة لم يكن ممن يأخذون بالظروف المخففة ، ويكره أن « يحوى » عليه التلاميذ . وكانت دروسه نصفها علم « كل شن كان » ، والنصف الآخر خطب رنانة فى الحث على الفضائل ، والتمسك بالفرائض . وكان أيسر على نفوسنا منها أن يقضيها فى تقريعنا المباشر ، وتوقيع عقوبات تفنن فى تصورها وإخراجها تفنن السينمائيين .

علم ذات يوم أننى أرسم بالفحم فما كان منه إلا أن حضر إلى منزلنا ، فاقعاً المشوار من البغالة إلى فم الخليج على رأس وفد من الفصل البارد المرتجل الذى حشده بالزور وهواية التدريس ، ليرى نموذجاً من رسوماتى . وكنت قد شرعت فى نقل صورة للملك لويس الرابع عشر ، وانتهيت من بروكته الجعداء ، وشاربه المفتول ، والحذاء ذى التوكة ، وطرف السروال ذى الفيونكة . فطرت من الفرح ، وطلعت أدب ، ونزلت أدب ، ومعى فرخ « الجرامون » الكبير بطيته الأسطوانية ، سلمته للمدرس المتحمس . وحولنا الزملاء يبتسمون زهواً ، ويعجبون مقدماً بنبوغ واحد منهم على الأقل . وبدأ المدرس يفرد طية الفرخ متأنياً ، وعلى وجهه ابتسامة عذبة ، حسب حكمى الساذج ، وصفراء تبعاً لما تعلمت فيما تلا من الزمان ، بل شيطانية بعدما رأيت أشباهها على المسرح الغنائى تزين وجه إبليس المدعو مفيستوفيليس .

سألنى : أنت يا فوزى صحيح اللى رسمت ده . وأجبت فى تواضع . . ومسكنة زائفة أيوه يا فندى !

ـ عفارم ، عفارم ! وفى سادية واضحة حسبما علمتنى السنون ، أخذ يمزق الفرخ بالطول ، ثم ضم نصفيه يمزقهما سوياً بالعرض ، توفيراً للجهد والوقت .

الواضح لى الآن أن أهلنا عموماً كانوا يعتبرون هوايتنا لبعض الفنون أمراً ذا خطر . لا بأس من أن يلعب أولادهم الكورة ويركبوا حتى الموتوسكل ، ويذهبوا إلى السينما والسيرك . أما أن يغووا الموسيقى ـ أبشع الهوايات عندهم ـ . فكان ذلك يشكل على النبى حارسهم خطراً داهماً ، من قبيل الخطر الذى يتهددهم عندما يحتجز الجيران رفيقات ألعابنا وراء الحجاب والنقاب ، فتتحول وسيلة التخاطب بيننا إلى نوع من التلغراف الهوائى عن طريق النوافذ ، من خلف الشراعات المواربة .

إحساس صادق من الكبار بأن الفن شيء ملء القلب والروح . . مثل الحب والهيام .

أية سعادة تفعم نفسي وأنا أرى أطفال اليوم وغلمانه يمارسون هواياتهم كلها بإشراف أساتذتهم وتشجيع أولياء أمورهم . . وأمورنا .. وهذا برغم الخطيب المفوه الذى لعننى على السبحة يوم جمعة من جمعات ١٩٥٦ عندما أهبت بإنشاء مدرسة للباليه ، وبصرف النظر عما حدث فى ثلاثينات القرن عندما شرد وزير للتقاليد — كيف فاتهم حينذاك أن ينشئوا وزارة للتقاليد ، لا أدرى — رهطاً فاضلا من أساتذة معهد فن التمثيل وطلبته وطالباته . . صيانة للأخلاق ، وصدوعاً بالأوامر والنواهى ، ونأياً بهم عن مصارع الشهوات .

ولقد وقفت فى الصيف الماضى على شاطئ البحر فى بلطيم أتأمل متحفاً رملياً أقامه تلميذ على حافة البحر من الرمال المبللة ، وأحاطه بسياج من الليف . كان متحفاً يمثل عقلية العصر أكمل تمثيل : لم يكتف الفتى بتمثال فتاة مستلقية على الرمال وصياد أم الخلول ، بل صور مفارقات عصره فى تمثال للجمل ، سفينة الصحراء ، إلى جانب الطيارة النفاثة . وتمثال للمركب الشراعى ، فى مواجهة عابرات المحيط ، والطرادات . وقد عجزت عن فهم تمثال منها ، فابتسم الفتى ابتسامة الأستاذ أمام تلميذه الخائب ، وتنازل يقول معاتباً : هذا صاروخ جاجارين !

سلمت على الفتى الفنان ، وقد هنأته بكلمة « عال » واستأنفت مسارى ، وإذا كلمة « عفارم » تصعد من أعماق الذكرى على نغمة زيق .. زيق من الديوان الكبير تضيئها ابتسامة صفراء ، وتصطحبها ضحكة سادية . وقد نسيت ، أو تناسيت خجلا ، أن أحدثك بالصفعة المدوية التى نزلت على خدى من ذلك الأستاذ المحترم ، علمت منها أن « طق الشرار » من العين ليس صيغة من صيغ البلاغة ، عقاباً لى على هواية

الرسم ، وإن كان عقاب لويس الرابع عشر حينذاك أقسى على نفسى ، وربما على لويس أربعة عشر نفسه ، لأن ما حاق به كان أشد مما نزل بحفيده لويس السادس عشر فى ميدان الثورة . لقد أعدمه المدرس الخصوصى على طريقة المماليك ، وهى التوسيط ، ثم قسمه أربعا وكأنه ينوى أن يوزع أشلاءه على أربعة مفارق .

أثارت هذه الذكريات إجابة صغيرة بليغة ، مخيفة ، طالعتها منذ أيام ، صدرت عن مراهق يمارس هواية فنية ويبرع فيها :

ـ هل تؤثر هوايتك على متابعة دروسك ؟

ـ بعكس ما تظن ، فهى تحضنى على مذاكرة دروسى ، لأبلغ هدفى الفنى على أساس متين من الثقافة العامة .

ـ وما موقف والدك من هوايتك ؟

ـ كان يحاربها فى بداية الأمر ،ولما أخذت هوايتى تجرى على أجراً، بدأ يشجعنى ،وتطور إلى أن أصبح يؤنبنى إذا أهملت هوايتى بعض الوقت.

آه لو كان الفقر رجلا ! فلست مستعداً أن ألوم هذا الوالد . ماذا يكون غرضه من إرسال ابنه إلى المدرسة إلا أن يهيئ له وسيلة لكسب عيشه . فإذا تحقق له ذلك أيام التلمذة ، أى بأس من ذلك ؟

وأهلنا لم يكونوا أثرياء . . وكانت هواياتنا تكلفهم مالا . وأخشى أن أقول فأظلم الجيل الحاضر : كان أهلنا يخافون علينا من بعض الهوايات . أما إذا بلغ أمرها أن نكسب من ورائها مالا ، فقل يا رحمن يا رحيم . كان ذلك ضعة ما بعدها ضعة ، وهواناً يفوق كل هوان . كانت مبالغة فى الحالين ، ومغالاة من الجيلين ولكن . . رفقاً انجشة بالقوارير !

غرام فى السيرك

هذه قصة من صنع الخيال إن شئت أو هى من ذكريات الطفولة وما بعدها قبل المراهقة . فأين الحقيقة من الخيال، ومن يضمن لى ولك أن تكون من قبيل هذا أو تلك ؟ فلنوجه عنايتنا إلى صياغتها كأقرب ما تكون إلى الواقعية ، ولعل الشعر فيها ينأى بها إلى أبعد من الحقيقة .

بدأت وقائعها فى السيرك الوطنى تعلق الحاج سليمان ، يجيئنا كل عام فى مولد السيدة زينب ، وينصب عمده وصقالاته وخيامه فى باحة من باحات الحى .

وكان ارتيادنا للسيرك ، نحن تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية بشارع مراسينة يغير من رتابة ملاهينا تغييراً جذرياً . فما كان أقلها فى ذلك الزمان البعيد . أهمها السينما فى مطالعها البدائية بالقاهرة، ثم لعب الطرّة والكرة . إلا حينما تمتد ملاهى المولد على طول شارع السد البرانى ، فيتحول الشارع — وكان يتوسطه مقام سيدى البدى ، قبل أن ينتقل إلى مكانه الحالى عند أول شارع مدرسة الطب — يتحول الشارع إلى استعراض الفولكلور المصرى بأنواعه ! خيال الظل والقرة جوز، وملاعبى الحيوانات العجيبة : النص سمكة والنص بنى آدم (سمكة قشر بياض عظيمة تتكلم لدى خروجها من الماء . . عن طريق بطن صاحبها الفنتريلوكى) ومصارعة (بالسين فى لغتهم) حيوان (كانجرو) يصفه الملاعب بأن له ذيل تمساح ، وجسم أسد ، ورأس حمار ، والشيخ عبد الله ، وصل من بلاد الهند والسند رأساً بلا جسد ، يتكلم بلسان عربى فصيح ، يشرح حاله ، وما يأكل وما يشرب . فيسأله الملاعب كيف تنصرف فضلات طعامه وشرابه ؟. « يطلع على وجهى عرق » (بالقاف الساكنة) . وكل هذا ليس من الفولكلور ، وإنما كان هناك المداح

والراوى والشاعر بالربابة والأدباتى والحاوى، وجماعة المحبظين والمغذلكين، ممن يجمعهم الجبرتى فى « طائفة الحردة » .

كنا نرتاد تلك الألاعيب لماماً ، أما السيرك فكان لازمتنا ليلة الجمعة من كل أسبوع ، نشاهد الخاجة مريم تمشى على الحبل بالزانة ، والأسطوات على وفايق إخوان يرقصون على الحبل والسلك بدون زانة والبلياتشو عثمان بطرطوره الأبيض ووجهه أبى دقيق ، والعفريتة المشغولة بالورد الجورى . . يقع من على الحبل ، أو السلك ، ويفترش البساط الأحمدى كالزكيبة ثم ينهض ويؤدى حركة الإعجاب الذاتى بيديه وذراعيه ، كما يفعل عادة رجال السيرك ، ويضيف إلى ذلك قوله « براوة عليّه» ، وآكل النار ، والخواجة ماركو لاعب العقلة الأرضية، وعاكف البهلوان ، وزنوبة بهاوانة العقلة الطائرة . والفارسة جليلة تركب الحصان واقفة على ظهره وهو يدور حول الحلبة ، تطير فى الهواء وتتشقلب وكأنها فوق أرض منبسطة . وأخيراً الفصل المضحك بطله «الجن نار» «الجنرال» وقد نسيت أنواع المقالب التى كانت تنصب له ، وغير ذلك من طرائف تبهرنا تحت أضواء كلوبات الجاز ذات الرتينة والوش ، وعلى صوت موسيقى نحاسية تعتلى منصة خاصة . كم كان سنى حينذاك ؟ لا أذكر بالضبط لأنى لا أعرف متى عشقت فتاة السيرك . هل كنت فى السنة الثانية الابتدائية أم الثالثة . وعلى الحالين لا يمكن أن أكون جاوزت الثانية عشرة فالمؤكد أنى انتقلت إلى المرحلة الثانوية فى الثالثة عشرة من عمرى .

أقول عشقت بكل بساطة ، مثلما أقول لعبت الكرة البلدية المسماة « قره وسنو وكحكو إلخ » مع أن الأمر كان أعمق من هذا بكثير ، كان هياماً ووجداً ، بحق وحقيق .

موضوعه لاعبة السيرك الإيطالية أماليا من أسرة فانوتشى الأب والأم والابن والأخت الكبرى ليزافانوتشى . ولا حاجة لنا بوصف ألعاب

آل فانوتشى ، أو جمال ليزا وقد اكتملت أنوثتها وكان وجهها حقيقاً بأن يقول للقمر . . إلخ .

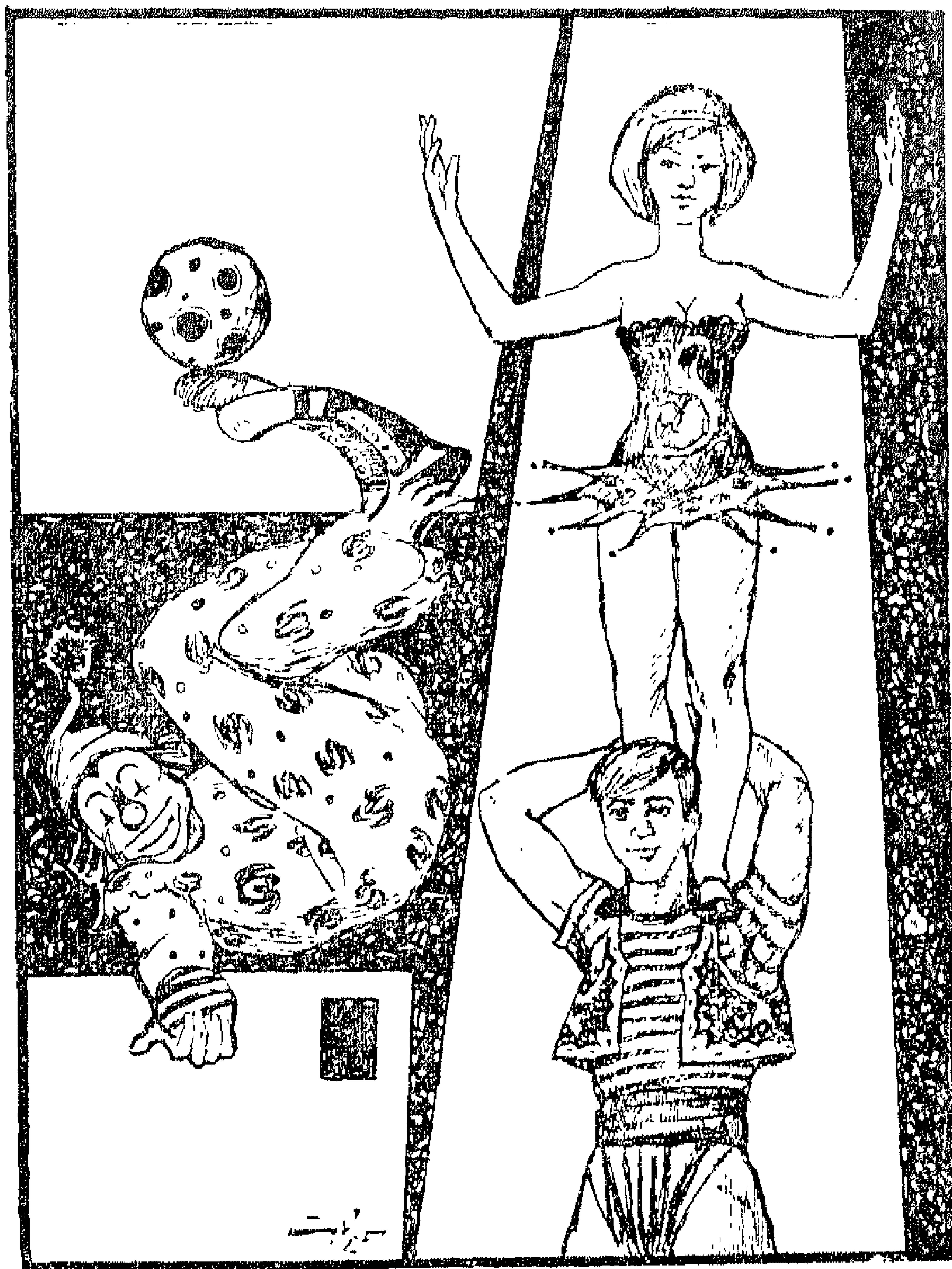
أماليا كانت فى سنى ، وربما أكبر قليلا، كوكباً درياً بعيد المنال على غلام فى سنى وحتى على من هم أكبر من سنى .

ويمكن أن تنتهى القصة هنا بحب دون أمل ، وننصرف إلى وصف آلام النوى والبعاد والجوى والسهاد ، وترقب يوم الخميس كأنه يوم الميعاد .

كان الصبى من خشب الأشراق، سريع الاحتراق، راح يسلك طريق المستحيل للتقرب من الحبيبة ، والمستحيل فيما رأى لا يحققه إلا السحر ، والتماس المعونة . . . من ميمونة ، وخادمها دهنش . وصنعة السحر مرصودة فى كتب صفراء ، تباع عند الكتبية بالحلوجى . فاقتنى منها كتاباً أو كتابين من مؤلفات أبى معشر . طالعها من أولها إلى آخرها دون أن يبلغ بغيته أنى له بقلب هدهد يتيم أو ديك أسود لا غباشة فيه ، وما هو حجر دم الأخوين يبخر به مع عين العفريت . وكيف يجسر على ولوج قبر مفتوح يحمل منه عظمة ميت ويخرج من القبر بخطى القهقرى ، حين يواجه عفريت الميت إذا تصادف وطلع له ؟ وإذا تمكن — فرضاً — من دفن بيضة بين أربعة مفارق ، بعد أن يعزم عليها وينقش التعاويذ فوق قشرتها .. بدم غزال، فكيف يحفر عليها بعد أربعين يوماً، ويحملها إلى مكان خرب ، ثم يفتحها ومعه سكين حاد يذبح به الكتكوت الفصيح قبل أن يصبح .، وإلا فالغلام هالك لا محالة إذا هبشه كتكوت الجن .

هذا وكثير غيره طالعه فى كتب السحر والشبشبة تحت أبواب المحبة والقبول وانتهى إلى الوسيلة الوحيدة الميسرة :

كانت وصفة لا تكلف إلا جهداً — قراءة سورة الجن على وريقات عادية (وليست من الكاغد) يخط على كل منها حرفاً من حروف الهجاء حتى تكتمل الأبجدية ، وينقش على كل ورقة اسمه واسم أمه واسم



المحبوبة والسيدة والدتها ، وبما أنه لا يعرف اسم المحترمة فقد اكتفى بكتابة أماليا بنت فانوتشي معتمداً على أن الجن لن يفرق بين اسم الذكر والأنثى فى تلك اللغات الأجنبية .

ويكتب تعويذات بلغة غير مفهومة لعلها السريانية يجىء فيها اسم شمهورش بن مقارش والغالب أنه سلطان الجن .

وتصور أن يقرأ الصبى سورة « قل أوحى » كاملة بعدد حروف الهجاء ومع أنه كان قد نسى الكثير مما حفظه عن ظهر قلب من كلام الله ، بكتاب سليمان جاويش ، الكائن فى أول الخرنفش ، فقد استعادت ذاكرته السورة بعد تلاوتين أو ثلاث ، وواصل تسميعها تسعا وعشرين مرة ، حتى جف حلقه ، وكاد يسقط إعياء إلا أن أدركته رحمة ربه .

والوصفة تقول بحرق الأوراق كلها ، مع ترديد تعاويذ . . سريانية ، وحمل الرماد إلى . . .أعتاب المحبوبة . ويكفى أن تخطو فوق الرماد ، حتى يجمع الله الشتيتين بعد ما .

ذهب إلى بيت آل فانوتشى ،فإذا غلمان الجيران يلعبون فى باحة قائمة أمام منزل أماليا ، والبيت المجاور . لم يجرأ على أن يذر الرماد أمامهم ، فهى حركة غير معتادة أن يفرش الإنسان عتبة عريضة برماد ورق محروق . وراح يتحكك بهم ويشاركهم ألعابهم وكان بطلا من أبطال لعبة العصفورة.

ولا يبتئسن القارئ إن جهل أمر هذه اللعبة المشهورة ، لأن معرفته أو جهله بها لن يغير من مشيئة القدر .

تناول المضرب الخشبى وأطار العصفورة لفريقه ، حتى كادوا يبلغون بها سيدى الطيبى فى اتجاه الجنوب الغربى ، وأطار الفريق الآخر العصفورة حتى أعادها إلى قواعدها ، ثم دفع بها الصبى فى اتجاه الشمال الشرقى حتى كاد فريقه يبلغ بها سيدى الحبيبى . ولم تكن الطرقات فى تلك الأزمان الغابرة تعرف سوى عربات الأجرة والكارو وحمير السوق فى الليل

بعد توقف عربات سوارس والترام . أما السيارة فكانت كالكبريت الأحمر ، لا يركبها سوى البرنسات وطالعاً . والبرنسات لم يسمعوا طول حياة أسرتهم ، حتى انصرام حبلها، بالأسياد السد البرانى والطيبى والحبيبى فلم يكن من المنتظر أن تعبر سياراتهم بالحى العتيد .

كسب فريقى ، واعترف الفريقان لى بالسبق . . كل هذا وقبضة يدى اليسرى منضمة على رماد التسعة والعشرين عفريتاً الموكلين بقوادة المحبوبة حتى تجيئنى منقادة تجرجر أذيالها .

وانصرف الغلمان ، وشرعت فى ذز الهباب ، فوق أعتاب الأحباب . . فرفض أن يذر ، وقد تحول من طول الحبس إلى . . قرص صغير من الجلة. فركته ما استطعت، يساورنى الشك فى احتفاظ الشبشبة بقوتها الذرية . توقعت أن الجن سوف يتكعبل وهو منطلق من لبخة الرماد بأقدامه المشقوقة كحوافر الماعز . وربما لصقت بالرماد الندى كما يلصق الذباب بأوراق الصمغ التى كانت تستعمل فى أيامنا بدل الفلاى توكس .

تلبثت مع غلامين من أهل البيت المجاور لمسكن أماليا فانوتشى ، وقد أطلت علينا سيدات الأسرة يستغيبن الصغيرين فأشار الأكبر وكان فى مثل سنى ، إلى الصاحب الجديد ، وأمرت كبيرتهن أن يصعدا ومعهما الغلام الذى كان أنا . وكعادة السيدات أخذن يسألن عن اسمى واسم أبى وصنعته وأين أسكن وبأى مدرسة أتعلم . واصطفتنى الأسرة ، وغالبيتها سيدات وبنات كابن من أبنائها .

وكانت الأسرة ، تبعاً لسماحة الطبع المصرى ، قد اصطفت أسرة فانوتشى تجىء كل مولد ، وتقطن المنزل المجاور ، فكانت أماليا واحدة من بناتها . وأصبح سطوح البيت ملتقانا نحن الصبية والبنات ، فى التبات والنبات . . كما يعلم العارفون بالأمور .

وجاء لقاء الغلام بضبية السيرك سابقاً على النظرة والابتسامة والسلام ،

كما جاءت القبلات فى وضعها الصحيح من عالم البراءة والطهر .

وأصيب الصبى ليلتها بحمى ، أشبه بدور الملاريا ، فلم ينم إلا قرب الفجر غير مصدق لما جرى فوق السطوح بينه وبين تلك التى كان يراها أمسية كل خميس بالمايوه الأبيض ، والبلوزة المرصعة بالكلفة ، والشعر الفاحم مجموعاً فى « بندور » وخصلات لولبية . وكلوبات الرتينة تنشر أضواءها الفضية على الأذرعة الطويلة البضة ، والجيد الجميل ، والوجه الأقمر .

والموسيقى النحاسية تعزف لحناً على إيقاع عرفته فيما بعد باسم إيقاع الفالس ثم تسكت فجأة عندما تتأهب ليزافانونتشى للقفز على اللوحة المقامة مثل قب الميزان على كرسى هرمى الشكل فى وسطها (والأصح أنه على صورة منشور هندسى) وهنا ينقر ضارب الطبل العسكرى الصغير نقرات سريعة تثير التأهب فى رهبة ، لطيران أماليا فى الهواء ، عندما تهبط أختها ليزا على طرف اللوحة المرفوع . وتدور أمامنا فى الهواء سشقلباظاً واحداً لتنزل واقفة على كتفى أخيها ، المشعلق فوق كاهل السنيور فانونتشى . وفى المرة الثانية تتشقلب أماليا فى الهواء دورتين ، لتنتهى واقفة على كتفى الأب وحده ..

وتنطلق الموسيقى بلحن المارش الحماسى يغطيه تصفيق المئات الجالسين على ألواح خشبية باستدارة الصيوان ، فيما يعرف بأعلى التياترو . وقد يفزع غلام من نومه فيسقط من مقعده إلى الخلف أو الأمام ، وتصفيق البكوات والسيدات فى اللوج المواجه للوج الموسيقى ، وغلمان المدارس بالدرجة الأولى حول الحلبة (بقرشين صاغ)

وبعد نمرة آل فانونتشى ، كانت أماليا وليزا تدوران حول الحلبة ، وتصعدان إلى اللوج لتبيعا صور الأسرة مجتمعة ، بملابس البهلوانات ، وصورة الأختين ، تستند كل منهما إلى الأخرى فى تكوين فنى .

وهذه هى الصورة التى لم يحتفظ بها الغلام العاشق طويلا ، لأن الشيخ ش ضبطها فى كراسة التطبيق ، أو كتاب « الفوائد الفكرية » ، فاستولى

عليها ، وأخرجنى لأقف ووجهى إلى الحائط .. بين خريطتى آسيا وإفريقيا.

واستمرت العلاقة طوال بقاء السيرك الوطنى فى الحى ، حباً عفيفاً بين التلميذ الصغير وصبية السيرك ، وتواعدا على اللقاء فى المولد المقبل ، إن شاء الله .

وانتقل الغلام إلى الفرقة الأعلى ، فى أول القائمة ، وحل موعد المولد ، وعادت أسرة فانوتشى مع السيرك كالعادة . وهنا خبر الصبى حقيقة من حقائق الحياة والفسيولوجيا ، لم يفسرها إلا بعد سنوات من تلك الوقائع ، وهى أن الفتاة تنمو مبكرة عن الصبى . فقد عادت أماليا إلى جيرانها شخصية جديدة نامية ، و « رسب » التلميذ ، غلاماً . . متخلفاً .

كانت أماليا مؤدبة معى ، ذلك الأدب الأوربى البارد كالثلج . وكان الواضح من حديثها أنها تنظر من عليائها ، وقد اكتملت أنوثتها ، إلى صبى تقدم من لعبة العصفورة . . إلى لعبة الكورة .

بعد أعوام طويلة ، وكنت فى أوربا حدثتنى زميلة سويسرية عما لاحظته فى مدرستها الابتدائية بزوريخ أو بال — وكانت مدرسة مختلطة — من أن البنات متقدمات جنسياً على الغلمان . فى حصة « الكاتشزم » وهو درس الدين يلقن عن طريق الأسئلة والأجوبة ، كان المدرس يسأل الفصل سؤالا من الإنجيل :

— ماذا فعل سيدنا زكريا وزوجته اليصابات ليرزقهما الرب بطفل فى شيخوختهما ؟ وكانت الإجابة التى يرددها الفصل كله : كانا يصليان !

تقول زميلتى السويسرية : كان الشطر المذكر من الفصل يردد الجملة التقليدية بجدية وإيمان .

. أما الشطر المؤنث فكان يردد الكلمتين : كانا يصليان . . ثم تتضاحك الفتيات فى أكمامهن . أما إذا أدار المدرس ظهره . . فهات يا كر !

٢٣

كشك الموسيقى

لا أدرى إن كان كشك الموسيقى قائماً أم راح فى خطوط التنظيم . فحديقة الأزبكية ، التى حلت فى تاريخنا الحديث محل بركة الأزبكية ، والتى أنشأها ونظمها فى أواخر حكم إسماعيل ، مسيو باريبه ، مدير حدائق باريس ، شلفطتها حاجات العمران وازدحام حركة المرور ، وكان قضاؤها أمراً مقضياً ، تلك الحديقة التى عرفناها فى أخريات أيامها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال ، فندور فيها نقضم أطرافها ، وننتف ريشها ، ونقتلع أشجارها ، حتى انتهت إلى أشلاء خضراء وسط خضم من السيارات والأتوبيسات .

نعود بالذاكرة إلى بضع سنوات عندما بدأت مصلحة التنظيم القديمة تتحدث عن إزالة سور الحديقة العالى ، واستبداله بسور قليل الارتفاع ، وعندما ألغت رسم الدخول . ولم أك فى ذلك الزمان البعيد أدرك بعد سبل تحايل المصالح العامة على الرأى العام ، فحملت تلك الإجراءات على محمل من الديموقراطية التى لا تكلف الإقطاع وحكوماته إلا قليلا . ثم نسمع بعد هذا حديث فتح ممر ، أو متنفس لحركة المرور ، ويختفى بالطبع نتيجة لهذا أشهر باب للحديقة ، وهو الباب الغربى .

وتحل الطامة الكبرى عندما تقترح إحدى مصالح الحكومة إقامة بناء لها وسط الحديقة . وكانت تلك ضربة المعلم ، « نوكاوت » للحديقة التاريخية . وعندما تتجه إلى ميدان الخازندار ، أرجو أن لا يفوتك تقديم فروض الإعجاب بذلك البناء الشامخ الذى وضع حديقة الأزبكية فى جيبه الخلفى ، وهو واحد من أبنية ثلاثة أو أربعة تحسب عندنا من قبيل ناطحات السحاب ، ولو أن البناء الذى أشير إليه لم ينطح سوى الحديقة العجوز ، فخرت تحت أقدامه صريعة .

ومع ذلك فلا أكتب هذا لأبكى على الطلل البالى ، بين الدخول فحومل . فليس ثمة أطلال والحمد لله، بل عمارات شاهقة وجادات فسيحة، وخضرة سقيمة هنا وهناك ، وأشجار شائخة تنفلق عن أرصفة ، وتظلل محطات «نقل عام» إلى كل الجهات . وتمثال وطنى عظيم يبدو دائخاً وسط هذه الحركة الدائبة التى نجحت فى أن تصيب بالدوار نصباً من البرونز .

إنما أكتب عن كشك حديقة الأزبكية قبيل ثورة سنة ١٩ ، وفى السنوات التى تلتها مباشرة .

عرفت طفولتنا ومراهقتنا طريق الحديقة الشعرية فى عصارى أيام الجمع ، بسبب ما يقدم بالكشك من موسيقات عسكرية . ولم نكن نسميها كذلك ، لأن الفصحى لم تكن بدأت زحفها بعد على لغتنا البلدية . فكنا نسميها « المزيكة الميرى » ، وهى تسمية غنية بالمعانى الخفية : من أنها شىء مهندم فخم ، بالنسبة لفرق الموسيقات الأهلية ، من مزيكة حسب الله أفندى ، ونازلا .

وكان حول الكشك المستدير — أو الجوسق الدائرى ، بتعبير أبلغ وأدق — عدد من الكراسى تؤجر بثمن زهيد ، لهواة الاستماع . ومن لا يحتكم منا على دفتر شيكات ، كان يكتفى بالدوران حول الكراسى ، أو الوقوف خلف آخر صفوفها ، ليستمع إلى أدوار « يا طالع السعد » و « العفو يا سيد الملاح » ، و « محمد لابس سيفه » ، وقد حولها موسيقيون لا شك فى براعتهم وقدرتهم ، من أدوار غناء التخت ، إلى الآلات النحاسية والخشبية ، دون أن يعبأوا بما فى أصولها من ثلاث أو أرباع النغمات . ويمكن القول بأن تلك الموسيقات بططت أسماعنا الشرقية الرقيقة ، وعودتنا فى سن باكر على نغمات صريحة لا تعرف إلا المقام الكامل ونصفه ، هل تعرف أنت مثلا أن العشرة خردة هى ربع المليم ؟

كان الصول عامر غزال ، قائد الفرقة العسكرية ، حائراً لاحترامنا وحبنا ، عندما يعزف المؤلفات المذكورة وأشباهها . أما حين تتخلل البرنامج مقطوعات « إفرنجية » ، فقد كنا نحس ببعض القلق ، فعدم الانسجام ، ونعزو هذا لغرابة تلك الموسيقى على أسماعنا ، ومالها من ضجيج ودربكة .

إلى أن اكتشفنا فيما بعد السبب الحقيقى ، وهو ضعف الأداء لموسيقى تتطلب دقة متناهية فى عزفها ، حسب اختلاف الخطوط اللحنية بين شتى آلات الفرقة . وعلمنا بالصدفة أن فرقة بريطانية تحتل الكشك عصر الأحد ، ولم يكن يضيرنا كثيراً أن نستمع إلى موسيقى المحتل ، فاحتلال كشك بالنسبة لاحتلال بلد بأكمله ، لا أظنه كان ينكأ جرحنا ، لا سيما وأن الجوقة البريطانية كانت ترضانا فى ختام حفلاتها بعزف السلام المصرى ، أو السلام الوطنى ـ وكان هذا اسمه من قديم ولم يعرف بغيره إلا بعد أن أوغلت الرجعية فى حياتنا ، وسيطرت الملكية على أقدارنا .

الفرقة التى كنا نذهب لسماعها عصر كل أحد كانت « الولش باند » وكانت ـ وأظنها ما برحت ـ من أحسن موسيقات الجيش البريطانى . ومرد ذلك إلى أن شعب بلاد الغال (ويلز) أكثر شعوب الجزر البريطانية موسيقية ، بطبيعة نشأته ، وتبعاً لتقاليده العريقة فى الغناء الفولكلورى أفراداً وجماعة ، والعزف على الصنج الولشى (الغالى) القديم .

وأمام فرقة ويلز هذه أدركنا لأول مرة معنى القيادة الموسيقية ، فلم تكن مجرد تهويش بعصا ، يبدو للناظر كأن القائد يؤمن على ما يجرى من عزف ، ولا يقوده .

كان قائد فرقة الغال يجلس موسيقييه فى دائرة تستند إلى الحاجز ، ويقف هو بأعلى الدرج الذى يرقى إلى أرض الكشك . وصوت الآلات واضح الرنين ، وآلات تكف عن العزف هنيهة ، ثم تدخل بدورها

كرجل واحد ، ولكل مجموعة من الآلات ألحان تميزها عن ألحان المجموعة الأخرى . واللحن الواحد تداوله الآلات فيكتسب من كل آ لة لوناً جديداً. ويتشابك كل هذا دون إخلال أو هرجلة ، وفى توافق لحنى تألفه الأذن الشرقية بعد فترة بسيطة ، دون أن تعرف اسمه (وهو الهارمونيا) . ثم أنت تحس بأن نجاح النظام معقود كله بطرف عصاة القائد فى يده اليمنى ، وحركات ذراعه ويده اليسرى . العصاة منتظمة الحركة كبندول الساعة ، إلا حين يريد لها إبطاء أو تعجلا يتطلبه الأداء ، واليد اليسرى تتكفل بشيء آخر غير رتابة الإيقاع ، فهى التى تتحكم فى التعبير الوجدانى ، ما بين أصوات تهمس همس العاشقين وسط الليل ، وبين جهورة قد تبلغ هزيم العاصفة ، وقصف الرعود .

تعلمنا حول كشك حديقة الأزبكية بعض مبادئ الموسيقى المتطورة وأساليبها ، أى مقدار ما يدركه المرء بحسه ، وملاحظته المباشرة ، بعينه وأذنه ، والسماع أهم ، لولا أن النظر كان يطالع فى حركات قائد « الولش باند » كثيراً مما يجرى فى الموسيقى . كانت حركاته جميلة فى تناسقها ، كأنها حركات الباليه ، معبرة فى إيضاحاتها .

وانفجرت ثورة ١٩ ذات صباح من مارس ، فتوقف العزف وطارت الفرق الموسيقية كلها . ولا أذكر متى عادت الحياة إلى كشك الموسيقى — إن كانت عادت ! — فقد شببت عن الطوق ، وعرفت طريقى إلى الحفلات السمفونية بقاعتى الكورسال وسينما كليير ، يقود الأولى إدجاردو برنومى الإيطالى ، والثانية ميشيل بولياكين الروسى .

إنما كنت أشاهد الكشك الخالى ، إلا من أطفال تلهو ، كلما جلست إلى قهوة « سانتى » التى تواجهه ، وهى القهوة التى لم نكن نجسر كغلمان الاقتراب من درجها ، فهى مرتاد الكبار ، أى من هم أكبر منا سناً ، لأن حكاية الثراء والوجاهة لم تدخل فى حساب توجسنا من الاقتراب . الكبار

فى صغرنا كانوا يمثلون السيطرة علينا فى كل صورها: فى البيت والمدرسة... وحديقة الأزبكية .

وتحول كشك الحديقة ، عقب هدوء المياه السطحية للثورة ، إلى ما يذكرنا بقاعة النقابات فى الدول الاشتراكية . ثورة ١٩ كانت فى ظاهرها وباطنها حركة ضد المحتل ، ثم تكشفت عن باطن أبعد غوراً . كانت أيضاً حركة تحول اجتماعى كبير . بدأت فى شكل تجمعات مهنية تطالب بحقوقها من شركات الاحتكار التى كانت تسيطر على كثير من مرافق البلاد . طالع صحف ذلك الزمان ، لتعجب كيف أصبح لكشك حديقة الأزبكية «أجندة» بالاجتماعات التى تجرى حوله كل يوم:

عمال الترام ، عمال شركة الغاز والكهرباء ، شركة المياه ، التليفونات ، عمال الكنس والرش ، جرسونات قهاوى عماد الدين ، عمال الوفورات العاطلون ، شركات السجاير .

هؤلاء وغيرهم من ساقطى الكفاءة ، إلى مستخدمى الدرجة الثامنة نظام قديم . ومن عاملات ورش الخياطة إلى المطالبات بالسفور ، ومن أرباب المعاشات إلى أرباب السوابق . وسكان العطوف للاحتجاج على قذارة حيهم ، وسكان الحارات المطلة على الإسطبلات الملكية ببولاق للشكوى من رائحة البهائم . إلخ . . . .

هؤلاء أو أولئك مدعوون للاجتماع يوم السبت ، أو الأحد ، أو الاثنين إلخ ١٢ منه ، بجوار كشك حديقة الأزبكية للتداول فى شئونهم ، أو للمطالبة بكذا وكذا ، أو للاحتجاج على كذا .

ولم يكن للبوليس من تدخل أكثر من ترتيب تسلسل هذه الاجتماعات ، والمحافظة على النظام فيها وحولها .

صفحة من تاريخ التطور الاجتماعى فى أول العشرينات تكشف عن تحول الثورة ضد المحتل ، إلى المطالبة بالحقوق المهضومة . وأتساءل

اليوم ، والشك ينهب قلبي ، أكانت ماكيافيلية الاحتلال هى التى توصى بغض النظر عن تلك الحركات الشعبية ، كى تصرف الناس عن الاهتمام بقضية البلاد الأولى ؟ إذا كان هذا حدث حقاً ، فقد فوت الطلبة على المحتل غرضه لأن الطلبة لم ينفكوا فى سنة ١٩ ، وفى العشرينات والثلاثينات ، والأربعينات عن مطاردة الغاصب ، ومحاربة عملائه .

ومع ذلك ، فإن حقائق تاريخنا القومى فى الثلاثين سنة التى أعقبت ثورة ١٩ ، وفى السنوات العشر التى مضت على ثورة٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . كشفت لنا عن أمور لم تكن ندركها تماماً فى فجر شبابنا ، وهو أنه لا الجلاء ، ولا الاستقلال بغاية فى ذاتها بل هما أول الطريق نحو التحرر من ربقة الاستغلال فى الداخل ومن الخارج على السواء .

وكذلك حديقة الأزبكية يقوم فى مخيلتى رمزاً لهذه الحقيقة التى تجلت اليوم واضحة لكل ذى عينين ، ويحس بها كل ذى قلب ينبض بحب أم الحضارات .

ناظر المدرسة الحديثة

مدرسة أهليه ، بالمجان ، لم تكن تتلقى إعانة من وزارة المعارف ، ولا من جمعية خيرية . ليس فيها تخت ولا سبورات ولا طباشير ، وإن كان لها ناظر وضابط وقلفة ــ أى تلميذ أول . مات القلفة ــ محمود طاهر لاشين ، رائد القصة المصرية ، وذهب الضابط ــ أندريا غبريال . وأخيراً مضى إلى عالم الغيب ناظرها ــ أحمد خيرى سعيد ، لا أدرى متى ، وفى أى مكان حتى كتابة هذه السطور . كل ما أعرفه أن يحيى حقى كتب يرثيه أخيراً فى صحيفة « المساء » ، ولم أطالع مرثيته بعد .

لم يكن للمدرسة الحديثة مقر معلوم ولا أساتذة ، ولا سجل بأسماء

تلاميذها : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل » .

كانوا يجتمعون فى كهف ترقى إليه بدرجات خمس أو ست . على ركن شارعى قنطرة الدكة وعماد الدين ، يحمل اسماً له خطورته فى التاريخ الحديث : « قهوة راديوم » حيث اجتمع عزيز عيد ويوسف وهبى ومختار عثمان يؤلفون فرقة رمسيس الأولى . ثم فى قهوة الفن المشهورة بجوار مسرح رمسيس . وعند صالح الشربتلى بباب الخلق ، أو فى قهوة الكلوب المصرى بسيدنا الحسين ، فى ليالى رمضان ، وفى مسمط بشارع محمد على فى بعض ليالى الشتاء . . ولكن مآبهم وخلوتهم . . وتكيتهم مندرة محمود طاهر لاشين بحارة حُسْنِى .

يذهبون شلة إلى كازينو دى بارى بقنطرة الدكة يناصرون محمد تيمور وسيد درويش فى « العشرة الطيبة » ، وإلى تياترو برنتانيا يؤازرون سيد درويش فى « شهر زاد » أو إلى كورسال دلبانى يشاهدون باليه « أنا بافلوفا » ، أو يستمعون للحفلات السيمفونية ولعزف كبار العازفين ، حيث يجلسون أو يقفون فيما كان يعرف بالمنتزه « البرومنوار » . أو يتشعلقون فى أعلى التياترو بالأوبرا — فيما كانوا يعرفونه بالسماء السابعة ، قبل أن يسمعوا بأن هذا المكان الرفيع اسمه عند الفرنسيين « الجنة » — ليشاهدوا ويسمعوا الفرق الغنائية التى وفدت على مصر بعد الحرب العالمية الأولى .

لم يطلقوا على جماعتهم اسم « المدرسة الحديثة » تزعماً ولا تحدياً وادعاء ، بل تندراً وسخرية بأنفسهم وبتعاليمهم الثائرة . فهم مدرسة السخرية بالحياة البرجوازية الرتيبة . اشتراكيون دون انضواء تحت لواء ، يتابعون أخبار ثورة لينين فى سنواتها الأولى ، وليس فيهم شيوعى واحد ، إنما كده ! حباً فى الثورات . . لله فى لله !

ناظرهم الأول والأخير : أحمد خيرى سعيد ، عاد من فلسطين حيث عمل طبيباً عسكرياً لفرقة العمال المصريين المصاحبة لجيش اللنبى ، وقد اعتملت فى نفسه ثورة عارمة على المحتلين المغتصبين وما صنعوا بأهلنا الفقراء فى الطريق إلى بير سبع وبيت المقدس . ولم يعد لدراسة الطب ، بل انضم إلى صحافة « الحزب الوطنى » مؤمناً بمبادئه .

التلميذ الأول كان أكبرنا مقاماً : محمود طاهر لاشين ، المهندس بمصلحة التنظيم على سن ورمح . وأصغرنا سناً وأشدنا طيشاً ، طلاب بالمدارس العليا خرجوا من ثورة ١٩ ينشدون الحرية فى كل شىء فعرفوها ممثلة فى شخصية أحمد خيرى سعيد .

مخلصون لما كانوا يسمونه « المثل العليا » فى الفن والأدب . يطالعون ويناقشون الأدب الروسى العظيم قبل الثورة البلشفية ، ويبحثون عبثاً عما جاءت به تلك الثورة من أدب جديد ، ثم ينصرفون إلى الآداب اليونانية القديمة والإنجليزية والفرنسية والألمانية ، إلا واحد منهم — حسن محمود — أضاف إلى كل هذا اطلاعاً فى الأدب الإيطالى بلغته ، ودراسة لحياة البابوات ، والموسيقيين العظماء ، وممارسة للموسيقى الغربية . كلهم نشأوا على معرفة قويمة بأدبهم العربى ، ينادون بتجديد أنماطه وقوالبه ، مع الاحتفاظ بسلامة اللغة ، وإن ذهب بعضهم إلى المطالبة بالتحرر من قيود الفصحى فى الرواية العصرية ، أو على الأقل فى لغة الحوار . كتب فريق منهم شعراً « حديثاً » ، وعالج فريق آخر الشعر المنثور — أو النثر المشعور فى لغة المدرسة الحديثة — ثم تحرروا جميعاً من ربقة الشعر المنظوم والمنثور سوياً .

مجهولون مجهلون ، ينزعون فى انطلاق فكر عجيب نحو التجديد فى شتى مناحى الحياة المصرية ، وينفعلون بتاريخ بلادهم كله : فرعونياً ، وقبطياً ، وإسلامياً .

يشنون حملات للإصلاح فى صحف هزيلة متروية ، وكأنهم كياشط (جمع كيشوط) يحاربون عمالقة فى صورة طواحين هواء . كأن يحملوا على استعراضات نجيب الريحانى وأمين صدقى الفرانكو – آراب مما كانوا يعتبرونه ابتذالا غير جدير بأمة ناهضة – مثلما يفعل ثاثرو اليوم بالأغنية وفن الأغنية . ويسخر منهم الريحانى سخرية العملاق الخرافى فى أساطير اسكندنافيا : يهوى عليه كبير الآلهة « أودين » بمطرقة الرعود والبروق ، فإذا العملاق يصحو من غفوته وهو يحسب أن ورقة ذابلة من أوراق الشجر تساقطت على يافوخه . . فحسب !

أما أمين صدقى فقد جاء بثلاثة فتوات ومضى بهم إلى كعبة الفن على رصيف شارع عماد الدين ، وأشار إلى ناظر المدرسة ، وقيل بأنه لمس كتفه بيده ، ومضى إلى حال سبيله ، وإذا الفتوات ينهالون ضرباً على المدرسة الحديثة كلها وضيوفها . ويطير طربوش الناظر وتخطف عصاه .. وتتحطم نظارة هاوى الأدب الإيطالى ، ويضيع منه نص موسيقى ثمين وديوان دانتى . أما ضابط المدرسة فقد زاغ زوغاناً بحجة تأمين ظهر ضيوف المدرسة المتقهقرين . وهكذا تلقت المدرسة الحديثة درساً فى . . أدب الحوار .

ثم يفكر الناظر بأن قد حان الوقت لإنشاء صحيفة تتكلم باسم المدرسة الحديثة فكانت جريدة « الفجر . . صحيفة الهدم والبناء » : ورقة واحدة تطوى إلى أربع صفحات ، الله ما يوريك ! ينشر فيها الأعضاء نقدهم وشطحاتهم ليطالعوها وبضع عشرة أو عشرين من معارفهم الأقربين.

ويفكر الناظر بأن من رفعة مقام الصحيفة أن تكون لها مطبعتها الخاصة . ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، فيشترون بفلوس مهندس التنظيم من سوق العصر وما إليه ، مجموعة حروف يستأجرون لها شيالا يحملها على لوح عجين ، ويسيرون وراءها يشيعونها حتى مثواها الأخير ،

وقرارها المكين . . بمندرة محمود طاهر لاشين . . .

وافترقت عنهم لأسافر بعيداً فى غربة طويلة . ولكن طاهر يوافينى بأخبار المدرسة « العتيدة » فى رسائل أرجو أن أعثر عليها يوماً لأنشرها صورة من أغرب صور التحرر والتطور فى عشرينات هذا القرن .

أحمد خيرى سعيد كان ناظر المدرسة الحديثة دون منازع : أخذنا عنه قلة الأدب ، وعدم الاكتراث بمقامات الناس ، والعنف فى النقاش ، والزعيق فى المجادلة والتشويح بالأيدى والرأس والأرجل ونحن نتكلم . لا نحترم ميعاداً يضرب ، ولا نلوم إنساناً يخلف ميعاداً . الوحيد الذى يملك ساعة فينا ، كان المهندس طاهر لاشين : ساعة ذهبية تلقاها هدية من سلطان الزمان ، بحكم أوليته لمدرسة المهندسخانة .

لا نعترف بوسائل المواصلات ، تراماً كان أم أتوبوساً سيره لأول مرة بشوارع القاهرة سيد ياسين . يسكن ناظرنا بالعباسية ولكنه يعود إلى منزله هناك . . عن طريق السيدة زينب ليوصلنا إلى منازلنا ثم تأبى علينا المروءة — أو قل جدة المناقشة — إلا أن نؤوب إلى منازلنا بالسيدة . . عن طريق العباسية ، لنوصل خيرى سعيد إلى المنزل العامر ، وقد قارب الليل نهايته ، وما الصبح ببعيد !

نطالع الملاحم الكبرى ، بادئين فيها بهوميروس ، ومارين بالشاهنامة ، ومنتهين إلى « الفردوس المفقود » . نحب ونحترم محمد السباعى عقلا ولغة وشخصية . ونطالع مجلة « البيان » ثم يذهب بنا طاهر لاشين لنجتمع بصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، وقد جلس مع صديقه الحميم محمد السباعى بمقهى فى المواردى ، لا نعرف له اسماً غير ما كناه به طاهر لاشين : « بار العفار » .

ونقرأ بلزاك وديكنز وتولستوى وفلوبير والملحق الأدبى لجريدة « التايمز » ومجلة « جون أو لندن » و « الأثينيوم » و « نيشن » لنعود إلى

تشيخوف وموباسان . ونهاجم أساتذة الجيل الكبار . . دون أن نقرأ لهم شيئاً ، وهم لا يحسون بوجودنا .

ونطلق على بعض أعضاء المدرسة الحديثة كنيات من اختراع خيرى أو طاهر : كأن نسمي واحداً منهم « الجنيص » لأنه ينطق كلمة عبقرى الإنجليزية دون تعطيش الجيم ، ويأتى إلينا « الجنيص » بأديب نحيف هفتان ، فنسميه « المنيص » ، ويؤلف طاهر قصته على لسان الحيوان يبدأها بقوله « يحكى أن جنيصاً ومنيصاً تشاركا فى المعيشة . . » .

وكان الجنيص أملس جلد الرأس ، لا شعرة فيه توحد الله ، شبه الشاعر رأسه بـ « باتيناج القمل » — بتشديد الميم . فإذا انضم إلى المدرسة أديب جديد حقت عليه الجنيصة ، فهو « الجنيص أبو شعر » . أو فنان غير هفتان جدير بالمنيصة ، سميناه « المنيص أبو كرش » . ونعتاد كلنا على هذه الكنيات حتى ليصبح أصحابها فصيلة بعينها ، يفتقدهم الناظر فى المجلس فيسأل : الله ! هما الجنايص راحوا فين الليلة ؟

وزميل كان يعجب بالكاتب بول بورجيه وتحليلاته الدقيقة للشخصيات — إبراهيم المصرى — فإذا الاسم « الحركى » للزميل : المحلل النفسانى . ولزميل آخر «ذعر» ، لاستعماله كلمات عنيفة فى نقده ، كأن يقول عن العمل العظيم أو الحقير إنه يثير فى نفسه « الذعر » .

وكان العضو « زكى » يلبس نظارة « قرص أنف » (ترجمة بانس نيه) تخر واحدة من عويناتها ماثلة على خده تحت ثقل سلسلتها الجانبية — الأوستيك — ويحرص على الكلام بالفصحى مع قلقلة القاف وتعطيش الجيم ، فنسميه — وهو أفندى — « الشيخ زيكو » . ويدعونا الشيخ زيكو لأكلة عاشوراء فى منزله ، وهو بيت عتيد تطلع سلمه المظلم ، يضيئه فانوس متهالك ، يتدلى فى بير السلم من حبل عتيق علقت به استلاكتيت التراب والوحل والقرف . ينظر خيرى إلى الفانوس ويقول : هو ده

الأسانسير يا شيخ زيكو ؟ فيرد طاهر لا شين من آخر الصف الطالع على السلم ، وكأنه يخاطب نفسه : « دا باين عطلان » .

جلسنا نأكل العاشوراء بطنف منزل الشيخ زيكو ، على ضوء القمر . وبعد أن أتينا عليها ، اكتشفنا أنها لم تكن محوجة بالياميش فحسب ، بل اتخذ أعشاشه فيها نمل كثير. ومنذ تلك الليلة وضع لنا ناظر المدرسة تقويما جديداً . . يبدأ بليلة « العاشورة أم نمل ! » .

وقفت المدرسة صفاً فى منتصف الليل على ضوء « كلوب » بياع البليلة . ويكتشف أحد تلاميذها — وكان أيضاً مفتش صحة القسم — حشرة صغيرة حمراء فى سلطانية . وينفجر أعضاء المدرسة ضحكاً على زميلهم مفتش الصحة الذى زعم بأنه سيسكع بائع البليلة محضراً . ويقول طاهر لاشين للبياع أنت بتقنى صراصير يا عم ؟ ويؤكد خيرى سعيد بأن الرجل « بانى لهم غية فى السطوح » ، وإذا البياع يخطف السلطانية من يد مفتش الصحة ، ويأتى على ما فيها بحركة واحدة وهو يقول : صراصير إيه يا عم صل عالنبى !

ويمضى أعضاء المدرسة الحديثة فى طريقهم من السيدة إلى العباسية — وبياع البليلة فى عابدين — يفلسفون الحادث ، ويتساءلون عما للنمل والصراصير وما لهم فيقول العضو البرهمانى — أحد شوقى حسن ، وفى المدرسة فيلسوف عبرانى أيضاً ، هو شالوم — بأنها أرواح أدباء تناسخت وتحاول الانتقام من المدرسة الحديثة . فيبادر طاهر بالقول : زى فتوات أمين صدقى ، فاكر يا خيرى ؟

ويرد خيرى سعيد : يا سلام يا عزيزى ، بالك انت لو ما كانش معاهم شوم ؟

— كنت يعنى حاتعمل إيه يا سى خيرى ؟

— أقنعهم يا عزيزى بفساد المسرح الاستعراضى الفرانكو — آراب .

بالك انت ، حانفضل وراء الملاعين دول لغاية ما يقفلوا المسارح دى .
يا عزيزى ، دى مسألة أخلاق . . أخلاق البلد ، أمال إيه !

* * *

كلا ، لست أرثى ناظر مدرستى أحمد خيرى سعيد ، فروحه الساخر يتقمص تلاميذ مدرسته ، وتلاميذ تلاميذ مدرسته : كلّ الساخرين الثائرين . لقد علمتنا المدارس الأميرية اللياقة والنظام والطاعة والانصياع ، والمواربة وخداع النفس . وعلمنا أحمد خيرى سعيد الصراحة ، وتجنب الادعاء والحنشصة ، والثورة على كل تقليد بال ، وتحطيم الأصنام مهما ارتفعت هاماتها ، وعلت قواعدها .

درس خيرى سعيد الطب ، فآمن حتى آخر حياته بالعلم ، لا غنى عنه فى رأيه لأديب ولا الفنان .

« السيانس يا عزيزى . . ! » يكفى أن تسمعه يبدأ هكذا لتحس أنه فى هذه المرة الواحدة الوحيدة ، جاد كل الجد . فإن كان خيرى قد سخر بكل شيء وكل فكر وكل إنسان ، فإننى لا أذكر مرة واحدة أنه سخر بالعلم . كانت للعلم عنده قداسة خاصة — وما أعجبها كلمة تقال بصدد أحمد خيرى سعيد ! — وقد خدم العلم طوال حياته العملية : مترجماً فنياً بهيئة الصحة العالمية ، وكاتباً ، وصحفياً ، ومفكراً حراً .

شيكسبير فى خان جعفر

من أعياد الحضارة التى شهدتها فى حياتى احتفال العالم سنة ١٩٢٧ بمضى مائة عام على وفاة شادى الإنسانية الأكبر لودفيج فان بيتهوفن ، وها هو ذا العالم يحتفى بذكرى مولد وليم شكسبير (١٥٦٤) .

أذكر فجأة احتفال مدرستى عام ١٩١٤ بذكرى مرور خمسين وثلاثمائة عام على مولد شاعر الإنسانية الأكبر . كان احتفالا صغيراً ،

تم فى مكتبة المدرسة السعيدية بالجيزة. تداول فيه أساتذتنا التحدث إلينا عن ابن ستراتفورد أون إيفون . وألقى واحد من أساتذة اللغة الإنجليزية منولوجاً لا أتذكر من أية رواية كان ، والغالب أنه لم يخرج عن منولوج « الكينونة واللاكينونة » لهملت ، أو مونولوج ماكبث وهو يتأهب للغدر بضيفه الملك دنكان ويتخيل رؤية خنجر دام : « أهذا خنجر بمقبضه يلوح لى ؟ أنلنى منك ما تنضم عليه الأنامل ، تفر منى وما أنفك أراك ألا ينال منك الملمس ، مثلما يراك البصر ؟ »

ولم يمض عامان علينا فى المدرسة حتى كنا نؤلف جمعية التمثيل تقدم نماذج من نشاطها أمام الناظر والأساتذة والتلاميذ، ولأذكرن كأنه بالأمس الزملاء الذين شاركوا فى تقديم حفل خاص بشيكسبير . ليس من حقى فيما أظن أن أبوح بأسمائهم وقد برزوا فى الحياة علماء وأطباء ووزراء .

عرضت على ناظرنا الأجنبى برنامج الحفل ، وكان بعضه بلغة شكسبير ، فطلب منى نسختى لمأساتى هملت وماكبث وأشر على بعض فقرات مما اعتزمنا إلقاءه ، أمر بحذفها . وكل متمرس بأسلوب شيكسبير يدرك معنى الرقابة التربوية علينا فى تلك السن الباكرة .

زميل ألقى منولوج ماكبث عن الخنجر ، وزميل آخر لعب دور كبير الممثلين فى الجوقة التى يدعوها أمير الدانمارك لتمثل أمام عمه القاتل . ولعبت أنا دور هملت فى الديالوج بينه وبين الممثلين فى أول لقائه بهم . وهو من المناظر المحذوفة فى ترجمة خليل مطران ، وقد اكتشفت وأنا أراجع الترجمة تواً أن الخليل لابد قد نقل عن ترجمة فرنسية مقتضبة مشوهة الغالب أنها من الترجمات التى تختزل مناظر من الرواية إعداداً لتمثيلها ، وهذا أمر بالغ الخطورة ، يضاف إلى الهنات التى أخذها الزميل الدكتور لويس عوض على ترجمات خليل مطران لشكسبير .

على أنه لا ترجمة شاعر القطرين ، ولا حفل ذكرى مرور ٣٥٠ عاماً

على مولد شكسبير بمكتبة المدرسة الثانوية ، كانت أول صلة بين مراهقتنا وبين الشاعر الإنجليزى ، إنما جاءت تلك الصلة عن طريق ترجمات أقدم لنجيب الحداد أو أخيه، كانت عجيبة العجائب . وأحسبها نقلت عن نصوص « الليبريتو » التى وضعت لتلحين الأوبرات نقلها الحداد نثراً وشعراً ، ليلحنها الشيخ سلامة حجازى .

ولم أشاهد تمثيلها فى أول أمرى على مسرح الشيخ سلامة وإنما فى مسارح أحيائنا الوطنية ممن درجوا على تقليد جوقة الشيخ ، من أمثال عبد الحميد عزمى ، وعبد العزيز الجاهلى .

أى أننا لم نعرف شكسبير على حقيقته فى ذلك الزمان إلا عندما تمكنا من مطالعته فى الأصل ، وهأنذا أكتشف حتى فى ترجمة المطران لرواية « هملت » حذفاً واقتضاباً وتبويباً عجيباً .

ولم يكن هذا فى الحق سوى صورة من ضروب التشوية والمسخ التى أجريت على أعمال شكسبير فى أمكنة أخرى من العالم . ويذكر المطلعون على تاريخ الأدب الإنجليزى ما أجراه الممثل دافيد جاريك فى القرن الثامن عشر من تعديلات عند إخراجه لتمثيليات شكسبير . وهذه لا تقارن بالاعتداءات الكثيرة على نصوص شكسبير فى القرن السابع عشر ، بل هى قليلة بالنسبة لما جرى فى الترجمات الفرنسية والألمانية الأولى .

عرفت شكسبير أول ما عرفت فى تلك التلفيقات النثر — شعرية لنجيب الحداد، وفى تخشيبات أو شوادر . وأذكر هملت طفولتى بسترته السوداء ، وسيقانه مغلفة بمايوه أسود وقبعته مطرزة بالخرز الأسود ، وريشة سوداء . أذكره ينغم شعراً سخيفاً يقول فيه «عم خؤون وأم لا وفاء لها»

وكلمة خؤون هذه كانت من أولى جواهرى اللغوية ، كما كان شبح أبى هملت أول أدواتى كمؤلف مسرحى ، هو والمبارزة بين هملت ولايرتس .

فلا غرابة فى أن أستعمل الثلاثة فى الفصل الأول من تمثيليتى الأولى . . والأخيرة ، ألفتها ولما أبلغ الثانية عشرة . تبدأ من الباب للطاق بمناقشة عنيفة بين شخصين ، ينعت أحدهما الآخر ، لسبب نسيته بقوله « خسئت يا خؤون » ثم يسحب سيفه للمبارزة — أو « البراز » كما تعلمنا من مسارح الماوردى والبغالة وخان جعفر بسيدنا الحسين .

وقبل أن أختم الفصل الأول قام نزاع بين الصحاب الذين اتفقوا على تمثيل روايتى فى مندرتهم ، لسبب بسيط وهو أن أحد المتبارزين أردى زميله وهو يقول « مت يا خؤون ، يجرعك سيفى كأس المنون » فاحتج صاحب الدور على خاتمة دوره القصير وقال : ماذا أصنع بعد هذا؟ أليس فى الإمكان الإبقاء على ولو إلى آخر الفصل ؟

— لا عليك يا محمود ، فإنك البطل الذى تدور حول مقتله حوادث الرواية .

— وماذا تعنينى أن تدور ، ودورى قد انتهى قبل أن أتهنا بالملابس التى أفصلها خصيصاً للدور ؟

— إنك لا تفهمنى ، دورك مستمر لبقية الرواية ، سيكلفك عرضاً من البفتة تتلفع به . إنك الشبح الذى يطارد جميع أشخاص روايتى على مدار فصولها الخمسة .

وهذه قصة شبيهة بما حدث لفاجنر فى صغره عندما ألف مأساة قتل فيها جميع أشخاص الرواية فى الفصل قبل الأخير واضطر إلى « تشغيل » أشباحهم ليتم روايته .

هملت وشبح أبى هملت ومبارزة هملت ولايرتس ، تلك كانت وقائع مسرحيات طفولتنا ، نرصعها بكلمات : خؤون ، مقدام ، كأس المنون ، أو كأس الحمام .

إذ كيف أنسى الشبح وقد تسربل بثوب من البفتة « بفتة هندى ، بفتة هندى شاش عريض يا بنات ! » وسلط نور الكلوب على وجهه فبرقت عيناه وهو يردد فى صوت رهيب : ها م م م ليىىىت .

وهملت يغنى بعد أن يعرف بمأساة أبيه وزواج أمه من عمه : « عم خؤون وأم لا وفاء لها » .

أو ينشد :

أبتى ! أين أنت تنظر ما تم　　صار عرساً ذاك الذى كان مأتم
وغدت بعدك المآتم أفرا　　حاً وذاك الثغر الحزين تبسم

ويمكن لمن مارس الشعر التقليدى أن يستجمع بقية القوافى مقدماً فى : أم ، عم ، هم ، دم ، عندم ، مندم إلخ ، وهى قافية ميسورة بالرغم مما يبدو لأول وهلة .

وربما كانت « هملت » أكثر روايات شكسبير التى رأيتها تمثل على المسرح أو فى السينما : عبد الحميد عزمى ، عبد العزيز الجاهلى ، الشيخ سلامة ، عبد العزيز خليل ، الملقن شلبى ، الإيطاليان زاكونى ، وروجيرو روجيرى ، الألمانى مويسى ، البريطانى أوليفييه ، ثم ذلك الممثل الأيرلندى الذى نسيت اسمه ، مع فرقة دبلن جيت ، على مسرح أوبرا القاهرة .

ولم أسمع ولا مرة واحدة « آمليتو » شخصية الأوبرا ، ولكنى سمعت مرات « أوتللو » فيردى ، كما رأيتها فى الترجمة الملفقة ، يمثل عطيل رجل اسمه مختار ضخم الصوت ، واسع العينين ، عريض المنكبين ، وخرجت من الرواية أسخم وجهى برماد الورق المحروق وأصرخ فى المرآة : ديدمونة المنديل ، أين المنديل .

أما « روميو وجوليت » فكان اسمها فى مسارح طفولتنا « شهداء الغرام » وفيها يغنى الشيخ « يا غزالا صاد قلبى » و « سلى النجوم أيا جوليت

عن مهرى » – أو هى شارلوت ؟ لا أدرى – ويبكى موت جوليت بقصيدة « سلام على حسن يد الموت لم تكن » وفيها يقطع نياط قلوب الحريم المشاهدات وراء ستائر الدانتلا ، بغنائه « أجوليت ما هذا السكوت إلخ »

ورأيت جورج أبيض فى بعض دور « هملت » . كان ذلك خلال تمثيله دور « الممثل كين » فى رواية ألكسندر دوماس. وفى واحد من فصولها يقوم كين بتمثيل المنظر المؤلم بين هملت وأمه ، وهو يؤنبها على فعلتها ويقارن بين صورة أبيه وعمه . . وهنا يلاحظ كين أن الوصى على عرش إنجلترا يغازل الفتاة الأرستقراطية ، حبيبة كين ، فيترك التمثيل ويتجه إلى حافة المسرح ويصرخ محتجاً على الوصى ثم ينعت نفسه بالمسخ كين ، والمهرج كين ، ويقع من طوله مغشياً عليه يقيس خشبة المسرح .

هذا ما كان من أمر الممثل كين مع غريمه الوصى على عرش إنجلترا.

ولكنى رأيت – فى مصر – من كان يمثل دور عطيل ، وشاهد فى الكواليس زميلا له يغازل ديدمونة زوجته فى التمثيل وكانت زوجته فى الحياة ، فغادر المسرح وهجم على غريمه الذى قفز من الكواليس إلى الشارع ، والمغربى الأسود يطارده فى دروب الأزبكية حيث كانت دار التمثيل العربى .

كل ذلك رأيته صبياً قبل الحرب الأولى وفى خلالها . ولما وضعت الحرب أوزارها كان المسرح قد اتخذ مظهره الجاد ، وترجم مطران « ماكبث » ومثلها جورج أبيض ، ومعه عبد الرحمن رشدى فى دور « ماكدوف » . وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الفرقة القومية قد أنشئت ، وترجم مطران « هملت » و « تاجر البندقية » ، وأخرج زكى طليمات هذه الأخيرة إخراجاً ما زال ماثلا فى الأذهان ، ومثل دور « شايلوك » وكان من أحسن أدواره وأعظمها .

وبالرغم من تطورات المسرح عندنا فقد بقيت لنا آثار المسرح العتيق الذى ورثناه عن سارة برنار وكوكلان ولوسيان جيترى ، ثم سيلفان ، ولوبارجى ، فى طريقة الإلقاء المتأنق المفتعل والشهيق والزفير . . والشخير ، مع تشطير الهواء بالأذرع كل تشطير ، والزعيق بصوت المرحوم أحمد فهيم يقول : ويل لملك النمسا من قلب الأسد ، بل ويل لعسكره إذا لعب هذا السيف فى اليد !

يقول المخرج البريطانى بيتر بروك عن ترجمة شكسبير فى أوربا القرن الماضى بأنه كان العصر الذهبى لترجمات شكسبير . مثلا فى ألمانيا ، أول ما يتلقى الصبى شعر شكسبير كان فى ترجمة شليجل – تيك ، وهى ترجمة مغرقة فى الرومانتيكية ، أشبه بالمنظر الذى صوره فوزيلى لحر روايات شكسبير وشخوصه ، أى أن الشعوب الأوربية فى القرن التاسع عشر عرفت شكسبير كما لو فرضنا أن قد عرفه الشعب البريطانى لا فى أصله بل – على سبيل الفرض – فى ترجمة بيرون لهاملت ، وشيللى للملك لير ، وكيتس لروميو وجوليت .

وأقول بأن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كان العصر الصفيحى لتراجم شكسبير إلى العربية : ماذا يهم ؟ هل أضعفت تلك الترجمات من قوة شكسبير الدرامية ؟ ألم تترك فى طفولتنا أثراً لا يمحى حتى إذا ما بلغنا الحلم ، رحنا نطالعه فى لغته مثنى وثلاث ورباع ، وها نحن أولاء نتهيأ للعودة إليه ، ومطالعته فى سياقه التاريخى ، بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور أربعمائة عام على مولده . ولن نجد بنا حاجة إلى الحواشى والهوامش أو التوقف بمفردات ألفاظه القديمة . ماذا يهم ؟ ألا تكفينا موسيقى شعر شكسبير وصوره الفتانة الرائعات ونبض الحياة التى تعيشها شخصيات صناجة الإنجليز ؟

٤٢

يقدم رجلا ويؤخر أخرى

وقف مدرس اللغة يشرح أمام الفصل صورة من صور البلاغة ، لم تكن بحاجة إلى شرح ، وهي صورة الحائر المتردد أو الخائف المتوجس ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

قدم المدرس رجلا .. فعلا ، ثم أخر الأخرى ، فإذا البرجل (- الفرجار من فضلك) ينفرج . ولكن الأستاذ يفسر نظراتنا المتعجبة على أساس أننا لم نفهم .. فيقدم الرجل التي تقدمت ، ويؤخر التي تأخرت ، والبرجل يزيد انفراجاً حتى فقد المحترم توازنه ، وافترش أرضية سنة ثانية فصل رابع . ومن سوء حظ حضرته أنه لم يكن قد تلقى دروساً في الباليه ، وإلا لجاء تزحلقه نظامياً ، وانتهى إلى ساق ممدودة إلى الأمام ، وساق ممدة إلى الخلف ، وقد جلس على جذعه ، مثلما تفعل راقصة الباليه ، في الكباريه .

أما سيدنا فقد انهار كالبناء المشمخر في الإعصار ، عندما تزلزل الأرض زلزالها .

وهرول تلاميذ الصف الأول ليأخذوا بيد أستاذنا الفاضل ، وكنا نحب إصراره على شرح الغامض بحركات جسمه ويديه ورجليه ، من قبيل التسالي والترفيه .

ولم يهرول تلميذ واحد من تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية لينقذ ضابط المدرسة من وحلته وسط الحوش عندما تزحلق في يوم مطير ، وقاس الأرض بطوله .. أو بقصره ، فقد كان ربعة القوام مقبباً كالوسادة جيدة الحشو ، سليط اللسان حريصاً على النظام ، وصكنا بالأقلام أمام طابور التلاميذ مصطفين كالأصنام .

كان الضابط ـــ برغم كرهنا له ـــ أجدر بأن يأخذ أحد بيديه ليقيله من عثاره . لأن زكى أفندى كانت له طريقة فى لبس البلطو ـــ وكان ينطق « البنطو » لخنافة فى أنفه المستدير كالبرميل ـــ زادت من خطورة زحلقته . كان بسلامته يلبس المعطف على طريقة الفنانين فى مطالع القرن ، أى دون أن يدخل ذراعيه فى كميه . وكان بنطو زكى أفندى من اللون المشمشى المسخسخ ، يماثن لون الصحراء ولكنه يتعارض تماماً ولون طين البرك التى استحال إليها فناء المدرسة فى يوم شتاء ، ربما كان فى آخر العشر سنين الأولى من هذا القرن . .

وخوفاً من أن يطير البلطو ، أو يتزاح عن كتفيه فى اليوم العاصف ، زرر زكى أفندى بطريقة مجهولة لنا ، بعض أزراره فتحول ضابط مدرستنا فى معطفه إلى . . زكيبة بطربوش ، وتصور أنه بعدما نادى على طوابير المدرسة « صغادن ـــ مارش » وارتقى التلاميذ الدرج إلى قاعات الدرس وخلا الفناء ، تزحلق وطار طربوشه فى الهواء ، وانبطح على مقعدته فى الوحل ، وهو لا يملك لذراعيه حراكاً ، فاستعاض عنهما بحركات رجليه فى الهواء ، كمن يدير بسكليت فى خياله .

ولم ير الورطة ، أو المحنة ، أو الفصل المضحك ، سوى بعض ساقة الطوابير ، فلم يتحرك واحد منهم لنجدة ضابطهم الهمام ، حتى ولا « القلفة » بسيونى ، الذى لم يتمالك من الضحك على « الأسد المرعب » وماصنعت به عدالة السماء ، إذ حولته إلى صرصار مقلوب على ظهره فى الوحل .

وصاح زكى أفندى فى بسيونى بصوت زاده الزكام خنافة ، وهو يكاد يطرشق من الغضب :

ـــ وكماد بتلحك يا بسيودى !

* * *

ما رأيك فى أول هذه القصيدة وأنا أستعرض أيام دراستى الأولى

صدقني لقد بدأتها بعزيمة جادة ، وفي ذهني محاولة الإجابة عن سؤال خطير : هل ربينا تربية سياسية في مدارسنا ، نحن أبناء ما قبل الحرب العظمى الأولى ؟

لا ، قطعاً ، في المدارس « الأميرية » .

وأي نعم ، بالمدارس الأهلية .

فقد قضيت عاماً من أعوام المرحلة الأولى بالمدرسة التحضيرية الكبرى بأول درب الجماميز ، وكانت مدرسة أهلية يديرها وطني غيور ، رجل أسمر البشرة جميل التقاطيع ، أنيق البزة ، خطيب مدره ! انتهى نهاية الوطنيين المجاهدين . . في غيابات السجون ، محكوماً عليه من المحاكم العسكرية البريطانية في ثورة ١٩ .

بالمدرسة التحضيرية الكبرى استمعنا إلى الخطب الحماسية من الناظر ومعاونيه وعرفنا من أساتذتنا بعض سيرة الاحتلال وكفاح الحزب الوطني ، وسمعنا كلاماً مفهوماً ، وغير مفهوم ، عن الجلاء ، وعن شيء اسمه الدستور ، وخرجنا من المدرسة في موكب طويل إلى مقبرة مصطفى كامل كان ذلك ولا شك في ذكرى وفاة الزعيم الكبير ، لأن خطبة ناظرنا الأسمر قبل المسير لم تكن بكاء ولا رثاء ، بل كانت تثير الهمم القعساء ، وتنادي بالجهاد والفداء .

وما إن انتقلت إلى المدرسة الأميرية بشارع مراسينة حتى نزل ستار « البلاك أوت » علينا . فلا كلام في السياسة ، ولا ذكر للصحف . وكانت هذه من الممنوعات ، مثلما كانت السجائر في المرحلة الثانوية ، عندما كان ضباطها يتعقبون المدخنين من الفصول العليا ، في أركان حوش المدرسة السعيدية ويتشممون ككلاب الصيد ، حول الأدبخانات .

وللدخان والسجائر في مدرستنا الابتدائية ذكرى لا تهفو ، عندما كبس الناظر واحداً من أساتذتنا في حصة العصر ، وكان قد فرش صندوق

الدخان ، ودفتر ورق السجائر فوق منصة الأستاذية ، وإلى جانب هذا وذاك العصية التى كان يضربنا بها ضرب عشواء . فلم تك لديه من الحصافة ما وهب الله زملاءه ، كمدرس الحساب مثلا ، الذى يضرب بالمسطرة ، ومدرس الجغرافيا الذى يضرب بالبرجل الخشبي الكبير . . أى بأدوات دراسية . . بريئة ، وإن كانت لهم فيها مآرب أخرى . ومدرس الحساب كان من النوع « السادى » الهادى ، و« ياما تحت الساهي دواهي » . يطلب إلى التلميذ فى لطف وأدب جم أن يمد يده ، وأن يضم أصابعها إلى أعلى فيما يشبه حركة « شوية شوية» ثم ينزل بعرض المسطرة على أطراف الأصابع بضربات سريعة متلاحقة . وقد قبض على ذراع التلميذ البليد ، بيد من حديد .

و « السادية » عند الأستاذ كانت واضحة فى ابتسامته الصفراء وهو يقول للواحد منا « اديني الكمثرى » لأن خياله المريض كان يصور له يد التلميذ المضمومة . . على هيئة الكمثرى .

فاجأ الناظر – وكن تركى السحنة واللكنة – أستاذنا ، وقد فرش فوق منصته مجموعة من المهربات البداجوجية : الدخان ، وورق السجائر ، والعصية التى هى من العصا . والحق أننا فى براءتنا لم نكن نعرف أن ذلك شيء محظور . . إلا عندما رأينا الأستاذ الفاضل يخطف تلك الأشياء ويخفيها كلها وراء ظهره وهو يقف وينزل عن المنصة ، وينادى : قيام سلام .

وقامت مناورة من نوع الكوميديا « الفارص » بين الناظر التركى قصير النظر ، وبين الأستاذ . . يتحرك فيها الناظر فى اتجاهات تسمح له – خلال عوينات سميكة ، ذات عريش يعترض ما بين حاجبيه – باختلاس نظرة ، يحقق فيها ما يخفى المدرس وراء ظهره . والأستاذ يتحرك حركة الأرض حول الشمس ، يواجه الناظر بصدره الرحب ، وشواربه

المملوكية سودها الخضاب ، وقد تدلت أطرافها على جانبي شفتيه ، كأنه جنكيزخان .

ما رأيك فى ذلك الأستاذ الذى كان يغرس فينا الفضائل ــ كالشجاعة والصراحة والصدق ــ لفظاً ومعنى ، لا عملا ؟

كانت الجرايد ممنوعة قطعاً فى مدارسنا الأميرية ، ولعل هذا يفسر تأخرى فى ممارسة مطالعتها حتى السنة الثانية الثانوية عندما نشبت الحرب العظمى بين دول الوسط ، وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا ، وانضمت تركيا إلى ألمانيا .

والأدهى فى مطاردة الصحف من حياتنا أن بعض مدرسى اللغة العربية كانوا يحذروننا من لغتها ، بحجة الركاكة ، وكان المدرس منهم يقدم للصفر ، وما تحت الصفر تقديراً لموضوعات الإنشاء ، قائلا : هذه لغة جرايد !

ولقد عثرت مؤخراً على كراسة لى من كراريس الإنشاء فى أول المرحلة الثانوية فخجلت من تفاهة أفكارها وسماجة أسلوبها التقليدى ، وموضوعاتها البعيدة عن الحياة وكل جميل فى الحياة . والتى كنا نحار فى استهلالها فلا نجد غير جملة « خلق الله الإنسان » ، ولا نعرف حيلة لإطالتها فى غير التكرار الممل ، والسجع المخل ، مخل بالمعنى ، مخل حتى ببناء الجملة ، وفى غير عبارات محفوظة « كخروج الرئبال ، من بين الأدغال » أو بيت شعر رث كفردة الجوراب القديم .

بل خجلت من تصويبات الأستاذ ، وهى تزاحم فى غثاثتها ، أسلوبى الغث ، وإن صدقت فى تصحيح حروف الجر ، أو اسم إن .

وخف وطء خجلى من نفسى عندما عثرت فى الكراسة على ما كان يمليه علينا الأستاذ بعنوان « نموذج للموضوع » . وآسف أن لا أجد الكراسة تحت يدى فى الحال ، لأنتقى من بين درر الأستاذ درة يكسف

لالاؤها وجه الشمس .

كنا بمنأى عن السياسة فى مدارسنا « الميرى » ، ربما كنا نتحدث فيها سراً ، ولكنى لا أذكر من تلك الأحاديث غير ما كان يقصه على زميل ابن وزير ، مما وقع بين الخديو وناظر نظاره ، وأدى ذلك إلى رفده (رفت ناظر النظار ، لا زميلى) .

أليس عجيباً من جيلنا الذى تربى فى قمقم « الميرى » وقضى مرحلته الثانوية تحت الأحكام العرفية البريطانية :

« أنا جون ماكسويل ، القائد العام لجيوش حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند ، آمر بما يأتى » . .

أقول : أليس عجيباً من جيلنا أن يتحرك حركة عارمة ذات صباح من مارس ١٩١٩ ويخرج إلى الطريق العام ، والمظاهرات والفدائية ، فلا يعود إلى معاهد العلم إلا بعد ضياع عام كامل من دراسته ومنا من لم يعد ، إما جرفته الحياة الحرة أو اغتالته المحاكم العسكرية ؟

هل نفسر ذلك بفعل الكبت ورَد الفعل ، أم هو الفارق الكبير بين «حبسة» المدارس الابتدائية والثانوية ، وبين حرية التصرف فى المدارس العالية؟

لماذا أسمح لنفسى بالتندر على بعض أساتذتى مع ما أكن لهم من حب وإجلال ؟ ثم ألم يكن لهم ولأساتذة اللغة العربية بالذات — فضل الفصاحة والدربة التى مكنت بعضنا من أن يصبح من أبلغ خطباء الثورة ، فى صحن الأزهر الشريف ؟

ربما كانت ظروفنا السياسية فى ثورة ١٩ هى التى قومت من أساليبنا ، وصرفتنا عن التمثل بالأشعار السخيفة والسجع ، إلى صدق التعبير ، وأصالة التفكير .

وللأسلوب والفكر ، وتطورهما عند أهل جيلى حكاية أخرى . . ربما عدت إليها .

عودة إلى كراسة الإنشاء

« إلى الشمال من مدينة الجيزة بين المدرسة السعيدية وضفة النيل الغربية حديقة غناء ، وروضة فيحاء هى حديقة الحيوان، كأنها من رياض الجنان أو سفينة نوح فيها من كل جنس : وجان . فثمة روح وريحان ، وأشجار ذات أفنان يجرى النسيم خلالها وكأنما غمرت فضول ردائها فى العنبر قد حنت على المتنزهين حنو المرضعات على البنين تقيهم لفحة الرمضاء ، وتصحح لهم فاسد الهواء .

وكل غصن بغصن صار معتنقاً مسرة كاعتناق اللام بالألف

فيها طيور تصدح ، وعجم تفصح و: رافى ونعام، وظباء بين الآكام كظباء مكة صيدهن حرام ، وأفيال كأسداف الظلام أو قطع الغمام . . إلخ » .

هذا نموذج الأستاذ فى وصف حديقة الحيوان للسنة الأولى بالمدرسة السعيدية الثانوية ، عام ١٩١٤ .

أما التلميذ فيقول ، متذكراً ما جاء فى كلام الأستاذ ، وهو يقرأ النموذج علينا قبل الشروع فى التحرير : « وأفيال كأسداف الظلام ، أو قطع الغمام . . تراه قصير الرقبة ، ولكن الله خصه بخرطوم طويل ، وأعطاه فى القوة (من ، بالحبر الأحمر) على خلع شجرة (صححت : وأعطاه من القوة الحظ الجزيل) ، وزرافى ونعام وقد طالت رقابها . فالزرافة يوضع لها الأكل فى سطح مسكنها العالى فتأكله بكل سهولة . . إلخ » .

ومن موضوعات ذلك العام الأول فى دراستى الثانوية « تأثير الأخلاق الفاضلة فى ارتقاء الأمة وسعادتها » . « أجل — يقول الأستاذ — فإن

الأمة التى ضربت فى مكارم الأخلاق بسهم لجديرة بأن تقبض على صولجان السعادة الحقة ، والمجد الشامخ ، والعزة القعساء ، والقوة العلياء والعدد العديد ، والشوك والحديد » . أما التلميذ فيبدأ موضوعه هكذا « تالله ما رأينا فرداً قد تحلىٰ بالفضيلة ، واتخذ منها ثوباً قشيباً ، إلا وهو محبوب عند كل الناس . »

وفى موضوع « مزايا الرفق بالحيوان » يبدأ التلميذ بالجملة التقليدية « خلق الله الإنسان » ، ونموذج الأستاذ « خلق الإنسان » .

التلميذ عن « الطيران ، وماضيه وحاضره ومستقبله » : فأول من فكر فى ذلك هو رجل من كبار علماء العرب بالأندلس يدعى العباس بن فرناس . . (الحكاية) « غير أنه لم يفكر قبل صعوده فى كيفية النزول »؟؟ « فحينما أراد أن ينزل لم يقدر فسقط على الأرض فتهشمت عظامه ، ومات أشنع موتة . . فلما قرأ الفرنسيون كتب العرب وعلموا ذلك اجتهدوا فى تقليد ذلك الاعرابى . . واخترعوا المناطيد سنة ١٨٣٥ . ولما علم الألمانيون بذلك اجتهدوا فى تحسين هذا النوع من الطيارة ، وجعله أقل خطارة ، فاخترعوا السفن الهوائية . . وكان الأميريكيون يجهدون فى عمل طيارات من نوع آخر ، وهى الطيارات الى نراها الآن . . فإن ابنى ريت اخترعوها وجعلوها (بالأحمر : فعل المثنى) تطير بالبنزين ، نوع من زيت الاستصباح ، وكانت فرنسا فى ذلك العهد تباهى بأنها أول من اخترع الطيارات فلما سمع ولبور ريت ذلك رحل من بلاد أميريكا إلى فرنسا سابحاً فى الجو ، ليرى فرنسا أنه المخترع لأحسن نوع فى الطيارات (غير صحيح ،لأن أول من عبر الأطلانطى من الغرب إلى الشرق كان لندبرج عام ١٩٢٧) . . ووفد إلى مصر هذا العام (١٩١٤) جماعة من ملوك الهواء ، جول فدرين وجاك بوييه والمسيو أوليفييه ، وسيفد الأسبوع الآتى طياران يلعبان ألعاباً بهلوانية فى الهواء .

« وللطيران فوائد كثيرة ، خصوصاً فى الحروب . . ولقد تحل محل السفن البخارية والوابورات البرية (بالأحمر : القطرات) فإن أحد الروسيين اخترع طيارة حملت عشرة رجال .

هو العلم يعلو بالحياة سعادة ويجعلها كالعلم محمودة العقبى »

وحاز التلميذ على سخفه هذا أكبر درجة طول عامه الدراسى : سبعة من عشرة ، كما حصل على درجة مماثلة عن موضوع « حديقة الحيوان » . أما موضوعاته الأخرى فيتراوح التقدير فيها بين خمسة وستة من عشرة ، ويوصف أغلبها بأمثال « ضعيف العبارة جداً » ، « ليس بشىء » وفى موضوع « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » توجت الأوصاف بقول الأستاذ « عبارة ركيكة » .

ومن موضوعات العام موضوع « فوائد المتاحف » لا تذكر فيه كلمة واحدة عن الجمال والفن ، والنقاط التى أملاها علينا الأستاذ تدور حول الدرس التاريخى العملى ، وعن المحاكاة والتقليد « إذ يرى الصناع تلك الآثار الدقيقة ، فلا يسعهم إلا محاكاتها ، من استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فهى المورد العذب يستسقى منه كل من رام رياً فى صناعته ، وإتقاناً جليلاً فى حرفته، ليحوز قصب السبق فى مضمار الصناعة» ولا كلمة عن الفن والجمال !

واضح من المقارنة السابقة بين ركاكة التلميذ وبلاغة الأستاذ ، أن ذلك الشبل من هذا الأسد : النبع واحد ، والهدف واحد ، هو محاولة رص كلام فارغ ، ولكن فى جزالة أسلوب ، وبلاغة تعبير !

وكانت مسألة حياة أو موت أن تتركز عنايتنا فى تجويد الأسلوب ، وصقله . فما إن بدأنا دراسة الأدب العربى حتى اندفع التلميذ يطالع أعلام هذا الأدب فى دواوينهم وخطبهم ورسائلهم ، وما أشك فى أن

أسلوبه سار على الدرب ، ومن سار على الدرب . . كما أعرف يقيناً أنه نظم على غرار الأعارب أبان حضارتهم العظمى .

ثم حدث أن اتسعت معارف التلميذ فى اللغة الأجنبية ، حتى استطاع أن يطالع القصص والقصائد المشهورة فى تلك اللغة ، ولم يكتف بما وضعت نظارة المعارف بين يديه من مجموعات شعرية بل اقتنى « الخزانة الذهبية » جمع پالجريف ، والتهم منتخباتها التهاماً ، بفهم ناقص ، يكمله تأثره بموسيقى الشعر وأوزانه .

وكلما تقدمت بنا الدراسة ، واتسع الاطلاع ، نضج الفهم ، فإذا بالأدب الأجنبي يجتذب التلميذ إليه بقوة . ولا غرابة فى هذا لأن الأدب الأجنبى الذى ألتى إليه يرتد إلى القرن السابع عشر ، وأغلبه من التاسع عشر ، فالقرن العشرين . بينما الأدب العربى يعبر عن مشاعر ويصور أفكار قرون غابرة ، ربما كان أقربها إلينا القرن الحادى عشر . والأمر هنا لا علاقة له بقومية أو وطنية ، فلغتنا هى العربية ، آمنا ، وكنوز العربية ما أروعها وأبلغها ، ولكنها تعبر عن وجدان أهل لنا بعيدين عنا جداً فى الزمان . فالفارق هنا ليس بين شعب وشعب ، بل هو فارق إدراك وإحساس ، وطريقة فى التعبير عن خوالج الإنسان ، أقرب إلينا فى الأدب الأوربى ، لمجرد تقارب الزمان الذى تعبر عنه .

هذا إلى أن بعض الآداب الأجنبية ، حتى ما كان أقدم كثيراً من الأدب العربى — كالأدب اليونانى — تعالج موضوعات إنسانية فى أسلوب درامى ، أو فى شعر ملحمى أى على أساس القصة أياً كان شكلها.

ولو أن أساتذتنا خرجوا قليلا عن أبواب الأدب العربى الصميم إلى فصول من الفلسفة أو التاريخ أو الطب ، أو العلوم العربية أو الرحلات ، لتمكنوا من تمهيد مجالات التعبير لنا ، مع توسيع مداركنا عن إنجازات الحضارة العربية الزاهرة .

أما أن نعقد على الأدب العربى وحده فى نثره ونظمه، فما أحب ذلك إلى روحنا القومى ، وما أحوجنا إليه فى تقويم لغتنا . ولكن من ذا الذى يقاوم أثر الأدب الأوربى عندما يطالع سويفت وميلتون وجونسون وماكولى وديكنز وثاكرى وتوماس هاردى ؟ وهل تحتوى آداب العالم على كثير يقف أمام درامات أسخيلوس وسوفوكليس وأوروبيدس وشكسبير ؟

كل هذه تفاصيل ، تزجنى فيها صراحتى وصدقى مع نفسى . المهم أننى تعلقت بالأدب العربى والأوربى ، منذ تحولت قراءاتنا من السخف الذى بدأت به هذا المقال ، إلى آداب اللغة العربية ونصوصها العظيمة ، ومنذ تقوت معارفنا فى اللغة الإنجليزية .

وكان لحب الأدب عامة فضل دفعى إلى تعلم اللغة الفرنسية وقد عز على أن تدرس تلك اللغة للقسم الأدبى ، ونحرم منها فى القسم العلمى ، فبدأت من الثالثة الثانوية أتلقى دروساً فى تلك اللغة بمدرسة عالمية مشهورة ما زالت بمكانها إلى اليوم ، وإن لم تحتفظ بمكانتها .

واشتهر أمر حبى للأدب بين زملائى بالقسم العلمى وأساتذى . وسألت أستاذ الإنجليزية إن كان ممكناً قبولى بمدرسة المعلمين العليا ، بالقسم الأدبى ، إذا ما حصلت على البكالوريا قسم علمى ، ونقل المدرس الخبر إلى الناظر الإنجليزى فاستدعانى مستر شارمان وتحدث إلى فى رفق ، لم نعهده فى مظهره العام ، وكان نوعاً من البعبع المرعب للمدرسة كلها . وأظهرنى على صعوبة قبولى بالقسم الأدبى بمدرسة المعلمين ، ثم طمأننى بأن هناك مشروعاً وشيك التنفيذ لإنشاء جامعة « ولا أظنك تلاقى صعوبة فى التقدم إلى كلية الآداب ، بشهادتك العلمية » ثم سلم إلى قصاصة من جريدة « الميل » أو « الجازيت » بها مقال عن مشروع إنشاء الجامعة الرسمية ، وكنا فى سنة ١٩١٧ نحضر للبكالوريا ، وهو المشروع الذى لم يخرج إلى النور إلا سنة ١٩٢٥ ، أى بعد انتهاء دراستى العالية بمدرسة

الطب المصرية .

والتغيير الذى حدث فى حياتى المدرسية منذ شغفت بالأدب (والفن ، ولهذا حكايات أخرى) جعلنى أنصرف عن الألعاب الرياضية وكنت عضواً بفريق الجمباز الأول بالمدرسة الابتدائية ، ولاعب كرة فى فرق الفصول ، وفى المدرسة السعيدية وقع الاختيار على لقيادة فصلى كاملا كفرقة جمباز ، وكان فصلى مؤهلا للمركز الأول فى مباراة العام بين الفصول.

وحدثت مأساة ، عندما قضيت فترة الفجر أعد قصيدة عن « الرفق بالحيوان » استغرقت كل وقتى حتى ميعاد الدروس ونسيت تماماً أن مباراة الجمباز لفرقتى كان ميعادها ذلك الصباح ، قبل بدء الدروس بنصف ساعة ، واستدعيت أمام الناظر ، الذى قابلنى بجفاء ، وسألنى عن سبب تخلفى ، فأجبته مختنق الصوت بأننى نسيت.وعوقبت أقسى عقوبة معروفة فى زماننا أنا الذى لم تبدر منى هفوة أعاقب عليها حتى أخف العقوبات ، طوال حياتى فى المدارس .

ولازمنى حب الاطلاع العام ، وممارسة الأدب ، إلى يومنا هذا . ومما ساعدنى على التوسع فى الاطلاع أن أستاذاً بمدرسة الطب ضمنى بدار الكتب ، وكانت تيسر الاستعارات الخارجية إلى أقصى حد . وما زلت أذكر صف الكتب الطويل على مكتبى مما كنت أستعيره من الدار . كما عرفت – فى مدرسة الطب – طريقى إلى الجامعة المصرية القديمة ، وكانت بميدان الأزهار ، فحضرت بعض دروس الفلسفة على الكونت دى جالارزا ، ودروس الأدب الفرنسى على مسيو كليمان (عن فلوبير ومدام بوفارى) والأدب الإنجليزى على من لا أذكر اسمه ، وإن ذكرت دروسه عن وردزورث. وكان لى حظ حضور محاضرة للدكتور طه حسين ، وأحسبها كانت محاضرته الأولى بعد عودته من فرنسا .. ولم يصدنى عن متابعة محاضراته الرائعة إلا ازدحام القاعة بالمستمعين

ازدحاماً شديداً .

ومما أعانني على تحرير أسلوبي من البلاغة التقليدية انكبابي على نوع من التمارين ، رسمتها لنفسي ، وهي أن أترجم عن الإنجليزية بعض القصائد المشهورة في « الخزانة الذهبية » ، وبعض مناظر من شكسبير (من هاملت ، وماكبث ، وعطيل) .

ودفعت بي هواية المسرح إلى مطالعة الأدب التمثيلي عند اليونان . ورواية « شاكونتالا » الهندية لكاليداسا ، كما دلني أستاذ اللغة الإنجليزية على إبسن وجيمس باري ، وبرنارد شو ، وأوسكار وايلد وميترلانك ، فاشتغلت بترجمة فصول من إبسن « روسمرسهولم » و « عدو الشعب » و « سيدة من البحر » .

وأعترف بالفضل كل الفضل لمحمد السباعي (ومجلة البيان) وصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، والمنفلوطي ، وأنطون الجميل (مجلة الزهور) على تطويع أسلوبي لتفكير العصر وأحاسيسه. وتعلقت بأدب جبران خليل جبران . إلا أن رجلا فاضلا حذرني لغته ، ولغة المهجريين كلهم . ومع ذلك فقد درجت على مطالعة كل ما كان يقع لي من كتاباتهم .

ولم أتعرف على الأدب الروسي حتى تلك اللحظة ، وقد تغلبت على في ذلك الزمان نزعة رومانتيكية حادة لم أتخلص منها إلا بشق النفس ، بفضل دراساتي الطبية ، ثم العلمية بعدها ، وبفضل مطالعة بلزاك وفلوبير والكتاب الروس .

وفي صبيحة يوم من شهر مارس ١٩١٩ ركبنا رءوسنا وهجرنا دروسنا لنخوض غمار ثورة « يحيا الوطن » و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وثورة ١٩ في جيلي هي نوع من مطالع التقاويم ، كما نؤرخ بالهجرة ، والميلاد . وأشهد لعام تلك الثورة بأننا نمونا فيه ، بما يعادل أعواماً من السنوات المعتادة في حياة كل غلام ، أو مراهق أو شاب .

ومع أن حقبتى الرومانتيكية استطالت إلى ما بعد ذلك العام ، إلا أن ما أحدثته تلك الثورة ضمن ما صنعته فى تكوينى هو أنها أخرجتنى عن فرديتى ووحدتى ، وأوصلتنى بناس من العالم الخارجى دلونى على طريق الأدب الروسى العظيم ، وهم المرحومان محمد رشيد وزوج أخته محمد تيمور ، والصديقان محمود تيمور وزكى طليمات ، وعن طريقهم عرفت زين شعراء الشباب أحمد رامى ، والثائر الأعظم المرحوم أحمد خيرى سعيد.

كانت لنا اجتماعات دورية فى بيت محمد رشيد يقرأ علينا فيها المرحوم محمد تيمور أطايب الأدب اليونانى القديم ، والأدب الروسى ، والأدب الفرنسى . ونذهب للاستماع إلى الموسيقى السمفونية بقاعتى الكورسال وسينما كليبر ، وحفلات الرباعيات وكبار العازفين. وكانت القاهرة فى أوائل العشرينات تملك اثنين من الأوركسترات الكبيرة ، ويمر بها العازفون العالميون زرافات ووحدانا .

وتولى محمد تيمور وأخوه محمود مجلة « السفور » زماناً . وفيها نشر محمود تيمور أول قصصه . وتولى أحمد خيرى سعيد مجلة « الشباب » وفى هاتين المجلتين نشرت ما قدر لى أن أكتبه منذ سنة ١٩١٩ حتى مطالع العشرينات (وعفا الله عما سلف !)

وبعد وفاة محمد تيمور تشتت شملنا ، وتألفت من المرحومين أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين ، وإبراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوقى حسن (مد الله فى أعمارهم) وفايق رياض وأندريا جابريل ، ما أطلقنا عليه تندراً وسخرية بنا عنوان « المدرسة الحديثة » التى انضم إليها يحيى حقى قبيل افتراقى عنها بسبب سفرى الطويل إلى فرنسا بالبعثة العلمية.

وأخرج لنا خيرى سعيد « الفجر » مجلة « الهدم والبناء » ، اشترينا لها مجموعة حروف ، حملناها إلى مندرة طاهر لاشين على ما يشبه ألواح العجين ، وهى فكرة عجيبة من أفكار خيرى سعيد : « يا عزيزى ما دام

الحروف معانا ، يبقى فاضل المطبعة ! » ونشرنا فى « الفجر » مقالاتنا وقصصنا ، كما خصصت مقالين لنقد أول كتاب ظهر للصديق القديم محمود تيمور ، أظنه كتاب « الشيخ جمعة وقصص أخرى » .

تلك حقبة جديرة بفصل خاص. إنما أردت أن أبين هنا الأدوار التى مررت بها — كواحد من أبناء جيلى ليس غير — والتى طورت تفكيرنا ومصادر ثقافتنا ، ودفعت بنا فى طريق كان جديداً طليعياً فى الأدب المصرى المعاصر .

كنا فى تلك الحقبة — أغلبنا — أبناء جى دى موباسان وبلزاك ودستويفسكى وتورجنيف وتشيخوف وتولستوى . وربما حقت علينا كلمة واحد من الروس العظام وأظنه دستويفسكى ، حين قال : كلنا خرجنا من « معطف » جوجل . .

هذه حقيقة أحب أن أذكرها : لم نخرج من توب « زينب » ولا من حديث « عيسى بن هشام » وإنما من ترجمات محمد السباعى ، والمنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، وأنطون الجميل ، والمازنى (صانين) ومن الأصول التى ترجم عنها أولئك ، وغيرها .

ويجدر بى أن لا أنسى مترجمى التمثيليات : فرح أنطون ، وإلياس فياض ، وخليل مطران .

حفظنا القرآن الكريم أطفالا ، فقوم ألسنتنا ، وأرهف حسنا بجمال العربية وروعتها . ونشئنا على الأدب العربى تنشئة طيبة مراهقين وشباباً .

ولكن تكويننا روحياً وعقلياً نما واكتمل فى دنيا الأدب الأوربى ، على قدر ما طالعنا منه فى اللغات التى نحسنها .

من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية

أول ما تعلمت من فك الخط كان كلمة سحرية ، أشبه « بسمسم » الكلمة التي نسيها من اقتحم الكنز في كهف علي بابا . لم أنسها ، ولكنها اختفت من كيان اللغة فلم يقدر لي أن ألقاها في حياتي مرة أخرى ، على كثرة ما طالعت من كتب العرب .

تلك كلمة « برّ » بضم الباء وتشديد الراء . وكان كتاب « التهجي والمطالعة » ذاك محلى بالصور . والكلمة الثانية فيه هي « بط » ، وفوقها رسم لذلك الحيوان « القنط » والثالثة « سن » ، وفوقها رسم عجيب لا يمكن لطفل أن يفهمه ، فلم يكن سن فيل ، أو سنة العروسة « يا شمس يا شموسة إلخ . . » ، بل كان الضرس الطبي الذي يضعه لك حكيم الأسنان . . في كباية .

حكى لي صديق كيف اعتمد أخوه الأصغر على الصور ، زاعماً أنه يفك الخط . فلما وصل إلى كلمة « سن » لم يتعرف على الضرس الطبي فطالع « بنطلونن» لأن الرسم كان أقرب إلى بنطلون منشور في الهواء.

والكلمة السحرية التي اختفت من اللغة ، منذ « استهجتها » في طفولتي إلى اليوم ، كان قد رسم فوقها ما لا شك في أنه عود « غلة » ، ومع هذا فما زلت أشك في أن كلمة «بُرّ»تعني قمحاً،وقد تعني واحداً من نباتات الحبوب ، وهي كثيرة ، كانت تعتبر « مغرزاً » في امتحان النبات العملي بجامعة باريس .

خمسة كتب استقرت في ذاكرتي مما قرر علينا في حصص المطالعة بالمرحلتين الدراسيتين : الفوائد الفكرية ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكليلة ودمنة ، وأدب الدنيا والدين .

ولقد تعجب حين تعلم أن أهم هذه الكتب عندى ، وأعمقها فائدة فى تكوينى العقلى والخلقى كان . . الفوائد الفكرية «من آثار المرحوم عبد الله باشا فكرى ، وتنقيح حضرتى عبد الجواد أفندى عبد المتعال ، وعبد الله أفندى الأنصارى وسيد أفندى محمد» ، ثم تصديق «صاحب الفضيلة حضرة الأستاذ الفاضل ، الشيخ حمزة فتح الله» .

وليس معنى هذا أننى أنتقص من قدر الكتب الأخرى ، حاشا وكلا ، ولكن الظاهرة المفزعة هى أن كل كتاب من الأربعة يمسك بخناقنا عاماً دراسياً كاملا ، ننام ونصحو عليه . وأن حصص المطالعة «المؤيد» تعيش فى ذاكرتى كالأرض الخراب ، يتردد فى بلقعها صوت الأستاذ وهو يلقى علينا نموذج القراءة بصوته المنغم المنوم .

خذ منها كتاباً عظيماً هو مستودع الحكمة الإنسانية القديمة فى أسلوب جزل سهل ممتنع : «كليلة ودمنة» . . ذلك كتاب من كتبى المفضلة إلى يومنا هذا . ولكنه ليس كتاباً يطالع من الجلدة للجلدة . إنه روضة حكم وأمثال ، تقلب صفحاته لتقرأ واقعة هنا ، ودرساً هناك فى السلوك الفردى أو الاجتماعى ، كتاب تتزود منه زاداً مقتصداً يجلو الفكر ، ويبعث على التأمل .

أما أن تصحو وتنام — فى حصة العصر — ويمضى الخريف والشتاء والربيع ، ويهل الصيف ، فلا تعرف حصة مطالعة بدونه ، فذلك نوع من العقاب المدرسى فيما يشبه «اكتب خطبة قس بن ساعدة خمسين مرة» ثم من يكون ابن المقفع هذا يلازمنا كر الأشهر ومر السنين ، بل ما هى تلك الكتب المثقلة بالحكم تكبس على نافوخنا العام تلو العام ، «الموسوقة» بالمواعظ وسقة سفن الصعيد بالقلل القناوى .

وماذا وجدت فى «الفوائد الفكرية» موضوع سخرية البداجوجيين ؟ اعلم حفظك الله ، أنه اسم على مسمى ، وأنه ليس أدباً ، ولا حذلقة

لغوية . إنه « مفيد » أولا ، يقدم للطفل شحنة طيبة من المعلومات الأساسية عن الأيام والشهور فى السنة العربية، والسنة القبطية، والسنة الإفرنجية « ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى للمسلمين يجتمعون به فى المساجد لأداء فريضة الجمعة، ويوم السبت هو العيد الأسبوعى لليهود يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم ، ويوم الأحد عيد النصارى الأسبوعى يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم أيضاً » . « والأيام الثلاثة بعد عيد الأضحى تسمى أيام التشريق وأيام منى ، وهى الأيام المعدودات المذكورة فى قوله تعالى : (واذكروا الله فى أيام معدودات) ، ويحرم صومها وصوم يومى العيدين » . « وفى شهر برمودة يدرك الفول ، وينعقد اللوز ، ويحصد الشعير والترمس والحلبة والقمح البدرى وأبو النوم ، ويزرع الأرز ، ويتوالد النخل . وفيه يجنى الورد المصرى لاستخراج مائه وتجمع الأزهار من أشجار الليمون والنارنج لاستخراج مائها أيضاً . وزهر النارنج هو أجود الأزهار وأعطرها . وفى هذا الشهر يكون أشهر أعياد النصارى المسمى بعيد الفصح ، واليوم الثانى منه هو المعروف بيوم شم النسيم ، وأول الأيام التى تسمى الخماسين » . ومعلومات عن مقاييس الأبعاد والأوزان والمكاييل ، وقيمة النقود المشهورة فى مصر : الجنيه المصرى والمجيدى والإنجليزى والمسكوبى و « الوينتو أو البنتو ، وهو عشرون فرنكاً ، ويساوى سبعة وسبعين قرشاً وستة فضة .. والقرش يساوى أربعين فضة أو أربعين بارة » . وقد عرفنا البارة فى طفولتنا باسم عشرة خردة !

وتجىء بعد المعلومات فصول فى الأخلاق : حب الله، محبة الأنبياء والمرسلين ، الأب الأم . . آداب الطفل مع أولاد حارته وأولاد مكتبه وغيرهم . . ولا يصح للولد أن يخبر أحداً بشىء من الأمور التى تقع فى بيته . . وعلى التلميذ إذا حفظ شيئاً من الدروس أن لا يكون مثل الببغاء . وينتهى الكتاب بفصل عظيم عن « محبة الوطن » : « . . إذا

عرفت ذلك وأردت أن تقوم بما عليك من خدمة الوطن العزيز يلزمك أن تبذل غاية اجتهادك فى التعلم وتحصيل العلوم والمعارف . . ومثل لوازم العسكرية التى هى ضرورية لحفظ البلاد من تعدى الأجانب عليها ، وتملكهم لها واستعبادهم لأهلها ، فإن الوطن إن تملكته حكومة أجنبية استذلت أهله واحتقرتهم وأضاعت حقوقهم . . ولا تظن أن ما ذكرناه من حب الوطن مقتضاه أن لا يفارق الإنسان منشأه ، ولا يخرج عنه إلى غيره ولو لمنفعة الوطن كما يعتقد بعض العوام القاصرة أفهامهم . . المحب لوطنه فى الحقيقة من يسعى فى مصلحته ومصلحة أهله ، ولو بالخروج إلى البلاد الأجنبية لتحصيل علم من العلوم ، أو تعلم صنعة ، أو تعاطى تجارة يجلب بها لبلاده ما تمس إليه الحاجة من حاصلات البلاد الخارجية وبضائعها وآثار فنونها وصنائعها . . إلخ » .

أسلوب واقعى مباشر ، لا تواليت فيه ولا زواق ، أسلوب علمى أطل علينا فى مطلع حياتنا . . ثم اختفى نهائياً ، وكان علينا أن ندرس الطب والعلم ، وأن نجتاز البحار والجبال والوهاد لنبلغه بعد عناء . إن صفحة واحدة من هذا الكتيب الساذج تساوى عندى كل خطب وفود العرب على كسرى . والأستاذ الذى لم يجد وصفاً لحديقة الحيوان إلا أن يتمثل ببيت : « وكل غصن بغصن صار معتنقاً ، مسرة ، كاعتناق اللام بالألف » كان كفيلا أن يفسد ذوقنا اللغوى فساداً لا أمل فى إصلاحه .

ولا عجب أن يؤدى الترمت والحكم والمواعظ وأدب الدنيا والدين — ذلك الغذاء الدسم المترف — إلى أن يحبب إلينا الفول والفلافل والبصارة والعدس ، قصص حمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة وعلى الزيبق المصرى ووقائعه مع دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة . كما انصرفت إلى كتب خرافات وأساطير بمكتبة والدى ، مثل الكتاب المنسوب لابن إياس « بدائع الزهور ووقائع الدهور » الذى يحكى خلق العالم وإقامة السموات

والأراضين وما فوقها وما تحتها ، أو كتاب « عجائب الهند » بره وبحره وجزائره » تأليف بزرك بن شهريار الناخداه .

وشهية القراءة تبعثها القراءة ، ومن تلك الكتب العجيبة كانت النقلة طبيعية إلى الترجمات الشامية لمغامرات روكامبول وأسرار باريس، واليهودى التائه ، وفانتوماس ، وأرسين لوبان .

وما يعتم الغلام حتى يتحول ، فى محاذاة نموه العقلى ، إلى الأدب العربى فيتروض فى « مروج الذهب » ، ويرتاد مجاهل « الأغانى » ، ويتحلى « بالعقد الفريد» ، و « الكامل المبرد » و « المحاسن والأضداد» ، و « المفضليات » و« ديوان الحماسة » وأمثال الميدانى ودواوين الشعر بشرح الزوزنى والشنقيطى .

وفى محاذاة فهمه للغات الأجنبية ، ينتقل إلى « الفرسان الثلاثة » و « الفيكونت دى براجلون » ، وغيرها من قصص دوماس التاريخى ووالتر سكوت ، و « البؤساء » و « نوتردام دى بارى » لفكتور هوجو ، ودون كيخوتى لثيرفانتس .

و هذا عدا الكتب العربية الحديثة كدواوين عبد الرحمن شكرى والعقاد خليل مطران وأحمد رامى والكاشف وأحمد محرم ، ورسالة طه حسين فى « ذكرى أبى العلاء » وكتب المنفلوطى كلها ، وترجمات محمد السباعى وأحمد حسن الزيات .

وكان لابد أن يحل الوقت الذى أنظم فيه مطالعاتى ، وأعانتنى على هذا التنظيم مكتبة « افريمان » وقائمتها المرتبة حسب الموضوعات ، وهى تحتوى على أعلام الكتب فى التاريخ والتراجم والقصص والأدب التمثيلى ، والرسائل الأدبية فى أهم اللغات . وكان الكتاب منها يباع مجلداً بسبعة قروش ونصف القرش ، لا غير .

وقررت علينا فى السنة النهائية بالمرحلة الثانوية قصة « حياة جيسون

وموته » ، من شعر وليام موريس ، و « قصة مدينتين » لتشارلس ديكنز . فأثارت فينا هذه القصة الأخيرة رغبة الاطلاع على أخبار الثورة الفرنسية . أما قصة « جيسون » فقد فتحت آفاقنا على عالم الأساطير اليونانية ، وقربتنا إلى « الأوذيسية » و « الإلياذة » . فقرأت هذه الأخيرة فى ترجمات الشاعر بوب ، واللورد داربى ، وسليمان البستانى . وقدمتنا الإلياذة إلى شعر الملاحم فطالعنا « الإنياذة » لفرجيل ، واللوزيادة لكاموينش ، و « الفردوس المفقود » لميلتون . وتعثرنا فى مطالعة « الكوميديا الإلهية » لدانتى .

وشجعت هواية التمثيل متابعتنا لأدب المسرح ، بدءا من اليونان فالكلاسيكيين الفرنسيين فشيكسبير ومارلو وبومنت وفلتشر ، وبن جونسون .

والأدب القصصى بعد قراءتنا فى المدرسة لاستيفنسون ، ورايدر هاجارد وأنطونى هوب وديفو وديكنز ، بدأناه من « توم جونز » لفيلدنج ، وانتهينا إلى توماس هاردى ، مارين بثاكرى واللورد ليتون وجورج إليوت ، وبنات برونتى .

آسف لهذا الإسراف فى السرد الممل وأرجو أن لا يؤخذ هذا على أنه استعراض أو تفاخر . إنما أحاول أن ألقى ضوءاً جانبياً على حياة جيلى فى سن المراهقة وما بعدها ، وعلاقته بالثقافة الأدبية . ولا أزعم أنى كنت أفهم كل ما أقرأ فهماً كاملا ، بل كنت أشبه بالسائح المتعجل ، يبهره ذلك العالم العجيب ، أبدعته عبقريات القرون . ولقد عدت إلى كثير من تلك الكتب فصححت آرائى فيها وعمقت فهمى لها .

لم أكن وحدى فى تلك الرحلات الذهنية الممتعة . فما إن عرفت الدنيا خارج المدرسة ، بعد ثورة ١٩ ، حتى وجدتنى أجتمع إلى رفاق ذكرت بعضهم فى الفصل الماضى ، مروا بتجارب مماثلة فى القراءة والاطلاع . ولقد ظفرت فى محمد رشيد بموسوعة اطلاع مدهشة فى الأدب والفن وكان رحمه الله يتقن اللغات العربية والإنجليزية والإسبانية والألمانية ،

وافترقنا وقد بدأ بتعلم الروسية . . إعجاباً بلينين .

كما عرفت فى حسن محمود إدراكاً عميقاً لعصر الإحياء الإيطالى . ولفن الموسيقى الأوربية . وعندما التقيت لأول مرة بالمستشار محمد طاهر راشد أدهشنى أن أجده منكباً على مطالعة . . كل بلزاك .

هل كانت لى محاولات أدبية خلال ذلك التحصيل الأهوج ؟ بضع قصائد لم أحتفظ — لحسن الحظ — بشىء منها ، وقصة طويلة نقلتها عن فيلم فى سينما أوليمبيا عنوانه « الحب والشرف ، أو الهارب من الجندية » تجرى وقائعه أيام نابليون . وعندما أتممتها أخذنى والدى إلى صاحب له من رجال الصحافة ، تصفحها . وفيما كنا نتداول فى أمر نشرها ، علمنا من أحد أعضاء شلة أبى بأن كاتباً سبقنى إلى نقل تلك الرواية عن السينما ، ونشرها .

إنما جاءت محاولاتى الأدبية الأصيلة ؟ ؟ بعد ثورة ١٩ واجتماعى بآل تيمور ، ثم بأعضاء المدرسة الحديثة . وقد بدأتها بأسلوب رومانتيكى عرف فى زماننا باسم الشعر المنثور ، وكان موضع سخرية صاخبة من مدرستنا الحديثة . وكان شالوم داود بن مسعودة فيلسوف تلك المدرسة ، وطبيبها المجلى ، يسمى ذلك الأسلوب المهجن « النثر المشعور » ، مما عجل بشفائى منه .

وما من شك فى أن المرحوم محمد تيمور هو الذى أثار فى أخيه محمود ، وفيمن حولهما الرغبة فى معالجة القصة القصيرة التى تخصص فيها وامتاز بها إلى اليوم صديقى محمود تيمور .

وإذ بدأت مرحلتى فى القصص بحكايات رومانتيكية ، تحمل بعض آثار جبران ، فقد أبللت من حمى المراهقة الأدبية ، وانتهيت بفضل تشيخوف إلى الواقعية مؤسسة على تجاربى المحدودة بقصر العينى ، وبشطحاتنا الفنية فى رمضان بحى الأزهر ، وجولاتنا الليلية فى أحياء

الملاهي البريئة وغيرها .

وفيما عدا قصة « السبع الحلاوة » ، وهي من ذكريات الطفولة ، وقصة « العنبر رقم .. » ، وصورة لأديب إسكندري أعجب بها في وقتها الأخ إبراهيم المصري ، فإن كل ما سودت من شعر ونثر في ذلك الزمان جدير كل الجدارة . . بالإهمال والنسيان .

ولقد ختمت حقبتي الشعرية سنة ١٩٢٢ بنص أوبرا « ليلة كليوبترا » على رواية قصيرة لتيوفيل جوتييه بهذا العنوان ، وقدمتها لمسرح الأزبكية « شركة مصر للتمثيل والسينما » ولحنها المرحوم داود حسني . وما أكثر ما يسألني الأصحاب عنها ، فأنكر وجودها ، ولكني واثق من أن نصها مدفون بين الكراسات والكتب في صندرة ما ، ولا أنوي أن أتشعبط على سلم وأعفر نفسي بحثاً عنها . . أهم ما فيها نوع من التحرر الشعري ، والتصرف بالتفاعيل تصرفاً يرسم للموسيقى طريقه إلى تلحينها . واستعدادي لهذا التحرر مرجعه إعجابي بشعر عبد الرحمن شكري ، ثم تمريناتي في ترجمة الشعر الأجنبي إلى شعر غير مؤسس على العروض العربي ، وإنما على إيقاع الشعر الإنجليزي . جربت ذلك في قصيدة «ليسيداس» لميلتون وبضعة أبيات من مرثية اللورد تنيسون لصديقه آرثر هلام ، وعنوانها « ان ميموريام » .

وآخر ما كتبت من شعر منثور كان رثائي للمرحوم محمد تيمور ، وقد نشر بالسفور فوق إمضائي بعنوان « مرسياس » ، واكتفت الصحيفة بكلمة « مرثية » تحت العنوان . وواضح من عنوانها أنها تقليد مراهق لقصيدة « ليسيداس » ، وقد حملتها إشارات كثيرة إلى الميتولوجيا اليونانية ، مثلما جاء في مرثية جون ميلتون .

هذه الصورة لجيلي تبدو مشوشة ، لأن حقيقتها كانت مشوشة ، ولن أرتكب خطأ الشيوخ فأزعم بأن كنا وكنا . نحن لم نكن شيئاً مذكوراً .

والفرق بين جيلنا والأجيال التى تلتنا يتلخص فى كلمة واحدة : « الجامعة المصرية » وكلية الآداب بها .

ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن ، حياتنا الذهنية والعاطفية مغامرات لا نظام فيها ولا قانون يحكمها . أما الأجيال التالية فقد وجدت فى الجامعة (كلية الآداب) من ينظم حياتها العقلية ، ويقنن لها .

وأقرب ما وصلنا إليه نحن فى اللغات القديمة كان . . جذور اليونانية واللاتينية وقد أفادتنا أعظم الفائدة فى دراستنا الطبية ، والعلمية ، فحسب .

بينما مهدت الجامعة المصرية لطلبتها ، وبخاصة فى سنواتها الأولى ، سبيل تحصيل الطلاب لغير قليل من تلك اللغات القديمة أساس الحضارة الغربية فى أهمها وأجملها . ولو قدر لى أن أعيد حياتى التربوية لما ترددت فى أن أبدأ بتعلم أربع لغات : العربية واليونانية واللاتينية . . . . . والموسيقى ، قبل أية لغة أخرى !

والخطأ الأول فى تعليمنا هو قلة ما كانت تسمح لنا المدارس بتحصيله . ما زلت أزعم أن العشر سنين الأولى فى حياة المصريين يذهب أكثرها ضحية لفلسفة البداجوجيين .

وما فتئت أنصح الشباب ، الذى يسألنى النصيحة : لقد ضيعت عليك المدارس فى عشر سنين من حياتك الكثير من مقومات العقل والوجدان . اجتهد فى أن تعوض ما فات .. فى العشر السنين المقبلة ، بل العشرين ، بل الثلاثين .

قصة شغفي بحضارتنا الأولى

يجرى قلم الكاتب بجملة تنم عن فكرة طارئة ومضت أثناء الكتابة ، يعبر عنها بصورة سريعة هو غير مدرك لأبعادها. مثال ذلك قولي في الفصل السابق « ما أشبهنا في شبابنا بقرصان الأدب والفن » لم أدر وأنا أضع تلك الصورة الكلامية أنني أسبر غوراً بعيداً في تكوين حياتنا العقلية والوجدانية. فالقرصنة هنا تعنى الخروج على القانون والنظام . وقد خرجنا حقاً على نظام تعليمنا . وقوانينه البداجوجية ، عندما غامرنا في معارج الأدب ، وركبنا عباب فنون لم تكن وزارة المعارف تعترف بها في ذلك الزمان البعيد ، بل كانت تعتبرها ، كالفراغ والجدة ، مفسدة للمرء أى مفسدة . . كالموسيقى والتمثيل والتصوير . ولقد حكيت في فصل سابق كيف مزق المدرس رسماً بالفحم على ورق الجزامون ، حاولت فيه نقل صورة من لوحة أو كتاب .

كنا نوعاً من الخوارج على تعليمنا عندما زهدنا في الأدب الصغير والكبير ، وأدب الدنيا والدين ، وما فيها من حكم ومواعظ ، ورحنا ننهل من آداب العالم عربية وغربية ، غثها وسمينها ، بقدر مداركنا ، وما حصلنا من لغتنا واللغات الأجنبية .

ولم تكن دروس التاريخ والجغرافيا في مرحلتنا الابتدائية، بخير من دروس اللغة العربية . فالجغرافيا ، تلك المادة الجذابة ، ومن أحب العلوم إلى نفوسنا في قابل الحياة ، نزلت بنا « كائنة » عظمى حتى كدت أسقط بسببها في الشهادة الابتدائية .

لأن المدرس لم يكن يعنى بأكثر مما يسميه شرح الدرس ، وهو لا يعدو تفسيراً قاصراً لما في الكتاب المقرر . فتركنا المدرسة الابتدائية

ونحن لا نعرف عن الجغرافيا إلا أنها أداة تعذيب تتألف من أنهار وحاصلات وبلدان ، تختلط بمعلومات عن الشمس والقمر والفصول ، والبحر والبر والجبال والرياح . وكما كان النحو قواعد تحفظ دون فهم لمنطقها الأساسى ، فقد كانت الجغرافيا معلومات مرصوصة لا أساس لها فى وعينا القاصر . ومصيبة هذا النوع من التعلم أنك ، إذ لا تفهم ، تلجأ إلى « الصم » وإذا أثقلت ذاكرتك بالحفظ الآلى ، جاءت إجابتك كالمشى على الصراط ، قد تعبر الهوة ، وقد تسقط فى الجحيم .

وربما بدا التاريخ أقرب منالا من الجغرافيا ، لما لهذه الأخيرة من حاجة ماسة إلى ألمعية الأستاذ وخبرته ، وإلى تموينه بالأدوات التعليمية الضرورية . وهذه لم تكن تتعدى فى مدرستنا بضع خرائط ، وكرة أرضية ماسحة . وهل توجد مادة أقرب إلى الأفهام من مادة التاريخ ؟ ومع ذلك فقد فجعنا فى مدارسنا الابتدائية بتاريخ للمصريين القدماء يصيب الولد بعقدة أو جرح نفسى « تروما » ، من ناحية أسلافه العظام ، عندما يقتصر التاريخ على سرد أسماء ملوك تنتظم فى أسرات ، أسماء كحجارة من سجيل ، لا حياة فيها . لأن الماضى ، وبخاصة الماضى السحيق . إنما يحيا بحضارته لا بحفظ أسماء ملوك ، وذكر وقائع ملفقة ، تختلط فيها خرافات هيرودوت ، بشذرات من « العهد القديم » .

وكان من حسن حظنا بالمدرسة الثانوية أن يصحح وعينا بالجغرافيا ، وفهمنا للتاريخ ، أساتذة ممتازون حقاً ، بشخصيتهم أولا ثم بما أكملوه فى خارج البلاد من تعليمهم .

بل كان لمدرسى الجغرافيا والتاريخ أثر عميق فى توعيتنا الثقافية من جراء عنايتهم بنا خارج قاعات الدرس ، فيما عرف بالجمعيات العلمية (النشاط المدرسى حالياً) . فقد كانوا ينظمون لنا الرحلات والمحاضرات لنتعرف على حقائق جغرافية وتاريخية ، لا علاقة لها دائماً بما تلقينا

أو نتلقى فى قاعات الدرس .

لا شك أن أخصائيي التربية يقدرون معنى هذه الحقيقة العجيبة : وهى شغف التلميذ بكل ما ليس درساً ، وحصة ، وامتحاناً ، وقرفاً . أفلا توجد طريقة بيداجوجية ، ومدخل إلى التدريس ، ينسى التلميذ همه وغمه ، ويخدعه عن نفسه . وعما يهدده فى امتحانات آخر العام ، بأن يتحول التدريس إلى نوع من الهواية الحرة ؟

لقد استطاع مدرسو الجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية أن يوائموا بين دروسهم ، وبين المعارف العامة عندما شجعوا فينا الاطلاع الحى ، بالرحلات والجولات ، وبثوا فينا حب الكتب ، عندما تحررنا من ابن المقفع والماوردى والمواعظ ، ووسعوا آفاقنا وفتحوا لنا متنزهات الفكر ، ومغانى الفن .

وأرجو أن أحدثك فى فصل مقبل عن أثر أستاذ التاريخ ، المرحوم محمد عبد الرحيم فى تعلقنا بالمسرح . يكفى أن نعرف الآن بأن ذلك الأستاذ الفاضل ، كان مؤسس جمعية أنصار التمثيل ، ورئيسها الأول .

كان محمد عبد الرحيم مدرساً ممتازاً وضع بين أيدينا كتاباً من تأليفه ، ليس ذنبه أن يجيء جزء كبير منه خاصاً بتاريخ آل عثمان . فقد كان هذا مقرراً علينا ، ولا تنس أن آخر دروس تلقيناها فى التاريخ كانت فى عام ١٩١٤ — ١٩١٥ ، وأن زوال السيادة الاسمية لتركيا حدث فى أواخر ١٩١٤ ، وأن الشعور القومى فى البلاد كان متيماً بحب الدولة العلية ، والبادشاه ، ظل الله على الأرض . والحق أن دراسة إمبراطورية آل عثمان كانت تثير فينا ذلك النوع من الإعجاب البدائى بالفتوة العسكرية ، وبما حققه الأتراك العثمانيون من التوغل فى أوربا حتى أسوار مدينة فينا .

المهم أن محمد عبد الرحيم حبب إلينا دراسة التاريخ ، كما أن عبد الرحمن فخرى وعبد الملك سعيد صالحانا على الجغرافيا . ومع أن

معارفنا فى التاريخ المصرى القديم كانت فضيحة الفضائح، ولم نعد إليه فى المرحلة الثانوية ، فقد أخذت معلوماتنا عنه تتجدد فى صورة حية نتيجة لنشاط جمعياتنا العلمية بالمدرسة السعيدية . وكان الاشتراك فى كل جمعية منها لا يتعدى خمسة قروش فى العام . وإذا كان قصور ذات اليد قد حال بينى وبين اشتراكى فى جمعية « الشيش » ، فإن ماليتى لم تقصر عن الالتحاق بجمعيات التاريخ ، والجغرافيا والعلوم ، والرسم والتصوير الفوتوغرافى ، والاشتراك فى الرحلات . وقد استمر نشاطى فى كل تلك الجمعيات طوال الأربع سنين ، بل تمكنت وبعض إخوانى من إضافة جمعية جديدة إليها ، وهى جمعية التمثيل .

كان عبد الملك سعيد ، قدس الرب روحه ، منارة العرفان لنا فى رحلاتنا. وهو الذى تولى إنشاء «مجلة المدرسة السعيدية» . كان يعد لنا شروحاً عن الغابة المتحجرة والجبل الأحمر فى جولاتنا بجبل المقطم، وعن القلعة ، والمساجد والبيوت الأثرية والكنائس القبطية بمصر عتيقة ، وأهرامات الجيزة ، ومقابر سقارة وآثار الأقصر فى البرين . كانت أحاديث مرسلة أمام الأثر الفنى . ولا أزعم أن عبد الملك سعيد كان يؤكد بنوع خاص النواحى الجمالية — فقد كنا نعيش فى عصر ما قبل الطوفان ! — وإنما كان يوجه اهتمامنا إلى النواحى التاريخية . إلا أن الجمال الفنى كفيل وحده بأن يثير فى النفس أحاسيس دفينة، تظهر فيما بعد . فأعجوبة الفن هى لمسته القدسية الأولى، ونفاذه إلى الوعى الباطن دون ترجمان .

وكان عبد الملك سعيد يشجع فينا تدوين المذكرات عن جولاتنا ورحلاتنا ، ويختار من بينها أكثرها دقة وتوفيقاً ، فيمون صاحبها بالكتب — عرفت عن طريقه دليل بيديكر ، وتاريخ بريستد فى طبعاته الأولى ! — ويطلب إليه أن يعد محاضرة يلقيها على زملائه فى قاعة المكتبة أثناء الفسحة الطويلة وسط النهار .

كما كان ، وزملاؤه – تلك المجموعة الممتازة من المدرسين التى اشتهرت بها المدرسة السعيدية فى زماننا – يعدون لنا محاضرات فى مناسبات علمية أو أدبية كذكرى شكسبير (مرور ٣٥٠ عاماً على مولده) ، والثورة الفرنسية ، وصناعة الخزف والزجاج على مدى التاريخ ، واكتشاف أصقاع الأرض ، وتسخير قوى البخار إلخ ، يستمع إليها – من شاء – بعد نهاية اليوم المدرسى ، مصورة بالفانوس السحرى .

ولقد فاتنى وأنا أسرد أمثلة من الكتب التى تصور اتجاهاتنا فى الاطلاع العربى والأوربى أن أشير إلى كتاب قرأته فى السنة الثانية الثانوية ، بالإنجليزية أولا ، ثم علمت فيما بعد أنه مترجم إلى العربية فاقتنيته ، وأعدت مطالعته معرباً .

كان ذلك الكتاب – إلى محاضرات أساتذتنا خارج الدرس ، وفى مواجهة الآثار – أول ما حبب إلى الاطلاع على تاريخ مصر القديمة ، إذ حقق لى الحياة فيها بخيالى ، مثلما عشت عصر لويس الثالث عشر ، والملكة آن النمسوية والكاردينال ريشيليو ، ودوق بكنهام ، وكيف دافع دارتنيان الغسقونى ، وآتوس وبورتوس وآراميس (الفرسان الثلاثة) عن شرف ملكتهم ، بسيوفهم البتارة ضد مؤامرات الكردينال ، أو كما وعيت عصر الحروب الصليبية فى قصة الطلسم لوالتر سكوت .

ذلك الكتاب هو قصة «وردة» (رواية تمثل أخلاق وعادات المصريين فى عهد رعمسس الثانى ، وترسم للقارئ نظام حكومتهم وما وصلوا إليه من التقدم فى العلوم والمعارف . أبرزها من الآثار القديمة ، وأوراق البردى ، الدكتور جورج إيبرس الألمانى ، وعربها محمد مسعود ، أحد محررى جريدة «المؤيد») كما جاء فى صدر الترجمة العربية ، المنشورة بمطبعة الآداب ، بشارع محمد على .

حصلت على الترجمة الإنجليزية لرواية «وردة» فى طبعة طاوخنتز ،

ذلك البيت السباق إلى الخير فيما يعرف اليوم فى فرنسا بكتب الجيب ، وعند الإنجليز ، بذات الكعوب الورق ، وقد ضاعت فيما ضاع من كتبى ، هى وترجمة محمد مسعود .

ولا بد أن يكون ثمة ملك خير قاد خطواتى منذ أيام قليلة إلى بائع كتب قديمة أخرجت من بينها نسخة من هذه الترجمة. ولا عذر لى مع ذلك فى أن أغفل ذكر « وردة »، فالأصل الألمانى موجود عندى منذ أعوام طويلة ، ولم يختف فى أكداس الكتب ، بل هو ماثل أمامى بمجلداته الثلاثة ، طبعة لايبزيج سنة ١٨٧٩ ، أرى كعوبها المذهبة ، وسط مجموعتى الصغيرة من الأدب الألمانى .

ما كان أسرعنى إلى إخراجها ، لمضاهاتها على ترجمة المرحوم محمد مسعود . ولا أحسب الكاتب المشهور راعى حرفية الترجمة ، ولكن الشهادة لله بأنه لم يترك هامشاً من هوامش إيبرس فى تفسير ما يستغلق على القارئ من حياة أسلافنا . وإن أهم ما وضحت عنايته به هو صياغة الترجمة فى أسلوب عربى جزل سليم ، لا يظهر فيه افتعال الترجمة أبداً .

وحرى بنا أن نشير هنا إلى أن محمد مسعود فى الفرنسية ، ومحمد السباعى فى الإنجليزية ، كانا قطبى الترجمة إلى العربية فى زمانهما . وأن تمكنهما من اللغتين — الأجنبية والعربية — أخلاهما من عقدة الضعة ، فكانا يتخذان حريات فى التصرف قد لا يرضى بها المترمتون ، أو غير المطمئنين إلى قدرتهم فى اللغة التى يترجمون عنها .

ولا بأس من أن أورد هنا بعض ما قدم به الشاعر خليل مطران لرواية « وردة » :

« ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية ، مما طبعت عليه من التزام الوصف الحق ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف وفى تصوير حركات النفس فى كل حال من

أحوالها ، أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها ، وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار . . فالذى سرنى فى « وردة » أننى قرأتها عربية كأننى أقرأها فرنسوية ، وعجبت لما أوتيها معربها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكات الإنشاء، الجامعة علماً ، الراسخة متانة، اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة . . فليكن ختام ما أذكره عن كتاب صديقى محمد أفندى مسعود ، حث كل مصرى على اقتنائه ، فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخوان الكرام مطلعاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب فى جمعه له ، وإهدائه إليه .

« وإنه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها ، لا تدرك حاضرها ، ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها . »

وليست قصة « وردة » مع هذا من أعلام الأدب الألمانى ، إلا أن أهميتها لنا هى فى تصوير ما يتخيله عالم كبير بالآثار وكاتب ناضج الخيال، عن الحياة المصرية القديمة . ولقد دهشت وأنا أتصفح الرواية أخيراً أننى ما زلت أذكر بعض مناظرها حية أمامي . فى بيت المحنط ، حيث حملت الأميرة « بنت آنات » الطفلة وردة إلى أهلها ، وأسرعت تضرب باب المعبد تستنجد بطبيب لإسعاف وردة فيخرج إليها الشاعر بنطاؤر : « ولما فتح باب الهيكل برز منه كاهن فى مقتبل الشباب ، وعنفوان العمر ، تدل هيئته على رفعة مقامه ، وسمو مكانته. فاستفهم من القوم عن السبب الذى جاء بهم إلى هذا المكان فى وقت العبادة . فتأهب « بعاكر » للكلام ، وخشيت ابنة الملك أن يبادر الكاهن بكلام فظ يستاء منه فنهضت قائلة : أنا بنت آنات كريمة الملك رعمسيس، وهذه الجالسة فى الهودج « نيفرت» زوجة مينا الراسخ فى الشرف والنسب . . إلخ إلخ . . »

ثم هذه الفقرة فى مجمع الكهنة عن الشاعر بنطاؤر : « فقال رئيس

المنجمين : لا ريب فى أن الآلهة أجزلوا العطاء لهذا الشاب وأفاضوا عليه المواهب ، ولكنى أنست منه استبداداً فى الرأى أزعج خاطرى ، وانشقاقاً عن المذهب المتبع . . وقد أودع فى أشعاره أفكار أو سوانح . . تخالف القواعد الدينية المقدسة ، كان ينبغى عليه التدبر والتروى قبل وضعها حيث يخشى أن تكون داعية لكشف أسرار مذاهبنا ، وإضاعتها فى أفواه العامة . وإنى أسوق على سبيل الاستشهاد بعض أشعار له يخشى من ضررها فى المستقبل ، ما دمنا نتغنى بها استحساناً ، ويحفظها عامة الشعب ، وخاصته شغفاً بها وافتتاناً ، وها هى :

« هو الواحد الدائم القهار المنفرد بالخلق ، المبدع لجميع المخلوقات ، المحيط علمه بجميع الأسرار . . من تأمل بعين فكره فى مظاهر الكائنات ، شاهد فاطرها فى كل صورها ومعانيها ، واستدل على أنه الواحد الأحد الذى لا يحول ولا يزول » .

ويكتب إيبرس فى الهامش « هذه الأشعار من النشيد الذى نظمه بنطاؤر فى تمجيد "آمون" ، وقد وجد مكتوباً على البردى المحفوظ الآن بمتحف بولاق ، وترجمه غريبو وسترن » .

ولقد فتحت تواً كتاباً فرنسياً فى تاريخ الأدب الألمانى فوجدته يقول عن جورج إيبرس :

« عالم بالآثار المصرية ، ولد فى برلين سنة ١٨٣٧ وأحيا أسلوب الرواية التاريخية التى أبدعها والتر سكوت ولقد وقفت رواياته التاريخية مدى عشر سنوات جنباً إلى جنب والقصة الريفية ، والرواية الواقعية . وقد صور فى "وردة" (١٨٧٦) عصر رمسيس الثانى ، وفى "الشقيقات" عصر البطالسة . وفى "أنا إنسان" عصر الشهداء ، وفى "سيرابيس" تدمير مكتبة الإسكندرية ، وفى "عروس النيل" (١٨٨٦) الفتح الإسلامى لمصر . . وفى هذه الكتب عنصران لا يأتلفان تمام الألفة . فنحن نعجب

بقدرة الكاتب على الوصف ، ولكننا نأخذ حذرنا عندما يحاول طبخ المعارف الأثرية فى مغامرة خيالية . وحرى بنا أن لا ننسى أن جورج إيبرس ابن القرن التاسع عشر ، حتى لنشاهد كهنته المصريين ، وكأنهم جلسوا إلى دروس هيجل وسبينوزا » .

يدخل هواة المسرح

- نسمع — ولم نر — أن الجماهير فى أوربا تعبر عن عدم استلطافها ، أو عن غضبها ، بإلقاء الطماطم والبيض الفاسد على المغنى ، أو الممثل أو ما شابهه . ولكنى شهدت طريقة بلدية عبر فيها الجمهور عن تذمره من نشاز الغناء بقذف المسرح بالبياض . . بياض الحائط ، لا بياض البيض ! فكيف كان ذلك ؟ قال زعموا أن مسرح الكلوب المصرى كان سربا ، أو قاعة تحت الأرض بخان جعفر ، تدلف إليها على مستوى الأرض فتلقى نفسك فجأة فى أعلى التياترو ، أو تنحدر على سلم السرداب ، فإذا أنت فى الصالة . ورواية الليلة هى « عايدة » (راجع أعمال سليم نقاش ، اختيار وتقديم الدكتور محمد يوسف نجم) ، تقلد فيها فرقة حى الحسين ما يجرى على مسرح الشيخ سلامة حجازى ، قياساً مع الفارق فالفرقة فقيرة ، واليد قصيرة ، والأربعة أو الخمسة الذين يقومون بدور الكورس يكاد يغنى كل منهم بطريقته ، على ليلاه ، وعايدة كثيرة ألحان الكورس ، أو كما جاء فى « أسماء الأشخاص وبيانهم » : جوقة كهنة عبدة أصنام ، وجوقة رؤساء حرب مصريين ، وجوقة شعب مصرى ، وجوقة بنات متخصصات بخدمة أمنريس إلخ (وعدد كل جوقة حسب الإمكان والمناسبة) .

وإذ ضاق أعلى التياترو بالنشاز وما إليه ، أخذ بعض جمهوره يخلع

بياض الحائط ، ويرجم به المسرح ، دون إيذاء ، فالبياض يبلغ طرف المسرح متفركاً ، ويسقط على الخشبة رملا . ويتبادل المنشدون والجمهور فصلا من مختارات السباب ، وتجرى مصالحة واتفاق على أن ينتظم الكورس بقدر طاقته ، وأن يبذل السميعة بعض سماحتهم ، على قدر طاقتهم ، ويبدأ الكورس : «أيها الفتاح هبنا نعمتك ــ ورحيم أنت أظهر عظمتك» إلخ.

وكم أود أن أسرد بعض ذكريات الطفولة عن مسارح الأحياء : الكازار بالماوردى ، ودار السلام والكلوب المصرى بخان جعفر ، وكيف كنا نعود إلى البيت ونلغمط وجهنا بسخام الورق المحروق ونصرخ فى ديدمونة أمام المرآة : المنديل .

وانتهى عبث الصبيان ذاك بالشهادة الابتدائية ، ويزعم الناس حولنا أن تلك الشهادة خولتنا الحق فى لقب أفندى ، مما أضفى على دخولنا المرحلة الثانوية شيئاً من الجد والترمت ، والعزم على الإقلاع عن الجمباز والكرة ومطالبة ديدمونة بالمنديل .

ثم يحدث أمر يصعب تصوير أثره علينا ، وهو أن نسمع ، ونحن فى سنة التحضير لشهادة الدراسة الثانوية قسم أول (الكفاءة) ، بأن أستاذ التاريخ محمد أفندى عبد الرحيم سوف يظهر على المسرح الحقيقى بالمدينة . ثم يعرض علينا ضباط المدرسة تذاكر بأسعار مخفضة لنشاهد أستاذنا فى رواية « دافيد جاريك » ، وهو من أشهر رجال المسرح فى التاريخ البريطانى .

وانتقلت المدرسة السعيدية ذات مساء ــ أو ذات ماتينيه ، لا أذكر ــ ناظراً ومدرسين وإداريين وطلبة إلى مسرح برنتانيا (فيما أظن) . وكان من أغرب الأشياء حقاً أن نرى محمد عبد الرحيم فى ملابس عصر الشاعر بوب ، والدكتورين جونسون وبرنى ، وعلى رأسه باروكة الشعر الأبيض ، ذات الزعرورة والفيونكة ، وهو يخطر على المسرح بسترته الحمراء المزركشة

بالقصب ، والدنتلا تهفهف حول رقبته ورسغيه . وعجيب أن أذكر اسم البطلة التى أحبها الممثل جاريك وهى مس آدا انجوت ، بل أن أذكر من القصة كيف اصطنع الممثل الكبير حياة صريع الغوانى والخمر حتى تقلع بنت الأرستقراطية عن تعلقها بالمشخصاتى ، وتنصرف إلى خطيب من اللوردات .

واشترينا نسخة من الرواية . وعليها صورة أستاذنا فى دور دافيد جاريك ، وهو رافع الكأس ، يترنم بأشعار نواسية .

ولا أرى إلى اليوم مصدر العجب والدهشة فى أن ترى على المسرح شخصاً تعرفه ، فى ملابس التنكر ! ولو لم نتعرف على صوت أستاذنا ، ونتبين ما فى عينيه من حول ، لصعب علينا أن نرى فى داخل أردان القرن الثامن عشر . . أستاذ التاريخ كلى الاحترام .

وكانت تلك الليلة مولد جمعية أنصار التمثيل ، وبقدر علمنا ، كان محمد عبد الرحيم منشئها ، وأول رئيس لها .

كان ذلك العام الدراسى (١٩١٤ — ١٩١٥) آخر عام لنا بدار السعيدية بالجيزة ، كما كان آخر العهد بمحمد عبد الرحيم فى الدنيا ، وكأن قد أصابته العين ، فمرض طويلا أثناء الدراسة ، وعاد إلينا قرب نهاية العام ، ودخل الفصل أعجف ذابلا ، يحمل وسادة ويتحامل على نفسه حتى يبلغ كرسى المنصة ، فيضع عليه الوسادة ، ويلقى درسه جالساً طول الوقت .

انتقل محمد عبد الرحيم فى صيف ذلك العام إلى رحمة الله .

وانتقلت مدرستنا فى العام التالى إلى قصر جناكليس (مقر الجامعة الأمريكية حالا) ، عندما استعارت الجيوش البريطانية مقرها الأصلى ليستقبل جرحى حرب الدردنيل وغاليبولى .

لم يعد التمثيل لعبة من اللعب ، بل هو أمر ذو شأن عظيم . ألم نر

ناظرنا المستر شارمن وأساتذتنا يهرعون عن بكرة أبيهم ، لمشاهدة أستاذنا محمد عبد الرحيم يلعب دور البطل ؟

فلم تمر علينا إجازة الصيف حتى كنا نمثل مع زملاء لنا فى بيت أحدهم بجنينة مميش رواية « فى ظلمات القصر الشمالى » ، وهى تمثيلية مطبوعة ، ميزتها الوحيدة النافعة أنهاتخلو من أدوار الإناث .

قضينا عامين بقصر جناكليس ، وقد نشط زملاء «القصر الشمالى» فى ناحيتين : الرسم بالفحم ، والتمثيل . وكنا نجتمع فى فسحة نصف النهار الطويلة لإجراء البروفات فى فصل من الفصول ، لاعلى تمثيلية كاملة ، ولكن على مناظر من لويس الحادى عشر ، وبالإنجليزية من هاملت وماكبث .

وذات يوم عاب علينا واحد من أساتذتنا اهتمامنا بتلك الروايات الأجنبية ، واقترح أن نضيف إلى برنامج تدريباتنا . . منظر وفود العرب على كسرى. فأحرجنا أكبر إحراج حيال مجموعة من خطب تقعقع بالشنان ، وتدمغ كل شعوب الأرض بصفات من أمثال « المنحفة » و « المقشرة » !! ولم يخلصنا من الورطة سوى اختيارنا لمنظر من تمثيلية اسمها « امرؤ القيس » تأليف واحد من أساتذة اللغة العربية بمدرستنا ، حرص على أن يجىء أسلوبها على مستوى المعلقات السبع أو العشر .

وعندما استأذنا الناظر فى إقامة حفلتنا النهارية بقاعة المكتبة ، طلب منى نسخة أعمال شكسبير ، وأجرى قلم رقابته الصارمة على بعض فقرات مما اخترنا ، لما فيها من مجازات غير مؤدبة . .

ثم منعت من الاشتراك فى الحفلة ، عقاباً لى على نسيانى موعد مباراة الجمباز لسنة رابعة فصل رابع ، ولم يسمح لى بغير إلقاء قصيدتى فى الرفق بالحيوان .

ولم تتقدم جمعيتنا التمثيلية فى جهودها إلى أبعد من ذلك . بيد أن نشاطنا انتقل إلى خارج المدرسة حينما دلنا أهل الخير على جمعية تمثيلية ،

عرفت فيها ممثلها الأول الأخ زكى طليمات . وكانت تعد رواية ميلودرامية « تاجر الأرواح » تأليف مدرس ثانوى . وأذكر فى اجتماع لنا أن اعترض البعض على ما يمكن أن يتطرق إليه معنى العنوان ، من أنه تاجر الملبس والفونضان ، وكان يعرف فى زماننا باسم تاجر الأرواح . وضحكنا ممن اقترح علينا تسمية الرواية « تاجر النفوس » عندما ظهر أن كلمة النفوس تعنى تاجر الممبار وفضلات السلخانة !

وأذكر منظراً فى ختام الرواية يفتح فيه الشرير قمطراً تنطلق منه رصاصة ترديه ، وإذا بالمسدس المفروض أن يطلق من الكواليس فى تلك اللحظة . . يضرب عن العمل (كالعادة!) ، مما اضطر الشرير أن يصعق بدون سبب ظاهر ! .

كما أذكر زميلا دخل المنظر الأول (وهو صالون) وقد نسى القبعة العالية مسلطحة إلى الخلف فوق رأسه ، ولا ضير من هذا فقد كانت معارفنا عن بروتوكول الخواجات قليلة . وإنما واجه الزميل جمهوره ببزة البونجور ، والبنطلون الرمادى . . وقد انفرجت مغاليقه .

كانت تلك مناظر مألوفة فى تشخيص الهوة ، ناهيك بالشوارب المستعارة تنعكص فردة منها وتميل بزاوية قائمة ما بين الشفة والفك ، وباللحى المنهارة على النحور والصدور ، يصر الزملاء على إعادة لصقها . . دون جدوى !

ومثلت جمعيتنا رواية « شاترتون » لألفريد دوفينى (ترجمة المرحوم عباس حافظ) ، وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز (ممسرحة فى إنجلترا) ، وقد اشتركت فى الروايتين وبأدوار صغيرة ، تدخل فى عداد الكومبارس الناطق ، أما فى « تاجر الأرواح » فقد أسند إلى دور . . الملقن ، عندما مثلتها الجمعية على مسرح بحلوان .

وفى عام ١٩١٧ شاهدت الشيخ سلامة حجازى لآخر مرة فى رواية

« عظة الملوك » وسمعت فيها لحناً صينياً جديداً للشيخ تغنيه الجوقة برئاسة عبد العزيز بشندى على كلام عجيب أذكر منه « شن شِيشِن كاره شن شن » !

وكانت عضويتى بالجمعية التمثيلية سبيلا إلى حضور بروفات فرقة عبد الرحمن رشدى الأولى . وهناك رأيت سليمان نجيب لأول مرة ، وعرفت الممثل الكبير عمر وصفى ، كما حضرت بروفات فرقة جورج أبيض عندما انضم إليها الصديق زكى طليمات ، ورأيته يمثل دور دوق دى نيمور فى « لويس الحادى عشر »، ورأيت هناك أيضاً السيدة روز اليوسف لأول مرة .

لم يغير هذا النشاط الخارجى شيئاً من نظام حياتى الداخلية ، ومحاولات تطويع الأسلوب للتفكير الحديث بترجمة مختارات من الشعر الإنجليزى ، وبعض مناظر من تمثيليات سبقت الإشارة إليها .

ولم نعد إلى المسرح ، فى مرحلة دراستنا العالية ، إلا كمترجمين لتمثيليات ضعيفة: « هارولد » للشاعر اللورد تنيسون ، و « غادة ليون » للروائى اللورد ليتون ، و « إخوان السلاح » لكاتول منديس . وقد رأيت فى هذه الأخيرة الأخ فتوح نشاطى يخطو خطواته الأولى على المسرح ، مع نادى المعارف ، الذى أخرج أيضاً رواية « غادة ليون » . وتقاضيت جنيهاً واحداً عن كل من الروايتين « مقدم أتعاب » .. دون مؤخر أكلوه علينا !

وترجمنا ومصرنا فارس موليير « طبيب رغم أنفه » ليمثلها نادى مدرسة الطب ، وكنا قد انتقلنا فى هواياتنا إلى الموسيقى ، فلم نشارك فى التمثيل بحفلة النادى السنوية ، بل حملنا بعض عبء البرنامج الموسيقى .

ولندع حكاية الموسيقى إلى الفصل التالى .

الموسيقى الصعبة

قد يكون مفهوماً أن تعيش عمرك ، وتطالع الآداب العالمية فى لغاتها ، أو أصدائها فيما بين أيدينا من كتب عربية ، وأن تقبل على الفن التشكيلى فى أحدث ظواهره وآخر صيحاته . ولكن من هم أولئك الذين يتحررون من ربقة الألحان المشجية المبكية ، والأغانى الصادحة تلعلع بها حناجر ذهبية ، ليستمعوا إلى موسيقى الخرس البكم ، تؤديها آلات مصلحة تصليحاً طارداً لأرباع أو أثلاث أو أخماس النغم ، لا تكاد تسمع منها لحناً واحداً عليه الطلا ، دون أن تقتحمه ألحان أخر يختلط حابلها بنابلها فى هرج ومرج لا يعرف له أول من آخر . مزامير وصفافير من فضة أو خشب ، وبوقات من نحاس ، وطبول كقزانات المسمط ، وزخمات أوتار تذبذب تحت لمسة أقواس طوال وقصار ، أو تغمز بالأصابع ، وزول يوليك عرض أكتافه ، ويهوش بعصبية ، يزعم بأنه يرقص عليها الآلات ، وهو وحده الراقص بها . ثم ما تلك التمثيليات تؤدى طول الوقت بالغناء المزعج ، يتبارزون فيها صادحين ، ويعالجون سكرات الموت بالصوت فاقعين ، يختلط فيها نشيد الجماعات بألحان الأفراد ، وتمتزج هذه بعضها ببعض مشوشة مخلطة . وما تلك الأغانى تجأر بها حناجر رجال قدت من صلب ، وتولول بها نسوة سمينات تشكين لطوب الأرض من ظلم أو هيام ، وتطالبن فى غضب بالثأر والانتقام . وما هى تلك الأسماء الأجنبية ما بين ألمان وطليان ، ومسكوف وأسبان ، يتشدق بها طلاب الجامعات وبعض أساتذتهم ؟

وإذا شئنا أن نعرف كيف نزلت بنا نازلة الموسيقى الأوربية تلك فى آخر الزمان ، فلنتهم الأسطوانات والمسجلات ، وكلا البرنامجين الأوربى

والثانى ، وما أثاره بعض أساتذة الجامعات فى نفوس طلبتهم يجتمعون حول البك – آب فى المدرجات يستمعون إلى ضروب من الشرح تغرر بهم فيما تزعم من تحليل لتلك الموسيقى الأجنبية ، ثم يقال لهم إن الاستماع إليها ظاهرة حضارية لم تعد مقصورة على أهل الغرب وحدهم ، وبأن هواتها انتشروا على طول آسيا وعرضها ، ومن الشمال الإفريقى حتى أقاصى أو أدانى قارتنا الناهضة .

ثم يجىء أعضاء أوركسترا القاهرة السمفونى، والكورال المصرى ضغثاً على أبالة ، يخدمون على الفرق الروسية والإيطالية واليوغوسلافية ، يشاركون فى أوزارها الفنية ، ويتفردون بأداء ما يسمونه السمفونيات والكونشرتوات والفانتازيات والقصيد السمفونى .

ويضرب المتخلفون أكفاً بأكف ، مستعيذين محوقلين ، يلعنون موجات الحضارة التى جرفتنا فى تيارها المخيف لتبعدنا عن قواعدنا ومراسينا.

ولكن ، نحن شباب ما بين الحربين ، وغلمان الحرب العالمية الأولى، نحن طليعة ضحايا الحضارة الغربية فى هذا القرن العشرين ، ماذا أودى بنا إلى هوة موسيقى الخواجة بيتهوفن ، والهر باخ أو موزار ، والسنيور فيفالدى أو فردى ، والمسيو برليوز أورافيل ، والدكتور بورودين ، والبكباشى البحرى رمسكى – كورساكوف ؟ فلم يكن الفونوغراف فى زماننا سوى خشخشة وخرفشة، والإذاعة فى عالم الغيب، وكانت الجامعة أملا لن يتحقق وشيكاً . ولم تقم المربيات الأجنبيات على تربيتنا حتى تعوج ألسنتنا وتبلبل أحاسيسنا . نشأنا فى الأحياء البلدية على الطقاطيق والتواشيح والأدوار والبشارف والسماعيات، ورددنا ألحان الشيخ سلامة والخلعى وداود حسنى وسيد درويش . فما الذى غرر بنا ، وحبب إلينا الموسيقى الغربية فى أرفع وأصعب منجزاتها ؟

والجواب ميسر سهل لمن يقرأ لنا ، ويتابع عوامل تطورنا من

شغف بالآداب العالمية ، وهواية للتمثيل والتصوير ، وما ندين به لأساتذتنا في المرحلة الثانوية من تفتح أذهاننا لما وراء حدودنا من فكر ومعارف بيد أن أستاذاً واحداً من هؤلاء لم يجر لسانه بكلمة الموسيقى — وكانت شبه محرمة علينا—ولا باسم من أسماء عظمائها. ولعل قراء المنفلوطي يذكرون رواية « تحت ظلال الزيزفون » لألفونس كار ، وما يرد فيها من إشارة إلى المدعو بيتهوفن وألحانه . ولعلها كانت أول مرة أرى فيها ذلك الاسم مكتوباً ، وإن كنت قد سمعت به عرضاً من قبل .

كانت الموسيقات العسكرية تتبادل كراسي كشك حديقة الأزبكية : موسيقى الجيش المصري عصر الجمعة ، وموسيقى البريطانيين عصر الأحد . فمن لا يذكر الصول عامر غزال وبرامجه تداول بين الموسيقى المصرية والموسيقى الغربية . أو الويلش باند وهي تقدم افتتاحيات وفانتازيات (أي منتخبات) من أشهر الأوبرات ، إلى أدوار من الموسيقى الخفيفة ، مثل مارشات سوزا ، و«على ضفاف نهر سواني» ، وأوبريتات جلبرت وسوليفان؟

وكانت دور السينما الكبيرة وسط المدينة تعمل في نفوسنا عملها الخفي ، عن طريق مجموعاتها الموسيقية تجلس تحت الشاشة ، وتعزف مختارات توائم الأحداث الجارية في صمت كامل على الشاشة . ولم يكن يوجد بالقاهرة أو الإسكندرية من فندق كبير أو كازينو أو مشرب شاي دون أن يستخدم عدداً من خيرة العازفين ، الواردين من كونسرفتوارات إيطاليا ، غالباً ، يلتفون حول البيانو ليؤدوا نماذج طيبة من الموسيقى الغربية .

من « تحت ظلال الزيزفون » ، وحول كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية ، وفي ظلام السينما الصامت يسنده أوركسترا قد يبلغ عشرة أفراد أو يزيد ، تنبهت فينا حاسة جديدة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن إحساسنا بأغانينا وألحاننا وكأننا خلقنا خلقاً جديداً .

إلى أن طالعنا ذات مرة على باب سينما كليبر — ركن عماد الدين

وما كان يعرف فى زماننا بشارع بولاق — إعلاناً عن شىء اسمه الأوركسترا السمفونى ، وبرنامج وضعت فى أوله هذه الكلمات : بيتهوفن : السمفونية السابعة .

وكان هذا الأوركسترا يتألف من العازفين المجيدين بالفنادق والسينمات ومشارب الشاى ، لا يجدون متسعاً من الوقت لاجتماعهم إلا بين الحادية عشرة صباحاً والواحدة بعد ظهر يوم الأحد . وكنا طلبة بالمدارس العالية ، لا تقيد حريتنا لحضور المحاضرات ، فارتكبت أول زلة عندما قررت أن أزوغ من محاضرة الكيمياء بما كان يعرف بسنة أولى طب . وهكذا قدر لى أن تعتدى موسيقى بيتهوفن وما إليها على محاضرات الكيمياء ، يوم الأحد ، وكان ذلك أول المنحدر إلى الخلل فى دراستى الطبية الأولى ، حين حرصت على الاستماع كل صباح أحد إلى الحفلات السمفونية بسينما كليبر ، يقودها ميشيل بولياكين ، أو بقاعة الكورسال الكبيرة بقيادة إدجار بونوى .

كنت وحدى فى تلك المغامرة التى حاولت أن أستدرج إليها بعض زملائى ، فطار أولهم منى عندما أخطأ فى قراءة عنوان افتتاحية تأليف ليتولف ، اسمها « كليوبترا » فطالعها « كوليوبترا » ، إذ كنا ندرس فى ذلك الوقت تقسيم الحشرات باباً من أبواب علم الحيوان .

ومال ثانيهم على ، وأنا مستغرق فى الاستماع إلى كونشرتو مندلسون للفيولينة ليقول : هلا حضرت حفلات نادى الموسيقى الشرقى ؟

فلم أكذب خبراً وصاحبته إلى حفلة النادى ذات مساء بعمارة قرب الأزبكية ، وهناك رأيت وسمعت أقطاب الموسيقى الشرقية الأصيلة من مؤسسى ذلك النادى طويل العمر ، فعرفت أن طريقى وطريق زميلى يفترقان ، وأن كنوز الموسيقى العربية شىء جدير بأن يعنى به ، ويدرس ويحفظ ويؤدى على أصوله . ولكن على أن لا يقف فى طريقى نحو التعرف

على تلك الموسيقى الغربية العجيبة ، والتزود بكل ما تقع عليه يداى وعيناى وأذناى من شئونها .

وبدأت — مع زميل الطفولة ، جسن فتحى — دروس الفيولينة على أستاذ إيطالى ، كان العازف الأول بمحل شاى مشهور بشارع بولاق .

وكعادتى فى الاستعانة بالكتب لمعالجة كل مشكل ذهنى لى ، انطلقت أطالع كل ما يقع لى من كتب عن الموسيقى والموسيقيين ، وكان أولها كتاباً استعرته من دار الكتب تأليف جول كومباريو عن « الموسيقى وقوانينها وتطورها » وثانيها تاريخ الموسيقى للمؤلف نفسه فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، وغير ذلك من تراجم كبار الموسيقيين .

ولقلة فرص الاستماع فى ذلك الزمان (على العكس من الوقت الحاضر ، حيث تنتشر المسجلات الموسيقية) ، سبقت معارفى الكتابية خبراتى الفعلية بالموسيقى ومع ذلك فقد سمعنا نحو ست سمفونيات لبيتهوفن ، وسمفونية لكل من هايدن وموزار وشوبرت وشومان ومندلسون وبرامز وسيزار فوانك ، وبضعة كونشرتوات وأغنيات فنية « ليدر » لشوبرت وشومان ،وقصائد سمفونية لسان صانس وشهر زاد لرمسكى — كورساكوف و « ليلة على الجبل الأجرد» لمسورجسكى و « فى دهاس آسيا الوسطى » لبورودين ، وأهم الافتتاحيات الإيطالية ، وافتتاحيات موزار و « روسلان ولودميلا » و «كامارنسكايا » لجلنكا ، وما زلت أحتفظ ضمن أوراقى بكثير من برامج الموسيقى التى سمعت فى ذلك العهد البعيد .

ثم انطلقت ثورة ١٩ لتخرجنا من عالمنا المدرسى الضيق . وتمهد لنا لقاء المجموعة الطيبة من رواد الثقافة التى ذكرت بعض أسماء أصحابها ، وإذا بأغلبهم من عشاق الموسيقى الرفيعة مثلنا ، وهذه ظاهرة عجيبة : أن تسلك طريقك وحدك إلى بعض وعى تلك الموسيقى ، ثم تلتقى بشباب جدد سلكوا الطريق نفسه . ومنذ تعرف على محمد رشيد

وآل تيمور ومحمود عزى وحسن محمود وفؤاد مرابط وشوقى بكير وطاهر العمرى والدكتور محمد ولى ويوسف جريس ومحمود شكرى أصبحنا نرتاد الحفلات الموسيقية فئة صغيرة بطرابيشها وسط بحر من الرؤوس العارية ، أعضاء الجاليات الأجنبية ، مع قلة من سيدات وآنسات الأسر الكبيرة خلف النقاب الأبيض ، نشأن بمدارس الراهبات ، ودرسن البيانو فى خدورهن .

عادت الفرق الأجنبية تحيى مواسمها بدار الأوبرا ، والكورسال فكان أول ما سمعت من أوبرات : «حلاق أشبيلية» لروسينى ، و «كافاليريا روستيكانا » لماسكانى بالكورسال . ثم « لوريلاى » لكاتالانى ، و « شمشون ودليلة » لسان صانس . ، و « مفيستوفيليس » لبويتو. ، و « تانهويزر » لفاجنر ، و « توسكا » و « مدام بترفلاى » لپوتشينى .

وغدت القاهرة مركزاً ثقافياً هاماً ، يمر به كبار العازفين ، ومجموعات الموسيقى العائلية (دا كاميرا) ، من أوربا الوسطى ، ومن إيطاليا وفرنسا ، فتعرفت على الرباعيات الوترية ، وما يقدم فى حفلات العزف المنفرد .

وليس معنى هذا أننا أهملنا موسيقانا القومية ، بل إنها لعلامة من علامات طريق النهضة وشهادة مخلصة لنوابغ الموسيقى المصرية فى أوائل العشرينات ، أن هواة الموسيقى الأوربية الرفيعة هم الذين أحبوا وآزروا وأخلصوا لذكرى الرواد الأول فى تطوير الفن الموسيقى : كامل الخلعى وداود حسنى ، وسيد درويش . ولقد شبت طفولتنا على ألحان الشيخ سلامة حجازى ، وأدوار عبده الحمولى ومحمد عثمان. ويطيب لى أن أذكر بالخير مدرستنا الحديثة فقد كانت أول جماعة تقيم حفل تأبين لسيد درويش بتياترو حديقة الأزبكية .

مرد هذا إلى أننا من أول من أدرك ووعى الخطوات الأولى فى طريق تحرير موسيقانا القومية ، وتطويعها لضروب جديدة فى التعبير . وأتيح لنا

هذا الوعى نتيجة لخبرتنا بما كان يقدم فى مصر من موسيقى المجموعات الصغيرة والأوركسترا والأوبرا .

وهذا ما يسميه بعض المتجنين علينا « عقدة الخواجة » . وليست هناك عقدة ، أو خواجة ، وإنما هو الإيمان بكل ما هو عظيم ، وصادق وجميل فى الحياة .

أفندية بحق وحقيق

أعجب رتبة فى دنيانا قبل الطوفان كانت رتبة « أفندى » : لم تعرف لها براءة ، ولم تحدد الفئة التى يحق لها هذا اللقب . ومع ذلك كنا نسمع بأن قاضى الإسلام التركى ، سيد الجهلاء (راجع ابن إياس) ، يحمل لقب أفندى ، وأن ولى عهد سلطنة البادشاه يلقب بالأفندى حظرتلرى ، وخديو مصر كان لرعاياه المخلصين « أفندينا » ، وبنت البلد إذا تزوجت لابس بنطلون قالت : لفندى بتاعى . وكان غلمان الأزقة إذا رأونا فى طريقنا بالبنطلون القصير ، تندروا قائلين : يا واد يا فندى .

وقد لا يعرف الكثيرون أن كلمة أفندينا ترد فى السلام المصرى القديم (وهو السلام الخديوى فالسلطانى فالملكى) ، الذى زعموا أنه من تأليف فردى . وهأنذا أذيع السر المهول : « أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام » ، وتذكرنى هذه الكلمات الجوامع ببيت الشعر المشهور « ربابة ربة البيت ، تصب الخل فى الزيت » .

وسنة الارتقاء جعلتنى أشهد زماناً أصبح فيه كل الناس بهوات إلى درجة أن زميلا حلو الدعابة استطاع أن يخلصنا من البكوية العمومية بلباقة فلم تكن نتخاطب فيما بيننا إلا بقولنا : « فهمت الفولة يا معالى الباشا » ؟ وأن ما لا يعرفه أبناء الجيل الحالى هو أن الرتب كانت موضع

سخرية أغلب أهل جيلى الثائر . وقد أكد الزمان سخريتنا عندما سمعنا في أواخره بمعالى الست ، ورفعة الهانم ، وفى أوائله بوالدة باشا !

قيل لى مثلا بعد الشهادة الابتدائية إننى آنفاً ، وعلى سن ورمح ، أفندى . وإذا بمدرس اللغة العربية فى أول يوم لنا بالمدرسة السعيدية وقد رأى بعضنا بالبنطلونات القصيرة ، يوجه كلامه إلى ضابط المدرسة : لا يا حمدى أفندى ، دول تجيبوا لهم مرضعات بقى !

ثم أكدوا لنا بعد البكالوريا أننا أفندية بحق وحقيق . . ولم يكن أمر ذلك بأكثر صحة من سابقه .

ولكن أعجب شيء فى زماننا هو أن الناس كانوا يعتبرونك دكتوراً منذ يوم قبولك بمدرسة الطب المصرية ، وكنا أبناء الحضر سواء فى هذا وأبناء الريف . وحدثنى زميل من الريف عن اضطراره ، قبل أن يضع قدمه على عتبة قصر العينى إلى اقتناء سماعة ، وبعض الأدوية ، استجابة لأهله وجيرانه فى البلدة .

ولم يكن أقل عجباً ، حتى وقد تخرجت من مدرسة الطب ، أن يستدعينى صديق من أهل الفن لأعود مريضةمن أهله ، ولما يمض على تخرجى أسبوع ، وأعترف بأنى اضطررت إلى التعجيل بطبع تذاكر الروشتات ، ومراجعة بعض جرعات المادة الطبية التى توقعت أن أصفها . فسوف أكشف على المريضة ، وهذا شيء خبرته ، وسأجريه على أحدث وسائل الكشف الطبى ، وسأتمكن من التشخيص التفاضلى الذى أبلغنا أسراره على لسان نوابغ الطب فى مدرستنا . أما أن أضطر إلى إخراج دفتر من جيبى لأنقل عنه جرعات الأدوية التى أركب منها الروشتة ، فذلك أمر لا يجوز ، بل يعتبر فضيحة لزميلى الفنان أمام أهله !

عندما عينت عميداً لأول كلية علوم بالإسكندرية لم تفوت على أقسى الأعباء التى حملتها وزملائى فى إنشاء تلك الكلية عام ١٩٤٢ ، أن أراقب

الطلبة الجدد ، وهم ينتقلون من قيود التعليم الثانوى إلى حرية التعليم الجامعى ، وأن أقارن بينهم وبيننا على مدى ربع قرن ، أى منذ التحقنا بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩١٧ . هل كانت الظاهرة نفسها ؟ لا أظن ، فقد انتظمنا فى التعليم العالى قبل ثورة ١٩ ، ودخلوا هم بعدها ، وبعد غيرها من القلاقل والمظاهرات والاضطرابات ، طلاباً للحرية والاستقلال . نحن دخلنا المعاهد العالية قططاً عمياء ، ودخلوها هم شباباً أبلى ،وكافح فى سبيل الوطن ، ربما أكثر مما كافح فى سبيل العلم والمعرفة.

وفدوا هم على الجامعة فتية وفتيات ، وفى زماننا هاج الكتاب وماجوا فى الصحف ، إذ علموا بأن فتاة مصرية أصيلة . . التحقت بشركة التليفونات . وكانت الفتاة تحجز وراء نقاب أسود أو أبيض ، وتجلبب بملاءة سوداء ، قبل أن يسمح لها بالالتحاق بمدارس المعلمات فقط !

وإذا كنا قد عرفنا الحرية فى مدارسنا العالية ، كما عرفوها فى الجامعة ، فقد كنا نعيش فى مجتمع لا نساء فيه غير أهلنا الأقربين ، وغير خيالات ، وظلال تلمع فيها عيون ساحرات ، خلف النقب ، وخلال شيش النوافذ الموارب .

ومع ذلك فلم يكن الفرق كبيراً فى كلية علوم الأربعينات . فالفتيات ما فتئن يتعثرن فى مشيتهن ، ويعتبرن الفتيان بعابع ، ويمارسن التكتيك الحربى المعروف بالقنفذ ، حين كن يتجمعن فى صف أو صفين بالمدرجات ، أو يقعدن فى ساحة الجامعة متكأكئات ، والطلبة يحومون حولهن كالذئاب ، باحثين عن ثغرة بين أشواك القنفذ اللاذعة ! .

لم أكتشف جديداً بعد اقتحام الطالبات لأسوار الجامعة ، فقد ظل الحب هو الحب ، على البعد ، و « بنت الجيران » ما لبثت اصطلاحاً غرامياً عرفناه فى شبابنا ، ذلك المخلوق البعيد جداً ، نتحدث إليه بالإشارات الضوئية فى الليل ، وبالكتابة الهوائية بالنهار . ونسترق لحظات

محمومة خاطفة ، يحكمها – أو يرفرف عليها إذا فضلت – الطهر والعفاف من الجانبين ، مما أضفى على الحب فى زماننا رومانتيكية حامية متفجرة ، أشبه بما كنا نطالعه من أشعار العذرى والمجنون ، أو ألفريد دى موسيه ، وألفونس دى لامارتين .

ولقد اصطحبت فى زمانى صديقاً من الأسر الكبيرة ، خطب فتاة من بيئته ، فلم تكن ثمة وسيلة لترى خطيبها إلا أن يوضع لها فى بنوار بأحد المسارح ، وتجلس الخطيبة فى لوج خلف نقابها وستائر الدنتلا ، لتفحصه على بعد عشرين متراً من أعلى إلى أسفل ، وآمل أن يكون حياؤها قد حال بينها وبين استعمال المنظار المقرب . أما صديقى فأشهد أنه لم يسمح له حتى بصورة للخطيبة !

وصورت فى قصة قصيرة زواجاً تم بين فتاة أتمت تعليمها بالمدارس الأجنبية ، وهوت الموسيقى ، وأتقنت العزف على البيانو ، زفت إلى شاب من الأعيان توقف عند شهادة الكفاءة ، كل هواياته تدور حول ماديات الحياة . صورة تخيلتها ولم أنقلها عن واقع خبرته . . ثم عرفت بعد سنوات طويلة بوقائع أثبتت لى أن خيالى فى تلك القصة لم يبتعد كثيراً عن الواقع .

وإذا لم أستطع أن أنفذ إلى نفوس أبنائى بكلية العلوم لأعرف أثر انتقالهم من المرحلة الثانوية ، وانتظامهم معاً فى الجامعة ، فلا أقل من أن أصور واقعى أنا منذ أكتوبر ١٩١٧ وأنا أمضى فى شارع مدرسة الطب لأطرق مرحلة الدراسة العالية .

قيل : لا تمش فى الأرض مرحاً فإنك لن تبلغ الخ إلخ . . وكأن هذا القول موجه إلينا ، فقد كنا ندلف إلى باحة المدرسة نافشين كالدنادى ونجتمع حول تمثال كلوت بك منشئ مدرستنا فى النصف الأول من القرن الماضى ، لنناقش مسائل علمية عويصة فى الطبيعة أو الكيمياء ، أو علم الوراثة ، أو فكرة النشوء والارتقاء ، وكان يضاف إلى دروس الإعدادى ،

« المادة الطبية » كلها ، ونمتحن فيها . وبعض مقدمات فى علم التشريح الإنسانى ، ولا نمتحن فيها ، انتظاراً لانتقالنا إلى السنة الثانية . ذلك لأن مدى السنة الأولى كان يمتد إلى خمسة عشر شهراً ، فكانت تلك الدراسة الإضافية تعتبر كسباً للوقت ، واستعداداً للدراسات المقبلة .

ومع أن سوء حظنا قد أفقدنا — بسبب الحرب — أساتذتنا الألمان ، فإن كتبهم — ومنها ذلك الكتاب القيم للأستاذ لوس « مقدمة إلى البيولوجيا » — كانت بين أيدينا ، وتلاميذهم قاموا على دراستنا . ولعل حبى لعلم الحياة قد نشأ منذ اللحظات الأولى بمدرسة الطب .

وأعرف بعد ذلك أننى أحببت دروسى الطبية كلها ، وما زلت أحمل لها أقوى مشاعر العرفان بالجميل . فهى التى قومت فى العقلية العلمية ، وهى التى أعانتنى على فهم الإنسان حين أوقفتنى على دخائله التشريحية والفسيولوجية والمرضية . وقد بدأت رحلتى حول الإنسان بالحيوانات الدنيا ، حتى انتهيت إليه . ثم عدت إلى الحيوانات الدنيا عندما انتقلت بعد سنوات إلى دراسة الحياة فى البحار والمياه العذبة . فكأننى رحلت ذهاباً وإياباً ، أو صعوداً ونزولا ، حول الإنسان ، وما قبل الإنسان فى التسلسل الطبيعى للحياة على ظهر البسيطة .

ولكن ، ماذا كان حال الأدب والفن ، وهل اصطدم بالدراسة العلمية؟

أى نعم ، كان صداماً عنيفاً جداً تمزقت له شخصيتى ، وسبب لى بعض الخلل فى خط دراستى ، مما أخرنى عن الصنف الأول . وبعد ثورة ١٩١٩ التى أبعدتنا عن الدرس عاماً كاملا ، عدت إلى مدرستى حطاماً آدمياً ، يتنازعه حب الفن والأدب ، والفروض القاسية التى تتطلب من طالب الطب كل وقته .

ولم أشعر بميل خاص نحو علاج الأمراض ، إلى جانب شغفى بالبحث عن أسباب المرض ، فى دراسة العلوم التى يبنى عليها الطب

العلاجى ، وهى التى تعرف فى كلية الطب بالأقسام الأكاديمية . ولم أك ألمس لنفسى المعنى الداخلى البسيكولوجى ، لهذا الشغف ، حتى عرفت فيما بعد أنه يمثل الاتجاه المعروف نحو البحث العلمى .

إنما بقى لى من دراستى الطبية حب الفحص والتشخيص لكل ما يعرض لى من شئون الحياة ، فردية أو اجتماعية ، سياسية أو فنية أو أدبية .

إن العلم والرومانتيكية صديقان لدودان . ولقاؤنا الأول بالأدب والفن كان رومانتيكياً فى أعنف ما تكون الرومانتيكية ، وهى أقرب إلى المرض من الصحة . وبفضل الدراسة الطبية ، وبممارسة العلوم فيما بعد ، استطعت أن أتخلص من المرض الرومانتيكى رويداً .

ولم أكن وحدى فريسة الرومانتيكية بمدرسة الطب ، فقد عرفت زملاء لى هناك يتعشقون الأدب والفن ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، المرحومين : ناظر مدرستنا الحديثة أحمد خيرى سعيد ، والشاعر المرهف الحس ، إبراهيم ناجى . عرفت ناجى من بين طلبة الدفعة السابقة علينا ، وتبادلنا الكتب والاطلاع ، وأنصتنا إلى صوته المتهدج يتلو علينا أشعاره ، وكأنه يرتجلها فى التو والساعة . وأشهد لدفعتى ، والدفع القريبة منها ، أن تخرجت منها فئة ممتازة فى تخصصها ، ممتازة فى الفن والأدب أيضاً . يكفى أن أذكر من بينها من أملك التحدث عن نبوغه ، وهو أول دفعتنا ، صديقى الدكتور محمد كامل حسين ، العلامة الباحث ، والجراح الكبير ، والأديب الفذ .

إننى إذ أستعرض فى ذاكرتى تلك السنين الرائعة ، وما عركناه فى ثورة ١٩ وقد تحولنا من الدراسة إلى السياسية فى بيت وفدى كبير ، كان واحد من أبنائه رئيساً للجنة الطلبة العليا ، وكان ابنه الآخر زميلا لنا ، نتلقى فى ذلك البيت تعليماتنا اليومية ، من الذهاب كل ليلة لنخطب الآلاف المجتمعة بالأزهر الشريف ، قلب الوطنية النابض ، إلى الانتظام فى

المظاهرات ، أو مقابلة الزعماء ، ومناقشتهم فى ضرورة مقاطعة لجنة ملنر ، أو مراقبة من نخشى أن يخالف الإجماع منهم . . . . . .

وإذ أفكر بانكبابى على دراسة الموسيقى ، ومواصلة مطالعاتى فى الأدب والفن والتاريخ ، وإقبالى على معارض الفن التشكيلى (معرض الربيع الأول) ، وتشتت حالى بين كل ذلك ودراسة الطب ، وأزمة الحب التى انتابتنى وكادت تهد من كيانى ، لا أرى وصفاً لتلك الحقبة فى تكوينى إلا بما توصف به الملاحم . فقد كانت حقاً أول ملحمة من ملاحم حياتى ، لم ينقذنى منها سوى تخرجى من مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، والتحاقى بمستشفيات الرمد الأميرية، وكانت مضرب الأمثال فى حسن الإدارة والنظام ، ونموذجاً للكفاية العلمية والفنية .

حقبة مليئة بمقومات الحياة النابضة المكافحة ، وشبوب العاطفة نحو الوطن ، ونحو الأصدقاء ، ونحو المرأة . . .

ولا أدرى بأيها أبدأ ، وربما كان من الخير أن أقف عندما قدمت ، إلا أن أجمع كل ذلك فى صورة واحدة ، فالعاطفة المشبوبة لا سبيل هنا إلى تصويرها إلا بالاستناد إلى وقائعها العامة ، لا إلى الفردية فيها . فليس الهدف من هذه الصحائف تاريخ حياة فرد بعينه ، وإنما تصوير الظروف التى نشأ فيها جيلنا كله .

يا عم حمزة إحنا التلامذة

بعد أيام من التحاقى بمدرسة الطب المصرية ، توفى السلطان حسين كامل ، وتقرر أن يمشى فى جنازته الأربعة الأول من كل فرقة ، فكنت واحداً ممن شيعوا جنازة سلطان مصر .

ماذا كنت أعرف عن السلطان الراحل ؟ لقد دخل علينا فى المدرسة السعيدية ، وأنا بالسنة الثانية ، فى حصة مطالعة إنجليزية ، وكان عدلى باشا يكن وزير المعارف حينذاك يصحب السلطان . وكلفت أن أطالع أمامهما صفحة من رواية « جزيرة الكنز » لروبرت لويس ستيفنسون وطلب منى الناظر شارمن أن أترجم ما قرأت إلى العربية. وقد التزمت بالنص الذى طالعت ، من حديث القرصان الباحثين عن الكنز ، يحكى على لسان الغلام جيم هوكينس . فسألنى السلطان ذو الطربوش الأحمر الفاقع ، المائل بزاوية منفرجة ، والردنجوت الرمادى ، سألنى بصوت أجش : « هم مين دول ؟ » فأدليت إليه بمعلوماتى عن الكابتن جون سلفر رئيس القرصان وجماعته ، وصراعهم فى سبيل الحصول على الكنز . .

لم نكن ندرى بما جرى فى مدرسة الحقوق من سوء استقبال السلطان ، وهى الواقعة التى سرد حكايتها تفصيلا ، الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تاريخه لثورة سنة ١٩١٩ . ولو عرفنا لترددنا فى ذكر وقائع القرصنة ، فقد تحمل كل تأويل بحضرة السلطان الذى كان الوطنيون يتهمونه باغتصاب عرش ابن أخيه المعزول .

ماذا كنت أعرف عن السلطان حسين ؟ ذهبت غلاماً بالجلابية والصندل إلى ميدان عابدين لأشهد من بعيد الاحتفال بتوليته عام ١٩١٤ ، وكل ما أسمع به هو أن الخديو عباس قد عزل ، وأن بريطانيا أعلنت

الحماية على مصر ، وولت عم الخديو المعزول . وقد أذكر لماماً أنني طالعت إعلان الحماية ملصقاً على الجدران ، وسمعنا بأن القصيدة التي يغنيها الشيخ سلامة في رواية « هاملت » ، والتي تبدأ هكذا « عم يخون وأم لا وفاء لها » ، قد استبعدت ، أو أن الرواية ذاتها سحبت .

كما عرفنا بأن الدولة المحتلة كانت تنوي إقامة أغاخان سلطاناً على مصر ، وأذكر أنني قرأت منشوراً لزعيم المسلمين (كذا) أغاخان ، يوضح للعالم الإسلامي معنى انضمام دولة الخلافة (تركيا) إلى أعداء بريطانيا ويحل المسلمين من الولاء للدولة العثمانية .

ولا أحسبني كنت أفقه من المعاني المختفية وراء كل تلك الوقائع أكثر من أن الإنجليز هم أعداؤنا بالأمس ، واليوم ، وغداً ، وأن انتصار ألمانيا يعني نهاية الاحتلال البغيض . وما أكثر ما كنت أحلم أحلام اليقظة — التي لم تتحقق إلا بعد ١٨ يونية ١٩٥٦ — باليوم الذي يختفي فيه من بلادنا كل أثر لتلك الأجناد ذات الوجوه الحمراء . أما حكاية الحماية فلم يكن في استطاعتي التكييف القانوني لها . فالاحتلال هو الاحتلال ، بحماية أو بغير حماية . وهذا ما عنيته عندما قلت في فصل سابق بأننا دخلنا المدارس العليا قططاً عمياء .

ولم نلبث طويلا بمدرسة الطب حتى تفتحت عيوننا ، ووعينا ما حل بنا في آخر المطاف ، ومعنى الانتقال من الاحتلال الغاصب ، إلى الحماية المضروبة علينا بقوة السلاح . وأحسسنا بأنين الحنين في أغنية الصعايدة بفرق العمال المصريين في صحراء سينا ، وطريق بير سبع « آه يا عزيز عيني — وأنا بدي أروح بلدي ! بلدي يا بلدي — وأنا بدي أروح بلدي » وما فيها من « نوستالجيا » إلى ضفاف النيل ، وقد انتزعوا منها قسراً . وتكشفت لعيوننا ما كان يعانيه الشعب المصري في الريف والحضر من اعتداءات ومصادرات وخطف للعمال والغلال والجمال ،

لخدمة ميدان المعركة البريطانية التركية فى فلسطين .

وحلت سنة ١٩١٨ وتوالت أخبار انتصارات الحلفاء على دولتى الوسط ، فهدنة ١١ نوفمبر ، ثم مؤتمر الصلح بفرساى . وهنا تواترت الأخبار ، وتبعتها معلومات صحيحة عن أن أهل الرأى من كبراء المصريين يجتمعون ، ويقابلون المندوب السامى (كذا) يطالبون بسفر وفد مصرى إلى مؤتمر الصلح ، وأن الوزارة المصرية كانت قد طلبت أن يسافر رئيسها رشدى باشا ، ومعه عدلى يكن باشا للتفاوض مع وزير خارجية بريطانيا فى إنهاء الحماية وإعلان استقلال مصر .

لم يكن يظهر من هذا شىء فى الصحف أو كان يظهر مستتراً بأخبار محلية عادية وإنما هى أخبار كانت تجيئنا نقلا عن الأفواه أو فى وريقات نتداولها فى المدرجات . ولا أنسى من بينها خطاباً طويلا ، بلغة إنجليزية ممتازة ، كتبه شاب مصرى ، سكرتير المستشار القضائى البريطانى ، يبين له بأجلى عبارة ، ويدافع فيه عن حق مصر فى الاستقلال . وكانت أول مرة أسمع وأقرأ فيها اسم وليم مكرم عبيد .

وفى مطالع العام التالى ١٩١٩ ، أصبحت الأخبار أكثر دقة ، والتوجيه أوضح ، وبدأنا نسمع بأسماء الزعماء ، وعلى رأسهم سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية المنتخب ، وبأن السلطة البريطانية الحامية رفضت إقامة صيوان يخطبون فيه ، ورفضت الإذن بالسفر للوزارة ، وللزعماء ، ومررت علينا أوراق المطالبة باستقلال مصر لنوقع عليها . وهى الوثيقة المشهورة بتفويض الوفد المصرى لتولى شئون قضية الاستقلال .

وفجأة ، فى صباح ٩ مارس تفجرت العاطفة المكبوتة منذ نحو أربعين عاماً ، وبخاصة منذ سنوات الحرب الكبرى ، إذ جاءنا الخبر بأن سعد زغلول وصحبه قد أخذهم الإنجليز من بيوتهم إلى مكان مجهول . وما إن بدأنا نتدبر فيما نحن فاعلون ، إذ هجمت

مظاهرة من طلبة المدارس العليا الأخرى (الزراعة والمهندسخانة والحقوق) على مدرستنا ، تدعونا للانضمام إليها . فتصدى لها ناظرنا الإنجليزى الدكتور كيتنج ، وكبس الطلبة عليه ، وأوقعوه أرضاً . وخرجنا حشداً كبيراً صاخباً ، واتجهنا إلى وسط المدينة وإذا فوانيس النور تكسر ، وعربات الترام تهشم وتكوع ، وتحرق ، وما هى إلا أيام حتى نعرف بأن ماحدث فى القاهرة تكرر فى مدن مصرية أخرى ، وأن خطوط السكك الحديدية اقتلعت ، والمظاهرات قامت فى كل مكان احتجاجاً على أختفاء زعيم الأمة وصحبه . وسمعنا بعد ذلك بأن الوزارة استقالت ، وأن لجنة الطلبة العليا قررت الإضراب إلى أجل غير مسمى وأمر هذا ميسر فى كل المدارس . إلا بمدرسة الطب ، إذ أن امتحان الدور الثانى للسنة الأولى طب وصيدلة يجرى فى مارس بالذات . فاجتمعنا بمكان ما فى حى المنيرة ونظمنا أنفسنا لإقامة حصار كامل حول جميع الطرقات المؤدية إلى المدرسة ، حتى نمنع من يحاول الوصول إلى لجنة الامتحان ممن لم يبلغهم قرار الإضراب العام . وكان الموضع المحدد لى على رصيف شارع القصر العينى بحذاء المنيرة . وأشهد أن لم يمر بنا فى صباح الامتحان أكثر من طالب أو أثنين ، وضعوا مذكراتهم فى جيوبهم ، وانضموا إلينا دون مناقشة . وكنا نعرف عن يقين أن الأسئلة معدة، والناظر واقف بالمرصاد ليمكن من يصل إلى اللجنة من أداء الامتحان ، وليجرى قراره فى فصل المتخلفين . ولم يحضر فى ذلك اليوم طالب واحد ، وألغى امتحان الدور الثانى .

ولا أسطر هنا تاريخ ثورة ١٩ ، فأمرها مشروح بالتفصيل فى أسلوب رصين هادئ بكتاب الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى. يكفينى أن أستعرض صورة عامة لطريقة قيامنا بالمظاهرات — ولم أشارك من قريب أو بعيد فى أى عمل من أعمال العنف ، فذلك لا يوائم طبيعة خاضعة

للمثالية الفكرية . كنا نخطر بميعاد ومكان قيام المظاهرة ، وغالباً ما كانت تبدأ عند ميدان الجامع الأزهر ، فيخطب الخطباء ، وتلقى الأزجال ، وتغنى الأناشيد . وفى هذه المظاهرات سمعت أزجال الصديق المرحوم عبد الله شداد يغنيها بصوت جميل ، وبألحان من تأليفه ، قوية التعبير . كما انتشر فى وسط الطلبة النشيد البهج الطرير الذى ألفه ولحنه ابن دفعتنا بمدرسة الطب ، الصديق الدكتور محمود أحمد الحفنى ، ويهزج قائلا : « يا عم حمزة ، احنا التلامذة » إلخ .

وفى واحدة أو أكثر من مظاهراتنا — ولا أفهم لماذا اخترنا لها اليوم لفظ المسيرات — أحاط بنا الجند البريطانى ، ونصبوا مدافعهم الرشاشة أمام جبهة المظاهرة ، وقامت طائرة للاستطلاع فوقنا (من تلك الطائرات التى كانت تشبه أقفاص الفراخ) وسقط قتلى ، رأيت من بينهم غلاماً لم يبلغ العشر سنوات . وقيل — ولم أره — بأن طالباً أزهرياً خطف مدفعاً رشاشاً وجرى به حتى هوى قتيلا فى « النومانزلاند » بين صفوف الجنود ، وطليعة المظاهرة الواقفة فى مواجهة باب الجامع الأزهر. ولقد صورت يوماً شبيهاً بتلك الأيام فى قصة لى بعنوان « صاحبى ماكفرسون » (فى كتاب : سندباد إلى الغرب) .

وأذكر مظاهرة أخرى كنا نشيع فيها جنازة الشهداء ، وداهمنا العسكر الإنجليز عند ميدان العتبة الخضراء ، فتفرقنا شذرمذر ، واتجهت إلى شارع محمد على وهناك رأيت ضابطاً مشهوراً بشواربه السوداء الكثيفة ، كان من حراس رئيس الوزراء ، وقد استل سيفه وصاح فينا شحذاً للهمم : قفوا !! الثبات ، الثبات ! . . ولات من ينادى ، فقد واصلنا العدو والاحتماء فى الحوارى ، ونحن نسمع طلقات الرصاص تختلط بأصوات طرقعة أحذيتنا فوق الأرصفة ، وانطلقت شرارة من حديد كعب واحد يجرى أمامنا . . فحسبناها رصاصة .

ولا أنسى زميلي في الدراسة ، وابن حتتنا المرحوم الدكتور أحمد زكي مطر . وكان يمثل نوعاً من البسالة الهادئة. إذ أنه بالرغم من قدم صناعية تمنعه من العدو السريع ، لم ينكص أبداً عن الاشتراك في المظاهرات . فإذا ما جرينا للاحتماء ممن يتعقبنا ، كانت تتنازعني عوامل النجاة بنفسي ، وعامل الزمالة والأخوة فأخفف من عدوي حتى لا أفترق عن صديقي الشجاع .

وسأحكي في الفصل التالي قصة حصار الإنجليز للأزهر ، لمنعنا من الوصول إليه للاشتراك في ليالي الوطنية العظيمة . وكيف وقف زملاؤنا الأزهريون على مقربة من الديدبانات الإنجليز يسرون إلينا بكلمة « زاوية العميان » وكيف كان يقودنا بعضهم خلال دروب الأربع القديمة إلى باب خلفي من أبواب الأزهر يعرف بهذا الاسم ، لا يدري الإنجليز بأمره . وقد تنبه ديدبان إنجليزي نجيب إلى الكلمة وحسبها تعني « ممنوع المرور » فكان يرددها لمن يفد عليه منا ، بلكنته هكذا « آوت إلميان » فيتلقانا الدليل الأزهري إلى الممرات الخفية في ظلام الليل ، على ضوء مسرجة من صفيح .

في ليلة من تلك الليالي التاريخية — حين كان الخطباء من علماء المسلمين ورجال الأكليروس القبطي يتداولون المنصة إنهاضاً للهمم ، وإيقاداً للشعلة المقدسة — كانت التعليمات قد ألقيت إلينا بحماية الجبهة الموحدة ضد عوامل التفرقة ، يوم نشرت الصحف نداء للزعماء يطالبون الأمة بالهدوء والكف عن كل مظاهر العنف . لم نكن نعرف إن كانت تلك خطة سياسية مرسومة أو أنهم صدعوا بأمر عسكري . مهمتنا كانت أن نقاوم التهجم على هذا النداء من قبيل رسل حزب يعارض الوفد . وقد احتدم النزاع بين خطبائنا من طلبة الطب والحقوق ، وبين طالب بالحقوق أوفد من قبل ذلك الحزب ، وكان من أقدر خطباء الثورة بياناً وفصاحة وحماساً . وانفض الاجتماع مبكراً ، مما دعا بعض المتحمسين للسهرة الليلية إلى محاولة الاعتداء على جماعتنا ، التي اعتبرت مسئولة

عن « فشل الاجتماع » فصرخ فيهم أجهرنا صوتاً ، وأقوانا عضلا ، وأثبتنا جناناً — الدكتور محمد حلمى الجيار — ونادى بوحدة الزعامة ، وبسقوط دعاة الفرقة والانشقاق . وكان لموقفه الشجاع الفضل فى نجاتنا من الضرب . . بالمراكيب .

هذا ما كان من أمر الطلبة الذين التحقوا بالمدارس العليا . . قططاً عمياء . وقد قضوا العام كل حسب ما يحسن وما يستطيع القيام به دفاعاً عن مقدرات الوطن ، وطلاباً للاستقلال التام ، ولم يتحقق وشيكاً، أو الموت الزؤام ، وقد ظفر بشرف الاستشهاد من بيننا غير قليل .

كان أثر الثورة علينا أشبه بالإعصار، وقد جرفت الموجة العارمة زملاء لنا استقروا فى السجون حتى أخرجهم سعد زغلول فى أول وزارة رأسها — وكانت الأخيرة — ورحم الله من قضى منهم على أعواد المشانق ، أو برصاص الغادرين . وعاد من عاد منا إلى مدارسهم،شباباً أنضجته الثورة ، وضمرته المحنة ، وفتحت عيونه على آفاق واسعة من المعرفة .

لأن ثورة ١٩ ، فى صميمها غير الواضح،لا فى أقوال زعمائها ، ولا فى هتافات أبنائها،كانت تعنى فى ضمير الزمن شيئاً أبعد بكثير من التحرك السياسى ، ألا وهو «التحرر الذهنى» . وإذ كنا نلتمس المعونة عند دول أوربا ضد إنجلترا ، فقد حرصنا على أن نفهم ونعى ما يجرى فى أوربا . وكان هذا أول العهد بنا فى قراءة الصحف الأجنبية — وجريدتى « الطان » و « الدبيا » بخاصة — لنعرف ماذا تتحدث به عن ثورتنا ، ونتابع أخبار مؤتمر فرساى. وفيها عرفنا لأول مرة ماذا يحدث فى الروسيا ، وسمعنا بكرينسكى والمنشفيك ولينين وتروتسكى والبلشفيك . ومع أن الصورة التى كانت توصف بها الثورة الروسية فى صحافة الغرب كانت صورة مفزعة فى سعارها ، فقد أحسسنا بأن ثمة بركاناً هائلا تفجر فى إمبراطورية القياصرة ، حاولت الدول المنتصرة إطفاءه بكل الوسائل ،

فإذا جنود الروس البيض بقيادة دنيكين وكولتشاك وفرانجل ، تذوب ذوبان الجليد عند مقدم الربيع .

ولم ننقطع منذ ذلك التاريخ البعيد عن متابعة أخبار السياسة العالمية، فالوعى إذا تيقظ لا سبيل إلى إخفاء الحقائق عنه . ولكننا عرفنا مبكراً ، مع الأسف ،أن بلوغ الحقائق فى المعترك السياسى بعيد المنال ، وأن الصحافة ذات مقدرة عجيبة على تلوين الوقائع حسب ميولها السياسية وتوجيه الأحزاب لها . ومنذ اليوم الذى اعترف فيه الرئيس ويلسن ، الأستاذ الجامعى صاحب المبادئ المشهورة ، منذ أن اعترف رئيس الولايات المتحدة بالحماية على مصر ، أصبنا بخيبة أمل خرجنا منها بشىء كان له أكبر الأثر فى حياتنا المستقبلة . .

هو أن نتحصن دائماً بقوة من أفعل قوى العقل ، وهى الشك ، وأن لا نعتمد فى أمورنا إلا على أنفسنا .

زاوية العميان

— آوت اليميان ، آوت اليميان يا لا !

بهذا نطق الصاجن البريطانى ، وهو واقف خلف الجازباند الحربى المؤلف من متراليوزات كلها على سنجة عشرة ، ضمن كوردون حصار الجامع الأزهر لمنع المواطنين من بلوغه حيث يعقدون اجتماعاتهم الليلية التى اشتهرت بها ثورة سنة ١٩ .

ويظهر أن الصاجن كان ذكياً مفتح الأذن ، فقد لاحظ أن القادمين منا بعد العشاء لاجتماع الأزهر ، يرتدون بسرعة عن مواصلة السير إلى « باب المزينين » قبل أن يوقفهم هو ، وسمع بعض « الوطنيين » يدلون إلينا بكلمة السر .

ـ من زاوية العميان ، زاوية العميان !

فطن الصاجن إلى أن هؤلاء « الوولاد الجييو » الواقفين بالقرب من نقطة الحصار يتكفلون عنه بمنع مرور مواطنيهم، ورنت فى أذنه كلمة « فى زاوية . . . » كأنها « آوت » ، وقارب بين اصطلاح « آوت اف باوندز » و« آوت اليميان » ،كأن اللغة العربية فرع من الأنجلوسكسونية.

ولا أنسى أول جندى بريطانى فى الحرب العظمى الأولى ، وجه إلى الكلام يسألنى عن الكلمة الفرنسية المكتوبة فوق لوحات محطات الترام ، وهى « أريه » ، فيقول لى هل معنى « آريت » بلغتكم هو « ستوب » بلغتنا ؟ وصحح الغلام خطأ فارس سان جورج ، وأخبره بأن « ستوب » فى لغتنا « محطة » . فقال له « آه ، أنتم تكتبونها آريت وتنطقونها ميحاتا ! » وهو يظن أننا نكتب لغتنا بحروف لاتينية ، ويحسب أننا كالإنجليز إذا كتبوا كلمة « مطاط » مثلا ، نطقوا بها « لستك » ، وربما « كاوتش » ، والله أعلم .

عرفنا ، نحن طلبة المدارس العليا ، القادمين لحضور اجتماع الأزهر الليلى . أن زملاءنا الأزهريين متكفلون بتوصيلنا إلى داخل جامعهم العظيمة برغم الحصار ، ونسير قدماً لنبتعد عن « جازباند » الصاجن ، فيتلقانا الزميل الأزهرى ويدلف بنا من شارع إلى حارة إلى زقاق إلى عطفة ، وندخل ربعاً ، وننتقل من سطحه إلى خرابة ، ومنها إلى حوش ، فحارة وكل هذا فى ظلام دامس تضيئه هنا وهناك لمبة صفيح بفتيل غاز . ثم ننتهى إلى بوابة مقفلة ، ندق عليها دقاً خفيفاً ، فتفتح لنا . . . وإذا الأزهر حافل ، مثل كل ليلة ، بعشرة آلاف ، بعشرين ألفاً قل بأكثر أو بأقل ، لا أدرى . . . كأن الصاجن ورجاله لا يحاصرون الأزهر . . و إنما يحاصرون هايد بارك فى لوندرة . . .

يدلف طلبة المدارس العليا : الطب والحقوق ، والمهندسخانة

والمعلمين العليا والزراعة والتجارة ، إلى داخل الأزهر ، ليتفرقوا بين صفوف الجالسين حول منصة الخطابة يستمعون إلى خطباء الحفل تلك الليلة : أصحاب الفضيلة والنيافة المرحومين الشيخ الزنكلونى ، والشيخ أبو العيون ، والقمص سرجيوس . وكان تقليد الحفل يقضى بأن يبدأ زميل أزهرى بتقديم ضيوف الشرف الوافدين ، وهم يجلسون فوق شرفة المبلغ العالية ، يراهم الجمع الحاشد . وبينهم قساوسة من السريان الكاثوليك ، والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس بطيالسهم السوداء ذات الحواشى الزرقاء وطرحهم السوداء تنفرج عن أكاليل أسطوانية مخنصرة فى وسطها .

وقلبى عند الزميل الأزهرى ، وقد كتبت له أسماء الآباء الروحيين فى ورقة ، يطالعها على الضوء الضعيف ، والبصر كليل ، فيقرأ الإيجومانس حكيم فرفوريوس . . الانجة مانولى فردوسيوس . ويقرأ المونسنيور فغالى . . . أبو النسور بغالى . . .

العين بالعين ، والسن بالسن . فعندما يقوم نيافة الإيجومانس ليشكر استقبال الأزهر له ولزملائه ، يجيء هو أيضاً « شيخكم زنقلاوى » . . . وشيخكم أبو العينتين . . » وتخرج أسماء شيوخنا الأجلاء من بين طاقتى أنفه وقد عراها ما قد عراها ! ماذا يهم ! إنها الأمة الكريمة على شتى أجناسها ومللها ونحلها ، تجتمع فى بيت الله ، مصدر الإشعاع الوطنى ، بعد أن تكون قد أدت واجبها نهاراً فى مظاهرات لا ينقطع سيرها ، احتجاجاً لدى المفوضيات والوكالات ، وتشييعاً لجنازات شهداء الوطنية ، وإذا الجنازات ، كالمظاهرات ، تفرق برصاص المتراليوز من اللوريات البريطانية.

لم تجلس جماعتنا ، كما قلت ، فى مكان واحد ، بل تفرقنا كل فى قطاع وسط الآلاف المؤلفة المتربعة تنتظر الرأى من قادتها .

ذهبنا تلك الليلة موفدين من قبل قواد الحركة الوطنية لنمنع شراً مستطيراً ونوقف خطر تفرق الكلمة والتفاشل . فقد صدر فى صباح ذلك اليوم

بالذات بلاغ وصفته « الأهرام » بأنه « بيان من عقلاء الأمة » وعليه إمضاءاتهم يرجون البلاد أن تخلد إلى السكينة وأن توقف المظاهرات ، وتترك الأمر بين أيديهم يتدبرونه .

ولكن رجال المعارضة أوفدوا خطباءهم ليشككوا فى وطنية البلاغ ، وهم أصحاب رأى راسخ فى معارضة مبدأ المفاوضة قبل الجلاء .

ولم يكن الطلبة الموفدون من رئاسة الوفد المصرى يعرفون شيئاً عما يدور وراء الستار ، ويبدو أن قد بدأت مفاوضات فى ذلك الحين للإفراج عن سعد باشا — وكان منفياً فى مالطة — والسماح له بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى .

قام خطيب المعارضين ، وكان من طلبة الحقوق ، يندد ببلاغ عقلاء الأمة ، ويطلب أن لا تغمض عين ، ولا تقف يد ، ولا يخفت صوت حنجرة ، قبل أن يعلن الإنجليز عزمهم على الرحيل عن البلاد . وأن يستمر الإضراب ، والمشاغبات والاضطرابات حتى يسلم الإنجليز بمبدأ الجلاء العاجل الناجز .

وكان الشاب — رحمه الله — من أبلغ خطباء الثورة ، يتدفق بياناً وسحراً، فى لغة عربية نارية، جعلت الحاضرين يستمطرون اللعنات على الإنجليز ، وعلى «خرقاء الأمة» فتدوى أصواتهم فى مثل هزيم الإعصار .

ويقوم طالب آخر من طلبة الحقوق — ومن جماعتنا — وبلاغته من النوع الهادئ الرصين ، ليدافع فى لباقة بارعة عن « البلاغ للأمة » ويحاول أن يدخل فى روع الجماهير أن الوطنية الحقة هى فى الاستماع إلى صوت العقل أولا ، ومن ثم إلى بيان « عقلاء الأمة » وفى خلال ذلك يتكلم بخير عن الحزب المعارض ، ويثنى على زعمائه ، وما ضحوا فى سبيل الوطن منذ أوائل القرن ، وكأنه يرمى من وراء ذلك إلى تشكيك السامعين فى أن زميله الخطيب الأول يتكلم باسم ذلك الحزب .

وإذا لم يكن قد نجح تماماً فى تهدئة النفوس ، فلا أقل من إشاعة القلق فى الجماهير ، ودفعها إلى ما فى إمكانها من تفكير رصين .. إن وجد !

وقام طالب آخر من جماعتنا — وكان طالب طب — يخطب فى المعنى نفسه ، ولكنه يلجأ إلى العنف ، كالخطيب المعارض ، دون أن تكون له بلاغته ،ويستنزل السخط على الإنجليز ، وأعوان الإنجليز ، فيظن الجمهور أنه سيهاجم بيان عقلاء الأمة ، وإذا به يرد على خطيب المعارضة ، دون أن يشير إلى حزبه بخير أو بشر . ويحاول أن يثبت فى عاطفة جياشة ، وأسلوب حماسى ، أن الثورات مهما حمى أوارها ، فإن من الخطر الداهم أن ينفلت عيارها ، وأن نجاح الثورات رهين بوحدة القيادة ، والانصياع التام لها .

وهنا يحدث أن يقاطع زميلنا من ناحية الخطيب المعارض ، فنقوم — كل فى مكانه من الجمع — لنغطى على صوته . . . وتترى المقاطعات من هنا وهناك ، ويشتد الهرج والمرج ، فيتولى شيوخ الأزهر — وكلمتهم مسموعة — تهدئة الخواطر ويختم المرحوم الشيخ الزنكلونى بخطاب رائع الديباجة ، يحث فيه على وحدة الأمة ، ويحذر من التفاشل ، ويؤازر الوفد المصرى ويدعو له بالتوفيق والنصر . ويحرص على أن يفهم الجميع بأن خطابه هو نهاية اجتماع الليلة

ويفض الاجتماع على غير هوى الجماهير ، موطدة العزم كل ليلة على السهر إلى ما بعد منتصف الليل تستمع إلى الخطب الرنانة ، فكيف يطلب إليها التفرق ، والساعة لم تبلغ الحادية عشرة ! .

وقد أراد بعض المتهوسين أن يفتكوا بخطيب مدرسة الطب ، المسئول فى عرفهم عن فشل الاجتماع . . . فحميناه بصياحنا وتهويشنا عليهم . . . وحماه زميل لنا عرف بصوت كالرعد ، وشدة بأس ، وقوة

عضل . . . بأن رفع ذراعه القوية فوق الرؤوس وأنذر من يلمس خطيبنا بأنه مقتول لا محالة بضربة واحدة على أم رأسه لا ثانية لها .

ولا أذكر تماماً من أى الأبواب خرجنا . كل ما أقطع به أننا وقد دلفنا إلى الأزهر من زاوية العميان ، خرجنا من باب آخر .

وعندما مررنا بالصاجن « المستشرق » . . . حرصنا على أن نناديه فى الهزيع الأوسط من الليل :

ـ آوت اليميان يا جونى !

طبيب العيون ، وعيون السمكة

فى ورقة طائرة بين مذكراتى ، قرأت هذه الكلمات مؤرخة يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩١٩ : « من يوم أن عاد الموظفون (إلى أعمالهم ، بعد الإضراب العام الكبير) لم نسمع خبراً ساراً . ومن شروط الصلح المقدمة لألمانيا أن تعترف بالحماية البريطانية على مصر . بيد أن الوفد يعمل بهمة واجتهاد حسب ما هو ظاهر » .

« مدارسنا أقفلت لأننا لم نرجع إليها بأمر اللنبى ، والحالة هادئة فى كل القطر ولكن يخرج بعض الناس بعد الساعة العاشرة (مساء ؟) ليتظاهروا فى المدينة وقد سقط عدد من الضحايا » .

وتحت تاريخ يوم الاثنين ٢ يونيه من العام نفسه ، أطالع : « تركت السياسة واجتمعت بأصدقاء قدماء ، اتفقت مشاربى ومشاربهم فى الأدب والموسيقى . الليلة ذهبنا للاستماع إلى قصة الظاهر بيبرس بحى الصاغة يتلوها رجل مليح السمرة ، يلبس جلباباً أبيض . إلقاؤه طبيعى جذاب يغير لسانه عندما يلقى كلاماً يجىء فى القصة على لسان الإفرنج ، فيتكلم بلكنة الجرسونات اليونانيين » .

ترجمة كل ذلك أننا منذ يوم ٩ مارس ١٩١٩ فى إضراب واشتغال بالسياسة وواضح أن حياتنا ابتعدت عن الدراسة تماماً ، وأننا مهددون بأخطر ما يتهدد الشباب : الفراغ والجدة .

وكان عام السياسة هو أيضاً عام القراءة الأدبية المستفيضة ، ودراسة الموسيقى ، كما كان حقبة مغامرات عاطفية عنيفة كادت تدمر حياتنا المدرسية ، التى لم تنتظم تماماً إلا فى سنة ١٩٢١ حين عادت سيرتها الأولى من التوازن بين التحصيل العلمى الجاد، والاطلاع العام فى الفنون والآداب.

ولكن أزمة النمو العقلى والشعورى تركت آثارها فى نفوسنا كلوماً وندبات ، أشبه بما يبقى فوق وجه الشباب الألمانى بادياً ، من أثر ضربات السيوف فى مبارزاتهم المشهورة .

وإذا كنا قد تأخرنا عن الصفوف الأولى فى دراستنا ، فقد كسبنا خبرة وتجربة ومعارف أكبر مما يحصله الشبان عادة فى مثل سننا . ولعل سر حياتى القلقة ثاو فى فترة الجهاد الوطنى ، والفراغ الذى سمح لى بمتابعة نزواتى الفنية والعاطفية .

ومع أننى أتممت دراستى الطبية فى ميعادها (بعد ضياع سنتين) ، وحصلت على ميدالية فى طب العيون ، هى التى قادت خطواتى إلى قسم الرمد ، فإن صلتى بالفن والأدب لم تنقطع . وذلك بالرغم من أن التحاقى بذلك القسم فرض على مواصلة الدراسة . فلم يكن فى زماننا أقسام تخصص وماجستير ودكتوراه ، وقد حرص قسم الرمد بمصلحة الصحة العمومية على تقويم معارفنا علماً وعملا ، وفرض علينا أداء امتحان عسير يتألف من قسمين ، فى طب العيون ، وإدارة المستشفيات .

بدأت حياتى العملية ـ على خلاف حياتى المدرسية بالمرحلة العالية ـ فى توازن عقلى ووجدانى دام سنتين بالتمام والكمال ، أداء لواجباتى فى المستشفى وإعداداً لامتحانات تخصصى ، مع مواصلة دراسة الموسيقى ،

والقراءة الأدبية والتاريخية .

العام الأول قضيته بالقاهرة ، ما بين مستشفى الرمد بالجيزة ، ومستشفى روض الفرج (وكان خياماً منصوبة) . والعام الثانى قضيته بمدينة طنطا (سنة ١٩٢٥) وكان من أسعد أيام حياتى ، بسبب التوازن النفسانى ، ولما خبرته فى أهل طنطا ، بل أهل الإقليم كله من كرم طباع وطيب مودة .

ولقد أوفدت فى مأموريات قصيرة بمستشفيات المحلة الكبرى ، والسنطة ، ثم بنها ، وكان لها أثر عميق جداً فى نفس القاهرى الذى لم يخرج عن مدينته إلى الريف سوى مرة واحدة فى طفولته — ولبضعة أيام — ومرة واحدة فى شبابه — يوماً أو بعض يوم — بصحبة محمود تيمور لزيارة أرض لهم بقويسنا .

عرفت قومى ، وغرست حبى للوطن فى إبليز الوادى الخصيب ، فأينع وأزهر وما فتئ يظللنى حتى يحين الحين فأوى تحت ثراه الأقدس .

وهنا موضع قصة أحب سردها على أصدقائى ، فى صورة ابن المدينة المعترف بضآلته ، الراضى بمهانته ، عقاباً له على جهالته .

لقد رأيت نبات القطن نموذجاً فى قاعات الدرس ، ورقاً ولوزاً وهدباً أبيض ولكنى لم أك رأيت القطن زهراً . . حتى ذلك اليوم البعيد فى طنطا ، عندما ركبت عربة بحصان واحد ، إلى جانب عمدة من عمد البلاد المجاورة ، دعانا لقضاء يوم بدواره . . سألته فى حياء عما يكون ذلك الزهر الأصفر الجميل يزين الحقول على جانبى السكة الزراعية . . أجابنى بلهجة هادئة ، لا تخلو من رثاء : دا قطن يا دكتور !

وما عتم العمدة حتى تحول إلى طبيعة المصرى الصميم ، من كلف بالسخرية . فما برح يسألنى عن كل ما نمر به من أعمدة التليفون ، وقضبان السكة الضيقة ومزلقاناتها : دا إيه يا دكتور ؟ دى أسلاك

التليفون يا عمدة . دا مزلقان يا حضرة العمدة ، أجيب وكأننى الراهب يضرب نفسه بالسياط فى صومعته .

ليتنى عدلت يوم الحسوم ذاك عن رغبتى الملحة فى ركوب الخيل ، فما إن جلسنا نستروح نسمات العصارى فى شرفة سلاملك الدار ، أمام ساحة البلدة ، حتى جىء إلى بجواد عربى أصيل ، لا داعى لتلمس المعذرة فى نقد طريقة سرجه ولجامه فلن يغير هذا من عنوان ذلك اليوم فى لوح القدر : يوم الذلة والهوان .

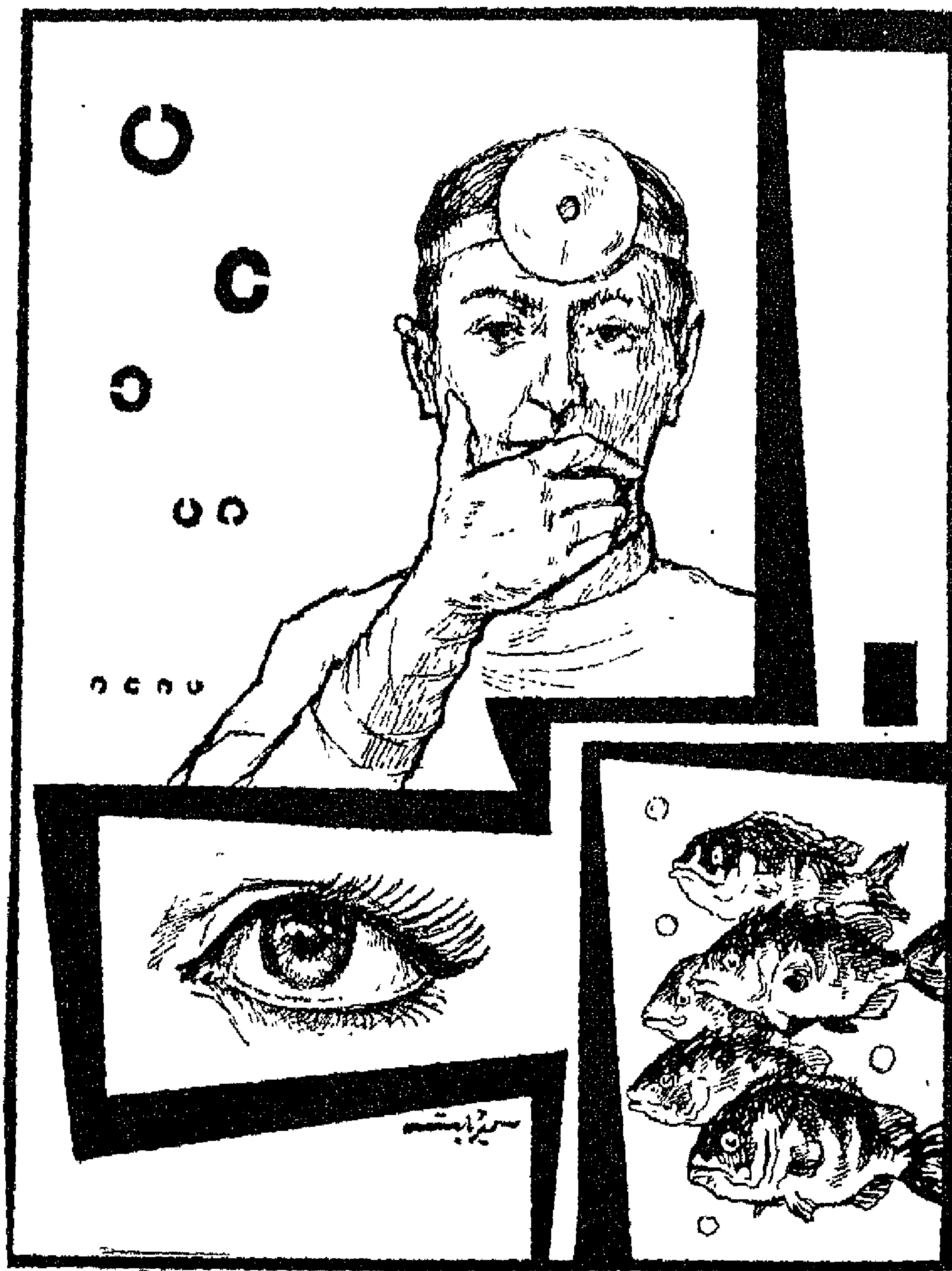
ما إن دار الفرس دورته حتى أدرك وزن ابن المدينة . ولعل العمدة قد أسر إلى جواده بأننى « الهايف » الذى لم يتعرف على زهرة القطن ! فطرحنى الجواد الكريم عن ظهره ، أو كما علمنا أساتذة الإنشاء العربى : نبذنى نبذ النواة. ونهضت من سقطتى لأتلقى تهنئة العمدة على سلامتى ، ولأسمع بأذنى قوله : معالهش يادكتور ولا كل من ركب الحصان خيال .

كانت حياتى مستقرة هانئة ، ومستقبلى مورقاً مزدهراً . . كتلك الأزهار الذهبية اليانعة التى لم أعرف اسمها .

ولكنه القلق المستحوذ على كيانى ، المتربص بى ، ولكنه قلى الركود والرتابة وآثار الرومانتيكية الحادة التى لم أك شفيت منها تماماً ، هى التى قررت مصيرى عندما سولت لى نفسى استحالة ممارستى للمهنة النبيلة حتى آخر عمرى وأن المقلة وحدها لا يمكن أن تحتوى رغباتى ونزعاتى .

وكان قراراً خطيراً ذلك الذى اتخذته بينى وبين نفسى ، ونفذته ضد نصيحة أصدقائى وزملائى ورؤسائى . . وهو هجر عيون البشر إلى دراسة شىء هائل عجيب ، مجهول لى تماماً فى غير ما رأيت من سطحه ، وما قرأت عنه من أساطير . ألا وهو البحر .

ولا تفسير عندى لهذا القرار أكثر من الرغبة العارمة فى العلم والمعرفة ، والتشوق الشديد إلى ورود ينابيع الحضارة الأوربية التى نشأت كلفاً بها ،



معجباً بالقليل الذى رأيته وعرفته وسمعته من آثارها . ولقد أدرك رؤسائى تلك الرغبة فأكدوا لى أن سيجىء دورى فى البعثة إلى مستشفى مورفيلدز بلوندرة ، ولكنهم لم يدركوا طبيعتى القلقة ، ورغبتى فى التغيير .

ثم ما هى سنة أو سنتان أقضيهما فى مستشفى متخصص بلوندرة ، إذا ما قارنت ذلك بسنوات أقضيها ما بين باريس وتولوز وعلى شطئان بحر الشمال ، والبلطيق والأطلانطى ، والأبيض ، ناهيك بما تخيلته من ركوب بحار الدنيا ، واتصالى بأهل البحر الذين قرأت عنهم فى رحلات السندباد وفى «عجائب الهند» ، بره وبحره وجزائره ، لبزرك بن شهريار الناخوداه!

ولا أنسى ، وقد تقرر أن أسافر بالبعثة العلمية إلى فرنسا لدراسة الأحياء المائية ، وكتمت الخبر إلا عن صديقى ورئيسى المرحوم الدكتور محمد بكرى ، ونحن نعبر ترعة الجعفرية فوق القنطرة الموصلة إلى مستشفى الرمد الأميرى ، إذ تقدم شاب من طلبة المعهد الدينى ، وحيانى بأدب بالغ ، وقدم قصيدة مديح من تأليفه مهداة إلى بمناسبة عملية أجريتها له ، أو كشف نظارة ، لا أدرى . .

سرت والمرحوم محمد بكرى فى طريقنا إلى المستشفى نتبادل الابتسام وأتساءل ماذا يقول هذا الطالب الأزهرى لو عرف بأنى تاركك ، وتارك تخصصنا ، من أجل عيون البحر الزرقاء ؟

أجابنى بكرى ابن النكتة الساخرة : ما أظنه إلا أن يقول : خسئت يا خئون! أتطوى كشحك للعيون التى فى طرفها حور . . من أجل عين السمكة ؟

البعثات وما أدراك ما البعثات

قبل أن أستأذن القارئ فى التوقف عند ختام سنة ١٩٢٥ ، أحب أن أتحدث عن معنى السفر بالبعثة التعليمية ، لما لهذا الموضوع من خطر لم ينقص ، بل زاد بحكم التطور الكبير الذى تمر به بلادنا ، وبازدياد الحاجة إلى إيفاد الشباب لإتمام تعليمه وتثقيفه خارج الديار .

لقد مرت البعثات منذ النصف الأول من القرن الماضى بأدوار من النظم ، بدأت بنظام البيت الواحد « للأفندية » يشرف عليهم مدير للبعثة من أهل البلد الموفدين إليه ، وتؤمهم شخصية دينية كان من حظ هذه البلاد أن يتولاها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى .

وفى العشرينات الأولى من القرن الحالى وبعد افتتاح التمثيل الخارجى لمصر ، انتقلت وظيفة الإمام إلى المفوضيات وعين لإدارة البعثات مصريون ، وإن ظل مدير البعثة التعليمية فى لوندرة بريطانيا حتى آخر الثلاثينات . وتحددت الرقابة على أعضاء البعثات بحدود الإشراف المالى والإدارى والعلمى فحسب . ولا أعرف عن النظام المتبع حالا سوى أنه يشبه فى كثير ما كان متبعاً أيام بعثتى . والجديد فيه — بقدر علمى — هو حظر الزواج بالأجنبيات .

ونجاح الطالب فى بعثته أو عدم نجاحه ، وحسن سيره أو سوء سلوكه (فيما تدر) أمورها مرهونة بظروف الطالب نفسه ، لا أحسب المشرفين عليه يستطيعون فيها أكثر من التوجيه والنصح ، فاتخاذ الإجراءات الإدارية المرسومة .

ويمكن القول بصفة عامة أن نظام البعثات نجح تماماً ، وكفل للبلاد مجموعة ممتازة من رجال العلم والأدب والاقتصاد والقانون والطب والهندسة

والتكنولوجيا إلخ . وبفضلهم استطاعت مصر أن تبلغ ما بلغته اليوم من كفاية القائمين على شئونها التكنوقراطية ، ومن أداء الخدمات الجلى للبلاد العربية ، وبعض البلاد الإفريقية .

وقد سألت الأستاذ أرنولد توينبي في الندوة التي نظمها السيد صلاح دسوقي محافظ القاهرة السابق بين المؤرخ الكبير وبين «عدد من قادة الفكر في الجمهورية» (راجع مجلة «الكاتب» عدد أبريل ١٩٦٥) «قلت في محاضرتك الأخيرة إن التطورات في البلدان العربية متباينة ، وإنك تقدر مدى تقدم مصر على البلدان العربية بمائة وخمسين عاماً ، هلا شرحت لنا على أي أساس تقيم هذا التقدم ؟ هل هو أساس تكنولوجي ، أم فكري ، أم علمي ؟ »

أجاب البروفسور توينبي : «إن مصر من أحد الوجوه متقدمة بأربعة آلاف عام ، هذا إذا وضعت التاريخ المصري في الاعتبار . وأعتقد أن الماضي المتراكم من التاريخ المصري : القديم والإغريقي ، والروماني والمسيحي والإسلامي — أعتقد أن هذا الماضي عظيم جداً ، ولقد دخل كله في حياة شعب مصر . ولكني حينما قلت ذلك فإنما كنت في الواقع أفكر من زاوية إدخال الأساليب العصرية ، والثقافة الفرنسية ، ومن زاوية أن المصريين هم أول طلبة من العالم العربي يذهبون إلى أوربا . وأعتقد إذا لم أكن مخطئاً أن محمد علي هو الذي أرسل الطلبة إلى فرنسا حوالي ١٨٢٠» .

وسر نجاح البعثات العلمية هو — أساساً — الدقة المتناهية في الاختيار ، وتطبيق قواعد علمية تطبيقاً عادلا ، لا محسوبية فيه . ولقد اشتركت بجامعة الإسكندرية في لجانها لاختيار بعثاتها ، بعد نهاية الحرب العالمية مباشرة . وتصويري لأعمالنا في تلك اللجان هو أننا كنا «نزن المرشحين بميزان الذهب» ، سواء في اللجان ، أو في مجلس الجامعة . ولن أجد لنظام البعثات عندنا في الماضي والحاضر (باستثناء فترة

سوداء إبان الاحتلال البريطانى) إلا كلمات الثناء أزجيها لكل من قام ويقوم على شئون البعثات. فالإحساس بالتبعة التاريخية حيال البلاد واضح فى الماضى والحاضر على السواء .

ولكن ما لم يستطعه أولئك وهؤلاء ، ولعلهم لم يحاولوا حتى التفكير فيه هو موضوعى اليوم :

إننى لا أعرف فى العلوم والآداب والفنون فى العصر الحديث كتلة شرقية أو غربية ، وفيما يتصل بأثر البعثات على الحياة المصرية لا أريد أن أعترف بثقافة لاتينية أو سكسونية أو صقلبية (سلافية) إلا فى بعض صورها الظاهرية. وضيق العقل وحده هو الذى يقيم موازنة بين تلك الثقافات ، ففى دنيا العلم والمعرفة والفن والأدب لا أعرف إلا عالماً واحداً، هو عالم « الحضارة الحية» . وهذا هو المعنى الذى أعربت عنه فى سؤال ثان وجهته إلى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فى الندوة المشار إليها .

فوزى: فيما يتعلق بموضوع البلدان المتخلفة ،أو النامية ، أو كاملة النمو ،يبدو لى أن هذا يتحدد فى الغالب على أساس اقتصادى أو صناعى ، أو تكنولوجى . فهل لى أن أسأل البروفسور توينبى عن أساس حضارى لتصنيف البلدان: ماذا يمكن أن يكون هذا الأساس فى رأيك ،؟ متى تصف بلداً بأنه متقدم ،أو آخذ فى النمو ، من وجهة النظر الفكرية أو الحضارية؟

توينبى : « . . فلنأخذ بلداً آخر فقيراً جداً بمعدل الفرد ، إيسلندة : مواردها ضئيلة جداً، فهى بلاد جرداء ، والناس يعيشون هناك على صيد البحر ، وبناء بعض السفن ، وهم يبيعون سمكهم المجفف لإفريقيا الغربية. ومع هذا فهم متحضرون جداً ، ومعظم صيادى إيسلندة يستطيعون أن يتناقشوا مناقشات طريفة حول بعض المسائل الأدبية . حينما كنت هناك سمعت قصة سفير النرويج الذى كانت له اهتمامات بنوع من الأدب الأيسلندى يسمى « الزارجا » وصدرت هناك طبعة جديدة من هذا

الكتاب ، وتردد السفير فى شرائه بسبب ارتفاع ثمنه ، وآثر أن يعود فى وقت آخر . ودخل فى تلك الآونة صياد يسأل عن الكتاب ، ويخرج نقوده على الفور ليقتنيه . وشعر السفير بالخجل ، وعاد بعدأسبوع مصمماً على شراء نسخة ، وإذا الطبعة قد نفدت ! هذا بلد فقير اقتصادياً ، ولكنه يتسنم القمة من الناحية الحضارية . وفنلندة مثل آخر : كل إنسان هناك يقرأ ويقتنى الكتب ، ولا ينفق نقوده على التفاهات » .

وهنا سألته عن بلد قريب جداً منا ، مقرب إلى قلوبنا ، اليونان ، هل هو متخلف ، أو نام ، أو متقدم ؟

توينبى : «أضعه فى نفس الموضع الذى وضعت فيه فنلندة وإيسلندة : إن اليونان قوم ممتازون » .

وعلقت على إجابته بقولى: « إننى حينما أريد أن أحكم على بلد ، أسأل عن عاصمتها ، إن كانت فيها دار للأوبرا ، وجامعة . وهل لديهم قاعات للموسيقى وأوركسترا سمفونى ، وكيف تعمل مجلاتهم ، وماذا يحقق مثقفوهم فى العالم ، هل لديهم روائيون ممتازون ، وما حال المسرح عندهم ؟ وما إلى ذلك ، أعنى لو أن الأمم المتحدة أقامت أساساً من الحضارة الروحية ، وليس مجرد أساس من الآلة ، كما تفعل اليوم ، لكان هذا أفضل : لأن الدول النامية حينذاك ستفكر فى الوصول إلى تفوق حضارى ، أكثر مما تفكر فى إقامة الآلات والصناعات » .

لقد ذهبت إلى أوربا لأدرس علماً من العلوم ، وتطبيق ذلك العلم فى تنمية الثروة القومية ، وقضيت شطراً هاماً من عمرى أؤدى واجبى فى هذه الناحية ، ولكننى كنت مدركاً تمام الإدراك بأن وراء مهمتى العلمية والتطبيقية شيئاً يفوقها : وهو دراسة الحضارة حتى أغوص إلى أعمق أعماقها . وفى كتاب « سندباد إلى الغرب » فصول تصور بعض وجوه تلك الحضارة .

وأثناء بعثتى كنت أود لو تدخلت إدارة البعثات فى توجيهنا إلى الناحية

الحضارية ، كأن تجمعنا فى ندوات عن معنى الحضارة نتبادل فيها الخبرات والانفعالات التى تثيرها حياتنا وسط المجتمع الأوربى.

ويمكن أن أقسم المجموعة الممتازة من المبعوثين الذين عرفتهم أثناء إقامتى فى أوربا إلى فريقين : فريق نبغ فى تخصصه وتعجل الحصول على دبلوماته وعاد « على الطائر الميمون » إلى بلاده . ويغلب على ظنى أن التكنوقراطيين الكبار فى مجتمعنا اليوم ينضوون فى هذا الفريق . وما عليهم فيما فعلوا من حرج ، بل الخير فيما أتوا .

والفريق الآخر أضاف إلى تخصصه تفقهاً بمعانى الحضارة ، فطالع الأدب ، وارتاد المتاحف والمسارح الجادة وقاعات الموسيقى الرفيعة ، والمحاضرات العامة وربما أطالت تلك الاهتمامات ، لسبب أو لآخر ، سنى دراسته . ولكن ما من شك عندى فى أن هذا الفريق هو الذى يجب أن تعتمد عليه البلاد فى تطورها الحضارى .

ولقد لاحظ الممتازون من زملائى فى البعثة أن أساتذتهم الكبار ، ذوى الأسماء الرنانة فى تخصصهم ، واسعو الاطلاع على مقومات الحضارة ، بل يسلك بعضهم فى الحركات الفنية والفكرية . وعندما اشتركت فى جمعية موسيقية للهواة بمدينة تولوز (جمعية شارل بورد) لاحظت أن من أعضائها بعض شخصيات المدينة ، من رجال العلم أو الإدارة أو الطب أو الهندسة . وكان يجلس فى أوركسترا الجمعية ، على قيد خطوات منى ، ويعزف على الفيولا ، أستاذى المساعد فى علم النبات . وما زلت أطالع اسمه بين علماء الإيكولوجيا النباتية الكبار .

وعندما توجهت إلى مونيخ سنة ١٩٢٩ للقيام بدراسة تخصص فى جامعتها ، لم يتردد واحد من أساتذتها — أظنه كان مشتركاً فى الحركة النازية — فى أن ينظر إلى من عل « كواحد من أبناء تلك الشعوب المتخلفة » ولم يشفع لى عنده أنى تتلمذت على علماء كبار فى السوربون وجامعة

تولوز ، إذ كان من الواضح أن ذلك النازى غير حفى بالفرنسيين ، فلم يخف على استهتاره بعلمائهم .

ثم حدث أن التقيت به فى حفل موسيقى خاص بالرباعيات الوترية ، وإذا بالرجل يعدل موقفه منى ، فيناقشنى صباح اليوم التالى فيما سمعنا من موسيقى ، ويعجب إذ يعرف بأنى أمارس ذلك الفن ، ومشترك فى أوركسترا السوربون . وقد أقبل بعد ذلك على ، وأعاننى بكل ما وسع على أداء المهمة العلمية التى أوفدت إليه بها ، ثم دعانى إلى منزله ، وقدمنى لأسرته.

لقد ذكرت هذه الواقعة لأن فيها انتقالا فجائياً من عدم الاكتراث إلى الاحتفاء . والحقيقة أن سر نجاحى فى المجتمعات الأوربية لم يكن مرجعه تفوق فى علم من العلوم ، بل لأن من اتصلت بهم كانوا يحسون منى وعياً لحضارتهم ، فلا يجدون خيراً من أن يقابلوا ذلك بالتحدث عن مجد بلادى القديم وثقتهم بأنها تتبوأ عاجلا مكانتها اللائقة بتاريخها .

كم أود أن تعنى وزارة التعليم العالى بتوجيه أعضاء بعثاتها العلمية إلى إدراك معنى الحضارة التى يعيشون بين أهلها من الكتلة الشرقية أو الغربية . ولا أعنى بالطبع الحضارة فى مظاهرها المادية ، أو فى المعاملات الاجتماعية من طعام أو ملبس أو مرقص ، وإنما أقصد الحضارة بمعناها الروحى والثقافى العميق .

وأعجب ما لفت نظرى أخيراً أن يشجع المبعوثون إلى بلاد إفريقيا على تأليف الكتب عن البلاد التى يعيشون فيها زماناً . فائدة هذا واضحة ، فهى تؤدى إلى تعريفنا بإخواننا البعيدين ، أولاد قارتنا . إنما مصدر عجبى أن لم نفكر يوماً فى الأربعين سنة الماضية بأن نشجع أعضاء البعثات إلى أوربا على التقدم بدراسات عن أصول الحضارة التى نعموا بخيراتها العقلية والوجدانية .

وهل صنع شيخنا رفاعة رافع الطهطاوى غير هذا عندما كتب رسالته « تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » ؟

وإذا شئت أن تعرف رأيى فى رفاعة الطهطاوى ، فإليك ما جاء عنه فى كتاب « سندباد مصرى » :

« وعاد رفاعة إلى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى . عاد ليدرس وينشئ المدارس ، ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . . مضى يكتب ، ويخطب وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ، ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم الآراء الفاسدة ويبذر بذور التقدم . يبصر أمته بروعة ماضيها ، وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها . لا يكل فى ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود ، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان . . لولاه ولولا الفريق الذى رباه ، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل » .

إنما الدنيا مسرح كبير

« كل قوة تستنفد ، والقدرة على قيادة التاريخ ليست من الخصائص الأبدية . فأوربا التى ورثت القيادة عن آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة قد لا تحتفظ بها دائماً » .

المؤرخ إرنست لافيس فى سنة ١٨٩٠

توقفت فى سرد ذكريات الماضى عند التحول الأول فى مسار الحياة ، حينما تركت الطب إلى العلوم ، ثم اتضح لى بعد تأمل طويل أن الأسباب التى تلمستها للتوقف عن سرد ذكرياتى كانت أعمق مما تصورت فقد وقفت عند اختيارى عضواً بالبعثة لدراسة الأحياء المائية وعلوم البحار . ويبدو أن فترة الغربة والتحصيل فى أوربا وقد طالت إلى خمس سنوات ، فرضت على — قبل أن أقدم على استعادة ذكرياتها — أن أعنى بتحليل عام للحياة الغربية ، ومحاولة فهم أوربا لا كما كانت تتمثل لى نتيجة لتربيتى ودراستى فى مصر بل فى حقيقتها التاريخية . ولعل هذا يفسر اتجاهى فى الأشهر الماضية نحو مطالعات فى تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين .

فلم أكن أعرف — ولا يمكن لإنسان فى وقتها أن يدرك — أن فترة إقامتى بأوربا من ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ لها حساب فى التطور التاريخى الحديث . فهى فترة الرخاء المضطرب ، و « السنين المجنونة » (تسمية الفرنسيين لها) بعد الحرب العالمية الأولى ، وقبل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى بدأت يوم « الجمعة السوداء » فى وول ستريت ، واجتاحت العالم كله فى أوائل الثلاثينات .

ومع أنى تتبعت أحداث العالم حولى ، فقد كنت غير مدرب الحاسة التاريخية بحيث أعى خلال الحوادث الجارية علاقتها بمجرى التاريخ العام ، لا سيما وأن قراءاتى التاريخية اقتصرت على حقبات حضارية معينة ، أهمها حضارتى المصرية والعربية وحضارة اليونان فى عصرها الذهبى ، ثم تاريخ عصر النهضة « الرينسانس » فتاريخ الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت حتى أفول نجمه فى واترلو (١٨١٥) ، وحتى وفاته حبيساً فى سانت هيلانة .

ومعنى ذلك أننى لم أكن تعمقت دراسة العصر الأحدث والأقرب إلينا . ولعل هذا يفسر انصرافى منذ بعض الوقت إلى مطالعات تاريخية عن القرن الماضى والحاضر .

أدركت مثلا هذه الحقيقة البسيطة جداً ، وهى أن وقوع مصر فريسة للإمبريالية كان أمره محتوماً لا مناص منه ، حتى بفرض أن لم يتول إمارة البلاد تلك الشخصيات المسخ المهلهلة التى تحمل أسماء عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق ، وحتى لو لم تحدث هوجة عرابى . فقد كنا ، وكل الشعوب غير الأوربية . نمثل أمام أوربا قصة الحمل والذئب ، مأكولين مأكولين .

وعرفت مثلا أن حركاتنا القومية لمقاومة الاستعمار لم تكن لتؤدى إلى زحزحة الغاصب ، عندما كان الغاصب غولا يفطر بنصف قطر ، ويتغدى بقطرين ويتعشى بنصف قارة . ولكنها كانت الشعلة المتقدة فى أغوار النفوس الأبية ، لا تطفئها البصقة التى قيل بأن السير ريجنالد ونجت قل أدبه وأشار إليها قبل ثورة ١٩١٩ .

وما أصدق كلمة لغاندى انطباقاً على حالنا فى تلك الأيام الخوالى ، بل ما أقربها إلى ما كنا نقوله فى غمار حماسنا الوطنى :

« إن البريطانيين يريدوننا أن نضع جهادنا على مستوى المدفع

الرشاش ، فهم يملكون السلاح ونحن شعب أعزل . وليس ثمة ما يؤكد انتصارنا عليهم إلا أن نبقى على مستوانا نحن ، وأن نحارب بأسلحة لنا لا يملكها غاصبونا ».

ولقد شرحت فى مكان آخر (سندباد مصرى) وبالإفاضة اللازمة ، صراع القومية المصرية ضد الغاصب الرومانى والبيزنطى ، وأن ذلك الصراع إن دل على شىء ، فعلى أن مصر كانت من أقدم الشعوب وعياً وممارسة للمقاومة السلبية .

كان غاندى البرهمى العظيم عميق الاطلاع على كتب الحكمة الهندوكية (كالأوبانيشاد و الباجافاد — جيتا) . ولعل فقرة من « أوبانيشاد الشهندوجيا » تفسر لنا المعنى الروحى الذى كان غاندى يعمل بوحيه :

« الإنسان مخلوق إرادى ، حياته فى الآخرة تنبع من إرادته فى الدنيا . فلتكن إذن عقيدته وإرادته هى أن الإنسان الذكى ، ذا الكيان الروحى ، والتكوين النورانى ، الصادق الفكر ، الأثيرى الطبع ، من يفوح العنبر الزكى من نفسه ، وينبع الذوق الجميل ، والأعمال الصالحة ، الإنسان الذى تنضوى جوانحه على كل ذاك ، دون شقشقة لسان ، أو عجب وخيلاء ، هو "أنا فى قلبه" ، إنه الروح السامى — أى البراهمان » .

فلنتمعن قليلا فيما يحدثنا به تاريخ أوربا فى خواتيم المائة عام التى انتهت عند سنة ١٩١٤ :

كانت أوربا على حد قول اللورد كينس تعيش حقبة فوق العادة من التقدم الاقتصادى للإنسان ، كانت ذروة العالم الرأسمالى اللبرالى . وقد رسم العلامة الاقتصادى الكبير صورة صادقة لأوربا فى رخاء أممها ، وثراء أفرادها ، وبلهنية العيش بها ، والإحساس العام بالطمأنينة .

وكانت الدنيا كلها تقدم لأوربا السلع التى لا تخرجها أرضها ،

والمنتجات الاستوائية النادرة التى لم تعرفها أوربا إلا مؤخراً ، والتى تمثل غاية الترف . بينما تتلقى بلاد الدنيا من « المصنع الأوربى » سلعاً كانت أوربا وحدها هى التى تستطيع إنتاجها بكميات وفيرة . وكان العالم مفتح الأبواب والمسالك ، أزيلت منه الحواجز إلا القليل ، والناس والسلع ورءوس الأموال والأفكار تنتقل حرة فى كل مكان .

ولاحظ أن تلك الدنيا ، أو ذلك « الايلدورادو » الذى يصفه كينس لم يكن العالم فى شموله ، ولا حتى أوربا بأكملها ، بل كان بعض أوربا ، « البعض المسيطر » ، أى مجموعة البلاد الأوربية القائمة فى غربى القارة ووسطها ، وهى التى تضم « بؤرات الحضارة الغربية » . وحتى الدول الجديدة ، كالولايات المتحدة واليابان ، التى تشارك فى استغلال موارد العالم ، كانت بنت أوربا ، تقلدها وتستألف وسائلها ومثلها وطرائق معيشتها .

كانت سيطرة الرجل الأبيض — أو بعض الشعوب البيضاء — تبدو كأن الشعوب المغلوبة على أمرها تستمرئ هيمنتها صاغرة ، وكانت وحدة شعوب الأرض تبدو كأنها قد تحققت ، ونظمها السياسية تظهر كالطود الشامخ متين البنيان .

ولم تمض أربعون سنة على عام ١٩١٤ حتى تغير الموقف كلياً ، وكأنه ديكور مسرحى يبدله ويغيره الماكينست المتجلى فى صورة حربين عالميتين ، وأزمة اقتصادية لم يعرف لها التاريخ مثيلا فى شمولها العالم بأسره.

حرب ١٤ كانت حرباً أهلية داخل أوربا ، دامت أربع سنوات . هزت ثورة الروسيا سنة ١٩١٧ العالم الرأسمالى الكبير هزة لم يعد بعدها إلى سابق عهده ، بل لم يعد فى المستطاع إرجاع الحياة سيرتها الأولى واطمئنانها وأمنها ورخائها .

قبل أن يكمل القدر (أو حتمية التاريخ) ضرباته على أم رأس أوربا فى صورة الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩ ، فالحرب العالمية الثانية ،

كان تدهور أوربا واضحاً لكل من يدقق البصر ، أو يكشف بالبصيرة . فإن النظام الرأسمالى كله، ذلك البناء المشمخر ، أخذ يتصدع منذ اليوم البعيد فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩ المعروف فى دوائر المال بنيويورك باسم « الجمعة السوداء » .

فما عرفت أوربا ، ولا العالم ، منذ ذلك الوقت هدوءاً ولا راحة . فقد تلاشت الثقة بالمستقبل والطمأنينة. إلى الحاضر ، وترنح النظام اللبرالى تحت ضربات النظم الشمولية فى روسيا السوفييتية وإيطاليا الفاشستية ، وألمانيا النازية ، وكلها تصفع وتركل وتدوس على مبادئ الحرية ، روح الحضارة الأوربية منذ نهاية القرن الثامن عشر .

ودارت رحى الحرب العالمية الثانية ولما تزل آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى ، فشلفطت الفاشستية والنازية وأذنابها ، بل محتها من وجه الأرض ، لكنها آبت بنتائج غير منظورة ولا متصورة . فإن كانت الحرب قد بدأت بين أمبرياليين طماعين نهابين يتناحرون على ملكية العالم ، فقد ختمت على أم رأسهم جميعاً وتخلصت من براثنهم أكثر الشعوب المغلوبة فى إفريقيا وآسيا .

وحتى شعوب أمريكا اللاتينية لم تعد تقبل سيطرة الدولار بروح الاستسلام القديم .

ثورة عالمية لم يتغير بها وجه السياسة والاقتصاد وحدهما ، بل وجه الفكر والعلم والفن أيضاً . فالفيزياء التقليدية انزوت فى متحف العاديات ، والقوبرنطيقا (الإليكترونيات وشبكة الأعصاب فى الحيوان إلخ) وما إليها من اكتشافات وإنجازات قوضت أساس الفكر الفلسفى .

والفنانون والكتاب صرفوا النظر عن تساؤل العبسى القديم « هل غادر الشعراء من متردم » ، لأنهم استغنوا عن ذلك القديم يقلدونه أو يبنون فوقه — وإن حرصوا عليه — وراحوا ينهجون ويقتحمون مسالك جديدة عبدوها

للقصة والتمثيلية والقصيدة والصورة والمصنف الموسيقى والتمثال . فلم تعد الوسائل القديمة تفلح فى التعبير عن العالم الحديث القلق ، ولا هى بمستطيعة أن تمثل علاقة الإنسان بنفسه ، وبغيره ، وبالعالم حوله .

أكتب هذا وأمامى ، تحت لوحة المكتب الشفافة ، إعلان ملون صغير عثرت عليه داخل كتاب قديم ، تدعو فيه شركة سكة حديد باريس — ليون — البحر الأبيض المتوسط (ب. ل. م) إلى كرنفال نيس وإلى تيرو الحمام بمونت كارلو ، وإلى زيارة نيس وموناكو ومنطون . . . تذكرة ذهاباً وإياباً مداها عشرون يوماً ، إبان شتاء ١٩١٤ ، ويمكن مدها لفترتين كل منهما عشرة أيام (لاحظ مدى تلك الإجازة الشتوية التى لا يقدر عليها اليوم سوى قلة من حفريات العصر الرأسمالى !)

والصورة على رأس الإعلان من أصدق ما يمثل حقبة الرخاء والهناء : أربع سيدات جميلات ، بقبعاتهن الواسعة الأطراف ، طويلة الريش ، وفساتينهن الحشمة لا تكشف إلا عن أقدامهن الصغيرة فى أحذية كحوافر الغزلان ، وفتحات مثلثة بين الكتفين والنحر . أربع سيدات فى ألوان هادئة يهرعن فوق بساط سندسى إلى لقاء النسيم الحالم يلصق أثوابهن بأجسامهن ولكن فى منتهى الحشمة والوقار ، وخلفهن نخيل تمايل أعطافه ، وتهتز أغصانه تحت لمسة الشمأل فوق الريفييرا .

ما أكثر ما أقارن بين هذه الصورة الساحرة فى سذاجتها وحشمتها ، وبين الإعلانات الحديثة ، أو المقالات المصورة التى تنشرها مجلة «لا يف» فى سلسلاتها السياحية . . . ذلك كان عالم الاسترواح والهدوء والأمن ، جنات عدن فوق الأرض ، فى مقابل جمال زائف حتى فى عريه وفحشه وتواليت وأصباغ تحاول كلها — دون جدوى — أن تخفى القلق والفزع ، والأعصاب المنهكة بالسهر والانحلال .

أولئك السيدات المحتشمات كن يعملن لدنياهن كأنهن يعشن أبداً . .

أما الغوانى العاريات ، فتمثلهن على غلاف « لا يف» مانكان رشيقة ، تهوى من يخت إلى مياه البحر الأبيض الزرقاء . . . وكأنها فى طريقها إلى جهنم الحمراء . لأنها تعيش لدنياها وكأنها . . . بل لأنها قد تموت غداً .

ألم تذكرنا الصحافة الأوربية فى هذه الأيام بمرور عشرين عاماً على قنبلة هيروشيما التى قضت على مائة ألف من البشر فى ومضة عين ؟

طالب بالبعثة التعليمية

اكتشفت عرضاً وأنا أستعد للسفر إلى أوربا أن بعثى كان مقرراً لها الدراسة بجامعة كامبردج ، ثم تحولت إلى جامعة تولوز ، حيث يوجد معهد متخصص لدراسة الهيدروبيولوجيا (وتعنى تقنيا : بيولوجيا الماء العذب) وتربية الأسماك . واستطعت بعد وصولى إلى مكتب البعثات فى باريس ، بطريق الإقناع والبينة أن أعدل برنامج بعثى ، على أساس أن أبدأ بدراسة التاريخ الطبيعى (الحيوان والنبات والجيولوجيا) والفسيولوجيا العامة والبيولوجيا ، لإمكان التوسع فيما بعد لدراسة شئون الحياة المائية فى البحار والبحيرات والأنهار .

واقتنعت البعثة بأن أسجل اسمى فى كلية العلوم بجامعة باريس ، وأن أحضر الدراسات الحرة بالمعهد الإقيانوغرافى القائم على مقربة من السوربون .

وإذا كنت هنا أخدع نفسى ، فمن غير اللائق أن أكذب على القارئ . لأن قرارى البقاء فى باريس — وإن دافعت عنه أمام البعثة بالأسباب المشار إليها — انتهيت إليه بعد أول زيارة لقاعات الصور بمتحف اللوفر .

وإذا كانت حياتى كطبيب بمصر قد بدأت مزدوجة ، يتنازعها الشغف بالمعرفة وعشق الفن ، فقد أوقعت زيارتى لقصر اللوفر الفاس

فى الراس . ولذلك رتبت أمرى على مواجهة حقيقة مفزعة ، وهى أن حياتى ستكون أشبه بحياة ابن يتنازعه والداه بعد انفصالهما انفصالا نهائياً . والوالدان فى هذه الصورة الكلامية هما : العلم والفن ، أو العلم والمعرفة والأدب والفنون ، إذا أردنا أن نكون أكثر تفصيلا .

وزيارة اللوفر هى أيضاً بحاجة إلى شىء من التفصيل . فقد وصلت إلى باريس فى شهر نوفبر ١٩٢٥ ، وعتام الشتاء مخيم على مدينة النور أو « المدينة — النور » كما يسميها أهلها . والنهار يقصر ، فلا تنعم بضوئه الخافت إلا بعد التاسعة صباحاً ، وقبل الخامسة مساء . ولا أذكر أنى رأيت الشمس الطالعة بعد ذلك حتى شهر مارس .

دلفت إلى متحف اللوفر بعد ظهر يوم من أيامى الأولى باريس ، ولبثت فيه حتى كسر الحراس قُلّتَة خلف الزوار المتشعلقين بشباك الفن ، شايلله يا سيدى لوفر !

لم أك أفهم شيئاً فى الفن التشكيلى — ولا أحسبنى أدرك من أسراره اليوم سوى القليل — كل معرفتى به كانت قراءات ومشاهدة نسخ صغيرة من بعض الصور المشهورة ، وارتياد معارض الربيع الأولى بالقاهرة ، واطلاعاً لا بأس به على العصر الرومانتيكى فى الأدب والموسيقى والتصوير . ولكن مجرد رؤيتى لأصول بعض ما سمعت عنه ، أو رأيته منسوخاً ، وروعة الألوان — برغم اليوم العبوس — ثم بذخ مجموعات اللوفر من الصور ، وبخاصة فى البهو الكبير ، والصالون المربع الشهير ، جعلنى أحس بأن حياتى ضائعة لو ركبت القطار فى بحر ذلك الأسبوع إلى تولوز للالتحاق بجامعتها ، على مدى اثنتى عشرة ساعة من باريس . تولوز إيه وبتاع إيه . إنى باق فى باريس ، أو مطالب بإعادتى إلى مصر .

لم أنته فى قرارة نفسى إلى ذلك القرار لأهدد به — فلم أك غراً يسعى إلى ضياع مستقبله حمقاً — بل لأن قرارى يستند إلى خطة واضحة :

إما أن أبقى فى باريس لأعيش الحضارة التى نشئت على الإعجاب بها ، والإيمان بمقدراتها ، أو أن أعود إلى بلادى لأواصل احتراف مهنة الطب ، وهى طريق ممهد إلى النعمة والثراء ، أتمكن معه من العودة إلى أوربا كل عام ، أقضى إجازتى فيما أختار من عواصم الحضارة .

قضيت ليلتى أستجمع شتات أفكارى وأدبر أمرى مع مدير البعثات ، وكيف أتقدم إليه بمعللات بقائى فى باريس عاماً أو عامين ، قبل الانتقال إلى تولوز .

والعجيب أن المدير — وكان المرحوم الدكتور حسن فؤاد الديوانى — رضى بما عرضته عليه دون جدال . لم أكن أعرف فى تلك اللحظة أن طريقه فى الحياة كان شبيهاً بطريقى . فما إن أتم دراسته الطبية حتى انتقل إلى العلوم وبرز فيها وعاد إلى مصر أستاذاً للبيولوجيا بمدرسة الطب المصرية ، ثم عين مديراً للبعثة التعليمية بفرنسا .

الصعوبة الوحيدة كانت فى إقناع الدكتور الديوانى بأنى جاد فيما عرضته عليه من توسيع قاعدة بعثتى ، وتصحيح البرنامج الهزيل الذى وضعه لها من لم يكن يعرف من أمر الأحياء المائية سوى أنها تربية السمك الأحمر فى الحدائق العامة ، وفساقى رجال الدولة والأعيان !

لم يوفدنى الديوانى للالتحاق بالسوربون فحسب ، بل أوصى بى واحداً من زملائه القدامى ، أخذ بيدى حين طرقت البحث العلمى بإشرافه فيما بعد — وكان هو أيضاً طبيباً تحول إلى البحث العلمى فى التشريح الدقيق للخلية (السيتولوجيا). وعدت بعد سنوات من بعثتى والدكتور بارا فى طريقه إلى المجد . حتى قضى غريقاً فى إعصار الأطلانطى الشمالى مع بعثة القومندان شاركو ، هو وصديقى الآخر كلوفيس جاكيير ، ضمن الأربعين نفساً الذين غرقوا أمام إيسلندة فى مأساة السفينة العلمية «بوركوابا» (سنة ١٩٣٥) .

ولا بأس من أن أذكر هنا مصادفات عجيبة وهى أن أكثر من عملت معهم فى البحوث العلمية ، بجامعة باريس ، والمعهد الأقيانوغرافى ، وجامعة تولوز ، ومتحف التاريخ الطبيعى القومى ، وبعد ذلك بسنوات فى بعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى ، كانوا أطباء تحولوا إلى العلوم . فلم يكن ما صنعت عجيبة العجائب كما ظن بعض الزملاء الأعزاء .

كانت السوربون إذن أول ما عرفت من صور الحياة الجامعية . ولذلك حرصت على دراسة نظامها دراسة وافية ، مع التركيز على كليات العلوم والآداب والطب. فقد عدت إلى مقاعد الدرس أكبر سناً وتجربة من زميلاتى وزملائى الفرنسيين . وعرفت منذ وضعت قدمى على أعتاب الجامعة معنى الفرصة النادرة التى تُتيح لى وعى كل شىء حولى ، وأن سنواتى فى أوربا وفى شرخ شبابى هى فترة تخزين النمل فى آخر الصيف من أجل الشتاء . فيها أستجمع ذخيرة العمر حتى أكون أقدر على خدمة بلادى . وأرجو أن لا تؤخذ هذه الجملة على أنها كلام « إنشاء » وروى أشعار ، وأن يعذر لى إغراقى فى المثالية ، فإذا لم يكن المرء مثالياً فى شبابه ، فمتى يكون ؟

لاحظت ظاهرة عجيبة فى محاضرات علم الحيوان ، وهى أنه من غير المعقول أن يرتفع مستوى التعلم هكذا فجأة بعد البكالوريا . فهذا أنا وقد درست فى مصر مواد إعدادى الطب ، وفسيولوجيا الإنسان وتشريحه ، أتساءل حيال مستوى المحاضرات : كيف يتسنى لزملائى الفرنسيين وهم لا يحملون غير شهاداتهم الثانوية أن يتابعوا تلك الدراسة المفصلة . وذهبت إلى أكبر الأساتذة سناً أسأله عن « الكتاب المقرر » فترفق الشيخ الطيب بى ، ولم يسخر منى بل أجابنى بهدوء : لو أن الأستاذ حاضر من كتاب بعينه لما اعتبر هذا تعليماً جامعياً . وأملى على قائمة صغيرة لكتب علم الحيوان بالفرنسية والإنجليزية . وجدير بالملاحظة أنه تعفف عن أن يشير

إلى كتاب من كتبه . وسألنى إن كنت أعرف اللغة الألمانية ، فأجبته بالنفى ، ودأبت بعد ذلك على دراسةتلك اللغة الأساسية لرجل العلم ، تلقيت دروساً خاصة بها طوال إقامتى بفرنسا ، وعلى حساب البعثة . ونصحنى بأن أتابع المحاضرات وأدون مذكرات بها مع الاستعانة بتلك الكتب ، قبل المحاضرة وبعدها ، حتى أتمكن من فهم الموضوع الذى يعالجه الأستاذ بتوسع كبير .

وكانت البعثة تصرف لنا عشرة جنيهات فى العام لشراء الكتب ، وهو مبلغ صغير حتى فى زمانه ، ولكنه كان مغرياً ومشجعاً على اقتناء الكتب ، بصرف النظر عن كفاية المبلغ أو عدم كفايته .

وقد حاولت أن أنتفع بمكتبة الجامعة فوجدت لها نظاماً يحتاج إلى صبر أيوب ، بسبب ازدحامها بالطالبين . وعندما انتظمت كطالب باحث فيما بعد ، عرفت أن جل الاعتماد هناك على مكتبات الأقسام وهى حافلة وافية ، لا تلجئ المرء إلى المكتبة العامة إلا للضرورة القصوى .

وساعدنى تدريبى فى مدرسة الطب المصرية (باللغة الإنجليزية) على تدوين المحاضرات بالفرنسية ، ولم يكن ذلك سهلا فى أول الأمر ، ولكن المران والاتصال بالزملاء والزميلات ، وعناية البعثة بنا لنتمكن من اللغة ، انتهت بى سريعاً إلى الالتئام بالبيئة الفرنسية ، واكتساب تقاليدها وطرائق تفكيرها . و « استذكارها » .

وأحب أن ألاحظ هنا أن الأستاذ لم يكن يحاضر فى أكثر من نصف العام الجامعى ، محاضرتين أسبوعياً ، يركز فيهما على موضوع أو موضوعين من أبواب المادة ، ويترك للأساتذة المساعدين مهمة تدريس بقية المادة على مستوى الكتب الجامعة (تكست بوكس) . ويختص بالتجارب والتدريبات العملية ـ تحت إشراف الأساتذة ـ مدرس يعرف برئيس الأشغال العملية ، يساعده المعيدون وهم خريجون ممتازون مهمتهم الأولى هى

البحث العلمي ، إعداداً لدبلومات الدراسة العليا والدكتوراه ، ويكلفون بالمعاونة فى الأشغال العملية ، مقابل منحة سنوية تسمح لهم بالكفاية المعقولة من العيش .

وملاحظتى على الحياة الجامعية فى كلية العلوم هى الجدية الصارمة ، وقيام علاقات الزمالة بين المجدين. أما من يتخلف عن المحاضرات والأشغال العملية فما أسرع ما يهمله الزملاء ، دون إظهار شيء مما يضمرونه له من رثاء ، أو عدم احتفاء . وكان هذا هو القيد الوحيد الذى يفرض على الطلبة الانتظام فى عملهم ، وهو كما ترى قيد أدبى اجتماعى محض .

والامتحانات تجرى تحريرياً وعملياً وشفوياً ، ولا يدخل الطالب الاختبار العملى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى ، ولا الشفوى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى والعملى . والشفوى أهمية كبرى فى الامتحانات الفرنسية بعامة ، ويجرى علناً ، أمام الزملاء . ولم ألاحظ فى زملائى ظاهرة الخوف والرعب من الامتحان ، ولا محاولة الغش. وكان الطالب يدرك أنه فى هذه الحالة يغش نفسه ، وهو لم يدخل الجامعة إلا ليحقق الكفاية اللازمة لمستقبله .

والطالب يقابل العميد فى ساعات محددة أسبوعياً ، ويدخل عليه حسب دوره فى الطلب ليعرض أمره أو شكايته ، جالساً أمام العميد تصاحبه أهم شخصية إدارية بالكلية . ولم ألاحظ أن العمادة تشغل الأستاذ عن بحوثه فى تفاهات وديوانيات مرهقة . لأن الجامعة حرصت على أن تسند كل تلك الأعمال إلى مختص إدارى يقوم بها « تحت إشراف العميد » ومع ذلك القليل الذى تقتطعه العمادة من وقت أولئك العلماء الأعلام ، فإنهم يعتبرونها ضريبة ثقيلة ، فالعمادة هناك تكليف لا تشريف . وتصبح هى والأستاذية شرفاً بعد ختام مدة العمادة ، أو إحالة الأستاذ على التقاعد فى الخامسة والستين ، (تمتد إلى السبعين لأعضاء أكاديمية العلوم) وهذه

قاعدة أساسية فى فرنسا : أن يستبقى العمداء والأساتذة ألقابهما شرفياً مدى الحياة .

ولا أنسى منظر العلامة الرياضى الكبير جان بانليفيه — وكان قد تولى قبل وصولى رئاسة الوزارة ، ثم تركها — منحدراً على سلم السوربون ، حاملا حافظة أوراقه ، ومتجهاً إلى محطة الأتوبوس بشارع المدارس ، ولا المسيو شيرون ، من وزراء المالية السابقين ، وقد شاهدته نازلا من الأتوبوس أمام باب اللوكسمبور (مقر مجلس الشيوخ) ليؤدى واجب عضويته بذلك المجلس .

لا شك أن الكثير من هذا تغير الآن ، وقد غدا لكل خمسة أو ستة من الفرنسيين سيارة ، وزاد عدد الطلبة زيادة بلغت حد المشاكل ، وتغيرت أخلاق الشباب بعد الحرب والاحتلال النازى .

ولكن ما لا أحسبه تغير أبداً هو حرص الجامعة على استقلالها ، فوزير المعارف هو رئيسها الأعلى (صورياً ودستورياً) . والاحترام الذى يحظى به لا أساتذة الجامعة وحدهم ، بل رجال التعليم عموماً فى بلد روحها وحياتها فى المعرفة والثقافة والارتفاع بالذوق الفنى ، والاحتفاظ بالمثل العليا فى العلم والتعليم .

أهلاً وسهلاً بالأحبا

عندما ركبت السفينة « الجنرال مترنجر » من الإسكندرية فى نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وصحوت ذات ليلة قبل الفجر لأشاهد أضواء مدينتى ريجيو ومسينا على جانبى المضيق بين إيطاليا وصقلية ، ورأيت بركان سترومبولى وجزائر اسكيا والبا وكورسيكا ، وعندما وصلت إلى ميناء مرسيليا ، أيقنت أنى دخلت دنيا الغرب ، أوربا الموموقة المرموقة . هأنذا أضع

قدمى على أرض فرنسا ، وريثة حضارات الشرق والغرب .

كنا جمعاً غفيراً من الشبان على ظهر الباخرة ، أغلبنا سيواصل رحلته عبر فرنسا ، ليبلغ مقر بعثته فى الجزر البريطانية . ولم يكن فى مجموعتنا القاصدة إلى باريس من سبقت له معرفة مرسيليا ، ولا فينا من له أدنى خبرة بإجراءات الخروج من الميناء ، فاضطررنا إلى الانصياع لواحد من الصياع ، ظل عالقاً بنا حتى خرجنا من المنطقة الجمركية إلى محطة سان شارل ، فى الطرف الآخر من طريق « الكانبيير » ، لنحجز أمكنتنا فى قطار الليل إلى باريس. وحل ميعاد الغداء ، والمدينة التى اخترقناشوارعها عامرة بالمطاعم . فماذا كانت حاجاتنا إلى الدليل الصايع ليدور بنا فى فى دروب وضيعة حتى نبلغ مطعماً لاينذر منظره بخير ، وقف ببابه رجل يلبس قميصاً بدون ياقة من الصنف الذى يزرر أعلاه بزر من نحاس ويبرز من قفاه زرار نحاسى آخر ، هما مربط الياقة ، إن وجدت وكان لها اعتبار عند صاحبها .

ولا أذكر ماذا كان يلبس فى قدميه ، لم يكن حذاء على كل حال ، ربما كان شبشباً ، ولكن السنوات الطوال التى مضت على التجربة المرسيلية الأولى تصوره لى منتعلا . . قبقاباً ! هذا الزرى الهيئة والبزة ، الشبيه بالخواجات الغلابة أيام زمان بشارع كلوت بك أو درب الجنينة ، استقبلنا هاشاً باشاً ، وصفق بيديه على الطريقة البلدية ، واحتفى بنا فى عربية لكناء :

ــ أهلا وسهلا بالأحبا !

ودخلنا المطعم البلدى لنجلس إلى موائد من رخام أو زنك أو خشب ، وقدمت لنا قائمة الطعام مكتوبة بفرنسية ماسحة ، وعربية كنغابيش الفراخ ، تزاحم هذه وتلك أصناف من البقع . وأكلنا طبق « مبرومة » ــ أى بامية ! ــ وأرز ، وربما جاء الحلو كنافة أو عيش السرايا ، والله أعلم !

أى أنه بعد خمس ليال قضيناها عبر البحر الأبيض المتوسط ، وبعد معيشة أشبه بما سيجرى فى فرنسا ، وقد بدأنا « نتمرن » عليها ، وبعد مشاهدة المدن الإيطالية والكورسيكية ، ولو على البعد ، ثم مرسيليا . . كأننا يا بدر !

وخرج « الأحبا » للتجول فى مرسيليا ، وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الميناء ، فى أحيائه القديمة ، مباءة للجرائم ، وملتقى أشرار الأرض طراً ، وأن من الخطر على السائح أن يتوه فى الأزقة ، وبخاصة إذا اقتاده إليها دليل يحترف شتى الحرف ، أبسطها القوادة !

اقترحت على « الأحبا » أن نزور متحف المدينة فركبنا إلى قصر « لونشان » ، ولا أذكر مما رأيت فى ذلك المتحف شيئاً ، فلم أعد إليه بعد ذلك أبداً ، برغم المرات الكثيرة التى مررت فيها بمرسيليا . أذكر فسقية جميلة أمامه فى وسطها مجموعة نحت لعلها تمثل بوسيدون إله البحر يسوق خيوله البحرية ذات الأعراف المتماوجة ، أذكرها لأن « للأحبا » صورة على حافة ذلك الأثر لا أجدها تحت يدى توا .

ثم صعدنا آخر النهار فوق ربوة أقيمت عليها كنيسة « سيدتنا الحارسة » . وكان يوم أحد ، فسمعنا ترتيل ألحان باصطحاب الأرغن ، وشاهدنا غروب الشمس فى منظر لا ينسى .

وفى الليل ركبنا القطار ، ووصلنا باريس صباح اليوم التالى فى عيد « الكترينات » حين تخرج فتيات المتاجر فى حلل العيد ويذهبن إلى الكنائس يبتهلن إلى القديسة كاترين أن تنعم عليهن بالعريس الفالح خلال العام المقبل . وفى المساء تزدحم الشوارع بهن ، وبمواكب ملكتهن . ويخطف الشبان القبلات خطفاً ، وكأنهم يخشون أن تتحول القبلة إلى شبكة فخطبة فزيجة .

كل هذا كلام فارغ جرى به القلم وأنا أحاول استعادة ذكرى

سفرى الأول إلى بلاد الغرب ، فترنح القلم بهذه التفاهات . ولكن ماذا يحول بينى وبين إحياء تلك الذكرى ؟ الواقع أن البحر أصبح فيما بعد ، ولسنين طويلة ، موضوع دراستى : أمواهه وأمواجه . وتياراته وقيعانه ، ونباته وحيوانه ، وأن أسفارى على سطحه ، وعملى على شواطئه دامت ربع قرن ، ركبت خلاله السفن الكبار والصغار ، عابرات المحيط ومراكب الصيد ، كواتر النزهة وسفن الأبحاث . ومع كل ذلك فإحساسى هو أن أعجب وأجمل وأعمق الرحلات أثراً . . كانت العبور الأول من الإسكندرية إلى مرسيليا .

وهأنذا أسأل نفسى عن تفسير لمجموعة أفعل التفضيل الواردة فى الفقرة السابقة فلا أحير جواباً . فالبحر فى تلك الرحلة الأولى لم يكن أكثر من « توصيلة » ، ولم تحتو الرحلة على شىء غير عادى ، فلا عاصفة هوجاء مما اختص به البحر الأبيض فى الشتاء ، ولا ظواهر أو وقائع مثيرة داخل السفينة أو خارجها .

والعجيب أن روعتها لا تتجلى الآن كمجرد حنين إلى الشباب — ولو أن فيها من هذا ما لا أنكر — بل لأن ذاكرتى تؤكد لى أنها كانت رائعة فى وقتها ، وأننى كنت مدركاً تمام الإدراك معنى ذلك الانتقال من وطنى الحبيب إلى البلد النائى الغريب .

لا محيص إذن عن الالتجاء إلى المذكرات التى كتبتها فى حينها ، مهما كلفنى ذلك من شيل وحط فى كتب ومجلات وأوراق وكراريس وسلبيات صور وخرائط رحلات . . . و . . فلنفحص بعض ما جاء بتلك اللمحات العاجلة :

« كل شىء جديد على : إجراءات الميناء ، الصعود إلى ظهر الباخرة ، البحث عن الكابينة . . . الإعجاب بمنظر السفينة تبتعد عن الرصيف وتدخل البوغاز لتخرج إلى عرض البحر .

« قضينا نحو ساعتين أو أكثر نرى البر ، تعبت من النظر إلى الأرض ، وتحولت عنها إلى تأمل الأفق على مدد الشوف . . استنشفت نسمات خيل إلى أنها جديدة ، وشعرت فى تلك اللحظة بأننى أتخلص من سجن ، وأنى أتنسم الحرية . »

وهذا الإحساس بنسيم الحرية لازمنى طول حياتى البحرية كلما غادرت سفينتى الميناء. حتى أيام رحلة الباخرة «مباحث» فى المحيط الهندى ، حيث كانت هى السجن لثلاثة أو أربعة أسابيع ، والأرض هى الانطلاق والحرية نحو أسبوع . ومع هذا ، فما أكاد أبلغ قمرتى ليلة الإبحار وأخلع سترة المدينة لألبس ما أسميه بدلة القرصان ، حتى أولى ظهرى للأرض ، وأستقبل البحر ، والسفينة ، وطناً للحرية ، لا حرية الجسد ، بل حرية الروح .

« إنها لحياة سعيدة على ظهر السفينة، حياة نسيان . غادرنا أرضاً لنصل إلى أرض ، الماضى والمستقبل ، فترة اتصال بين حياتين . هنا عيشة منتظمة متناسقة، حركة داخل حركة، حياة طليقة داخل سجن سعيد.

« وقد أفكر بتاريخ البحر الأبيض المتوسط، بسفن يونان تؤم أرض اليون، أو بسفينة أودسيوس تتيه فى بيداء الماء . أفكر بالأساطير التى قامت حول شواطئه: الهسبريدة، السيلا والكاربديس، الجزة الذهبية بأرض كولخيدة ، وأطلس يحمل عمد الدنيا فى أقصى الغرب . أصاحب سفن فنيقيا من صور وصيدا إلى الموانى البعيدة ، وجحافل هانيبال تعبره لتتحدى روما ، وجيوش سبيون الإفريقى تنحدر من الشمال لتدمر قرطاجة « دليندا كارتاجو» ، وسفن كليوبترة ومارك أنطونيوس أمام رأس أكتيوم، وجاريات جنوا وفنسيا. البحر الذى يبتلع التاريخ ولا يغيره الزمن.

« العاصفة ! (لم تكن عاصفة ولا دياولو) ظهر السفينة الذى كان منذ لحظة ممرحاً وملهى . أقفر فى طرفة عين واختفت الوجوه المستبشرة

وقد علتها غبرة وصفرة ،وآوى كل إلى ركن أو قمرة ، كأفراخ طير ضعاف. حتى المائدة لم أجد عليها إلا بعض ركاب السفينة .

« والليل حالك ، ولكن البرق يخترق السحب فى خطوط متعرجة ، كألسنة الأفاعى الخرافية من لهب ، أو سيوف تجردها أيدى الجن فى لمح البصر .

« وهدير العباب يغطى على قصف الرعود ، والمطر ينهمر بلا شفقة . . آوى إلى غرفتى فأطمئن إلى وجيب السفينة والمحركات لم تفقد رأسها . وأستلقى على السرير الصغير يتابع حركة السفينة ألعوبة الموج . فما هى إلا لحظة حتى أروح فى سابع نومة !

« كيف كانت العاصفة وكيف انتهت ؟! إن سلطاناً أقوى من العاصفة قد تملكنا ، هو سلطان الجسد . ونحن قبل أن نكون ألعوبة الطبيعة ، لعبة لطبيعتنا ، خلايا الجسم تنشد الراحة قبل كل شىء .

« كنت أرقب كل ليلة قيام البحر قرب انتصاف الليل ، أتأمل فى مقعدى خلال زجاج النافذة تلك الكتلة الهائلة من الظلام ، وأنصت إلى هدير الموج ، كأنه صدر إله من آلهة الاسكندناف يرتفع وينخفض تحت تأثير غضب هائل ، فأقوم مترنحاً لأنزل إلى غرفتى فأشعر بالهدوء والاطمئنان .

« هذه حياتى على ظهر "الجنرال متزنجر" .

« صحوت الساعة الخامسة وكان الظلام شاملا ، والجو فى رطوبة الفجر ، والسفينة لا يسمع فيها غير صوت آلاتها ، وأقدام المبكرين ، وبعض أفراد الطاقم يغسلون المماشى .

«أشباح سوداء فى الفجر الرمادى ، قطع من الظلام كأنها ظهرت تواً من قاع البحر . لأننا حتى غروب شمس البارحة لم نر أثراً للأرض منذ غادرنا الإسكندرية ، واليوم أرى الربى على جانبى السفينة ترصعها مصابيح

تضاءل نورها على البعد ، السفينة تجتاز مضيقاً بين أراضين عليها أثر الحياة ، ولو أنها الحياة النائمة . . وكان نور الصبح ينبلج فيكشف عن الأرض شيئاً فشيئاً . والسماء ارتسمت على صفحتها قطع السحاب رمادية اختلطت بها بعض قطع من نور . . إلى أن تبينت شاطئ إيطاليا وشاطئ صقلية ، والمنازل ذات الأسقف الهرمية متناثرة فى الأودية وفوق سفوح التلال ، والطرق منسابة فى خطوط تظهر بسيطة التعريج من هذا البعد . والمصابيح تنطفئ واحداً إثر الآخر ، كذلك النجوم تختفى تحت لمسة الصباح . ثمة قطار يقطع المسافة ، يبدو بطيء السير جداً من هذا البعد ، صغيراً كألعوبة الصبى . »

وتلى فقرات تصف بركان سترومبولى بالطول والعرض . « والدخان يتصاعد من فوهتين كبيرتين ، ومواضع أخرى حولهما ، يصعد أكثره فى عمود ضخم نحو السحاب ، ليتصل به ويندمج فيه ، أو هو صانع سحاب نفسه ، وينساب بعض الدخان كالأفاعى على جوانب القمة إلى مسافة قصيرة ، ليتلاشى بعدها . »

وفقرات عن شواطئ إيطاليا تبدو خطوطاً سوداء يتعرج بها خط الأفق . وقد غدا من النادر أن تمضى لحظة دون أن نرى أشباحاً بعيدة تنتشر فى الأفق حولنا . «هذه هى جزيرة كورسيكا ، ولاسم كورسيكا رنين فى نفسى ، هو ترجيع صوت الابن الذى غادر جزيرته ليحكم على أقدار الممالك فى أوربا . وذكرت والده المحامى البسيط — شارل بونابرت — وأمه ليتسيا تترمل عن ستة أو سبعة أولاد » . وهنا استعراض سريع لما تذكرت من حياة نابليون . « كم وددت أن تسرع السفينة لأصل إلى باريس ، وأقف تحت قبة الانفاليد ، أترك نفسى للذكرى قرب ضالتها : ذلك الجثمان المجيد . »

كنت شديد الإعجاب فى شبابى « بالكابورال الصغير » . وكلما نما

الفكر ونضج العقل واتسعت التجارب ، هبط سعر العبقرية العسكرية . وقد كره زماننا مثيرى الحروب ، عباقرة أو مجانين .

انصرفت إلى تأمل الطبيعة الكورسيكية كما تظهر فى البعد . « تلك الجبال والمنازل ، والطرق المتعرجة والمسالك الوعرة ، والبحر والسفينة ، ليس فيها جديد لعينى ، ولو أنها جديدة على إحساسى . فقد رأيتها فى الكتب والصور والسينما . حالة العالم الآن لاتجعلنا ندهش من شىء لأول وهلة . إنما الإحساس برؤية الأصل والحقيقة هو إحساس بكر أصيل أشبه بتحقيق حلم جميل » .

ثم هذه الخطرة الغريبة نتيجة رؤية المدن على البعد : « يا لله ! ما أجمل منظر المدن من البعد ، حينما نحيط مدينة كاملة بنظرنا . كأن نقف على ربوة ، أو فى أعلى الأبنية الشاهقة . بهذا الفرق هو أن الصورة باقية أمام أعيننا لا تتحرك فإذا هبطنا من المرتفع ابتلعتنا المدينة وابتلعت إحساسنا بها .

« ولكن فى السفينة نبتلع المدن، ونبتلع الجبال والبراكين. فهناك كان سترومبولى ضخماً مخيفاً ، مكشراً عن فوهات تنفث الدخان الأبيض والأسود . ماذا بقى من سترومبولى ؟ صورة صغيرة ، فنقطة ، ثم لا شىء ، غير الأفق وغلالة الدخان كسحابة واقفة .

« المسافة ! كلمة صغيرة ولكن أى غول هائل ، فهى قديرة على ابتلاع الأرض كافتها . لأتصورنى — مثل بطل قصة إدجار الن بو — مصعداً إلى جرم سماوى حتى أصل إلى حيث أرى الأرض نقطة منيرة ، نجماً بين النجوم . وماذا يمنعنى من تصور وصولى إلى أبعاد لا أرى منها هذه الأرض ؟ »

« بعد اختفاء كورسيكا لم يبق أمامنا إلا الوصول ، وحياة الحلم بدأت تعود حقيقة تبعث على التفكير . ماذا أفعل عند النزول إلى البر ،

وأنّى أذهب ، وكيف أسافر ؟ » سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره !

وفى مرسيليا « نفس الإحساس يتكرر وسيتكرر .. لقد تعودت أن أرى أوربا فى الصور والسينما وأن أتخيلها فى مطالعاتى . ووجودى بالميناء الفرنسى لا أصدقه بسرعة ، ولا أشعر لأول وهلة بأننى حقيقة أمشى فى مدينة أوربية . والأغلب أننى حملت من صالة سينما ووضعت فى فضاء سحرى ، أو أننى صورة صغيرة فى كارت بوستال تتحرك كأشخاص المندل. إنه لإحساس غريب ، ولكنه حقيقى ، لا يتلاشى بسرعة . »

وأخيراً هذا الانطباع من زيارة متحف فن تشكيلى (قصر لونشان بمرسيليا) : « إنها المرة الأولى أرى أصول صور وتماثيل كنت أقضى بعض يومى فى مصر باحثاً عن منقولات ضئيلة على كارت بوستال لأمثالها . هأنذا أرى الأصول لأشباه تلك الصور .

« جعلت أتمتع بهذه المشاهدة فى لهفة ، لا أنظر إلى التفاصيل ، بل أترك نفسى على سجيتها تنفعل وتتأثر . ماذا يهمنى أن يكون لتلك الصور قيمة فنية ؟ . »

الخطوات الأولى بباريس

لست ممن يشجعون على الإطلاق فكرة الاستغناء عن البعوث التعليمية إلى الخارج ، والاكتفاء بالبعثات الداخلية ، أى بما يحصله الطالب من علم وفن وتكنولوجيا فى مصر . ولا أنكر أنها فكرة صحيحة ولكن بقدر ، وفى حدود ضيقة . فلا داعى لتحميل الدولة عبء إيفاد أولئك الذين يكتفون فى الخارج بارتياد قاعات الدرس ، وحيازة درجات علمية يمكن أن يحصلوا عليها فى بلادنا .

وصحيح أيضاً أن سفر الشباب إلى الخارج بشهادة ثانوية أو بأقل منها خطر يجب حماية العيدان الرطبة منه . ولا أعرف فى العصر الحديث بعثات نجحت تماماً ، مع أن أعضاءها أوفدوا غلماناً ، سوى البعثات البحرية التى سافرت إلى إنجلترا فى العشرينات . ويمكن القول دون مبالغة بأن الفضل فى تقدم البحرية المصرية وتطورها السريع يعود أصلا إلى تلك البعوث البحرية الأولى . فرجل البحر — كدارس الموسيقى — يتعين أن يبدأ مبكراً جداً فى تعليمه وتدريبه . وإذا صح الآن أن نهضتنا الحاضرة تسمح بالتدريب الباكر والتعلم البحرى الصحيح فى بلادنا ، فإن ذلك لم يكن يصح فى أوائل العشرينات لضآلة ممكناتنا البحرية حينذاك ، بعد أن جردنا الغاصب المحتل من أسباب القوة فى البر والبحر .

حق إذن أن نقصر البعثات اليوم على شباب ناضج حصل فى بلاده أقصى ما تقدمه معاهدها العليا ، وأن نستمسك فى اختيار أرسالياتنا بمبادئ العدالة الكاملة ودقة الموازين ، مع التوكيد على أهمية إيفاد أكبر عدد من هؤلاء ، لأنهم يتعلمون فى الخارج أشياء أوسع وأعمق وأقوى أثراً من مجرد العلم والتدريب والحصول على شهادات .

فالشاب الناضج يسافر إلى الخارج مدركاً أعباء مسئولياته ، أقدر على قياد نفسه داخل المعهد الأجنبى ، وخارجه ، خلال حياة تختلف اختلافاً شديداً عن حياته فى مصر . والغالب أن يدرك مقدماً ويؤمن بواجبه نحو وطنه ، لا من الناحية العلمية والعملية وحدها ، بل من الناحية الاجتماعية والأخلاقية والثقافية .

ولا يفوتنى هنا توكيد المساواة فى بعثاتنا بين الفتى والفتاة فى كل مهنة اقتحمتها البنت المصرية إلى جانب الشاب ، لأن وعى المصرية لوجوه الحضارة والثقافة العليا أكبر أثراً فى مستقبل البلاد من وعى الشاب ، وأسباب هذا جلية لا داعى فيها لاستيحاء صورة « من تهز المهد بيمينها

أو يسارها إلخ » .

أصدر فى كل هذا عن تجربة طويلة المدى ، وقد عرفت فى أوربا كيف أميز بين زملاء يرجى منهم الخير العظيم – وقد حققوا فعلا هذا الرجاء – والزملاء الذين يجرى عليهم المثل السائر « حمار الصيف حمار الشتاء » ، وهم من لا يتعدى اهتمامهم فى حياتهم بالخارج حدود قاعات الدرس والتحصيل ، دون اضطلاعهم بفهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية ، وسر تقدم الغربيين فى مدارج الحياة الفكرية والفنية والعلمية والعملية . ودعك ممن يبخسون قدر هذه الحضارة ، ويتكئون على « روحانية الشرق » ومادية الغرب. فإذا كان معظم الخير فى الشرق هو الروحانية ، فإن خيرات الحضارة الأوربية تشمل الروح والمادة معاً ، فى توازن أخل به الاستعماريون والمغامرون النفعيون ، ولم تتجل الحضارة الأوربية لنا غالباً إلا فى أبشع صورها ، أى فى الرأسمالية والأمبريالية .

والملاحظ – باستثناء التجربة الحية التى يعيشها الطالب فى الخارج – أن كل من تشرئب روحه إلى الرقى الحضارى والتحرر الفكرى يستطيع أن يبلغ الكثير دون أن يغادر بلاده ، والنموذج المثالى هو المرحوم عباس محمود العقاد ، والفئة المشرقة الحية من أدبائنا الشبان. فهؤلاء يملكون القدرة على متابعة الحركات الأدبية فى الشرق والغرب متابعة طيبة بالاطلاع والدرس العميق ، ولا يعتبر نقصاً أن لم تهيأ لهم فرصة الخبرة بالمجتمعات الأجنبية .

ولكن هذا لا يصح دائماً فى كثير من المجالات الأخرى ، كالتمثيل والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية ، كما لا يصح فى كل جديد من العلوم والمعارف والتكنولوجيا ، لأن التجربة الحية والمران والاتصال المباشر أمور لا غنى عنها .

ذهبت إلى فرنسا معبأ بمعنى الحضارة الأوربية فى أصولها الفكرية والفنية ، مؤمناً بأن مستقبل الوطن رهين بالتمكن من مقوماتها الحقة فى

الفكر والعلم والفن والأدب ، لا فى مجرد نقل التطبيقات العلمية والخبرة التكنولوجية . فأساس التكنولوجيا هو العلم البحت ، وأساس العلم البحت هو الفكر المجرد ينطلق بحثاً عن حقائق الأشياء فى مجال حر . وقد خرجت بلادنا بفكرة عجيبة ، هى قلة جدوى الدراسات النظرية ، والبحوث الخالصة لوجه العلم ، وهل من داع لوجود كليات آداب فى كل جامعة مثلا ؟!!

معنى ذلك هو إقامة حياتنا القومية على مجرد النقل ، لا على تقييم الوجدان والعقل ، وإعدادهما للإبداع والابتكار . والابتكار فى العلوم يشبه من بعض الوجوه الإبداع فى الفنون والآداب . فإنك فى الناحيتين إما أن تكون مجرد ناقل ناسخ ، ولا قيمة كبيرة لما تنجزه ، وإما أن تكون مفكراً ، أو عالماً ، أو فناناً أصيلا ، فتساهم فى بناء حضارة وطنية قوامها الفكر والإحساس ، وأساسها العلم والمعرفة .

لقد أوفدت فى بعثة كل برنامجها أن أتعلم تربية السمك ، وكان تعليمى الطبى فيه الكفاية وأكثر منها أساساً لما وضعته البعثات برنامجاً لى . أما وقد سافرت على شىء من النضوج ، وعركت بمصر الحياة العملية سنتين اضطلعت فيهما ببعض المسئوليات ، فقد أدركت أن تطوير الاقتصاد القومى فى ناحية الثروة المائية يتطلب شتى المعارف والخبرات . وبذلك تمكنت فى يسر من إقناع الطبيب العالم مدير البعثة التعليمية بباريس بوجوب البدء من أول السلم ، أى بدراسة التاريخ الطبيعى والبيولوجيا والفسيولوجيا كعلوم بحتة أقيم عليها تدريبى العملى بمراكز الصيد ومناطقه ، ومعاهد الأحياء المائية وعلوم البحار لا فى فرنسا وحدها ، بل فى شتى الأقطار الأوربية . وقد كان ، فلا أعرف عضو بعثة أكرم بقدر ما أكرمت حين يسرت لى البعثة تحقيق هذا البرنامج إلى ما يقرب من الكمال فى خمس سنوات .

* * *

ما إن اطمأن قلبي إلى البقاء في باريس حتى طفقت أبحث عن سكن حرصت على أن لا يبعد كثيراً عن الجامعة ، وفي هذا تقول مذكراتي : « أريد أن أستقر في مكان لأعود إلى هدوئي الداخلي ، وأبدأ حياة منتظمة »

كان لقائي الأول بباريس مضحكاً بعض الشيء ، عندما اندفعت جماعة « الأحبا » ذات صباح عابس من محطة ليون إلى فندق صغير بالحي اللاتيني في شارع من أصغر وأقصر شوارع الحي — وما زلت أذكر ليلة حاولت العثور عليه ، فدرت حوله قرابة ساعة ما بين بولفار سان ميشيل وشارعي جي — لوساك ، وسوفلو !

والفندق ما زال قائماً ، وقد طالعت فوق بابه في العام الماضي لوحة أظنها وضعت حديثاً تشير إلى أن عالم التحليل النفساني سيجموند فرويد سكن في هذا المكان سنة كذا ، والغالب أن قد حدث هذا فعلا في مستهل القرن .

ومما ضايقني أن اضطرتنا صاحبة الفندق إلى مشاركة كل اثنين في غرفة ، وكان من نصيبي فتى شامي لا علاقة له لا بالبعثة ولا بالتعلم ، وقد نسيت الهدف من رحلته . لصق بنا منذ صعودنا إلى الباخرة « الجنرال مترنجر » حتى بلغنا الفندق في باريس .

وعندما جن الليل التأم شمل « الأحبا » وسرنا في الطرقات تشاهد مواكب « الكاترينات » ، فإذا شريكي في الغرفة ، وقد رأى الشباب يهجم على الفتيات لاختطاف القبلات ، نزل كالجائع العطشان يقبل هذه وتلك ويسخر من تزمتي ووقاري !

عدت إلى غرفتي وحيداً ، أحمل هم ذلك الرفيق الصفيق ، عندما يعود من تجواله . وإذا به يدخل على ، وأنا في أول إغفائي ، ويغير ملابسه تأهباً للسهرة ، ويزعق منفعلا « كيف أنام في باريس والبلد ما بتريد تنام » ، وطار إلى خارج الفندق . . ولم يعد في ليلته ، بل لم أر

وجهه منذ ذلك الحين !

ولما كانت صاحبة النزل تأبى أن تؤجر غرفها الكبيرة لشخص واحد ، فقد انتقلت إلى فندق حقق لى الانفراد . ثم كان من حسن حظى أن وفقت فى بضعة الأيام التالية إلى بنسيون بورجوازى على قيد خطوات من الجامعة ومن المعهد الأقيانوغراف ، تطل منه نافذتى بالدور الرابع على حديقة اللوكسمبور وقد تعرت أشجارها الباسقة من أوراقها ، وعلى مجلس الشيوخ القائم فى وسط الحديقة ، وأرى أبراج كنيسة سان سولبيس على البعد ، وكذا أسهم أبراج السانت شاپيل ، وأسمع دقات ساعة كنيسة السوربون .

وكان سكان البنسيون يجتمعون حول مائدة طويلة واحدة فى الغداء والعشاء ، وجلهم من الفرنسيين ، ومن بينهم أسرة كاملة جاءت من الأقاليم لترعى أولادها فى المدارس والجامعة ، وطالبة تدرس اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية .

فهذا الاستقرار فى نزل محترم ، وسط فرنسيين ، وشابين من أبناء علية القوم فى اليونان ورومانيا ، ساعدنى كثيراً على ممارسة اللغة الفرنسية واستيعاب الحياة الاجتماعية فيما لا يدرك من الكتب أو الدوريات . وإذ كان تسعون فى المائة أو أكثر من طلبة كلية العلوم فرنسيين وفرنسيات ، فإن خطواتى الأولى بباريس تنقلت وسط أهل البلاد فيما بين المسكن وقاعات الدرس .

تقول مذكراتى فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وقد وصلت إلى باريس فى ٢٣ نوفمبر ، بأننى معجب بالحى اللاتينى ومظهر الطلبة فيه ، وأننى شهدت متحف اللوفر ، وتجولت فى شوارع المدينة العظمى لأتعرف على معالمها ، وزرت قصر الأنفاليد ، وذهبت إلى الحفلات السمفونية ، وسمعت الموسيقى الدينية فى كنيسة السوربون. وإن أول تمثيلية حضرتها هى « تاجر البندقية » بمسرح الأوديون ، إخراج وتمثيل جيمييه ، والثانية

« سانت جون » لبرنارد شو إخراج جورج بتويف ، وتمثل لودميلا بتويف دور البطلة العذراء ، والثالثة رواية « مجتوى البشر » لموليير تمثيل ألبير لامبير على مسرح الكوميدى فرانسيز ، ومعها فارص « الحب المداوى » . وتصف المذكرات« شعور الرهبة والإعجاب والدهشة ، وهو ما يتملكنى كثيراً منذ حضورى إلى هنا،عندما دخلت الأوبرا لأرى وأسمع أوبرا "بوريس جودونوف" للموسيقى الروسى الأعظم مسورجسكى » .

وتعددت زياراتى لقصر اللوفر ، علقت على زيارة خصصتها لقاعات النحت فى العصر الكلاسيكى قائلا : «والآن أقوم إلى النوم ومرأى التماثيل البديعة لا يزال ماثلا أمامى وسأغمض عينى لأرى فى الظلام أشباح تلك التماثيل الخالدة تدور حولى كما كنت أدور بينها . فينوس ميلو لن تبرح مخيلتى ، والسعادة التى تشملنى وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأعمال العظيمة هى سعادة تجعلنى أحب الحياة أكثر من ذى قبل ، الناحية العالية من الحياة .

« لنستوح تلك الصخور الحية مرة أخرى ، فهى رسالة الفنان إلينا ، والفنان نزل على الأرض يحمل علم الإحساسات الرفيعة ، والتفكير السامى ، ويتكلم بما توحيه إلينا تلك الأعمال الخالدة .

«سأنظم وقتى لأذهب كثيراً وبطريقة دورية إلى اللوفر ، وسأزور قاعات الصور على مهل . فحياتى لا تجرى على نظام حتى هذه الساعة ، وعلى واجبات كثيرة أريد أداءها : درس العلم أولا ،ودرس الحياة الباريسية، والاطلاع على كل ما يجرى حولى . .

« أما خطتى فهى بسيطة : أريد أن أعيش عيشة كد واجتهاد ، على اتصال بالفن الذى أحب ، والعلم الذى أحصل . الاطلاع فى المنزل ، وتتبع الحركة الفنية خارجاً : الموسيقى والتياترو والتصوير والحركة الأدبية. وإذا استطعت شراء كمنجةهذا الشهر ، فسأبدأ دروس الموسيقى

عن قريب » .

وختمت مذكرات عام ١٩٢٥ مشيراً بهذه الفقرة القاصرة إلى زيارة جديدة لقاعات الصور بقصر اللوفر : « هذا بعض ما أذكره مما رأيت اليوم . أما أن أتكلم على شيء ، فذلك ما لا أجد فى نفسى ولا على لسانى ، ولا فى قلمى قوة للتعبير عنه . كل ما أستطيعه هو القول بأنى أعيش فى يوم مثل هذا خمس سنين من حياتى » .

ذلك ما كان من أمر خطواتى الأولى بباريس .

دراسة وبحوث وتحصيل حضارة

لا يتوقعن القارئ أن أقحم خصوصيات على هذه الصفحات ، فإنى لا أكتب هنا ترجمة شخصية ، بقدر ما أسجل لمحات عاجلة من رحلة الحياة . أزعم أو آمل أن يجد فيها القراء مأرباً .

هأنذا أحاول أن أستعيد دون ترتيب زمنى بعض ذكريات نيف وخمس سنوات (نوفبر ١٩٢٥ — فبراير ١٩٣١)

بدأتها طالب علم بأوربا ، فتعلمت أشياء ، وحصلت حضارة . ودرست علوماً جديدة ، وأضفت لغة إلى اللغات الأجنبية التى تعلمتها أو بدأتها فى مصر . حصلت أربع مقومات للحضارة : حب العلم لذاته بما يعدل ويوازن حبى للأدب والفن ، وكلف بالرحلات فى البر والبحر ، وقد زرت خلال بعثتى عدة أقاليم فرنسية ، ثم إنجلترا وتونس والجزائر وألمانيا والدانيمارك والنرويج وإيطاليا والنمسا . ووعيت الفن روح الحضارة وقلبها النابض ، وعيته فى معناه العام لا فى تخصص بعينه ، ما عدا الموسيقى التى حرصت على دراستها وممارستها إلى أقصى ما فى مقدرة الهاوى الجاد . وأخيراً تمكنت من التغلب على الرومانتيكية ، وانتقلت من المذاهب الواقعية إلى شتى

الحركات المعاصرة فى الفن والأدب ، بفضل المتابعة القريبة لما يصدر من كتب ، ودوريات ، ويلقى من محاضرات عامة ، ويسمع فى قاعات الموسيقى والمسرح ، ويعرض فى المعارض .

هذا نموذج — على سبيل المثال — من انفعالى بالأدب المعاصر ، فقد عدت من إنجلترا سنة ١٩٢٩ ومعى كتاب « بنط كونترابنط » لألداس هكسلى ، نبهنى إليه مقال لأرنولد بنيت . وسجلت فى مذكراتى هذه الكلمة ، عقب انتهائى من الفصل التاسع لتلك القصة التى كان لها فى العشرينات أثر بالغ : « باريس فى ٧ مايو ١٩٢٩ : الأولى بعد منتصف الليل إسعيد فى جلستى . اكتشفت كاتباً قوياً مفعماً (؟ ؟) ، ألداس هكسلى . لم هذه السعادة ؟ أشعر بالقوة الذهنية يختلج بها الكتاب الذى أطالعه الليلة . يا لله ! كأنى بلغت بئر الحياة (أشير هنا غالباً إلى أسطورة مية المحياة) ، والحياة يتسع مجالها أمام بصرى ، خطوة إلى الأمام ، وتحفز لوثبة أخرى فى مجهول المستقبل . أهو مجهول إلى هذا الحد ؟ ما هذه الآمال الحلى ؟ يا للغضب يملأ صدرى ، وتلك البراكين الثائرة فى جوانحى متى تجد منفذاً ، وإلا فستنفجر فى داخلى لتبعثر كيانى للرياح . »

وهذه مناجاة للمصور الهولندى رمبرانت والألمانى ألبرخت دورر ، عقب زيارة للمتحف الفنى التاريخى بفينا :

« فينا فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٠ : أنت يا رامبرانت صديق قديم ، فى عيونك العميقة وشفاهك المظلمة أطالع سيماء صورتك الأخرى فى اللوفر ، وأحس بأنى أسير سحرك حتى الموت . أمام لوحاتك يا رمبرانت لا أشعر بأى تعب ذهنى ، ولست بحاجة إلى نقلة روحية ، فأنا فى مجال كله صحة وعافية ، أمام المسطاح الذى هو لا شىء ، وهو كل شىء . فى صورتك الشخصية أغوص إلى أعماق سريرتك ، أمسك خلال العينين المفتاح الذى يفتح لى مغاليق الأسرار وراء واحد من المائة باب وباب . .

« وأنت يا ألبرخت دورر ، حبوت إليك حتى عرفتك منذ البناكوتيك فى مونيخ ، ولكنى لم أبلغ سر تطورك . هل العبقرية هى حقاً مواصلة عمل بطىء ؟ ولكن البطء يضفى على الإنجاز الفنى صلابة وتخشباً بينما نرى فى فنك تطوراً وتحولا متواصلا ، مع دقة الملاحظة العلمية فى عصر ربما كنت فيه من أعمق العلميين ، وتصنع يداك مع هذا عملا على قدر هائل من قوة التعبير . كيف أنسى رسومات "الفارس والشيطان والمنون" و "القديس هيرونيموس" و "أربعة فرسان الابوكالبس" (حلم يوحنا الإنجيلى) ، ثم لوحات الرسل الأربع ، وصورتك فى شبابك . أى عالم خاص بك أبدعت !

« حقاً ، نحن حيال اثنين من الفنانين اتخذ كل منهما إلى الخلق والإبداع سبيلا على طرفى نقيض من الآخر : رمبرانت ودورر ! »

ونموذج من تعليق على المؤتمر الأفخاريستى بتونس عام ١٩٣٠ ، وقد سافرت إلى هناك لأعمل شهراً فى محطة سالمبو البحرية بضواحى تونس . كنت أسكن فى فندق فرنسى بتلك الضاحية :

« شعورى هنا يغلب عليه الكره للأوربيين المستعمرين . وقد تأملت يوم عيد الفصح ذلك الجمهور السوق ، برغم ثرائه ، يتغدى بالفندق حيث أقيم . دهشت أن يعتبر هؤلاء الناس أنفسهم أرقى من أهل البلاد » وأنزل إلى المدينة فى أوقات الفراغ لأتجول فى تونس الخضراء ، ثم أنتهى إلى كتبى أمام جامع الزيتونة أتحدث إليه وإلى زبائنه ، وأقتنى من مكتبته بعض الكتب العربية (الأيام لطه حسين ، وزينب لمحمد حسين هيكل إلخ) وهزنى الشوق إلى دخول « حمام السوق » التقيت فيه بطلبة من جامعة الزيتونة أطلعونى على موقف الشعب التونسى من الحكومة الحامية ، وحدثونى عما يزمعون القيام به من مظاهرات احتجاجاً على عقد مؤتمر دينى مسيحى بالمدينة الإسلامية .

« تونس فى ٢٣ أبريل ١٩٣٠ : جلست إلى صاحى الكتبى أمام جامع الزيتونة بعد جوله طويلة حتى بطحاء الحلفاوين ، وعرفت عنده الكثير من عواطف الأهلين نحو المصريين حباً ، ونحو المستعمر قلى وكرهاً . الحضارة ! هل من حقها أن تدخل حيث تريد ، وأن تعلم وتربى وتدرب فى سبيل تقدم الشعوب ؟ ربما !

« ولكن الاستثمار هو الأساس الاستعمارى، وللفرنسيين طريقة فى الاستعمار تسعى نحو جعل الشعوب المغلوبة جزءاً من فرنسا ، مثلما فعلت فى الجزائر حين حولتها إلى مقاطعة فرنسية ، فأصبح الإيطالى والمالطى واليهودى فيها فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق المدنية الفرنسية ، وبقى الجزائرى المسلم خارج نطاق الوطن الفرنسى . وبهذا قضوا على اللغة والعادات وشخصية الشعب الجزائرى .

« ومع أن تونس حماية فحسب ، فإن فرنسا دائبة وراء جعلها قطعة منها . ولكن ظهر لى أن فى تونس روحاً من المقاومة أحسب أن ستكون لها الغلبة فى النهاية . فها هى فرنسا العلمانية تسمح للمؤتمر الأفخاريستى أن يجتمع فى ضاحية قرطاجة ، وترغم حكومة الباى على دفع إعانة لإعداد هذا المؤتمر الدينى المسيحى فى بلد إسلامى . »

« أجل لست أنسى المظاهرات التى قامت فى تونس احتجاجاً على عقد هذا المؤتمر ، وقمعت بالقوة . ومنظر عساكر السنغال على جانبى طريق المندوب الفرنسى وعلى يمينه مندوب الكرسى الرسولى فى موكب الإثارة والتحدى . والسفن تدخل إلى حلق الوادى محملة برجال الأكليروس القادمين إلى المؤتمر يرتلون أهازيجهم الدينية . تلك هى صورة فرنسا كما تراءت لى فى تونس . فرنسا التى تزعم فوق أرضها أنها علمانية وتحتفظ بشعار الجمهورية الأولى : الحرية والإخاء والمساواة ! »

هذه الفقرات التى اخترتها عفواً قد تلقى بعض الضوء على أنواع

المؤثرات التى كانت تعمل فى نفسى ، فن كتاب ، إلى حفلة موسيقية ، إلى تسجيل ظاهرة اجتماعية أو سياسية.وقد أتأمل على البعد موقف بلادى الرازحة تحت الاحتلال الأجنبى فأقول :

« لا شك أن تعاقب الحكام الأجانب على بلادى — وجلهم غاشم — كاد يميت فيها كل حياة . ومن المؤكد أن ما عمله محمد على لم يكن إلا لمجد نفسه وفكرة التوسع الحربى . وما صنعه إسماعيل ليس سوى طلاء بقصد الظهور بمظهر المتمدين . . يجب أن يتعلم التلاميذ التاريخ الحقيقى لهذه البلاد فى العصور الحديثة ، وأن يفهموا الحركة العرابية على وجهها الصحيح . . يجب أن يقود أقدار هذه الأمة رجال فى شبابهم وعنفوان قوتهم ، شخصيات نادرة تجمعها الصدفة لتقود أقدار البلاد . وعلينا أن نعمل كثيراً للنهوض بها . وما أراه الآن على البعد ليس كافياً ، فمازلنا نغطى عوراتنا بأوراق الشجر ، لم نفهم بعد ما علينا أن نفعل .

« هذا الفلاح ! فريسة كم من الجنسيات : الإنجليزى واليونانى والإيطالى والفرنسى والتركى والباشا المصرى والأفندى . أمة تريد الحياة ، ولا تعرف سبيلها إلى الحياة لأنها لم تجد الرجل الذى يقودها » (باريس فى ٢٦ يوليه ١٩٢٦) .

توضح المذكرات خطواتى على الطريق الوعر ، ومحاولتى ركوب أكثر من فرس فى آن واحد . كانت حياتى سعيدة فى ظاهرها ، قاسية فى صميمها. يتقاسمها الواجب الأول ، وهو دراسة العلم ، دين الدولة على ، ثم متابعة نزعات محمومة كلفاً بالفن والأدب ، مع فحص المجتمع حولى ، والنفاذ إلى السياسة الدولية ، يمنة ويسرة . كنت أطالع فى الصباح صحيفة يسارية ، وبعد الظهر جريدة الرأسمالية «الطان» أكبر الصحف الفرنسية.

ولقد أدركت منذ أول لحظة — مما سبقت الإشارة إليه فى تشبيه حالى بابن يتنازعه أبوان انفصلا عن بعضهما — بأن من أصعب الأمور إقامة

توازن بين الواجب الأول ، والنزعات والنزوات . شبيه بالموازنة التى حققتها بين أفكار أهل اليمين وأهل اليسار فى السياسة . وأمر السياسة سهل ، إذ لم أكن أكثر من متفرج ، لاتشده إليها سوى فكرة العدالة الاجتماعية ، والحد من شراسة رأس المال ، وجهود أريستيد بريان فى حملته التاريخية من أجل السلام ، يقرن اسمه آناً باسم كيلوج وآناً آخر باسم شتريزيمان .
كنت مدركاً تمام الإدراك المأزق الذى وضعنى فيه تعدد نزعاتى ، وشراهتى غير العادية نحو المعرفة ، مقدراً أننى لن أستطيع طويلا تحقيق التوازن فى حياتى .

ولقد أعاننى على اجتياز محنتى ، والاحتفاظ ببعض التوازن أمران :

الأمر الأول : إقامتى وسط شعب يحكمه العقل لا العاطفة — ويبدو قولى عجيباً لمن لا يعرف الفرنسيين فى صميم حقيقتهم ، لأنه يقارن دائماً بين سرعة إثارتهم ، وبين البرود البريطانى — فى بلد حبته الطبيعة بالتوازن : شعب جاد عامل ، ولكنه من أكثر الشعوب إقبالا على متع الحياة ، حسياً وذهنياً وعاطفياً . شعب آلف بين طبيعته الزراعية وتطوره الصناعى ، فلم تطغ الصناعة عليه طغيانها على إنجلترا . بلاد تجمع داخل حدودها الأراضى المنبسطة والجبال الشامخة ، تشرف على ثلاثة أبحر ، طبائع أهله شمالية فى الشمال ، وهم فى الجنوب أقرب إلى أهل البحر الأبيض المتوسط .

الأمر الثانى الذى ساعدنى على الخروج من المأزق بين العلم والفن والأدب شىء لم أك أتوقعه ، أنا الذى سلخت سنوات من عمرى أدرس الطب وأمارسه ثم طرقت العلم من أبوابه . حدث هذا الشىء بفجائية درامية ، لو صنعها مؤلف تمثيلى لدمغه النقاد بالافتعال ، وهو أننى عشقت العلم ، وما زلت مقيماً على حبه . ويرجع الفضل كل الفضل إلى إقامتى على شاطئ البحر ببلاد البريتانى ، أشتغل بعمل من أهم المعامل

البحرية الفرنسية ، بقرية روسكوف ، فى إقليم الفينستير .

حدث ذلك فى صيف سنة ١٩٢٧ ، وكان برنامجى أن أعمل مع أستاذ الأحياء المائية بجامعة تولوز فى محطة بيولوجية صغيرة بأعالى جبال البرينيه على ضفاف بحيرة أوريدون . ولظروف خاصة لم يتحقق هذا البرنامج ، وقضيت بعض الصيف سائحاً عادياً فى البرينيه . ولعلى فى قرارة نفسى أردت أن أعوض ما فاتنى على ضفاف بحيرةأوريدون فسافرت من أقصى الجنوب الغربى إلى أقصى الشمال الغربى ، من كوتريه ولورد وبو بجبال البرينيه حتى البريتانى فى رحلة طويلة كثيرة التنقل بين القطارات ، أظنها استغرقت أكثر من ثلاثين ساعة . وعندما وصلت إلى روسكوف أحسست كأنى حقاً بلغت منتهى الأرض « فنيستير » .

وفى روسكوف ، أمام أحواض الأكواريوم ، ثم على ممتد الشاطئ الذى يغطيه المد ويعريه الجزر إلى فراسخ وفراسخ ، والأستاذ المقيم يقود خطانا بين أعشاب الألجا ، نقلب الصخور ، ونجمع الأحياء لنتعرف عليها فى مواطنها . . .

أحسست لأول مرة ، أنا ابن دروب القاهرة القديمة ، الذى لم ير البحر قبل سن العشرين ، وكأننى خلقت للبحر وحياة البحر ودراسة البحر . والعجيب أننى بعد نحو أربعين سنة من صيف ذلك العام ما زلت أحن إلى تلك البلاد البحرية الشمالية ذات التقاليد العتيقة ، وأعود إلى ارتيادها كلما سنحت الفرصة .

أطلت إقامتى ذلك الصيف من خمسة عشر يوماً إلى شهرين . وفى محطة روسكوف البحرية بدأت محاولتى الأولى فى البحث العلمى بدراسة وسيلة بعض الديدان البحرية فى بناء مساكنها الكلسية . وإذا كان ذلك البحث قد سمرنى إلى جدران معملى وربطنى بالميكروسكوب والأكواريوم والمكتبة ، فإن تجوالى بشواطئ البريتانى يعريها الجزر ، دراسة لأحياء

القاع وتوزيعها الأيكولوجى ، كان هو أيضاً ظاهرة من ظواهر الحب العميق للملاحظة العلمية .

تقول مذكراتى : « فى روسكوف تكشف ميلى الشديد إلى العلم ، وذلك لأننى خبرت لاول مرة جمال الملاحظة المباشرة ، وتجلى لعينى فقر الدراسة « إن فيترو » (فى معنى خلف الزجاج). هنا فى روسكوف تمت فجأة ملكة البحوث البيولوجية ، بحكم جو المباراة العلمية بين مجموعة من شباب الأمم تستضيفها المحطة المشهورة كل صيف . بدأت هنا بحثى الأول ، وأرجو أن لا يكون الأخير ، بعد أن انزاح الغطاء عن عينى لأدرك جمال الحياة العلمية» .

أى أن التوازن بين الواجب (العلم) والحب (الفن والأدب) ، وهو الذى حاولت تحقيقه بقوة الإرادة ، لم يعد بحاجة إلى تلك الإرادة ، ما دام العلم هو أيضاً قد استقر بين شغاف الفؤاد . فلم يعد الانتقال من الفن إلى العلم أشبه بالعودة من جو الحرية الطليق إلى قشلاق النظام والواجب ، إذ تحولت حياتى منذ تلك اللحظة إلى هيام متكامل .

ومع أنى قد انصرفت فى عشر السنين الأخيرة إلى الفن والأدب ، بحكم ما ألقى على عاتقى من أعباء رسمية وشبه رسمية ، فإن حبى للعلم باق لم يضعف . أنظر إليه اليوم بشىء من الحسرة على بعاده ، وقد أمسى عندى فى حكم الحبيب الغائب أذكره بكرة وعشياً ، وكل رجائى أن لا يكون العلم قد طوانى من ناحيته فى بوادى النسيان .

خاتمة مطاف طويل

حان ختام هذه الحقبة من حياتى الأوربية ، إلا أن أنقل هنا فصول كتابى « سندباد إلى الغرب » ، وكلها صور وانطباعات وتأملات من الحياة فى صميم الحضارة الغربية ، أو أن أعيد كتابة رحلاتى خلال سنى التحصيل ، من واقع مذكراتى ، وليس هنا مكانها .

فلنتخيل فتى خرج من بلاده لأول مرة سنة ١٩٢٥ ، وأنه على وشك العودة بعد خمس سنوات من الإقامة فى بلاد الغربة ، ماذا يكون شعوره حيال تطوره العقلى والروحى ؟ لا أظنه تغير كثيراً فى مظهره أو مخبره ، ولو أنه حقق بالفعل ما توقع بعضه قبل السفر بالاطلاع والخيال ، مع كلف صادق بالحضارة الغربية .

ومع ذلك فأنت تذكر كلمة وردت فى مذكراته يقول فيها لدى وصول سفينته الأولى إلى مرسيليا : « ماذا أفعل عند النزول إلى البر ، وأنى أذهب ، وكيف أسافر؟ » ، وتذكر تعليقى الساخر على هذه الكلمة بقولى : « سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره! »

أتعرف كيف عاد من باريس إلى القاهرة فى ختام بعثته التعليمية ، وكم من الزمن استغرقت رحلة العودة هذه ، فى مقابل الستة الأيام التى نقلته من القاهرة إلى باريس ؟

لقد غادر باريس نهائياً فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠ ، فلم يصل إلى القاهرة إلا فى أوائل فبراير ١٩٣١ . كلا ، لم تكن ظروف حرب عالمية دارت به سفينته حول كيب هورن أو رأس الرجاء الصالح . كل ما فى الأمر أنه عبر الحدود الفرنسية الألمانية إلى كولونيا ودوسلدورف :
« دوسلدورف فى أول يناير ١٩٣١ : عام جديد ، نهاية سنوات التحصيل

فى أوربا ، وبدء الجهاد الأكبر . . قضيت أكثر الأمس فى كولونيا أكتب بطاقات معايدة ، وشاهدت مسرعاً الكاتدرائية القوطية : بناء ذو جمال مؤنث ، ولكن فحص التفاصيل كشف لى عن ترميمات وإصلاحات كثيرة . ثم إنى لم أشعر أمام التماثيل بهزة الإعجاب العنيفة التى عرتنى أمام كاتدرائية شارتر » .

ألقيت نظرة عاجلة على أجمل ما فى كولونيا : كنيستها من النمط الرومانسكى ، ثم سافرت إلى دسلدورف حيث نزلت ضيفاً على أسرة ألمانية صديقة ، عرفت ابنة لها فى باريس . احتفلت مع الأسرة بعيد رأس السنة حسب التقاليد والتقاليع الألمانية اللطيفة : ارتجال الأشعار الهزلية وتبادل هدايا ترفيهية ، « وشوف بختك » فى الرصاص الذائب عندما يتجمد بإلقائه فى ماء بارد ، ولبس الطراطير المسخرة .

وسعدت أسرة الراين بصديقها المصرى عندما شاركها فى أداء موسيقى ، ربما كان صوناتة لموزار أو بيتهوفن .

وسافرت إلى هامبورج لأقضى أسبوعاً فى مركز أبحاث المصايد يديره الأستاذ إرنباوم ، وأياماً أخرى بالمعمل البحرى المشهور فى جزيرة هلجولاند (وهى التى أزالها الحلفاء كلية فى آخر الحرب العالمية الثانية) ، وزرت موانى الصيد فى بريمن وفيزرموندە .

وغادرت هامبورج إلى كوبنهاجن استجابة لدعوة يوهان شميت العلامة الدانماركى الأشهر ، وهى دعوة تلقيتها على ظهر سفينة الأبحاث « دانا » عندما زارت ميناء تونس ، وبعد أن استضاف المعمل البحرى فى سالمبو أعضاء البعثة برئاسة شميت .

زرته فى معمله الذى أنشأه صانع بيرة دانماركية ، وأطلعنى على أدوار تطور زريعة الحناشة من بحر السرجاس وسط الأطلانطى حتى بلوغها مصاب الأنهار فى غربى أوربا . ثم دعانى للغداء فى منزله .

ومن كوبنهاجن عبرت السوند – مدخل البلطيق – إلى السويد ، واخترقت أرضها إلى أوسلو لمقابلة العلامة الأقيانوغرافى يوهان يورت ، ثم إلى برجن للقاء هلاند هانسن وسفير دروب وأوسكار سوند ، ولقضاء ليلة بمعمل جزيرة هردلا البحرى وسط فيورد برجن . وعدت إلى أوسلو ، ومنها عبرت البلطيق إلى ميناء شتين ، وبالقطار إلى برلين لزيارة الأكواريوم ومتحف العلوم البحرية . وسافرت بالقطار من برلين رأساً إلى البندقية ، لأستقل السفينة « حلوان » إلى الإسكندرية ، بعد شهر من مغادرة باريس .

هذا هو الشاب الذى تساءل عند أول وصوله إلى مرسيليا ماذا يصنع عند النزول إلى البر ؛ وأنى يذهب ، وكيف يسافر !

كنت فى مصر أعالج القصة القصيرة ووضعت نص أوبرا . وحاولت ذات صيف بفرنسا كتابة قصة طويلة . وإذا بأسفارى فى سنوات التخصيل وقد قادتنى إلى أدب الرحلات ، فخرجت كتبى فى أغلبها رحلات مادية فى المكان ، أو فكرية فى الزمان: « سندباد عصرى » جولات فى المحيط الهندى . « حديث السندباد القديم» دراسات الأساطير والقصص البحرية فى الكتب العربية . « سندباد إلى الغرب » صور من حياتى فى دنيا الحضارة . « سندباد مصرى » جولات فى رحاب التاريخ ، تاريخ أم الحضارة .

وقد أغدتنى لكل هذه الكتب أسفار طالب البعثة الشاب إلى عدد من الأقاليم والأقطار ، سجل أغلبها فى مذكراته ، ولم يؤلف فيها الكتب .

والنهج الذى سلكته فى رحلاتى الأولى قضت به ظروف عملى ، فأصبح طبيعة ثانية لى . كانت أغلب تلك الرحلات على حساب البعثة التعليمية ، فكان واجبى الأول فيها العناية بالناحية العلمية ، ثم الانتفاع بأوقات الفراغ فى زيارة المتاحف والآثار الفنية ، والتاريخية ، سواء فى

المدينة التى أقصد لغرض علمى أو فى الطريق إليها . مثال ذلك تونس للاشتغال بمحطتها البحرية فى ضاحية سالمبو . زرت متحفها التاريخى بقصر «باردو» ، ومتحف لافيجرى بضاحية قرطاجة ، وسافرت إلى القيروان مدينة عقبة بن نافع لأزور مساجدها الأثرية العتيقة (سيدى عقبة ، وأبى زمعة البلوى إلخ) وفى برلين ، تهيأت لى زيارة متاحفها الفنية الكبيرة الثلاثة : المتحف القديم ، والجديد ، ومتحف الإمبراطور فردريك . وكذلك الحال فى هامبورج ومونيخ وسالزبورج وفيينا . وحتى فى النرويج لم تفتنى زيارة قبر الموسيقى إدوارد جريج ، واكتشاف قصاصها الكبير يوهان بوير .

« برجن فى ٢٣ يناير ١٩٣١ : . . . هذا أنا فى بلادك يا اموندسن ويانانسن . أنا ضيف عليك يا جريج ، ياذا اللحن الرومانتيكى الحلو فى مؤلفاتك للبيانو ، أو للصوت أو للأوركسترا . ضيف عليك يا إبسن ، أيها الثائر ! أواثق أنت من أنك هيأت السعادة لبطلتك نورا ؟ (بيت الدمية) . انظر إلى العالم حولك الآن . أهى سعيدة المرأة فى المكاتب ، وأمام عجلة القيادة ، وفيما تشغله من وظائف دنيا أو وسطى ؟ أنا عرفتها سعيدة ، مختالة بنفسها ، فى الجامعة ، ولكنى لم ألحظ تغييراً كبيراً فى مثلها وآمالها . إنها لا تطلب عن حياة المرأة بديلا . ولكن فى حرية كاملة ، دون خضوع لرجل . . »

والشاعر القديم لم يهمل شأن الطبيعة فى أسفاره ، لا سيا وأن أغلب ما شهده كان غريباً عليه ، مثيراً لدهشته : الجبال الشوامخ ، والغابات ، ومساقط المياه ، والثلوج والتزحلق على الجليد .

« بورتو — كورسيكا فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٦ : . . . فإذا اتجهت ناحية الشاطئ وجدت الغابة مكتسية ألوانها الخضراء زاهية ثم داكنة ، والجبال مشتعلة فى قنانها بتلك النار الحمراء المكونة من صخورها وشمس

الغروب ، والظلال ترتفع لتحتل البقاع التى تودعها الشمس، والألوان البنفسجية تكسو الجبال ، والضباب الخفيف الحالم يغطى بعض الجبهات .

« بين رمادية المغاور وخضرة الأشجار ، وسط انعكاس آخر أنوار النهار فى مياه البحر المائجة، والنهير المنسابة ، وأمام زرقة الماء قرب الشاطئ ، ولونه الذهبى عند مغرب الشمس ، وراء السحب تضىء أطرافها بلون مذهب كأنها تزركش ثوب العروس فى هذا المساء . . فى أصوات تلك السمفونية المؤلفة من حفيف الشجر وخرير النهر يضيع فى البحر ، والأمواج تتكسر فوق الصخر ، فيقوم الرغاء الأبيض فى أشكال سحرية كأن فينوس أخرى تخلق من الزبد . . فى تلك الطبيعة الجميلة المتغيرة المتشكلة أفكر ، وأطالع ، وأتأمل الغروب » .

لم أحدثك فى قليل أو كثير عن الموسيقى ، وكانت هى وحدها، إلى جانب العلم ، شيئاً أصيلا جداً فى دراساتى . حرصت فى كل مدن الحضارة على ارتياد الحفلات السمفونية والأوبرا وكنت عضواً بأوركسترا الهواة فى تولوز وأوركسترا جامعة باريس .

وتشاء الصدفة أن أختم سنوات التحصيل بمشاهدة أوبرا بيتهوفن الوحيدة « فيدليو » :

« برلين فى ٢٩ يناير ١٩٣١ : "فيديليو" بأوبرا بلدية شارلوتنبرج ، أداء عادى ، ماذا يهم ؟ هؤلاء الألمان يعيشون موسيقاهم العظيمة ، وفيديليو عمل نبيل ، تتخلله وتختمه رنة فرح عارم ، برغم أزمة الفتاة ليونورا تتنكر فى زى غلام لتنقذ حبيبها من الحاكم الظالم ، وتختم القصة بانتصار العدالة . موسيقى جديرة ببيتهوفن مهما تقول القائلون تشكيكاً فى قيمتها كأوبرا . فكرت بالصدفة العجيبة التى جعلتنى أنهى سنى التحصيل فى أوربا بالاستماع إلى هذا العمل الكبير » .

وسافرت فى اليوم التالى إلى البندقية رأساً ، حيث شاهدت كنيسة

سان مارك، ثم متحف الفن، لأترع روحي بروعة الألوان عند مصورى عروس الأدرياتيك : جيوفانى بللينى ، بالمافكيو ، جيورجيونى ، فيرونيزى ، تنتوريتو ، تسيانو .

كانت رحلة الإياب إلى الوطن عن طريق الشمال الإسكندنافى ، ثم عبر أوربا ، صورة مصغرة مركزة لسنواتى الخمس فى بلاد الغرب .

وأخيراً أتساءل : هل أغرتنى تلك الحياة بالبقاء هناك دائماً ؟ يجب أن أصدق مع نفسي : لقد ساورتنى فى بعض فترات نزوة من هذا القبيل ، وكان من حظى أن قد تحصنت ضد جرثومة الرومانتيكية ،ولولم أقض عليها تماماً . فاستطعت أن أخضع عواطفى الموجاء لقياد العقل المفكر المدبر ، وذلك بفضل المنهج العلمى ، والنظام الصارم الذى يقضى به .

خاطبنى العقل بكلام كهذا : استسلامك للحياة الأوربية معناه أنك تجبن أمام قفر الحياة الذهنية والفنية فى مصر . ولا قيمة لحياة الاستسلام للدعة والرفاهية ، حتى ولو كانت دعة الفن ورفاهية الثقافة . الحياة جهاد يا صاحبى ، كتب على الجميع ، لا على الجنود وحدهم فى ساحات الوغى، والبسالة ليس مكانها ميدان القتال وحده .

بهذا تكلم العقل ، وأخجل أن أضيف قولا تلوكه الألسن حتى فقد جدته : أنت ابن الوطن الفقير إلى الله تعالى ، لا شك أنه بحاجة إلى كل فرد من أفراد شعبه مهضوم الحقوق من السماء والأرض ، والوطن أسدى إليك معروفاً ، مهما صنعت حتى آخر رمق لك فى الدنيا فلن تستطيع الوفاء به .

استئناف رحلة الحياة

مضى العام دون أن أخط سطراً فى هذه الصفحات ، وأنا أتلمس العلل لتأجيل عرض صور من حياتى الغابرة ، وانتهيت إلى أن لا مناص إذن من استئناف مذكرات حياة لا أهمية لها فى ذاتها ، وإنما فيما قد يساعد الأجيال الحاضرة والصاعدة ، على فهم بعض مصادر المجتمع المصرى فى النصف الأول من هذا القرن ، وكيف عاش المحتلون عسكرياً ، المستغلون فكرياً واقتصادياً ، الواقعون بين مطرقة حكومات غشوم ، وسندان الواجب نحو بلاد كانت فى التاريخ القديم والوسيط بلاداً ذات عزة وسؤدد ، وكبرياء .

انتهيت من بعثتى ، وعدت إلى ديار سلمى ، وتسلمت عملى الجديد بمصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك ، وكانت تابعة لوزارة المالية ، مع أنها مصلحة عسكرية فى نظامها وإدارتها ورؤسائها وأغلب مرءوسيها . وكانت مصايد الأسماك (أو ما تعرف اليوم ، كما أردت لها أن تعرف ، بالثروة المائية) تمثل فى إدارة من إدارات المصلحة ، يرأسها ضابط عظيم ، وفيها مكتب لخبير مدنى إنجليزى ، يعمل مستقلا فيما يسمى « مكتب مباحث الأسماك » ، وله كشك برأس التين ، وكشك بالمكس ، هو كل ما كان ينتظرنا للانتفاع بما حصلنا من علم وتدريب واستعداد .

وحكايتى مع الخبراء الأجانب لا جديد فيها ، فهى حكاية ريمة القديمة : موظف أجنبى بمرتب كبير وسلطات لا حدود لها ، يسره أن يجد له أعواناً من بنى قومه أولا ، ثم من أهل البلاد .. إن وجدوا ! ، ويسوؤه أن يطمح هؤلاء وأولئك فى إزاحته عن سدته العلية ، فهو يحرص أن يوقف معاونيه ، والمصريين منهم بخاصة ، عند حدودهم ، آلات تعمل بإمرته ،

وفق إرادته ، دون أن تحاول أى نوع من التفكير الشخصى ، أو أن يكون لها « بم » فى إدارة العمل ومسئولياته .

ومع كلفى بالحضارة الأوربية ، وحبى للغرب ، علمه وفكره ، وآدابه وفنونه ، فقد لاقيت فى بلادى من تعنت الخبراء الأجانب ، وتعسفهم ، وضيق عقولهم ، ما كان قميناً بأن يردنى إلى التوبة عما تقدم من ذنبى فى التعلق بحضارة الغرب وما تأخر . ولكن الحزازات الشخصية والاحتكاك اليومى فى العمل ، لا يمكن أن يبقى لها أثر فى نفسى ، ولا تردنى عن الحكم الصحيح .

ولن أفهم أبداً أن يجيء الخبير الأجنبي ليتحكم ، بل ليشير ويرشد ، لا الهيئة التى يعمل بها فحسب ، بل الوطنيين الذين يعملون تحت إشرافه . إذ يجب أن يعلم أولا ، وقبل كل شيء ، أن هؤلاء باقون لوطنهم ، كما هو عائد إلى وطنه ، وأنه مهما سما علماً ، وطرشق خبرة ، لن يبلغ وعيه لحاجات الوطن المضيف ، وعى العاملين من أبنائه . ونزاهة عمله لا يكفى فيها أداء واجبه العلمى والفنى ، بل يتعدى إلى تدريب الوطنيين ، واختيار أصلحهم خلقاً وعلماً وحسن إدارة ، ليخلفوه ، ويواصلوا عمله ، ويتموا إصلاحاته .

ومشكلتى مع الخبير الإنجليزى الذى وجدته لدى عودتى من البعثة كانت تتعلق بظروفه وظروفى ، وعلمه وعلمى ، وخبرته وخبرتى . لقد أتممت الدراسة الطبية ، وخبرت الحياة العلمية والعملية لمهنتى الأولى ، قبل سفرى بالبعثة . ثم درست العلوم الطبيعية ، وانتقلت منها إلى دراسة أحياء المياه العذبة والمالحة ، فعلوم البحار بعامة . وبذل مكتب البعثات بباريس ، ومديره العلامة المرحوم الدكتور حسن فؤاد الديوانى ، غاية البذل فى تعليمى وتدريبى ، وحقق لى كل ما كنت أطلبه ، ويتطلبه عملى من سفر إلى مناطق الصيد ، ومعاهد الأحياء البحرية والمياه العذبة ،

والمؤتمرات العلمية . لم يستأذن القاهرة فى شىء من هذا ، أكثر من طلب امتداد بعثتى إلى خمس سنوات ، وكانت ستين لا غير ! وتحمل تبعتى شخصياً ، وسمح لى بالتجوال فى أكثر بلاد أوربا تقدماً فى العلوم التى أوفدت لتحصيلها ، بل فى إفريقيا (محطتى الأحياء البحرية فى سلامبو بضواحى تونس ، وكاستليونى بالجزائر) لأتابع دراساتى وبحوثى فى موضوع تخصصى .

وكلمة تخصصى تتخذ فى هذا المقام صورة تبعث على الابتسام . فقد كنت أول عضو بعثة لموضوع يعمل فيه اليوم قرابة خمسين متخصصاً ، كل فى فرعه ، يشرفنى ويسعدنى أن تكون باكورتهم من تلاميذى الذين بارك الله فيهم لبلدى ولى . كنت مدركاً ، مقدماً ، المدى ، الواسع الذى على أن أعمل فيه لدى عودتى ، ولذلك اجتهدت أن أعى كل شىء فى موضوع تخصصى (؟ !) وحوله ، لأكون على استعداد لحل ما سوف يوضع أمامى من مسائل ومشاكل فى ميدان جديد على بلادى ، بل على كل منطقة الشرق الأدنى .

وجدت الخبير الأجنبى أقرب إلى سنى ، يكبرنى بأعوام قليلة ، ولأقلها صراحة ، دون تواضع زائف : لم يكن يكبرنى علماً واطلاعاً ، وخبرة بموضوع تخصصى ، إذ لم يجد فرصة فى حياته البريطانية مثلما وجدت فى بعثتى المصرية بباريس . لم يكن يعرف إلا ركناً من أركان بلاده ، وأنا مضطلع بمسائل الحياة المائية والصيد والصيادين فى أكثر من بلد أوربى متقدم .

كان صداماً عنيفاً ، لا فى ظاهره أبداً ، بل فى أعماق نفسى ، لا سيما وقد أحسست بأن الرجل يريد أن يحبسنى فى ركن دراسة محددة ، لا أحيد عنها ، هو الذى اختارها لى بطبيعة الحال . ولقد ذكرته فى أدب واحتشام بأن أول دراسة أشعر بمسيس الحاجة إليها فى أول عهدى ،

هى معرفة شىء كنت أجهله تماماً ، أنا العارف بشئون تخصصى فى أوربا ، ألا وهو : بلادى ذاتها . ويجب أن يمنحنى الفرصة لأتعرف على ظروف المياه المصرية وأحيائها ، التى لم أكن أدرى منها إلا القليل .

وأدرك الإنجليزى أن معنى ذلك تقصير أجله فى وظيفته ، وقطع عيشه فى بلادى . فداور وحاور ، وذهب إلى حد التهديد . بماذا فى ظنك ؟ بالتقارير السرية ! ! ! والويل لمن يهددنى ! فأنا مصر مثابر على أن يسمح لى بأداء واجبى الأول نحو عملى وبلدى .

لم أك أعرف أبداً أن إدارة مصايد الأسماك تعجلت عودتى ، وعودة زميلى فى البعثة ، تلمساً لمايعينها على خبيرها المعاند المتحكم ، الذى كان يخرجها من مأزق ليوقعها فى مأزق جديد. طاوعته على بناء سفينة علمية (هى عاطرة الذكر « مباحث ») دشنها سفيرنا فى لوندرة حينذاك المرحوم الدكتور حافظ عفيفى . فلما وصلت السفينة — وكان الخبير قد عمل لهم « البحرطحينة » وأفهمهم أنه بدونها لا يستطيع أن يؤدى عمله — رفض أن يخرج بها إلى البحر حتى يعينوا لها عدداً من الخبراء الأجانب ، فعينوا له اثنين من رجال العلم البريطانيين، وضابط صيد إنجليزياً متمرساً بتشغيل آلات الصيد فى أعالى البحار . وعدت وزميلى بالبعثة ، فأصبحنا خمسة متخصصين ، وخبير صيد . ولا أدرى بماذا تحجج بعد ذلك ، عندما استمر يرفض الخروج إلى البحر بالسفينة العلمية « مباحث » . ولعل حجته كانت : أن الخبيرين البريطانيين ، وعضوى البعثة العائدين ، خصص كل منهم لبحث معين يركز عليه ، وأنه ما زال بحاجة إلى خبراء . . وخبراء .

ويبدو — دون أن أعرف من هذا شيئاً — أن مدير عام المصلحة حينذاك (الرجل الرزين المرحوم اللواء أحمد كامل ، الذى عين فيما بعد وكيلا لوزارة الحربية) بعد أن قابلنى وزميلى ، أدرك بثاقب فكره أنه يستطيع الاعتماد علينا . وتشاء الظروف المؤاتية أن يكون أركان حرب

المصلحة من زملائى بالمدرسة الثانوية ، وما برحت إلى اليوم جاراً لهذا الإنسان الكبير ، والصديق الوفى الكريم .

فلم يحل صيف ذلك العام – ١٩٣١ ، وقد عدت من البعثة فى أوائله – حتى حدث ما لم أتوقع ، وهو تلقى دعوة فجائية لمقابلة رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية والمالية ، المرحوم إسماعيل صدقى باشا ، فى مكتبه بيولكلى . ولقد تكشف الأمر فيما بعد ، وعرفت أنه أراد الاطمئنان إلى الشخص الذى يرشحه اللواء أحمد كامل باشا لتولى مركز الخبير الأجنبى الأول ، وبخاصة ودار المندوب السامى تبذل المساعى بوساطة العميد الإنجليزى لكلية العلوم بالجامعة المصرية للتأنى فى موضوع عدم تجديد عقد الخبير البريطانى .

قضيت بمكتب صدقى باشا ربع ساعة فى حديث هادئ ، مشوب بالعطف على الشاب ابن الثلاثين المرشح لتحمل تبعة فنية ثقيلة ، وخرجت مستبشراً بالروح التى لمستها فى رئيس الوزارة ، ووزير المالية التى أتبعها ، وقد أمر مدير مكتبه بأن يذهب بى تواً إلى مكتب وكيل الوزارة .

لم أك أتوقع بعد الأدب والذوق والعطف ، إلا أن أقابل بالمزيد عند الوكيل . وإذا بالرجل يجابهنى بلهجة التحدى : بقى هو انت ، ولم تكد تترك قاعات الدرس ، اللى عاوز تقعد محل الخبير الأجنبى ؟

أجبته بأنى لا أعلم شيئاً عن موضوع إحلالى محل الخبير ، لكنى أحب أن يعلم سعادته بأنى لم أترك قاعات الدرس ، كما يتصور . فقد أنهيت دراستى العليا بمصر منذ سبع سنوات ، واشتغلت عامين طبيباً بمستشفيات الرمد الأميرية ، وسافرت بالبعثة موظفاً مثبتاً . ثم سردت عليه ما قمت به خلال بعثتى من دراسات وبحوث وأسفار . ولم أستطع التغلب على انفعالى ، ولا أن أخفف من عنفى فى الرد على حكاية « قاعات الدرس » تلك .

تقول صفحة من مذكراتي هنا : « استقبلني وكيل وزارة المالية ، رجل فى شرخ الرجولة ، وإن اختلط البياض بشعره الأسود . يقال عنه بأنه كفاءة ممتازة . ولكن ، رباه ! لماذا يبدو على هؤلاء المواطنين الكبار وكأنهم متخشبون بنشاء المكوى ! جلسة عاصفة ، انطلقت فيها أتحدث بعنف ، لأننى ، أخيراً ! أمسك بيدى تلك "الميدوا" ذات الرءوس الكثيرة ، ألا وهى البروقراطية المصرية ، وأنفث مدى ربع ساعة بكل ما فى نفسى من كره لها . . واستمرت الجلسة أكثر من ساعة ، قلت فيها ما قال مالك فى الخمر ، وأمام رئيس من أشهر رؤسائها . . يا لله ! أهو عالم الزيف والمبالغات المضحكة ، نعيش فيه هنا ؟ . . . إلى أى مسار يتجه هذا البلد ، المحتاج إلى قوى أبنائه ؟ . . . ربما تركت عند وكيل وزارتى أسوأ فكرة عنى ، ولكنى استطعت ، أخيراً ! أن أهيل ما عندى من نقد للطريقة التى يدار بها بلدى على أم رأس واحد من أكبر ممثلى تلك الإدارة ! »

لقد ظلمت الرجل الكبير ، رحمة الله عليه ، ويمكننى أن أعترف بهذا الآن ، وأنا شديد الأسف إذ أسأت الظن به ، وهو يسحب فرخ ورق يسود صفحته بكلام كثير ، عرفت فيما بعد بأنه موجه للوزير ، يقترح فيه أن تؤلف لجنة برياسة الوكيل الثانى للوزارة ، المشرف على مصلحة مصايد الأسماك ، وعضوية ممثلين لتلك المصلحة ، ولوزاة المالية . ولكلية العلوم بالجامعة المصرية ، أتقدم إليها ببرنامجى ومقترحاتى !

ملحوظة : نشر هذا البرنامج بمجموعة « مذكرات ومباحث » معهد الأحياء المائية والمصايد ، بقايتباى ، تحت رقم ١ .

ولم تجتمع اللجنة إلا فى أوائل العام التالى (١٩٣٢) ، وعقد الخبير الأجنبى ينتهى فى ١٤ ديسمبر ١٩٣١ . ولاحظ أن كل هذه الأمور كانت خلف ستار كثيف ، لا أعلم عنها شيئاً !

وفى يوم ١٨ نوفبر ١٩٣١ ، عام عودتى من البعثة ، وأنا على شاطئ البحر قرب قرية المعدية ، أمام بحيرة أدكو ، أقضى نهارى فى فحص ما تصيده الجرافة الساحلية ، وبعد أن نظفت آلا ت التشريح والفحص ، وأقفلت كراسة مذكراتى ، فتحت صحيفة «المقطم» ، فإذا بهذا الخبر يطالعنى :

« الاستغناء عن خبراء أجانب : كانت وزارة المالية قد استخدمت ثلاثة من الخبراء الأجانب فى الشئون الجمركية ، أحدهم إنكليزى والثانى فرنسوى ، والثالث إيطالى ، وذلك بمناسبة تعديل التعريفة الجمركية . وقد استقال الأول منذ مدة ، واستقال الثانى أخيراً . فقررت الوزارة الاستغناء عن الخبير الإيطالى ، لا سيما أن العمل المطلوب منهم قد انتهى .

« وتقرر أيضاً عدم تجديد عقد خبير الأسماك الأجنبى بمصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك » .

أى أن الأمر قد انتهى وراء الستار بإصرار الحكومة على عدم التجديد ، وتعيينى مكان الخبير الأجنبى الأول ولما يمض العام على عودتى من البعثة ! أدرت بصرى فى الشاطئ الرملى الممتد ، وجمعت ثلاث قواقع جميلة ، احتفظت بها ، وسلمتها فيما بعد لوالدتى بالقاهرة .

لم أتآمر ، أو أدس ، ولم أخطب ود رؤسائى ورؤساء الخبير الأجنبى على حسابه . وإنما كان شعورى بقوة حقى ، وبواجبى نحو بلدى ، هو الذى جعل منى — كما أرى الآن — صورة جيل طالع ، جيل جديد ، اعتزم أن يأخذ أمور بلاده بنفسه ، وأن يوفى بدينها عليه ، وليس الدين فى عنقى لمجرد أننى ابن هذا الوطن فحسب ، بل لأن الوطن علمنى فى الكتاب ، والمدارس الابتدائية والثانوية والعليا ، وبالمجان فى أكثرها . ثم صرف على بسخاء منقطع النظير ، مدى خمس سنوات بأوربا ، مصاريف جامعية ، وأثمان كتب وأدوات علمية وملابس ، وتكاليف رحلات ، وللعلاج الطبى ، إن لزم الأمر ، ولم يلزم !

عندما عدت إلى مصر سنة ١٩٣١ وجدت الموظفين يشغلون نصف الوقت ، إن كانوا يعملونه ، وكنت فى أوربا أعمل طول النهار وبعض الليل . فلم يكن عجيباً أن أحس بالقوة الدافعة ، والاطمئنان إلى أن من يعمل ثمانى ساعات أو عشراً ، يجب أن يغلب من يعمل ثلاث أو أربع ساعات فى يومه . فإذا أضفنا إلى العمل ما تلقيته من علم وخبرة فى دائرة اختصاصى ، فقد يعذر لى شعورى بحتمية انتصارى فى النهاية .

وما أكثر ما حققت من فوز فى حياتى . أقولها مرة أخرى دون تواضع زائف . ولكنه فوز جاء نتيجة الكدح ، والإخلاص الكامل لعملى ، لا يعنينى إرضاء رئيس ، أو حب مرءوس ، بل إرضاء لضميرى وحده .

ومهما استنزف ذلك الجد والكد من عقلى وجسمى ، ومهما كلفنى كفاحى من مشاكل ومصاعب ومقالب وحبائل تنصب لى، فإنى وقد خدمت حكومتى سبعة وثلاثين عاماً ، ذقت فيها المر أكثر من الحلو ، أستطيع اليوم فى هدوء الشيخوخة التوكيد بأنى لم أعمل عملا وأنا مدفوع إليه بترغيب، أو أوامر أو رهبة . ولعل سر صفائى وأنا أستعرض هنا حياتى العملية هو فى أننى أحببت عملى دائماً ، فيما عدا فترة القلق التى انتابتنى بعد سنتين من العمل فى طب العيون ، والتى غيرت مجرى حياتى . وحتى تلك الفترة ، أذكرها الآن بالخير كل الخير ، وأحن إليها حنينى إلى كل سنوات التكوين والإعداد للحياة . فلم تكن العلوم وحدها هى التى عودتنى الدقة و « المكنية » ، بل كانت أيضاً السنتين اللتين أمضيتهما فى رعاية رؤسائى بمستشفيات الرمد الأميرية ، يقدمون لى خبرتهم وعلمهم لأضطلع بعضو من أدق وأرهف أعضاء الجسم ، بل بحاسة من أهم وألزم حواس الإنسان ، ولفائدة من ؟ لفائدة تلك الطبقة العاملة الفقيرة التى كانت تحتشد أفواجها كل صباح بباب المستشفى .

خلا لك الجو فبيضى وصفرى

فلنواصل « رحلة الحياة » ، وقد خلا « مكتب مباحث الأسماك » من كل خبرائه الإنجليز ، بقدرة القادر علام الغيوب .

يحدث أن إنساناً متهيباً مهيض الجناح يستجمع شجاعته مرة واحدة ، وينفذ أمراً فإذا به يتعدى حدود التنفيذ المفيد ، إلى ما لا يفيد ، وقد يضر . وهذا ما حدث فعلا عند ما نجحت مصلحة مصايد الأسماك فى إزاحة الخبير الإنجليزى الأول بالرغم من محاولات السلطات المحتلة الضغط عليها . فقد أتبعت إجراءها بعدم تجديد عقد الاختصاصى الثالث ، وعقد خبير الصيد فى أعالى البحار ، وكلاهما إنجليزى ، أما الاختصاصى الثانى ، وكان أسكتلنديا فقد ترك الخدمة قبل نهاية عقده ، ليلتحق بوظيفة جامعية بالولايات المتحدة الأمريكية .

وبذلك تضاءل عددنا إلى اثنين هما الأول والثانى فى بعثات الأحياء المائية المصرية . وإذا رضينا بهذا ، انتظاراً للثالث والرابع ، ولن يعودا قبل عام أو عامين ، فإن إنهاء عقد خبير الصيد قبل أن نستفيد فتيلا من خبرته ، كان إجراء لا مبرر له ، لم يؤخذ فيه رأينا بطبيعة الحال ، فقد كانت الأحداث تترى بسرعة كأنها تخلى الطريق أمامنا بفعل السحر . وربما كان هذا السحر هو الباعث على حركة اللاوعى التى بدرت منى بعد أن طالعت خبر إنهاء خدمة الخبير الأول فى « المقطم » كما جاء فى الفصل الماضى ، حينما أجلت بصرى فى الشاطئ الرملى عند قرية

« المعدية » والتقطت ثلاث أصداف جميلة .. نبين زين ، ونضرب الرمل ، ونشوف الودع ! .

رجوت المدير العام أن يسمح بإبقاء خبير الصيد معنا بعض الوقت ، بعد نهاية عقده ، واستجاب المدير الطيب الحازم ، ورضى الخبير .

وخرجنا بالسفينة « مباحث » إلى عرض البحر ، ليبدأ الرجل فى عمله ويلقط الصنعة ضباط السفينة وطاقم بحريتها . فعملية الصيد بشباك الجر ، المعروفة بجرافة « أوتر » لا تعدو أن تكون عملية مهارة بحرية « سيانشيب » وملاحية : تحرك السفينة فى اتجاهات معينة لها علاقة باتجاه الريح ، وتشغيل ونش الصيد لإنزال طَبْلِيتَىْ « الأوتر » والأسلاك ، والشبكة الكبيرة . وكل هذه تمتد فى البحر خلف المركب إلى مئات الأمتار حتى تستقر على القاع ، دون حدوث تعقيدات واشتباكات « فاولنج » بين الحبال من الصلب المجدول والشباك ، وبين الشباك « وطبالى الأوتر » ، وأهم من كل هذا تجنب خطر التفاف الأسلاك أو الشباك حول الرفاص ، روح السفينة النابض .

وأظهر الخبير الإنجليزى كفاءة وخبرة على طول رحلتنا ما بين غربى الإسكندرية وشرقى بور سعيد .

ولا بأس من ذكر واقعة تبين مدى بيروقراطية ذلك الزمان ، حتى فى عرض البحر . فطبيعى أن تسجل المحاضر ، ودفتر الأحوال ، كل تلف يحدث « للعهدة » ، وأقله كسر الصحون وما إليها ، نتيجة « درفلة » السفينة فى البحر الغاضب . أما إذا ضاع جهاز أو « عهدة مستديمة » فى البحر ، فالغالب أن يحتسب ذلك على أنه إهمال قد يقبل من ابن الأرض الثابتة ، ولكنه غير مقبول من رجل البحر .

بيد أن عمليات الصيد والكشف البحرى لا يمكن أن يجرى عليها مثل هذا الحساب . وقد حدث فى رحلة التجارب الأولى « لمباحث » أن

اشتبكت « طبالى الأوتر » بقاع البحر أمام الدلتا ، فيما بين برج البرلس ورأس البر. والطبالى بيبان خشبية ثقيلة ذات إطارات وحمالات من الصلب السميك . وبعد محاولات طويلة مضنية، وفى حرص كبير لاستخلاصها ، انقطعت الحبال الصلب ، فضاعت الطبالى والأسلاك والشبكة بقضها وقضيضها أو « كل ما فى جراب الحاوى » كما يقول الإنجليز ، أى فقدت من « العهدة المستديمة » وفى ثوان ، أدوات يقدر ثمنها بنحو خمسمائة من جنيهات ذلك الزمان . والأمر أفدح من صحن أو كوب يكسر ، فتحرر له المحاضر من كذا صورة ، واستمارات خصم معرفش إيه ع . ح .

ولا أنسى صورة القلق ترتسم على وجه القومندان وضباط الممشى ، ومنظر البحارة فاغرين أفواهم ، عندما حدث الحادث ، مقارنة بوجه ضابط الصيد الإنجليزى المشرف على العملية فوق الكوبرته ، وهو يرفع بصره بكل هدوء نحو القومندان فوق الممشى ، ليقول له : « جو آهيد ، سير ! » وكان الله يحب المحسنين.

كنت وزميلى نشعر بالأسف على ضياع الأدوات الثمينة ، عزاؤنا فى أننا نملك غيرها فى عنبر السفينة ! وفى مخازننا على البر . فما كان أكرم الخبير الإنجليزى الأول فى اقتناء الآلات والعدد والأجهزة والشباك ، وهى فضيلة من فضائله ، رفض أن تؤتى ثمارها .. إلا أن تعين له الحكومة كافة الخبراء اللازمين .

ولكنى وزميلى لم نفكر أصلا بأن ما حدث أمر خطير ، سوف يتأتى منه سين وجيم . فأفهمنا إخواننا الضباط بأن الأمر طبيعى وأن الضياع والخسارة والإخفاق فى تجارب البحث العلمى ، هى والنجاح سواء بسواء . حسابهما يجئ غالباً فى خانة الكسب .

ولقد كشفت لنا الحادثة عن قيعان تراكم فيها طمى النيل إلى درجة

هائلة ، وتماسك بضغط الماء فى الأعماق حتى أصبح كالأسمنت المبلل . فلما أن غرست فيه « طبالى الأوتر » بثقلها ، وحلت تماماً . وذهبت محاولات خبير الصيد فى استخلاصها سدى .

ولو حدث وقطع حبل السلك المجدول قرب سطح السفينة ، لا فى الأعماق ، وأصاب رجلا ، فإنه قاتله لا محالة . ولأذكرن حادثة على السفينة « مباحث » فى عرض البحر الأحمر ، انقطع فيها السلك فوق سطح البحر ، وطارت عجلة القياس ، وآلة الديناموتر — الذى يقدر قوة الشد فى السلك — على قيد ذراع أو أقل من رأس الكولونيل سيويل ، رئيس بعثة السيرجون مورى إلى المحيط الهندى . ولما كنت ، بالإضافة إلى عملى العلمى ، قائماً بأعمال طبيب البعثة ، فإن مجرد التفكير بوفاة رجل أثناء رحلة التسعة أشهر كان يقض مضجعى بكابوس ثقيل ، ينتابنى أحياناً ، وهو الرعب من أداء كل الإجراءات التى يقتضيها الحال على جثمان المتوفى . ولم أجرأ أن أسأل قومندان السفينة الأسكتلندى مقدماً عن مدى تطبيق قوانين البحر فى هذه الحالة ، وهل يكون « قبر حرب بمكان قفر ، وليس قرب قبر حرب قبر » ، أو كما يحفر الإنجليز على النصب التذكارية لبعض أبطال البحر : « وليس له قبر . . غير العباب » !

ومما كشفت عنه تلك الرحلات الأولى « لمباحث » ، أن الأحياء التى تعيش لاصقة بالقاع أمام الدلتا ، كالصدفيات مثلا ، كانت كلها ضئيلة الحجم ، وأكثر منها آلاف مؤلفة من الأصداف الصغيرة الفارغة . وهى ظاهرة متوقعة ، لأن الوقت الذى يمضى بين إقامة سدى أدفينا وفارسكور على فرعى الدلتا فى فبراير ، وبين قطعهما فى نهاية الصيف أمام الفيضان ، أى الفترة التى تكون فيها مياه البحر أمام الدلتا بحرية خالصة ، هى كل مايباح فيها ليرقات الأحياء بالالتصاق والنمو . ثم تتدفق مياه الفيضان إلى فراسخ فى البحر الذى يتحول إلى مياه عذب أو شروب ،

لا تستطيع معه تلك الأحياء البحرية اللاصقة أن تعيش ». بعد عمر لا يزيد عن نصف عام . وأذكر وصفى الشعرى لهذه الظاهرة فى دفتر الأحوال « اللُّج » الخاص بى ، حينما قلت بأن القاع هنا « أشبه بمقبرة فى قاع البحر» ولا شك أن مصدر هذا الوصف هو عنوان قصيدة بول فاليرى المشهورة ، يستوحى فيها جبانة مدينة « سيت » فوق ربوة عالية مطلة على البحر الأبيض ، وعنوان القصيدة هو « المقبرة البحرية ».

وأرجو أن لا يفوت الأقيانوغرافيين المصريين الاهتمام بما يجرى من تحول هيدرو دغرافى وبيولوجى أمام الدلتا ، بعد الحجز التام على مياه الفيضان أمام السد العالى .

وواقعة فقد طبالى « الاوتر » والشباك فيما بين برج البرلس ورأس البر أوضحت لنا أمراً هاماً — متوقعاً ومعمولا به — وهو أن مناطق القاع الأبليزى بفعل طمى النيل لا تصلح للصيد بجرافات « أوتر » من الحجم الكبير ، وطبالها الثقال . والواقع أن الصيادين الإيطاليين من أهل الجنوب « مولفيتا وبارى » الذين كانوا يرتادون الإفريز الإقليمى لبحارنا قبل الحرب الأخيرة ، درجوا على الصيد بشباك الجر من سفن « موتور » صغيرة نسبيا ، وهى التى يستعمل الصيادون المصريون الكثير منها فى البحرين الأبيض والأحمر.

وتعود بى الذاكرة إلى العشرينات ، عندما أنشأ بنك مصر شركة مصايد الأسماك ، فشمرت عن ساعد الجد ، والمثل يقول « أول ما شطح نطح » ، واشترت أربع سفن كبار من التى تعمل فى الاطلانطى بخليج غسقونيا « بسكاى » ، بدأت بها شطحها فى البحر الأحمر ، فنطحتها الخسائر ، حتى لجأت إلى خبير ألمانى ، الدكتور لوبرت ، قابلته فى بلدته « كوكسهافن » على بحر الشمال ، عقب عودته من مصر ، وكنت على وشك الانتهاء من بعثتى الدراسية ، فحدثنى طويلا عما رآه فى بلادى ، وما نصح به ، وهو لا يخرج عن استخدام السفن الموتور الصغيرة ،

كالتى كان يعمل عليها الإيطاليون فى المياه المصرية .

عاد الخبراء الأجانب كلهم إلى بلادهم وبدأت وزميلى فى البعثة ، نواجه وحدنا مشاكل الثروة المائية فى مصر .

وآن أن أقدم للقارئ هذا الزميل الكريم ، وهو صديقى الدكتور إبراهيم عبد الجليل أبو سمرة ، مدير عام معهد الأحياء المائية والمصايد ، الأسبق . وزمالتنا التى امتدت طوال عملى بذلك المعهد ، أعتبرها مضرب الأمثال فى التعاون العلمى والفنى والإدارى تعاوناً صادقاً ، يكمل فيه كل منا أخاه ؛ أبو سمرة باتجاهاته العملية ، وأقدامه الثابتة على الأرض الطيبة ، وهو ابنها الفلاح الطيب ، اجتمعت فيه سجايا المصريين العتيدة : الأناة ، والاتزان ، والهدوء ، والاعتزاز بالكرامة ، والأنفة من ارتكاب الصغائر . وأنا ابن المدينة ، وحوارى القاهرة ، الهارب إلى الخلاء الفسيح والبحر الواسع ، يشدنى الخيال إلى طباق الجو العليا ، ويمسك العقل بتلابيبى حتى لا أطير . . أو يطير عنى !

يا للفرق الشاسع بين الفتى ابن الثالثة والعشرين يتخطى عتبة مستشفى الرمد بالجيزة ، ليتسلم أول شغل له فى الحياة العملية . كان يشعر فى داخليته بالرهبة ، ولا داعى لها ، فقد تمرن ثلاثة أشهر فى قسم الرمد بقصر العينى خلال دراسته ، وحاز فى امتحاناته النهائية على مدالية طب العيون وسيعمل بإشراف جهابذة التخصص الرمدى فى البلاد . . . .

وبين ابن الثلاثين يتسلم عمل « مدير مباحث الأسماك » بعد سفر الخبير الأجنبى ، وليس معه غير زميل بعثته ، وعلى عاتقهما أداء ما كان ذلك الخبير يستكثره على خمسة ، فيطالب بالمزيد . لم يكن مخطئاً فى مطالبه ، ولا متغالياً . عيبه أنه كان مثالياً مغالياً !

وذلك عيبى أنا أيضاً ، ولكن ماذا أصنع وقد وقع الفأس فى الرأس ؟ المهم أننى لم أشعر برهبة داخلية أو خارجية ! وأننى والحق لشديد

التعجب اليوم من قوة ثقتى بنفسى ، وبقدرتى على اقتحام كل الصعاب ، وتحريك الرواسي . أو هى الرواسب ، رواسب الماضى المتخلف والحاضر البير وقراطى . وأحب أن أكرر ما قلته فى الفصل السابق ، لأختم هذا الفصل ، وهو أنى :

« عندما عدت من بعثى وجدت الناس يشغلون نصف الوقت ، إن كانوا يعملونه ، وكنت فى أوربا أعمل طول النهار وبعض الليل . فلم يكن عجباً أن أحس بالقوة الدافعة ، والاطمئنان إلى أن من يعمل ثمان ساعات أو عشرا ، يجب أن يتغلب على من يعمل ثلاث أو أربع ساعات فى يومه . فإذا أضفنا إلى العمل ما تلقيت من علم وخبرة فى دائرة اختصاص فقد يعذر لى شعورى بحتمية انتصارى فى النهاية » .

جزاء ليس من جنس العمل

واصلت أعمالى مديراً لمباحث الأسماك ، فلمعهد الأحياء المائية والمصايد ، ثم أضيفت إلى وكالة مصلحة المصايد . وذلك من فبراير ١٩٣١ حتى آخر أغسطس ١٩٤٢ دون ملال أو كلال .

لا يتوقعن القارئ أن أسرد قصة همى وغمى ، منذ أن ولدتنى أمى ، كما يقال فى الحواديت . ولا يتوهمن أننى سأبحث له عن الطارف المعجب لتسليته . إنما هذه صور خاطفة ، أو « سندباديات طيارى » إذا فضلت من حياة مصرى كان عمله على رأس تساليه ، وليعلمن من لا يعلم أن المرء الذى لا يشعر بلذة العمل والكفاح ، الذى لم يدرك بأن معنى الحياة هو فى الحركة وعمق التجربة واتساع الخبرة والمعرفة ، لا يلومن إلا نفسه على شقائه ، وسوداوية فكره .

قال الفيلسوف اليونانى ، وقد وقف بقبر ملك شرقى (أظنه بختنصر) ، يطالع المحفور على نصبه : « أكلت وشربت و . . و . . . وتمتعت » : هذا نصب تذكارى جدير بخنزير !

فى أخريات السنوات الاثنتى عشرة بدأ أقرب أصدقائى ، وحتى بعض زملائى يرثون لحالى . سألنى زميل بلغ مرتبة الأستاذية بالجامعة عن درجتى المالية بعد خدمة نحو تسع عشرة سنة ، وضرب كفاً بكف عندما عرف بأن مدير معهد الأحياء المائية ، ووكيل مصلحة المصايد قرمل فى الدرجة الرابعة بمرتب أربعين جنيهاً !

سمعة طيبة ، وجهد لا ينى ، واعتراف له بالكفاية ، وأسفار بعيدة وقريبة أداء لواجباته . . . لا يقابلها من ناحية الحكومة ما يدل على أن الجزاء من جنس العمل . . إلا أن يكون ذلك الجزاء هو تمثيل الحكومة فى لجنة دولية دائمة (القومسيون الدولى للكشف العلمى بالبحر الأبيض المتوسط) يسافر إليها سنوياً ، أو ندبه لبعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى ، على السفينة المصرية « مباحث » . أو نتف أخبار فى الصحف السيارة عن تحركاته ودراساته ، أهم ما فيها الطرافة والتشويق . دراسة وحش بحرى نادر « قرش – بالمينى » نفذ إلى قناة السويس مصاباً (بضربة رفاص غالباً) وجنح قرب محطة « كبريت » . وتشريح حوت يافع ، طوله سبعة عشر متراً ، بواسطة عشرة جزارين من رشيد وبرج مغيزل ، شحط على رمال الشاطئ على مبعدة أميال إلى الشرق من رشيد (وقد ذهبت جريدة « المقطم » فى خبرها إلى أن هذا الحوت ، فيما يقال ، يستطيع أن يبتلع سفينة بركابها !! وقرأت الخبر « السندبادى » فتوجهت إلى الأستاذ خليل ثابت ، دون سابق معرفة ، ولم أتكلم قبل أن أضع قصاصة « المقطم » بين يديه . فذعر الرجل العلامة ، واعتذر عن هفوة مراسله) .

أو السفر بالبحر والبر ، وبطائرات السلاح الجوى البريطانى ،

فالسلاح الجوى المصرى عقب إنشائه ، إلى واحة سيوة للكشف عن عيونها ومجارى مياهها توطئة لأمدادها بأسماك حية .

أو مقابلة الملك فؤاد مرة فى العام للإدلاء بما تم من أعمال اللجنة الدولية ، أو بخطوات العمل بمعهد الأحياء ، وتقديم تقاريره ومذكرات مباحثه المطبوعة .

عندما توجه مدير مباحث الأسماك يشكو إلى وكيل وزارته قرار اللجنة المالية بترقيته إلى الدرجة الخامسة (بعد ثمان سنوات بالسادسة) مكتفية بإضافة حق مالى له ، على أساس أنه طبيب سابق ، فكان مجموع ذلك ٣٢ جنيهاً قال له الوكيل متعطفاً فى ابتسام : أهو يا أخى مرتبك قد عمرك !

وحتى بعد عودته من المحيط الهندى وعلى رأسه ريشة ، والجميع يثنون عليه من رئيس لجنة بعثة مورى بجامعة كمبردج ، إلى آخر عطشجى بطاقم « مباحث » ، ذهب يحيى وزير المالية ، فلطعه صباحاً عند مدير مكتبه ، حتى اضطر المسكين إلى العودة إلى الإسكندرية بعد أن رجا مدير المكتب أن يحمل عنه التحية إلى معالى الباشا ، وأن يتفضل بإخباره « أننى لم أجئه متسولا ! »

وكان أمراً طبيعياً بعد مقابلتى للملك فؤاد منفرداً ، ومع أعضاء البعثة المشتركة ، وبعد احتفاء وزير المعارف العمومية بنا فى حفل عام بالجمعية الجغرافية ، أن يتعثر طلب ترقيتى استثنائياً إلى الدرجة الرابعة وأن يوقف بالتالى اقتراح الإنعام على بوسام (لا يمنح إلا لموظفى الدرجة الرابعة فما فوق !!) .

ما معنى الاسترسال فى هذا الحديث البايخ ؟ ألا يكفى أن تعرف الأجيال الحاضرة والطالعة نصيب العاملين المجدين فى الأزمنة الخالية ، الذين لانصير لهم من قرابة أو نسب ، يقذف بهم فى العلالى ، ولو بالشلوط !

لقد ابتسم له القدر وتعطف — فإذا به ينقل بدرجته الرابعة ، ومرتب الأربعين وسن الأربعين عميداً لكلية العلوم وأستاذاً لعلم الحيوان بجامعة الإسكندرية حال إنشائها في أغسطس ١٩٤٢ . كان ذلك بفضل أستاذ الجيل الدكتور طه حسين ، المستشار الفني لوزارة المعارف حينذاك ، ومدير الجامعة الجديدة بالإضافة ، وبفضل تأييد أستاذي المرحوم الدكتور علي إبراهيم ، مدير جامعة القاهرة .

ثم يرقى خادمكم المطيع إلى الدرجه الثانية استثناء ، ضمن نظام عام وضعته وزارة الوفد لتكافئ أعضاء هيئة التدريس الذين نقلوا إلى الجامعة الجديدة في أسوأ الظروف وأحرجها : الماريشال إروين رومل واقف بالعلمين ، على أهبة الوصول إلى الدلتا ، والجامعة الجديدة مجرد مراسيم وقرارات تبرطع فوق بلاط مدرسة ثانوية بالإسكندرية !

ولا يمضي عامان حتى « ترفت » وزارة الوفد ، فتجيء الوزارة المعادية وتلغي ترقيات الجامعة كلها بجرة قلم ، ويعود محسوبكم إلى درجته ومرتبه . أي يحدث شيء لا أظن له شبيهاً في تاريخ جامعات الدنيا : وهو أن عميداً لكلية العلوم ، وأستاذاً بها ، ورئيساً لمجلس إدارة معهد الكيمياء الصناعية ، ينزل إلى الدرجة الرابعة بمرتب أربعين جنيهاً .

والأدهى والأعجب ! أن أبقى عميداً، بل وتجدد عمادتي لثلاث سنوات أخرى .

وتتخشى وزارة معادية تالية فتعيد بعض الحق لجميع أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية ، فيما عدا اثنين رفض مجلس الوزراء إعادة حقهما إليهما . . بحكم علاقة صداقة ووفاء بينهما وبين المغضوب عليه من القصر والحكومة . . صديقي وأخي الكبير الدكتور طه حسين !

وعندما انتهت عمادتي ، استقبلني الملك فاروق، بمناسبة عودتي من مؤتمر علمي كبير ، فأدليت إليه بخبر إنشاء كرسي « الاقيانوغرافيا » ،

أى علوم البحار ، وانتقالى إليه ، أى عودتى إلى موضوع تخصصى ، بعد أن « خلصت » من متاعب الإدارة والعمادة . . . فقاطعنى الملك وهو يقهقه ضاحكاً ضحكة غير ملكية . . « خلصت ، وإلا خلصم منك ... هاهاها ... ها ! » .

نكست رأسى لأخفى ما بنفسى ، وقلت بمنتهى التواضع الهادئ : لكل وجهة نظر يامولاى . ست سنوات تحملت أعباء إنشاء كلية العلوم بالجامعة التى تحمل اسمكم (وصورت له بعض لقطات مضحكة مبكية من أشهر الإنشاء الأولى) تخرجت منها دفعتان ، وأنشأت معهداً للكيمياء الصناعية ، انتقل طلبة دفعته الأولى إلى السنة الرابعة . . وأصبت من جراء كل ذلك فى حاسة من أدق حواسى وجلالتكم تعلمون بأمرها . أفلا يكون انتهاء عمادتى خلاصاً لى ؟ . . لا سيما وأننى سأركز جهودى فى عمل أحبه وتخصصت له ، يتوقف عليه مستقبل الثروة المائية بمصر ، وهو العمل الذى يعود الفضل فيه إلى والدكم المعظم . وقد جئت أطلب إليكم أن تساعدوا جامعتكم على المضى قدماً فى إنشاء معهد أقيانوغرافى جديد بها وبمدينة الإسكندرية .

النطق الملكى الكريم : حانشوف . . هع ، هع . . هع !

كان ذلك فى خريف ١٩٤٨ ، وأشهد أننى منذ تلك المقابلة لم أضع قدمى فى قصور الملك ، بمناسبة أو بغير مناسبة فيما عدا حفلة شاى عامة دعى إليها الموظفون و « الأعيان » والحكام للاحتفاء بمولد وريث للملك .. بينما الأرض تميد من تحته ، وتتلو بصوت القدر آيات الذكر الحكيم : (إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

فلنترك هذه الصفحات السود تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، فوالله ما عرفت شقاء المظلوم ، وبؤس المحروم إلا عند ما قرر مجلس وزارة محمود فهمي النقراشي بكامل هيئته استثنائي وزميلي من التسويات التي أعادت بعض حقوق نحو ثلاثمائة من أعضاء هيئة التدريس ، الذين قام على اكتافهم بناء الجامعة .

ومع أني رفعت بعض الستر — ذكرى وعبرة — عن بعض ما جرى على بتلك الجامعة ، فمازلت متردداً في أن اكشف عما بقي ، وهو أفدح ، وما خلفته حياتي فيها ، وبعد تركها ، من غصة ومرارة . وأحسب التردد منتهياً بي إلى إرخاء الستر ، عفا الله عما سلف .

فلنعد إلى حياتي بمباحث الأسماك ، ولم تك ظروفها البيروقراطية إلا منمنمة لصورة عامة شاملة لإدارات الحكومة .

بالبيروقراطية أو بغيرها سار عملي من نجاح إلى نجاح ، وإن كان بخطى السلحفاة ، ينوء به صبر أيوب ، فما بالك بمن لم تبق الأيام في قوس صبره منزعاً !

تحولت إدارة مباحث الأسماك إلى « معهد الأحياء المائية والمصايد » والبناء الصغير الذي أعده لنا الخبير الأجنبي ، قد تمكنا من تحويره وتعديله ، وبناء أجنحته ، مما تحقق معه لنا عدد من معامل البحث الفردية ، وقاعة متحف ، تواجه قاعة مكتبة ، ما برحت تعتبر أهم مكتبة متخصصة في علوم البحار والمياه العذبة وتربية الأسماك .

وأعددنا قاعة للأكواريوم لاقينا في إتمامها متاعب لا تصدق : فزجاج الأحواض لا سبيل إلى إقامته ولصقه بالحائط دون أن يتهشم . وإن سلم ، تسربت المياه من بين الحائط وبينه . مهندس يروح ومهندس يجيء ، وألواح تتشقق ، ومعجون تخترقه مياه البحر كأنه رمل ترشيح ، مع أننا قدمنا للمصلحة القائمة على البناء أكثر من روشتة لمعجنة زجاج الأكواريا .

وضاع عام بأكمله ، وتلك المصلحة عاجزة عن تركيب طلمبة لرفع مياه البحر إلى الخزانات العليا ، وأحيل الأمر فى النهاية إلى مصلحة الميكانيكا والكهرباء، مع صيانة ماء وجه مصلحة المبانى، فلم يمض بشهر حتى كانت خزانات الماء العليا مملوءة والطلمبات تؤدى عملها .

وسنوات الأزمة الاقتصادية العالمية اتخذت فى بيروقراطيتنا صورة من أعجب الصور ، ربما كانت هى الصورة المثالية بعد أن لجأت حكومتنا « السنية » إلى خبير بلجيكى شهير « فان زيلاند » مع ملاحظة أن وعلمى بالاقتصاد أقرب إلى معارف بياع الترمس !

كل ما أعرفه أن التعليمات صدرت بإيقاف الترقيات والعلاوات وإلغاء الدرجات واستعمال « الظروف » الحكومية أكثر من مرة ، والكتابة على الورق وش وظهر ، وأن لا يصرف من اعتمادات الميزانية سوى الضرورى ، والشاطر من مصالح الحكومة هو الذى يعيد إلى الخزينة أكبر مبلغ من اعتمادات لم تصرف . لأى هدف ؟ لتضاف إلى الثلاثين أولا أدرى كام مليون جنيه التى تغط غطيطاً فى مكان ما . .

مع أنى على طول خمس سنوات قضيتها بفرنسا ، والمشروعات قائمة على رجل ، والنشاط العلمى والفنى والاقتصادى والترفيهى بالغ أشده ، وفى آخر كل سنة مالية خزائن الدولة أفرغ من فؤاد أم موسى ، والحكومة مضطرة إلى الاستدانة من كل من هب ودب ، فأتصور أن الحكومة الفرنسية على وش إفلاس . لأننى لم أتعود هذا النوع من الحيوية والحركة وقد نشأت على اعتبار أن نقص احتياطى الدولة بمعناه : يا خسارة مال الخواجة ! على أونا ، على دوى !

وماذا تستطيع مصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك أن توفره ؟ لا من علف الخيل ، ولا فى مرتبات الموظفين ووقود الطوافات . ما أسهل أن تنزل على إدارة مباحث الأسماك تشطيباً فى ميزانية الكتب والأدوات

والأجهزة العلمية والدرجات .

وبالرغم من كل شيء ، فما زلت أعتبر سنوات عملى بمعهد الأحياء المائية من أسعد أيامى ، ففيها ذرعت بلادى بطول الوادى الخصيب ، وعرض الصحارى حتى أقصى الواحات شمالا وجنوباً ، وعرفت ما يكاد يكون كل ركن من بحيرات الدلتا ، والبردويل ، وقارون . وكانت أحب رحلاتى تلك التى أجتمع فيها بالصيادين فوق ميدان عملهم المائى ، وأنزل إلى سفنهم ، أو أصعد على سطح اللنش لأخطب جمهورهم وقد احتشدوا فى فلايكهم حولى . فتنكشف لعينى صورة بانورامية للنظام الرأسمالى فى بداوته وضراوته ، صورة مصغرة للفلاح فريسة الاستغلال والجهل والفقر والمرض . وما أكثر ما حاولت للصياد فكاكا من ربقة مستغليه دون جدوى ! لأن فهمى قصر عن إدراك شىء بسيط جداً ، وهو أن النظام كله لم يكن يسمح بتحرير عمال الأرض ، وهم عماد ثروة البلاد . فما بالك بعماد الثروة المائية ، وكانت لا تعد شيئاً مذكوراً ولا حساب لها فى دوائر الحكومة ، ولا فى دوائر المال والأعمال ، ولا حتى فى غذاء الشعب !

يدخل سندباد العصر والأوان

صورت فى الفصل السابق – بالطريقة السفنجورى – اقتصاديات الحكومة المصرية فى سنوات الأزمة العالمية ، ومن جراء انهيار سوق المال فى وول ستريت عام ١٩٢٩ وتعطيل السفينة « مباحث » عن عملها الأصلى فى مطالع الثلاثينات . وكنا قد وضعنا لها مخطط عمل يتناول الإفريز الإقليمى للبحار المصرية من السلوم إلى رفح ، ومن بورسعيد حتى مرسى علم ، على أساس رحلات قصيرة ، إذ كان مستحيلا على وزميلى أن نغيب كلانا فى البحر طويلا . ولكن ، بحجة وأخرى ، كانت تؤجل الرحلات حتى تأكد لدينا أن لا سبيل إلى وضع سفينتنا فى خدمة العلم وتطبيقاته . واعتقادى اليوم أن تنفيذ مخططنا فى ذلك الزمن البعيد كان من الممكن أن يضع لنا ولمن جاء بعدنا صورة علمية ، وخريطة عملية لاستغلال ثروتنا البحرية .

ولا يتصورن القارئ أن الحيلولة بيننا وبين سفينتنا أوقف حالنا ، فما كان أوسع أعمالنا وأكثرها . وحتى يومنا هذا ، يكفى أن يضع الطالب يده فيما تخرج شباك الصيادين ليجد مائة موضوع وموضوع للبحث العلمى . ولشد ما كانت أمنيتى فى تلك الأيام الخوالى أن تعنى جامعتنا الوحيدة ببعض تلك الموضوعات ، إعداداً لرسائل الماجستير والدكتوراه . وسرعان ما تحققت ، فقد أنشأت كلية العلوم محطتها البحرية المشهورة بالغردقة ، عمل بها خبير بريطانى ، وخلفه فيها الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر ، وأخيراً الدكتور عبد الرحمن الخولى ، وخرجت من تلك المحطة أعمال علمية هامة ، كما اتجهت فى السنوات الأخيرة إلى التطبيقات



العلمية مما قربنا كثيراً من الإحاطة بخصائص البحر الأحمر وأحيائه ، وممكنات استغلالها ، وخاصة إذا ما امتد إليها العمران سياحياً وتجارياً وصناعياً ، بتمهيد الطرق وتعمير المرافئ ، وإنشاء الموانى وإقامة مخازن التبريد على طول الشاطئ الساحر لبحرنا الشرقى .

وبينما تعمل « مباحث » كطوافة للحراسة والمراقبة ، وصل إلى وزارة المالية ، عن طريق المرحوم الدكتور حافظ عفيفى ، وزيرنا المفوض ببلاط سان جيمس ، اقتراح لأستاذ علم الحيوان بجامعة كمبردج بأن تعار « مباحث » إلى بعثة بريطانية نظمت لدراسة البحر الأحمر ، والبحر العربى وشمالى المحيط الهندى ، بأموال للسير جون مورى بطل أهم بعثة جابت بحار العالم فى القرن الماضى على السفينة « تشالنجر » . رصدها قبيل وفاته سنة ١٩١٤ للكشوف الإقيانوغرافية ، وعطلت الحرب الأولى تنفيذ الوصية ، وتجمع منها مبلغ أربعين ألف جنيه . فتألفت لجنة علمية برئاسة البروفسور جاردنر ، اختارت المناطق التى ذكرت ؛ ووضعت برنامج الكشف العلمى بها .

استدعانى مدير مصلحتى وسألنى رأيى فأوضحت له أهمية تلك البعثة من وجهة نظرنا القومية : تدريبنا وتدريب ضباطنا البحريين وبحارتنا على تنفيذ الخطط الكبرى فى كشوف البحار ، بالإضافة إلى دراسة البحر الأحمر . ولما أبدى المدير العام اعتراضه على الإعارة ، أجبته بأن الأمر يتعدى المصلحة إلى وزارة المالية ، والحكومة هى التى تقرر ما يتفق والصالح العام .

ولم تعجب المدير إجابتى .

وقد كان ، إذ جاء قرار وزارة المالية بالموافقة المبدئية . وجرت المفاوضات بين القاهرة وكمبردج فى أوائل سنة ١٩٣٣ . وتألفت لجنة بمصلحة خفر السواحل برئاسة مدير البحرية للاتفاق على شروط الإعارة . وانتهى الرأى

إلى أن تؤمن البعثة عند اللويدز على سلامة السفينة وركابها ، وأن تقوم هى بأداء مرتبات ضباط السفينة ومهندسيها وطاقمها و بدل سفرهم .

واشترطت البعثة أن يقود السفينة قومندان ، ويشرف على آلاتها باشمهندس تعينهما البعثة فى إنجلترا ،واقترحت لجنتنا أن يصطحب قومندان البعثة قومندان مصرى يقوم بواجب تمثيل الحكومة المصرية فى الموانى التى تزورها «مباحث» ، فردت البعثة بأنها لا تستطيع أن تكل أمر القيادة إلا إلى شخص واحد ، هو القومندان الذى تعينه ، وأنها تخشى أن تقوم سلطتان على ظهر السفينة بما يتعارض والمبدأ الأساسى لسلامة القيادة .

وتمد البعثة السفينة « مباحث » بالأجهزة العلمية والأدوات اللازمة ، وثلاجة للأطعمة بالعنبر الكبير ، وجهاز قياس الأعماق بواسطة الصدى (من الطراز المستعمل فى سفن البحرية البريطانية) . وكلها تبقى ملكاً للسفينة . كما أن الحكومة تحصل على نموذج من جميع الأحياء والنماذج العلمية وجميع ما تصدره البعثة من تقارير علمية .

وتصطحب البعثة اثنين من الإخصائيين المصريين يضمان إلى عضويتها (ولكن مرتباتهما وبدل السفر على حساب الحكومة المصرية) .

ولقد نفذت البعثة كل الشروط بأمانة ، وأشركت — بعد عودتها — مصريين من أعضاء البعثة العلمية فى بريطانيا لدراسة بعض نتائجها بجامعتى كمبردج وليفربول .

وشرط عدم تحمل مرتبات العضوين العلميين — مع أن البعثة تحملت كافة التكاليف — غريب فى بابه ، إلا أن يدرك المعنى المفهوم من إشراكنا ، وهو أنها إنما تضم العضوين المصريين « للتعليم والتدريب » وقد حاول عميد كلية العلوم (البريطانى) بالقاهرة أن يثنينى عن الاشتراك فيها بحجة أنى خبير «قد الدنيا» فأجبت ، على رسالته بأننى أحوج من

كل أعضاء هيئة التدريس بكليته إلى التعليم والتدريب، فلا يبتئس الحالى !
وأشهد أن مصلحة خفر السواحل كانت أحرص منى على أن أمثلها بل أمثل حكومتى ، بحكم أننى أكبر موظف مصرى على السفينة أتحمل تبعة الجميع . وقد نشأ عن هذا موقف عجيب حقاً ، وهو اضطلاعى بمسئولية فعلية ، دون أن يكون لى أكثر من السلطة الأدبية . ومع أن رئيس البعثة اختارنى لأكون طبيب السفينة أيضاً فإننى لم أكن مرءوساً له فحسب ، بل « مصريا » ضم إلى البعثة « للتعليم والتدريب » .
كما أشهد أن المصلحة قد أحسنت اختيار ضباط السفينة ومهندسيها وطاقمها .

لقد نشرت فى كتابى « سندباد عصرى » صوراً إنسانية من الرحلة ، لا علاقة لها بعمل البعثة العلمى ، كما سجلت تاريخ البعثة وتفاصيل تكوينها ورحلاتها العشر فى التسعة الأشهر ، وتقاريرى السرية التى كنت أرسلها إلى رؤسائى من ميناء الوصول عقب كل رحلة . ونشرته الحكومة فى كتاب ، سنة ١٩٣٩ ، بعد عودة البعثة بخمس سنوات ، وهى المدة التى اشترطت بعثة مورى على كل أعضائها أن لا ينشروا شيئاً عنها . وربما عدت إلى هذا « الكتاب التذكارى » فيما يلى .
إنما أعجل بالإشارة هنا إلى الجو الذى اشتمل المصريين فى الشهرين الأولين من تلك الرحلة التاريخية التى رفرف فيها العلم الأخضر على طول البحر العربى وعرضه ، وفى خليج عمان حتى مدخل الخليج العربى ، وشمالى المحيط الهندى حتى خط عرض ١١ درجة جنوبى خط الإستواء . كانت سفينتنا « مباحث » موضع إعجاب كل من التقينا بهم من رجال البحر ، أو الرسميين بالموانى الأجنبية ، وجرت بذكرها صحافة العالم ، ولم يفت الجرائد البريطانية أن تمعن فى المعجب الغريب من أعمال البعثة ، تزيداً واستثارة ، كأن تتحدث عن اكتشافنا للقارة الأسطورية الغارقة

« ليموريا » فى قاع المحيط الهندى ، وهى التى تشبه أختها « أطلانطيس » الغائرة فى المحيط الإطلانطى !

وعلى الرغم من أن جميع المصريين دون استثناء كانوا مثالا رائعاً من الخلق والكفاية والتفانى ، فإن سلوك الضيوف فى الفترة الأولى كان صورة من أسوأ صور السيطرة والعجرفة وضعف الثقة «بهؤلاء المصريين» . فمن يكونون إلى جانب أبناء دولة البحار السبعة التى لم تكن الشمس قد غربت بعد عن ممتلكاتها !

ونالنى الكثير من العنت والاضطهاد بحكم إحساس الضيوف بأننى أمثل أصحاب السفينة ، وبما بدا لهم من نفوذى الأدبى على جميع مواطنى ، وقد ثبت لنا أن زملاءنا العلميين فى البعثة البريطانية كانوا شباناً حديثى التخرج من جامعة كمبردج ، ولكنهم فى الحق كانوا على قدر كبير من متانة الخلق والكفاية العلمية . وأما رئيس البعثة فهو من أكبر خبراء المحيط الهندى بحكم اشتغاله بحكومة الهند سنوات طويلة على سفن الأبحاث فى بحر بنغال وبحر الهند .

وإذا كنت كبحت جماحى بأقوى ما يتحكم إنسان فى أعصابه ، فلأنه كان من المستحيل على أن أظهر أقل امتعاض أمام مواطنى . وأنا بحكم تطبيبى للأربعين نفساً فوق سفينة لا يتعدى طولها أربعين متراً ، وصافى حمولتها مائة طن ، كنت أنفذ إلى نفسية الجميع ، فى جو البحر الأحمر المرهق حرارة ورطوبة ، وخاصة شهر اختراقنا له ذهاباً « سبتمبر » فأهدئ من سورتهم ، وأحنى رأسى لرئيس البعثة راضياً بالمذلة والمهانة !

ولقد صارحت إخوانى بأن واجبنا نحو بلادنا يقتضينا ضبط أعصابنا إلى أقصى درجة . لأن أى إخفاق أو عوج فى أعمال البعثة ، حتى لو كان الضيوف هم المسئولين عنه ، سوف يفسر أمام العالم على حسابنا . فمن ذا الذى يصدق بأن إخفاق بعثة بريطانية يشترك فيها مصريون على

سفينة ترفع العلم الأخضر ، يكون مصدر الخيبة فيها أبناء الأمة البحرية العظمى ؟

وشاء ربك أن أحقق الفوز « بالنقط » فى الشهرين الأولين على إثر واقعتين أولاهما ذات صفة جادة ، والثانية هزلية !

دخلت (برطوز) البحرية أتعهد مريضاً فإذا البحارة فى ثورة لأن رئيس البعثة ، وهو يتجول على الكويرته ، اعترض طريقه أذكى وأقدر بحرى فى طاقم السفينة . كان البحرى ماهر على عطيوة قاعداً على الكويرته يصلح شباك البعثة ! فتحول رئيس البعثة عن طريقه متململا بحركة من حذائه ، وكأنه يلكز على بقدمه !!

« هوا فاكرنا مين (بتضخيم اللهجة الإسكندرانية) ، يمكن فاكرنا ظى (زى) ... (وأشاروا إلى درة من جواهر التاج البريطانى حينذاك) بوطوطهم علشان يركبوا الخيل ... إلخ إلخ .

ذهبت من توى لمقابلة قائد السفينة ، وكانت أول مرة أتجه إليه فى شأن ما ، وهو أسكتلندى حاد الطباع جداً ، اتخذ من أول الرحلة صورة بعبع المركب ، من التعالى والصمت ، والبوز شبرين ، وعدم الاختلاط ! فأخبرته بما حدث ، وبالحالة التى وجدت عليها البحارة ، وبأنه قد يصعب على إبلاغ رئيس البعثة بما بدر منه ، هذا إلى أن الأمر يختص برجاله هو ربان السفينة ، ولذلك أترك الأمر بين يديه ليتصرف مع رئيس البعثة بما يرتئى .

وفى الأيام التالية حتى آخر التسعة الأشهر ، لم يكن الكولونيل سيويل يمر ببحار أو بمجموعة بحارة ، فى عمل ، أو جالسين فى الراحة دون أن يتزاح عنهم فى أدب ويبتسم لهم ويحيى برأسه تحت الطاجن الفلين المضحك الذى يسميه الفرنسيون « الخوذة الاستعمارية » .

الواقعة الثانية هزلية ، تتعلق برئيس السفرجية الأجنبى . فإلى هذا

الحد كانت ثقة الضيوف بالمصريين ضعيفة حتى عينوا فى هذه الوظيفة الثانوية . . . مالطياً اسمه باولو ، من حثالة الإسكندرية ! لم تمر عليه الرحلة الأولى : السويس — عدن حتى ظهر أن « خيبة الأمل راكبه . . . مركب ! »

كانت للدلك المالطى قدرة عجيبة على تفجير البثور فى أنحاء جسده . أعالج منها مجموعة هنا ، فتنفجر مجموعة هناك فى أطرافه ، وعنقه ، وظهره ، كاللعبه اليابانية : حبايه فى كبايه تطرح ورداية ، مش معقول ! هذا الرجل هو قائد أوركسترا الدمامل ! أتته الدمامل منقادة إليه تجرجر أذيالها ، فلم تك تصلح إلا له ، ولم يك يصلح إلا لها !

نبهت القومندان إلى أن وجود باولو وسط الأصحاء لا تؤمن عقباه . فإذا كان مستطيعاً أن يأمر البثور والقروح فتجرى بأمره ، فما الذى يمنعه أن يهدى باقات منها إلى أفراد الطاقم ، ولا يبقى لى وقت لأداء أى عمل سوى . . . مطاردة الدمامل الطائرة فى جو السفينة !

وتكشف أمر السيد باولو عن كرامات أروع ، فقد كان من النوع الذى لا يكره رجال البحر شيئاً أكثر منه ، إلا أن يكون التحدث عن شحط السفن وجنوحها . لم يكن يمضى يومان والثالث حتى يلزم باولو البرطوز ، ويقول : آه . . .

لم يكن من الصعب اكتشاف هذا النوع المعروف للأطباء العاملين بين مجموعات بشرية تشتغل سويا : التمارض . والكلمة الإنجليزية لها فى البحر رنين قبيح : « مالنجارر » . فالمجموعة المحدودة التى تعمل فى البحر على مركب صغير لا يمكن أن تتحمل رجلا فى عنفوانه يدعى المرض .

وعندما وثقت من أن كفايات باولو لا تنضب ، ذهبت إلى « الناخداه » الاسكتلندى أدلى إليه باكتشافى الجديد . وأترجم له بالإنجليزية ما يقابل

قولك : أنا حطيت صباعى فى الشق من باولو بتاعكم ده . فلم يكذب رب البحر خبرا ، واصطحبنى إلى « البرطوز» للكشف على « باولو المريض بالعراق » .

أمرناه بخلع فانلته القذرة ، وإزاحة حجر بنطلونه ، وهو يقول : آه . فأرد عليه : فين يوجعك ياحويا (ياخويا بالمالطى) ، وأنا أتحسس وأدق على مساحات من ظهره وصدره وبطنه . . . كلا لم نكن بحاجة إلى سماعة ، أو «إشاعة» ، كما يقول العوام ، ما دام الأمر كله فى صميمه إشاعة كان كل عملى « شغل يد » . . فاتضح للكابتن ماكنزى أن رئيس السفرجية المالطى يشكو من التهاب بلورى ، وكسور متعددة فى القفص ، وقرحة فى المعدة تمتد إلى الإثنى عشرى ، والتواء بالمصارين ، والتهاب فى الزائدة الدودية . . بالإضافة إلى حصوة فى الحالب ، احتقان المثانة ! أى أن باولو ، « ياحويا » ، يشكو نصف كتاب فى الطب الباطنى .

زعق إيان ماكنزى فى الرجل : يو آر إيه مالنجارر . . جت أب يو بلادى فول !

وفى أول يوم وصولنا إلى عدن سرحنا باولو بتذكرة عودة إلى بلاد تفيض سمنا وعسلا وتزرع القثاء والأرز والعدس والقمح . . والفول !

وعين السفرجى النوبى مكان المالطى ، وقد بلغ من حب القبطان الأسكتلندى للسفرجى المصرى طوال الرحلة أن أهداه تذكاراً ذا قيمة ، أو مالا « له صورة » فى لغة مؤرخنا العظيم إبن إياس !

من الذاكرة إلى كتاب تذكارى

كتبت الفصل الماضى من الذاكرة ، وأشرت فيه إلى « الكتاب التذكارى » الذى وضعته ونشرته الوزارة بعنوان « رحلة الباخرة المصرية « مباحث» إلى المحيط الهندى مع بعثة السيرجون مورى » ،ولم يكن الكتاب تحت يدى . ثم تمكنت من استعارة نسخة ، أعدت مطالعتها ربما لأول لأول مرة منذ عام نشرها سنة ١٩٣٩ . وأستأذن القارئ فى الوقوف مرة أخرى عند تلك الرحلة ، بنقل فقرات من ذلك الكتاب ، فالأمر متعلق بدور من أدوار التطور العلمى لبلادنا . ولا أحسبنى مضطراً الآن ، أو فيما بعد ،إلى الدخول فى تفاصيل علمية لا تعنى سوى أهل الاختصاص. إنما المهم أن نحاول هنا وضع صورة إنسانية لتلك الرحلة ، لا كما وعتها ذاكرتى ، ولكن حسبما جاء فى سجل رسمى كتب بعضه إبان الرحلة ذاتها ، والبعض الآخر عقب ختامها فى مايو ١٩٣٤ .

قطعت بعثة السير جون مورى ٢٢٠٠٠ ميل بحرى فى البحر الأحمر وخليج عدن وخليج عمان والبحر العربى والجزء الشمالى من المحيط الهندى . استغرقت الرحلة تسعة أشهر (٢ سبتمبر ١٩٣٣ـ٢٥ ما يو ١٩٣٤) ، قضت منها « مباحث » ٢٠٠ يوم فى عرض البحر ونحو ٧٠ يوماً فى الموانى . ويجب أن نتصور سفينة طولها ٤٢ متراً ، وصافى حمولتها ١٠٣ أطنان ، يعيش فوقها أربعون نفساً ، ما بين الصعيدى والنوبى والبحراوى والقاهرى والسكندرى ، والإنجليزى والأسكتلندى والأسترالى والنيوزيلاندى والمالطى . رجال بحر ورجال علم ، يعيشون فى حيز ضيق ، خال من أى أثر للرفاهية . فإذا أضفنا ما يتعرض له رجالها من أخطار الغرق والتصادم والجنوح وقطع أسلاك الصيد تحت ضغط أطنان ، قد تقتل

من فى طريقها ، وإذا راعينا الجو الحار الرطب فى المناطق الاستوائية ، وما تعرض له الجميع من أمراض فى أفريقيا وآسيا ، فإن بالمستطاع تصور المجهود الرائع الذى قام به المصريون وضيوفهم ، مما نوهت به الصحف المصرية والأجنبية فى حينه :

صور من الأخطار : (من مذكرتى التاسعة المرسلة من عدن فى ١٠ مايو ١٩٣٤) . « ورجائى أن تحوطنا العناية حتى آخر الرحلة . فقد كاد الوبريس على عطيوة أن يفقد أصابع يده بين عامود البطافورة وحبل معدنى يحمل ضغطا ينيف على الطن . وقد أخذته بمجرد بلوغنا عدن إلى مستشفى الطيران الحربى للكشف على عظام يده بالأشعة ، فظهر أنها سليمة ، ورفعت عن يده الرباط والجبيرة .

« ووقع حادث آخر كاد يتحول إلى مأساة إذ سقط عبد الفتاح محمد ، مندوب الجامعة المصرية ، فى البحر أثناء اشتغاله بجمع الماء من الأعماق . وكان عمق البحر فى تلك المحطة ألف متر فى خليج عدن المزدحم بوحوش البحر (القروش) ، وعبد الفتاح لا يعرف السباحة . ومن حسن الصدفة أن كان القارب فى الماء (والباخرة واقفة لدراسة المحطة الهيدروغرافية) وبه نفران ينظفان جوانب السفينة ، تأهباً لدخول عدن وقد ألقى البحريان الماهران محمد السلامى وأحمد يوسف بنفسهما فى الماء ، وأسرع الريس أحمد سرور فقفز من السفينة إلى القارب ، ومد البحرى الماهر مصطفى عبد الكريم مجدافه . وبذلك استطاعوا إنقاذ عبد الفتاح من غرق كان محققاً . وإذا ذكرنا بأن ضباط السفينة أطلقوا نيفا وأربعين رصاصة فى الأسبوع الماضى وقتلوا ١٨ قرشاً من قطيع أحاط بالسفينة أثناء وقوفها ، فلاشك أن المصلحة توافقنى على أن البحريين اللذين ألقيا بنفسهما فى الماء قد قاما بعملية إنقاذ تدل على جرأة نادرة وإنسانية عالية ، نوه بها القومندان ماكنزى من أعلى الممشى .

الحالة الصحية : (من ترجمة تقريرى الطبي فى نهاية الرحلة) :

« . . . إلا أن الحالة لم تتخذ دائماً هذا المظهر الباسم ، فقد حملتنا أعمال البعثة حول المحيط الهندى ، وتعرضت صحة الجميع لأمراض المناطق الحارة فى كل مرة نزلنا فيها إلى الأرض ، وكانت معجزة لو أننا اجتزنا تلك الظروف دون أن نصاب .

ويمكننا أن نقسم التسعة الأشهر التى استغرقتها البعثة إلى ثلاثة أدوار الدور الأول : حينما بدأ الجميع رحلتهم فى أحسن صحة . الدور الثانى : حينما انحطت مقاومة الجميع بفعل العمل الشاق فى المناطق الحارة . الدور الثالث : حينما استعاد الجميع قوتهم بعد استراحة دامت ثلاثة أسابيع فى كولومبو .

الدور الثانى : بدأ هذا الدور أثناء عبور السفينة من بومباى إلى ممباسة ، واستطعنا أن نلاحظ على الجميع علائم الضعف العام . فكانت الجروح بطيئة الالتئام وزادت نسبة التوعكات . ولكن أعمال البعثة لم تتأثر بفعل هذا الضعف، كما أنها لم تتأثر حينما حلت الملاريا على ظهر السفينة . والدليل على هذا أن رحلة (ممباسة—زنجبار) كانت من أحسن الرحلات إنتاجاً، مع أننا جميعاً كنا ننحدر إلى حالة جلية من الضعف.

وفى ممباسة اتصلنا على الشاطئ الأفريقى بمنطقة من المناطق الموبوءة بالملاريا وغيرها ، وظهر أثر اتصالنا فى الأيام الأولى بعد سفرنا من ممباسة . فظهرت أعراض الملاريا على اثنين : أحدهما من البحرية ، والآخر من الأعضاء العلميين ، وأثبت الفحص الميكروسكوبى ذلك . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الكينا كانت تعطى للوقاية ، ولعل ذلك أخفى حالات العدوى البسيطة . وقد ظهرت ثلاث أو أربع حالات ملاريا مشكوك فيها وعولجت بالكينا . ونصحنا أطباء مستشفى زنجبار أن نتعاطى الكينا حتى عودتنا إلى الإسكندرية .

وبعد مومباسة ظهر جلياً أن جميع ركاب السفينة فى حاجة إلى الراحة . فقد أبقى فى مستشفى زنجبار أربعة أو خمسة رجال . كما كان على ظهر السفينة من المرضى ما يعادل هذا العدد . وأصيب أحد الرجال (وقاد) باحتباس معوى قبيل وصولنا إلى زنجبار واستعصى على أطباء مستشفى زنجبار ، وكادوا يجرون عملية فتح البطن لولا رجائى أن يتريثوا إلى أقصى ما يستطيعون . ثم انصرف الاحتباس وقررنا أن نعيد الرجل إلى الإسكندرية .

الملاحة عبر الأقيانوس : (مذكرتى السادسة المرسلة من زنجبار فى ٢٧ يناير ١٩٣٤) : « نسافر يوم ٣٠ يناير متجهين جنوباً إلى جزيرة كومور (خط عرض ١١° درجة جنوبى خط الاستواء) ، ثم نتجه شمالا بشرق حتى جزائر سيشيل حيث نأخذ مقداراً إضافياً من الفحم لنشرع فى رحلتنا الطويلة عبر المحيط . ويتوقع الجميع أن تكون من أصعب الرحلات على « مباحث الصغيرة » . نعم أننا عبرنا المحيط من بومباى إلى ممباسة ، ولكن الرياح كانت فى « القش » (أى خلفنا) ، والتيار كان معنا . أما فى عبورنا هذه المرة ، فستكون الرياح الموسمية « المونسون » الشمالية الشرقية فى شدتها ضدنا ، وكذا التيارات البحرية ولقد عرفنا هذا البحر من مقدماته فى رحلتنا الأخيرة إذ تركنا جزيرة بمبا وخرجنا إلى عرض المحيط وكان البحر شديداً لدرجة أن القومندان أمر بإنقاص سرعة السفينة إلى أربع عقد (= ٤ ميل بحرى فى الساعة) .

ظاهرة البحر المضىء : (من تقريرى العام، بالإسكندرية فى ١٥ أغسطس ١٩٣٤) : « وكلما بدت ظاهرة البحر المضىء ، أوقظ أعضاء البعثة ليشاهدوها ويصفوها ويتعرفوا مداها وقوتها ، ويتصيدوا الأحياء المضيئة المسببة لها .

« ولن ينسى أعضاء البعثة ليلة والسفينة على بعد يوم أو يومين من

بومباى ، إذ أوقظوا ليشاهدوا البحر وقد تلألأت أمواجه بأضواء فوسفورية قوية غلبت سواد الليل ، وانتشرت حيث ينكسر الماء ، سواء فى عرض البحر ، أو على جوانب السفينة ، أو حول حبل « البركيتة » المرسل خلف السفينة . وواصلت مباحث سيرها ساعتين (أى نحو ١٧ ميلا بحرياً) حتى قطعت تلك المنطقة البديعة فى ضيائها ، وتركتها خلفها صقعاً منيراً وسط الليل المدلهم » .

اكتشاف سلبى : (من تقريرى العام) «ومن غرائب بعثة مورى أن يكون أوضح اكتشاف لها حتى الآن فى علم الأحياء المائية هو اكتشاف سلبى ، لم تفز منه البعثة إلا بالنزر اليسير من النماذج ، وذلك فى المنطقة المحيطة برأس الحد عند مدخل خليج عمان . فقد دهش أعضاء البعثة أولا من قفر قاع البحر بين عمق ٢٠٠ و ١٨٠٠ متر ، وواصلوا دراستهم للقاع فى جميع الأعماق سواء ناحية الشاطئ العربى (سلطنة عمان) أو الشاطئ الإيرانى (بلوخستان) ، وثبت لديهم وجود نطاق من القاع بين هذين العمقين مقفر إقفارا تاماً من الأحياء . ولما كان لهذا الاكتشاف خطره ، زادت البعثة أعمالها وحددت النطاق اللاحيوى (أزويك) تحديداً دقيقاً .

« نعم إن القاع البحرى المقفر لم يكن شيئاً مجهولا فى بحار العالم . . . ولكن فى مناطق تتميز بوجودها فى بحار مقفلة ، أو لاجونات تركد المياه فيها وتتعفن . أما أن يجد الإنسان منطقة من البحر المطلق حول رأس الحد ، وعند مدخل خليج عمان ، عطلا من الحياة ، فهذا ما لم يكتشف من قبل . . واستطاع البيولوجيون من أعضاء البعثة تعليل تلك الظاهرة . عندما اتجهت أفكارنا إلى أننا على مقربة من منطقة آبار البترول التى تستثمرها الشركة الإيرانية البريطانية ، وأرسلت البعثة استفهاماً إلى قومندان ميناء مسقط (سلطنة عمان) . . . فجاءت إجابته معززة لرأى البعثة . إذ ذكر أن قد لوحظت

منذ سنوات طفحات زيتية كبيرة منتشرة على سطح الماء ، لم يجدوا لها تعليلا ظاهراً . . . . » .

لاحظ تاريخ هذا الاكتشاف (فى الرسلة بين كراتشى و بومباى نوفبر — ديسمبر ١٩٣٣) وعلاقته بكشوف البترول فى ربع القرن الأخير ، ومطامع البريطانيين فى الجنوب العربى المحتل . إنما فى ذلك التاريخ البعيد لم يكن البترول حديث الخاص والعام ، والظاهرة التى لاحظناها تشير إلى قيعان غنية بالنفط .

الحالة النفسية : (المذكرة الرابعة من بومباى فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٣) « والآن وقد اجتزت صعوبة الشهرين الأولين ، فإنى أستطيع استعراض الماضى فى هدوء ، فيزيد اعتقادى بأن إعارة سفينة مصرية لبعثة أجنبية فى مثل هذا الظرف كانت خطوة جريئة وضع فيها احتمال المصريين ورزانتهم تحت اختبار دقيق . فلو أننا فقدنا لحظة واحدة تلك الرزانة أوضعفت قوتنا النفسية لكانت النتيجة سيئة على سمعة البلاد .

(المذكرة الخامسة من ممباسة فى ٣ يناير ١٩٣٤) : « وليس لدى ما أزيده عما ورد فى مذكرتى السابقة من تحسن الحالة بوجه عام ، وتوطد علاقات المودة بين الضيوف والمصريين ، وتزايد النتائج العلمية للبعثة ، مما جعل الجميع يستبشر بما سيكون لها من أثر فى عالم العلم .

« وكنت أعتقد أنى اجتزت أصعب نواحى مهمتى ، ولكنى وسط السرور بما وصلنا إليه ، رأيتنى أعالج مسائل خاصة بالطاقم ، ربما كانت عارضاً يزول . وأسرع فى أن أطمئن المصلحة من جهة طاقم الكويرته ، فالصعوبات التى اجتزناها نشأت فى الشرك . فقد حدث أن الفحم الذى موننا به فى بومباى كان رديئاً ، وأنهك « الاتشجية » قواهم فى محاولة رفع البخار إلى الدرجة المطلوبة دون كثير جدوى . وقد فل ذلك من عزائمهم ، وسبب شيئاً من الارتباك فى الشرك (غرفة الآلات) أثناء

رحلة بومباى — ممباسة » .

ما لم أقله هنا هو حدوث ذلك فى رمضان وقد صامه المسلمون جميعاً وعادت إلى ذكريات طفولتى وما كنت أسمعه حولى من « ضيق خلق الصائم » . فقد رأيت الوقاد (الاتشجى) يخرج من غرفة الآلات فى قاع السفينة ، إلى الهواء الطلق على سطحها ... فيشتم ، دون سبب ، أول من يقابله من البحرية أو الاتشجية .

جمعت الشمل ودعوت إلى السلام والمحبة ديدننا فى الرحلة ، فما أولانا بهما فى الشهر الفضيل . ثم انتقلت نقلة سحبان من الوعظ إلى الغضب والتحدى الصريح : اللى مش قد الصوم ما يصومش ، واحنا يا اخوتنا على سفر ، والدين يسر لا عسر . فلا عذر بعد الآن لمن يلتمس فى الصيام ذريعة ليعارك دبان وشه !

وفى سوق ممباسة واتتنا الفرصة لنتمون بكل ما يشتهيه الصائم من مأكولات مصرية . وكان شهر رمضان فى البحر من أسعد أيام الرحلة ، أعادنى إلى سنوات الحداثة فى أحيائنا الوطنية .

ترقيات المجاهدين : « المذكرة الخامسة من ممباسة فى ٣ يناير ١٩٣٤ :

« ولما كانت أعمال الجميع تقع تحت نظرى ، كما أنى مطلع على حالتهم النفسية ، وتساؤلهم إلى أى حد تفكر المصلحة بمكافأتهم على مشاقهم التى يصعب وصفها ، فإن رجائى أن تكون الوزارة مستعدة لقبول التوصية بترقية المجيدين منهم فى أول فرصة . أما أن ينتظر الجميع بعد عودتهم شهوراً ليبلغوا بعدها بأن الحالة المالية تسمح أو لا تسمح بترقيتهم ، فإن ذلك سوف يكون له أسوأ الأثر فى نفوسهم . هذا وقد قررت كلية العلوم ترقية مندوبها الأستاذ عبد الفتاح محمد ، وعرف الجميع على ظهر الباخرة بأمر هذه الترقية

« لذا أرجو أن تمهد المصلحة منذ الآن السبيل إلى مكافأة رجالها الذين

جاهدوا وسط المحيط تسعة أشهر ، فى أشد الظروف حرجا ، مجازفين بصحتهم وراحتهم وحياتهم فى سبيل رفع شأن مصر ، ورفع علمها بين أعلام الدول التى قامت ببحث البحار ، وبدء صفحة جديدة فى فى حياة البحرية المصرية . . أقول إنه إذا لم تتخذ المكافأة هذا الطريق العاجل . . فإن الحكومة سوف تضيع فرصة من أعظم الفرص لبعث روح النشاط فى نفوس جميع موظفيها » .

وتعليقى على هذا الآن : ضيعت الحكومة الفرصة ، ولم تصنع شيئاً أكثر من الترقيات الشرفية !

ثم أختار من السجل الرسمى بعض ما شهد به رؤساء البعثة فى كمبردج ، والإسكندرية :

من خطاب الكابتن ماكنزى : ربان «مباحث» إلى مدير عام مصلحة السواحل ومصايد الأسماك :

« أود أن أعبر عن سرورى البالغ بكتابة هذا التقرير ، فإن خدمات الضباط والبحارة قد بلغت مستوى عالياً من الكفاية ، وحافظت على التقاليد الى تشرف العلم المصرى فى البحر ، وفى الموانى التى زارتها « مباحث » . وإنى لأعتبره شرفاً عظيماً أن خدمت تحت هذه الراية ، وأن اشتغل بإمرتى أمثال هؤلاء الضباط والبحارة الأكفاء » .

ومن خطاب الكولونيل سيويل رئيس البعثة :

«قبل أن أبارح القطر المصرى أتشرف بأن أقدم لسعادتكم بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن لجنة البعثة فى كمبردج ، تشكراتنا للمساعدات القيمة التى قدمتموها للبعثة أنتم ورجال مصلحتكم .

« وكذلك أود أن أضيف شكرى الشخصى للخدمات التى أداها الدكتور حسين فوزى الموظف بمصلحتكم ، إذ كان ذا فائدة عظمى للبعثة ، وهى مدينة له ، لا بمساعدته فى الناحية العلمية فحسب ، بل بقيامه

بمهام طبيب البعثة على وجه يدعو إلى الإعجاب » .

من حديث للبروفسور جاردنر : رئيس لجنة البعثة فى كمبردج إلى مراسل « الأفريكان وورلد » :

« . . . إن الرحلات الطويلة فى المحيط ، وكانت تستغرق كل رحلة منها ثلاثة أسابيع دون الرسو فى أحد الموانى ، من الاختبارات الجديدة بالنسبة للبحارة المصريين الذين شرعوا فى القيام بمهمتهم والأحوال الجوية سيئة فى البحر الأحمر ، وقد عجزت آلات التبريد عن القيام بمهمتها فلم تك هناك أطعمة طازجة ، ولكن رجال البحر المصريين ألفوا هذه الحالة ، وكانوا من أحسن البحريين ، وكان الضباط المصريون مضرب الأمثال لغيرهم .

« وأظهر اثنان من المصريين العلميين بالباخرة مهارة فائقة ، وهما الدكتور حسين فوزى مدير الأبحاث بمصلحة السواحل والمصايد ، الذي اشترك فى كل شيء ، والأستاذ عبد الفتاح محمد من كلية العلوم بالجامعة المصرية ، وقد قام بالتحليلات الكيميائية التى يتوقف عليها الشيء الكثير » * .

ومن حديث للأستاذ نفسه مع مراسل صحيفة « الأهرام » بالجزر البريطانية :

« ومضى الأستاذ يشرح لى كيف أن عالم العلوم مدين لمصر التى قدمت لنا الباخرة وملاحيها . وهنا أطنب البروفسور جاردنر فى إطراء الملاحين المصريين ، وطريقة تكيف أنفسهم طبقاً لأحوال مستجدة عليهم تماماً . . إلخ ، ومع هذا ظلوا مبتهجين وحافظوا على مقدرتهم وبرهنوا على كفاءتهم طول الوقت .

« وقد ذكر أيضاً الخدمات الجليلة التى قام بها الدكتور حسين

* المرحوم الدكتور عبد الفتاح محمد ، وكيل جامعة الأسكندرية الأسبق.

فوزى مدير إدارة أبحاث مصايد الأسماك ، والأستاذ عبد الفتاح محمد من كلية العلوم بالجامعة المصرية الذى أدى أعمالا قيمة فى التحليل الكيميائى وما إلى ذلك » ثم قال :

« وإنى أعتقد أن هذه الرحلة ستؤثر تأثيراً كبيراً فى سيرة الدكتور فوزى ، وحياته فى المستقبل » .

وأختم بآخر صفحة من مذكراتى ، وهى المذكرة العاشرة المكتوبة بالإسكندرية فى ١٠ يونية ١٩٣٤ ، بعد أسبوعين من عودتنا :

« أكتب هذه المذكرة للتاريخ ، فلست أضيف جديداً إذ أنوه بالحالة النفسية العالية التى كان عليها الجميع ، وقد شهدت المصلحة ذلك عياناً . ولا أعود هنا إلى امتداح سلوك الجميع ، فقد سبقتنى شهادة الضيوف ، ولا أزيد عليها إلا أن أهنئ المصلحة برجالها ، وبحسن اختيارها لتلك المجموعة ، وكانت مثلا أعلى للنظام المحكم ، والسلوك الحسن ، وسلامة الطباع ، مع الشجاعة النادرة :

« وإنى وقد انتهيت من تلك المهمة الدقيقة الشاقة التى أسندت إلى ، لأشعر براحة نفسية عظيمة ، وهى راحة من أدى واجبه كاملا نحو بلاده » .

من حياة الآخرين

أتساءل وأنا أستأنف كتابة هذه « الرحلة حول نفسى » — تذكرنى بالجرو يطارد ذيله ! — ماذا أختار منها وما أهمل ؟ لأننى لا أكتبها لنفسى ، وإنما للقارئ ، ولهدف أهم وأبعد من مجرد استعراض بعض أدوار حياتى . وحياة الإنسان اختصرها المؤرخ إلى كلمات خمس فى الأسطورة المعروفة : بعد أن دخل على الملك يخبره بانتهائه من كتابة تاريخ الإنسانية فى مجلدات مكدسة ببابه تحملها ظهور الإبل ، والملك يطالبه بالاختصار ، أعواماً تلو أعوام . . إلى أن حضرت العاهل الوفاة ، وهو يحض مؤرخه على الإيجاز ، فأدلى إليه المؤرخ بما يشبه أن يكون « بهريز » تاريخه : ولد الإنسان وكافح ثم مات !

وأوضح أننى ربما اخترت ما يبدو لى حاسماً فى مجرى هذه الحياة . وما عرفت شيئاً يحسم الحياة فى مصر ، بل يقصم ظهرها ، أشد من البيروقراطية . لذلك كان عجباً عجاباً — حملته على محمل السحر — أن تهز البيروقراطية طولها فتخلى الطريق أمامى قبل نهاية عام عودتى من البعثة .

ولقد حدث فى شبابنا أن أعطينا صنوفاً من « الاستقلال الذاتى » على أيدى اللوردات ملنر واللنبى ،وذلك البريطانى الكريه الذى رأيته مرة واحدة فى حفل جامعى ، وشهدت موكب سيره مرات على كورنيش الإسكندرية تتقدمه الموتوسيكلات بالصفافير ، فأحسست أن معاهدة الشرف والاستقلال « أونطة »،وأننا ما زلنا شخوصاً بمسرح العرائس تحركنا خيوط المستعمر العاتى من دار بقصر الدوبارة ، وهو أشبه

بجراب الحاوى يخرج منه ذئب اسمه « القنصل الجنرال » ؛ ثم يغير جلده ويخرج فى صورة « المندوب السامى » ؛ وأخيراً باسم السفير البريطانى ، والذئب هو الذئب .

لا شك أن السنوات التى جاءت فى أعقاب ثورة ١٩ كانت فترة تقدم وتطور ، فلقد استطاعت الروح المصرية المشرئبة إلى التحرر والتطور ، أن تتقدم خطوات فى طريق استقلال غير ملفق . ومهما قيل عن الجامعة المصرية ومنشئها ، فهى بنت نبت إرادة الشعب المصرى ، قبل ثورة ١٩ وبعدها . ومهما قيل عن بنك مصر ومنشئه ، فماذا كان فى وسع طلعت حرب أن يصنع لو أهمل الشعب المصرى دعوته ، وتركها ترن صرخة فى واد ؟

لم يتحرك الاقتصاد القومى وحده ، ولا الديموقراطية بمعناها اللبرالى بل تحرك العلم والفكر والأدب والفن ، فارتاد العلماء ميادين الكشف والبحث ، وامتدت آفاق الصحف إلى السياسة العالمية ، تنير بصائر الرأى العام كما يسدد خطواته فى طريق الوعى الاجتماعى ، ويتعلق بأسباب الديموقراطية الصحيحة على ضوء كشاف من الحرية .

تحول رجال القلم عن أدب الشكل والمقامات وشعر المناسبات ، إلى الإبداع الفنى فى مسالك جديدة على الأدب العربى ، كالقصة والتمثيلية والشعر الوجدانى الشخصى والفلسفى ، والنقد .

وانتقل الفن التشكيلى من الزخرف التقليدى إلى التصوير والنحت والحفر ، وكانت فى طفولتنا من المحرمات .

وحتى فن « المَغْنَى » : حتى الموسيقى بدأت تتحرك من مكانها فوق التخت إلى المسرح ، وفى صور مجددة لما عرفه المسرح الغنائى أيام الشيخ سلامة حجازى .

كان هذا وغيره ملحوظاً فى السنوات التالية لثورة ١٩١٩ ، إلى حين

سافرت البعثة آخر عام ١٩٢٥ . وقطع البعد عن البلاد فى خمس السنوات التالية ما بينى وبين متابعة تلك التحركات.

فكيف وجدت بلادى بعد عودتى فى مطالع الثلاثينيات ؟.

لم يكن من الصعب على القادم من بعيد أن يتبين النكسة التى أصيبت بها مصر ، وكنت ألحظ بعض آثارها فى القليل مما يكتب عنها فى الجرائد الأوربية ، وبخاصة بعد وفاة سعد زغلول ، بل أستطيع الإشارة هنا إلى شعورى قبل سفرى بأن هذا الزعيم الكبير فقد ديناميته بعد مقتل السردار . فلست أنسى صورة الشيخ الجليل بملابس التشريفة الكبرى فى جنازة السير لى ستاك ، وقد انحنت قامته المديدة ، ونكست تلك الرأس تحت وقر الحادث .

ساعدت على النكسة ، وزقت عجلاتها ، الأزمة الطاحنة التى تردى فيها العالم منذ انهيار سوق المال فى وول ستريت بأمريكا ، عام ١٩٢٩ .

عدت لأجد الدستور « الفضفاض » معطلا ، بل فى طريق الإلغاء . وإسماعيل صدقى بصدد تفصيل دستور محندق محزق ، أجرى فى ظله المظلم انتخابات لم يدمغها كاتب بمثل ما فعل توفيق الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » .

عدت لأرى الملك مسيطراً تماماً على كبار العلماء ، وعلى « مسرح العرائس » لاضمن الممسكين بالخيوط فى طنف قصر الدوبارة ، ولكن فوق خشبة المسرح ذاته ، وإن فى دور « مولانا الملك المعظم حفظه الله ».

لست هنا بصدد كتابة تاريخ سياسى . كل ما أريد قوله هو إحساسى بأن البلاد تتعثر فى طريق التقدم والتطور ، وقد دبت فيها عوامل التفرقة والفشل ، فلم تدع لها فرصة اتخاذ الخطوة التالية التى تحتمها ثورتها الشعبية الكبرى ، وهى الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية ، والمساواة

الاقتصادية ، على أساس التقريب بين الطبقات .

عدت والمسرح يعانى سكرات الموت ، ما عدا الهزليات الماجنة والاستعراضات الكباريهية . والسينما لم يكن لها وجود مصرى قبل سفرى ، فإذا هى موجودة ، والعدم خير منها . وسمعت الإذاعات الأهلية ، قبل أن تتسلمها شركة ماركونى ، باتفاق مع الحكومة (١٩٣٤) ، فإذا هى بذاءة ما بعدها بذاءة ، ومواعيد غرامية تضرب عياناً بياناً على موجاتها المتضاربة ، تحت ستار ما يطلبه المستمعون . . والمستمعات ؟ من الأغانى ، أجارك الله . تخرج زاعقة مهولة من محطات إشى فى دكان ، وإشى فى بدرون ، وإشى من فوق السطوح !

أما الموسيقى التى كنت أتوقع تحررها من ربقة الأساليب العتيقة ، فقد عادت إلى التخت ، بصورة مجددة ، نعم ، ولكنها حادت عن الطريق الذى شقه لها الشيخ سلامة حجازى .

وعلى الرغم من كل هذا التفاشل والتراجع ، فإن الفكر لم يتوقف ، والإنتاج الأدبى والفنى لم يتقهقر ، ومدرسة المصورين الرواد ذات حيوية وبهجة ، تسلم الشعلة لجيل تضطرم نفسه بسعير الثورة ، وسنلاحظ هذه الظاهرة دواماً ، حتى اندلاع لهيب الحرب العالمية ، وخلالها ، وفى أعقابها حتى انفجار ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . لأن الفكر لا يقف أبداً فى شعب ناهض ، والكبت والكبح والجور ترهف المشاعر .

كان خروج طه حسين من الجامعة ، واشتغاله بالصحافة ، ومواصلة كتابة روائعه الأدبية والتاريخية والاجتماعية من أهم ظواهر المقاومة الفكرية لما أصاب البلاد .

فى الثلاثينات خرجت طلائع الجيل التالى لجيل طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل ، وأكثره من تلاميذ طه حسين بالجامعة ؛ وبعضه من فلول « المدرسة الحديثة » ، مدرسة الثورة الفنية والأدبية .

ولكن واحداً من هؤلاء كان يتحرك فى الخفاء بخطى السنور ، ليفاجئ قراء العربية بعمل يزاوج بين الفلسفة والفن والأدب ، يعتبر أول كتابة عربية للمسرح يعتد بها فى عالم الأدب الرفيع. الكتاب هو « أهل الكهف » والكاتب هو توفيق الحكيم .

كان توفيق الحكيم « مفاجأة سارة » لطه حسين ، ومذهلة للقراء . ولكنه لم يكن مفاجأة أبداً لمجموعة أصدقائه الخلصاء .

ومن حق صداقتى للكاتب الكبير أن أقص ما جرى بالتمام والكمال على « أهل الكهف » قبل أن يخرجوا للقراء جميعاً . فقصتهم كما دبجتها يراعة الحكيم الساحرة ، كتاب هام جداً فى تاريخ الأدب المصرى والعربى.

يظن أغلب الناس أن الشهرة هبطت على توفيق الحكيم « من الزرقاء » وبفضل مقال رنان لطه حسين ، نشر بمجلة « الثقافة » فى شبابها الزاهر . ولا أحسب أستاذ الجيل (بعد لطفى السيد) تحمس فى دراساته الأدبية لكاتب معاصر مثلما تحمس لتوفيق الحكيم بعد قراءة « أهل الكهف » . طه حسين المتحفظ فى كلامه ، والمتأنق فى تزمت . . لم يجد فى كتاب توفيق الحكيم موضعاً للتحفظ ، فرمى بالأناقة والتزمت وراء ظهره ، واندفع بكل قلبه يمجد الكتاب . وفى هذا دليل — إن احتجنا إلى دليل — على صدق وطنية الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين ، وتفانيه فى خدمة قضايا الفكر والفن فى مصر والعالم العربى ، وانتصاره لكل من أخلص للفن وأجاد البناء والإبداع .

وأنا أزعم بأن توفيق الحكيم ، حتى ولو لم يسافر إلى أوربا فى خريف سنة ١٩٢٥ ، بمقال طه حسين ، وبغير مقال طه حسين ، كان مقدراً لاسمه أن يرتفع فى فلك الأدب والفن ، وإن فى هوادة . فقد بدا فى العشرينات كاتباً رشيقاً ، وشاعراً زجلياً ، يؤلف القصص الغنائية ، والكوميديات الاجتماعية ، فتلحن وتمثل وتغنى على مسرح الأزبكية ،

بواسطة شركة التمثيل العربى ، التى ألفها طلعت حرب .

بيد أن إقامته فى باريس أضافت بعداً جديدا إلى ملكاته ، لا يتنبه إليه النقاد عادة ، مكتفين ببعض الحقيقة فى أن توفيق الحكيم عكف على دراسة أدب المسرح بجدية وعمق طوال إقامته فى « مدينة النور » . وبقية هذه الحقيقة هى أن البعد الجديد فى حياة توفيق الحكيم كان « الثقافة » بمعناها الحضارى الواسع :

لقد زاملته فى باريس ، بل كنت مستودع بعض أسراره . كنت أعود من رحلاتى فيدهشنى توغله فى كنوز الحضارة ، حتى صحت به ذات مرة : تذكرنى بأنك ألفت أوبريت « على بابا » ، إذ يبدو لى أنك عرفت كلمة السر إلى كهوف المعرفة ، تلعلط بالصور والتماثيل والموسيقى والأدب والتاريخ والفلسفة . . . والروحانيات !

ولأن الطالب المصرى الذى يرد معين الحضارة الغربية ، عند منابعها الرفيعة ، لن يجد متسعاً للإبداع الفنى حيال تفرغه وانكبابه على التلقى والاستيعاب والانفعال ، فإن توفيق الحكيم كفّ عن « التأليف » بعض الوقت ، أو أخفى عنى محاولاته ، إلى أن وصلتنى منه لفافة فيها قصة تمثيلية قرأتها بإمعان، ثم أعدتها إليه قائلا : روح يا شيخ ، ده أنا كنت فاكرك مؤلف مسرحى ! فضحك ضحكته الطفولية ، ولا أدرى ما صنع بتلك الطبخة التى شاطت منه ، فيما بدا لى .

درات الأيام ، وعاد توفيق الحكيم إلى مصر ، يكتب لى باكياً على باريس ، وعلى اللوفر والفيوكولومبييه والاتلييه ، ويختص صالة « بليل » بعبرة ، وهى قاعة الموسيقى الكبرى هناك .

وعدت إلى الوطن بدورى لأؤدى ما حدثتك ببعضه فى الفصول السابقة ، وإلى ما سنعود إليه وشيكاً ، فتلقيت منه « لفافة » جديدة ، أثارت منى العجب ، فالدهشة ، فالإعجاب ، لم تكن لفافة هذه المرة ،

بل كانت كراسة ضخمة ، كتب فيها بخط يده قصة تمثيلية عنوانها « أهل الكهف » .

هذا ما عنيت عندما أشرت إلى تحرك توفيق الحكيم فى الخفاء بخطى السنور . فهو فنان انطوائى عجيب ، يجتر الفكر ، ويعتصر الفلسفة ، ويحلل ما يقرأ إلى عناصره الأولى فكراً وأسلوباً وبناء ، ثم يشرع فى إقامة أبنيته الفنية كالنمل الأبيض . . فى الخفاء .

لم تكد دهشتى تخف ، حتى أتبع اللفافة بأختها ، وهى العمل الأقرب إلى قلبى من أعماله ، حتى اليوم ، « شهرزاد » ، تلك القصيدة الفلسفية الرائعة .

انتقل مخطوط « أهل الكهف » من يدى إلى أيدى الأصدقاء بدءاً بالمرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى ، وختاماً بالدكتور محمد كامل حسين ، وصيحات الإعجاب والدهشة ترتفع من قارئ إلى قارئ ، فى تلك « المدرسة الحديثة » التى لا يعجبها العجب ، ولا الصيام فى رجب.

وأشار القاضى محمد طاهر راشد على عضو النيابة حسين توفيق الحكيم ، بوجوب نشر « أهل الكهف » على التو . . وبقية القصة معروفة لمن يعتبرون الثقافة للإنسان كالهواء والماء والغذاء .

قلت أن لا معنى « لرحلة الحياة » هذه ، إن لم تجد فيها الأجيال الجديدة دروساً وعبرة . . وهأنذا أستعير من حياة كاتبنا الكبير درساً كبيراً ، كى يعرف المقبلون على الفنون كافتها ، أن العبقرية قد تنزل من السماء قبساً ، لا مائدة حافلة ، وأنها أولا وآخراً عمل ودأب ، وغوص على أغوار الثقافة الإنسانية الشاملة بكل أمواهها وعبابها وتياراتها ولآلئها .

كيف عدت إلى ممارسة الأدب

قد يتعجب القارئ من تنوع الحياة التي عاشها هذا الإنسان الضعيف متنقلا بين الطب والعلم ، مع كلفه بالفن والأدب. ولعل هذا التنازع بين شخصيتين هو الأصل فى شطر حياته الخلقية إلى نصفين متعادلين ، نصف للفروض والواجبات ، ونصف للعشق والهيام ، دون أن يتعدى شطر على شطر ، والأولوية للواجب . لو أن صاحب الترجمة نشأ فى الجيل الحاضر لما تردد فى اختيار كلية الآداب ، ولو أنه نشأ فى بلد أوربى متقدم لوجهه أهله منذ الطفولة إلى الموسيقى . أما وقد اختار القسم العلمى فى الدراسة الثانوية ، فلأن المجال فى المدارس العليا كان أوسع أمام حامل الشهادة الثانوية العلمية .

ولكنه كان يقرض الشعر ، ويكتب القصص ، ويتنقل بين الكتب فى لغته ، وبين الكتب فى اللغات الأجنبية التى تعلمها ، ويترجم عن شعرها ونثرها ، ولم تمنعه دراسته الطبية من الانضمام إلى « المدرسة الحديثة » ، والاشتراك فى تحرير الصحيفة الناطقة باسمها « الفجر — صحيفة الهدم والبناء » وممارسة النقد الأدبى فيها ، كما مارس النقد الموسيقى فى مجلة « السباق » التى كان يصدرها المرحوم توفيق حبيب « الصحفى العجوز » ولم يكن عجوزاً بعد . وتعلم الموسيقى لا على أصولها كما ينبغى ، وإلا لاختار البيانو ، بل على أساس حبه للكمنجة ، وكانت هى والناى أفضل آلات التخت عنده . وعندما انتقل إلى موسيقى الحضارة ، وسمع كونشرتو مندلسون مع أوركسترا بولياكين السمفونى ، وعرف مكانة الفيولينة ، سيدة الأوركسترا ، ذهب يدرس أصولها على الإفرنج ، وواصل قراءة كتب عن الموسيقى أغلبها تراجم وتاريخ .

وهكذا استمرت حياته يتنازعها الواجب والهيام ، دون أن يطغى واحدها

على الآخر ، إلا فى إبان الأزمات النفسية العنيفة ، وقد اجتاز منها واحدة أو اثنتين فى شبابه .

ما أحب توكيده هنا هو أن الرغبات التوسعية فى ميادين الفكر والفن لم تنتقل إلى لا بالوراثة ، ولا بالتقليد والمحاكاة . كل ما فى الأمر أن والدى المتعلم أدرك اتجاهى فلم يقاومه ، فيما عدا مقاومة شكلية أمام الموسيقى . أما صلتى بالإفرنج فلم تتعد تتلمذى على مدرسى الإنجليزية بالثانوى ، ومعلمة الفرنسية ببرليتز ، فمدرس الألمانية ، وكنت أحب من أساتذتى المعلم واسع المعرفة والثقافة ، ولم أعرف من هذا النوع غير اثنين أو ثلاثة أحدهم إنجليزى .

ولكنى بعد ما سافرت إلى باريس ، بحر الحضارة الخضم ، وجدتنى أسبح مع كثير من الناس على شاكلتى ، فرنسيين وأجانب . بل رأيت أساتذتى فى كلية العلوم ، وغيرهم فى كل مهنة ، على صلة بالفكر والفن ، ممارسة ، أو هواية ، أو على الأقل ، اطلاعاً ومعرفة .

ساعدنى هذا الجو الثقافى على الاتزان فى متابعة رغباتى الأدبية والفنية ، مع أداء واجباتى العلمية . لم أندفع مثلا فى دراسة الموسيقى ، بل اكتفيت بتلقى مؤثراتها من حفلاتها ، وما أكثرها فى باريس ، حيث لا تمضى ليلة دون حفلة بقاعات الموسيقى : جافو وإيرار وبليل وغيرها . فضلا عن أربعة أوركسترات سمفونية تعزف يومين فى الأسبوع ، وهى الأوركسترات التاريخية : كونسرفتوار باريس وكولون وبادلو ولا موريه ، عدا ما كان ينشأ فى وقته ، وغير الفرق الزائرة. والأدب لم أتعد متابعة تحركاته الحديثه ، مع الرجوع دائماً إلى الأعمال الأساسية فى تاريخ الفكر الإنسانى . كما عنيت بزيارة المعارض ، والمتاحف زيارات منتظمة تدعمها قراءة النقد فى الصحف الفنية ، والاطلاع على كتب تاريخ الفن .

بيد أن عودتى من البعثة ، واضطلاعى بمسئوليات الإشراف على

الثروة المائية جعلتني أنصرف بكلياتي إلى عملي فلا أكاد أجد وقتاً لممارسة أدبية أو فنية ، فيما عدا القراءة والموسيقى .

ومع ذلك فقد كان صديقي الدءوب توفيق الحكيم آخر من يصدق بأني رجل علم ، وظل زماناً طويلا يعتقد أن حكاية « العلم » عندي أكذوبة مفضوحة ، وخداع نفس عن ميولها واستعدادها الفني والأدبي .

أقول الدءوب لأنه حتى بعد أن تخلى عن ريبته في إخلاصي للعلم ، لم يفقد الأمل في أن يعود بي إلى ميدان الأدب والفن .

وحدث في الثلاثينات أن الأخ أحمد الصاوي محمد شرع في إخراج مجلته ، واعتمد فيها على شعبيته الكبيرة لدى الشباب الناهض المثقف ، ثم على توفيق الحكيم الذي بلغ أوج الشهرة ، وسار في طريقه إلى المجد الأدبي . راح الصاوي بكل الوسائل يستغل في توفيق الحكيم شخصيته العجيبة المميزة ، فيضيف إليها من عندياته ألقاباً ونعوتا تجتذب إليه العنصر الهام جداً في شعبية الصاوي ، ويتألف من « بنات اليوم » في أول عهد خروج الفتاة إلى أجواء الحرية والثقافة . والمغامرات العاطفية . وكانت لمسة عبقرية من الأستاذ الصاوي أن يذيع عن توفيق الحكيم ، الوديع الأليف ، الذي ينبض حباً للبشر بجنسه ، أنه « عدو المرأة »

وكنت قد عدت من المحيط الهندي وقد أكسبتني رحلتي البحرية بعض الشهرة ، لاأساس لها أكثر من واقعة خروج سفينة مصرية صغيرة بطاقمها ، وعلها بعثة أجنبية كبيرة ، إلى البحار البعيدة ، ومما حازته الباخرة « مباحث » من سمعة خارج البلاد في عالم الكشوف البحرية . فاجتمع رأي الحكيم والصاوي على تجنيد حسين فوزي للمجلة الجديدة ، وقد سماها « مجلتي » بحكم أنه منشئها وصاحبها وناشرها ورئيس تحريرها ومدير إدارتها ومطبعتها وإعلاناتها .

لم أك أقضي يوماً أو أياماً بالقاهرة دون أن أحل ضيفاً على الصاوي

أمضي معه ومع الحكيم سهراتنا الشتوية فى مطعم فاخر . . على حساب « مجلتى » . ولم أر مناصاً من إمداد المجلة بمقالات كان كل أجرها تلك العشوات القاهرية . فما كان أبعدنى عن التفكير بأن أتقاضى مالا على عمل لا يمكن بأى امتداد للفكر اعتباره من أعمال تخصصى . فلم أك أكثر من هاو طيارى ، يستسلم لصديقين رغباً أن أشاركهما فى عملهما الذائع .

من يدرى ؟ ربما كانت عودتى إلى الأدب مصدرها خجلى من أن أكون الضيف الدائم على الأستاذ الصاوى . . دون مقابل .

ولأن انصرافى الجاد إلى عملى العلمى ومسئولياتى الإدارية ، لم يكن يسمح لى بمعالجة الأدب طويل النفس من ناحية « الإبداع والخلق » ؛ فقد تلمست الطريق الأيسر والأقرب إلى خبرتى . . وهو كتابة الرحلات بالطريقة الأدبية الحديثة ، أى بالصور العابرة واللمحات السريعة ، وتداعى الأفكار والتأملات ، تبعاً لما عرفته من مطالعاتى المفضلة لأدب الرحلات ، والمعاصر منها بخاصة .

ولم أك أتصور أن تجرنى انطباعات الرحلة ، خارج العلم والبحث ، إلى أبعد من بضع مقالات . ولكنى أحسست فجأة بأننى فى سبيل تأليف كتاب ، فحرصت على أن أتابع موافاة كل عدد من أعداد « مجلتى » بفصل من فصول رحلة المحيط الهندى ، حتى بعد أن هبط توزيع المجلة ، واسمر ورقها ، وذبلت أغلفتها ، ووحلت « الباخرة التى تسير » وخسر فيها الصاوى بالرغم من شعاره الرنان « أنت مع الصاوى تكسب دائماً » . . ولقد صدقت هذه الكلمة معى على الأقل ، فقد كسبت مع الصاوى أول كتاب لى وهو « سندباد عصرى » .

وتولى توفيق الحكيم أمرى فى شراء الورق ، كما قادنى من يدى إلى صاحب مطبعة لنتفق معه على طبع الكتاب . وكانت تجربة جديدة

على ، أنا عاشق الكتب منذ نعومة الظفر . عرفت فيها قطع « جاير الجاير » وورق الكوشيه ، وأنواع الأغلفة ، ثم اصطحبنى المرحوم محمود طاهر لاشين (رائد من رواد القصة المصرية) إلى الخطاط حسنى ليكتب لى عنوان الكتاب ورءوس فصوله بخط فارسى جميل . وكانت فرصة أن أتعرف على أولاده الصغار ، وأستمع إلى غنائهم العذب وعزفهم على تختهم الظريف بمنزل الخطاط الكبير .

ولقد نجح كتابى الأول نجاحاً أدبياً غير منتظر . أما من الناحية المادية فقد اكتشفت سرقة عامل من عمال المطبعة ، اتفق مع عامل من عمال مكتبة كبيرة على طبع عدد من النسخ زيادة عن العدد المتفق عليه مع صاحب المطبعة . وقدرت العدد الزائد بنحو مائتين أو ثلاثمائة نسخة .

وكما تولى توفيق الحكيم أمرى فى الطبع ، فقد أدى واجب الصديق الكريم عندما أفرد للكتاب مقالاً من مقالاته الممتعة فى « الرسالة » أو « الثقافة » لا أذكر أيهما ، تحت عنوان « من البرج العاجى » أو « تحت المصباح الأخضر » .

وعرفنى الدكتور طه حسين عن طريق « سندباد عصرى » ، وقد كتب عنه مقالاً أعتز به ، بالرغم مما أخذه على فيه من الهبوط إلى لغة الأزقة ، وقد صدمته طريقتى فى الخروج عن « أدب اللغة » ، مثال ذلك ما جاء فى الفصل الأول عن أسطورة « مانجوبير » ، حول بركة ماء بضواحى كراتشى يعيش فيها عدد من التماسيح . قلت :

« كانوا أربعة من الأولياء : مانجوبير والقلندين لال شاه باز ، والشيخ فريد ، والشيخ بهاء الحق ، اجتمعوا يوماً ليتناقشوا فى الكرامات .

« ضرب مانجوبير الأرض فتفجرت عن ماء بارد ، وضربها شاه باز فتفجرت عن ماء ساخن . وأخرج الشيخ فريد مشطاً وأخذ يمشط شعره ،

فكان القمل المتساقط منه يتحول إلى تماسيح بمجرد سقوطه فى مياه مانجوبير .

« أما الشيخ بهاء الحق فحين رأى باب الاجتهاد أقفل إطلاقاً ، فقد أخرج من عبه حفنة من نوى البلح ، وطفق يزرعها فى الأرض بكل بساطة وهدوء ، وكأنه يقول ، ويختص بالقول زميله الذى حول صئبانه إلى تماسيح ، . : أيا كانت كرامتكم أيها الزملاء ، فهى لا تعدل قدرته تعالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلا يحمل للأجيال القادمة رطباً شهياً .

« وإنى لأشارك سيدى بهاء الحق هذا التفكير العالى ، ولو أن طبعى الحاد يودنى أن ألتفت إلى شيخ القمل فأقول له : إتفخس عليك ولى ! »

قال الدكتور طه فى أول لقائى به : لقد قسوت عليك ! فأجبته : لقد شرفتنى بغضبك ، كما أسعدتنى بحدبك ، وشهادتك لى بجمال الأسلوب وامتلاك أعنة اللغة . وستعرف عنى نوعاً من الشقاوة أداعب بها اللغة ، فألوى رقبتها بلطف ، كما يلوى الحبيب رقبة حبيبته . . لا ليقصفها ، بل ليقبل فمها . وتأفف الدكتور طه فى لطف وأدب ، وقد بدأ يدرك أنه حيال « ثمرة » أدبية يرجى منها .

أما الأستاذ الصاوى محمد فقد احتفظ بصمته حيال الكتاب ، ولم يشر من بعيد أو قريب فى « الأهرام » إلى كتاب نشر أكثره فى مجلته . لم يغضبنى ذلك منه ، فإن صاحب « ما قل ودل » ، محبوب القراء والقارءات رفض أن يتحدث عن كتاب ينعى صاحبه على الشرق تخلفه ، ويشيد بحبه وإعجابه وإيمانه بحضارة الغرب .

نجاح الكتاب أو عدم نجاحه لم يؤثر فى نفسى بأكثر من أنه تجربة جديده فى المعرفة — وهذه من شأنى — وتجربة فى سوق الأدب — ولم أسع فى أن يكون لى بها شأن .

عرفت أنى مستطيع تدبيج الفصول الأدبية بين الآونة والأخرى دون أن يؤثر ذلك فى عمل الأساس بحال . وكان هذا هو الأصل فى الفصول التى نشرتها بمجلة الدكتور طه حسين « الكاتب المصرى » والتى تألف منها ومن غيرها كتاب « سندباد إلى الغرب » ، إتماماً لما أشرت إليه فى تقديم « سندباد عصرى » من تمسك بحضارة أوربا .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، وانحازت إيطاليا إلى جانب المحور ، اضطررنا لإخلاء معهد الأحياء المائية بقايتباى من كل أدوات العمل ، من ملفات وكتب وأجهزة علمية (بسبب تعرض المعهد للغارات الجوية على الإسكندرية) وبقينا فى المعهد لمجرد تصريف الشئون الجارية فوجدت متنفساً من الفراغ العلمى فى دراسة عربية هامة للمعارف والأساطير والقصص البحرية عند العرب ، انتهيت منها قبل تعيينى بجامعة الإسكندرية لدى إنشائها ، ونشرته فى مطالع عام ١٩٤٣ بعنوان « حديث السندباد القديم » . وفى هذا الكتاب يتضح لمن يتجنون ويعيبون على تعلقى بحضارة أوربا ، أن كلفى هذا لا يعنى انفصالى عن الحضارة العربية فى عصور ازدهارها . وها كم السندباد القديم دراسة خاصة وضعت فيها خبرتى بالبحر وعلومه ، وبالآداب البحرية ، فى خدمة ناحية من الحضارة الإسلامية ، ربما كنت من أصلح الناس ، وأقربهم إليها .

وكيف عدت إلى ممارسة الموسيقى

لم أخرج من أزمة نشوب الحرب العالمية الثانية — وأحسب أن الوقت لم يحن للكلام عليها — إلا إلى الانشغال بإنشاء كلية العلوم ومعهد الكيمياء الصناعية بجامعة الإسكندرية . فعندما انتهت الحرب ، وانقضت سنوات عمادتي عام ١٩٤٨ ، فوجئت بجو من الفراغ لم تملأه أعمالى فى إنشاء الدراسات العليا لعلوم البحار « الإقيانوغرفيا » . وإذا بالموسيقى صديقتى منذ مطلع الشباب ، تشير إلى من بعيد ، فأجرى إليها بشوق المحب الوامق عناه الهجران ، وأرقه البعاد .

اندفعت بكل قوى نفسى نحو الموسيقى ، ولكن بما يلائم سنى وتجاربى فقد لاحظت أن انصرافى إليها فى شبابى كان انفعاليًا محضًا . وإذ حاسبت نفسى ، اكتشفت أنى أجهل أسرارها جهلا تامًا . لم أحاول الكشف عن كنهها كفن ، وكبناء ، لسبب واحد ، وهو عدم تفكيرى بدراسة التأليف الموسيقى . ما حاجتى إليه ، ولى قلم أعالج به الكتابة منذ المراهقة ؟

كان تساؤلى الجديد : ألا يدرس المرء البناء الموسيقى إلا ليؤلف فى الموسيقى ؟ أليست هذه الدراسة لذاتها عملا من أعمال الحب ، وتعمق الوعى والفهم لفن من أصعب الفنون وأعجبها ؟ ثم ماذا أنا محقق من هواية العزف؟ هل أبلغ يومًا قدرة المحترفين الذين يتفرغون ساعات طوالا للتمرينات اليومية المرهقة ولسنوات كثيرة ؟ لقد استطعت أن أدرك ما يدركه عادة العازف الهاوى ، واشتركت فى أوركسترات الهواة بأوربا ، ثم فى أوركسترا كونسرفتوار الإسكندرية وسط المحترفين . وما أكثر



ما شاركت فى أداء موسيقى الصحاب (موزيك ده شامبر) من صوناتات وثلاثيات ورباعيات . لماذا لا أدرس الموسيقى تصميماً وبناء ؟

ولم أعرف حماساً فى دراسة — حتى ولا فى الكشف عن أسرار الحياة المائية — مثل حماسى لهذه الدارسة الجديدة . فقطعت الشوط إلى آخره ، أسبق المحترفين ، وهم السباقون فى العزف ، بل أسابق أستاذى للتأليف الموسيقى ، أنظم برامج دراستى بنفسى ، وأقتنى الموسوعات فى التأليف والتوزيع ، وأكون مكتبة طيبة للمدونات الموسيقية ، ويكون دور الأستاذ الأجنبى ، خريج كونسرفتوار ميلانو ، دور الشارح والمراقب والمصحح لتمريناتى .

يا لهذا العالم المعجب ! تآلف النغمات وتنافرها تؤدى بأسطرها اللحنية المتعددة فى وقت واحد ، وتطور الهارمونيا من البسيط إلى المركب ، وتقابل الألحان فى الكتابة الكونترابنطية ، والانتقال إلى فن الفوجة فى أعمال باخ البوليفونية الشامخة ، ثم فن الصوناتة من أول ظهورها فى صورتها الحديثة على يد كارل فيليب إيمانويل بن سباستيان باخ حتى برامز وتشايكوفسكى وسيزارفرانك ، مارا بأعمال هايدن وموزار وبيتهوفن وشوبرت وشومان ومندلسون ، عالم السمفونية والكونشرتو والرباعية الوترية وصوناتة البيانو والآلة المنفردة باصطحاب البيانو . أعمال عرفتها وأحببتها وأديت بعضها وانفعلت بها وجدانياً قبل أن أتفهمها على أساس من الدراسة الجادة ، فأنفذ إلى أسرار بنائها ، وتتجلى فى حقيقتها لا كمجرد لذة وطرب وخيال رومنتيكى ، بل كعلم أقرب إلى دراسة الهندسة والفن المعمارى ، بل أقرب إلى الرياضيات منها إلى أى شىء آخر .

أذكر فيما أذكر أننى فى القطار ، أو الطائرة ، أو الأتوبوس الصحراوى ، كنت أغمض عينى ، وأعمل فى ذهنى على تأليف التراكيب الهرمونية وتحويرها والانتقال بها من مقام إلى مقام . . وكأننى فى حلم

جميل . وكانت مطالعتى لكتب الصنعة الموسيقية تشبه أن تكون مطالعة روايات أخاذة ، ذكرتنى بأستاذ رياضة من زملائى ، كان يقضى أوقات فراغه على البلاج يطالع فى كتب الرياضيات !

وما زلت أحتفظ برزم أوراق الموسيقية وفيها تمرينات الهارمونيا والكونترابنط والانفانسيون والفوجة . وما برحت مؤلفات باخ المفوجة ، ومدونات السمفونيات والرباعيات والصوناتات تحتفظ بعلامات قلمى الرصاص تحليلا لعناصرها .

هذا عالم جديد ، ورحلة أشبه بارتياد جبال سويسرا لأبناء السهول . لاتشغلنى عن صميم الموسيقى آلة أحملها على كتفى ، ومعاناة لأداء الأعمال الصعبة بالقوس والأوتار . لقد أضحت الموسيقى عندى تفكيراً هادئاً ، ومدونات أطالعها بعينى فحسب ، وقلم رصاص يخط على الورق للحن وتنويعاته ، وأستيكة أصلح بها أخطائى وأنا أجرب التصرفات النغمية والانتقالات المقامية .

كل ذلك وأنا معرض — وما برحت — عن فكرة التأليف الموسيقى . لأن خبرتى بفن الكتاب ، ونمو ملكة النقد الفنى ، كانت تحذرنى من ارتياد هذا الميدان . فلا جدوى ، وفى هذه السن المتأخرة ، أن أبدأ التأليف الموسيقى مراهقاً يحبو فى طريق صياغة العبارات والجمل الموسيقية وخدمتها بالهرمونيا والكونترابنط والتوزيع الأوركسترالى .

يكفى أن أعرف ما أردت أن أعرف من أسرار البناء الموسيقى ، وأن أتمكن من مطالعة المدونات الموسيقية كما يطالع الإنسان كتاباً ، فأسمع الألحان بخيالى .

ولقد حل أستاذى صعوبة دراسة البيانو ، وهو ضرورى لأداء التمرينات واستيعاب أثرها على السمع — ولكن أنى أجد الوقت ؟ —

فأشار على باقتناء « هارمونيوم » يسمح بامتداد الأصوات ما شاء العازف. وبشيء من التمرين أستطيع أن أطالع ولو ببطء ما أكتب وما أحل من المسائل الفنية .

ثم قدرت أن قد حان الوقت الذى أستطيع فيه خدمة الفن الذى أحب ، وذلك بتقديم موسيقى الأعلام للمستمع المصرى مع التحليل والشروح التى لم أكن لأستطيعها قبل تلك الدراسات .

فقدمت للإذاعة أول برامجى بعنوان « ديوان الموسيقى الكلاسيك» فى البرنامج العربى العام — ولم يكن لدينا غيره . ولاقيت الأمرين من المتاعب الظاهرة والمستترة فى شكل ألاعيب صبيانية ، كأن توقف إذاعاتى فى رمضان ! أو أمنع من تقديم سمفونية بورودين لأنه روسى (كذا !) ولأنى سمحت لنفسى بالتنويه بعبقرية المدرسة الروسية فى القرن الماضى ؟ !

وعندما زارت مصر الفرقتان السمفونيتان الشهيرتان : فلهارمونية فينا بقيادة كليمنس كراوس ، وفلهارمونية برلين بقيادة فورتفنجلر ، تطوعت لكتابة شرح برامج حفلاتهما بالقاهرة والإسكندرية . وكان هذا العمل نواة لكتابى الصغير عن « الموسيقى السمفونية — دليل المستمع إلى موسيقى الأعلام » .

فى ذلك الزمان قرر لنا الدكتور طه حسين وزير المعارف إعانة سنوية لإنشاء كونسرفتوار الإسكندرية ، الذى توليت رئاسة أول مجلس إدارته ، ولم أتركه إلا عندما دعيت لتولى وكالة و زارة الإرشاد القومى (سنة ١٩٥٥) .

فإذا سرنا بالقصة إلى نهايتها ، وجدتنى بتلك الوزارة مستطيعاً أن أنظم سلسلة أحاديثى الإذاعية بالبرنامج الثانى مساء الجمعة ، أشرح وأحلل فيها الأعمال الموسيقية الهامة للآلات مجتمعة ومنفردة . ولقد قدمت

منذ مايو ١٩٥٧ إلى اليوم (١٩٦٦) نحو ثلاثمائة حديث احتوت على أعمال نحو تسعين من أعلام الموسيقى ، واشتملت على كافة سمفونيات بتهوفن وشومان وبرامز وأهم سمفونيات هايدن وموزار وشوبرت ومندلسون ، وكونشرتوات موزار وبتهوفن وشومان وبرامز ومندلسون ، وجميع رباعيات بتهوفن ، معظم رباعيات هايدن وموزار إلخ إلخ ، ، وطفت بأعظم أعمال موسيقى الحضارة عند أكثر الشعوب الأوربية عناية بذلك الفن ، من عصر باخ حتى القرن العشرين .

ومع أنى عنيت بالمعاصرين الكبار من أمثال سترافنسكى وبروكوفيف وشوستا كوفتش وهونيجر وروسل وفون ويليامز وبارطوك وكوداى وإنيسكو وداريوس ميلو إلخ ، فإننى لم أطرق بعد موسيقى الجيل الجديد وأتردد فى التعرض لها بسبب شذوذها وصعوبة فهمها ، وحتى لو تغلبت على ترددى فإن سوق السجلات لن يسعفنى لقلة المعروض منها فى مصر .

وحرصنا على إحياء وتقويم أوركسترانا السمفونى بفضل قائد نمسوى اشتهر بحسن التدريب ، ودقة الأداء . ولكنه مع شديد الأسف لم يتلبث طويلا بين ظهرانينا .

وأنشأنا الكورال ، ساعين إلى الإعداد لأداء الأوبرات العالمية بأصوات مصرية ، وبدأنا مدرسة الباليه بمعونة معهد البولشوى المشهور وأعددنا العدة لإنشاء كونسرفتوار الموسيقى وأصبح وشيكاً إمكان تأليف فرقة قومية للأوبرا متكافلة متكاملة ، لا سيا وقد تدربت الأصوات الموهوبة على غناء الأدوار المنفردة فى طبقات الصوت المختلفة .

المهم أنى بمعاونة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، أديت ، وأرجو أن أواصل ، واجباً قومياً ، وهو تقريب موسيقى الحضارة إلى أفهام بنى قومى . ويبدو لى أننا نفذنا إلى وجدان فئة قليلة من المثقفين سيصبحون كثراً

على مدى السنين . إلى أن يجيء اليوم الموعود الذى يدرك فيه جمهورنا الذكى الواعى الفارق بين موسيقى الفطرة وموسيقى الحضارة ، وحينما يتمكن الجيل الطالع من الموسيقيين المصريين من أن يضع اسم مصر فى قائمة الأمم التى ترعى الموسيقى الرفيعة فى الشرق والغرب . مثلما فعل الروس والفلنديون والإسكندناف والإسبان وأهل رومانيا منذ القرن الماضى . تلك أمم عبرت الأجيال ، واختزلت طريق التطور دون حاجة إلى معاناة القرون الستة التى قضتها الموسيقى عند الإيطاليين والفلمنك والفرنسيين والألمان والإنجليز لتنتقل من اللحن المفرد المنفرد ، ومن الأغنية الشعبية والأناشيد الدينية ، إلى تلك التراكيب والأبنية العظيمة التى تمثل قمة من قمم الحضارة وفناً من أروع وأعمق فنون الإنسان .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

اقرأ

قالت له ..



محمد زكي عبد القادر

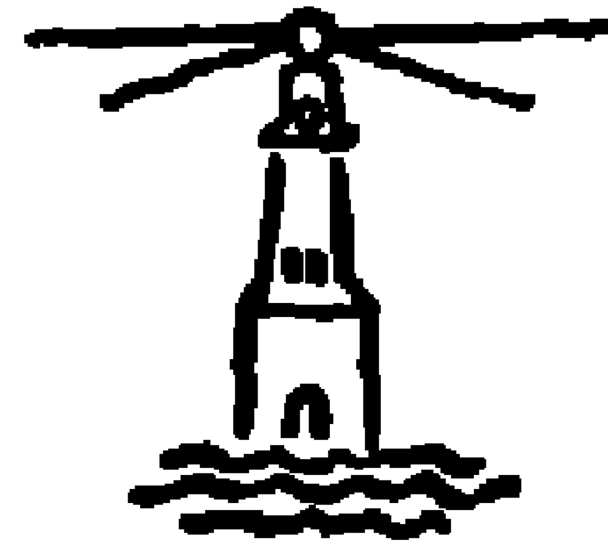
دار المعارف بمصر

٦



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

محمد زكي عبد القادر

قالت له ...

اقرأ ٣٠٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٧ – يولية سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

الاستقرار

قالت له : هذه المرأة . . . أنا أو هى ؟
وسألها متعجباً : أية امرأة ؟
أجابت بتقطيب وحزم : لا أعرف من هى ولكننى متأكدة أن امرأة أخرى فى حياتك . . .
قال : لا أعترف بالتأكيد المستند إلى مجهول . .
قالت والغيظ يقتلها : الكهرباء لا نراها ولكننا نعرفها . .
سأل فى شبه سخرية : وهل هذه المرأة مثل الكهرباء . . .
كتمت ضيقها وتجاهلت سخريته وقالت جادة : مثلها من حيث أثرها ... لقد تغيرت معاملتك لى واستقبالك إياى وسؤالك عنى . . .
ـ ولكننى لا أحس أننى تغيرت . . . .
ـ الذى يحس التغيير من يوجه إليه التصرف ،وليس من يقوم به .
قال متلطفاً : هذا وهم أكثر منه حقيقة ... هذه هى المرأة دائماً .
ـ ماذا تعنى ؟
ـ أعنى أن المرأة أكثر أوهاماً وخيالا من الرجل .
ـ أنت مخطئ ، إنها واقعية . إذا أردت الحق ، قلت إن إحساسها يقودها أكثر من أى شىء آخر . .
ـ قد يكذب الإحساس . .
ـ بل هو صادق فى كل الأحوال . . الألفاظ يمكن أن يتلاعب بها الإنسان . نبرة الصوت والتعبير يمكن أن يكون كل منهما مجالا للخديعة . .
وسأل فى سخرية أقل : تعنين أن المرأة ملهمة . .
وزادت فى كبت شعورها وقالت جادة أيضاً : شىء من هذا . .

ــ أنت تبالغين ، لم يذكر التاريخ أن رسالة الإلهام نزلت على امرأة .
قالت متحدية : ولكن ذكر التاريخ أنها حكمت الرجال .. دوختهم..
ــ بالخديعة ، لا بالإلهام .
وكادت تقذفه بطقطوقة فى يدها ثم كزت على أسنانها وقالت : الرجل هو الذى يعرف الخديعة . . هو الذى أنشأها . .
واحتفظ بثباته وسأل : هل خديعته هى التى طردت حواء من الجنة أم أن حواء هى التى طردت آدم ؟
وأحست أنها فى مأزق ولم تعرف كيف تجيب ، فأنشبت أظافرها فى عنقه وانهمرت دموعها وهى تقول : قل من هى المرأة الأخرى . . قل وإلا قتلتك .
وأبعد أظافرها عنه فى رفق وقال : لا المنطق ينفع ولا الحق ينفع مع المرأة . .
ونشجت ببكاء ثقيل وقالت فى ضعف تقويه الدموع : أنت ظالم ، رجل ظالم تستغل ضعف المرأة كما يفعل كل الرجال . كسر الله قلبك مثل ما كسرت قلبى .
ولم يجد بداً من أن يربت على كتفها ويعتذر إليها من قسوته وظلمه ، فزادت من نشيجها واستطاع أن يسمع بصعوبة ألفاظها المتقطعة : قل من هذه المرأة . . هناك امرأة ، لا تحاول أن تخدعنى . .
وضمها إلى صدره فى حنان وجفف دموعها فى رقة ، وأطال النظر فى عينيها ، فهدأت بعض الشىء واستكانت بين يديه . . .
ومرت فترة من الصمت العسير ثم قالت : هل تحبنى حقيقة ؟
ــ ارجعى إلى إحساسك .
ــ أحياناً يقول إنك تحبنى ، وأحياناً يقول إنك تخدعنى . .
وسألها : والآن ماذا يقول ؟

٧

وردت فى صوت ناعم : يقول إنك تحبنى . . رأيت ذلك فى عينيك.
وأدناها منه وقال فى صوت أكثر نعومة ورقة : وهذه هى الحقيقة ..
وقالت فى صوت الذى يريد فض المعركة : هل أطمئن إليك ؟ إن المرأة لضعفها تريد الاستقرار فى ظل رجل يحبها ويحميها .
قال وهو يعبث بشعرها الناعم المتهدل : ألا تشعرين الآن باستقرار ؟
ـ غاية الشعور ، ولكننى أخشى المستقبل . الشك يقتلنى .
ـ وهو الذى يحمى الحب بيننا .. لا تكرهيه . إنه الغذاء القبيح للحب الجميل .
وسألت فى هدوء لذيذ وهى متشبثة بعنقه : ألا توجد امرأة اذن ؟
قال : بل توجد . . .
وهبت مذعورة كمن استيقظت من نوم هنىء على كابوس ثقيل . من هى ؟
أجاب مبتسماً وهو يضمها إلى صدره : أنت .. أنت كل امرأة فى الوجود .

اللحظة العابرة

قالت له : هل كل المذنبين يلقون العقاب ؟

قال : هكذا أظن .

قالت : لا أعنى المذنبين طبقاً للقانون ، ولكننى أعنى الذئاب التى تريد أن تفترس الضحايا . . .

– تعنين . . .

سارعت قائلة : أعنى الرجال الذين يريدون أن يأخذوا الثمن قبل أن يقدموا الفتاة للعمل أو الشهرة أو المجد أو المال ..

واستطردت : كل شىء عندهم له ثمن ، فإذا لم تبذله الفتاة فلا بد أن تظل فى آخر الصفوف .

قال : أنت متشائمة أكثر مما يجب . إذا كان هناك من يريدون قبض الثمن فإن هناك أيضاً من يبذلون دون أن ينتظروا الجزاء . .

واضطربت بعض الشىء وقالت مصممة : فقدت ثقتى بكل الناس، أعنى الرجال . . . بعض الناس يظن أن الفتاة أمامها فرص أكثر مما هى أمام الشباب .

قال مقاطعاً : وهذا ما أعتقده . تخرج قبل الميعاد وتأخذ من الإجازات أضعاف ما يأخذ الرجل . . يقربها الرئيس ويحنو عليها الزملاء وتجد فى ضعفها مادة صالحة لأخذ الحق وغير الحق . . فإذا لم ينجح الضعف فنى البكاء الترياق . .

قالت وهى تنتفض : وهل يفعل الرجال هذا حسبة لوجه الله ... كلا إنهم يفعلونه ووراءه أغراض وأغراض . . إنها تسير فى طريق من الشوك . .

قال : تستطيع أن تحتفظ بنفسها لو أرادت وصممت . .

قالت : تفعل على حساب أعصابها ، وقلما تثبت للتجربة أو تستطيع السير إلى آخر الطريق . .

— تعنين . . .

وقبل أن يكمل كلامه قالت : أعنى أن كل من تقدمن من الفتيات فى الأعمال وراءهن رجل صديق أو زوج أو طامع فى صداقة أو زواج .. خذنى مثلا : بدأت العمل وفى ظنى أننى كالرجال أعتمد على كفايتى واستعدادى وما بيدى من شهادات . ولكن هذا كله ذهب وبقى شيء واحد هو أنوثتى . كل واحد يساومنى عليها فإذا لم أستجب فالعذاب والعقاب ، أو على الأقل الإهمال والاضطهاد . . كان فى استطاعتى أن أتزوج وأريح نفسى من هذا العذاب ،ولكننى أريد أن أشعر بكيانى كإنسان يستطيع أن يعمل وليس كمجرد امرأة يمكن أن تتسلق على أكتاف الرجال . . إننى فى أزمة ، فى محنة . . كل الصور تضطرب وتختلط أمام عينى . أصبحت الفضيلة أمام الناس عقدة من العقد . جلس الرجل الكبير أمامى وأمسك بيدى واستردتها منه فعجب وقال أنت معقدة .. قلت له : وإذا تركت يدى لك وبعد يدى سائر جسمى أفلا أكون معقدة ؟ .. قال : أنت تبالغين . قلت: بل أنت تريد أكثر مما أستطيع أن أعطى . قال: ولكن يدك .. قلت: المسألة ليست يدى، المسألة ما فى عينيك من نظرات وما فى همسات لسانك من معان . . . ضحك وقال : غرضى شريف . قلت له : يمكن أن يكون غرضك شريفاً أيضاً دون أن تمسك بيدى . .

وسكتت لحظة ثم استطردت : أستطيع أن أحكى لك عشرات وعشرات من الحوادث . فى كل مكان يوجد فيه عمل أجد رجلا يحاول أن يأخذ قبل أن يعطى . . لا تقل مثل غيرك إن طريق العمل أمام الفتاة مفروش

بالزهور . . كلا ، إن الفتاة أسوأ حظا من الشاب ، إن عندها ما يطمع فيه الناس وليس لديهم ما تطمع هى فيه .. إننى لا أعطى نفسى إلا لرجل أحبه وأشعر أنه يقف على حياته العمر كله . لن أبذلها من أجل لحظة عابرة .. ولكننى أريد أن أعمل . أنا فى حاجة إلى العمل ، وكى أحصل على العمل لابد أن أبذل هذه اللحظة العابرة . . إنها مأساة . .
هل كل ذنبى أننى امرأة ؟

زاد السنوات والأيام

قالت له : أو تحبنى ؟ إنى لم أسمع هذه الكلمة من أحد .

وكان وجهها فيه هذا الألم المكتوم والصبر المجروح والإحساس بأن أنوثتها لا تستهوى الناس . وسكتت وكأنها تسترجع ما أفضت به ... إنها لم تخلق للحب أو هكذا تصورت . وقالت :

ــ كلا . . لم أكن أطمع فى هذا . . لقد رجوتك أن تدعنى أحدثك من وقت إلى آخر وأن أزورك من وقت إلى آخر. إن فىّ عجزاً كما ترى .. كتفى يؤلمنى وذراعى لا أستطيع تحريكها كما أشاء .. إننى راضية بقدرى . الذين يحبون ويحبهم الناس أشخاص آخرون غيرى .

قال : إنك تبالغين ، إن فى عينيك وميضاً غامضاً حلواً . . إن وجهك فيه أحلام العذراء . .

قالت : عجباً . . كيف تراها ، أنا نفسى أذودها عن نفسى ، إنى أعرف أنه ليس من حقى أن أحلم كما تحلم أى عذراء ؟

قال : ولكنك تحلمين ، يجب أن تحلمى . . . إن ما بك من عجز لا يرى . . . إن إشعاع شبابك وأنوثتك قادران على أن يخفيا أضعاف هذا العجز . . .

قالت : إنك تعطينى الأمل . . . قلها مرة أخرى ؛ أريد أن أسمعها لا لأصدقها ولكن لكى أشعر أننى سمعتها مرة فى حياتى .

قال : إنى أحبك . .

وسكتت ، وأشرق وجهها بوميض عجيب هو خليط من التصديق والتكذيب ، وهامت فى رؤى عذبة ، وبدت أمامه وكأنها قديسة فى أرض من الحرمان . كانت كأنها تتعبد لله الذى حرمها ووهبها وأضفى عليها

الصبر والسكون، وجمع فى جسمها وكيانها وقلبها وكل جارحة من جوارحها ما تجمع الحياة للأنثى . . وقد أنكرت هذا كله على نفسها ، وظنت أنه ليس من حقها أن تكون كغيرها . . أتراها كانت مخطئة ؟ هل صحيح أن فيها سحراً يستهوى الرجال ؟ هل يمكن أن ينبض لها قلب ويهتز وجدان ؟ ربما . . بل لماذا لا يكون ؟ من المؤكد أن الله الذى حرمها من شىء منحها أشياء .. لا يمكن أن يخلقها هكذا ويدعها للظلام واليأس .

مرّ هذا كله فى لمحة بل فى أقل من لمحة ، واستدارت إليه كأنها تفيق من حلم عذب وقالت :

ــ إنك تفتح أمامى جواً جديداً عذباً، أو تقول الحقيقة ؟ إننى لا أصدق .

واضطرب ، ونظر فى وجهها، فأحس فيه الضراعة مختلطة بالكبرياء، والصبر الراضى ممتزجاً بالثورة المكتومة ، والأحلام المرفرفة بجناحيها مقيدة باليأس من التحليق . . .

ولم يستطع إلا أن يأخذ الجواب من هذا الوجه الذى فرض نفسه عليه فرضاً وهمس : بل أقول الحقيقة . .

وأحست الفتاة فى كلامه شعوراً عجيباً حارت فى تحليله ، ولكنها نهضت وقالت له :

ــ شكراً ... يكفينى هذا زاداً لأيام وسنوات .. سأحلم كما تحلم الأخريات .

ولما تولت عنه شعر بغبطة عجيبة وقال وكأنه يدعو : رب انثر عليها سلام رحمتك . إن كنت قد أخطأت فاغفر لى ، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الامتلاء والفراغ

أحسست بعواطفها تجف وينبوع الهناء الذى كان فى قلبها كأنه يتبخر ، ولم تجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها . فقدت الإيمان بالحب والناس والأشياء . . بالأيام ما مضى منها وما هو بين يديها وما لا يزال محجوباً فى ضمير الغيب . وضاقت بالحياة ، وأحست بها كالفراغ البعيد ليس فيه واحة ولا ظل .

وقالت للرجل الذى أحبته ذات يوم: ماذا ترى فىّ وقد سكت كل نبض . أنا ثابتة لا أتحرك .

سألها : ربما كانت صدمة هي التي صنعت بك هذا كله ؟

ورنت إليه بعين حلوة مات فيها الشعاع القديم ، وسألت : ألا تزال تحبنى ؟

أجاب : كما أنا وربما أكثر . .

ـ هذا عجيب . . أنت ترانى معك كالدمية ، وكنت من قبل إذا رأيتك تفجرت فىّ الأحاسيس والعواطف . . . تمنيت لو عدت كما كنت ولكننى لا أستطيع . . كنت فيما مضى أقضى الليل باكية إذا لمحت أنك انصرفت عنى والآن أقضى الليل باكية لأننى لا أبكى انصرافك عنى ولا أفرح لقربك . . . أترانى سأموت . . وما هو الفرق بين حالتى هذه وبين الموت ؟

أدناها منه وقال فى عطف : ستصحو عواطفك . . هى صدمة فيما أظن . . لعله موت أبيك . . لعله موت أمك . .

وتأملت برهة استرجعت فيها الحوادث ثم قالت : حينما ماتت أمى اضطربت حياتى بعض الشيء ولكنها استمرت بعد ذلك وأنت تعرف

كل شيء . . .

ــ إذن . . ربما كان موت أبيك .

وأغمضت عينيها لحظة ثم فتحتهما وقالت : صحيح إن موت أبي كان كارثة أشد ولكن هل تظن أنه يحدث بي ما أحدث ؟ . . لعله أنت لأنك لم تقابل عواطفي بمثل قوتها .

سألها : وما هي قوة العواطف عندك ؟

ــ لا تسألني عنها الآن . كل ما أذكره أنني كنت أقضي الليل مسهدة بينما أنت في نوم عميق..هل تذكر الخطاب الذي أرسلته إليك وأنا في الإسكندرية . . كان قمة الحب وثورته . . ثم . .

ــ بدأ ينحدر .

ــ هذا ما أذكره الآن .. السيل حينما يبلغ الجبل ولا يجد اليد التي تشده ينحدر . . تركتني وحدي فاحترقت حتى أصبحت ، رماداً .. لقد أدركت الآن أن عواطفي جفت لأنها احترقت وحدها .

ــ ولماذا لم تجف عواطفي ؟

ــ أنت لم تحبني أبداً . إن ما بك ليس عاطفة حب ولكنها عاطفة أخرى ربما كانت التقدير ، ربما كانت العطف ، ربما كانت مجرد مقابلة بالمثل لعاطفة طاغية .

ــ كلا ، الخطأ الذي وقعت فيه هو الشك . . إنه هو الذي أحرقك .

ــ الشك يحيي العاطفة ولا يحرقها . .

ــ إذا كان شكاً يبدو من وقت إلى آخر وتتخلله فترات من الطمأنينة ، ولكن الشك الذي بك دائم وقد نقلته من العاطفة وجعلته يشمل حياتك كلها فسممها ، وجعلك ما أنت عليه الآن.. أجيبي بصراحة هل تصدقين أحداً من الناس ؟ هل تثقين في أحد من الناس ؟

غام على وجهها الذكي سحاب من ألم وقالت : لا أثق في أحد ولا

أصدق أحداً .

ــ هكذا انسحب الشك فى رجل إلى الشك فى كل الرجال ، وانسحب الشك فى الرجال إلى الشك فى سائر الناس . . هل تثقين فى عواطف أقربائك . . إخوتك أخواتك مثلا ؟

ــ إذا أردت الحق لا أثق فى أحد . . إن موقفى فى الحياة هو موقف عجيب . .

ــ عدم المبالاة ؟ . .

ــ ليته كان كذلك . التى لا تبالى بالحياة تشعر بها وتتخذ منها موقفاً. ولكننى أشعر أننى غريبة عنها وكأنها ليست دنياى .

ــ ألا يمكن أن تستردى ثقتك فى الحياة والناس ؟ . .

ــ تمنيت لو استطعت . .

ــ حاولى . . اذكرى أننى أعطيتك وأعطيتنى أحياناً فترات من السعادة ربما لم تكن طويلة ، لحات . . والتى تستطيع أن تعطى لمحة صغيرة تستطيع أن تعطى لمحة كبيرة !

ــ ضع يدك فى يدى . . المس بيدك جبينى . .

ووضع يده فى يدها ومر بيده على جبينها ولكن وجهها ظل جامداً ونظرتها خالية من الضياء والشعاع .

قالت : حالة ميئوس منها . قارن هذا بما كان يحدث فيما مضى . . . الأفضل أن نفترق . . لقد مات الحب .

ــ ربما ينبثق من جديد لشخص آخر .

ــ أرتاب فى هذا كثيراً . أحس أن المعنى نفسه مات فى قلبى .

ــ الحب لا يموت . ربما يموت لشخص معين ولكن من المؤكد أن ينبعث لشخص آخر .

ــ هل أنت واثق من هذا ؟

– لا ثقة لى فى أى شىء يتعلق بالعواطف . . ولكننى ما أحسب فتاة لها مثل حساسيتك يمكن أن يموت الحب فى قلبها .

– ولكنه مات . . حالة شاذة . . أليس كذلك ؟

– إنما يقرر هذا الزمن والأيام . . دعيها تفعل فعلها . ما زلت واثقاً أن حبك فى غفوة وسيصحو ذات يوم .

– تمنيت لو صحا . . إن الفراغ قاتل . . أنت لا تشعر به . كما أن الامتلاء يقتل ، كذلك الفراغ .

الأغبياء السعداء

قالت له : كأنك تحبنى ؟
قال : ألا تصدقينى ؟
قالت : الظاهر يؤكد ، ولكن إحساساً خفياً فى داخلى يقول « لا ».
ـ تؤمنين بالإحساس .
ـ هو عندى أصدق .
ـ كثيراً ما يكذب
ـ الحب ليس أقوالا وأفعالا ولكنه دبيب خفى فى النفس .
ـ وهل اعتدت من إحساسك ألا يكذب ؟
ـ هكذا عرفته
ـ ليست فى الحياة قاعدة مطردة ، لابد من الاستثناء . .
قالت : ولكننى أتبع إحساسى دائماً .
ـ حتى ولو خدعك ؟
ـ هوأصدق على كل حال من الاعتماد على الأقوال. الأقوال يتلاعب بها الناس.
ـ إذا صمت ، تستطيعين أن تعرفى ؟
واضطربت قليلا قبل أن تجيب : بل تكلم . .
ـ ما فائدة الكلام إذا كان لا يبين ؟
ـ فيه الصحيح والزائف .
قال : هل أنت قادرة على التمييز بينهما ؟
ـ بإلهام المرأة .
ـ والرجل ، أليس له إلهام ؟
قالت : أنا أتحدث عن جنسى . . أجب أنت .
ـ لا أعرف على التحديد ولكن قلبى يقول لى إنك تريدين أن تجربى

سحر أنوثتك .

ـ وهل فى هذا عيب . . ؟ هذه هى المرأة .

ـ العيب أنه سلاح خطر . . .

ـ تخافه ؟

ـ أخاف السلاح ذا الحدين .

ـ أيهما تخاف منه أكثر . . ؟

ـ كلاهما . . الحدان . .

ـ ومن أجل ذلك تبتعد عن المرأة .

ـ وهى تقترب . . .

ـ إنك مغرور . .

ـ بل خائف . وفى أحيان كثيرة يصبح الخائف كالمغرور . . وفى أحيان كثيرة يصبح الواثق كالمغرور .

ـ كلانا مغرور إذن . .

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك . . لابد أن يكون أحدنا غبياً حتى يحب

ـ الحب غباء إذن ؟

ـ لابد أن يكون فيه عنصر الغباء .. إن الذكاء ـ كالغرور ـ يفسده.

ـ لم أفهمك .

ـ ألم تقرئى بعض ما كتب نثراً ونظماً عن الحب .. إنه ناطق بالغباء، غباء المحبين ، وهو شىء جميل . إن الحياة جميلة ، والحب ـ أجمل ما فيها ـ محتاج إلى الغباء .

ـ قصدت التغابى ، أظن . .

ـ سميه كما تشائين . إن الحب الذكى متعب .

ـ كل المحبين أغبياء إذن . .

ـ وهم لذلك سعداء .

الجنس الثالث

نظر إليه في ابتسام وسأله أن يحكي له أمره معها ، قال : أعطيتها كل ما تريد . ما من شيء طلبته إلا أجبته . قدمت إليها أفخر الهدايا ، كل شيء . . .

– وبعد . . .

– أعلنتني اليوم أنها لا تحبني وأنها تريد فسخ خطبتي لها . .

– هل تحبها ؟

– ولماذا خطبتها إذن ؟

– ليس من المحتم أن يحب الخاطب خطيبته. كثيرون يتزوجون من أجل المصلحة .

– أما أنا فتزوجت بقلبي ، ما ظننت أنها تعبث بي . اعتقدت أنها تحبني والآن تقول إنها لا تفعل . إنني لا أصدق. عندي شواهد كثيرة.

– وهل الحب يحتاج إلى شواهد . إنه نبض في القلب والوجدان تحسه ولا تبحث له عن شواهد .

– تعني . . .

– أعني أن الشواهد تفسده ، وكثيراً ما خدعت . أرأيت إلى امرأة تعطي زوجها كل الشواهد على الحب وهي لا تحبه . .

– ولماذا تفعل ؟

– لأن الزواج ضرورة اجتماعية ، المرأة محتاجة إليها .

– تخدعه . . .

– قد لا يكون خديعة ولكنه كما قلت لك ضرورة اجتماعية. . . رباط الأولاد، نظرة الناس، الحاجة إلى الاستقرار، السكون إلى بيت وزوج . . .

ــ هل هذه تصلح بديلاً عن الحب ؟

ــ تختلط به أحياناً . ومن هنا قلت لك إن الحب ليست له شواهد أو بتعبير أدق ليس فى حاجة إلى شواهد ، وقد يكون عدم وجوده هو الدافع إلى إثبات وجوده ، ولذلك تتأكد شواهده .

ــ وكيف يمكن التفريق بين ادعاء الحب مع شواهد تؤكده، وبين وجود الحب الصحيح دون الحاجة إلى شواهد ؟

ــ الذى يحب بصدق ينتقل منه شعاع غير منظور إلى قلب من يحبه. أما الذى لا يحب فيحتاج إلى تأكيدات ظاهرة عديدة تنفى الظن بأن الحب غير موجود .

وتأمل قليلا وهو واجم ثم سأل فى خوف: تعنى أن الظواهر لا قيمة لها؟

ــ قيمتها تأتى مرتبطة بالإحساس الصادق بها . وفى الحب الصحيح يغنى الإحساس عنها..وسكت قليلا ثم سأله: ألا يجوز أن يكون السبب فى انصراف الفتاة عنك أنك تلبى كل طلباتها ؟

وتولته دهشة وقال وهو مبهوت : حسبت أن هذه هى السبيل إلى إرضائها .

ــ المرأة تحب الرجل العصىّ . . تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته ، تحب الصراع للظفر به تأكيداً لسلطانها ، وتحب أكثر من كل شىء الهزيمة أمام إرادته . .

ــ ولكنها تغضب . .

ــ تغضب وتملأ الدنيا صياحاً وفى قرارة نفسها تلتمس حلاوة الضعف أمام قوة الرجل .

ــ أنت تحيرنى . . .

ــ لا حيرة فى الأمر . خضوع رجل يزهدها فيه والصراع معه يذكى عواطفها . إن المرأة مخلوق متناقض .

ــ والرجل ؟

ــ متناقض أيضاً ، ولكن التناقض فى المرأة أكثر ظهوراً ، لأنها الأضعف .

ــ تعنى أن المرأة القوية تكون أقل تناقضاً ؟

ــ لا توجد امرأة قوية ورجل قوى فى العلاقات بين الجنسين ولكن يوجد رجل وامرأة لكل منهما خصائص جنسه . .

سأل : والغموض الذى يحيط بالمرأة ؟

ــ بعض خصائص المرأة وقد كسبته لطول ما خضعت للرجل ، وسترى فى المستقبل أن هذا الغموض سيختفى بحكم التطور الحادث فى العالم اليوم وهو اقتراب الجنسين فى الحقوق وتقرير المساواة بينهما ، ألم تسمع ما يقوله بعض العلماء والمفكرين من أنه سينشأ جنس ثالث . .

وفتح فمه دهشة : جنس ثالث . . ماذا تعنى ؟

ــ أعنى جنساً ليس فيه خصائص المرأة كما تعرفها ، جنساً وسطاً تذهب منه الرقة ويقل الغموض والسحر وتنشأ فيه خصائص جديدة كالعقل الصريح والفكر الثاقب . . .

ــ عقل ، وهل الرجل محتاج إلى عقل ؟ عنده منه ما يكفيه ، الحياة تصبح ثقيلة .

ــ أنت تشكو الآن من الغموض ، سيذهب الغموض .

وفكر قليلا ثم قال : ولكن الوضوح أيضاً ثقيل . .

ــ أرأيت.. وسأقول لك شيئاً آخر سينشأ جنس جديد من الرجال..

ــ أنت تبالغ . . .

ــ لا مبالغة كما تظن . . قارن بين رجل اليوم وبين رجل الغابات منذ مئات الألوف من السنين ، أليس الرجل الآن نوعاً جديداً . . ؟

ــ ولكن الخصائص الأساسية باقية . . .

ــ ليس كما تظن . كانت القسوة وقوة البدن تأسران المرأة فيما مضى ، والآن يأسرها العقل الذكى . . .

ــ والرجل ماذا يجذبه إلى المرأة . . ؟

ــ فيما مضى كان الجسد وحده والآن الجسد والفهم الذكى . .

ــ هل المرأة الذكية أفضل ؟

ــ الذكاء جمال أيضاً . .

ــ ولكن الغبية أسلس قياداً . .

ــ كان هذا رأى رجل الغابة أما الرجل المتحضر ، فيؤثر المرأة الذكية . . .

ــ تتعبه .

ــ والغبية تتعب أيضاً .

ــ بل تريح . . .

ــ تريح الرجل الذى يريد أن يتسلط ، لا الذى ينشد المشاركة . .

وتريث قليلا ثم قال : خرجنا عن الموضوع . .

ــ وما هو الموضوع ؟

ــ فتاتى التى تريد فسخ خطبتها .

ــ دعها قليلا ، إنها نزوات المرأة . .

ــ تعنى أن أهمل طلبها ؟ . .

ــ كلا ، قل لها إنك متفق معها تماماً فى وجوب فسخ الخطبة ، وسترى أنها ستراجع . إن المرأة تحب الرجل القوى .

وبدا أنه يضيق بكلام صاحبه ، وقال محتجاً : تعنى أننى لست رجلا قوياً ؟

ــ لم أقل هذا ، ولكننى أضع قواعد عامة . .

وسأل : وماذا يكون الأمر لو وافقت على فسخ الخطبة . . ؟

ـ أنا واثق أنها ستوافق أول الأمر لكى تختبر مدى جديتك فإذا لمحت أنك مصمم فثق أن موقفها سيتغير .

ـ وإذا لم يتغير ؟

ـ اعرف حينئذ أنه من الخير لك ولها أن تنفصلا . .

ظل الرجل على المرأة

قال لها : سنتزوج بعد أن أجد عملا .
قالت : أنا أعمل وأكسب. مرتبي يكفي أن نعيش إلى أن توفق إلى عمل.
ــ لا أشعر أنى كفء لك ما لم أكن أقوى منك . والعمل لديك قوة . وفقدانه عندى ضعف . .
ــ ولكننا شركاء نتعاون .
ــ ولكنها شركة سيكون فيها قوى وضعيف .
ــ ومن قال ذلك ؟ . هل بين الزوجين قوى وضعيف .
ــ نظريًا الجواب بالسلب . أما واقعيًا فالجواب بالإيجاب. نعم يوجد فيها قوى وضعيف . ستسأمين ذات يوم أنك تنفقين على رجل . .
ــ ولكنه زوجى . .
ــ حتى لو كان زوجك . .
ــ وأنت قد تنفق فى المستقبل علىّ ، إنه تعاون . . .
ــ إذا أنفقت عليك ، لا أجد غضاضة . . أما إذا كان الإنفاق منك فهنا الغضاضة .
ــ أنت تنظر إلى المرأة كأنها الأدنى . . .
ــ كلا ، ما نظرت إليها قط كأنها الأدنى .. نظرت إليها دائماً كأنها الأضعف . . أنت نفسك بحكم أنوثتك تحبين أن تكونى الأضعف ويكون زوجك الأقوى . .
ــ كان هذا فيما مضى حينما كانت المرأة لا تعمل . . . أما الآن فلم يعد لمثل هذا الظن حساب .
وسكت قليلا ثم قال : أنت متخرجة فى كلية الآداب فهل تقبلين أن



تتزوجى شاباً لم يحصل فى تعليمه إلا على شهادة متوسطة ؟

وتريثت قليلا ثم ترددت وتلعثمت وجازفت قائلة بل إذا كنت أحبه .

ــ وهل تستطيعين أن تحبيه ؟ . . تستطيعين أن تحبى رجلا أقل منك ذكاء وتفكيراً وشخصية ؟ . . تذكرى لقد رفضت غيرى ممن تقدموا إليك وكان السبب هو ضعف مستواهم العلمى .

ــ وماذا فى هذا ؟

اعتدل الشاب فى جلسته وقال : سأوضح لك الأمر . . أنا أستطيع أن أحب فتاة متوسطة التعلم مع أننى أكملت تعليمى وحصلت على شهادة جامعية . . بل لعلنى كنت أفضل أن أفعل هذا حتى أشعر دائماً أننى الأقوى .

وانزعجت الفتاة بعض الشىء وتساءلت : ماذا تقول ؟ .. كنت تفضل فتاة متوسطة التعلم . . لا تحبنى إذن . . .

ــ لا أعنى بكلامى ما بدر إلى خاطرك . كل ما أردت قوله إن الرجل يمكن أن يحب فتاة أقل منه مستوى فى التعلم أو العمل أو الكسب ولكن المرأة لا يمكن أن تحب رجلا أقل منها فى التعلم أو العمل أو الكسب .

وحدقت فيه ثم قالت : إذن لا ترضى أن تعمل إلا بمرتب يفوق مرتبى . .

ــ هذا هو تماماً . . لقد عرضت على أعمال كثيرة ولكننى رفضتها لأنها فى مستوى عملك . أريد عملا أكبر . .

ــ أنت تفكر بطريقة مقلوبة . . . .

ــ بل أفكر بطريقة صحيحة . . أنت الآن فى نشوة الحب والزواج . بعد قليل ستبدأ مشكلات الحياة فى الظهور .

ــ أنت لا تقدر عواطفى ، إننى أحبك . .

ــ وأنا أفعل هذا لكى أحتفظ بحبك .

ــ كى تحتفظ بحبى هل لا بد أن تكون أفضل منى ؟

ــ هذا تعبير غير دقيق . . لست أفضل منك ولا أريد ، ولكننى أريد أن أكون أقوى منك عقلا وتفكيراً وعلماً وكسباً . .

ــ هذا التفكير ميراث نظم قديمة .

ــلا دخل له بالنظم . . إنه يرجع إلى طبيعة المرأة . . والمرأة تحب الرجل الأقوى .

ــ هذه حقيقة لا أنكرها ولكنها ليست طبيعة لا يمكن تغييرها . . لقد نشأت من النظم القديمة التى وضعت المرأة دائماً فى وضع الإنسان المعتمد على الرجل مادياً وأدبياً والآن ذهبت فكرة الأقوى والأضعف.

ــ أشك فى هذا ، فى البلاد التى بلغ التطور فيها مداه وتساوت المرأة بالرجل فى كل شىء لا تشعر المرأة بالحب الصحيح إلا للرجل الأقوى .

ــ وكيف يكون الامتياز بالقوة مع التساوى فى الحقوق .

ــ يكون الامتياز فى نطاق هذه الحقوق ذاتها . . فى التعليم يوجد العقل الناضج المتفوق والعقل الأقل نضجاً وتفوقاً وفى العمل كذلك يوجد العامل المبدع المتطلع والعامل الأقل إبداعاً وتطلعاً . . إنها طبيعة فى المرأة لن تغير منها النظم والحقوق شيئاً .

ــ أنت لا تؤمن بالتطور إذن . . تؤمن ببقاء الغرائز والطبائع على حالها أو بإمكان بقاء بعضها على الأقل . .

ــ كلا أنا من أشد الناس إيماناً بالتطور فلا بقاء لشىء على حاله حتى ولو كان غريزة أو طبيعة ولكن التطور فى بعض الغرائز والطبائع يكون فى الأسلوب والمستوى ، وليس فى جوهر الطبيعة أو الغريزة . . كانت المرأة فيما مضى تعجب بقوة الجسد وتناسب العضلات ، حينما كانت القوة البدنية هى سبيل التفوق فى المجتمعات البدائية ، فلما ارتفعت هذه المجتمعات تحول الإعجاب إلى القوة العقلية وتفتح الذهن والقدرة على الخلق والإبداع . . وأسألك الآن لماذا آثرتنى أن أكون زوجك ؟

ــ لتفوقك العقلي . .

ــ هل تحسين أنني أقوى منك عقلياً وذهنياً . .

قالت : هل لابد أن أعترف بأنك أقوى . . ألا يكفي أن . .

ولم يدعها تتم جملتها وسارع قائلا : أرأيت . . أنت تعملين وأنا بعد لم أوفق إلى العمل الذي أريد .

وقاطعته : أنا واثقة أن إنساناً متفوقاً مثلك لابد أن يجد العمل المناسب له . . نتزوج أولا . . .

ــ كلا لا أرضى وأنت بينك وبين نفسك لا ترضين .. أنت تتعطفين علي وأنا أكره العطف وخاصة من المرأة التي أحبها . يجب أن يكون العطف مني أنا . . الأقوى .

واقتربت منه مغمضة العينين وقالت : أنت تأسرني . . تجعلني أشعر كم أنا ضئيلة . . كم أنا سعيدة . . خذ رأسي على صدرك . . دعني أشعر بهناء الراحة ، هناء الملاذ الأمين .

ووضع رأسها على صدره وأدنى وجهه من وجهها وهمس في أذنها : هذا هو ظل الرجل على المرأة .

أنا شيء والمجتمع شيء آخر

سألها : وما هى نهاية هذا الحب ، إنه بلا أمل . .

قالت : إن الحب ذاته نهاية ، إنه غاية : أنت تنظر إليه كوسيلة . وأنا أعيش فيه كآخر المطاف .

قال : هكذا دون اتصال ، دون عيشة كاملة ، دون أولاد، دون بيت .

قالت : لا أفكر فى شيء من هذا ، إنى أحب وكفى .

قال : ستسأمين الحب .

قالت : لن أفعل . إن النظرة فى عينيك متجددة . حديثك يبعث فى نفسى الدفء . . منذ عشر سنوات ولم أسأم ، من يدرى لو تزوجنا ماذا كان المصير يكون ؟

قال : إذن أنت تخافين على الحب من الزواج .

قالت : ليس هكذا بالضبط . إن الحب عندى شيء متكامل ، وهو عندك شيء ناقص يكمله الزواج . . هل أدركت الفرق ؟

قال : لم أسمع هذا الرأى من قبل، كل من يحب يفكر فى الزواج..

قالت : وإذا لم يكن مستطاعاً ، هل نقتل الحب ؟

قال : هذا شيء آخر . لقد قلت الآن إن الحب شيء متكامل . ومعنى هذا أنك ترفضين الزواج بمن تحبينه ، حتى ولو كان الزواج مستطاعاً .

قالت : هذا هو ما قصدته . إنى أخاف من زوابع الزواج على هذا النبت الرقيق العذب ؟ ماذا ينقصك ؟

قال : ينقصنى أنت ، ينقصنى أن تكونى فى بيتى وأمًّا لأولادى .

قالت : هذا الذى ينقصك هو الذى يغذى نبات الحب . إنه

لا ينمو ولا يعيش إلا فى الحرمان ، وإنى لأسألك كم عدد الذين تزوجوا ثم دام الحب بعد الزواج ؟

قال : لا أستطيع أن أجيب ، ليست لدى إحصائيات . .

قالت : أنا لا أطلب منك إحصائيات. اذكر معارفك ممن تزوجوا بعد حب ، وأجب .

قال : ولكننى أريد أن أكون أباً ورب بيت .

قالت : تزوج بمن تشاء ، إننى لا أمنعك .

قال : ومع ذلك تزعمين أنك تحبيننى .

قالت : بل لأننى أحبك أقول هذا .

قال : وأنت أتنوين الزواج ؟

قالت : طبعاً .

ودهش الرجل وهو ينظر فى عينيها الحالمتين وقال : أتعنين ما تقولين؟

أجابت : بعد أسبوع ستعلن خطبتى .

قال ثائراً ساخطاً : أنت تلعبين بعواطفى . إنك تحرقيننى . أنت تتلهين . . أنت فتاة شاذة . سأحول دون هذا الزواج بكل ما أستطيع .. لن تكونى لرجل آخر .

قالت فى هدوء : هذا صحيح ، لن أكون لرجل آخر ، ولكنى سأتزوج رجلا آخر . .

قال وهو يكاد يحترق من الغيظ : إننى لا أفهمك .. لأول مرة أشعر أنك غامضة .. أنك تتكلمين كما لو كان كلامك ألغازاً .

أجابت : ليس هناك ألغاز . إن الحب الذى أريده ، هو الحب الذى يثير الزوابع والغيظ والخوف والقلق واللهفة ويكون الحرمان عنصراً فيه . تصور لو أنى وافقت على الزواج منك ، ماذا كان يحدث ؟

قال : ما يحدث فى كل زواج .

قالت : وهذا ما لا أريده . ستأخذنى بين ذراعيك ، ستضمنى إلى صدرك . ستملكنى ، وبعد أيام أتحول إلى شىء عادى . شىء تراه كل يوم وقد تضيق به .

قال : ولكن هذا هو ما يفعله الناس .

قالت : وهل هم سعداء ؟

قال : فيلسوفة أنت أم امرأة تحب ؟

قالت : بل امرأة تحب وتخشى على حبها أن يموت . إنى أدافع عنه فى وجه كل إنسان ، فى وجه المجتمع ، فى وجه التقاليد ، فى وجه السخافات التى لا حد لها والتى تفسد كياننا وحياتنا وتجعلنا مخلوقات مملة تافهة تأكل وتشرب وتنام وتنجب الأولاد ، ثم تموت .

قال : كأنك لا تنوين أن تموتى .

قالت : سأموت ، ولكننى أريد أن أعيش ولا أستطيع أن أعيش فى برود . إن الحب هو حياتى الحقيقية وليس الزواج . سأتزوج كما آكل وأشرب وأذهب إلى السينما وأشترى فستاناً وأعقد صفقة . سأبحث الأمر فى هدوء .

وشعر الرجل كأن خنجراً مسموماً يدخل قلبه وقال : أنت لا تحبين إلا نفسك . إنك تريدين الحب رمزاً لاقتتال الرجال عليك ، تريدين أن تعذبى إنساناً وتخدعى إنساناً .. تريدين أن ترضى نزواتك ولا شىء آخر .

قالت : لن أخدع أحداً . إن زوجى المنتظر لا يحبنى . لقد جاء يطلب زوجة . وبحث الأمر بعقله تماماً كما أبحثه . يريد زوجة جميلة غنية متعلمة تنجب له أولاداً وتؤثث له بيتاً . لن أقول له إنى أحبه ، كما لن يقول لى ذلك . ولو قال فلن أصدقه . لقد رأيته مرة واحدة ، مرتين ، وكان الحديث عن الخطبة والزواج والأسرة والأولاد والبيت . . هل هذا حب ؟ هذا زواج ، صفقة ، عمل يرضى عنه المجتمع ويباركه ، ولا دخل لى بالمجتمع ، إنه شىء وأنا شىء آخر . .

تجربة لم تصادفه

قال لها : عيناك لم أر سحراً مثلهما .

قالت : هما اللتان جذبتاك إلى . . .

قال : هما وغيرهما . . إننى أحبك ، وسأظل . . .

وسألته فى مكر وإغراء : حتى ولو لم أكن أحبك . . حتى ولو عدلت عن حبك فى يوم من الأيام .

وسكتت بينما افتر ثغرها عن ابتسامة غامضة ساحرة . . وتأملها الرجل وهو مشفق على نفسه من هذه الفتاة العجيبة التى حيرته . . لماذا يرتبك أمامها وهى ليست أكثر جمالا من غيرها ولا أكثر ثقافة ولا أكثر ذكاء . إنها لغز . .. لغز محير . . وأفاق من تأملاته مسرعاً وحاول أن يدنى أذنها من فمه لكى يهمس فيها ، ولكنها ردته فى رفق وابتسام وقالت : تكلم أنا أسمعك .

ورأى أن ينقل المعركة إلى جبهة أخرى . . إنها تهاجمه . . ترتاب فيه وتعرف الكثير عنه ، فيما يبدو ، فلماذا لا يهاجمها هو . . لماذا لا يسأل ويكون عليها أن تجيب . . قال فى مكر مماثل لما تصوره من مكرها: إنك تسأليننى ، كما لو كنت مجربة . . إننى أخاف المرأة المجربة !

ولم تشأ أن تفقد ميزة المبادأة وأدركت حيلته فى نقل المعركة وقالت فى هدوء : الذى يخاف المرأة المجربة رجل ضعيف . .

واستثارته العبارة واستثاره الوصف وبدا عليه الغضب ، وشعر أن المرأة انتصرت عليه بمكر أشد من مكره . ها هى ذى الآن ترميه بأنه رجل ضعيف ، هل هو ضعيف حقاً ؟ ومر شريط طويل سريع خاطف من للفتيات اللاتى عرفهن وأحس إحساساً مبهماً أن كلامها عن ضعفه

يمكن أن يكون صحيحاً ، وأخذ هذا الخاطر يتسلل إليه طاغياً مدمراً، ولكنه أوقفه حتى لا ينهار أمام هذه الشيطانة . . وسرعان ما اكتسى وجهه بسمة ساخرة واصطنع شيئاً كثيراً من الهدوء . . وقال : أنت مجربة إذن ؟

أطلقت ضحكة فيها إغراء وغموض وسخرية ، فيها امرأة ناضجة فاهمة معتدة بأنوثتها أمام رجل لمحت تماماً أنه يتهاوى ، وأن زمامه أصبح بين يديها وقالت : هربت من السؤال . . لنسلم أنني مجربة فلماذا لا تنتصر بتجربتك على تجربتي . . ثم لا تنس أن المرأة المجربة أثمن فى موازين النساء من المرأة الخام .

وسكتت لحظة ثم استطردت مسرعة : ولكن لماذا لا تكون الغريزة الصحيحة مساوية للتجربة الكبيرة . . هل لا بد من التجربة للمرأة حتى تعرف الحب الصحيح من الحب الزائف.. ألا يمكن أن تعرف بإحساسها ، بغريزتها ، بصدق فراستها ؟

قال وهو يزداد شعوراً بالضعف : التجربة ضرورية لاستكمال لمحات الغريزة .

قالت وهى تشعر بأن القوة فى جانبها : ولكن ماذا تعنى بالتجربة ؟

قال فى سرعة : أن تكون المرأة عرفت رجالا آخرين .

سألت فى هدوء : وماذا تعنى بالمعرفة ، هل هى التى سعت إليهم ، أم أنهم هم الذين حاولوا إغراءها .

أجاب : الأمران سواء .

ــ حسناً . . وهل لابد للتجربة أن تبلغ غايتها . . ألا تكفى مثلا محاولات الإغراء . . وما هو حادث بينى وبينك الآن . . هل تعده تجربة ؟

ثم استطردت : إذا تكرر مثل هذا بالنسبة لى مع آخرين وتكرر بالنسبة لك مع أخريات ، تعد أنت وأعد أنا فتاة ذات تجربة .

أجاب فى تردد : نعم .

هاجمته بسؤال سريع : وهل تنكر أنك حاولت مثل هذا مع أخريات ؟

وفى قوة طارئة واجهها هو الآخر بسؤال مشابه : وهل تنكرين أنه حدث لك مثل هذا مع آخرين ؟

وقال : أجيبى أنت أولا .

قالت : أجب أنت أولا . . أنت رجل والمفروض أن مثل هذه التجارب لاتشينك .

سكت مضطرباً متلعثماً ولم يعرف كيف يجيب .

ضحكت الفتاة فى اعتزاز ، وقالت : أنت جبان وأنا لا أحب الرجل الجبان . . لكن أنا أشجع منك فأقول لك إنه حصلت لى تجارب عديدة مع رجال مثلك . . حاولوا أن يغازلونى ويصلوا إلى قلبى بإطراء جمالى . . وكان بعضهم صريحاً فقال إنه يحب جمالى وإنه أخذ به ولكنه لا يعرف إذا كان يحبنى أم لا . . وشكرت لهم صراحتهم واحترمتهم ولكنى لم أحبهم . وأكد لى آخرون أنهم يحبون جمالى ويحبوننى وإنهم يعجبون بخلقى وسلوكى وفهمى وذكائى ، وعند ذلك سألتهم السؤال الذى أطرحه عليك أيضاً : هل تحبنى مثلهم أو مثل الصنف الأول .

أجاب من غير تردد : بل أحب جمالك وأحبك وأعجب بخلقك وذكائك وسلوكك وفهمك .

وابتسمت الفتاة فى سخرية وإغراء وضعف قوى . وقالت : وسأوجه إليك السؤال الذى وجهته إليهم .

وازداد اضطراباً ، ولكنه لم يجد وسيلة إلا أن يسكت انتظاراً للسؤال.

واستطردت الفتاة وهى تعبث بخصلات من شعرها قالت : وماذا بعد؟

سألها : لم أفهم ماذا تقصدين ؟

أجابت فى هدوء وثبات : أعنى ماذا بعد الحب الكامل الذى تدعيه .

قال فى بلاهة : نحب بعضنا .
قالت : وماذا بعد ؟
قال : نستمر فيه .
ـ فى ماذا ؟
ـ فى الحب . .
سكتت الفتاة برهة ثم قالت : أنا فتاة جميلة ذكية قوية الفهم حسنة الأخلاق لا تستطيع أن تستغنى عنى ، هذا هو كلامك . . أليس كذلك . .
أجاب : نعم .
قالت : وماذا تشترط فى زوجتك المقبلة ؟
تهاوى الرجل وانكمش ، وأحس أن صاعقة نزلت عليه فألجمت لسانه . . وقال وهو متلعثم : تتحدثين عن الزواج إذن ؟
سألته : وأنت عم تتحدث ؟
أجاب : عن الحب .
سألته : وهل هناك تنافر بين الزواج والحب ؟
قال : لا يوجد تنافر . . ولكن هذا ليس موضوعنا .
ـ موضوعنا إذن تجربة تضيفها إلى تجاربك .
ـ أنا أحبك !
ـ أنت كاذب . .
ـ أقسم . . .
ـ لا تقسم .
ـ أنت فتاة عجيبة .
ـ بل فتاة فاهمة . .
ونهضت فى تصميم وقالت له : هذه تجربة ما أحسب أنها صادفتك.

المكاشفة

قال لها : ما يزال هواك مع صاحبك القديم . .

قالت : بل معك أنت وحدك . . أما هو فله عندى حرمة الوفاء للذكرى .

— كيف يموت الحب وتبقى الذكرى ؟

قالت : إنه لم يمت ، لا يوجد شىء فى الحياة يموت . .

— أتقابلينه ؟

وأجابت فى وجه كسيف مذنب : نعم . . .

— وتبادلينه كلمات الحب ؟ . .

— هو الذى يقول . . .

— وأنت ؟

— مجرد مستمعة . . لا أستطيع أن أقول شيئاً لا أحس به . . أنت لا تعرف هذا الرجل ، إنه يبدو أمامى طفلا.. أنا أم له.. معه أيضاً لا أفكر إلا فيك . . .

— امرأة مزدوجة الشخصية !

— قل ما تشاء . . أنا التى أسأت إليه ، إنه لا يزال يحبنى يقول : «لو تركتنى فسأموت ، لا تتخلى عنى » لا أريد أن أكون قاتلة . . لو عرف أننى لم أصبح أحبه فسيموت . .

— أنت منافقة . . .

— النفاق قد يكون فى كل شىء إلا فى الحب . .

— أنت بقدرة قادر حققت النفاق فى الحب . .

وقالت فى هدوء : تقبلنى كما أنا ، لا أستطيع أن أسىء إلى من لم يسئ إلى ...

ونظر إليها فى تأمل وقال : ليس ما بك حبا . . أنت لاتحبين ، تطبيقين قواعد الأخلاق .

سألته : وهل الحب ينافى الأخلاق ؟

وأوقعته فى حيرة ، وسكت فترة ثم سأل بدوره : وهل من الأخلاق أن تحبى شخصاً آخر غير من أنت مرتبطة معه بالحب ؟

وأحسست بذل وهى تقول : لا يدلى فى عاطفتى . .

ولاح له أنه أصبح سيد الموقف وقال : إما أن تكون العاطفة حرة وإما أن تكون مقيدة بقواعد السلوك والأخلاق .

ـ العاطفة الحرة مجنونة . . لا بد لها من رابط أخلاقى . .

ـ حسن ، أنت أسأت إلى الأخلاق بتركك لصاحبك وأسأت إلى الأخلاق مرة أخرى فى احتفاظك به . هذا تناقض . . هل لديك حل لهذا اللغز .

ـ ليس فى الأمر لغز . الأخلاق تخفف من جموح العاطفة ولكنها ليست إطاراً لها ومن يدرى لعلى لم أحبه أبداً . لعل ما كان بيننا مجرد عطف متبادل اتخذ صورة الحب . كنت غريرة فى حاجة إلى الحنان وأعطانى الحنان فحسبت أنه الحب . . هذا هو تصويرى للموقف . .

واستشاط غضباً وقال : ومن يدرينى أنك بعد قليل أو كثير تكتشفين أن ما بيننا أيضاً ليس حبًّا ، وأن عاطفة ثالثة تبدو لك كأنها الحب ، حينئذ سيصبح عليك واجب أخلاقى مضاعف . . تحتفظين باثنين تمثلين معهما دور الحب ، وتعيشين مع ثالث تجربة حقيقية . .

وردت فى برود : من يدرى لعل هذا يحدث . . إننى لا أفهم نفسى جيداً . . هل تفهمها أنت ؟ كل ما أحس به أننى لا أستطيع أن أستغنى عنه ولا عنك . لقد كنت أمينة معك . أفضيت إليك بالحقيقة ، كان فى استطاعتى أن أخفيها عنك .

ــ وهل أفضيت له هو أيضاً بالحقيقة ؟
ــ كلا ، حجبتها عنه . . .
ــ هذا تصرف غير أخلاقى . . .
ــ أعترف أنه كذلك . إن ما فى نفسى له وفاء واحترام للذكرى .. افهمنى . . . إننى أحبك . . . أحبك أنت . .

وفرت من عينيها الدموع ،وهمهمت : أنت قاس . . لا تفهم عواطف المرأة . كشفت لك نفسى لأننى أشعر أننى أحبك وحجبتها عنه لأننى لم أعد أحس له بالحب . والحب هو المكاشفة . . كنت أظنك أوسع أفقاً ، إن الذى يحب يتسامح . . . يغفر .

وسكتت ريثما مسحت دموعها ، واستعادت هدوءها واستطردت : أنت لا تعرف ماذا صنعت . . حاولت أن أتخلص منه ، ولكنه تشبث بى وبكى بين يدى كالطفل .. ألم أقل لك إنه يعطينى الشعور بالأمومة ..

وأحس نحوها بالرثاء وقال :أنت تعسة ضائعة لا تعرفين نفسك. ليس لعواطفك استقرار ، ما زلت مراهقة . . .

وعذبها الوصف وسألته فى ضراعة : أترانى كذلك ، أليس فى مقدورك أن تستولى على أكثر . . أنت لم تقل لى قط إنك تحبنى وهو يملأ أذنى بحديث كنت أتمنى أن أسمعه منك أنت .. حقًّا إننى تعسة . الفم الذى أريده أن ينطق بالحب لا ينطق والفم الذى أريده أن يسكت عنه لا حديث له إلا عنه . . أنت تضيعنى .. دعنى أواجهك بالحقيقة ، أنت لاتحبنى ، ولو كنت لكففت نفسى عنه وعن كل الناس .

ــ احتياطى « استبن » . . المسألة ليست مسألة أخلاق إذن .

وضحك فى سخرية بينما ازدادت دموعها انهماراً ثم تمتمت : أنت الذى أحبه ولكنك . .

وشرقت بدموعها وسكتت ، ثم انطلقت فجأة : بل هى أخلاق أيضاً

إننى مشدودة فى حبل له طرفان ، فى أحدهما عاطفة هوجاء عمياء لا أعرف لها. تحليلا ولا منطقاً وفى الطرف الآخر أخلاق أعرف حدودها وأحكامها . . ولك أن تتصور كيف يكون المشدود بين طرفين وأى عذاب يعانى . . أنت رجل . . اسكت .. انصرف عنى لا أريد أحداً.

وتركته مندفعة كالمجنونة . . قال لها : انتظرى . .

التفتت إليه فى غيظ وقالت : لن أنتظر . . .

ـــ أذاهبة إليه ؟

قالها فى سخرية . . .

ـــ بل ذاهبة إلى الجحيم . . سأكون منذ الآن امرأة من غير عاطفة ومن غير أخلاق ، امرأة تحكمها الرغبة وحدها .

قالتها فى سخرية وتحد وتصميم وانصرفت .

حقيقة لا شك فيها

الزهور كثيرة، والعطور تملأ المكان والموسيقى تصخب، الرقص يدور، الساق مع الساق ورمش العيون مع بسمات الصفاء . وهمس الشاب فى أذن الفتاة : أسعدتنى . فما زادت على أن امتلأت عيناها بالشعاع . ودار بها هنا وهناك حتى انتحى بها مكاناً قصيًّا، وهمس مرة أخرى : أحلى ليلة فى عمرى أعبدك . . . متى نلتقى ؟

وانتهى الرقص وجلسا ، الفتاة مبتسمة دون أن تجيب

قال لها : حيرتنى

قالت : ولم الحيرة ؟ . . .

— أكشف لك نفسى فتصمتين .

— إن من الصمت لجواباً . .

— أفهم من هذا . .

وتوقف ، فسارعت تتم الحديث : افهم ما تشاء . . .

ونهضت منفلتة منه فى رشاقة . . حاول أن يستبقيها ولكنها كانت قد مرقت فى الزحمة وجلس كسيراً كأنه وحيد بينما الصالة تموج . ودعته فتاة أخرى بإيماءة فذهب إليها .

قالت : لماذا تركتك ؟

واحتار بماذا يجيب وأنقذ الموقف متسائلا : من هى ؟

ولكن وجهه الممتقع لم يكن خافياً .

— لا تعرفها ؟

— من هى ؟

— الفتاة التى كانت تراقصك . .

ــ آه . . أعرفها بالطبع . . لكن ماذا يعنيك من أمرها . .

ــ لا شيء سوى أنها لا تستحق الاهتمام

ــ وأنا أراها كذلك . . ترقصين معي ؟

وبينما كانا يدوران مع الموسيقى كان الشاب تائه النظرات يبحث عن صاحبته الأولى ولمحها مع شاب آخر يعرفه وهما يتحدثان في انسجام وانطلاق . وامتلأ بالغيظ واضطربت خطواته في الرقص ، وأدركت رفيقته موقفه . .

همست : إنها تشغلك ، لا تنكر . . ضايقك أنها تركتك . .

ــ وماذا يضايقني ، كانت مجرد رفيق في رقصة . . .

ــ إنها أكثر من هذا . .

قال وفي لهجته الملل : وأنت ماذا يعنيك في الأمر ؟

ــ تتعلق بحبال دايبه ؟

ولم يفهم أو بدا أنه لا يريد أن يفهم ، وحاول أن يبدو مستهيناً بالأمر ، ولكنه لم يستطع قال مندهشاً :

ــ حبال دايبه . . .

وجاءه الرد فيه التشفي : تحب غيرك ، مشغولة !

وسكتت برهة ثم استأنفت كلامها الهامس : منذ وقت طويل أفكر فيك . .

ــ أنت ؟ . . .

ــ نعم أنا . . .

وأصابتها خيبة مرة أن لم تلمح استجابة منه ورأت أن تثأر لنفسها فقالت ساخرة : نعم أنا . . ألا تصدق يا روميو . .

ثم تركته وانصرفت .

* * *

وعاد الشاب إلى بيته في منتصف الليل وأخذ يراجع حياته وسأل نفسه لماذا انصرفت عنه الفتاة الأولى ولماذا سخرت منه الثانية . كان حتى

الآن غازى نساء من الطراز الأول فماذا دهاه ؟ هل العيب فيه أم العيب فى الفتاة وصاحبتها . . هل بطل سحره أم أن الفتاة وصاحبتها فوق مستواه؟

وأعاد النظر وأدمن التفكير ولم يوفق إلى جواب يرضيه فنام يائساً . أخذه النوم من دوامة لا تطاق .

* * *

فلما كان الصباح دق التليفون للفتاة الأولى قال : لماذا تصرفت معى بهذه الخشونة فى الليلة الماضية..

جاءه الصوت رزيناً هادئاً : هل ظننتنى كبقية الفتيات الفارغات..

قال : ولكنى لم أفعل شيئاً أستحق عليه اللوم . .

ــ اسمع إن للمسألة تاريخاً . .

ــ للمسألة تاريخ ! !

ــ نعم.كنت أحسن الظن بك وأراك شاباً جاداً طاهر العواطف على الرغم من كل ما سمعته عنك. وأكدت صديقتى أنك على العكس من ذلك، تغازل كل الفتيات وتحاول أن تعبث بهن. وتحديتها قالت جربى وكانت التجربة مع الأسف ضدك .

ــ ولكن هل المصارحة بالعواطف جريمة . . .

ــ لم تكن مصارحة بعواطف . كانت غريزة تحركك وأنت ترقص وتحركك وأنت تتكلم . كانت محاولة للإغراء ... لا يمكن بعد مرة أو مرتين ألتقى بك فيهما أن تعاملنى هكذا . . . هل تعرف معنى الحب ؟

ارتبك الشاب وجف ريقه : أعرفه حتما . . شعرت به معك أنت.

ــ نفس الكلمات . . شعرت به مع كل واحدة (وضحكت ساخرة) أليس كذلك ؟

ــ أقسم . . .

ــ كلا لا تقسم.. لست آسفة لما فعلته بقدر أسفى لأننى وثقت فيك .

— ولكن .

— ولكن ماذا ؟ . . . تعلم أن تسمو بغريزتك وعاطفتك . لقد تعلمت وبلغت أرقى الدرجات العلمية ولكن عاطفتك لا تزال فى طفولتها . . . عاطفة الغابة ، الإنسان البدائى .. . هل تعرف أن النضج الذهنى شىء والنضج العاطفى شىء آخر ؟

وزادت حيرة الشاب وزاد فى الوقت نفسه احترامه للفتاة وأحس فعلا أن عاطفة جديدة تولد فى قلبه بل أحس كما لو كان يتطهر من ماضيه ويشرق عليه تفكير جديد ، وشعر بما هو أقسى ، شعركم هو ضئيل أمام هذه الفتاة هو الذى سيطر فى كل الأحوال . .

قال فى شبه خوف : أنت علمتنى درساً لن أنساه.. هل تحتقرينى ؟

— أنا لا أحتقر أحداً ، أنا أرثى لك ، أرأيت إلى التعليم كيف يوسع الآفاق ، ويعمق النظرة ويجعل للأشياء والأشخاص والحوادث أبعاداً جديدة لا يراها الجاهل ، كذلك النضج العاطفى يجعل للعاطفة أبعاداً وأعماقاً لا يحسها من لا تزال عاطفته فى طفولتها . . . أرأيت إلى التعليم يجعلك تنأى عن اللفظ النابى والعبارة الجافة والتصرف الخشن كذلك يفعل النضج العاطفى : لا يقبل التعبير الخشن ولا المغازلة الفجة ولا الحركة الجارحة ... وكل أولئك فعلته أمس فى نصف ساعة ، فى أقل من نصف ساعة . كان فى قلبى ميل إليك . . ليس على التحديد ميلا ، كان على الأقل صفحة بيضاء مستعداً أن يحسن الظن فيك ويراك خامة حسنة لرجل تنشده المرأة ، فكشفت كم كنت مخطئة . . والآن أقول لك إلى اللقاء . . أضعت وقتك ، سامحنى إذا كنت قد أسأت التعبير عن نفسى . .

— ستتركينى ، ولكننى أريد المزيد من حديثك . شعرت الآن أننى أمام امرأة جديدة ، فتاة استطاعت أن تكشف فى نفسى ضعفها وفى عاطفتى طفولتها . أصارحك أننى دخلت فى عشرات العلاقات مع فتيات ،

ولكنى شعرت فى كل مرة بالضياع . . .

– لا يمكن إلا أن تأخذ بمقدار ما تعطى . لم تكن تعطى أى واحدة منهن عاطفة . . كانت مجرد رغبة فى اللهو وحديثك عن العاطفة كان مجرد ستار تخفى وراءه غرضك . . كان الطرق الخفيف الرقيق ليفتح الباب فإذا انفتح لم تجد شيئاً لأنك لم تحاول أن تعطى شيئاً .

– العيب فى الفتيات اللاتى استمعن لى . . .

– هل الضحية تلام والذئب يكون البرىء . . . لا تنزعج من تعبيرى .

– لم أكن أغريهن . . . كن يحمن حولى من غير إغراء . . .

– ما هو الإغراء الذى تقصده . . ألا تكفى الكلمة الرقيقة .. ألا تكفى الهمسة الحالمة ، ألا يكفى أن تقول للواحدة منهن إنى أحبك.. أحلى ليلة ، أسعد لحظة.. ألا يكفى أن «تسبل» عينيك وتحلم وأنت تضغط على اليد فى رفق وأن تمس الساق فى مغزى... كل هذا فعلته معى ... ألم يكن إغراء.. ألم يكن تمثيلا لا حقيقة له جرياً وراء رغبة لا شك فيها؟... كان يسعدك أن تختبر رجولتك وسحرك . . . ولكن صدقنى إن الرجولة شىء آخر ...

– أنت تبالغين ... هذه إهانة لا أقبلها .

– المريض يسخط دائماً ويتهم الطبيب .

وتولته فجأة ثورة من الغضب وقال غير واع وفى سخرية : وهل أنت الطبيب ؟ . . عالجى نفسك أولا ...

ولم يكد يتم حديثه حتى كانت السماعة قد ارتطمت بوجهه

* * *

وكاد يجن . طلبها مرة أخرى فلم ترد عليه ولم تزد على أن وضعت السماعة ، وتكرر الطلب والرفض . ولكن حديث الفتاة ظل يطن فى أذنه فيغضبه حيناً ويرضيه حيناً ، ولكنه فى كل الأحوال كان يؤكد له أنه الحقيقة التى لا شك فيها .

نتفق أو لا

قالت له : تتزوجني ؟

أقبل ولكن لنتفق أولا على الأساس ، على القواعد . . .

سأل وهو مندهش : أساس ، قواعد ؟

أجابت : نعم لا بد أن يكون كل شيء واضحاً . .

قال : ألا يصلح الحب أن يكون الأساس والقواعد جميعاً .. ألا تحبينني ؟

ــ أحبك ما في هذا شك ، ولكن الزواج قضية أخرى غير قضية الحب.

ــ إنه أساسها .

ــ أنا معك أنه أساسها ، ولكن التفاصيل . .

ــ إذا اتفقنا على الأساس ، أصبحت التفاصيل لا قيمة لها .

ــ هذا كلام الحب ...

ــ وهل بعد الحب شيء ؟

ــ أشياء كثيرة . . الحب وحده لا يكفي . سامية ومحمود تزوجا بعد حب عنيف وبعد شهرين طلقها .. أنت تعرف قصتهما ... ومثل سامية ومحمود كثيرون ...

ــ أنت تفسدين قداسة الحب بهذا الكلام .

ــ كلا أنا لا أفسده ... أريد أن أحميه ...

ــ هو وحده قادر على حماية نفسه .

ــ الحب لا يحمي نفسه نما يحميه طرفاه .

ــ أنت تتحدثين بعقل وكان الأجدر بهذا الحديث أنا الرجل لا

المرأة .. يلوح لى أنك لا تحبيننى ..
ـ أنا لا أحب باندفاع ، أحب بتعقل .
ـ وهذا عندى ليس حباً .. أنت تعقدين صفقة .
ـ ليس الأمر كما تظن . الزواج شركة ، معاملة أبدية ، حياة كاملة فيها الحب وغير الحب . .
ـ وماذا غير الحب ؟
ـ فيها المعاملة ، فيها الأولاد ، فيها المستقبل ، فيها الضمان ألا تتركنى ؟
ـ هل يعقل أن أتركك وأنا أتزوج عن حب .
ـ العواطف تتغير ، القلوب لا تثبت ، الحياة مليئة بالمتناقضات ..
ـ الذى يحب لا يفكر على هذه الصورة .
ـ ولكن الذى يتزوج لا بد أن يفكر هكذا .. أنت الآن لاترانى إلا لماماً ... فترة قصيرة وتذهب إلى حالك وأذهب إلى حالى وليس بيننا شيء سوى عواطف رقيقة وأشواق وأمانى وأحلام ، ولكن بعد أن تتزوج سأراك وترانى كل يوم.. ستذهب اللهفة والأشواق ويحل محلهما الخلاف فى وجهات النظر ، فلسفتك فى الحياة وفلسفتى ، شخصيتك وشخصيتى أخلاقك وطباعك .. لا تحاول أن تتجاهل الموقف .
ـ أنا أحبك وكفى ..
ـ وأنا أرى أنه لا يكفى .
ـ لم نتفق ، يحسن ألا نتزوج . . .
ـ إذن نفترق . .
ـ كنت تحبيننى من أجل الزواج ؟
ـ أنت لماذا أحببتنى ؟
ـ طبعاً من أجل الزواج .
ـ ماذا يضايقك إذن ؟

ـ يضايقنى أنك تضعين شروطاً . .
ـ نحن نبنى حياة جديدة ، والبناء الجديد لا بد له من أساس . .
ـ لا أفهم هذا الكلام . .
ـ أرأيت ؟ اختلفنا قبل أن ندخل البيت فماذا يحدث بعد أن ندخله..
خير أن نفترق صديقين .. أنت لا تصلح للزواج ..
ـ بل أنت التى لا تصلحين له .
ـ سواء كنت أنا أو أنت غير الصالح ، المهم أننا لم نتفق . .
ـ حرام أن تبددى حلماً جميلا بهذه البساطة . .
ـ الأحلام لا تثبت أمام الحقائق .. فكر فى الأمر بعقلك أيضاً .

سأدع لك الفرصة . وآمل أن أتمكن من العودة إلى استكمال هذا الموضوع فى فرصة قريبة والإجابة عن بقية الأسئلة .

التلميذ المبتدئ

قالت وهى تمضغ أحزانها : أعطنى الحنان . . لست فى حاجة إلى الحب .

أجاب : كل امرأة تقول هذا ، ولكن ما هو الحنان ؟

ــ صدر يعرف ويغفر ويصبر ويرضى . . يشارك فى الحزن والمسرة ..

ــ وما هو الحب ؟

وانصرفت عنه ولاذت بصمت رقيق . . وأضاء وجهها الحلو شعاع من الشك والخوف . . ثم قالت : الحب . . أخشى أن أقول لك إنه غير موجود . . . .

ــ عرفيه أولا . . . ما هو الحب ؟

ــ حتى تعريفه أعجز عنه ، إنه عندى شىء أوسع من المعرفة ، وأجمل من الحنان . وأصفى من قلب ملاك .

ووضع يده على كتفها فى رفق وقال : انزلى إلى الأرض .

قالت : وهل حلقت فى السماء ؟ . .

ــ أريد تعريفاً لحب الأرض .

ــ وهل الحب نوعان : سماوى وأرضى ؟

ــ الخلود فى السماء والزوال فى الأرض . . .

ــ الحب عندى خالد فهو لمسة من السماء .

وسألها : ما هو الخلود ؟

واحتارت بماذا ترد ، وزمت شفتيها وقالت ، كأنها تقذف إليه الكرة : ألا تؤمن بخلود الحب ؟

قال : أسأل أولا ما هو الخلود ؟

أجابت فى ضيق : شىء لا يموت .

— وهل فى الدنيا شىء لا يموت ؟

واستشاطت غضباً وسألت : عيبك أنك تفلسف الحياة . . كل شىء عندك مادى لا بد له من سبب ونتيجة وبداية ونهاية . . . دعك من نزعتك التحليلية هذه . . دعنى فى أوهامى إذا كنت أحسب الحب خالداً فلماذا تحاول أن تقنعنى بأنه ليس خالداً . . أترك لى جنتى حتى ولو كانت خيالا من الخيال .

— ستصدمين إذا عرفت الحقيقة . . .

— ولماذا لا أستمتع بالخيال إلى أن تصدمنى الحقيقة . بالله دعنى من حقائقك . . هل نحن نقرر معادلة رياضية ؟

وسكتت برهة ثم قالت : ولكن خبرنى ما هى الحقيقة ؟

وأعجزه السؤال فحاول أن يهرب منه : وهل الحقيقة فى حاجة إلى تعريف ؟

تحدته قائلة : أنا موجودة الآن فأنا حقيقة ، فإذا مت لم أصبح إلا خيالا أو ذكرى ، أين الحقيقة ، حقيقتى ؟ ستقول لى كانت موجودة وسأقول لك كانت حياتى وهماً . . وإلا فما هو الدليل عليها ؟

وسارع قائلا : إذن ليست فى الدنيا حقائق . والحب نفسه ليس حقيقة . .

أجابت : هو حقيقة ما وجد . .

— إذن هو يموت . . ليس بخالد .

واستدارت نحوه وقالت : عدت إلى فلسفتك . قلت لك دعنى فى أوهامى . .

وأطبقت شفتيها وعينيها ثم قالت : أنت تغالط . . قلت لك منذ

البداية : لا أريد الحب . . أريد الحنان .

ـ ولكن الحنان يبذل لكل الناس والحب يبذل لإنسان واحد .

ـ أنا عندك كبقية الناس ؟

ـ هذا ما تريدينه . . .

ـ ولكننى . . .

ثم توقفت ورنت إليه بعينين فيهما فيض من النداء وفرت دمعتان مكتومتان من عينيها .

قال : أراك سكت . . .

اغتصبت الألفاظ اغتصاباً وقالت : لأنك جعلتنى كبقية الناس ..

ـ إذن تريدين الحب وليس الحنان ؟

ـ افهم ما تشاء . . أنت تضايقنى .. سأنصرف . .

ـ على أن تعودى ...

ـ لن أعود ...

وقال فى ارتياع : ولكن لماذا ؟

وهزت رأسها وقالت : لست أدرى ، شبت فى نفسى رغبة عجيبة مفاجئة أن أنصرف الآن ... أن أهرب ... وألا أعود . كرهت الحب والحنان ... كرهت الرجال ، كرهت نفسى .

وقال فى تصميم وهو يودعها : ستعودين .

وكادت تلطمه وهى تقول : هكذا ببساطة تتركنى أنصرف . . .

أجاب فى سذاجة : ولكنك تريدين الانصراف ...

ـ أنت لا تفهم شيئاً عن نفسية المرأة ... لماذا تطيعنى ؟ .. لماذا لا تشد يدى فى عنف وتقول اجلسى هنا .. لن أدعك تنصرفين .

ـ إذا فعلت هذا كنت قاسياً خشناً أجبرك على ما لا تريدين ... هكذا قلت حينما لاح لى ذات مرة أن أكون عنيفاً معك .

ـ لأقل ما أشاء ... ولكن ، افعل أنت ما تشاء .. ألا تفهم .. ؟
ـ أؤكد لك أنني لا أفهم شيئاً .
ـ إنني أكره الرجل الذى يطيع المرأة .
ـ وتكرهين الرجل الذى يجبرها على أن تفعل ما يشاء .
ـ من قال لك هذا ؟
ـ أنت . . .
ـ عدت إلى غبائك ... قلت لك دعنى أقل ما أشاء ... هل تصدقه ؟
ـ كنت أفعل . .
ـ منذ الآن لا تفعل . . .
ـ تكذبين إذن ؟ . .
ـ أنا لا أكذب وكل ما أقوله صحيح .
ـ إذن لماذا تريدين أن أصدقه . . .
ـ لأنه غير صحيح . .
ـ عقلى يكاد يطير . .
ـ لا يطير ولا حاجة . . أنا أقول لك ما أعتقد أنه صحيح ، ولكننى أريد منك أن تقف فى وجهى . . أن تجعلنى أشعر بأننى تحت سلطانك.
ـ سخرت منى ذات مرة حينما قلت لك هذا ...
ـ لا بد أن أسخر ، ولكن لابد لك أن تتجاهل سخريتى .
ـ فهمت . . .
ـ أخيراً . . .
ـ اعذرينى فإننى مبتدئ فى العلم . .
ـ أى علم ؟
ـ علم المرأة . .

ــ وهل المرأة علم ؟

ــ أصعب علم . .

قالت وهى تخطو نحو الباب . أنا منصرفة . . منصرفة ولن أعود . .

وتردد ماذا يصنع ، وصرخت فى وجهه : أنا منصرفة ولن أعود . .

ومد إليها يده مودعاً ، فقذفته بحقيبة يدها ، وانصرفت . .

ولم تعد .

صلاة

قالت له : أنت تعرف الكثير عنى ، حكيت لك قصتى كاملة ، ولا بد أنك كنت تشفق على وترثى من أجلى ، أنا نفسى كنت أشفق على نفسى وأرثى لها ، وتسألنى الآن كيف حالى فأقول لك إننى سعيدة ... سعيدة جدا .

وتأمل وجهها .. كان هادئاً رقيقاً فيه سحابة غامضة وعليه مسحة أقرب ما تكون إلى القداسة . . .

قال : أتعبك طول الجمود ، أويت إلى عش . . .

قالت : كلا ، ولكننى سعيدة . . .

ـ صلاة وصيام وإيمان إذن .

ـ ولا هذا أيضاً . . .

وتوقفت و برقت عيناها ثم استدركت : نعم صلاة وصيام وإيمان ، أنا عابدة فى محراب .

ـ وتجدين الهناء الذى افتقدته . .

ـ وأكثر من الهناء . . . . هل عندك كلمة تصف ما أنا فيه الآن ... أحياناً أشعر أننى عاجزة عن وصف ما أحس به... الله جميل .. هل فى هذا شك ؛ أننى أحبه ... أحبه فى شخص رجل ؟

ـ ليس صلاة وصياماً إذن . . إنه حب .

ـ أنا أعبد الله فى الحب ، أصلى الآن وأصوم ، ومن قبل لم أكن أعرف الله . بعض الناس يعرفون الله عن طريق نعمائه التى أنقذت من كارثة أو كانت فيضاً من الهناء يغمر الخاطر . . إن الله عظيم عظيم جداً . . أعطانى النعمة . أنت تعرف أننى قضيت شطراً من حياتى أنشد الحب ، أن أجد رجلا يستحق طهرى وصفاء نفسى وتضحيتى ..

كانت خيبتى مرة فى كل الرجال الذين قابلتهم . . كنت أحياناً أركع بين يدى الله أعتب عليه أن كل من خلقهم كاذبون منافقون ثم أقول . . . كلا يا إلهى إنك عظيم جميل رائع ولا بد أنك خلقت كثيرين على مثالك هبنى واحداً منهم . واستجاب الله لصلواتى .

ــ والآن . . . .

ــ أشعر أحياناً كأن الله فيه ، إننى أعبده ، ولا أتضايق من أى امرأة يعرفها . . هل تتصور هذا . . قد أكون مجنونة . إننى أعطيه الحب لأننى أعرف أنه يسعده . ولا يهمنى إذا كان يحبنى أم لا . أشعر أحياناً أنه لا يستحق هذا الحب ، ومع ذلك أحبه أكثر . هل هو شذوذ أم ماذا . ؟ لا أدرى .. ألم أقل لك إننى أعبد الله فيه . إن الكارثة تأتى لنا أحياناً من السماء! فلا نفقد حبنا لله ولا إيماننا به ونركع أمامه نرجو المغفرة من ذنوب لا نعرفها . أحببت صديقه فسأل : لماذا هذا الاهتمام به ؟ قلت : إننى أحبك فلا بد أن أحب كل من تحبهم . . التراب الذى تمشى عليه ، الهواء الذى تتنفسه . . الأزهار التى تقع عليها عينك .. كل الأزهار . . فقد تقع عليها عينك . . كل التراب فقد تمشى عليه ... كل الناس ، فقد تعرفهم وتتحدث إليهم .. كل الدنيا التى تعيش فيها .. الله الذى أوجدك وأوجدنى .. ومنحنى السعادة كلها .

ــ إنه ليس حباً .. إنه عبادة للحب . . . عبادة الله ...

ــ سمه كما تشاء ، وماذا تعنينا الأسماء . أعرف أنه غائب ومع ذلك أطلب رقم تليفونه وأتركه يدق ولا أحد يرد ومع ذلك فأنا سعيدة . إنه الصوت الذى يناديه ، إنه التفكير فيه ، والانتظار له . هل تتصور أن الانتظار عندى سعادة ، مجرد الانتظار ، بل إن الانتظار أجمل ، أشبه عندى ببزوغ القمر فى جلاله وروعته . . إنه الأمل فى اللقاء .. وأنا معه ، هل تتصور ، أريد أن يقف الزمن ويتجمد ونصبح قبل الأزل

أو بعد الأبد ، لا نتحرك ولا يتحرك ، لا نحس ولا يحس . طول عمرى لم أكن أثق فى الرجال .. كيف وثقت فى هذا الرجل ؟ . . لا أدرى ...

ـ أنت لم تثقى فيه .. أنت آمنت بالحب. الثقة هنا بالشيء وليست بالشخص .

ـ ربما كان كلامك صحيحاً ، ولكننى سعيدة . . سعيدة بالحب .

ـ ألا يمكن أن تتغيرى أو يتغير . .

ـ أنا لن أتغير . . أما تغيره هو فلا يهمنى

ـ الحياة ليس فيها جمود ، إنها حركة ، والحب كائن حى لا بد أن يتحرك إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى أمام أو إلى وراء . .

ـ إنه حتى الآن يتحرك إلى أعلى ، إلى أمام .

ـ ألم يبلغ الذروة بعد ؟

ـ لا أعرف ولكننى أشعر أنه فى جلدى ، فى عظامى ، فى أنفاسى .

ـ لم أقل لك إنه منك وليس منه !

ـ أياً كان مصدره ، فإننى سعيدة . .

ـ أحاذر عليك من الصدمة !

ـ وماذا تعنينى . . إننى أشعر الآن أننى أقوى منها وأقوى من أى صدمة . أشعر أن الله فى داخلى . . .

ـ لم تجيبى عن سؤالى ، هل هو منك أو منه أو منكما معاً ؟ . . الجواب يحدد طبيعة هذا الحب إذا كان منك وحدك فهو عبادة للحب فى ذاته ، وإذا كان منه فهو تجاوب ،خيوطه فى يد مانحة إذا جذبها انهار وتحول إلى رماد . وإذا كان منكما معاً توقفت حياته على تصرفات كل منكما .

ـ أنت تتحدث عن الحب كما لو كان عملية عقلية ، وعقلى متوقف عن العمل الآن ... أنا سعيدة، هذا هو كل ما أعرفه. سعيدة لأنى

أنتظره . إنه مسافر وسيأتى فى هذا المساء .

وأغمضت عينيها كالحالمة وقالت : سأراه .

* * *

وانصرفت وتأملت حديثها . كانت منذ سنوات تترامى الرجال على أقدامها وتسخر منهم ، وهى الآن تترامى عند أقدام رجل لأن الحب أضاء قلبها ... هل تحبه حقاً ؟ .. أم أنها سئمت جمود العاطفة فى القلب المغلق ، ففتحت قلبها لأول طارق وتصادف أن كان هو أول طارق ؟

من يدرى ... ما أعجب العواطف وما أعجب المرأة ... يختلط عندها الحب بالعبادة ويختلط الإيمان بالحب ، وتحس أن الصلاة فى محراب الحب صلاة فى محراب الله . . .

المظهر والحقيقة

قالت له : هل ترى القمر بوضوح ؟

أجاب : أحسب أنى أفعل !

ـ هل ترى ما فيه من وهاد وجبال ؟

قال : أرى وجهه المنير وحده ، وجهه الجميل . . .

ـ ولكن هذا الوجه ليس الحقيقة . .

ـ وماذا تعنيني الحقيقة ؟ . . يكفى أنى أرى وجهاً جميلا . أنت مثلا بارعة الجمال ، هل تعرفين ماذا وراء عينيك الساحرتين من تلافيف فى المخ ؟ هل تعرفين ماذا وراء فمك العذب من لسان ولهاة . ومنظر غير جميل ؟ . .

وأوقفته منزعجة : اسكت . . اسكت .

قال فى هدوء : هذه هى الحقيقة لماذا تخافين منها ؟

قالت : لم أقصد هذا النوع من الحقيقة .

ـ وهل الحقيقة أنواع ؟

ـ لها وجوه . . .

ـ حسبت أن لها وجهاً واحداً . وبغير ذلك لا تكون حقيقة . .

وسكتت لحظة محتارة فى تردد ثم سألت فى عين يشع منها السحر : ما هو الحب ، حقيقته ؟

ـ لا أعرف له حقيقة . . أعرف مظهره .

ـ المظهر يصدر عن حقيقة ، ولكى نعرفه تماماً لا بد أن نعرف الحقيقة ، الكيان .

ـ ولكن لماذا الإصرار على معرفة الحقيقة ألا يكفى المظهر ...

أزعجتك معرفة الحقيقة فى وجه القمر الجميل وأزعجتك معرفة الحقيقة وراء وجهك الجميل . .

ــ هل تعنى أن حقيقة الحب أيضاً بشعة ؟

ــ كلا لم أقصد هذا ، كل ما قصدته ألا نشغل أنفسنا بحقيقة الأشياء ، يكفى ظاهرها .

ــ المنافق الذى يغرقك فى المديح والثناء مثلا ، ألا تحب أن تعرف حقيقته ؟

ــ وماذا أفيد من هذا ؟

ــ تعرف أنه منافق ، وتميز بينه وبين غيره من الصادقين .

ــ ما ذا لو تقصيت وراء الصادقين ثم عرفت فيما بعد أنهم كاذبون ؟ ألا تعرفين ما قاله على بن أبى طالب كرم الله وجه : «لو عرف أحدكم ما بقلب أخيه لم ينظر فى وجهه » .

ــ أنت متشائم ، تعنى أنه لا يوجد إخلاص ولا حب على هذه الأرض . . .

ــ كلا بل يوجد ولكن تقصى الحقيقة إلى آخر مداها مزعج . . أنت جميلة ما فى هذا شك ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج . . القمر جميل دون شك ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج . . الحب شىء جميل ما فى هذا شك ، ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج حتما . . .

ــ أنت تعمم فى أحكامك . . الحب شىء آخر .

ــ ولماذا يكون شيئاً آخر !

ــ لأنه أجمل ما فى الحياة . .

ــ وهو أيضاً أسوأ ما فى الحياة . . إنه يؤدى أحياناً إلى الجنون والانتحار والتعاسة . .



ـ فقدانه أو الفشل فيه وليس هو بذاته . . .

ـ الأمر لا يختلف .. فلو لم يكن موجوداً ما نتجت آثاره ، والشيء يؤخذ فى مجموعه وليس فى وجه واحد من وجوهه .

وسكتت الفتاة كالمهزومة وتألقت فى عينيها دمعة وقالت : أنت تهدم حياتى لأن آمالى كلها قائمة على رجل يحبنى . .

ـ أواثقة أنت من حبه ؟

ـ هكذا أعتقد . . .

ـ إذن ماذا يشقيك . . ماذا يخيفك ؟

ـ أخشى أن يكون كاذباً ... هنا تكون الكارثة ...

ـ ولكن لماذا لا تقنعين بالظاهر . . .

ـ لأنى أحب الحقيقة . .

ـ هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه أحبك لجمالك وشبابك ؟

وتريثت برهة ثم قالت : تعنى أنه إذا ذهب الجمال والشباب ، ذهب الحب . . .

ـ هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه يحبك لعقلك واتزانك وخلقك ؟

ـ فإذا اضطرب العقل وساءت الأخلاق ، ذهب الحب .

ـ هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه يحبك لأنك ذكية متفوقة ينتظرك مستقبل سعيد فى فى عملك ؟

وصرخت : هذا ليس حباً . . إنه تجارة .

ـ إذن كيف تريدين أن يحبك ومن أجل أى شىء ؟ . .

وسألت فى يأس : هل لا بد أن يكون للحب سبب ؟

ـ لكل شىء سبب .

وقالت مصرة : . . . الحب . . . إنه يقع كالقدر .

ـ فى الظاهر هذا صحيح ، ولكنه فى الواقع تجرى عليه نواميس الكون .:

ـ ماذا تعنى بنواميس الكون ؟

ـ أعنى أنه سبب ونتيجة ، كائن حى لا بد أن يولد وينمو ويعيش ويمرض ويتشوه ويضعف ويموت . . بعض أنواع الحب قصيرة الأجل لا تكاد تظهر إلى الوجود حتى تتعثر ، بعضها أقوى يعيش أطول . .

ـ ألا يوجد الحب الخالد ؟ . .

ـ يتحول إلى ذكريات جميلة أو أليمة .

ـ أنت تضايقنى وتهدم أحلامى . . .

ـ خير من أن تضعى قدمك على أرض من الأوهام .

ـ ولكنها تسعد فى بعض الأحيان . . .

ـ وتشقى فى بعض الأحيان . . .

ـ تعطى وتأخذ . . .

ـ هذا صحيح . إذا آمنت بمبدأ الأخذ والعطاء فلا خوف عليك . . نرجع إلى القمر وإلى وجهك الجميل وإلى الحب الجميل ، كل منها يتألف من عناصر إذا أخذ كل عنصر وحده شاهت الصورة ، أما إذا ضممت العناصر بعضها إلى البعض الآخر كملت الصورة وكان لها بهاؤها . . . تعطيك فى المظهر الجمال وتعطيك فيما وراء المظهر القلق والخوف وربما الاشمئزاز . . . كلما كان المظهر أخاذا اختفت العناصر الكريهة ، فإذا ساء المظهر ازداد ظهور العناصر المكروهة وبدأ الاضمحلال .

مزايا المرأة

قالت له : جئتك أمس ، ولم أجدك . .

قال : لم يكن بيننا موعد .

ـــ حسبت أنك تحس بقلبك ... الذى تملؤه العاطفة يقوده قلبه . .

ـــ والعقل . . . .

ـــ العقل يحسب ويقدر ويفكر ويقيس ثم يتصرف .

ـــ وأنت ، ألا تستخدمين عقلك ؟

ـــ حيث تكون العاطفة قوية لا أشعر بحاجتى إلى العقل .

ـــ أفهم من ذلك أن عاطفتك ليست قوية . . لقد استخدمت العقل معى ذات مرة . . .

وتولتها الدهشة وسألت منكرة : متى حدث هذا ؟ . . .

قال فى هدوء له معناه: فكرى. . إن المرأة تنسى وهى فى حاجة إلى ما ينعش ذاكرتها . .

قالت فى إصرار : المرأة لا تنسى .

ـــ إذا سلمنا أن المرأة يحكمها قلبها فمن المحتم أن تنسى . إن القلب متقلب ، أما العقل فثابت صامد .

ـــ تريد أن تقول إن الرجل أكثر ثباتاً من المرأة فى عاطفته . .

ـــ ربما عنيت هذا .

واستشاطت غضباً : هذا غير صحيح . . أبداً . . أبداً . المرأة أثبت وأصدق عاطفة .

ـــ هذا رأيك ؟

ـــ ورأى كل الناس .

ــ تستطيعين أن تؤكدى أنه رأيك ، أما أنه رأى كل الناس ، فالأمر مختلف .

قالت : المهم ما تعتقده أنت لا ما يعتقده الناس . .

ــ وهذا شيء آخر ، إن المرأة تعيش فى عالمها ولا يعنيها عالم الناس .

ــ بل إنها فى صميم عالم الناس . . .

ــ إنها تعتقد أن عالمها هو الذى ينبغى أن يكون عالم الناس .

ــ أنت متحامل على المرأة . . .

ــ بالعكس ، أنا أحاول أن أفهمها . . .

ــ هل هى معقدة إلى هذا الحد ؟

ــ كلا إنها ليست معقدة ، ولكنها لاتعترف بالمنطق . المعادلات الصحيحة عند الناس لا تكون صحيحة عندها إلا إذا كانت توافق هواها .

ــ تعنى أنها هوائية . . . وهذه تهمة أخرى . . .

ــ كلا ، قولى إنها مزية أخرى . . .

ــ خرجنا عن الموضوع .

ــ لست أنا السبب إن المرأة أيضاً ليس لديها التركيز . . إنها تنتقل بسرعة من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . .

ــ لم يبق شيء سيئ لم تلصقه بها .

ــ كلا ، إنه ليس شيئاً سيئاً . . . مزية ثالثة . . .

ــ أولا إنها متقلبة وإنها لا تعترف بغير العالم الذى تعيش فيه وإنها تنسى وتذهب من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ثم إنها لا تعترف بالمنطق . هل كل هذه الأشياء مزايا ؟ . . .

ــ بالتأكيد . . تصورى ، لو لم تكن المرأة كل هذا ، هل كان الأدب والفن والحياة تكون بهذا الثراء والجمال ؟

ـ بسبب هذه المساوئ . . .

ـ إنها ليست مساوئ ، كما قلت لك ، وأرجو أن تضيفى إليها مزية أخرى هى أنها متناقضة . تصورى لو أن المرأة حكمها العقل والذاكرة القوية والمنطق الجامد ، تصورى أنها ثابتة معقولة لا تتناقض ولا تثور ولاتبكى ولا تصرخ . . تصورى كيف كانت حياة الرجل تكون بل كيف كانت الحياة تكون .

وفتحت عينيها دهشة وسكتت بينما استطرد : الفستان اللامعقول الذى ارتدته بعض السيدات فأظهر صدورهن . .

قالت : وماذا فى هذا ؟ . . إنه لم ينتشر ، قاومه الرجال . .

ـ ولكن هل اقتنعت المرأة ؟ إنها لم تقتنع وسترين بعد قليل أنه سينتشر ومن يدرى لعل سيادتك ترتدينه حينئذ . .

ـ أنا ، وهل هذا معقول ؟

ـ إنه ... حقيقة ... غير معقول ، ولكن أى شىء فى المرأة معقول ، لا تنزعجى . . هذا أيضاً من مزاياها . إن الرجل منذ وجد يكافح لكى يجعل المرأة معقولة . ومع الأسف إنها هى التى جعلت الرجل غير معقول .. لا تنزعجى أيضاً . آدم ترك الجنة وهذا شىء غير معقول ولكنه حدث لأن حواء أتت أمراً غير معقول . أكلت من الشجرة المحرمة ، عصت أمر ربها ..

ـ إنها إرادته ، إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولو شاء ألا تعصى أمره ما فعلت . .

ـ تقصدين أنها إرادة عليا أن تكون المرأة على ما هى عليه .

ـ وأن يكون الرجل أيضاً .

ـ لأول مرة فهمت أن مساوئ المرأة فضائل . . .

ـ لم أقل هذا . . .

ـ تغيرت بسرعة ، وأنت تقول إن الرجل ثابت لا يتغير .

— قلت إنها مزايا ولم أقل فضائل والمزية ليست دائمة فضيلة ثم إن المرأة . . .

وقاطعته ثائرة : كفى سفسطة ، إن المرأة تتكلم بمنطق أفضل من هذا.

أجاب ضاحكاً : لولا أنك امرأة ما جرى الحوار بينى وبينك على هذه الصورة المشوشة . .

— أنت السبب .

— وأنت طبعاً لا لوم عليك . . كل الفضائل فيك ، أما الرجل فمجرد منها ، مجرد من المنطق .

وقالت منتصرة : تماماً . . .

وأجاب ساخراً : وهذا شيء آخر جميل فى المرأة . . والآن متى أراك ؟

قالت : لن أحدد موعدا . . . سأجيء وقتما أريد . .

— وأنا ؟

— عليك أن تكون موجوداً فى الوقت الذى أختاره . .

— وكيف أعرفه ؟

— بقلبك !

ما بين السطور

قالت له : عذبتني . . أنت لا تتكلم .

قال : هل لا بد من الكلام ؟ أنت تعرفين عواطفي نحوك . .

— كيف أعرفها ؟

— للمعرفة وسائل كثيرة . النظرة معرفة . اللمسة معرفة . اضطراب القلب معرفة . الاهتمام معرفة ، السكوت أحياناً معرفة . .

— المعرفة عن طريق هذه الوسائل إيحاءات وتفسيرات . ومع الإيحاء والتفسير يكون الشك والغموض ، وكلاهما يقتلني .

— وهما أيضاً سر بقاء الحب بيننا . . .

— تعني أن الوضوح يقتله .

— كلا ، قلت إن الشك يبقيه . . .

— والشك نقيض الوضوح . . .

— كلا ، قد يكون الشك مع الوضوح ، إن الكلام نفسه قد يكون موضعاً للتأويل والتفسير .

— الكلام الصريح لا يحتمل التأويل . . .

— ليس كل كلام صريح صريحاً . . اللسان يقول أحياناً غير ما في القلب .

— هنا يكون الكذب والكذب أمره معروف .

— يلبس الكذب أحياناً ثوب الصدق .

— الكذب مفضوح . . .

— كيف ؟

— إحساسي يقول لي . . .

ــ إذن الإحساس وليس الكلام هو الأصدق .. ومن هنا أفضل ألا أتكلم وأدع إحساسى يخاطب إحساسك . .

ــ ولكن الصمت يقتلنى . .

ــ أخشى أيضاً أن يقتلك الكلام . . إن الصمت أحنى على الإنسان من الكلام .

ــ ولكن الصمت قاتل . . .

ــ ومن الكلام ما يقتل . . ألم تقرئى أن السكوت من ذهب .

ــ إلا فى الحب . . .

ــ لقد ابتذله الناس لكثرة ما تكلموا فيه . . إنه مقدس فالصمت أليق به والحب عبادة .

ــ الذين يعبدون الله يتكلمون . . يسبحون ويحمدون ويشكرون . .

ــ ولكن الله لا ينظر إلى ألسنتهم ولكن ينظر فى قلوبهم . .

ــ الله يعرف السر والجهر ، أما أنا فبشر . حتى الآن لم أسمع منك أنك تحبنى . . تراوغنى كما لو كنت أطلب ترخيصاً بدخول الجنة . .

ــ أنت فيها من غير ترخيص . . أنت فى قلبى .

ــ لماذا لا تقول . .

ــ أحياناً يبلغ الحب مرتبة أعلى من القول . . يخيل إلى أحياناً أن الألفاظ تغض من قداسته

ــ ولكننى راضية بالقداسة الأرضية . أنا بشر أريد أن أحس وأحلم وأتألم وأتكلم . .

ــ لو أسرفت فى الكلام فقد قيمته . .

ــ خطاباتك لى تلغرافات . .

ــ ألا تقرأين ما بين السطور . . .

ــ ولماذا لا تكتب السطور وتكتب ما بينها هل هو ضيق الوقت أم

ضيق المساحة أم ضيق العاطفة ؟

ـ لا هذا ولا ذاك ، ولكنه إحساس منى أنك تفهمينى من غير أن أتكلم ، تحبيننى كما أحبك .. إن الحب المتبادل يغنى عن السطور وما بينها.

ـ أريد أن أتأكد من وجوده . . .

ـ رغبتك فى التأكد من وجوده دليل على أنه غير كامل فى نفسك.

ـ بل هو كامل عندى . . إن ريبتى فيك أنت . .

ـ لو كان كاملا عندك لأغناك عن الشك والريبة . . إن الحب يستطيع أن يقوم بذاته . .

ـ من غير طرف آخر .

ـ من غير الشك فى الطرف الآخر .

ـ أنت متناقض . . قلت الآن إن الشك هو الذى يقيم الحب ، وتقول الآن إن الحب الكامل لا يحتاج إلى الشك . .

ـ الشك مرتبة لبلوغ الحب الكامل . . أنت الآن فى المرتبة الدنيا من الحب . ويوم تكفين عن الشك تبلغين مرتبته العليا .

ووضعت رأسها على صدره وقالت : أنت توجع دماغى . . قل إنك تحبنى وأرحنى . .

بقايا قيد

قالت له : لقد فقدتني . . .

سكت هنيهة ثم أجاب : تعني أن ما بيننا قد ذهب .

قالت : أعني أنه تحول . . أصبحت الآن أنظر إليك كحلم جميل تبدد .

سأل : وما هو نوع العلاقة الجديدة ، هل هي صداقة أم بقايا حب؟

ــ حب ، لا تنطق هذه الكلمة . . أنت لا تعرفها . . صداقة ، ربما كان وصفاً أقرب .

ــ الحب لا يمكن أن يتحول إلى صداقة . . ابحثي لك عن وصف آخر .

ــ لا يعنيني الوصف أو التحليل . . المهم أنني أجد في نفسي رغبة في أن أتحدث إليك، وأن أتشفى فيك . .

ــ تتشفين . . نوع من الانتقام إذن !

ــ ربما كان نوعاً من التعويض . استرددت حريتي ، تخلصت من سيطرتك على . أتحدث إليك وألقاك من غير قيود ، من غير سيطرة ، من غير أن أحاسبك أو تحاسبني . . كم أنا سعيدة ، أنت لا تعرف ماذا يعني أن تكون حراً من عاطفة طاغية .

ــ الحرية هنا فراغ ، والفراغ خلاء ، والخلاء ضياع .

ضحكت ساخرة، وقالت : أنت تحاول إغرائي كي أعود إلى القيد .

ــ كلا لا أحاول إغراءك بشيء ، إنما أنا أحلل موقفاً تفرضينه على .

ــ أنت المسئول عن هذا الموقف : أعطيتك عواطفي نظيفة كاملة فلم تفهمها . . ظننت أنني امرأة كبقية النساء تنشد فترة هناء أو تنشد

مغامرة من المغامرات . كانت بالنسبة لى الحياة كاملة .

ـ وكانت كذلك بالنسبة لى . . .

ـ لا تقل غير الحقيقة . لو نظرت إلى كذلك ما فقدتنى . كنت تنشد جسداً وكنت أنشد روحاً . كدت أن تنزل بى إلى الجسد ولكننى اعتصمت بالروح . حاولت أن أرفعك إلىّ فلم أنجح. توقفت وترددت. كدت تنتصر ولكننى فى اللحظة الأخيرة قررت ونفذت . قررت أن أقتل الروح والجسد معاً . .

ـ والآن . . .

ـ كما ترانى أقف معك على مستوى واحد . ليس لك فى نفسى شىء خاص . وليس لك فى قلبى مكان ، لم يعد حديثك يخلبنى ، لم يعد صوتك يهزنى كما كان ، بطل السحر .

ـ وسعيدة ؟

ـ غاية السعادة . . ما هى السعادة ، إنها ليست شيئاً آخر إلا أن تسترد حريتك ، تشعر أنك سيد عواطفك ، سيد تصرفاتك . .

ـ ولكن المرأة تنشد عبودية العاطفة . إن سعادتها فى هذه العبودية . .

ـ والرجل ؟

ـ ينشد سيطرة العاطفة ، هذا هوحكم الطبيعة . سيطرة من الرجل واستجابة من المرأة .

ـأنت مخطئ يا صديقى ، ومن أجل هذا فقدتنى . لم تفهم العاطفة من جانب الرجل إلا أنها السيطرة ولم تفهمها من جانب المرأة إلا أنها الخضوع ، مع أنها فى الواقع المشاركة .

ـ المشاركة فى العاطفة لا تنتج حباً وأعنى بالمشاركة التساوى فيها .

ـ تعنى أن دور المرأة فى العاطفة يجب أن تكون الأدنى .

ـ كلا ليس هذا ما قصدت إليه ، كل ما قصدته هو أن العاطفة

فى المرأة لها تحليل آخر غير العاطفة المقابلة لها فى الرجل . إن العاطفتين إذا كانتا من نوع واحد لم تلتحما ، إن التناقض بينهما هو الذى يؤدى إلى الالتحام .

سكتت قليلا وكأنها تتأمل هذا الكلام ومراميه ، ثم سألت فى سخرية : أنت تتفلسف لكى تغطى فشلك . . .

ونظر إليها فى دهشة وقال : فشلى . . . فشلى فى ماذا ؟

ــ فى أنك لم تستطع الاحتفاظ بى . .

ــ ولماذا لا نقلب الموضوع ونقول إنك أنت التى فشلت فى الاحتفاظ بى . . .

ــ لأنى أنا التى انصرفت عنك . . أنا التى توقفت عن العاطفة . .

ــ هل أنت واثقة من هذا ؟

ــ كل الثقة .

ــ أخشى أن يكون الأمر مختلطاً عليك . هل قرأت قصة الثعلب الذى أراد أن يصل إلى العنب ، فلما أعياه الوصول إليه قال هذا حصرم.

وكادت أن تقذفه بمروحة فى يدها وكزت على أسنانها وقالت : وقح. أنت لا تستحق فتاة مثلى ، أثبت هذا . .

قال هادئاً : والآن . . هل نفترق ؟

ــ لقد افترقنا ، وانتهى الأمر . .

ــ إذن لماذا هذا الحديث . .

ــ لكى أثبت لك أنك لم تصبح فى حياتى . . لم تصبح بالنسبة لى شيئاً .

ــ محاولتك إثبات هذا دليل على أن الأمر لم ينته . الذى لا يشعر بشىء لا يحمل نفسه مشقة إثبات أنه لا يوجد .

ـ أنت تعزى نفسك ، تحاول أن تؤكد لها أنك لم تفشل . .
ـ وجودك معى الآن دليل على أننى لم أفشل . إن ما فى نفسك مرحلة من مراحل الصراع .
ـ أى صراع ؟
ـ الصراع ضد سيطرة الرجل ، أنت تحبين هذه السيطرة وتكرهينها فى الوقت نفسه .
ـ لقد تخلصت منها نهائياً وأنا سعيدة بهذا .
ـ لن تستمر سعادتك . أنت فرحة لانتصارك على قيود العاطفة ، ولكن هذه الفرحة لن تطول . ستشعرين بالفراغ وتتوقين إلى القيود ..
ـ تخريف !
ـ الزمن بينى وبينك وهو الفيصل . .
ـ سترى .
ـ وسترين .
قالت فى سخرية حاولت بكل وسيلة أن تجعلها تظهر كأنها صادقة: يبدو أنك واثق من رأيك !
ـ إنه ليس رأياً ، إنه طبيعة لا تتخلف . . إنها المرأة والرجل . .
ـ تعنى أن المرأة تحب قيد العاطفة . .
ـ قلت هذا من قبل ، تحبه وتكرهه . . تثور عليه ثم تعود إليه .
قالت فى تحد : إذا تاقت نفسى إلى قيد العاطفة فلن تكون معك .
أجاب فى هدوء : هذا شىء معقول وممكن ولكن . .
وصرخت : ولكن ماذا ؟
ـ تفقد صبرك ، انتظرى . . إن القيد لم يتحطم تماماً ، لا تزال فيه بقية . .
ـ أنت مخدوع تريد أن تطمئن نفسك .

ــ لا تغضبى حينما أقول لك إن هذا الحديث الطويل الذى جرى بيننا هو بقايا القيد ، هو الحنين للعودة إليه .

ــ لن أعود . .

ــ ستعودين . . .

ــ ليس لك . . .

ــ أنت لم تنفصلى عنى ، وما زلت مرتبطة بى .

ــ هل هو إيحاء ؟ . .

ــ إنه الحقيقة . . الحقيقة التى تتجاهلها المرأة دائماً .

ــ تثير أعصابى ببرودك . .

ــ وهذا دليل حسن . .

وهدأت غصبا وقالت : دليل على ماذا ؟

ــ على أنك لم تتخلصى من القيد وعلى أنك لست صادقة الرغبة فى التخلص منه ، ما دمت أستطيع إثارتك فأنت ما زلت فى القيد .

ــ إننى أكرهك . . .

ــ وهذا دليل آخر . . .

مطر وتراب ونفس

انهمر المطر ، وامتلأت الشوارع بالماء المتجمع فى الزوايا والأركان واختفت الشمس ونزلت ندف من الثلج ، وأظلم الجو ، وأسرع الناس فى الشوارع يلتمسون الملجأ أو القرار . جو المطر ، إنه يغسل الأرض وليته يغسل الناس ، ويلون السماء بألوان داكنة ، وزاهية . . فيها لمسات من ريشة فنان . وفى جو المطر يأوى الإنسان إلى ذكرياته كأنه يلتمس فيها الدفء والحنان . . لماذا يحدث هذا ؟ ربما لأن الجو المظلم يجعل الإنسان تلقائياً ينكمش فى نفسه ويخلو إليها . . ربما لأن وهج الشمس يحملنا على النظر فى الخارج ، وظلمة المطر تعود بنا إلى الداخل .

كنت أنظر من النافذة فأجد الجو الغائم ، وأنظر فى نفسى فأجد مثل هذا الغمام ، تكاثر فيها التراب ، وأزعجنى أننى منذ أمد طويل لم آخذ منها وأعطى . . فانفصلت عنى أو كادت . كان لابد أن آوى إليها أرفع عنها التراب لكى يصفو لى وجهها . أحسست أن المطر يغسلها وينظفها .

قالت نفسى : أصبحت مجرد آلة لا تفكر ولا تتأمل ، أنت تظلم نفسك . . .

قلت : أظلمك . . وهل أستطيع ؟

قالت : وهل عندك ظلم أكثر من أن تهجرنى ؟

قلت : ولكنك معى دائماً . . أنت أمارة بالسوء .

قالت : تبرر خطأك وترمينى به ؟

قلت : من أين يجىء الخطأ إذن ؟

قالت : من حيث يجىء الصواب . .

قلت : لم أفهمك . .

قالت : كنت تفهم كل شيء فيما مضى أما الآن فقد أصبح بيني وبينك حجاب !

قلت : ولماذا لا توقظيني إذا سهوت أو غفلت ؟

قالت : وهل في الضجة يحسب للهمس حساب؟ أنت لا تستطيع أن تسمعني إلا إذا خلوت إلى ، وأنا أراك أكثر الوقت مع الناس . .

قلت : وفي الليل حينما آوى إلى مضجعي ؟

قالت : يهدك التعب فتنام ، شكراً للمطر ، ليته يطول .

قلت : أنت أنانية ، تريدينني أن أعيش معك ولا أعيش مع الناس.

قالت : أنت تغالط . . طول عمرك تعيش مع الناس ومعي . . ما أردت أن أفصلك عنهم ، ولكن كرهت أن تنفصل عني . .

قلت : أعيش مع عقلي وقلبي . .

قالت : يا للمسكين ، وهل تستطيع أن تعيش معهما وحدهما .. العقل جاف خشن ، وما أحسبك ترضى أن تكون جافاً خشناً ، والقلب أحمق أهوج ، وما رضيت لك يوماً أن تكون الأحمق الأهوج .

قلت : أمزج بينهما فأعيش حياة سواء .

قالت : أنا الذي أمزج بينهما ، ومن غيري تنكمش في هذا الجانب أو ذاك . وتنطلق من هذا الجانب أو ذاك . . لا الانكماش يجديك ولا الانطلاق يجديك . . فكر معي . . إن الحياة ليست عقلاً خالصاً ولا قلباً خالصاً .

قلت : لم تأت بجديد ، تعلمت هذا منك منذ أمد طويل .

قالت : والأستاذ القديم ألا يستحق منك تحية عابرة أو وقفة من حين إلى حين حتى لا تنى أو تغوى ضلالا .

قلت : الغواية والضلال منك . .

قالت : أجبني بصراحة ، هل أنتَ سعيد ؟

قلت : تهربين من السؤال . .

قالت : تريث ، ستعرف أنى لا أهرب منه . لقد عاشرتك دهراً طويلا .

قلت : ومع ذلك فلا أحسب أنى أعرفك .

قالت : يا للجاهل الأحمق . . لا تعرفنى ؟

قلت : لا أعرفك لأنني لا أعرف من أين جئت ؟

قالت : وهل لابد أن تعرف المصدر حتى تعرفنى ؟

قلت : هذا أبسط ما تعلمت . .

قالت : ومن علمك إياه ؟

قلت : الكتب والأساتذة والحياة . . .

قالت : وهل تعرف المصدر الذى جاء منه ما فى الكتب والحياة وما لقنك الأساتذة إياه . . ؟

قلت : أزعم أنى أعرف .

قالت : حسبتك أذكى من هذا . . هل تعرف كل شيء ؟

قلت : وأنت هل تعرفين ؟

قالت : أكثر منك حتما لأنني أزلية أبدية وأنت طارئ ذاهب . .

قلت : افتنى إذن فيما لا أعرف له تأويلا . .

قالت : لا تفهم فتواى لأن التراب فيك كثير . .

وأشرقت الشمس من وراء حجاب كثيف ودخل إلى الغرفة شعاع رقيق ، فصحوت من غفوة لم تطل . وفتحت النافذة . وأرسلت ببصرى إلى السماء فوجدت سحباً كثيفة تغطى وجه الشمس إلا قليلا . .

أيهما أقوى ؟

قالت له : تأخرت عن موعدك . . أنا لا أشغلك . . لا قيمة لى . . مجرد شيء على هامش حياتك .

قال : العمل . . تأخرت قهراً عنى . . لا بد أن أنجز عملى أولا . .

ـ العمل . . العمل ، والعاطفة لا حساب لها عندك . . تلك التى تحترق ألا تستحق أن تؤجل عملك من أجلها .. ألا تستحق حتى أن تتركه ، ترمى به إلى جحيم ؟

ـ إن قيمتى فى عملى . . وأنت نفسك أحببتنى لأننى عامل ناجح .

قالت : السبب فى الحب شيء والحب شيء آخر .

ـ تعنين أنك أحببتنى لأننى ناجح فى عملى . . وبعد ذلك لا يهمك عملى . .

ـ يهمنى قلبى وحبى ، أن أشعر أنك لى ، لى . . كلك . . هل تفهم ؟

ـ أتغارين من عملى .. تغارين من سبب إعجابك بى. وإذا فقدت عملى وفقدت نجاحى فهل . .

ولم تدعه يتم جملته ، بل سارعت إلى القول : نعم لن أكرهك ستزداد قيمتك فى عينى سأحبك أكثر وأكثر . .

ـ تحبين رجلا فاشلا فى حياته .

ـ لقد أحببتك وانتهى الأمر . . لن أتحول عنك .

ـ أنت مخطئة . . إن الحب ككل شيء فى الدنيا يتحول ويتغير .

ـ تعنى أننى يمكن أن أكرهك . .

ـ بل من المؤكد أنك ستفعلين لو أصبحت إنساناً فاشلا متعطلا

أقضي وقتي أنتظر موعدك أجيء قبله وأنصرف بعده .

قالت : وأنا لماذا لا أتخلف عن الموعد، لماذا لا أتأخر عنه ؟ إنني أعمل مثلك . . لدى مشاغلي ولدى مستقبلي في عملي .

— العمل بالنسبة لك ليس كل شيء . . أنا مثلا لم أحبك لأنك ناجحة في عملك .

— لماذا أحببتني إذن ؟

قال : لأنني أشعر بالراحة معك . أشعر كأن متاعبي تذوب وأنا أنظر إليك . وجهك يعطيني الأمان والابتسام .

— مجرد دمية ، شيء للزينة . لا يعنيك عملي . . لا يعنيك أن أن أنجح فيه .

— قلت لك إنني أحببتك لا من أجل عملك ، ولكن من أجل شخصك . . .

— لو كنت فاشلة وعاطلة أفكنت تحبني ؟

— بالتأكيد يكفي أن أكون أنا ناجحاً في عملي . إن عملك الأساسي بالنسبة لي أن تريحيني من متاعبي .

— أنت متأخر في أفكارك . . كنت أظن أنك أكثر من هذا تقدماً . .

— وأنت هل ترين نفسك أكثر تقدماً وأنت تصرين على أن يكون الحب مقدماً على العمل ؟

— لم أقل هذا . . كل ما في الأمر أنني أرى في تأخرك عن موعدي عدم اهتمام بي .

— وماذا يحملني على أن أقول لك إنني أحبك ، لا أريد منك شيئاً ، وأنت أيضاً لا تريدين مني شيئاً . . أنت مكتفية اقتصادياً وأنا مكتف اقتصادياً . . إن ما بيننا حب صريح لا غرض فيه قد يؤدي إلى الزواج .

وأحسست بشيء هزها في عنف ، ولكنها أخفته ، وقالت وكأنها

غير مكترثة : هذا صحيح ولكن . .

ــ ولكن ماذا . . أنت تفكرين فى الحب بالأسلوب القديم . . امرأة تستولى على رجل . .

ــ وما هو الحب فى نظرك ؟ . .

ــ علاقة متساوية لا استيلاء فيها من طرف على طرف . . أنت تبذلين عواطفك لى لا لأنك تريدين أن تتزوجينى . ولكن . . لأنك تشعرين أننى الرجل الذى ترتاحين إليه .

ــ وما هو الفرق ؟ . .

ــ فرق كبير . . التى تريد أن تتزوج لأنها محتاجة إلى الزواج لكى يعطيها أماناً من الناحية الاقتصادية غير التى تحب مجردة من هذا الدافع . . الأولى تتغاضى عن كثير من العيوب فى سبيل غرض يعطيها الأمان والاستقرار ، وقد لا تكون محبة على الإطلاق ولكنها تمثل دور المحبة . . أما الثانية فتعطى عن اختيار وتشعر بحب حقيقى .

ــ لا تزال فى نفسك رواسب قديمة .

ــ بل أنت التى لا تزال فى نفسها هذه الرواسب . . أنت تنظرين إلى الرجل كأنه مكسب ، صفقة ، لا بد أن تملكيه . . لا بد أن تقصى أجنحته حتى لا يطير . .

ــ وأنت لست حريصاً على . . لا يعنيك أن أبقى أو أن أطير .

ــ يعنينى أن تبقى با ختيارك وليس عن خوف أو حرص على مصلحة أو غاية . . أريد أن تشعرى بأننى الرجل الذى يسعدك .

ــ الرجل الذى يسعدنى هو الرجل الذى يضعنى قبل كل شىء ، قبل عمله أيضاً .

ــ رواسب قديمة . . لا تعارض بين العمل والحب ، كلاهما مقدس العمل يجعلنى فى نظرك أقوى كما أنه يجعلك فى نظرى أقوى .

ـ ليس الحب محتاجاً إلى القوة عند هذا الطرف أو ذاك .

ـ بل هو محتاج لها كى يعيش ويستمر . . إن المرأة الضعيفة لاتحب حباً حقيقياً . . حبها يكون مشوباً بحاجتها إلى قوة الرجل ، والرجل الضعيف لا يحب هو الآخر حباً حقيقياً حبه يكون مشوباً حتما ـ حتى وإن أنكر ـ بحاجته إلى قوة فى المرأة من الناحية التى يأتيه منها الضعف .

الاعتياد على العطش

قالت : دعني وشأنى لا تعترض طريق . .
قال : أنا لا أعترض طريقك . . أنت التى تصنعين . .
سألت : هل دعوتك لمقابلتى ؟ . . أنت الذى فعل .

ــ ولماذا أجبت دعوتى . . لا بد أنك تريدين ؟

ــ إرادتى هنا صدى لإرادتك . . ليست إنشاء منى . . ابتعد عن طريقى ، أرجوك . . لا أطيق . . لا أقدر ، ارحمنى . . دعك منى . .

ــ ألا تحبيننى ؟ .

ــ أنت تعرف الجواب ، ولكننى أريد أن أقتل هذه العاطفة . . إنها تدمرنى . . أكره الحب من غير أمل . .

ــ وما هو الأمل فى الحب ؟ . . الحب نفسه هو الأمل . .

ــ حتى ولو كان مأساة . . . أنا واقعية . أحبك فإما أن أحصل عليك وأمتلكك وإما أن أنصرف إلى شأنى . . وأنت تعرف أن حبنا من غير أمل . لا تستطيع أن تتزوجنى ولا أستطيع أن أتزوجك .

ــ قد تتغير الظروف . . ما دمنا نعيش فلا ينبغى أن نفقد الأمل . .

ــ حينما تتغير الظروف ، أحبك من جديد . .

ــ هل يمكن أن ينقطع الحب ثم يعود .

ــ ومن قال إنه سينقطع . . سيختفى فى الأعماق .

ــ سيموت . . .

ــ كلا لن يموت . . .

ــ البعد يقتله ، الإهمال يقتله . . إيقاظه بعد ذلك مستحيل . .

ــ ولماذا نوقظه ؟

ــ إذا تغيرت الظروف . .

ــ لن تتغير . . أنت لست لى وأنا لست لك . . إننى أتعذب إذا كنت قريبة من الماء ولا أستطيع الحصول عليه . . خير لى أن يختفى من أمام ناظرى . . أن تكون الصحراء لا حدود لها فأعتاد العطش . .

ــ العطش يقتل . .

ــ ليس دائماً . . من النباتات ما يعيش على الجفاف . .

ــ المطر يرويها من وقت إلى آخر . .

ــ سأعيش أنا أيضاً على المطر . .

ــ ومتى يسقط ؟ . .

ــ حينما أراك مصادفة فى الطريق ، فى حفلة ، فى النادى ، فى اجتماع عائلى .

ــ وما الفرق ... أنا ألقاك الآن كما لو كنا فى الطريق ... فى حفلة ، فى النادى . . .

ــ كلا ، الفرق كبير . . أنا هنا معك وحدى وأنت وحدك معى .. الاقتراب يشعل النار .

ــ وهناك أيضاً اقتراب . .

ــ فرق بين الاثنين : هنا أريد أن أمتلكك ولا أستطيع فأموت حسرة ..

ــ وهناك . . .

ــ لا أفكر فى امتلاكك لأنك بعيد عنى ، الناس بينى وبينك .

ــ وما شأن الناس بنا ؟

ــ بل لهم كل الشأن . حواجز تمنع الماء من التدفق ، تمنع النار من الاشتعال . .

ونهضت فجأة وقالت مصممة : لن ترانى . . أعطنى وعداً ألا تطلب لقائى .

ـ وإذا لم أستطع الوفاء بالوعد ؟

ـ تكون إذن عامداً أن تعذبني . أن تراني أحترق . . أنت أناني . . لا تحبني ، ولو كنت لساعدتني .

ـ أمرك عجيب . هل الدليل على الحب هو الابتعاد . .

ـ في بعض الأحيان . . حينما لا يكون هناك أمل . . أنت تفسد حياتك وحياتي .

ـ الابتعاد هذا عملية بتر . لا طاقة لي على مشاهدة الدم ينزف بغزارة . . .

ـ خير من أن يتسلل قطرة قطرة ، فأموت ببطء .

العواطف والتدبير

قالت وهى تفكر: لست أدرى ماذا بينى وبينك .. هل هو الحب ؟ هل هو الخوف ؟ هل هو الإعجاب ؟ هل هو التقديس والاحترام ؟ اعتدت أن أفضى إليك بكل ما أحس به . . أحياناً أكرهك . أحياناً تختلط صورتك فى خاطرى بصورة أبى . . أحياناً أعجب حتى لأجعلك فى منزلة إله . .

— والآن . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . .

— حينما مات أبى تصورتك بديلا عنه . . لعلك تذكر أننى قلت لك هذا . كنت أحب أبى حتى العبادة . لم أتصور أنه مات . أردت أن تكون حياتك امتداداً لحياته . كنت سعيدة بك حقاً .

— يخيل إلى أنك نسيت، لم تكونى سعيدة معى . . اذكرى . . كثيراً ما قلت لى إنك تكرهيننى .

— لأننى كنت أكره أبى فى بعض الأحيان . .

— كيف اتفق الحب حتى العبادة مع الكره . .

— هذا ما كنت أحس به . . كان أبى قاسياً ؟

— وأحببته مع ذلك ؟ . .

— لأنه كان عطوفاً . . كنت أرى فيه الرجولة الكاملة . . مات .. أنت لا تستحق أن تكون بديلا عنه .

— منذ لحظة قلت كلاماً آخر .

— ماذا قلت ؟

— نسيت !

— لا تغضب . . أنت تعرفنى أكثر من نفسى . ماذا قلت ؟

ـ قلت : إنك نظرت إلى بعد موت أبيك . كأنى البديل عنه . .
ـ والآن لا أراك كذلك . .
ـ هكذا فى لمحة ، فى لحظة تتغيرين . .
ـ هكذا خلقت ..
ـ ماذا أنا إذن ؟
ـ أخافك . .
ـ كنت تخافين أباك . .
ـ لم تصبح إياه ، أنت الآن شيء آخر . . أمس تضايقت . . ذهبت صورتك كأبى ، وبقيت صورتك كرجل . . لنفترق ، فهذا أفضل ..
ـ نفترق .. هذا أفضل ولكن لماذا لا نكون أصدقاء مثلا ؟
ـ هذا ما فكرت فيه . . قلت لى دائما إن فى نفسك خليطاً من المشاعر .
ـ نختصر بعضها . نهمله . ونستبقى الصداقة . .
ـ الأفضل أن نبتعد . . .
ـ أنت متناقضة .
ـ لأنى مهزوزة لا أعرف ماذا أريد على التحديد . أنت لا تفهمنى . . أنا فى حاجة إليك لكى تساعدنى على فهم نفسى . . هل لديك مانع لو صادقت رجلا آخر ؟
ـ كلا ، ولكن هل فى حياتك رجل آخر ؟
ـ أبحث عنه ...
ـ إن المرأة لا تبحث عن الرجل كما أن الرجل لا يبحث عن المرأة إنه يقع فى طريقها كما تقع هى فى طريقه .
ـ من غير تدبير . .
ـ التدبير يفسد كل شيء . .

ـ ولكن كيف وقعت أنت فى طريقى وكيف وقعت أنا فى طريقك ؟

ـ تاريخ طويل . . أنا وأنت . . كلانا . . لم يسع إلى صاحبه .

ـ وهل فى الدنيا شىء يقع من غير سعى . . ؟

ـ أجمل ما فى الدنيا يقع من غير سعى ، يجىء بإرادة عليا ومن قدر يعرف كيف يسير بنا !

ـ ونقبله من غير مقاومة ؟

ـ حينما يكون القدر هو الذى يريد ، فماذا تجدى المقاومة ؟

ـ أنت تتحدث كما لو كنت صوفياً وما عهدتك كذلك .

ـ علمنى تناقضك أن أكون صوفياً .

ـ وهل يجىء التصوف من التناقض ؟

ـ حينما تكون المتناقضة امرأة !

ـ وحينما يكون رجلا ؟

ـ يكون دمه ثقيلا ، ربما أدى إلى الكفر

ـ تعنى أن دمى خفيف . .

ـ لم أقل هذا . .

ـ أنت لا تقول شيئاً ، ولكنك تدير رأسى . .

ـ ليس أكثر مما تديرين رأسى . .

ـ إلى أى شىء وصلنا ؟

ـ ومتى وصلنا إلى شىء ؟ . .

الدمية

قالت له : تحبنى كما تحب الدمية . ستحطمُها يوماً من الأيام .. أنت طفل .

وكظم غيظه وقال وكأنه غير مكترث : وأنت ؟

أجابت فى تحد : امرأة . .

وسكتت وفى عينها شرر كأنه الحمم . وسكت هو أيضاً فى ابتسام المطمئن وكأنه ينتظر منها تكملة وقالت فى تهجم : ألا تنطق ؟

– لست أفهم ماذا تقصدين بقولك إنك امرأة .. هل زعمت أنك رجل ؟

وضاقت به ولكنها كظمت غيظها ولاذت إلى غريزتها وقالت كالمستهترة : امرأة . . الحب كل شىء فى حياتها . .

– وأنا رجل . .

– لم أفهمك . . تعنى أن الحب ليس كل شىء فى حياتك .

وتبسم فى رفق وقال : ليس إلى هذا الحد . .

– إذن ماذا تعنى ؟

– أعنى أن نظرتى . إليه تختلف عن نظرتك إليه . .

– ما هو الفرق ؟ . .

– الفرق أنك تريدين الاستيلاء على من تحبينه . الحب عندك غريزة تملك .

– وعندك . . .

– محاولة لإسعاد الغير .

– تعريف جديد . . .

ــ وما هو التعريف القديم ؟

ــ أن يفنى المحب فيمن يحب . .

ــ لم نختلف . . .

ــ بل اختلفنا . . أنت تنظر إلى كدمية جميلة تتلهى بها بعض الوقت ، فإذا سئمتها ركنتها .

ــ هذه هى الحياة .

واستطار الغضب من عينيها وقالت فى إصرار : الحب لا يعرف السأم.

ــ تعنين أن يظل الإنسان فى حالة حب مستمرة . .

ــ هذا هو ما عنيته تماماً . . إننى أكره عملك ، أكره نجاحك . . أكره كل شىء يشغلك عنى .

ضحك فى ابتسام هادئ وقال : تريدننى دمية فى يديك .. مجرد شىء تضعينه فى جيبك وتبحثين عن دمية أخرى .

ــ ماذا تعنى ؟ . أنت رجل متعب .

ــ ومن أجل هذا احتفظت بك حتى الآن . .

وصرخت كالمجنونة : لا بد أن تخضع أنت أيضاً .

قال فى هدوء : كشفت نفسك . . كشفك الغضب . . أنت غانية.

واستثارتها الكلمة وأحست أنها أصبحت فى يده كاللعبة ، هى التى اعتادت أن يكون الرجال فى يدها كاللعبة . وهدأت فجأة . ولجأت مسرعة إلى غريزتها فأنجدتها . . وانهمرت الدموع من عينيها ، ثم تولاها صمت من اليأس .

قالت : أنت قاس . . إننى أحبك . . لم أحب أحداً غيرك مثل هذا الحب .

وأحس أنها تهاوت . . كان على وشك أن يقول لها إنك لا تعرفين الحب . . أنت صائدة رجال ولكن فروسية الرجل الفاهم تغلبت عليه


جميل

فربت على كتفيها فى رفق .

* * *

وجمعت السحر كله فى عينيها ونظرت إليه فى ضعف ونداء . . . وقالت : اعصرنى بين يديك إننى فى حاجة إليك...وتردد . كان يشعر أنها لاتريد الحب ولكن تريد السيطرة ، لا تفهم جمال الحب ولكن تهيم بوحشية التسلط على الرجل . .

وشعرت أن أنوثتها أصابها جرح أليم وهو صامت كالتمثال. وانتفضت واقفة وفى وجهها تصميم عجيب قالت : أكرهك . . أكرهك . . أكرهك .

ولم يغضب بل قال فى برود : كشفت نفسك مرة أخرى . اعترفى أنك لا تحبين إلا نفسك . . الرجال بالنسبة لك مجرد مرايا تشاهدين فيها سحر جمالك وأنوثتك .

صرخت : أنت كاذب . . جبان . . منافق . . لماذا إذن كنت تقول إنك تحبنى . .

– لأننى أحببتك فعلا . .

– ثم . . .

– لا شىء . . ما زلت أحبك .

– أنت كاذب

– بل أنت . . .

* * *

وقذفته بكتاب كان فى يدها ولكنه تحاشى الغضب والكتاب بينما تهاوت جالسة وقد التصقت به وعادت دموعها تنهمر ، وفى هذه المرة كانت تنشج وتتألم من الأعماق . وهدأت قليلا ثم قالت : هل تحبنى حقاً ؟

كان واضحاً أنه أصبح سيد الموقف . . قال : أظن ذلك .

وعادت إليها الثورة ممتزجة بشىء من الذلة تحاول أن تدفعه عن نفسها : تظن . . . قل إنك متأكد . . قل أى شىء . . قل إنك تحبنى إننى فى حاجة إلى رجل قوى . . كل من عرفتهم كانوا دمى صغيرة . . أنت وحدك جعلتنى دمية .

ـ أو كارهة أنت لذلك ؟

ـ لست أعرف ولكننى أشعر بحاجتى إليك . .

كل عام وأنت بخير

قالت : لا تذكرني فى غير العيد ، وكنت تذكرنى صباح مساء .
قال : وأنت أيضاً لا أسمع صوتك فى غير العيد . .
ــ أعاملك كما تعاملنى . . .
ــ لم تكونى هكذا فيما مضى . .
ــ أنت المسئول . . إن حبنا مات .
ــ وهل إذا مات الحب ، يكون هناك أحد مسئول . . وكيف نشأ . . هل كنت أنت المسئولة أم أنا المسئول ؟
وتأملت كأنها تسترجع الذكريات ثم قالت : الأيام تراكمت ، لست أرى شيئاً واضحاً .
ــ حتى البداية لن تبقى لها قداسة الذكريات . .
وقالت وكأنها تعتذر عن النسيان أو كأنها تحاول الهروب : كل عام وأنت بخير .
ــ أرأيت . . مجرد كلمة لا حرارة فيها .
ــ وأين ذهبت الحرارة ؟
ــ لست أعرف إلا أنها ذهبت .
ــ أنت المسئول . . .
ــ رجعنا إلى المسئوليات . . إنما تكون المسئوليات فى مسائل العقل . والحب ليس مسألة عقلية . ينشأ من حيث لا ندرى ويذهب إلى حيث لاندرى . .
ــ يموت ؟ . .
ــ وماذا تسمين ما بيننا الآن . . ؟

وسكتت ثم أحالت عليه السؤال : وماذا تسميه أنت ؟

ــ بقية ضئيلة من حرارة بردت.. وسيأتى يوم أنسى أنا وتنسين أنت حتى التهنئة بالعيد . .

ــ هذا مستحيل ، سأظل أذكرك إلى أن أموت . .

ــ قلت هذا من قبل . . طالما سمعت منك أن حبنا هو الخلود . . . يا سيدتى . . الزمن أقوى منا جميعاً .

ــ هل الزمن هو الذى يقتل الحب أم هو الإهمال ؟ . .

ــ حينما يكون الحب قوياً لا يكون هناك مجال للإهمال . . حتى الإهمال يعجز عنه .

ــ ولكن الإهمال يضعفه . . .

ــ الجسم القوى لا تنتابه الأمراض ، فإذا بدأت الأمراض كان ذلك دليلاً على أن الجسم ضعف .

ــ بسبب المرض . . .

ــ والمرض لا يجىء إلا بسبب ضعف الجسم . . أرأيت أنه دور .. سبب ونتيجة نتيجة وسبب . . ولكن ما الفائدة الآن من هذا الكلام . .

ــ ألا يمكن أن نرجع إليه . . إلى الحب ؟

ــ ما أحسب أننا نستطيع . . إنه نشأ بغير إرادة منا وانتهى بغير إرادة منا ، كيف نستطيع أن نعيده بإرادة وتنظيم ، بخطة من الخطط ... هل هو برنامج اقتصادى للتنمية .

وضحكت وقالت : أنت هكذا تسخر من كل شىء . .

ــ شكراً لك . . . كل عام وأنت بخير .

ــ وأنت بخير . . . لا تنسى . .

ــ فى العيد القادم إن شاء الله .

الغربة عن الناس

قالت له : منذ مدة طويلة لم أحدثك . . هل تذكرني ؟
قال : أذكر الصوت . . .
ــ أنت ذكي . . منذ سنة ونصف السنة لم أتحدث إليك .
ــ إنه ليس الذكاء ، إنه الذاكرة . . ومع ذلك أشعر أنها بدأت تخون ، بدأت تنسى ، وياويل الذى ينسى . .
ــ كلا إن فى الحياه أشياء كثيرة يحسن أن تشطب ، أن تنسى . .
ــ إننى أكره النسيان . كل ما مر فى حياتى أحبه حتى ولو كان مأساة ، ولذلك أكره أن أنسى .
ــ أنا على النقيض منك أحب أن أنسى ، أن أشطب اللوح كله ، وأبدأ من جديد .
ــ ليس فى الدنيا إنسان يبدأ من جديد حتى ولا الطفل . . إنه يولد تكملة لسلسلة طويلة قديمة تصله بأجداده وأجداد أجداده ، تصله بالكون كله ، بالبدايه المجهولة ، إنه استمرار وليس بداية .
ــ هذه فلسفة ، وأنا كما تعرف على قدر حالى . .
ــ أدع الفلسفة فإنها فعلا مزعجة ، تجعل الرؤوس تدور ، وأسأل ما الذى حجبك هذا الوقت الطويل . . ؟
ــ قد لا تصدق . كنت أشعر أننى غريبة عن الناس ، متطفلة ، ثقيلة ، ليس عليك وحدك ولكن على كل الناس ، ألم تحس ذات يوم بمثل هذا الشعور ؟
ــ شعور الغربة عن الناس . . .
ــ ليست الغربة عن الناس وحدهم ولكن عن الدنيا كلها .

ـ تعنين الانفصال التام عن الحياة ، إنه شعور قاتل . .

ـ نعم هو قاتل . لقد عشت فيه فترة طويلة . لست أعرف من أين جاءنى . هذا الانفصال يتطلب أولا نسيان كل شىء عن الماضى وقد نسيته . . .

وسكتت لحظة ثم قالت : هل تراه مبادئ جنون .

أجاب : ليس هكذا . ربما كان رغبة فى الانعزال والتأمل وإعادة النظر فى الحياة وموقفها منك وموقفك منها . .

ـ أنت تعرف قصة خطيبى وقد حدثتك عنها . كنت أنتظر عودته من السفر فى وله وجنون . وكان انقطاع خطاباته ولو فترة قصيرة يكاد يقتلنى . . لقد جاء . . عاد منذ شهور وكنت فى قمة الإحساس بالغربة عن كل شىء وكل إنسان فى الحياة . لقد قطعت كل علاقة لى به وشعرت بالارتياح أن فعلت . شعرت أن قيداً كان يربطنى بالناس قد انقطع .

ـ ولكن كل شىء كان قد تهيأ لإتمام الزواج ، ولم يكن ينقص إلا عودته . .

ـ تماماً ولكنه حينما عاد كنت أنا قد ابتعدت عن الناس والأشياء . كان على استعداد أن يغير دينه من أجلى ، وساءلت نفسى : إن الذى يغير دينه يمكن أن يغير كل شىء فيه . . يمكن أن يصبح إنساناً آخر غير من أعرفه ويصبح غريباً عنى ولن أشعر حينئذ بالاستقرار الذى أنا فى حاجة إليه . إن أعظم شىء تنشده المرأة هو استقرار النفس والإحساس أن الرجل الذى تختاره هو الرجل الذى يمكن أن يحميها ويحفظها وتشعر فى جواره بالأمان . هل تتصور أنى حتى أطلب رقم تليفونك ظللت مترددة فترة طويلة أتساءل لماذا أثقل عليه ولماذا أكلمه وما هى الفائدة من الكلام وزاد إحساسى بأنى غريبة عن الناس والأشياء ولم أجد حلا لهذا الشعور القاتل إلا بالتفكير فى أن أعمل .

قال مقاطعاً : هذا هو العلاج ، إن الفراغ هو القاتل .

وتابعت كلامها : والآن منذ بدأت أعمل استرددت نفسي وشيئاً فشيئاً أخذت أستعيد صلاتي بصديقاتي . بدأت أعود إلى الحياة . هل تتصور أن شعوراً قاسياً يسيطر على ويكاد يوحي إلى بأنني كن كانت على سفر وعادت ؟

— أعتقد أنك ستستردين اهتمامك بالحياة والناس من خلال العمل ، ولكن لماذا كان هذا الانفصال عن الحياة . .

— صدقني لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال ، ربما لأن حياتي كانت قاسية ربما لأن شعور القلق المر والخوف الشديد من الناس ، وهو قلق وخوف قديمان ، قد ارتدا إلى أقسى مما ارتدا في أي وقت من الأوقات . . هل ترى أنني على وشك الجنون .

— كلا لا تخافي شيئاً . إن العمل سيغرقك في دوامته ويحول بينك وبين شطحات الخيال .

وتريثت برهة ثم قالت : أدعك وأعود إلى قوقعتي فأنا لا أشعر بالطمأنينة إلا في داخلها . . .

— إن الطمأنينة هنا ليست الطمأنينة المنشودة ، والأصدق أن تقولي الهروب .

— وما هو الفرق بين الهروب والطمأنينة . . النتيجة واحدة . .

— كلا ، الهروب مصدره الخوف والقوقعة تحميك من الخوف ولكنها لا تزيله . أما الطمأنينة فحالة من الصحة مصدرها الثقة بالنفس والقدرة على المواجهة والاحتمال. والغربة التي أحسست بها ليست إلا قوقعة احتميت بها من الضعف والخوف والقلق .

— سأفكر في هذا الكلام فإنه يستحق فعلا التفكير ، والآن طاب مساؤك .

خالصين ! . .

قالت له: كان هناك عشرون رجلا على استعداد أن يتزوجوني.
سأل : ثم ماذا حدث ؟ . .
ـ خبت ، وقعت فيك ، تزوجتك ففسدت حياتي ، ضاع مستقبلي .
ـ مستقبلك : ماذا كنت تنتظرين أن يكون ؟ . .
ـ خيراً مما هو معك . . .
ـ هل أنت واثقة ؟ . من يدرى لعلك كنت تكونين أسوأ حالا . .
ـ هذا غير ممكن . . أنا جوهرة ، لا يوجد مثلي في كل بنات القاهرة.
ـ كل زوجة تقول هذا .
ـ اسكت . . أنت لا تعرف ماذا تفعل الزوجات .
ـ وأنت . . هل تعرفين ؟
ـ أسمع . .
ـ تسمعين فقط !
واستشاطت غضباً : ماذا تريد أن تقول . . .
ـ لا شيء . . مجرد خاطر
ـ أنت رجل تلدغ كالثعبان . .
ـ وأنت ؟
ـ بريئة ساذجة ، لا أعرف « اللوع »
ـ هذا ظاهر . .
ـ أنت تسخر مني . . ألم أقل إنك تتكلم وكأنك تلدغ . .
ـ أنا أتكلم في براءة مثلك تماماً . .
ـ ومن أين جاءتك البراءة ؟

ـ من نفس المصدر الذى جاءتك منه . .

ـ وأنت تتوصل ؟ . .

ـ سنبدأ فى طولة اللسان . . .

ـ أنت هو طويل اللسان . .

ـ وأنتِ ؟

ـ مؤدبة غاية الأدب .

ـ لا يشكر نفسه إلا إبليس . .

ـ من قال ذلك ؟

ـ إبليس . .

ـ وأنت تتحدث باسمه ! . سمعته ! فيك جزء من إبليس .

ـ وأنت . . لا بد أنك ملاك .. هذا ما تريدين أن تقوليه .. أنت تقولينه دائماً . . .

ـ وهل تشك فى هذا ؟

ـ الملاك لا يتحدث كما تتحدثين . . أنت فيك جزء من إبليس .

ـ خير منك على كل حال ، أنت إبليس نفسه . .

ـ الرجل مثل المرأة مرتين ، لا ضرر فى هذا . .

ـ تعرف كيف تتلاعب بالألفاظ . . يظهر أن إبليس دمه خفيف .

ـ والملاك دمه ثقيل . .

ـ رجعت لطولة اللسان . . .

ـ هل تعتقدين أنك ملاك . . مسكينة . .

ـ مسكينة لماذا ؟ . .

ـ وهم يسيطر عليك . . لا يوجد ملاك فى هذه الدنيا . .

ـ أنا الملاك . .

ـ لا أحب أن أعيش مع الملائكة . . لا أستطيع ! .

ـ أنت لا تستحقني . .

ـ وأنت أيضاً لا تستحقينني . . خالصين . .

الطريق والغابة

قالت لصاحبتها : إنى أتعجل الأيام ، مرورها السريع يسعدنى ، وإبطاؤها يزهق الأنفاس . .

ودهشت صاحبتها وهى تقول : أما أنا فعلى النقيض أكره مرور الأيام . . ليتها تتوقف .

— عندك ما تسعدين به وما تتمنينه . . إن الحياة لا قيمة لها من غير هدف .

— ليس لى هدف إلا أن أعيش ، أن أستنشق عمرى كله قطرة قطرة . . لا أتعجل شيئاً . . أكره الآلة السريعة ، وتشجينى الحركة البطيئة .

— تحبين أيامك وعمرك ؟ . .

— أعبدهما . . أكره أن يمر يوم من غير متعة للعقل أو الفكر أو الجسد .

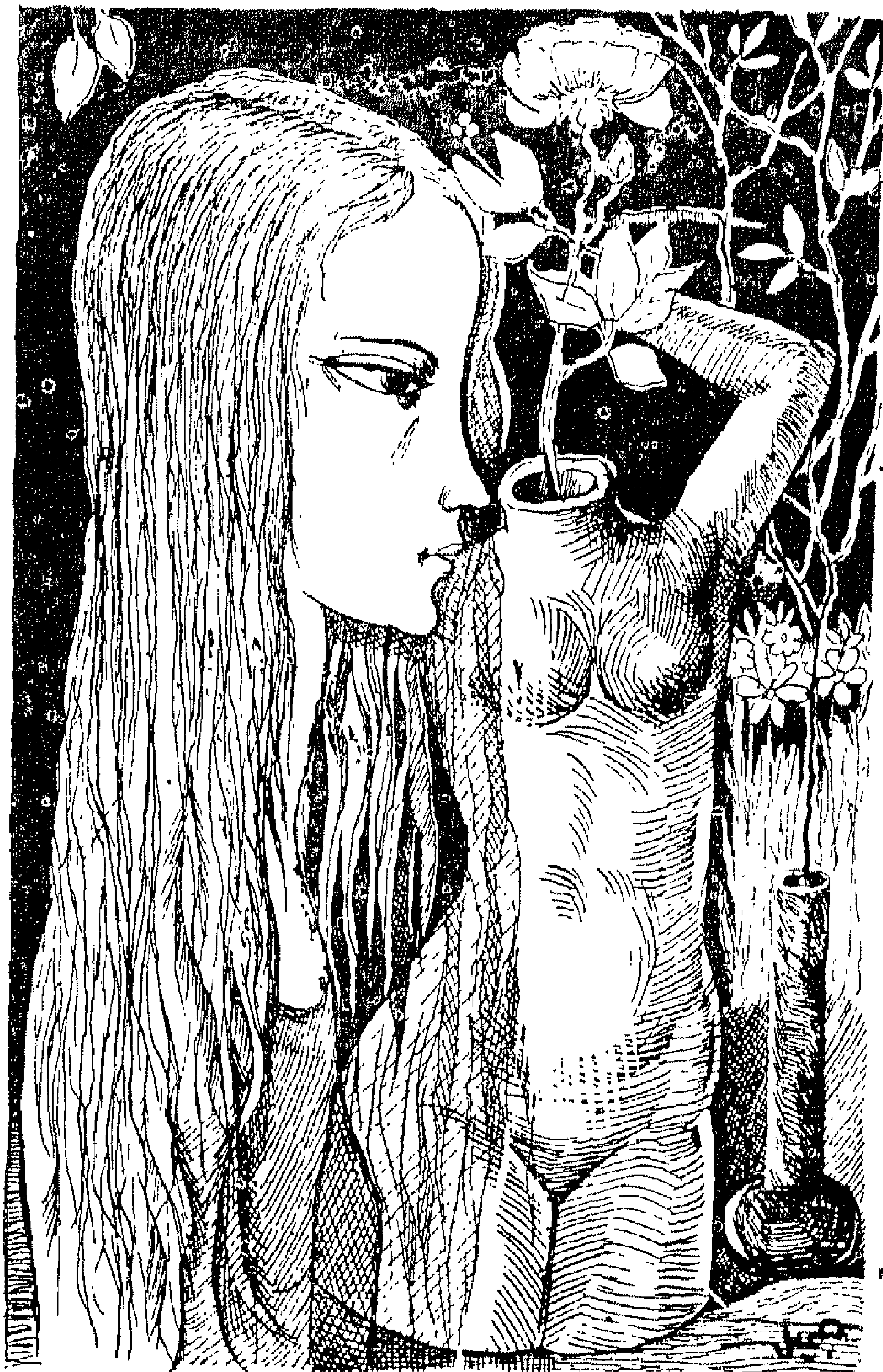
— وأيهما أكثر عندك متعة الجسد أو متعة الفكر ؟

— كلاهما ضرورى ، نحن من غير الفكر حيوانات ، ومن غير الجسد مخلوقات شاذة . .

— أما أنا فأكره الجسد . . هل تتصورين أننى تمنيت لو كنت روحاً محضاً من غير هذا الوعاء .

— تعنين الجسد ؟

— هذا هو ما أعنيه . . إننى أكرهه . . أنا جميلة ، كل من يحبنى أحس أنه يحبنى لجسدى الذى كرهته . . تمنيت من يحبنى لروحى . . روحى وحدها . .



قالت صاحبتها : لنفرض الروح كالزهرة .. أفليس مما يزيدها جمالا أن توضع فى إناء دقيق الصنع ، يمنحها الماء الذى يحييها . الزهرة من غير إناء تموت ، والإناء من غير الزهرة أصم لا جمال فيه .

ــ بعض الناس يعنيه الإناء ، ويغمض بصره عن الزهرة . .

ــ وبعض الناس يحب الزهرة والإناء . . وهذا هو الإنسان السوى ..

ــ ولكن الجسد يشيخ . . والإناء يتشقق وينكسر . .

ــ والزهرة أيضاً تشيخ . .

ــ كلا . . الروح لا تشيخ.

ــ هذه أوهام يا صاحبتى . . الناموس واحد ، بداية ونهاية لكل شىء . . .

ــ وماذا بين البداية والنهاية ؟ لا شىء . . إذا كان لا بد من النهاية فلماذا البداية ؟ . . ومن أجل هذا أتعجل الأيام ، أتعجل النهاية ، لأنها الختام للمأساة . .

ــ تعنين الحياة . . . هل تنظرين إليها كأنها مأساة ؟

ــ أنت ماذا ترين فيها ؟

ــ جمالا أحب أن يبقى ، وإشراقاً أرجو ألا يغيب . .

ــ ولكنه يغيب حتما . . .

ــ ومن هنا أتعلق به . . .

ــ تتعلقين بشىء تعرفين حتما أنه زائل !

ــ لا يعنينى المستقبل ، أنا أعيش الحاضر فقط . . أحبه أو أكرهه على حد سواء ، ولكننى أعيشه فى كل الأحوال ، أستنشقه بملء رئتى ..

ــ الحب مثلا ، ألا يتغير ؟ ألا يموت ؟ وما قيمة شىء يتغير ومن المحتم أن يموت ؟

ــ إنه يتغير أو يموت فى المستقبل ولكنه فى الحاضر كائن حى ،

وأنا كما قلت لك أعيش الحاضر ، لأنني لا أملك غيرة . .

وطافت على وجه الفتاة سحابة من الحزن وقالت : ولكنني على النقيض منك لا أنظر إلى الحاضر مستقلا عن المستقبل . النظرة إلى المستقبل تلون الحاضر أمام عيني . إنني تعسة . . ومن أجل ذلك أتعجل الأيام أريد النهاية ، الموت . . .

ــ وما قبله . . لماذا لا تستمتعين به ؟

ــ لأن شبحه . . . شبح النهاية يجثم عليه . . .

ــ ولكنه فى الحاضر ليس موجوداً . . لماذا تفكرين فى شيء غير موجود وتتجاهلين الكائن الموجود .

ــ لأن الوجود والعدم مقترنان ، الطرفان ظاهران أمامى ، البداية والنهاية . ولا يمكن أن أفصل بينهما وهما كل متصل . . هل للحاضر كيان منفصل عن المستقبل ؟ . . هل للنبات المزدهر كيان منفصل عن الغاية التى يسير إليها وهى الذبول أو الحصاد ؟ . .

ــ نعم له كيان مستقل . . الشباب له لمساته وأفكاره وانتفاضاته التى تختلف تماماً عن الكهولة والشيخوخة . . الحياة لها مقوماتها الخاصة بها والمختلفة تماماً عن الموت . . .

ــ ولكن الحياة طريق إلى الموت . والحاضر طريق إلى المستقبل ، كيف تريدين منى أن أسير فى الطريق دون أن أفكر فى الغاية . . الحب مثلا شيء جميل ، وقد أحببت بكل ما فى قلبى وكيانى ، ثم كففت نفسى عنه لأننى أحسست أنه وهم ، سراب . .

ــ هل خانك من أحببته ؟

ــ لم أثق فيه . . تعذبت لاعتقادى أن كل شيء له نهاية وأن بقاء أى شيء على حاله مستحيل ، والعاطفة داخلة فى هذا الناموس ليس أمامى فى الحياة يقين وما يبدو كذلك يظلله الشك وتقتله النهاية المحتومة . .

ـ ولماذا لم تسعدى نفسك بالجزء المستيقن منه ؟
ـ اليقين لا يتجزأ ، والحب الذى أعتقد أنه سيحول يوماً لا يمكن أن يصبح يقيناً فى يوم من الأيام . . .
وهزت صاحبتها رأسها وقالت : الشمس عند المشرق مثلا ، أليست جميلة صاعدة . . ألا ترين فيها معانى يمكن أن تسعدك إلى أن تبلغ الغروب . . . أليست يقيناً واضحاً . . هل يفسده أنها ستغرب ؟
وسكتت الفتاة قليلا ، وأشرق فى نفسها الأمل ، ولكنها قالت : إننى أكره النهايات ؟
ـ تريدين الخلود إذن ؟
ـ لست أدرى ماذا أريد . . الخلود نفسه لو منحته سيكون ثقيلا لا يطاق .
ـ يا صاحبتى تعلمى أن تحبى الحياة كما هى ، إنها طريق لا بداية ونهاية . . . هذا صحيح ، ولكن الطريق نفسه هو المتعة ، بكل ما فيه من مشقة وهناء . من تعثر وانطلاق . . لا تسأليني عن الغاية . . اسأليني عن الطريق . . الحياة طريق والموت نهاية ، الحب طريق والتحول نهاية . . الصباح المشرق طريق ، والغروب الأسيف نهاية . . الطريق أملكه وهو الحاضر ، والنهاية لا أملكها وهى المستقبل . . لماذا أدع ما أملكه إلى لا ما أملكه . .

صفقة زواج

قالت له : تعيش هكذا ممزقاً ، حاولت أن أجمعك إلى بعضك ففشلت . .

قال : لأنك لا تحبينني . . إن الحب قادر على المعجزات . .

نظرت إليه بعين نصف مفتوحة وقالت كأنها تسخر : حسبت أنك الأقوى .

قال فى تصميم : وأنا الأقوى فعلا . . أنت أمامى ضئيلة .

وصرخت : أنا . . أنت الممزق وكأنك جملة من الناس .

سأل فى سكون الواثق : وهل التمزيق دليل الضعف أم دليل القوة .

ـ لا تسألنى ، بل اسأل الناس . . .

ـ أنا لا أسأل الناس ، لأننى أعرفهم بنفسى . . فقط أردت أن أجرب تأثيرك فى . .

ـ كنت تمثل ؟

ـ وماذا يمنع ؟

ـ تكذب ؟

ـ هذا ليس كذباً . . إنه نوع من الاختبار . أردت أن أعرف المرأة التى كنت أنوى اتخاذها شريكة لى . .

ـ كنت . . إذن عدلت . .

ـ أفكر هذا .

ـ هكذا تقول بكل جرأة . .

ـ ولماذا لا أقول؟ كانت الفترة الماضية اختبارا . . أنت تعرفين هذا .

ـ ولكننى لم أحاول أن أختبرك .

ـ يكفى أننى فعلت . . .

ـ أنت أنانى . . .

ـ كنت أكون لو لم أفعل هذا . تصورى لو كنا تزوجنا . . الكارثة ستقع عليك قبلى .

ـ ولكننى أحبك . .

قال وهو ينظر بعين فيها شعاع فاحص : هل أنت متأكدة ؟

أصرت فى تحد : كل التأكيد . . .

سأل فى شبه سخرية : لماذا ضقت بما سميته الشخصية الممزقة . .

ـ لأننى لا أحبها . .

ـ حتى ولو كان صاحبها هو الرجل الذى تحبينه .

ـ أحببت فيه الشخصية المتكاملة .

ـ أنت لا تحبينه إذن ، تحبين شيئاً معيناً فى شخصه . .

ـ أليس هذا هو الحب ؟

قال فى هدوء : كلا ، هذا ليس حباً . الحب شىء آخر ، ينشأ بين شخصين وليس بين شيئين فى شخصين . . الذى يحب الجمال فى فتاته ، والتى تحب الاتزان فى فتاها ، كل منهما لا يحب الآخر . الفتاة تحب الاتزان فى الرجل والفتى يحب الجمال فى المرأة .

ـ وأنت ألم تكن تحبنى . . ألم تقل هذا أكثر من مرة . . لماذا إذن لا تريد أن تتزوجنى . . أنا أجادلك بدعواك . . فرقت بين حب الأشخاص وحب الأشياء . . كنت تحب شخصى أليس كذلك .

ـ بالتأكيد . . .

ـ حسن والآن . .

ـ ما زلت أحبك ، وسأظل أحبك . .

ـ ومع ذلك لا تريد أن تتزوجني .

ـ هذا صحيح . . الزواج يتطلب حب أشياء قبل أن يكون حب أشخاص . في الزواج كل من الفتى والفتاة يتطلب أشياء . . .

قالت في حنق وسخرية : أشياء لا أشخاص . . يا لفيلسوف آخر الزمان !

ـ قولي ما تشائين . . لا تغضبي ، أنصتي في هدوء . لو اتفق حب الأشخاص مع حب الأشياء الضرورية للزواج ، تمت أعظم رابطة مقدسة في الوجود .. أما إذا كان الخيار بين الحب الشخصي والحب الشيئي في الزواج فإن الأخير أقرب أن يبلغ به النجاح .

ـ أنت لاتشترط الحب للزواج إذن .

ـ أشترط توافر أشياء محبوبة من كلا الطرفين . . الزواج ليس حباً خالصاً . . إنه عمر طويل فيه احتكاك وممارسة وأزمات وأمراض . . طريقه ليس ورود الحب وحدها .

ـ ولكن الحب يذلل العقبات . .

ـ حسن ، إني أوافقك على هذا النظر ولكن هل تسمحين لي أن أطبقه على ما كان بيني وبينك . . لماذا لم يذلل حبك العقبات . . لماذا ضقت بي حينما خيل إليك أن شخصيتي منقسمة أو أنني متناقض . .

وردت في غير اهتمام : ولماذا لم يذلل حبك العقبات . . لماذا ضقت بي لما رأيتني أضيق بك . .

ـ أرأيت ؟ إن مثل هذه المجادلات تقتل الزواج ، ولا أريد أن أدخل بالزواج في تيه من هذه المجالادت . .

ـ وأين الحب ؟

ـ الحب شيء قائم بذاته ، له حياته الخاصة ، جزء منه يكفي في الزواج ، أما كله فلا يحتمله الزواج . .

ـ أنت تتحدث عن صفقة ولا تتحدث عن زواج .
ـ وهل الزواج إلا صفقة ؟ . .
وتولّتها دهشة مفزعة وقالت متسائلة : صفقة ؟ . .
ـ ولماذا تنزعجين . . ألا تسمعين أن هناك زواجاً ناجحاً وزواجاً فاشلا . . إنه صفقة .
ـ ولكن الصفقة لا تكون إلا فى التجارة .
ـ هذا تفسير ضيق . . الصفقة موجودة فى كل شىء . . وحياتنا نفسها ليست إلا صفقة خاسرة أو كاسبة .
ونهضت كالأسد المثخن بالجراح وقالت وهى منصرفة : أنت لا تصلح للزواج . . أنا الذى أرفضك . . هذا هو خاتمك .
وقذفت به فى وجهه ، بينما ظل ساكناً لا يتحرك .

أمومة إذن

قالت له : هل تعرف مدى ما أعطيتنى من سعادة . إنك لا تتصور هذا ولن تستطيعه إلاإذا عرفت طبيعة المرأة .

قال : بل أعرفه ، منحتك الطمأنينة وهناء القلب .

ـ كلا . . . شيئاً آخر أعظم .

ـ أعطيتك خاطرى وفكرى . .

ـ كلا ، شيئاً آخر أعظم . . أنضجت عواطفى ، خلصتنى من الأنانية .

ـ تعنين أنك الآن لا تشعرين بالأنانية . . .

ـ بالنسبة لك ، لا أشعر . . .

ـ تشعرين بها بالنسبة للآخرين . .

ـ ليس عندى آخرون . . . أنت لا تفهم . .

ـ غبى ، كما تعرفين . . .

ـ كلا، لست غبياً ولكنك لا تعرف المرأة .. هل تتصورأن شعورى لك يختلط فيه شعور الأم نحو ابنها . .

ـ أمومة إذن . . .

ـ نعم فى بعض صورها . . أنا لا أنتظر منك أن يستغرقك الشعور مثلى وأغفر لك هذا ، أغفره بشعور الأم .. إننى أشعر أننى أكبر من سنى بكثير . أحياناً حينما تضع رأسك على صدرى أحس بطمأنينة الأم حينما يعود ابنها . . هل فهمت؟

ـ حتى الآن لم أفهم تماماً .

ــ الأم حينما يتركها ابنها ألا تنتظر عودته ؟ قد يتنكر لها ، قد لا يفكر فيها مثلما تفكر فيه ، قد لا يكون مستعداً للتضحية فى سبيلها كما هى مستعدة دائماً للتضحية فى سبيله . . هل يؤثر هذا أو ذاك على شعورها نحوه وحبها له . كلا . هذا هو أنا . . قد لا تفكر فىّ مثلما أفكر فيك ، قد يكون شعورك أقل ، قد تنسانى فى بعض الأوقات وربما فى كل الأوقات ، ولكننى لا أنساك أبداً ولا أعتب عليك أنك تنسانى .. أليس هذا شعور الأم . . لا تنزعج ولا تتعجب . . قلت لك إنك أنضجت عواطفى وخلصتها من شعور الأنانية . فيما مضى حينما بدأت أعرفك طغى شعور الأنانية على كل شىء . كنت أريد امتلاكك وقد ضايقتك كثيراً . . كلا لم أضايقك ، بل تعذبت وحدى . كنت أبكى وأنت بعيد . . أو غائب ، كنت أبكى لمجرد الشعور أنك قد لا تحمل لى مثل العاطفة التى أحملها لك . كنت أنانية ، أعد عليك الأنفاس والخطوات .

ــ أنت مخطئة . كان شعورى لك دائماً قوياً وعميقاً مثل شعورك وربما أقوى وأعمق .

ــ لا تحاول أن تقنعنى بشىء . أنا أتحدث الآن عن نفسى من داخلى . أنا أقول الحقيقة . لقد حاولت دائماً أن تكون لطيفاً . لم تحاول أن تجرحنى فى شعورى ، أنا أعرفك ، أنت إنسان رقيق .

ــ ولكن . . .

ــ أرجوك . . . دعنى أكشف لك كل شىء . أنت لم تحبنى . وكان هذا يضايقنى ، بل يعذبنى . . أما الآن فقد نضجت عواطفى ، سما حبى على الأنانية وبلغ أفقاً وسيعاً رفيعاً . يكفى أن تكون معى حتى أشعر بسعادة لا مثيل لها . ومن أجل ذلك قلت إنك لا تتصور مدى ما تمنحنى من السعادة ، وأنا عارفة أننى لا أعطيك مثلها .

ـ كلا ، بل تعطينى أكثر منها . . .

ـ قلت إنك لا تعرف مدى السعادة التى تعطينى إياها فكيف تقول إننى أعطيك أكثر منها . أنت تنقلنى من هذا الوجود كله . هل تتصور هذا ولكنه الواقع . الأم حينما تحتضن ابنها بماذا تشعر ؟ وهل تفكر حينئذ فيما إذا كان هذا الابن يحبها كفاء ما تحبه أم أقل ؟ إنها لا تفكر فى هذا . كل ما يعنيها أنها قريرة هانئة أنه معها بين أحضانها . . كل ما يعنيها أن يكون سعيداً فى حياته بها أو بغيرها ، فى بيتها أو فى بيت آخر .

ـ هذا تصوير يغض عن عواطفى نحوك . . .

ـ كلا إنه لا يغض من شىء ، إنه يرتفع عن كل شىء سأظل أحبك إذا كنت معى أو بعيداً عنى ، إذا كنت لى أو لم تكن ، إذا فكرت فى أو لم تفكر . . إذا جئت لترانى أو لم تجئ . كل الذى أنا واثقة منه أننى سأكون طوعك إذا أردتنى .

* * *

و بدت عليه الدهشة وحاول أن يعترض فقالت له : سكوناً يا طفلى إن أمك فى سعادة لا حد لها . لقد نضجت عواطفها ، لم تعد تحبك حباً مجنوناً أنانياً ، ، بل أصبح حباً عميقاً اختلط بكيانها كله . إنها تشعر أنك فى داخلها . . إنها تصلى من أجلك وتخاطب الله فى شأنك . . هو وحده الذى يعرف سرها ونجواها .

دع الصحائف بيضاء

قالت له : اسمح لى أن أقص عليك قصتى . عشت حياتى موفقة ، كأن الحظ يسير فى ركابى . لم أجرب فترة المراهقة ، فقد تزوجت من طبيب وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى . كنت كالخوخة الطازجة ، جمالى هادئ ، أما قوامى فيدير الرؤوس . كنت أبدو لحسن صحتى أكبر من عمرى . آمنت أن الحب يأتى بعد الزواج . . عشت بعيداً عن زحام القاهرة فى أحد مراكز مديرية البحيرة . عشقت الطبيعة والهدوء وعشت سعيدة حتى مات زوجى فتفرغت لتربية أولادى ، وكانوا هم أحبائى وكل ما لى فى هذه الدنيا . كنت لا أعرف إلا اسمى وأنوثتى العواطف . كانت عندى ينبوعاً لا ينضب ، لم يلقنها لى أحد ، بل كانت راسخة فى أعماقى .

أنا جاوزت الأربعين متدينة أؤدى فروض الله جميعاً . حججت إلى بيته الحرام منذ سنوات . وكم سألته أن يجنبنى الزلل وشغلت نفسى بأولادى ونجحت كأم كما نجحت من قبل كزوجة .

كنا نجتمع نحن أفراد الأسرة فتداعبنى كل من أخواتى قائلة اجلسى إلى جوارى لكى يعود شبابى . أما الصديقات فيقلن إن جمالى طبيعى بدون أصباغ فهو هبة الخالق عز وجل .

أتى الشيطان فى زى أحد أقاربى وحاطنى بعنايته طول السهرة وهمس قائلا : « اخرجى من القوقعة . لقد أديت واجبك نحو أولادك وبقى واجبك نحو نفسك . . تمتعى بالحياة » .

وارتعت . . .

وبعد أيام دق جرس التليفون وكان هو . . كان يسأل : هل من

خدمة ، أنا تحت أمرك . وانسابت الكلمات هامسة .. أنت تظلمين نفسك ليس لنا خيار فى الحب . إنه كالإعصار . لقد أحببتك وتمنيتك منذ الطفولة .

وأصبحت فى صراع مر . حرت فى أمرى ، أنا التى صنت نفسى تديناً وخوفاً من التقاليد . مشيت على الصراط وأنكرت الحب والعاطفة طول حياتى وشاء الله أن يعوضنى بأولادى وآمنت بأن الحرمان له ثمن . وطلبنى مرات وتعددت المحاولات ، وتصادف ذات مرة أن كانت عندى إحدى صديقاتى وعرض علينا أن نصحبه فى نزهة فاستنكرت الأمر وقلت له : هذا من المحظورات ، دع الصحائف بيضاء .

قال : يا ابنة الخال كنت أظن أن كل النساء مدن مفتوحة ولكنى عرفت أنه يوجد صنف كالقلعة المنيعة لا ينال إلا على يد المأذون — ما رأيك فى الزواج . . أنا تعب فى حياتى وأنشد الصدر الحنون . . أنا أعلم يا صديقتى أنك عفيفة ، تقية ، اسمى وثروتى تحت قدميك .

فقلت ساخرة : أنا متزوجة من الصيدلى والمحامى (أقصد أولادى) .

قال : من نكد الدنيا أنه لم تفهمنى امرأة سواك . تعرفين الكلمة قبل أن ينطق بها لسانى ، وإنا لمتشابهان فى الميول والطباع . سيحاسبك الله لأن فى مقدورك إسعاد إنسان فى أشد الحاجة إليك فلا تغلقى باب الأمل فى وجهى .

واشتد الصراع وإذا بى أرى نفسى شخصين : شخصاً عاقلا وإلى جانبه حيوان ثائر ، الزواج ، الدين يقره ولكن هناك العرف والأسرة العريقة التى وضعتنى فى القمة من حيث العقل والاتزان . . لجأت إلى صديقتى أسألها المشورة .

قالت : كفاك تضييعاً للفرص ، إنه يشغل منصباً كبيراً فهو مثال الرجولة الكاملة .

قلت : لا يمكن أن يكون.

ودخل ابنى ورأيت فيه سمات أبيه ، قامته وهيبته . . كان يستعد للسفر إلى إنجلترا لكى يتم دراسته فعانقته وقبلته أكثر من كل يوم وإذا بشقيقه الطالب بالكلية الحربية يقبل رأسى قائلا أعطنى نقوداً فقد نفد مصروفى . وأعطيته عن طيب خاطر فتهلل قائلا أنت أحسن أم فى الدنيا .

وعندما أتى المساء جلست فى الشرفة المطلة على النيل . وكان القمر يلقى ضوءاً عليه كأنه الزئبق الرجراج واستعذت بالله من ضلالى وشعرت بسكينة عجيبة بعد أن اتخذت قرارى وانتصرت الأمومة « وابتهلت إلى الله : احفظنى يا رب ، فأنا ضعيفة من تراب ».

الحقيقة المؤلمة

قالت له : لماذا تريد أن تشدنى من الجانب الروحى وتصل بى إلى الجانب المادى . إن الحب المعبر حب مجرد لا غرض له . . لا ينبغى أن تدخل فيه المادة . . الجسم مادة . . الحب وحده يؤدى إلى السعادة فلماذا تفسده بالجسد ؟

كنت سعيدة أمس لأننى أفكر فيك ، لأننى أحبك . لأنك بعيد عنى . عند ما أتكلم بينى وبين نفسى أجد مادة للحديث تدوم ساعات وساعات . لكننى حين أتكلم معك أشعر كأن المادة دخلت بينى وبينك . إننى أحب الموت . . هل تعرف لماذا ؟ لأنه سيحرمنى من الجسد فتنطلق روحى لكى تحقق كل ما أحلم به معك. كنت أنظر إلى السماء فى الليلة الماضية وأعجبنى نجمان فى السماء متجاوران . تمنيت لو كنت أنا وأنت هذين النجمين . إنهما لن يفترقا . تمنيت مثلا لو كنا طائرين . . . ولكننى أحياناً أشعر كأن المادة تدخل فى حبى . . إننى أتمنى مثلا إذا جلست إلى جانبك أن أمسك يدك . إن هذا العمل مادى فلماذا أحبه إذن ؟ ولكن تفسيره عندى أنه رمز على أننى لا أريد أن أفترق عنك . . إنه معنى روحى أيضاً .

ومهما يكن الكلام . فإننى أشعر أنه لا يعبر عن إحساسى نحوك . لابد أن يكون هناك أداة أخرى للتعبير . والموسيقى نفسها تعجز . إن ما فى نفسى عجيب . . عجيب إلى حد أننى لا أستطيع أن أصفه . إننى أحسه . ومن هنا كان تفكيرى فيك ، وأنا وحدى أقوى ألف مرة مما هو وأنا أتكلم أو أنصت إليك أو للموسيقى .

ولولا أننى محكومة بالتقاليد لهويت بقوة إلى الحياة الحرة ، أعيش مع الإنسان الذى أحبه . إن العاطفة عندى يجب أن تكون مجردة من المنفعة ، والزواج منفعة . أى إرضاء جسدى أو غير جسدى هو منفعة . هل عرفت نوع الحب الذى أشعر به . إننى بدأت أكره جسدى لأننى أشعر أحياناً أنه موجود وأن له رغبات تمنيت لو أتخلص منها . . إنه الحقيقة المؤلمة فى حياتى .. وأنا أضغطه وأكبته وأحاول أن أسمو به وأنجح أحياناً وحينئذ أكون أسعد إنسان بالحب وأحياناً ينتصر وحينئذ أكون أشقى إنسان لأننى أشعر أننى خنت الحب . .

النار المقدسة

قالت: إن الشك يساورها فى حب الرجل الذى تحبه. تحس وهى فى أوج سعادتها وهو يبادلها عاطفة من أعمق العواطف، بدبيب من الشك قاتل، يجعلها تفزع. فيختلط فى نفسها ضوء السعادة الغامر بهذه الغول التى تؤرقها أتراه يخدعها؟ أتراه يعطف عليها؟ أترى ما فى قلبه حنين إنسان أم حب رجل؟ إن فكرة العطف عليها تقتلها.

وأرقت ليلتها تسأل وتبحث وتراجع وتحلل كل كلمة قالها وقالتها. وكل حركة صدرت عنه وعنها. ما تفسيرها؟ عطف.. حب.. خداع.. عبث؟

وأوشك الفجر أن يطلع. ومع خيوطه الرقيقة أشرق على نفسها فيض من السكون، وآوت إلى خياله، كأنها تستغفره مما أساءت وأسلفت.

ولكن الشك يعود، حتى أصبح رفيق حياتها، رفيق هنائها..! أتراه عنصراً لازماً للحب، بل أتراه عنصراً لازماً للحياة؟ وحاولت أن تبدده وتسكن إلى طمأنينة دائمة ولكنها لم تنجح. وظلت طمأنينتها ومضات بين موج من الشك، ولمحات فى خاطر معذب.

* * *

وإنا لنحاول أن نعد فى الحياة ما لا يمكن أن يكون من طبيعة الحياة، ونحاول أن نجعل فى الحب ما لا يمكن أن يكون من طبيعة الحب.

الطمأنينة الدائمة فى الحياة معناها أن عنصر الحركة فيها قد انتهى، وهو لن يكون إلا بالموت. وما دمنا نحس بالحياة ونعيشها كما ينبغى أن نعيش فى الحياة فإن الشك يجب أن يكون معها، لكى يثيرنا ويزعجنا

ويدفعنا إلى السعي والحركة ابتغاء اليقين والطأنينة . وهذا هو جوهر الحياة . أن نسعى ، أن نهدف ، أن نأمل .

ولو اطمأن الإنسان إلى مستقبله ، ولم يساوره الشك فيه ، لفقد العنصر الأول الذى يجعل الحياة ذات طعم .

ولو اطمأن إلى عمله وتفوقه فيه ، ولم يساوره الشك فى تقديره لأصابه الركود والجمود ولم يتقدم .

ولو اطمأن إلى أن صحته ستدوم ، ما أحس بلذة استبقائها ، وما جعله الشك يحس بهذه اللذة .

والأمر كذلك فى الحب . فيوم يطمئن الإنسان إلى أنه حقيقة قائمة لا سبيل إلى الشك فيها فقد بدأ يفقد الحرص عليه ، واللهفة من أجله .

ولعل ما تقوله الأغانى من أن « الشك يحيي الغرام» أصدق تعبير موجز عن هذا الذى أريد أن قوله . إن الطمأنينة فى الحب معناها أنه بدأ يذوى ويضمحل ويتدهور لكى يبلغ نهايته . .

والذي يحب يجب أن يطمئن إلى الشك ويجفل من الاطمئنان المطلق ، فالشك مظهر الحرص ، وقد يكون من خيالات لا حقيقة لها ، ولكن تغذيه عاطفة من طبيعتها ألا تهدأ . . فهى دائمة القلق والخوف والشك ، دائمة الإنعام على صاحبها بفترات من الطمأنينة تمنحه أجمل ما فى الحياة من صبر ورضاء وهناء . ولا سبيل إلى هذه الفترات ما لم ندفع ثمنها شكاً وقلقاً وخوفاً .

وانظر إلى الإنسان فى نهاية عمره : إن فلسفة الطمأنينة تبزغ على نفسه ، ولا يصبح شيء مما يسعى له الناس يستهويه ، لا الحب ، ولا المال ولا الشهرة ولا المجد ولا السعى لبلوغ أهداف جديدة ، ولا القلق

ولا الخوف . . إنها مرحلة التخلى عن الحياة استعداداً لطمأنينة الموت .

إن العاطفة الحية الملتهبة يسرى فيها الشك كالنار المقدسة التى تطهرها وتزيدها توهجاً ، فإذا فقدت الشك وبزغت عليها الطمأنينة فقد بدأت تخبو وآذنت بالمغيب . . .

الحافة والهاوية

كتبت إليه تقول : ذدت نفسي عنك خمس سنوات كاملة ، كنت على الحافة فارتددت إلى الوراء خوف السقوط ، لا تقل إنى نسيتك ، فإن النسيان لا وجود له فى الحياة ، وما يسميه الناس نسياناً ليس إلا سقوط الشيء فى هوة بعيدة عن الذاكرة الواعية ، إن المادة لا تفنى ، وكذلك الأصوات والذكريات والحوادث ، ولو نشط العلم أكثر قليلا لكشف عن كل شيء وقع فى هذه الدنيا منذ كانت للدنيا . . هذا الجو المحيط بنا ، هذا الأثير الملفوف حول العالم ، كم فيه من أصوات وأحاديث وخطب ومؤامرات وأكاذيب وحقائق . . . إنها لم تذهب وإن كان أبطالها قد ذهبوا .

ولكن ما لى أتفلسف . . أردت أن أقول لك إننى لم أنس شيئاً عبر سنوات خمس . لم تصبح فى قلبى اللهفة التى كانت فيه ، ولم يصبح فى خاطرى الخيال الذى كان يملأه ، ولكن بقى فى قلبى وخاطرى أنى عشت منذ خمس سنوات حياة مليئة خصبة بالدموع والضحكات .. أنا الآن لا أضحك ولا أبكى ، تزوجت ، أحب زوجى لأنه يحبنى ، أرأيت كيف يحكمنا الواقع ، وكيف تتسرب الأحلام عبر الأيام ، فإذا هى سراب ؟

حاذرت أن أخطئ قبل أن أتزوج ، وها أنذا الآن أكثر حذراً من الخطيئة وقد قتلتها خمس سنوات كاملة ... لماذا تحركت وحملتنى على أن أكتب لك ؟ . . لا أعرف ولكن الذى أعرفه حتماً أننى لن أراك ولن أكتب لك مرة أخرى . . إننى أدين نفسى وأحاسبها بمقاييس دقيقة ، حتى

خواطرى لم تصبح ملكى . . حتى خلجات قلبى ، حتى نظراتى وهمساتى .

إن الحب ليس هو كل شيء ، إن فى الحياة أشياء أخرى رائعة وجميلة ، إننى سعيدة ، والحب يمكن تربيته وتنشئته ويمكن الاعتياد عليه ، وقد دربت نفسى على أن أحب زوجى ، وأعتقد أننى أحببته ، إننى لا أشعر باللهفة القديمة ، ولكننى أشعر بجمال الصحبة وألفة السير فى طريق واحد إلى مصير واحد ، ستقول إننى حنثت بعهودى ، وقد يكون هذا صحيحاً عند النظر السريع ، ولكن تأمل معنى الحياة ، إن الحب ليس شعوراً خالداً ، وهو على كل حال ليس شعوراً مقطوع الصلة بواقع الحياة التى يعيشها الإنسان .

وقد تغيرت تغيراً كبيراً بعد أن تزوجت ، لم أعد تلك الفتاة الخيالية الوردية الأحلام . تمنيت لو بقيت كما كنت ، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ، والحياة نفسها قد حولت كل شيء وأحاطته بإطار جديد . . طفل ، لا . . بل طفلان . . أنت لم تتزوج بعد ، ولذلك يكون من العبث أن أحدثك عما هو الطفل حينما يجيء ... أرجوك أن تتزوج وأرجو أن يكون لك طفل ، سترى أن كل شيء قد تغير أمامك . . . إن الأيام حينما تمر قريبة الشبه بالأيام التى صنعت الذكريات ، لا تمحوها بل تزيدها عمقاً ، ولكنها حينما تمر متغيرة فى الزمان والمكان والظروف تصبح كأنها أكوام تتراكم لتخفى الوجه القديم .

لا تنزعج يا صاحبى . . ليست هذه فلسفة امرأة متزوجة تريد أن تذود عن نفسها الحنين إلى ذكريات عزيزة ، ولكنها تجربة أذكر لك الآن نتائجها . . لا أحد يقتنع بالكلام ، ولكن كل إنسان يقتنع بالتجربة .

ولا أنكر أنني أشعر لك بالحنين ، ولكن هل الحنين هو الحب . . إنني أحب عمرى قبل أن أتزوج ، كما أحب أيامى التى أعيشها الآن ، لكل مرحلة سحرها ، ولو خيرت بينهما ، لاخترت أن أعيش كليهما ، أنت لا تزال تعيش فى المرحلة الأولى ، ولذلك ستنكر كلامى الآن ، ستقول إنها امرأة شاخ قلبها أو امرأة كفرت بالحب ، كلا ، لم أكفر به . . إنه لا يزال حتى اليوم غذائى ، ولكنه تحول إلى شىء فى دمى يمنحنى البهجة حينما أكتئب ، ويمنحنى القوة حينما أضعف ، لا يعنينى ما إذا كنت تحبنى الآن أم لا ، لأننى لا أعيش الحب معك الآن ، ولكن أعيشه حينما كانت اللهفة بيننا هى الرباط ، وكانت الدموع هى أجمل ما فى الحياة . .

قلت لك إن دموعى جفت ، والحياة من غير دموع أشبه بالزرع من غير ماء . . . تمنيت لو بكيت ولكن لماذا أبكى ؟ زوجى يحبنى ويحسن معاملتى ، كل شىء يسير رتيباً كأنه مرسوم . . . الملل هو السيد فى هذا البيت ، والملل هدوء قاتل . . . ولكنه هدوء على كل حال . . تقت الآن فقط إلى ثورة من ثوراتك التى كانت تكاد تفتك بكل شىء ، تقت إليك وأنت تلطمنى فأظل أبكى إلى أن تثوب إلى رشادك فتعود لكى تصالحنى .

إن الحياة العاصفة جميلة . . جميلة جداً . . تقت أيضاً إليك وأنت تغلق الباب فى وجهى فأظل أطرقه إلى أن تفتحه وأنت متجهم . . تقت إلى نفسى وأنا أرجوك كى ترضى . .

سأتوقف عن الكتابة . . إن الحافة التى هربت منها منذ خمس سنوات أرانى أبلغها الآن ، تسللت الذكريات مرة أخرى وأوشكت أن تصبح كائناً حيا . . كلا . . . سأنهى خطابى . . لن أكتب لك مرة

أخرى . . فى هذه المرة أوشكت أن أقترب من الحافة ، من يدرى لو كتبت مرة أخرى أن تستهوينى فأطيل الوقوف عليها . . وأنت تعرف ما هى الحافة لامرأة مثلى . .

هربت منها منذ خمس سنوات وكنت وحدى ، وأنا جديرة أن أهرب منها عشرين مرة وأنا الآن زوجة سعيدة لرجل يحبنى وأم لطفلين أحبهما ... تزوج يا صاحبى حتى لا تبقى بيننا حافة ولا هاوية .

حماقة أخرى

قالت له : الاستقرار فى البيت . . فلماذا لا تتزوج ؟
ــ أخشى أن أفقد القدر اليسير من الاستقرار الذى أعيش فيه .
ــ وهل الوحدة استقرار ؟
ــ الإنسان وحده مركز ومنعزل . ولكنه مع زوجة مستقر ومشتت .
ــ كيف يتفق الاستقرار والتشتت ؟
ــ سأحمل مسئولية إنسان آخر وهذا هو التشتت وسيهيئ لى هذا الإنسان بيتاً وهذا هو الاستقرار .

قالت له : جبان إذن . . تخشى تحمل المسئولية !
ــ لست جباناً ولكنه الخوف من المستقبل . .
ــ وما هو الفرق بين الخوف والجبن ، كلاهما يصدر عن معين واحد . .

ــ كلا ، الجبن ينطوى على الخوف حتماً ، ولكن الخوف ليس من المحتم أن يكون سببه الجبن .
ــ ماذا يكون سببه إذن ؟
ــ سببه الإشفاق من أن أفقد حريتى .
ــ حرية السهر والعبث ، حرية التحرر من المسئولية . . . حرية الخوف من أن يزداد ارتباطك بالمجتمع والتحامك بالحياة . . . حرية الخوف من أن يكون لك أولاد . . تكلم بصراحة . .
وسكت برهة يتأمل فى قلق ثم قال : وما هو البديل عن هذه الحريات جميعاً ؟

قالت : البديل عنها نقيضها : حمل المسئولية والاستمتاع بالأسرة والأولاد والمجتمع . . . أن تصبح إنساناً لك علاقات وعليك التزامات .

ـ أكره الالتزامات ، أحب الانطلاق من غير قيود . .

ـ أنت الآن غير مقيد فهل أنت سعيد ؟

سكت مرة أخرى برهة أطول ثم تردد قبل أن يقول : لست سعيداً تماماً . .

ـ ما ضرك إذن أن تستبدل بحياتك حياة أخرى مهما تكن فإنها لن تجعل مركزك أسوأ . .

ـ من يدريني ، لعلها تفعل... كلا إنني أفضل ما أعرفه على تعاسته

ـ إذا كانت فيه تعاسة ـ على ما لا أعرفه ولو كانت فيه السعادة ..

ـ جبان إذن . . وهو ما أنكرته منذ قليل . .

وتوقف برهة ثم قال : أنت متزوجة منذ أمد طويل ، سمعتك دائمة الشكوى ، ساخطة كثيرة السخط ، وسمعت زوجك شاكياً ساخطاً كثير الشكوى والسخط . . أنتما مثل أمامي لا يشجع . .

ـ الشكوى بعض لوازم الحياة ، والسخط دافع من دوافعها . . . . ولو كان سخطي أنا أو زوجي جوهرياً لانفصلنا منذ أمد طويل .

ـ سمعت أنكما تنويان . .

ـ لقد انتوينا الانفصال عشرين مرة ولم ننفصل . . لا تصدق شكاوى المتزوجين . .

ـ لماذا يشكون إذن ؟

ـ طبع الإنسان على الشكوى . . أنت لست متزوجاً ومع ذلك فأنت دائم الشكوى . . .

— خير أن أشكو من نفسى ولنفسى من أن أشكو من غيرى لنفسى وللناس .

— أنت مع غيرك مجتمع ، ومع نفسك منعزل . والمجتمع خير من المنعزل.

— من قال ذلك ؟. .

— قاله الإنسان منذ وجد . . . كان وحيداً فسعى إلى أليف . . . كان فرداً فألف جماعة ، كان جماعة فصنع قبيلة ، وكان قبيلة فصنع دولة ، وكان دولة فاتحد مع دول أخرى.. إنها غريزة يا سيدى ، لا تسألنى ما فائدتها ولكن اسأل نفسك لماذا وجدت الحياة . . ولماذا نموت . . ؟ أسئلة لن يعرف إجابتها أحد .

ضحك وهو يقول : قرنت الزواج بالألغاز التى لم يعرف لها الإنسان حتى اليوم حلا !

ضحكت هى الأخرى وقالت : صدقنى إنه لغز . . وهل الحياة إلا ألغاز ، وهل نحن فيها إلا لكى نرتاد ألغازها ، نحاول حلها . . . لماذا ذهب الإنسان إلى القمر ، أليس هذا منه محاولة لحل لغز ؟

قهقه ضاحكاً وقال : من لغز الزواج هكذا ، من غير تمهيد ، إلى لغز القمر . . أنت أستاذة فى العلوم ، هل لديك كتاب علمى عن الزواج . . أقصد عن لغز الزواج . .

— أعطيك عشرات الكتب ولكنها لن تحل لك اللغز . .

— لماذا كتبها أصحابها إذن ؟

— محاولات ؟ . . إن كل ما يصنعه الإنسان فى الحياة محاولات لحل ألغازها ، لعله يصل فى النهاية إلى السعادة . .

— بعد عشرات الألوف من السنين لم يصل إلى السعادة . . هل يطمع أن ينجح ؟

وهنا دخل زوجها مثقلا بحمل ضخم من الكتب ، هو الآخر أستاذ علوم ، وقال باسماً : فيم كنتما تتجادلان ؟ . . .

قالت الزوجة : لا أعرف كيف أحدد الموضوع بالضبط .

قال : سمعت كلمة السعادة . . هل كانت هي الموضوع ؟

قال المرشح للزواج : كلمة وردت خطأ . . كان الحديث عن ألغاز وحلها . .

وقالت الزوجة : كنت أحاول إقناعه بأن يتزوج .

— وهل اقتنع ؟

— أوشك .

وهنا صرخ المرشح للزواج قائلا : لم أقتنع ولن أقتنع . . . لا العلم أقنعني ولا الواقع .

قال الزوج : عيبك يا صاحبي أنك تسرف في الاعتماد على العلم وتسرف في البحث والتأمل . . ألم ترتكب في حياتك حماقة ؟ . .

— ارتكبت الكثير . . .

— أضف إليها حماقة أخرى . . لن تندم كثيراً . . . الحياة نفسها حماقة كبرى ، فماذا تتوقع من جزئياتها أن تكون ؟

وسوسة شيطان

قالت وفى عينيها دمعة حائرة : هل يمكن أن أقضى الحياة هكذا . امرأة فى ربيع العمر محجوزة بين الأركان . لقد اقتربت الأعياد . الجميع يستعدون لحفلاتها ، الموسيقى والصخب والسجائر والمرح . . كلا ، لا بد أن أعيش . إننى لم أذق الخمر . . لم أرقص ؛ تعلمته ولكننى لم أمارسه . زوجى رجل محافظ ، فكيف أصنع وتقاليد أسرتى تقف على صدرى كالحجر الثقيل . وأنا لا ينقصنى المال ، أريد أن أقفز وأجرى وأمرح بين الحدائق والصحارى والجبال على السواء ، يتابعنى رجل أدوخه وأنا أراه يتلظى رغبة . . . لقد شهدت الآن فيلماً فى السينما . . أريد أن أحيا هذه الحياة ، القبلات التى تعتصر الكيان وتهز القلب والجسم والفؤاد ، الهمس الذى كأنه نبع من الحنان .

كلا . . . لن أرضى بهذه الحياة ، لن أريق وجودى قطرة قطرة فى حرمان مر وعذاب لا نهاية له . أنت لا تعرف من أنا ولذلك أتكلم بصراحة . . لا يخدعك ما تراه من مظاهر . اسألنى وأنا أقول لك شعور المرأة ، سألبى الدعوات التى جاءتنى لعيد الميلاد ورأس السنة . سأرقص ، سأدخن ، سأشرب ، سأعيش ليلة فى العمر . . لن يهمنى شىء . . زوجى ، أسرتى ، تقاليدى ، سمعتى . . سخافات أشد نكراً من سخافة وجودنا . . أولادى هل وجدت من أجلهم أو وجدوا من أجلى . . وهل لى كيان مستقل عنهم ، أم أنهم وأنا كيان واحد ؟ . .

لماذا أحجز أنا ويخرج الآخرون . . لماذا يكون بيتى فى كآبة الظلام وبيوت الآخرين فى بهجة النور ؟ . . لماذا ؟ لماذا ؟ وأنا لا أزال شابة

فى ربيع العمر واكتمال النضج .. إنى لأنظر إلى ما وهبنى الله من جمال وأكاد أكفر به . . لماذا أغدق على ما لا فائدة منه ؟ جمال بين الجدران محرم عليه النور . .زهرة تموت فى الأكمام . . بسمات لم تعرف طريقها إلى الشفاه، وضحكات ماتت قبل أن تولد وأحزان عاشت دون أن تولد .

كلا ، إنها وسوسة الشيطان . . بيتى فى الظلام أشرف من بيوت الآخرين فى بهجة النور . . أولادى ، أسرتى ، زوجى . . كلا . . إنهم أعز عندى من نفسى . . سأطوى ضلوعى على أساى . . كلا ، ليس لى أسى . . والأعياد ، الرقص ، المرح ، الجرى . . أتمناها ، إنها جميلة ، إنها الحياة . . كلا ، إنها حياة الفارغين الذين لا شرف لهم ، الشرف ، ماذا هو ؟ . . لا . . . لا . . . إنها وسوسة شيطان ، الشرف هو كل شىء .

مشيئة الله

قالت له وهى تلف ذراعيها حول عنقه : حدثنى . . تكلم . . تكلم فى كل شىء . أشعرنى أننى إنسانة كفء لك . . إنك لا تنظر إلى شىء آخر غير جسدى . . هل أنا دمية وجدت فقط لكى تتلهى بها ؟ إننى أضيق بنفسى كلما ظننت أن جسدى وحده هو التقدمة والشفيع إليك .

وسكت وهو ينظر فى عينيها . كان صفاؤهما مشعاً والضياء المنبعث منهما خليطاً من العتب والخوف والقلق. واستطردت تتحدث إليه : لماذا أنت ساكت ؟

قال : تحدثى أنت ، إننى أرقب شخصيتك. أحب أن أسمعك. أنت مخطئة إذا ظننت أن جسدك هو الذى يربطنى إليك . تربطنى إليك روحك ؛ ابتسام عينيك ، صفاء هذا الوجه الذى ألمس فيه يد الله . إنك لا تعرفين كم تأسرنى إطباقة هاتين العينين فأرى فى أحلامهما أجمل الرؤى . أشعر أنى ألمح معك طيوف الهناء والنعيم . .أتريدين أن أحدثك فى السياسة والأدب والاقتصاد ومعارك الحرب ، بالله ألا ما أرحتنى منها؟ ألا تريدين أن تكونى روضاً رفافاً بالابتسام ، وزهراً يشدو بنغم من الجنة؟ أتريدين أن تجعلى حياتى كلها سياسة وأدباً واقتصاداً وحرباً ؟ ألا يكفيك أنك الواحة وسط الصحراء والنجم المتألق فى ليل حالك الظلام . . أنت مخطئة إذا ظننت أن ما بينى وبينك جسداً . . كلا إن الأجساد كثيرة ، ومتعتها أرخص المتع التى فى الدنيا . إنك تمنحيننى سلام النفس والقلب وهدوء الصدر والخاطر . . أريد أن أنسى وأنا معك أن الدنيا فيها شر وصراع وجسد وتنافس وقوى وضعيف ، أريد أن أحس أن كل ما فيها هناء وخير وجمال وزهر وابتسام وعيون فى عمق الأبد والأزل معاً . . إنك وحدك دنيا بأسرها لماذا تريدين أن أحدثك عن دنيا غيرها ؟

* * *

ونظرت إليه بعين فيها بريق من العرفان وأرخت أهدابها ووضعت رأسها على صدره وقالت تحدثه وكأنها تحلم : إذن أنا شيء مهم في حياتك . . حسبت أنني تافهة لا أصلح إلا للزينة وقضاء فترة من الوقت الجميل ثم لا شيء بعد ذلك . ترى هل أزور خاطرك وأنت مشغول بمهامك الكثيرة . . هل يضطرب قلبك أحياناً بذكراي . . إنك تعيش معي دوماً . ألمحك في كل شيء حولي . إذا تحدثت أو سافرت أو أقمت أو حزنت أو فرحت فأنت هناك دائماً ولكن أنا بالنسبة إليك . . ماذا أكون ؟ أخشى لا أكون سوى شيء يصلح لأوقات الفراغ . .

طوى يديه حول أجفانها وقال لها : أغمضي عينيك . . ماذا ترين ؟

أجابت : أراك .

وقال لها : افتحي عينيك . . ماذا ترين ؟

أجابت : أراك . .

قال : هل يظن أحد وأنت مغمضة العينين أنك ترينني . . هكذا أنا لعلني أبدو وأنا مشغول كأنني لا أرى ما هو أمامي . ولكن الإنسان ينظر ويرى ما في نفسه ، ينظر ويرى بقلبه . إنك قد تفتحين عينيك وأمامك عشرة أشخاص فلا ترينهم بينما ترين شخصاً آخر ليس معك . . إن العمل والجهد والضني وكل ما نضطرب به من سعي وصراع وقلق ونحن نتسابق من أجل الشهرة أو المال أو السمعة الحسنة ليس هو حياتنا . . إن حياتنا الحقيقية تعيش في داخلنا . وأنت الحياة . إذا كنت موجودة نظرت إليك فإذا لم تكوني موجودة نظرت إليك بقلبي . . إنه ينتظرك . . إن حياتي انتظار طويل وأنا أشغل نفسي بالعمل حتى أحتمله ، هل فهمت ؟

* * *

وكانت عيناها مغمضتين ويداها تلفان كتفيه وسقط رأسها دون وعى منها على صدره وبدت كأنها نائمة ولكنها استيقظت .. وفتحت عينيها ولم تتكلم . نظرت إليه فرأى فى عينيها بريقاً لم يشهد مثله .

قال لها : إننى خائف منك . . إن ما فى عينيك حب لا أحتمله .

قالت : لأننى أحسست الآن أننى شىء فى حياتك .. إن كل ما يعذبنى ن أكون مجرد دمية للتسلية واللهو . . أما الآن . . الآن . . ماذا أقول لك . . لقد رفعتنى ، أسعدتنى . . إننى أعبدك .

سألها : أتريدين أن أحدثك فى السياسة ؟ . .

قالت : لا تحدثنى فى شىء انظر إلىّ . . إننى أقرأ فى عينيك الآن كل شىء . أحسست أننى فى داخلك . كل ما تعرفه أعرفه أنا بغير حديث . اقترب منى . . . أريد أن ألمس وجهك وأضع يدى على فمك الذى أسعدنى وعلى قلبك الذى أضاء نور الحب فى كيانى . . إن الجسد فى يضعف ويضعف والروح يقوى ويقوى . لحظات من نسم علوى ترفعنى إلى السماء وأنت معى . . هل ترى هذه المركبة الفضية وهى تنساب فوق السحاب . . السحاب الأبيض الرقيق الذى يتبدد ليجتمع ويجتمع ليتبدد . . الذى يضىء ويظلم ويسير ويقف إلى ما لا نهاية وإلى لا غاية . . لأنه خالد فى رحلة لا تنتهى . . لا تقل لى إن الليل يمر والنهار ينتهى . . لا تقل لى إن الدنيا فيها موت بل فيها خلود . . لا تقل إن حبى فيه جسد فان ولكن قل إن فيه روحاً خالدة . . جسدى ، قلبى ، كيانى ، أنا كلى ملك لك . . ضمنى إلى صدرك بعنف . . عنف شديد . كما أن قلبى فنى فيك ، أريد أن يفنى جسدى فيك . . كنت قد كرهت جسدى لأننى حسبت أنك تحبه وحده أما الآن فقد أحببته لأنك تحبنى أنا . .

وقال وهو يعبث بأناملها : وهل هناك حب للجسد من غير الروح ؟

أجابت : حسبت ذلك فكرهته ..

قال : أتكرهين منحة أنعم الله بها عليك ؟

قالت : المنحة هى الروح . .

قال : والجسد هو الوعاء . .

قالت : وإذا مات الجسد ؟

قال : يسترد الله وديعته .

قالت : وتحبك روحى .

قال : ونخلد معاً

قالت : إذن أنا أحبك روحاً وجسداً . إنها مشيئة الله خالق الروح والجسد

فى أرض الهيكل

جلست إليه . وكأنها عند قدمى كاهن . كان ذبول الخوف يشرق خافتاً من عينيها ورجفة الهم تجعل شفتيها تضطربان . وجعلت تنظر إليه فى وجوم صامت وصمت واجم ورابه منها هذا الصمت فعهده بها مرح حلو وإشراق باسم وصوت فيه عرائس المنى والأحلام

وقالت وكأنها تتحدث من وراء ظلال الأعمدة فى هيكل : أتحبنى من أجل جسدى ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى من أجل روحى ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنك تحب الخطيئة ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنى أحبك!؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنى أخلص لك ؟

قال : كلا .

قالت : إذن لماذا تحبنى؟

قال : لأنك أنت .

قالت : هل تعرفنى ؟ . .

قال : ما حاجتى أن أعرفك؟ إن قلبى ينبض حين يراك . عينى تدمع حين أحس الحزن فى قلبك . أشعر بك فى كيانى روحاً ونسماً وجسماً ، فضيلة وخطيئة .

قالت : دعني اعترف لك إذن . لا أستطيع أن أخفى عنك شيئاً . فى أوقات أراك الكاهن الذى يجب أن أعترف له . . فى أوقات أراك الحبيب الذى أغرق همي فى صدره الحنون . وفى أوقات أراك الرب الذى أرهب الدخول فى جنته وأنا مخطئة فأصلى وكأننى أدخل محراباً مطهراً . . فى أوقات أراك الشيطان ، فى أوقات أراك الملاك . وأنت فى كل حال الملجأ الذى أشعر فيه بالطمأنينة من الخوف والتطهر من الذنب . لست أدرى كيف حدث هذا ؟ ما من إنسان أستطيع أن أعترف له بخطيئتى إلا أنت . كل إنسان سيحتقرنى . إن الناس منافقون . كلهم صنعوا من الخطيئة يشربونها صباح مساء ويعيشون فيها وتعيش معهم . ولكنهم إذا سمعوا عن خطيئة الآخرين هزوا رؤوسهم واستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم .

لقد أعطيتك عهداً أشهدت عليه ربى أن تكون وحدك هواى : لم تطلبه منى . ولم تفرح له . قلت إنك تكره العهود والمواثيق ، وتؤثر بساطة النفس وضعفها على ادعاء القوة وتحدى الإغواء وسألتك حينئذ ، ما هو الشر فقلت ، لست أعرفه . وما من أحد فى الدنيا يعرفه . كل إنسان يتحدث عن الأشرار الآخرين ، وهؤلاء الآخرون لا وجود لهم ، ما من أحد يعترف بأنه شرير .

وسألتك حينئذ : وهل أنت شرير أجبت : نعم ، فى بعض الأحيان أنا إنسان ,

« أتقبل منى الآن أن أقول لك إننى شريرة . لقد أعطيتك عهداً ولا بد أن أفى . ما من أحد ملأ قلبى كما فعلت ولكن هل رأيت إلى السباح يريد أن يجرب مهارته بين الأمواج المتلاطمة ؟ هل رأيت إلى من اجتمعت له الثروة يريد أن يجرب الفقر ؟ أرأيت إلى من منحه الله الإيمان يريد أن يتلظى بنار الكفر ؟ إنها النفس الإنسانية ، هذا الجوهر العجيب ؛ الذى لا يستقر ولا يهدأ لأنه خلق من تطلع وقلق .

لم أصنع شيئاً . ولكنني استمعت إلى الغزل واستطبته . أحسست بدبيب من الشعور عجيب وأطلت لمن غازلوني في حبال المنى ، لم أمنع ، لم أصد ، ولم أفرح ، ولم أحزن ، هل أحببت أحداً منهم ؟ لا أستطيع أن أقول لك ، سأروى لك قصة كل منهم ، ستقول إنى غازية ليل ، فتاة مغامرة لا تعرف الحب ، ولكن تعرف العبث ، كلا ، إنني أنثى ، أردت أن أدخر في شبابي كل التجارب ، وكما قلت لك ، كنت أشبه بالسباح يعرف أن صخرة النجاة قريبة منه ، في يده بين جوانحه في ضميره في كيانه ، ما من بأس عليه إذن لو ذهب يطارد الموج والموج يطارده وهو مطمئن أنه إذا أوشك على الغرق وجد الملجأ الأمين الذى يعصمه منه ، كنت أنت هذا الملجأ الأمين

و كنت أخطئ لكي أروى لك خطئي ، كنت أخطئ لأنني إنسان لا بد أن يخطئ وأعترف لك أنني أخطأت عامدة ، كنت أريد أن أعرف الرجال

قال : وهل عرفتهم ؟

قالت : هكذا تسأل بكل بساطة . . . ألم أثر غيرتك بهذا الكلام ؟

قال : الغيرة تثور في القلب الهش الصغير الذى يطلب في الناس أن يكونوا ملائكة . لا أنت ولا أنا ولا أحد من الناس يمكن أن يكون ملاكاً . الخطيئة هي خبزنا اليومي ، لقد ابتسمت حينما بذلت عهدك لى ، لأنني كنت أعرف أنك لن تصوني العهد ، لا لأنك فتاة شريرة . . لكن لأنك إنسان .

قالت : أفهم من هذا أنك تخطئ أيضاً .

قال : أنا إنسان .

وغامت في وجهها الحلو سحابة من القلق والندم وانحدرت دمعتان على وجنتيها ، وقالت : غطني بصدرك ارحمني بقوتك من ضعفي ، كلا ،

كلا ، إننى لا أحبك ، أريد الرجل الذى يمزقنى غيظاً ، ويقلب الأرض إذا أحس أن إنساناً آخر يشاركه فى .

وهدأت قليلا : وأشرقت بسمة الدعة وسط دموعها وشدت على كتفيه بيديها وقالت كيف أريد من الملجأ الأمين الذى يعصمنى أن يمزقنى من الغيظ أو الندم ، أنا الآن فى أرض الهيكل وبين يدى الإله .

الصمت والكلام

سألته أن يفضى بعواطفه . . . أن يتكلم أن يقول كل شىء . كان صمته يؤرقها . . كانت أشبه بموسى لم ترضه معجزات ربه الذى اصطفاه فقال : ربى كلمنى حتى يطمئن قلبى .

ولكنه ظل صامتاً .

قال بينه وبين نفسه : إذا لم تكن تفهم نبض القلب وتحسه . . . إذا لم تكن تفهم إشراقة الوجه وصوت الشعاع المنبعث من العين ورجفة اليد ولمسها فهل هى مستطيعة أن تفهم الكلام وتؤمن به . . .

الكلام ، ما أكثر ما يخدع . إن الألفاظ نملكها ، نستطيع أن نديرها كيف نشاء إنها أرخص متاعنا ، وأقل ما وهبنا الله اتصالا بالقلب والروح . إن العقل يدخل فى اختيارها ، والوقت الذى يمر بين قيام التفكير فى الكلام والنطق به كاف كى يحوله إلى ما يريد العقل ، ويريد الظن ويريد التدبير ، وكثيراً ما كان الصمت أبلغ من الكلام . ومن العواطف ما يشل اللسان ، وفى أروع اللحظات التى يبلغ فيها الانفعال مداه ، تتعطل الحركة ويقف التفكير ، وتكون اللمسة والنظرة وربما الإغفاءة أكثر فى النفوس تأثيراً وأقرب إلى القلوب نفاذاً .

من منا استطاع ، وهو فى أوج انفعاله أن يتكلم . . إن كيانه كله حينئذ يرتجف : قلبه ، عقله ، تفكيره ، روحه ، كل نبضة فيه ولمسة تتحول إلى تعبير . . يصبح أشبه بالسلك الذى مسته الكهرباء . . الكلام يصبح أمامه أضعف وسائل التعبير : اللغة ، الفصاحة ، البلاغة ، كل ما أوتى من تجربة وفهم وذكاء يحسبها جميعاً أضعف مما شمله من انفعال . .

ولو كان الكلام كافياً للتعبير لماذا كانت الموسيقى إذن ؟ لماذا كان الرسم والنحت والتصوير؟ بل لماذا كانت الدموع تحرق العين ، والآهات تصهر القلب ، واللمسات العلوية ترفع الروح فكأنها بعض النجوى و بعض السر الكامن فى أصل الوجود ؟

وإن من العواطف ما يسمو على الكلمة و يقف منفرداً كأن الدنيا لم تخترع له تعبيراً ، وإنا نشعر أحياناً أن الموسيقى والأدب. وسائر الفنون تعجز عن تصوير العاطفة . . وإن بعض القلوب لتشعر أن ما فيها أقوى من كل ما فى الدنيا . . العقل وحده هو الذى يستطيع أن يعبر عن نفسه بالكلام لأنه يقيسه و يرسمه ، إنه ينقل معادلات وحججاً و براهين و يدفع شبهات وشكوكاً . . أما القلب وما فيه ، كيف يكفى الكلام وحده للتعبير عنه ، وإنه لأقل وسائله وأضعفها شأناً . .

إن الفنون والآداب وجدت لكى تعبر عن القلب ، والأغانى ذاتها لا تحفر كلماتها فى القلب ما يحفر النغم . . وكثيراً ما سما الإنسان بعاطفته عن الكلام ، أحس أنه يهينها ، لأنه يشعر أنها فى كيانه ، وكيف يحتاج الكيان الناطق إلى تعبير باللسان .

طارق جديد

أحست بضلال عاطفى لم تعرف السبيل إلى الخلاص منه .

كانت تسأل نفسها فى كل وقت عن العلاقة بين الجسم والعاطفة ، عن القلب والروح وتسخر ممن يتحدثون عن القلق ، فلم تكن تشعر إلا أنها تعيش فى وفاق بين العاطفة والجسد والقلب والروح كانت حياتها نغماً منسجماً وأغنية جميلة التوقيع .

ثم دخلها القلق ، أشبه بالضباب والندى ، فاستقبلته أول الأمر فى حنين لذيذ تسرب إليها فى استواء كأنه الخدر . كان ليلها هادئاً . . وجاء هذا القلق كالحلم الرقيق ، كالزهرة تلقى فى الغدير الصافى فلا تفسد صفاءه ، ولكن تضيف إليه عطر الزهور

التقت به مصادفة ، واستمعت إليه ، سحرها حديثه . واستولت عليها شخصيته وعادت إلى بيتها وفى قلبها دبيب كحفيف الشجر . ارتاحت إليه لأنه كالهمس العذب يسكت فى الضجة ويحوم حول قلبها فى الهدوء .

وفى الليل حينما أوت إلى مخدعها ، أحست بالدبيب يشتد وبالحنين يلح ، تولاها الرعب ولكنها تبسمت ساخرة وطردت هواجسها واستغرقت فى نوم هنىء

والتقت به مرة ومرة تستمتع بحديثه وتأسرها شخصيته وتخرج من هذا وذاك راضية . حياتها تسير رتيبة ، لا قلق ، ولا اضطراب ، ولا زوجها حيث كان ، وقلبها حيث كان ، وحبها حيث كان . لا جديد سوى الحنين الرقيق والخيال العذب والحديث الجميل يطن فى أذنيها شدواً فيه الغموض والسحر .

وتراخت الأيام والليالى فإذا الدبيب الرقيق يتسرب فى قلبها وخيالها رويداً رويداً ، وإذا الحنين الهادئ يتسلل إلى كيانها ، فإذا هو قلق أو ما يشبهه .

أحست أن هذا الحنين الغامض أصبحت له معالم . كانت تتخلى عنه إذا كانت لا تريده ، فلم تكن فيه حياة ولم تكن له حرمة أما الآن فقد شعرت أن الحياة تدب فيه .

أصبحت له إرادة وحرمة .

ما هو ؟ ولماذا نشأ ؟ ما مصيره ؟ بل ما مصيرها ، إن قلبها مشغول ، لا مكان فيه لطارق جديد . إن حياتها تسير هادئة جميلة وادعة لا ينقصها شيء .

هل لابد من صراع ؟ هل لابد من قلق ؟

وطالما سخرت مع الساخرين من الحيارى المعذبين بين عواطف تشب وتشتعل ؟ أكتب عليها ما كتب عليهم من صراع وقلق ؟

أهذا عقاب سخريتها وإنكارها وجحودها ؟

ترى هل يريد القدر أن يجعل ضحكاتها دموعاً ؟ أتراه يأبى إلا أن يتقاضى الثمن باهظاً يفدح ؟

واحتارت ، أطارق جديد والقلب مملوء ؟

هل يمكن أن يطرد الحب حباً . .. إذن فيم كان النبض الأول والعذاب الأول والهناء الأول ؟

فيم كانت الأشجان والأحلام وسهر الليالى والأيام ؟

فيم كان القلق والضنى ؟ فيم كان الميلاد العسير لعاطفة نبتت وسط الحرمان والدموع ؟

أيمكن ألا يكون ما فى قلبها حباً ، ويكون الطارق الجديد هو الحب السعيد .

* * *

وذهبت إلى صاحبها مرتاعة ، قالت له : احمنى ، احفظنى ، حدثنى . . . لا تدع أحداً يأخذنى منك .

قال : من يستطيع ؟ أنت كيانى . .

قالت : نفسى . . قلبى ، عواطفى ، قلقى ، خيالى ، أوهامى . اجعلها كلها لك . احرص عليها . . ضمنى أكثر وأكثر حتى لا يتسرب منها شىء .

ولم يفهم . . . .

قال : هل هناك أحد ؟

قالت وهى تصرخ : كلا . . كلا . . . حدثنى . . دعنى أسمع صوتك ، تكلم . ليس بهذه الطريقة ، بل بتلك . . .

كان رنين صوت الرجل الآخر فى أذنيها هامساً ، خافتاً ، ولكنه كان قوياً حجب عنها الصوت القريب منها .

العش والقفص

قالت له : « الوقت الوحيد الذى أشعر فيه إننى أمتلك زوجى ساعة يلفه النوم على كتفى أو على صدرى وألف ذراعى حوله . . . إننى فى ضيق من حياتى مع هذا الرجل . . إننى أحبه حباً جنونياً . . ربما كانت هذه غلطتى وقد حاولت أن أردهذا الطوفان عنى ولكننى لم أستطع ... لا أثق فى كلمة يقولها ولا أثق فى صمته . إننى أتعذب معه إذا تكلم وإذا صمت . أتعذب أيضاً إذا أكد لى أنه يحبنى وأتعذب أكثر إذا سكت عن حديث الحب . طوال غيابه عن البيت لا أتصور إلا أنه يغازل النساء ويجرى وراءهن . تمنيت لو كسرت دماغه وعرفت ما فيه . . حتى وهو معى يخيل إلى أنه ليس معى . وإنى لأغريه أحياناً بالنوم حتى أهدأ . أشعر متى نعس نعاساً عميقاً ولففت ذراعى حوله أننى امتلكته وأنى أرقب أحلامه وهواجسه . . حتى أحلامه ترعبنى ، تمنيت لو كان الإنسان لا يحلم ، تمنيت لو كف عقله الباطن عن العمل أثناء النوم .

« حتى فى نومه لا أشعر بالراحة والهدوء ، يخيل إلى أن عقله الباطن يشتغل . . . فى ماذا يفكر . . . بماذا يحلم . . أى المخزونات فيه . . أى الرغبات والعواطف المكبوتة ؟ . . . تمنيت لو شققته هو أيضاً . . إننى أسمع من صديقاتى شيئاً آخر . . . أسمع أنهن لا يفكرن مثل تفكيرى ، حسبهن أن الرجل يأتى فى ميعاده وينصرف فى ميعاده ، حسبهن أن يؤدى واجبه نحوهن ولا يسىء معاملتهن .

« لابد أننى امرأة غير عادية . إن زوجى رقيق معى جداً . يبدى حباً وعطفاً لا مزيد عليهما . . . ومع ذلك فأنا تعسة . لست أدرى لماذا لا أومن بالظواهر ، لماذا لا أثق فيها . . . يخيل إلى أحياناً كثيرة أن

المبالغة فيها تخفى أشياء أخرى . . وأذهب وراء هذه الأشياء . . . مصيبتى أنى أذهب وراءها ولا أعرفها . . . لا بل إنى أعرفها ، إنها بعض خيالى وأوهامى .

قلت له ذات يوم : أنت تخدعنى .

قال : أنت تخدعين نفسك ، تظنين أنك بهذا الحرص الزائد تحتفظين بى . العصفور المحبوس يفكر فى الهرب .

— ولكن القفص جميل .

— ليس فى الدنيا قفص جميل .

— حتى ولو كان فيه الحب ؟

— الحب حرية وليس قيداً . أنت لا تشعرين بجماله وحوله كل هذه القيود . . . دعينى حراً

— أخشى أن تطير .

— العصفور يرجع دائماً إلى عشه ولكنه لا يرجع أبداً إلى القفص .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم ...

البحر والناس

تأليف:

الدكتور سيد حسن شرف الدين

اقرأ

٣٠٢

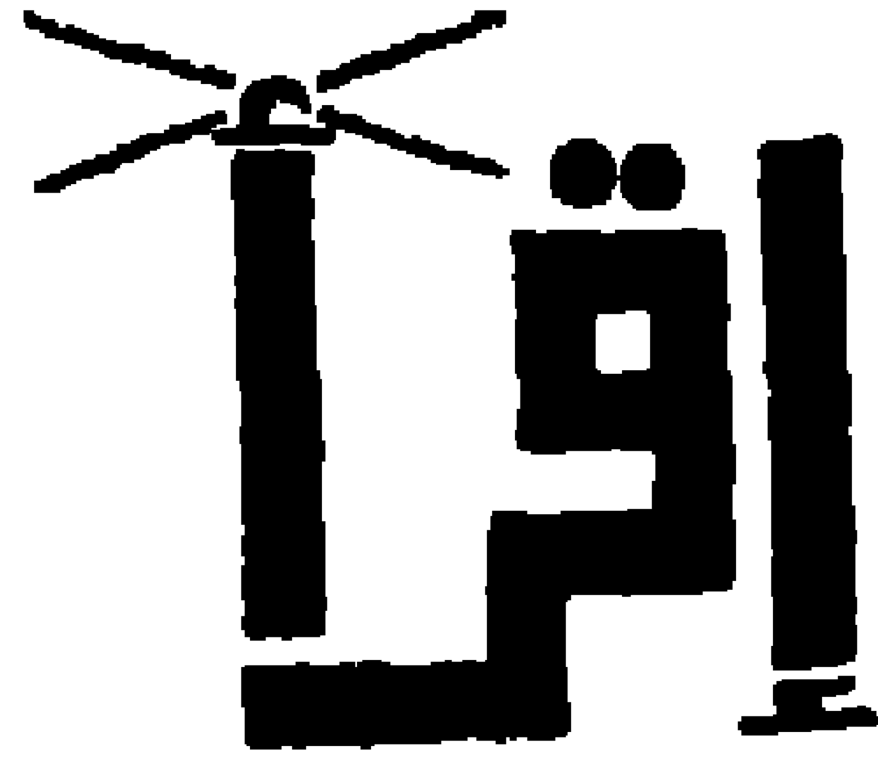
البحر والناس



الدكتور سيد حسن شرف الدين

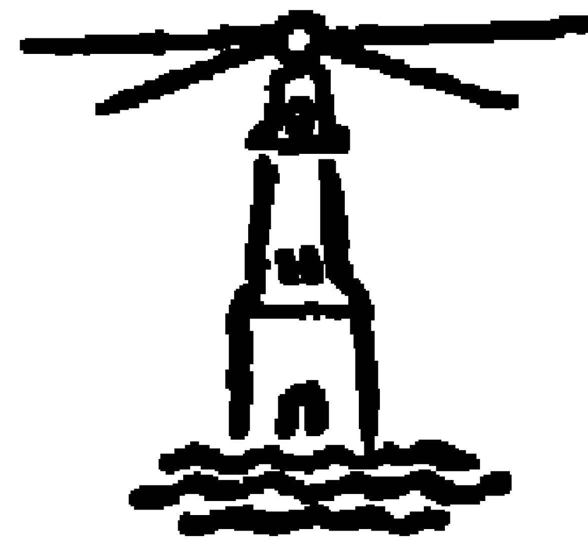
دار المعارف بمصر

٦



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

الدكتور سيد حسن شرف الدين

البحر والناس

اقرأ ٣٠٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٨ – أغسطس سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

مقدمة

لقد أصبحت علوم البحار اليوم من المجالات التى تهتم بها شعوب العالم بحثاً عن الطاقة والثروات الغذائية والمعدنية التى تستخرج من البحار والمحيطات بالإضافة إلى تبلور معلوماتنا عن دورة الحياة فى البحار والتيارات المائية وتأثير الأمواج والمد والجزر ودراسة العوامل الجيولوجية والجيوفيزيقية على قاع البحار. وينفق العالم عشرات الملايين من الجنيهات فى إجراء بحوث عن مصادر الثروة المائية فى جميع المحيطات لكى يمكن الاعتماد عليها كمصدر هام للثروة الغذائية بالإضافة إلى الثروات الأخرى.

والواقع أن توفر الثروة المائية يصبح عاملا مهمًّا فى سد احتياجات ازدياد السكان والاستغناء عن اللحوم التى تستورد من الخارج فى بعض الدول. وتوفير النقد الأجنبى وتوجيهه إلى المشروعات الإنشائية . ولقد دلت الإحصائيات الأخيرة أن عدد سكان العالم منذ حوالى ٣٠٠ سنة كان لا يتعدى ٥٤٠ مليون نسمة ومنذ ٢٠٠ عام كان ٧٣٠ مليون نسمة ومنذ ١٠٠ سنة كان حوالى ١١٧٠ مليون نسمة، وفى أيامنا هذه أصبح تعداد سكان العالم أكثر من ٣٠٠٠ مليون نسمة . ومن هذا

يتضح أن السكان يزداد عددهم زيادة هائلة بينما نسبة الأرض المزروعة وكمية اللحوم لم تزد بنفس نسبة تزايد السكان وأصبحت لا تكفى لسد احتياجاتهم . لذلك وجب على جميع الدول المتقدمة البحث عن مصادر أخرى لكى يمكن معالجة هذه المشكلة التى قد تهدد الكيان البشرى بانتشار المجاعة فى أنحاء العالم . ونتيجة لذلك اتجهت أنظار الدول إلى البحر كمصدر هام من مصادر الغذاء وكعلاج لمشكلة تزايد السكان . ثم إن هذه البحوث التى تجرى فى البحار والمحيطات بحثاً عن مصادر الثروات تتطلب الكثير من المال لصرفها على سفن البحوث والأجهزة الإلكترونية والعلماء والخبراء المدربين بالإضافة إلى المساعدين والفنيين للمساهمة بخبراتهم . لقد دلت بعض الإحصائيات الأخيرة أن مركب البحوث تتكلف على الدولة يومياً ما بين ٢٠٠ ــ ٢٠٠٠ جنيه إسترليني . ويتوقف ذلك على حجم المركب وعدد العلماء والفنيين المشتركين . ومن الدول المهتمة بهذا العلم روسيا ــ أمريكا ــ اليابان ــ ألمانيا الغربية ــ الدول الإسكندنافية .ــ إنجلترا . مرتبة حسب إمكانياتها من مراكب البحوث . ولم تكن البحار مصدراً للثروة المائية فقط وإنما يتمثل نفعها فى جميع المجالات فهى وسيلة هامة من

وسائل النقل والمواصلات ومصدر من المصادر المهمة فى استخلاص الماء العذب والحصول على الكهرباء وكذلك المواد الخام المستخدمة فى الصناعات المختلفة . كما أن البحار تعتبر مستودعاً للمواد المتخلفة من المصانع والمجارى والإشعاعات الذرية بالإضافة إلى كونها مسرحاً للرياضة والاستحمام .

وتغطى البحار والمحيطات نحو ثلثى الكرة الأرضية بأعماق مختلفة بمتوسط $\frac{1}{4}$ ٢ ميل ويشغل حجم الماء فراغاً قدره حوالى ١,٣٧ × ١٠^٩ كيلو متر مكعب . وإلى أيامنا هذه لم تكتشف الثروات المختلفة التى تسكن تحت البحار والمحيطات فى هذا الفراغ الهائل من الماء ، والتى ربما يكون لها أثر كبير فى ازدهار وتقدم بعض الدول النامية نتيجة لاكتشاف هذه الثروات .

وفى هذا الكتاب أردت أن أعرض فكرة سريعة عن مجالات علوم البحار المختلفة فى ميادين العلم والتقنية والتنويه بالثروات والطاقات المختلفة التى يمكن أن تستغل فى الحياة العامة . وعن الوسائل المختلفةالتى يجب توافرها لكى تصبح الجمهورية العربية المتحدة من أكبر الدول فى تطبيق علوم البحار فى حياتنا القومية نظراً لطول سواحلها على البحر المتوسط والبحر الأحمر عدا البحيرات المختلفة .

نشأة البحار والمحيطات

عندما يمر المرء على شاطئ البحر ويرسل النظر إلى الأفق البعيد عبر مياه زرقاء صافية تملؤها الأمواج وتسبح فى أعماقها الأسماك . يفكر فى قدرة الخالق المبدع ويتذكرا لآية الكريمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » صدق الله العظيم . فينشرح صدره وينير بالإيمان قلبه فتهدأ نفسه . وأحياناً أخرى قد يذهب به التفكير إلى أكثر من ذلك . كيف نشأت هذه البحار ومن أى معين ملئت هذه الأحواض الشاسعة بالمياه ؟ وهنا تزداد حيرته ولا تسعفه المعرفة فيذهب ليطفئ ظمأه بين أحضان الكتب . وهنا نسعفه نحن بالإجابة ونروى ظمأه بالمعرفة . فقد تكونت الكرة الأرضية منذ أكثر من أربعة آلاف مليون سنة وتبعتها المحيطات فى فترة وجيزة بعد أن تكونت الأرض . وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بما حدث فى تلك الأزمنة الغابرة إلا أنه يمكننا أن نفكر ونستنتج فيما يفسر تكوين كوكبنا ومحيطاته الزاخرة . فقد تكون الأرض ورفيقاتها من الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية قد تكونت باردة

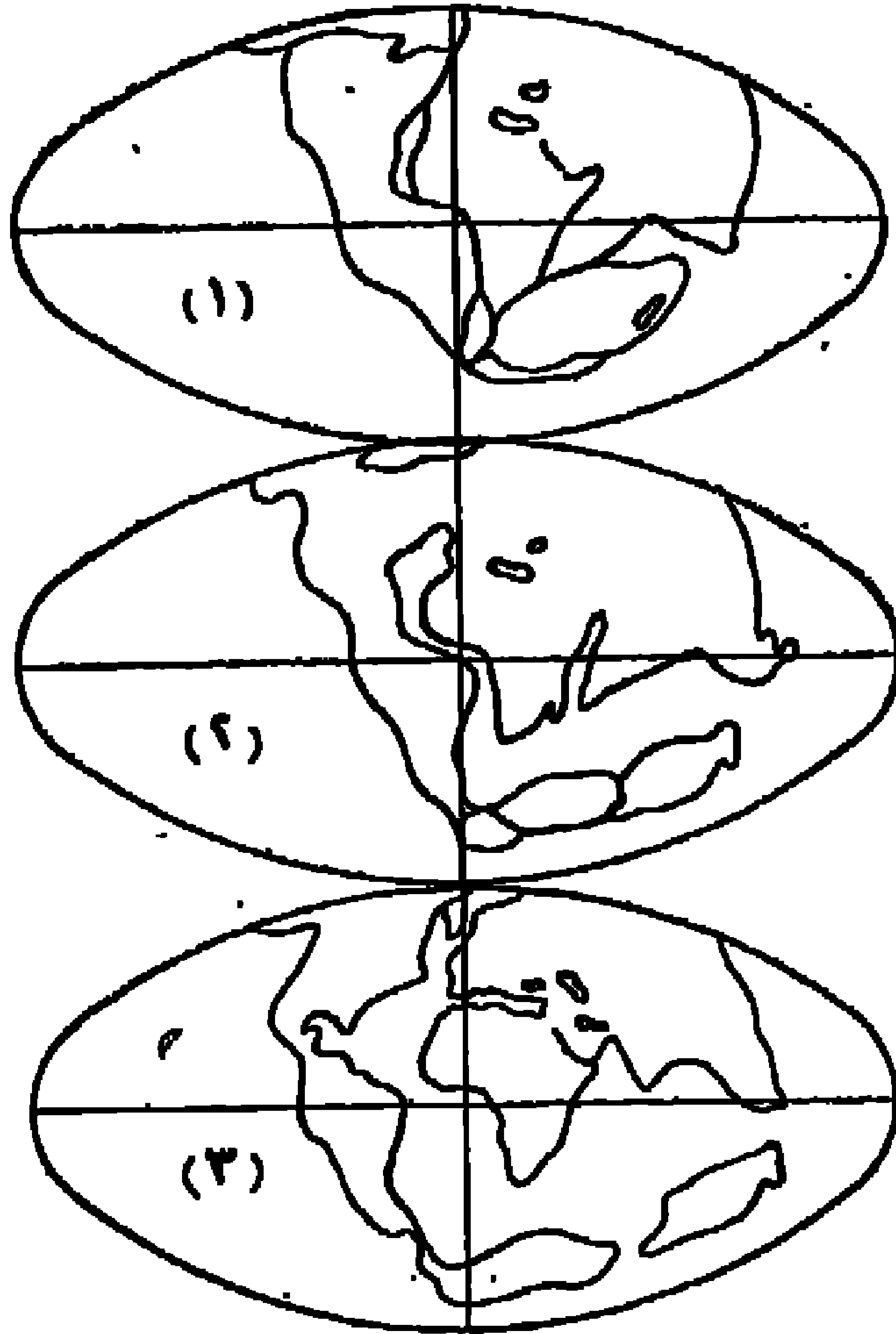
وذلك نتيجة لتجمعات غازية ومادية حول نواة مادية كبيرة وذلك من الفضاء المحيط بالشمس الوليدة . وعلى ملايين السنين التى تتم فيها هذه التجمعات الكاسحة تنجذب كل مجموعة من التجمعات الصغيرة إلى تجمع أكبر قريب يكون فى النهاية كوكباً بارداً كبيراً . وفى تفسير آخر يعتمد على نظرية أخرى مؤداها أن الأرض قد تكونت متوهجة . حيث تكثفت نتيجة لدوران كتل المواد الغازية الساخنة الملقاة من الشمس . وعلى أى حال سواء كانت الأرض متكونة ساخنة أم باردة فإنه يوجد قليل من الشك فى أنه بعد تكوينها مباشرة أصبحت مصهورة . وإذا لم يكن هذا فإنه لاتوجد طريقة مرضية لشرح توزيع المواد الثقيلة والخفيفة خلال كوكبنا . ويتكون جوف الكرة الأرضية من المواد الثقيلة كالحديد والنيكل ويبلغ قطرها حوالى ٤٠٠٠ ميل يحيط بها رداء سمكة ٢٠٠٠ ميل يتكون من أحجار السلكيت الخفيف الغنى بالحديد والمغنسيوم . وتتكون الغلالة الخارجية للكرة الأرضية من طبقة رقيقة من الأحجار الخفيفة يبلغ سمكها من ٥ إلى ٢٠ ميلا . وباعتبار الأرض كوكباً مصهوراً فإنه بمضى الزمن تفقد بسرعة حرارتها . وقد قدر العلماء أنه فى حوالى ١٠,٠٠٠ سنة فإن الأرض يمكن

أن تفقد كمية من الحرارة كافية للجزء الجوهرى لطبقة الكرة الأرضية أن يتجمد . وكان أثناء هذه الرحلة فى حياة تكوين الأرض أن بدأت المحيطات فى الظهور والتكوين . وحدث هذا عن طريق الماء الذى صب فى الفجوات الأرضية وانحشر فى الصخور المصهورة نتيجة أنه عند درجات الحرارة والضغط المرتفع فإن الماء والصخور المصهورة يمكن خلطهما بأى نسبة . ولكنه عندما يبرد الصخر الأساسى ويتجمد فإن الماء يندفع إلى الخارج ويتبخر ويضاف إلى غلاف الكرة الأرضية الهوائى . وبينما القشرة الأرضية تبرد وتعطى بخار مائها إلى الجو فإن كميات كثيفة من السحب تتكون وتبدأ الأمطار فى تكوين السيول . ولكن ماء الأمطار لم يمكث كثيراً لأن درجة حرارة القشرة الأرضية ما زالت أعلى من درجة غليان الماء . ولهذا استمرت عملية التبخير إلى الهواء عشرات بل مئات السنين حتى أصبحت درجة حرارة الصخور السطحية أقل بكثير من درجة غليان الماء . وعلى هذا الأساس بدأت المياه تتجمع فى برك وتندفع على هيئة شلالات مكونة البحار تحت تأثير عمليات التعرية المختلفة على سطح الكرة الأرضية . وجدير بالذكر أن هذه البحار الأصلية لم تكن هى البحار والمحيطات الموجودة

الآن . لأن توزيع الماء على الكرة الأرضية تغير كثيراً ويرجع هذا إلى عوامل جيولوجية كثيرة . وقد أصبح اليوم حوالى ٧٠٫٨ فى المائة من سطح الكرة الأرضية مغطى بالبحار والمحيطات بمتوسط عمق ٢ إلى ٣ أميال بينما تبلغ المساحة الكلية للماء حوالى ١٣٩٫٤٨٠٫٠٠٠ ميل مربع . ولم يغير قاع المحيط من طبوغرافيته ولكن طرأ على القاع من تغيرات تماثل ما طرأ على اليابسة من تشققات وانبثاق جبال جديدة . فهناك تحت سطح المحيط نجد سلاسل الجبال الممتدة والمنخفضات والأودية . ولكن إذا قارنا سمك القشرة الأرضية التى ترقد تحت ماء المحيط بتلك التى فى القارات نجد أن الأولى عبارة عن عدة أميال ، بينما الثانية تبلغ حوالى ٢٠ ميلا فى السمك . ويستدل الجيولوجيون عادة على عمر أى صخر من الصخوز بواسطة الحيوانات المتحجرة التى توجد عادة مضغوطة بين هذه الصخور. وعن طريق هذه الدراسة يمكن للإنسان معرفة ما إذا كان أى جزء من الأرض قد غمرته المياه فى وقت من الأوقات وكذلك تحديد الزمن الذى كانت المياه تغمره فيها . فمنذ حوالى مائة مليون سنة كان جنوب شرق بريطانيا كله عبارة عن بحر ضحل نتيجة لعمليات الترسيب المتتالية للمواد الجيرية . ثم امتد

البحر ناحية أوربا وكون بحر المانش الموجود حالياً . وبنفس الطريقة كانت هناك أجزاء من شمال القارة الأمريكية فوق سطح البحر ولكن المياه غمرتها فتحولت إلى بحار . وإذا نظرنا إلى خريطة الكرة الأرضية لأمكننا أن نرى أن المنحنيات والانبعاجات التي نراها في أمريكا الجنوبية والشمالية تنطبق تماماً على ما يناظرها في القارتين الأوربية والأفريقية (شكل ١) وهذا يؤيد إحدى النظريات التي تقول إنه في عصر من العصور الجيولوجية كانت هذه القارات ملتصقة مكونة كتلة صلبة من اليابس . هذه الكتلة حدث فيها انشقاق أدى إلى تكوين هذه القارات المختلفة بما فيها منطقة القطب الجنوبي . كذلك الحال بالنسبة للجزء من المحيط الهندي الواقع بين جنوب أفريقيا والهند حيث نجد أن جزر مدغشقر وسيلان تملآن الفراغ الناتج بين القارتين . ومما يؤيد هذه النظرية أن الصخور التي تكون الحافات المتقابلة للقارات متشابهة في التكوين الجيولوجي والشكل العام للجبال .

نرجع إلى قلب الكرة الأرضية المتكونة من كتلة منصهرة ذات درجة حرارة عالية . وقد يتعجب المرء ويقول لماذا لا نشعر بهذه الحرارة تحت أقدامنا . والجواب هو أن القشرة الأرضية



شكل رقم (١)

١ — العصر الكربونى
٢ — العصر الإيوسينى
٣ — العصر الجيولوجى

يوجد بها طبقة من الصخور بسمك يبلغ حوالى ١٠٠ ميل أقل صلابة من الطبقتين التى تعلوها والتى ترقد عليها . وهذه الصخور موصل ردىء للحرارة مما يمنع وصول هذه الحرارة الكامنة فى القلب إلى سطح الأرض . ومع هذا فإن هذه الكتلة المنصهرة دائمة الغليان كالماء الذى يغلى داخل القدر يحاول دائماً أن يجد له منفذا للخارج ، فتحاول المعادن والمواد المنصهرة فى داخل القلب الخروج فتجد لها المنفذ خلال الأماكن . الضعيفة فى القشرة الأرضية فيظهر لنا ما نسميه بالبراكين والتغيرات المفاجئة فى أماكن بعض الجزر وحتى فى بعض القارات .

وكما تغير توزيع البحار والمحيطات تدريجيا مع مرور الزمن كذلك حدث تحول فى تركيب مياهها إذ أخذت الأنهار والجداول تغسل الأرض من الأملاح والمعادن المختلفة لتصبها فى البحار والمحيطات ، فتحولت هذه مع البخر المستمر إلى مياه ملحة محتوية على كميات من الأملاح المختلفة وأغلبها بالطبع هو كلوريد الصوديوم (ملح الطعام المعروف) . ومع أن نسبة وجود الأملاح الأخرى فى الماء قليلة إلا أنه بالنسبة لكمية المياه الهائلة فى المحيطات نجد أن الوزن الكلى لهذه

الأملاح الذائبة تفوق تلك التى قد توجد على اليابسة . والأملاح الذائبة فى مياه البحر موزعة توزيعاً مختلفاً فهى تزيد فى أماكن عنها فى الأخرى . وهى عادة ما تستعمل كدليل لتحركات التيارات وكتل الماء فى البحار فهى مكونة من كتل من المياه تسبح كل منها فى اتجاه معين قد تختلط ببعضها البعض عند نقطة التقائها وكل منها له درجة حرارة ودرجة ملوحة معينة . فمثلا المياه الباردة ذات الملوحة العالية تكون كثافتها كبيرة فتغوص فى القاع . والمياه الساخنة كذلك المياه العذبة تكون كثافتها صغيرة فتطفو على السطح . وتيار الخليج مثلا هو تيار من الماء الساخن محمل بكمية من المواد الغذائية لا بأس بها . لذلك فهو من منبعه حيث يبدأ من النهر الكاريبى وحتى يتم دورته على شواطئ جنوب غرب أوربا نراه يسبح محتفظاً بكيانه وبلون مياهه ولو أنه توجد عملية مزج مع المياه المحيطة به فى القاع والجوانب . هذه التيارات الموجودة فى المحيط عكف على دراستها الإنسان منذ قديم الزمن لأنها الأساس الأول فى مساعدته فى خوض البحار حيث إنها من أهم العوامل التى تؤثر على الملاحة البحرية .

ويحتوى قاع المحيط على مواد مترسبة من المياه التى تعلوها هذه المواد حسب النظريات الكيميائية المختلفة تتكون نتيجة لزيادة تركيز المواد الذائبة . فبمرور الزمن ومع البخر المستمر نتيجة ازدياد درجة الحرارة تزيد درجة تركيز المياه وتترسب الأملاح . هذه العملية بالطبع تحتاج إلى فترات هائلة من الزمن حتى تتم بهذه الصورة فهى بطيئة جداً وغير ملحوظة فى المحيطات اللهم إلا على بعض الشواطئ الحارة حيث تكون المياه ضحلة أو محصورة بصورة أو أخرى مما يساعد على زيادة سرعة عملية الترسيب . ولا يحسب المرء أن كل المواد المترسبة على قاع المحيط هى أملاح فقط ، فمياه المحيط زاخرة بالحيوانات والنباتات المختلفة التى تنتمى إلى عدد كبير من فصائل عالم الحيوان . ولكل حياة نهاية . فعندما تنتهى حياة هذه الحيوانات فإن مقرها الأخير هو قاع المحيط . فتترسب هذه الجثث على القاع بفعل الجاذبية الأرضية وتغطى قاع المحيط مع الرواسب الأخرى . وبذلك يصبح قاع المحيط بالنسبة للجيولوجى بمثابة كتاب يقرأ فيه تاريخ القرون والعصور التى مضت على هذه البحار . فيمكن أن يستنتج تكوينها فى العصور الغابرة وذلك بتحليل الأملاح الراسبة كما يمكن له أن يعرف

الحيوانات التى كانت تعيش فيها والأزمنة التى كانت تعيش فيها . وحتى التيارات البحرية القديمة ، فيمكن تتبع مساراتها بواساطة دراسة الرواسب التى فى القاع . فمثلا إذا وجدت جثث لحيوانات استوائية فى جزء من بحار المنطقة المعتدلة دل هذا على وجود تيار سابح بين الجزئين . طبعاً هذا هو حلم من أحلام علماء الجيولوجيا يعملون على تحقيقه بكل جهد ولكن يعوزهم الوقت نظراً لكبر المساحة البحرية التى يجب عليهم تغطيتها بالدراسة والبحث حتى يتوصلوا إلى هدفهم .

ونحن نعيش الآن فى نهاية العصر الجليدى الذى بدأ من مليون من السنين مضت . فما زالت هناك كمية هائلة من المياه متجمدة وتلك هى كتل الجليد المتجمدة فى الجزيرة الخضراء (Greenland) ومنطقة القطب الجنوبى (Antarctic) وإذا ذابت هذه الكتل فإنها تكون كفيلة بإغراق مدن نيويورك ولندن وباريس عن آخرها ذلك لأن منسوب سطح مياه البحر سيعلو بحوالى ٥٠٠ قدم . ولقد ارتفع سطح البحر فعلا عن مستواه منذ ستة قرون بحوالى ٣٠٠ قدم غمرت خلالها حضارات بأكملها . ثم وصل هذا المنسوب إلى حالة ثابتة منذ حوالى ٦٠٠ عام إذ لم يحدث تغير فيه يزيد على ١٠ أقدام

ولن يتغير المنسوب إلا إذا حدث تجمد فجائى فى كتل مياه جديدة أو ذوبان الكتل الموجودة بالفعل . والتوازن الحافظ لمستوى سطح البحر الحالى غير معروف تماماً إلا أنه يمكننا أن نقول إن كتلتى الثلج فى الأرض الخضراء والقطب الجنوبى قد تكون ممسوكتين من قاعهما بثقل كتلتهما أو بجبال تحت الماء .

هذا فى البحر ، أما على اليابس فكتل الثلج يمكن لها أن تنتشر لمسافات أوسع فالجليد الذى يغطى شمالا كندا والولايات المتحدة الأمريكية وآسيا وأوربا الشمالية هذه يمكن لها أن تنتشر لمسافات أوسع . وبمعنى آخر قد تذوب هذه الثلوج قرب الشواطئ وتتحرك مياهها إلى البحر . ولهذا فمن المهم أن يعتنى بقياس درجة تجمع الجليد ومقارنته بدرجة التبخر وقياس كمية الثلج التى تذوب وتنزل إلى البحر . ويكون التغير الذى يحدث فى سطح البحر نتيجة لذوبان الثلوج أو نتيجة لتجمدها . ولكن ميكانيكية هذا التغير هى الشىء الذى قد يصعب تفسيره.

تطور علوم البحار

لقد كان الإسكيمو أول من قاموا بغزو البحار وذلك عندما بدءوا برحلتهم من الجزيرة الخضراء(Green Land) بكندا إلى شمال اسكتلندا وتبعهم بعد ذلك قدماء المصريين ثم العرب ثم الصينيون . وفى عام١٤٨٧ قام بارثولوموودياز (Bartholomew Diaz) ، وبعد عشر سنوات تبعه فاسكو دى جاما (Vasco De Gama) البرتغالى من لشبونة بعبور المحيط الأطلسى حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح حيث تحرك من الغرب إلى الشرق وهذا ما فعله قدماء المصريين فى ٦٠٠ قبل الميلاد حيث سلكوا هذا الطريق من الشرق إلى الغرب . بعد ذلك جاء دور كريستوف كولمبس الذي وصل إلى الهند عن طريق البحر غرباً فى المحيط الأطلسى . وفى عام ١٥٢٠ خرج ماجلان لأول مرة إلى المحيط الهادى الجنوبى قاصداً الدوران حول أمريكا الجنوبية . وتوالت بعد ذلك الكشوف الملاحية الإنجليزية والفرنسية وكان للرحلات الاستكشافية التى قام بها بعض العلماء فى القرن الثامن عشر من أمثال فروبشر (Frobisher) وديفز وهدسن

و بافن (Baffin) و برنج (Baring) وكوك و روس و بارى وفرانكلن.

وكانت كلها أساساً للكشف الجغرافى و بحثاً عن طرق جديدة. وفى أثناء هذه الرحلات جمعت المعلومات اللازمة لدراسة المحيطات فى هذا الوقت وتشمل التيارات وبعض الظواهر الطبيعية والبيولوجية . بعد ذلك بدأت رحلة اكتشاف المناطق القطبية بإشراف بارى ومارخام وجريلى (Greeley) ونانسن (Nansen) و پيرى (Peary) وسكوت (Scott) وشاكلتون (Shackleton) لمعرفة جغرافية المناطق وجمع بعض المعلومات عن طبيعة المخلوقات فى هذه المناطق . وفى هذه الرحلة استطاع أحد المستكشفين ويدعى وليم سكورسبى (William Scoresby) من تسجيل بعض الصوت فى الماء ولاحظ أن الماء الذى ليس له لون يحتوى على كائنات حية (تعرف الآن بالدياتومات) نتيجة لحركة الحيتان . وقد قام روسى بعملية استكشاف ومسح للحيوانات التى تعيش على القاع . وأدخل نانسن شبكة البلانكتون مع بعض التعديلات عليها واقترح وجود أمواج داخلية داخل الماء نتيجة لأبحاثه . ومن المعلوم أن الدراسات الفعلية على البحار والمحيطات بدأت فى القرن التاسع عشر حيث إن كلاً من أهرنبرج (Ehrenberg) وهمبولدت (

وهوكر (Hooker) وأورستد (Orstedt) أجروا التجارب العديدة على البيئة التى يعيش فيها البلانكتون وطرق تطورها ودراسة مخلفاتها على القاع . وكان للملاحظات التى اقترحها شارلس دارون على شعب المرجان واختراع مولر لشبكة البلانكتون أثر كبير فى زيادة الاهتمام بدراسة العلوم المختلفة للبحار الشىء الذى أدى إلى التعمق فى دراسة المحيطات من النواحى الطبيعية والكيمياثية والبيولوجية . وقد تمكن بعض علماء الرياضة التطبيقية فى ذلك الوقت أمثال كبلر وفوسيس وفورير وفارنيس ولا بلاس من تفسير للنظريات الجديدة وتطبيقها على المحيطات لشرح التيارات المائية والتفاعل الذى يحدث بين طبقات الماء والهواء . وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأ بعض العلماء دراسة المحيطات من جميع نواحيها . فوضع فوربس (Forbes) أول مشروع لتوزيع الكائنات فى البحر فى المستوى الأفقى والرأسى . أما ماتثو فونتين مورى فقد طور ما فعله فرانكلن وأخذ نتائج عديدة فى حساب الرياح والتيارات لتطبيقها على مستوى عالمى . وكان كتابه فى طبيعة جغرافية البحار أول مرجع فى علوم البحار . وتبع فوربس وموری فئة من العلماء الذين كانوا مهتمين بهذا الفرع من العلم فبدءوا بعمل أول رحلة

استكشافية حول العالم على مركب الأبحاث المتحدية (Challenger) وقد اشترك كثير من الناس فى هذه الرحلة منهم من اشترك بمجهودات علمية أمثال هيلاند. هانسن وأوتو با تريسون وجوستاف إكمان ومنهم من أشرف على تجهيز المعامل مثل ديفل تومسن . ومنهم من تطوع فى الاشتراك فى هذه الرحلة كأمير موناكو ولويس أجاسيز وألبرت هوتور شارل .

وتبع مركب الأبحاث المتحدية مراكب أخرى للأبحاث تابعة للدانمارك وإنجلترا وألمانيا وفرنسا وهولندا وأستراليا وأمريكا . وكان من ضمن العلماء الذين كان لهم أثر كبير فى تطوير علوم البحار فى العصر الحديث هم كانلسن (Kunelsen) وإكمان وأسفردرب (Sverdrup) وديفان ودوست وسكوت وبيجيلو . ونذكر هنا أن المعلومات التى جمعت بمراكب الأبحاث التابعة للبلاد التى ذكرت سالفاً كانت عاملاً مهمّاً فى فهم ما يدور فى البحار والمحيطات وشرح لنظريات كثيرة متعلقة بحركة الماء والأمواج والكائنات الحية التى تعيش فيها . وكانت هذه المعلومات التى تشتمل على تسجيل درجات الحرارة والملوحة والتيارات والرياح وجمع العينات المختلفة من المياه والصخور المتفتتة من قاع المحيطات ترسل إلى معاهد الأبحاث

والجامعات والمتاحف فى جميع أنحاء العالم لتحليلها وعمل الدراسات الأكاديمية والتطبيقية . وكانت معظم المعاهد مقصورة فقط على أبحاث السمك . وبيولوجية البحار والمحيطات ثم توسعت فشملت الناحية الطبيعية والكيميائية . ثم بدأ بعض الأقسام فى بعض كليات الجامعات فى الاشتراك فى هذه البحوث . وكان أشهر الأماكن نشاطاً فى هذه الدراسات محطة أبحاث علم الحيوان بنابلى فى إيطاليا ومحطة أبحاث الكائنات البحرية بولاية وودز هول (Woodshole) بأمريكا . وكان معظم المشتركين فى هذه المحطات متخصصين فى علم الأجنة أو علم وظائف الأعضاء . ثم بدأت مراكز الأبحاث فى الازدياد تبعها زيادة مراكب الأبحاث ثم تبعها زيادة عدد العلماء . وخلال العشرين عاماً الماضية أصبح علم علوم البحار من المجالات التى تهتم بها جميع الدول . وحديثاً اشتركت دول كثيرة بسفن أبحاثها وعلمائها فى مسح شامل للمحيط الهندى لدراسة الظواهر المختلفة الخاصة بهذا المحيط للبحث عن مصادر جديدة للغذاء .

فروع علم « علوم البحار »

تشمل الدراسات العلمية والاستكشافات التى تجرى على المحيطات والبحار دراسة الرواسب والصخور التى تسكن فى قاع البحار والتفاعل بين الجو والبحر ودراسة كتل الماء المختلفة فى حالة سكونها وفى حالة تعرضها لقوي داخلية أو خارجية ودراسة الحياة فى البحار وسلوك الكائنات الحية والتكوين الكيميائى لماء البحر ودراسة الظواهر الطبيعية للبحار وطبيعة قاع البحر وأصل المحيطات وتاريخ نشأتها وتطورها . من هذا نري أن علم البحار كثيراً ما يطلق عليه اسم علوم البحار . ويحتوى على فروع من العلوم المختلفة كالجيولوجيا والأرصاد والبيولوجيا والكيمياء والطبيعة والجغرافيا والجيوكيمياء وديناميكا الموائع والرياضة البحتة والتطبيقية . كذلك يتضمن دراسة ما يجرى داخل المحيطات والتفاعل الذى يحدث بين كتل مياهه المختلفة بالجوامد والغازات الذائبة والمترسبة فى بعض الأحيان . ونتيجة لطبيعة مياه المحيطات والبحار كسائل لذلك وجب دراسة الخواص المختلفة للماء من اختلاف فى الحركة

فى مستوى أفقى ورأسى والاختلاط الذى يحدث بين مياه البحر والمياه العذبة التى تأتى من الأنهار والأمطار .

والمعروف أن مياه البحار والمحيطات فى العالم كله متصلة ببعضها البعض لذلك وجب دراسة المحيطات كجسم متكامل. ودراسة علوم البحار تحتاج إلى مراكب أبحاث لإجراء التجارب والدراسات عليها وفى بعض الأحيان يضطر العلماء إلى النزول فى الماء فى أعماق كبيرة بحثاً عن هدفهم . وفى كثير من المرات تجمع العينات من أعلى وأسفل جزء من المحيط لدراسة ما يجرى فى جميع أجزاء المحيط . وكثير من الناس يخلطون فى المفهوم العام لعلم علوم البحار الذى ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) علوم البحار البيولوجية : وتشمل دراسة النباتات والحيوانات التى تعيش فى الماء بالإضافة إلى دراسة الأسماك .

(ب) علوم البحار الطبيعية : وتشمل دراسة الظواهر الطبيعية للبحار وهى دراسة تغير الملوحة ودرجة الحرارة والتيارات البحرية والأمواج والمد والجزر عند أعماق مختلفة من البحار وبالقرب من الشاطئ . وتأثير البحر على المناخ والرياح على اتجاه سريان الماء .

(ح) علوم البحار الكيميائية : وتشمل دراسة الأملاح المعدنية والمواد العضوية المذابة أو المترسبة على القاع .

وقد اقترح بعض العلماء حديثاً تقسيم علم علوم البحار إلى أربعة أقسام نظراً للتطور الأخير الذى حدث فى البحوث المختلفة فى علوم البحار . ويشمل القسم الرابع وهو علوم البحار الجيولوجية ويهتم بدراسة التكوين الجيولوجى لقاع البحر وتكوين الرواسب تحت الشواطئ نتيجة للتيارات المائية وتاريخ تطور البحار والمحيطات فى نشأتها . ومع ذلك لا يمكن أن ينفصل كل فرع عن الآخر انفصالا تاماً . وذلك لأنها تتأثر ببعضها .

علوم البحار البيولوجية فى حياتنا العلمية

تتضمن العلوم البيولوجية دراسة الحياة التى تجرى فى أي مكان . فمياه البحر تزخر بحياة حافلة تضم فيها الحيوانات والنباتات والمواد العضوية والبكتريا وحتى الميكروبات . فنحن حينما نتكلم عن علوم البحار البيولوجية ، إنما نتكلم عن عالم آخر — يعيش بجوار عالمنا يتنفس الأكسجين ولكن ذائبا فى الماء .

وتشمل علوم البحار البيولوجية الفروع التالية :

١ — دراسة النباتات التى تعيش فى الماء وهى الطحالب والنباتات الجذرية والبلانكتونية وعلاقة هذه النباتات بالأسماك كغذاء ومراعى للصغار .

٢ — دراسة الحيوانات التى تعيش فى الماء (غير الأسماك) مثل القشريات والإسفنج والحيتان وعلاقتها بالأسماك .

٣ — الأسماك التى تعيش فى الماء ومدى انتفاع الإنسان

بها والطرق التى يمكن استعمالها لاستغلال الثروة السمكية إلى أقصى حد ممكن مع الإبقاء عليها دون ضياع شيء منها .

(أ) الطحالب :

لقد استخدم الإنسان الأعشاب البحرية كغذاء من قديم العصور — كما استخدمت فى الطب وكسماد للنباتات . وقد وجدت قطعة من الشعر الإنجليزى القديم يحكى فيها الشاعر عن امرأة تطبخ الطحالب . كما استعملت الطحالب البحرية كغذاء وسماد فى أوربا فى العصور القديمة .

وكان الآجار أول مستخلص من الأعشاب البحرية أمكن للإنسان الحصول عليه . وكان أول من أدخل الآجار فى علم البكتريولوجيا هى السيدة فانى هيس (Vanny Hess) الذى كان زوجها يشتغل مع العالم البكتريولوجى (الألمانى الجنسية) روبرت كوخ . كان هذا عام ١٨٨١ . ومن أهم مستخلصات الأعشاب البحرية هى الآجار . الإ بلجين وا (Carrageenin) وهى مادة جيلاتينية تستخلص مما يسمى تجارياً . الحزازيات الأيرلندية ، وهو من الطحالب الحمراء .

وقد استخدمت مادة الكاراجينين فى صناعة الحلوى ببلاد الإنجليز ونقلها المهاجرون الأمريكيون بعد اكتشاف القارة الأمريكية معهم . وكانوا يستوردون هذه المادة من إنجلترا إلى أن اكتشفت هذة المادة فى بوسطون وقامت عليها صناعة الكاراجينين من قرن من الزمان . وبدأت صناعة الآجار فى اليابان من قديم الزمن ولكن كثر انتشار صناعة الآجار فى الحرب العالمية الثانية .

تنتمى الطحالب إلى الثالوسيات وهى نباتات تتكاثر بوساطة الأنواع وحيدة الخلية . وتتضمن النباتات البحرية المجموعات الآتية :

الطحالب الزرق والخضر والبنية والحمراء والذهبية . وكلها ذات قيمة اقتصادية ولكن أهمها فى ذلك هى الطحالب الحمراء .

فى جزر هاواى تجفف الأعشاب البحرية (والطحالب الحمراء) وتدخل فى عمل الأطعمة الشعبية . وفى إنجلترا والولايات المتحدة تجفف هذه الأعشاب وتؤكل وهى تعتبر من أفخر أنواع الأطعمة الشعبية . وتستخدم هذه الأعشاب كغذاء شعبى فى الهند الشرقية والغربية وأستراليا ونيوزيلندة . كذلك

يستخرج الجيلى مما يسمى تجارياً الحزاز الأيرلندى (طحلب أحمر) وتقوم صناعة النورى(Nori Industry) من طحلب أحمر اسمه « بورفيرا » . وفعلا تقوم زراعة هذا الطحلب على نطاق واسع فى اليابان ويكون الحصاد فى شهرى نوفبر وديسمبر . من كل عام . وتبلغ حصيلة اليابان من هذا العشب حوالى ٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠ لوح (حيث تجفف الطحالب وتضغط على هيئة ألواح) وتبلغ قيمة هذه الكمية ٦ ملايين دولار فى السنة . ويتناول الرجل اليابانى العادى النورى فى وجبة الإفطار ولو أنه يدخل فى الوجبات الأخرى (ولعله يقابل الفول المدمس عندنا) . وترجع قيمة الأعشاب البحرية الغذائيه إلى ما تحتويه من فتيامينات ومعادن لأن المواد الكربوايدراتية التى تحتويها موجودة بصورة لا يمكن للجسم أن يهضمها . وبعض هذه الأعشاب يحتوى على كميات كبيرة من فيتامين ج وفيتامين ب١. ومن الغريب أنه كلما قل عمق المنطقة التى ينمو فيها العشب كلما ازدادت نسبة وجود فيتامين ج به . وقد وجد أن طحلب الا (بورفيرا) الذى يستخرج منه النورى يحتوى على ما يقرب من ١٤٠ مجم فيتامين ج، ٥٠٠ وحدة من فيتامين ب١ فى كل ١٠٠ جم من هذا العشب وهى أعلى قيمة

سجلت للأعشاب البحرية . ولا ننسى أن هذه الأعشاب تحتوى على كمية عالية من اليود وهو معروف كعلاج مفيد للغدة الدرقية . وفيما يلى نورد كمية فيتامين ج وفيتامين ب١ الموجودة فى بعض الطحالب البحرية والتى توجد على شواطئ بلادنا :

اسم الطحلب	فيتامين ب	فيتامين ج
لاميناريا	٢٠٠ وحدة	بين ٤٧ ، ٥ مجم
أولفا	٤٠٠ وحدة	٤,٦ مجم

ومن الاستخدامات الأخرى للطحالب — مثلا تستخرج مادة الفنورى (Funory) وهى عبارة عن غذاء جاف قابل للذوبان فى الماء الساخن ويتم تجفيف كميات هائلة يقرب ثمنها من مليون دولار وهو يستعمل فى أغراض عدة ولو أن استعمالاتها مقصورة على اليابان. ومن استعمالاته إنه يحل محل النشا فى كى الملابس وفى تحضير الألوان المائية وفى استعمالاته الغراء العادى كما يدخل فى صناعة تصفيف الشعر .

نرجع إلى ما يسمى بالحزاز الأيرلندى وصناعته فى إنجلترا

ـ تنتج بريطانيا منه ما يقدر قيمته بـ ٢٩,٦٧٥ دولاراً سنوياً ـ وقد كان التوسع فى زراعته واستخراج مادة الكاراجنين منه نتيجة للحرب العالمية الثانية حتى يخفف من شدة الإقبال على استعمال الآجار فى ذلك الوقت.

وهو يشبه شجيرة قصيرة ذات فروع مفلطحة متفرعة. ويبلغ ارتفاع الشجيرة من ٢ ـ ٣ بوصات وهى تنمو على الصخور على شاطئ البحر. تجمع هذه النباتات وتجفف فى الشمس فتفقد لونها وتصبح بيضاء تغسل بماء البحر وتترك لتجف حتى تتم عملية تبييضها. ويباع غالباً على هذا الشكل أى بعد أن يفقد لونه أو يباع بعد أن يمر بعدة عمليات تنقية وتصفية. واسمه العلمى (Chondrus crispus) ويقوم عدد من الناس بزراعته فى إنجلترا ومادة الكاراجنين تشبه الآجار فى صفاتها الكيميائية من حيث إن كلا منهما عبارة عن استيرات كبريتية للجالاكتان (Sulfuric acidesters of Jalactan)

ويختلف الآجار عنه فى أن الجزء الكربوايدراتى للآجار أكثر تعقيداً منه فى الكاراجينين ونتيجة لهذا فإن المادة الأخيرة تحتوى على كمية من المادة الجيلاتينية أقل من الآجار. ولهذا

فإن الكاراجينين يستعمل فى الحالات التى لا يحتاج فيها لعمل جيلى ثقيل متماسك والتى يطلب فيها درجة لزوجة عالية .

ويستعمل الكاراجينين فى تحضير مستحضرات الزينة وبعض الأدوية وفى عمل الأطعمة المحفوظة . كما يستعمل كعامل مروق فى صناعة البيرة وفى عمل معجون الأسنان .

هذا ومن الممكن تغيير صفات وخواص الكاراجينين بتغيير كمية الأملاح والمواد العضوية التى تحتويه وبتغير رقمه الأيدروجينى .

أما الآجار — فباستعمالاته العديدة لعمل أطباق الحلوى الشهية معروف لدينا من قديم الزمن خصوصاً عند سكان الشرق الأقصى . ولعله من الجدير بالذكر أن أول من اكتشف إمكانية تحويل الآجار إلى مسحوق كان تاجراً يابانياً فى عام ١٧٩٦ وكان على أثر هذا أن قامت صناعة الآجار فى اليابان .

ويستخرج الآجار من الطحالب الحمراء (Gelidium cartilaginum and Gracilaria) أما عن صفات الآجار الطبيعية والكيمياثية ، فهو يمتاز بأنه لا يذوب فى الماء البارد ولكنه قابل للذوبان فى الماء الساخن ويكفى محلول منه بنسبة ١٪

حتى يمكننا أن نحصل على جيلى متماسكة وهذه الصفة هى التى تعطى هذه المادة تلك الشهرة العالمية .

وصناعة الآجار من أكبر الصناعات الوطنية فى اليابان وهو يستخرج عموماً من حوالى ٣٠ نوعاً من الطحالب والأعشاب البحرية – ولكن أكثر هذه الطحالب استعمالا هى جليديم (Gelidium) وينمو هذا الطحلب فى المنطقة الساحلية إلى عمق ٦٠ قدماً أو أكثر ويزدهر نموه فى المناطق الأكثر عمقاً .

وعند جمع الطحالب تغسل وتنقى من الأصداف التى قد تكون بها ثم توضع فى براميل كبيرة بها ماء . تغلى الطحالب فى هذا الماء (رقمه الأيدروجينى حوالى ٦) . يستمر فى الغليان حوالى ساعة أو ساعتين حيث يكون الجيلى قد ذاب فى الماء . ثم بعد حوالى ثلاث ساعات من ابتداء الغليان تضاف كمية من الطحالب الأخرى (غير الطحالب الحمراء) ثم تترك لتغلى معها حوالى ساعة . هكذا تتم عملية استخراج الآجار فيبرد المحلول وترسب الأعشاب فى القاع ، أما السائل الذى يعلوها فيسكب فى مصاف ضيقة العيون حيث يصفى منها فى صناديق من الخشب قليلة العمق عبوة كل منها حوالى ١٤ لترا

ثم يترك ليتجمد على هيئة كتل إسفنجية بيضاء . وبهذا يفقد الآجار ماءه . عندئذ يعاد تسخينه ثم تجميده عدة مرات يفقد فيها الآجار حوالى ٨٠ — ٩٠ ٪ من مائة وتساعد هذه العملية على إزالة لونه وإزالة الأملاح الموجودة به . وتشكل الكتل البيضاء الناتجة على هيئة قضبان أو ألواح وهى معروفة فى الأسواق على هذا الشكل .

وتنتج اليابان ما يقرب من ١٤٠٠٠ طن من الآجار تستورد الولايات المتحدة منه حوالى ٦٠,٨٠٠ رطل أي ما يقدر ثمنه بحوالى ١٨٢,٥٠٥ دولار سنوياً . وتقوم الولايات المتحدة بصناعة الآجار حالياً وقد بدأت هذه الصناعة فى كاليفورنيا عام ١٩١٩ والذى بدأها كان رجلا يابانياً اسمه شوكيشى ماتشوكا (Chokichi Matsuoka) ويبلغ إنتاج المصانع بكاليفورنيا حوالى ١٢٠,٠٠٠ رطل سنوياً .

أما عن فوائد الآجار فهى كثيرة إذ يستخدم فى حفظ اللحوم وعمل الحلوى وفى بعض الأدوية والمسهلات الطبية وفى عمل المربى .

ومن منافع الآجار الأخرى أنه يستعمل فى عمل المسهلات

الطبية والمضادات الحيوية ومركبات السلفا والفيتامينات وبعض أدوية أخرى . ويخلط الآجار بالأدوية حتى يقلل من سرعة ذوبان الدواء فيساعد بهذا على التقليل من سرعة امتصاصه ويمتص على جرعات صغيرة تدريجياً . ويستعمل الآجار أيضاً فى زراعة البكتريا وفى صناعة معجون الأسنان كما يستخدم فى المعامل فى دراسة الهرمونات فى النباتات كما يدخل فى عمل جهاز خاص بقياس التركيز الأيونى فى المحاليل . ويدخل الآجار فى عمل الشرائح المجهرية لدراسة الأنسجة الحيوانية والنباتية . كما يستعمل كوسيط لتحليل الدم والبروتينات تحليلا كهربياً (Agar Gel Electrophorris)

ننتقل الآن إلى نوع آخر من الطحالب وهى الطحالب البنية . وفيها تستخرج مادة الألجين (Algin) من الـ (Kelps)، والـ (Fucoids) وهى أعشاب بحرية . ومن أهم أنواع الطحالب البنية نوعان : الأول لاميناريا وتنمو فى المياه العميقة والفيوكس (Fucus) وهى تنمو فى المنطقة الساحلية على الصخور . وكانت أوراق اللاميناريا والأعشاب البحرية قديماً تحرق ويستخرج اليود وأملاح البوتاسيوم من رمادها . ولكن هذه الصناعة لم تلق رواجاً واندثرت بعد عهد قصير وذلك لقلة أهميتها

الاقتصادية ، وحلت محلها صناعة الألجين ومشتقاته وهى تلقى رواجاً عظيما . قامت هذه الصناعة من عام ١٨٨٣ والذى بدأها رجل أمريكى اسمه « ستانفورد » .

هذه المادة حمضية فهى فى الحقيقة حامض اسمه حامض الألجينيك .

ولأملاح هذا الحامض استخدامات كثيرة . فالجينات الصوديوم مثلا تستخدم بدلا من النشا فى تنشية الأقمشة حيث تعطى القماش الصلابة المطلوبة ومحلول هذه المادة شديد اللزوجة كما أن الجينات الأمونيا المنشدرة تصبح غير قابلة للذوبان بعد جفافها — ولذا يستعمل هذا الملح فى عمل المواد غير المنفذة أو الصامدة للماء . أما الجينات الكروميوم والبريليوم فتصنع منها المنسوجات التى لا تتأثر بالنار وأنسجة الاستراكان (Astrakhan) الفاخرة تصنع من الألجينات مع خلطها بفتل الصوف . هذا قليل من كثير من فوائد هذا المستخرج القيم .

(ب) اللؤلؤ :

عندما نفكر فى الثروة المائية ، نجد أن اللؤلؤ من أجمل وأعز ما يجود به علينا هذا العالم الساكن . إذ يعتبر من أهم موارد البحر وله قيمة عظيمة لندرته . وقد لا يعرف الكثير أن اللؤلؤ الطبيعى يوجد منه الأبيض والأسود والأخضر والبنى والأزرق إلخ . وإنه لمن الطريف أن نعرف أن اللؤلؤ لا ينتج إلا من أمراض تصيب المحار . فعندما يدخل جسم غريب داخل المحار يحيطه المحار بإفرازاته ثم يغطيه بطبقة لطيفة لامعة كاسية حتى لا يتسرب إلى باقى أعضاء جسمه . وهذا يعطينا اللؤلؤة الكامنة . وتتكون اللولؤة الطبيعية كيميائياً من كربونات الكالسيوم متماسكة مع بعضها بمادة عضوية لزجة تسمى كونشيولين (Conchiolin) .

والجسم الغريب الذى يتسبب فى عمل اللؤلؤة — قد يكون حصوة رمل أو طين أو حتى طور من أطوار حياة أى حيوان دقيق فى الماء .

وعندما يتم تكوين اللؤلؤة فإن مصيرها الطبيعى أن تقذف

إلى الخارج إذا لم يسعد الإنسان الحظ ويلتقط المحارة . فالحصول على اللؤلؤة يعتمد على الحظ .

وقد لجأت بعض الدول التى تعتبر اللؤلؤ مورداً هاماً من موارد ثروتها إلى جمع محار اللؤلؤ وتطعيمه بأجسام غريبة بطرق علمية خاصة ثم إعادة المحار إلى أحواض بها ماء بحر وتترك مده تتراوح من سبع إلى تسع سنوات ، بعد هذه المدة يتم تكوين اللؤلؤة ويسمى اللؤلؤ الناتج بتلك الطريقة اللؤلؤ الطبيعى الصناعى .

للآلىء أشكال مختلفة منها المستدير والذى على هيئة الزرار والبيضى . والمحار الذى يكون اللؤلؤ ينتمى إلى الحيوانات الرخوة (Margaritelera) والاسم العلمى للمحار المنتج للؤلؤ . هو (Margaritelera erythrocensis) يبلغ عرضها من ٤–٥ بوصات وقد يصل قطرها إلى ٨ بوصات وتتميز بلون أخضر غامق فى حوافها وبداخلها يكون لونها مصدفاً يميل للخضرة . تحتوى هذه الفصيلة على أنواع عديدة مختلفة الأحجام منها الصغير ومنها الكبير وقد تصل إلى ١٥ بوصة فى العرض . يتحدد لون اللؤلؤة بالظروف البيئية التى تعيش فيها المحارة من حيث الحرارة

والملوحة ودرجة التركيز الأيونى إلخ . ومن تفاعل هذه العوامل مع بعضها نحصل على اللؤلؤة البيضاء أو الزرقاء أو البمبية اللون وحتى قد تحصل على اللآلئ السوداء . واللآلئ السوداء هى أندر اللآلئ وأغلاها .

وتكون مصايد اللؤلؤ صناعة هامة ورئيسية فى كل من الخليج العربى وسيلان وفنزويلا وباناما والمكسيك وأستراليا وماليزيا واليابان . وتعتبر اليابان أكبر البلاد فى إنتاجها للؤلؤ .

وقد ثبت وجود المحار المنتج للؤلؤ فى البحر الأحمر ويوجد به بعض المصايد المنتجة للؤلؤة . وهى تستغل لهذا الغرض من قديم الزمن وتقدر قيمة اللؤلؤة حسب لونه وصقله وشكله .

واستخدامات اللؤلؤ معروفة لدينا جميعاً — فكلنا يعرف قيمة هذه الجواهر النادرة الغالية القيمة . وكم من امرأة تتمنى أن تقتنى ولو لؤلؤة واحدة طبيعية . ولقد عثر صائد فرنسى على لؤلؤة طبيعية داخل محارة على شواطئ الكوت دازور فى العام الماضى عادت على صائدها بثروة هائلة ، إذ كانت كبيرة الحجم وثمنها كبير جداً . وتزرع اللآلئ وتربى وأول من زرع

اللؤلؤ هم قدماء الصينين حيث كانو يضعون داخل المحار تماثيل لبوذا . ويترك المحار فى داخل أقفاص توضع فى ماء بحر وتترك مدة تتراوح بين خمس الى سبع سنوات بعدها يخرجون من المحار تمثال بوذا من اللؤلؤ الطبيعى تباع كتعويذه للمؤمنين بالإله بوذا . وعلى هذا الغرار تقوم صناعة اللؤلؤ الطبيعى الصناعى كما سلف أن ذكرنا .

وفى عام ١٦٥٨ اكتشف عالم فرنسى يدعى جاكين طريقة لصناعة اللؤلؤ الصناعى وذلك باستخلاص المواد اللامعة التى تدخل فى تركيب قشور وجلد الأسماك . وتقوم صناعة اللؤلؤ على هذا الأساس فى أمريكا حيث تستخرج المواد اللامعة من قشور سمك الرنجة . هذا وتوجد أنواع أخرى من اللؤلؤ الصناعى مثل اللؤلؤ المصنوع من الرخام الطبيعى والمجهز بطريقة خاصة بحيث يأخذ شكل ولون اللؤلؤ .

وعلى اللؤلؤ تقوم عدة صناعات أهمها صناعة الأزرار . أما الصدفة أو المحارة فيعمل عليها نقوش بارزة تستعمل كحلية تعلق فى سلسلة تلبسها السيدات كنوع من الحلى .

(ج) المحار والأصداف :

هناك أنواع من المحار تصاد لتؤكل ولها سوق رائجة فى البلاد الأوربية والأمريكية وهذان النوعان موجودان فى الإسكندرية ويعشقهما سكان الثغر الأصليين . ولو أن باقى المصريين قد يجهلون كنهها . هذان النوعان هما الاسترديا واللذين — الأول اسمه بالإنجليزية (Oystus) والثانى يسمى بال (Clam) هذان النوعان من المحار تقوم عليهما صناعات تشغل عدداً وفيراً من الأيدى فى البلاد الأوربية وفى أمريكا الشمالية .

وتقوم بعض دول أوربا بزراعة وتربية الاسترديا على نطاق واسع . وتشرف على تربيتها هيئات خاصة — وتتكون منها ثروات لا بأس بها .

وتوجد الاسترديا بكثرة على شواطئ البحر الأحمر المصرية . وحبذا لو قام بعض الهواة بتربية هذا المحار هناك . ولقد بدأ بعض الفرنسيين فى شمال أفريقيا هذه الزراعة وعلى ما نعتقد أن لها رواجاً لا بأس به فى تونس . هذه الزراعة تزيد

فى غذائنا البروتينى وقد ينجح المشروع فيصدر منه إلى باقى بلاد الشرق الأوسط وغيرها .

نوع آخر من المحار يحبه سكان السواحل فى الجمهورية العربية المتحدة هو أم الخلول وهو يؤكل طازجاً بعد تمليحه . وتعتبر أم الخلول غذاء شعبياً محبوباً وهى تؤكل مع نوع خاص من البهارات تسمى حباش أم الخلول تخلط بالطحينة والزيت والليمون . غير أن هذا النوع لم يلتفت إليه بعد وحبذا لو أمكن تصنيعها ويحفظ لحم الحيوان فى علب للاستهلاك أو للتصدير.

كذلك بلح البحر هو من أحسن المحارات التى تلقى إقبالا شعبياً فى السواحل . وهو يؤكل كمشهيات ولو أنه فى البلاد الأوربية يطبخ وتعمل منه وجبة شعبية كاملة .

(د) الحيوانات الجوف معوية (المرجان) :

يعتبر المرجان من أهم ثرواتنا البحرية فى البحر الأحمر. والمرجان حيوان . وكان يظن قديماً أنه ينتمى إلى النباتات . وهو ينتمى إلى فصيلة (Cœlentrate Actinogoa) أى الحيوانات الجوف معوية . وهو يعيش فى مستعمرات .والمرجان الذى نراه

ما هو إلا الهيكل الجيرى للحيوان . أما الحيوان ذاته فيعيش بداخل هذا الهيكل (أى عكس ما هو معروف فى الفقريات فالهيكل هنا كاسى للحم) . ويكثر المرجان فى البحار الحارة . ويتكون الهيكل من كربونات الكالسيوم والمغنسيوم . ويوجد نوعان من المرجان أحدهما أحمر والآخر أسود . كما يوجد مرجان أبيض . ويختلف المرجان الأحمر من الأسود فى أن الأخير يحتوى على ضعف المواد العضوية التى توجد فى النوع الأحمر . ويحتوى المرجان الأحمر على كمية كبيرة من الحديد تقدر بحوالى ١,٧٢٠٪ فى حين أن المرجان الأسود يحتوى على ٠,٨٪ فقط .

ويكثر صيد المرجان فى البحر المتوسط خصوصاً على شواطئ الجزائر وتونس — كما يكثر صيده فى اليابان وأمريكا حيث اكتشف فيها نوع من المرجان بنفسجى اللون فى جنوب كاليفورنيا .

ويصنع من المرجان عقود وأساور للنساء كما يصنع منها فصوص للخواتم الثمينة . وتصنيع هذه الأشياء تكون أساساً لصناعة تشغل ٦٠٠٠ يد عاملة و ٦٠٠ مصنع صغير . وهى

منتشرة وناجحة فى إيطاليا التى تقتنى أكثر العمال مهارة فى هذا المضمار. أما أسبانيا فتعتبر مبتدئة فى هذا المجال ولو أنه نشأت فيها على تصنيع المرجان بعض المصانع الصغيرة. ويكثر استعمال المرجان كمجوهرات فى الشرق أكثر من الغرب. ويعمل من المرجان تماثيل صغيرة لتزيين الحوائط والمنازل إلخ. . وفى اليابان تقوم صناعة المجوهرات المرجانية من المرجان اليابانى الأبيض وهو محبوب هناك.

(هـ) الإسفنج:

والإسفنج نوع آخر من الحيوانات البحرية التى تدر علينا ربحاً كبيراً لو أعرناه التفاتاً تامًّا. والإسفنج حيوان بحرى ينمو على القاع فى كثير من البحار الدافئة ويعتبر البحر الأبيض المتوسط من أهمها. ويتميز الشاطئ المصرى الممتد من الإسكندرية غرباً إلى أقصى الحدود الغربية (السلوم) بمنابت الإسفنج ذات الشهرة العالمية. ويمتاز الإسفنج المصرى بشكل منتظم وملمس ناعم وثقوب ضيقة تجعله قادراً على امتصاص كميات كبيرة من السوائل. ويستعمل فى كثير من

الصناعات منها الصناعات الحربية وقد فشل الإسفنج الصناعى فى أن يحل محله .

ولقد حار القدماء فى فهم طبيعة الإسفنج ، فمنهم من اعتبره من النباتات البحرية ومنهم من اعتبره من الحيوانات . كما ظن آخرون أن الإسفنج من مخلفات الحيوانات التى تعيش على القاع . وكان الإغريق أول من بدأ فى صناعة الإسفنج فى البحر المتوسط . ويرجع تاريخ هذه المهنة إلى عهد هوميروس قبل مولد المسيح بعدة مئات من السنين (عام ١٨٤١ ق.م .) وقد كان البحر الأبيض أهم مصادر صيد الإسفنج والمصدر الوحيد له لولا أن اكتشفه أحد البحارة من الفرنسيين فى أمريكا . والواقع أن الإسفنج الذى يباع فى الأسواق إن هو إلا هياكل من مادة قرنية تفرزها آلاف الحيوانات الأولية الدقيقة لكى تعيش محتمية داخلها تماماً كما يفعل المرجان . والاسفنج وهو فى قاع البحر ، على قيد الحياة ، يبدو كجسم مخاطى ضارب للحمرة ويدخل الماء محملا بالكائنات الدقيقة من فتحات خاصة فيتخلل المنافذ والممرات الضيقة داخل هيكل الحيوان والتى تعيش على جوانبها الآلاف من خلايا الإسفنج الحية ذات الأسواط والأهداب ثم يخرج الماء

من فتحات أخرى نقياً بعد أن تكون خلايا الإسفنج قد رشحت منه غذاءها عن طريق الأسواط والأهداب المذكورة . ومن الإسفنج ما يعيش فى ماء البحر ومنه ما يعيش فى الماء العذب ولكن النوع الأخير غير ذى قيمة اقتصادية . ويتكاثر الإسفنج فى أواخر الشتاء وبداية الربيع حتى شهر يونيو عندما تبلغ درجة حرارة الماء حوالى ١٧° م . واليرقة التى تثبت نفسها فى الربيع يصل قطرها إلى ٦ سم بعد أربعة أو خمسة أشهر ويتوقف النمو فى فصل الشتاء . ثم تصل فى الصيف التالى إلى ١٠ – ١٢ سم وبعد ذلك تنخفض سرعة النمو كلما تقدم الحيوان فى السن .

وقد بدأ اهتمام الحكومة المصرية بمصايد الإسفنج عام ١٨٨٦ وصدر قرار وزارى عام ١٩٠٣ يحدد مناطق لصيده وقيمة الرسوم عليها . ولكن هذا لم يمنع من جمع الأجانب للإسفنج وحمله على مراكبهم لبلادهم رغم القوانين الصادرة التى غالباً لا تنفذ نتيجة للرشوة والمحسوبية فى ذلك الوقت .

ينتج من الإسفنج المصرى كل عام حوالى عشرين ألف كيلوجرام من أنواعه الثلاثة ويتراوح سعر الكيلوجرام الواحد

بين العشرين والأربعين جنيهاً تبعاً لاختلاف الأنواع . ثم تدريجياً فى النوع الواحد . ومتوسط ثمن الكيلو جرام الواحد حوالى سبعة جنيهات مصرية ، أى أن ثمن المحصول العام حوالى ١٥٠ ألف جنيه .

والأنواع الثلاثة من الإسفنج هى :

١ ــ الكأس التركية أو الفنجال التركى (تركى كب) وهو عريض عن القاعدة التى يلتصق بها فى الصخر وله شكل الفنجان . وله ملمس قطيفى و يمتاز بصلابته ونعومة ملمسه يستعمل هذا النوع فى أدوات الزينة وتلميع الجلود وطلاء الخزف الدقيق والأعمال الفنية الأخرى . ويدخل فى تركيب بعض الأدوات الحربية . ولخاصته الامتصاصية القوية يستعمل فى العمليات الجراحية بدلا من القطن .

٢ ــ قرص العسل (الهانى كوم) : وهو إسفنج الحمام ويطلق عليه هذا الإسفنج وهو على شكل قرص له قاعدة عريضة وهو أقل نعومة من النوع الأول وقدرته على امتصاص الماء متوسطة ويستعمل فى تلميع المصوغات والفضيات وصناعة الجلود وتلميع الأثاث .

٣ — الزيموكا : وهو أقل الأنواع الثلاثة جودة وهو مخروطي الشكل فتحاته ضيقة قاعدته ضيقة نسبياً وهو يستعمل فى أعمال التلميع وصناعة الفخار .

وتنحصر أماكن صيد الإسفنج فى المياه المصرية فى المنطقة المحصورة بين رأس الضبعة ونقطة العجمى حيث تمتد المياه البحرية المصرية لغاية خط مستقيم وهى يبدأ من نقطة واقعة على بعد ثلاثة أميال بحرية شمالى رأس العبيد لغاية نقطة واقعة أيضاً شمالى نقطة العجمى على بعد ثلاثة أميال بحرية .

ويكثر صيد الهانى كوم فى المنطقة من رأس الكنائس إلى رأس أم الرخم حيث يصل نسبة وجوده بالنسبة إلى الأنواع الأخرى إلى حوالى ٨٥٪ — أما الفنجان التركى فيكثر بين الإسكندرية إلى رأس الشقيق بنسبة مئوية ٤١٪ — أما الزيموكا فتكثر فى المنطقة من أبى الدرك إلى ابن جراب بنسبة مئوية ٥٢٪ .

— هذا ولا يقل البحر الأحمر من حيث الثراء عن البحر الأبيض فى الإسفنج غير أن إسفنج البحر الأبيض أكثر جودة من البحر الأحمر . وقد قدم بعض الفنيين اقتراح زراعة إسفنج

البحر الأبيض فى البحر الأحمر . وهذا رأى وجيه وقد يؤتى ثماراً حسنة . فماء البحر الأحمر خواصه الطبيعية تساعد على ذلك . غير أن هذا المشروع أرجئ تنفيذه نظراً للمصاريف التى يتطلبها وإنه لجدير بالأخصائيين أن يولوا انتباههم إلى منابت البحر الأبيض وتحسينها ثم العمل على إيجاد منابت أخرى بعد هذا .

والإسفنج كالحيوانات الأخرى معرض للموت والهلاك . ومن الأسباب التى تؤدى إلى موت الإسفنج وما ينجم عن ذلك من تركه مناطق نموه — ما يأتى :

١ — أى هبوط ملحوظ فى درجة ملوحة المياه — وهذا هو السبب المباشر لندرة وجوده أمام دلتا الأنهار .

٢ — وجود رواسب عالقة بالمياه تحد من وجوده لأن هذه الرواسب تترسب على الفتحات وتسدها وبذلك يختنق الحيوان ويموت .

٣ — طغيان ونمو نبات البوسيدونيا على منابت الإسفنج .

٤ — انفصال الإسفنج عن القاع بانفصال النبات الذى

قد يلتصق به وجرفه مع التيار .

٥ — تعرض الإسفنج لجرف المياه إذا ما اشتد التيار — وخاصة فى المناطق قليلة الغور — فيدفع الإسفنج فيها على شكل كرات تتدحرج على القاع وتتحلل .

وقد لوحظ أنه إذا ما ترك الإسفنج حتى يموت ويتحلل فى منابته فإن هذا يؤدى إلى عقم المنابت وهبوط محصولها — وقد لا تستعيد هذه المنابت خصبها إلا بعد عدة سنين .

إذا ما أولى الإسفنج عناية من المسئولين يمكن أن يكون أهم مصادر الحصول على العملات الصعبة ولكن يجب تمصير الأيدى التى تصيده ويجب الدراسة للبحث عن منابته وتحديدها تحديداً واقعياً خصوصاً بعد إقامة السد العالى وما تبعه من قلة الطمى الذى يترسب أمام دلتا النيل .

والجدول الآتى يبين إنتاج البلاد المنتجة للإسفنج وكمية الإنتاج بآلاف الأرطال خلال ١٩٣٨ ، ١٩٤٧ حسب إحصائيات هيئة الأغذية والزراعة :

البلدة	السنة ١٩٣٨ (الكمية بآلاف الأرطال)	السنة ١٩٤٧
الولايات المتحدة	٦١	١٦٠
كوبا	٤٤٠	١٠٠
باهاما	٦٧٠	٤٠
الجزر الكاريبية		٣٠
اليونان	٩٠	٣٣٠
تركيا	٨٠	٨٠
مصر	١٠٠	٣٠
سوريا — لبنان	١٠	—
ليبيا	٧٠	—
إيطاليا	١١٠	—
تونس	٢٣٠	١١٠
دول البحر الأبيض الأخرى	١٠	١٠

ويقدر محصولنا من الإسفنج بحوالى ٢٠,٠٠٠ كيلوجرام فى السنة أى نحو ٢٠ طنًّا توازى قيمتها بحوالى ربع مليون جنيه.

ويصاد الإسفنج عموماً بطريق الغوص وكان يصاد فى قديم الزمن بالغوص العادى ، أى ينزل الغواص بدون أى شىء يقيه من الماء إلا صندوق زجاجى ينظر خلاله لقاع الماء فإذا ما لاحظ مستعمرات الإسفنج استخرج بدون الحاجة إلى أجهزة . هذه الطريقة لا تنجح عموماً إلا فى الأعماق الضحلة أى فى الأماكن التى يقل عمقها عن ٢٠ متراً . وفى مثل هذه الأعماق الضحلة تستخدم الشوكة فى صيد الإسفنج . هذه الطريقة تسمى الصيد بالحربة فيصوب الصياد حربته (وهى شوكة لها أسنان مدببة ولها يد طويلة تبلغ ١٠ أمتار تقريباً) نحو الإسفنج ثم ينتزعه ولذلك يشترط أن يكون الماء رائقاً وألا يزيد العمق على ٦ — ٧ أمتار ويستخدم الناضور فى رؤية الإسفنج النابت .

ولقد كان الإسفنج يصاد كذلك بوساطة الجرافة — وهاتان الطريقتان الأخيرتان مضرتان بمنابت الإسفنج إذ أنه ينتزع الإسفنج من منبته وبخاصة الجرافة إذ أنها تنتزع الكبير والصغير — البالغ وغير البالغ معاً . مما يؤدى إلى استهلاك حقل الإسفنج سريعاً . أما الطرق الحديثة فهى لا تخرج عن الغوص إلا أن الغواص هنا يستخدم جهازاً اسمه الاسكافاندر — وفيها يرتدى الغواص بذلة من المطاط لها خوذة حديدية على

الرأس متصلة بمضخة هواء على سطح المركب بواسطة خرطوم طويل وبهذا يمكن للغواص التنفس وهو تحت سطح الماء ويستطيع أن يخرج الغواص هواء الزفير عن طريق صمام للأمن متصل بزمبرك فى القناع الحديدى خلف الرأس. وبذله الغواص محكمة تماماً بحيث لا يتسرب الهواء من داخلها إلى الخارج أو الماء من الخارج إلى الداخل. وحديثاً أدخلت تحسينات على هذا الجهاز وسميت الآن (Scaphandre autonome) وفيها يحمل الغواص على ظهره أسطوانتين محمولتين بالهواء المضغوط ومتصل بخرطوم لفم الغواص . ويلبس على عينيه منظاراً زجاجياً يخفى فتحتى الأنف أيضاً . وتغطى البذلة المطاطية الجسم والرأس ويلبس فى رجليه زعانف تشبه زعانف الضفدعة .

وبهذا يكون الغواص غير معتمد على الهواء الذى يرسل إليه من المركب والذى كثيراً ما كان انقطاعه السبب الرئيسى فى قتل الغواص تحت الماء .

هذا ونود قبل أن نترك الكلام عن الإسفنج أن نلفت نظر المسئولين إلى هذه الثروة الكامنة ، إذ أن التقدير الرسمى لمحصول الإسفنج هو نحو ٢٠,٠٠٠ كجم فى السنة هو أقل من الواقع بكثير نظراً للكميات الهائلة التى تهرب رأساً إلى الخارج . ولو

أن المؤسسة العامة للثروة المائية قد بدأت فعلا فى تنظيم عمليات صيد الإسفنج . وحبذا لو أنشئت مدرسة لتدريب الغواصين على صيد الإسفنج تحت إشراف المؤسسة . كما أنه يكون جميلا لو أشفع هذه المجهود بالبحث العلمى لتحديد مواسم توالد الإسفنج وسرعة نموه بطريقة علمية صحيحة وعلى وجه تام . ولدراسة الأمراض التى تصيب الحيوان وطريقة علاجها. هذا وقد أدخلت الحكومة الإسفنج ضمن السلع المتبادلة فى معاهداتها التجارية ، مما يدل إلى انتباه المسئولين إلى هذه الثروة الكامنة فى مياهنا الإقليمية .

(و) القشريات :

١ ــ الكابوريا :

وتوجد الكابوريا بكثرة فى بحيراتنا حتى إنه قد لوحظ فى الفترة الأخيرة أنها تهدد ثروتنا السمكية ، كما وجد أنها مصدر للمتاعب بالنسبة للصيادين . وعمليات تدخين الكابوريا وحفظها هى صناعة حديثة ولو أنها تجلب كميات كبيرة من المكاسب لإقبال الناس عليها . وتعتبر الكابوريا الزرقاء (Callinectas sapidus) (Blue Crab) من أهم أنواع الكابوريا وأكثرها فى القيمة الاقتصادية . وقد قام أحد الأخصائيين بمعهد الأحياء المائية

بعمل دراسة لهذه الكابوريا وهى موجودة فى بحيراتنا بكثرة حيث يبلغ قيمة إنتاج بحيرة المنزلة سنوياً حوالى ٨٨,٠٠٠ كجم فى منطقة المطرية ببحيرة المنزلة . ويعيش هذا النوع فى الأطلنطى، وقد هاجر إلى البحر الأبيض عن طريق جبل طارق محمولا مع مياه تيار الخليج — حيث إن هذا النوع يكثر أصلا على شواطئ الولايات المتحدة الأمريكية ماساشوسيت إلى تكساس.

والكابوريا الزرقاء نوع بحرى ولو أنه يميل إلى التجمع فى المياه نصف الملحة وحتى المياه العذبة تماماً . وقد قام أحد العلماء اليابانيون بتحليل الكابوريا فى بلاده فوجد أنهاتحتوى على نسبة من البروتينات عالية حوالى ١٧ ٪ كما تحتوى على ٣٦٢ جزءاً فى المليون من اليود وهى نسبة تعتبر جيدة . وهذا يرينا قيمة الكابوريا الزرقاء كغذاء بروتينى فى متناول الطبقات الشعبية .

وتفقس صغار الكابوريا من بويضات صغيرة الحجم جداً تحملها الأنثى على شعيرات بعواماتها فى الجهة البطنية — وتبيض الأنثى الواحدة كميات كبيرة من البويضات حوالى ١,٧٥٠,٠٠٠ إلى ٢ مليون بيضة — تفقس بعد ١٥ يوماً من وضعها حيث تمر بعدة أطوار تصل بعدها إلى شكلها الأخير

بعد حوالى شهر أو شهرين . وتنمو الكابوريا بسرعة حيث تصل إلى سن التوالد بعد ١٢ –١٤ شهراً من فقسها . وتعيش الكابوريا حوالى ٣ – ٤ سنوات فقط .

والكابوريا مصدر من أهم مصادر القلق بالنسبة للصيادين فهى تفتك بشباكهم وبصيدهم بشراهة – ولهذا ارتفع صوتهم مطالبين بإبادتها – وهى تباع بأسعار زهيدة ويعشقها سكان السواحل . وبالنظر لقيمتها الغذائية نجدنا مدفوعين بالنظر إلى إمكانية تصنيع الكابوريا وتعليبها فهذه الصناعة تعود بالفائدة الكبرى على الاقتصاد القومى وتعطى غذاء بروتينياً قيماً للمائدة الشعبية فى بلادنا . هذا وتنتشر صناعة حفظ الكابوريا وتعليبها فى الولايات المتحدة وهى تلقى رواجاً عظيما عند عامة الشعب لرخص ثمن العلب ولطعمها اللذيذ . ولعل تصنيعها فى الجمهورية العربية المتحدة أن يدر ربحاً للصيادين يعوض عليهم ما يفقدونه نتيجة لتمزيق هذه الحيوانات لشباكهم ، وبهذا نحل مشكلة طالما علا ضياع الصيادين مطالبين بإيجاد حل لها .

وفيما يلى جدول يبين إنتاج الجمبرى والكابوريا فى الجمهورية العربية المتحدة حسب أماكن صيدها فى عام ٦٣ / ١٩٦٤ :

إنتاج الجمبرى والكابوريا حسب أماكن صيدها خلال سنوات مختلفة

السنوات	المنطقة	الوحدة بالكيلو				
		جمبرى أبيض	جمبرى أحمر	جمبرى	جمبرى قزازى	كابوريا
١٩٦٤	بحر أبيض	٨٧,٦	١٤٨٣,٨	٤٣٦٠,٧	١١٧٥,٧	٦٧,٨
	بحر أحمر	٣٠٦,٨	١٥٩,٣	١٠١,٢	٢٦,٦	٩٢,٠
	بحيرة المنزلة	—	—	—	—	٢١٥٢,٠
	« أدكو	—	—	—	—	٢٦٢,٠
١٩٦٣	بحر أبيض	١٤٩,٠	١٢١٩	٥٧٢٠	١٤٥٩	٢٦٧
	« أحمر	٦٠,٧	١٥١,٨	٩٨,٦	٣١٢١,٨	٢٠٦,٣
	بحيرة المنزلة	١٢٧١,٧	—	—	—	٥٦٩,٥
	« ادكو	—	—	—	—	٦٩,٨
	« مريوط	٥,٤	—	—	—	—

٢ ــ الجمبرى :

إن كثيراً من الشعب المصرى القاطن بعيداً عن السواحل لا يعرف الجمبرى أو الكابوريا وكلاهما من القشريات وهى من أكثر الحيوانات البحرية التى تلقى إقبالا عند سكان السواحل

وتصدر الجمهورية العربية المتحدة كمية لا بأس بها إلى البلاد الأوربية من الجمبرى المحفوظ . ونوع الجمبرى الذى

ينمو فى مياهنا المصرية من أجود الأنواع وهو مطلوب فى جميع الأسواق الأوربية . وعلى هذه التجارة يعيش بعض تجار الأسماك فى المدن الساحلية خصوصاً مدينة الإسكندرية . ويصاد الجمبرى بواسطة الجرافة الساحلية وهى الطريقة الحديثة لصيد الجمبرى .

والجمبرى مصدر هام من مصادر البروتين إذ ثبت من التحاليل الكيميائية أن نسبة البروتين فيه حوالى ٢٧ ٪ وأن عدد السعرات الموجودة به حوالى ٥٥٩ سعراً فى المائة جرام من اللحم الطازج .

من هذا نجد أن تصنيع الجمبرى وحفظه فى علب يعود أيضاً على ثروتنا القومية ويضيف نوعاً جديداً من الغذاء الفاخر للمائدة المصرية كما أنه قد يصدر الفائض للخارج فتأتى لنا بالعملات الصعبة .

وفعلا تقوم صناعة تجميد الجمبرى فى الجمهورية العربية المتحدة ويقوم بها خمسة مصانع تبلغ طاقتها جميعاً نحو ٢٠٠٠ طن سنوياً . وموسم هذه الصناعة من أكتوبر إلى مايو كل عام . أكبر هذه المصانع هو المصنع المنشأ فى بورسعيد .

ويلاحظ أن رأس الحيوان وذيله يقطعان عند تجميد

الجمبرى . وتجفف هذه الأجزاء وتباع كغذاء للدواجن .

وصيد الجمبرى يقابله نشاط مطرد فى الجمهورية العربية المتحدة — فقد زاد محصول صيده فى السنوات الأخيرة كثيراً ويصدر الجمبرى المحفوظ والمجمد إل بلاد أوربا (سويسرا — إيطاليا — فرنسا — اليونان) كما يصدر أيضاً إلى أمريكا .

وقد بدأت شركة النصر لحفظ السردين والجمبرى فى دمياط بحفظ هذه الحيوانات مطبوخة فى علب . ويقدر إنتاج هذا المصنع سنوياً بحوالى ٢٥٠,٠٠٠ جنيه وقد بدأ المصنع عليه فى أواخر عام ١٩٦٠ .

ولعله من الطريف أن نذكر أن فى الصين الشعبية يستعمل الجمبرى المجفف كغذاء شعبى ويباع بالعبوات ويستهلك منه الشعب كميات كبيرة جداً كما أنه يجفف أيضاً المحار وسمك القرش والسفوليا وخيار البحر والسيبيا .

هذا وقد يلفت أنظارنا إلى تجارة جديدة فيمكننا تجفيف مثل هذه الحيوانات التى تنمو على شواطئنا وخاصة خيار البحر والسيبيا وتصديرها لبلاد الصين حيث تجد رواجاً هائلا وسوقاً رائجة هناك :

(ز) الحيوانات البحرية الأخرى :

قد لا يعرف الكثيرون أنه يمكن الحصول على الجلد من الحيوانات البحرية ــ خصوصاً الثدييات . فمثلا جلد القرش وجلد الحوت وجلد كلاب البحر . . إلخ . هذه الجلود تصنع منها الأحذية كما يصنع منها الجلد الخفيف الذى تصنع منه بعض الملبوسات الخفيفة . كما يعرف أغلب الناس زيت كبد السمك وفوائده الطبية القيمة فهو غنى بالفتيامينات وله فائدة كبيرة فى علاج فقر الدم عند الأطفال .

تصاد الحيتان بواسطة مراكب خاصة ومجهزة بونشات قوية حيث تسحب الحيتان المصادة على ظهر المركب بوساطة هذه الونشات . وتتم بعض عمليات تصنيع الحيتان على ظهر المركب ولهذا تسمى هذه المراكب أحياناً المصانع المتحركة .

وبالإضافة إلى استعمال جلد الحيتان فى الأغراض الصناعية الكثيرة ، فإن رائحة العنبر الذكية تستخرج من جلد نوع من الحيتان اسمه (Sperm Whale) ولرائحة العنبر تقدير كبير عند الأقدمين .

وحتى غدد الحيتان — الغدد الصماء لهذه الحيوانات تستخرج منها الهرمونات الطبية التى تتداولها الصيدليات . والأنسولين والأدرينالين والتستسترون إلخ تستخرج من هذه الحيوانات . وهى تعادل مثيلاتها من الغنم والماعز والحيوانات الثديية الأخرى من حيث القيمة الطبية لها .

أما لحم الحوت فيستخرج منه زيت كان يستعمل قديماً فى الإضاءة قبل اكتشاف زيت البترول . واليوم تجمد هذه الزيوت بواسطة الأيدروجين ويعمل منه الشموع والصابون والدهن الحيوانى .

هذه لمحة قصيرة عن الثدييات التى تعيش فى البحار تكلمنا عنها لإكمال المقال . ونود أن نلفت الأنظار عن إمكانية استغلال القروش فى البحر الأحمر حيث يكثر وجودها . ويمكن قيام صناعة صيد القروش وتصنيعها على البحر الأحمر. فجلد القرش يستعمل فى أغراض كثيرة . كذلك يمكن الحصول على الجلد من الأسماك الغضروفية الأخرى مثل البقر والرايا .

(ح) الأسماك :

تعتبر الأسماك أساس الثروة المائية وأحق الكائنات شأناً بالدراسة والتعمق . فالأسماك ومصايدها مورد هام فى اقتصاديات بعض البلاد مثل بيرو بأمريكا الجنوبية والدول الاسكندنافية واليابان وإنجلترا وألمانيا. وعلى وجه العموم فإن بلاد نصف الكرة الجنوبى تكون المصايد فيها أقل أهمية من البلاد فى نصف الكرة الشمالى . والأسماك هى المنبع الهام للبروتينات الغذائية وهى تكمل بل تعوض بعض الشعوب عن النقص فى البروتينات الحيوانية الأخرى . فالأسماك المعلبة تتمتع بشهرة عالمية حيث إنها فى متناول جميع الشعوب حتى الفقيرة منها فى هذه الثروة . كذلك الحال فى الأسماك المملحة والمدخنة .

من هنا نجد أن المصايد تقوم عليها صناعات هامة فى بلادها وتشغل عدداً من الأيدى العاملة . فهناك صناعة تعليب الأسماك وتدخينها وتمليحها وتجميدها وحتى تجفيفها لهذا نجد أن على المصايد يعيش عدد لا بأس به من أبناء الشعوب الغنية بالأسماك وهى تدر أرباحاً طائلة . هذا بالإضافة إلى أن الصيد فى حد ذاته له من يعشقونه كهواية رياضية جميلة .

من ذلك نشأ اهتمام الشعوب على الصعيد الدولى بالمصايد وتكونت الهيئات الدولية المتعددة لخدمة المصايد وتنميتها ومد الشعوب بالخبراء والمتخصصين فى تنمية الثروة السمكية . نذكر من هذه الهيئات — هيئة الأغذية والزراعة — والمؤتمر العالمى لاستغلال البحار وغيرها . وهذه المؤتمرات تعقد الدورات سنوياً لتبادل الآراء والاستشارة بين الخبراء التابعين للدول المختلفة والتى هى أعضاء فى المؤتمر المذكور .

وقد اهتمت حكومة الثورة أيضاً بالثروة السمكية فأنشأت المؤسسة العامة للثروة المائية لكى تشرف على جميع مصادر هذه الثروات الهائلة وتقوم على تنميتها وتوجيه الصيادين فيها كما تقوم بإرسال البعثات للبلاد المتقدمة فى هذا المضمار . ويقوم الآن عدد من الهيئات العلمية بالجمهورية العربية المتحدة بإقامة دراسات عن الأسماك وطرق توالدها وزراعتها وبدراسة فسيولوجية بعض الأسماك التى لها أهمية اقتصادية فى البلاد . ولدراسة طرق تكاثر الأسماك فى البحيرات والأنهار والبحار يجب معرفة المعلومات الكافية عن طرق هجرتها ودورة حياتها وتوالدها وطرق غذائها . كما يجب الإحاطة بطرق تفاعل السمك بالبيئة التى تعيش فيها . وبصفة عامة يمكن القول بأن تجمعات

الأسماك توجد فى المياه الغنية بالبلانكتون . كذلك تتكاثر الأسماك فى المناطق التى توجد فيها التيارات الصاعدة أو المنبثقة (upwelling currents) . وقد تنشأ هذه التيارات عندما يصطدم تيار بارد عميق بجبل أو جرف قائم يعترض مساره على قاع البحر أو نتيجة لهبوب الرياح على الساحل فى اتجاه معين . وعادة تكون هذه التيارات غنية بأملاح الفوسفات والنترات وتوجد أمام سواحل بيرو وشرق أفريقيا الاستوائية . وأحب أن أذكر هنا أنه قد ثبت من بعض الإحصائيات أنه فى بعض المناطق قد وجد أن فداناً من الماء ينتج كمية من الأسماك سنوياً تساوى أضعاف القيمة الاقتصادية التى قد تنتج من أى المزروعات فى نفس المساحة .

ومن الإحصائيات الدولية لعام ١٩٦٤ عن معدل إنتاج السمك السنوى نجد أن بيرو هى أكبر دولة إنتاجاً للسمك إذ أنها تنتج سنوياً ٩,١٣٠,٧٠٠ طن تليها اليابان بـ ٦٣٠٠٠٠٠ طن ، ثم الصين الشعبية ٥,٨٠٠,٠٠٠ طن ، ثم الاتحاد السوفييتى ٤,٥٠٠,٠٠٠ طن . بينما أقل دولة إنتاجاً للسمك هى جزر مالطة إذ أنها تنتج حوالى ١,٣٠٠ طن سنوياً .

وإذا نظرنا إلى هذه الإحصائية نجد أن اليابان قد تأخرت

مرتبة عما كانت عليه سالفاً — إذ كانت اليابان عام ١٩٤٩ أكبر دولة منتجة للأسماك .

وإذا قسمنا البلاد حسب قدرتها الإنتاجية للسمك نجد أن الجمهورية العربية المتحدة تقع فى البلاد الفقيرة إذ يبلغ نصيب الفرد فيها أقل من ٥ كيلو جرام من السمك . بينما تعتبر الدولة متوسطة الإنتاج السمكى إذا كان نصيب الفرد فيها بين ٥ و ١٠ كيلو جرامات من السمك .

وإذا رجعنا إلى الإحصائيات الرسمية وجدنا أن الإنتاج السنوى قد بلغ ما يقرب من ١٢٤ ألف طن سنوياً فى حين أن إنتاج البحيرات وحدها قد بلغ حوالى ٣٠٪ من المحصول الكلى . ومن هذا يتضح قلة المحصول السمكى فى الجمهورية العربية المتحدة بالمقارنة بالبلاد الأخرى . كما نلاحظ أن إنتاج البحيرات قد قل إلى النصف عما كان منذ حوالى عشرة أعوام إذ كان حوالى ٦٠٪ من مصايد الجمهورية وهذا يرجع إلى سببين :

١ — الزيادة فى استغلال الثروة البحرية ولو أن هذه الزيادة غير ملحوظة كثيراً .

٢ — التوسع فى تجفيف البحيرات واستغلالها للزراعة .

وإذا عرفنا أن مساحة المياه فى الجمهورية العربية المتحدة حوالى ١٢ مليون فدان ، أى ضعف المساحة المنزرعة ، وأن إنتاج فدان الماء عندنا حوالى ٨ كيلو جرامات من السمك فى حين أنه فى الخارج يقدر إنتاج فدان الماء بحوالى ٢٠ كيلو جراماً . نجد أن رعاية الثروة السمكية والعمل على تنميتها وتزويدها بالخبراء لدراستها بالوسائل العلمية الحديثة ، قد أصبح ضرورة ملحة للعمل على تحسين ركن هام من ثروتنا القومية .

ومن الأسباب الكثيرة التى أدت إلى تأخرنا فى مضمار الثروة السمكية ما يأتى :

١ — وجود مناطق قد تكون مكدسة بالأسماك لم تكتشف بعد لقلة وجود مراكب الصيد المجهزة بالأدوات الحديثة .

٢ — عدم ثقافة الصيادين وقلة مثابرتهم على العمل المتواصل فى البحر مع انعدام التشجيع لهم تقريباً ولو أن إنشاء الجمعيات التعاونية ومدارس للصيادين قد تعود بالفائدة الكبيرة .

٣ — قلة المراكب الآلية نسبياً ولو أن عدد المراكب الآلية فى عام ١٩٦٣ وصل إلى ٦٢٢ مركباً بينما كان فى عام ١٩٣٠ حوالى ٢٥ مركباً فقط .

٤ ـ قلة الإشراف على تطور عمليات الصيد والطرق الحديثة وقلة عدد الصيادين المدربين .

٥ ـ عدم حب الصيادين المصريين للمخاطرة ، فقليلا ما نسمع عن صياد قد خاطر بمركبه بين الأمواج بحثاً عن مناطق صيد جديدة . وهم فى ذلك معذورون إذ أن مراكبهم غير مجهزة بالثلاجات الكبيرة التى تساعدهم على البقاء أطول مدة ممكنة فى البحر بدون فساد وخسارة صيدهم .

هذا ونذكر أن المؤسسة العامة للثروة المائية تقوم الآن بالاشتراك مع الأحياء المائية بالإسكندرية بعملية مسح شامل لمياهنا الإقليمية للبحر الأبيض والأحمر لاستكشاف مناطق صيد جديدة .

وحبذا لو قام المسئولون على هذه المؤسسة باعتماد سلفيات للصيادين لتجهيز مراكبهم بالأجهزة الحديثة كالثلاجات والشباك الحديثة .

وقد قامت هذه المؤسسة بإنشاء مدرسة للصيد وعقد حلقات تدريبية للصيادين ، الأمر الذى نود أن يؤتى ثماره فى القريب إن شاء الله .

أما عن طرق صيد الأسماك فهى كثيرة ومتعددة تختلف

فى البحار عنها فى البحيرات ودراسة تطور طرق صيد الأسماك وتحسينها هو علم غزير يقوم قسم خاص بمعهد الأحياء المائية بدراسته والبحث فيه . حيث تم دراسة تحسين الشباك وإدخال الطرق الحديثة الملائمة لمياهنا وأحوالها البيئية . ولن أحاول التوسع فى شرح هذه الطرق إذ أشعر أن المجال لا يسمح الآن ويمكن لمن يريد كثيراً من التفاصيل أن يرجع إلى المراجع المتعددة التى سيجدها القارئ فى آخر هذا الكتاب .

أما عن فوائد الأسماك فهى كثيرة ومتعددة . فمن الأسماك يمكن استخراج دقيق السمك الذى يخلط بعلف الحيوان لاحتوائه على نسبة عالية من الدهون والبروتينات والأملاح ومنها أيضاً نستخرج زيت السمك والشحوم المختلفة والتى تدخل فى مقاومة الصدأ ومنع تآكل المعادن كذلك فى مقاومة الفطريات . وكلنا نعلم القيمة الطبية العظيمة لزيت السمك لاحتوائه على الفيتامينات والبروتينات والأحماض الأمينية الهامة مثل الريبوفلافين والثيامين بكميات كبيرة . وقد ثبت احتواء زيت السمك على كمية عالية من فيتامين أ ، د . وبروتينات الأسماك عموماً سهلة الهضم إذا ما قارناها باللحوم التى نحصل عليها من الحيوانات الأخرى ولا ننسى الكمية الغنية من

الفوسفور التي توجد في لحم الأسماك مما يجعلها من الأغذية الأساسية اللازمة للطفل لنموه نمواً صحيحاً .

وبعد فقد قمت مع القارئ بجولة بين عالم آخر زاخر بالمخلوقات التي تعيش في الماء : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » صدق الله العظيم .

منافع علوم البحار الطبيعية

وكما تتحكم الظواهر الطبيعية فى الحياة على اليابس ، لها حكمها أيضاً على الحياة فى الماء . والحقيقة أن التوازن الموجود بين كتل اليابس والماء على سطح الكرة الأرضية عبارة عن تحكم محصلة عدة قوى طبيعية مختلفة .

وتبحث علوم البحار الطبيعية فى دراسة هذه القوى المختلفة وكيف أنها تتحكم مجتمعة فى البيئة المائية وما يجرى داخل المحيطات .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نشرح بإيجاز بعض منافع هذه الظواهر الطبيعية ، التى يمكن أن تستغل فى حياتنا العملية .

(أ) المد والجزر :

بناء على نظرية نيوتن التى على أساسها بنى قانون الجذب العام فإن قوة الجذب بين جسمين كتلتاهما $ك_1$ ، $ك_2$ والمسافة بينهما ف . تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب

كتلتيهما . وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما ويمكن وضعه على الصورة .

$$\text{ق (قوة الجذب) = ثابت} \times \frac{\text{ك}_{١}\ \text{ك}_{٢}}{\text{ف}^{٢}}$$

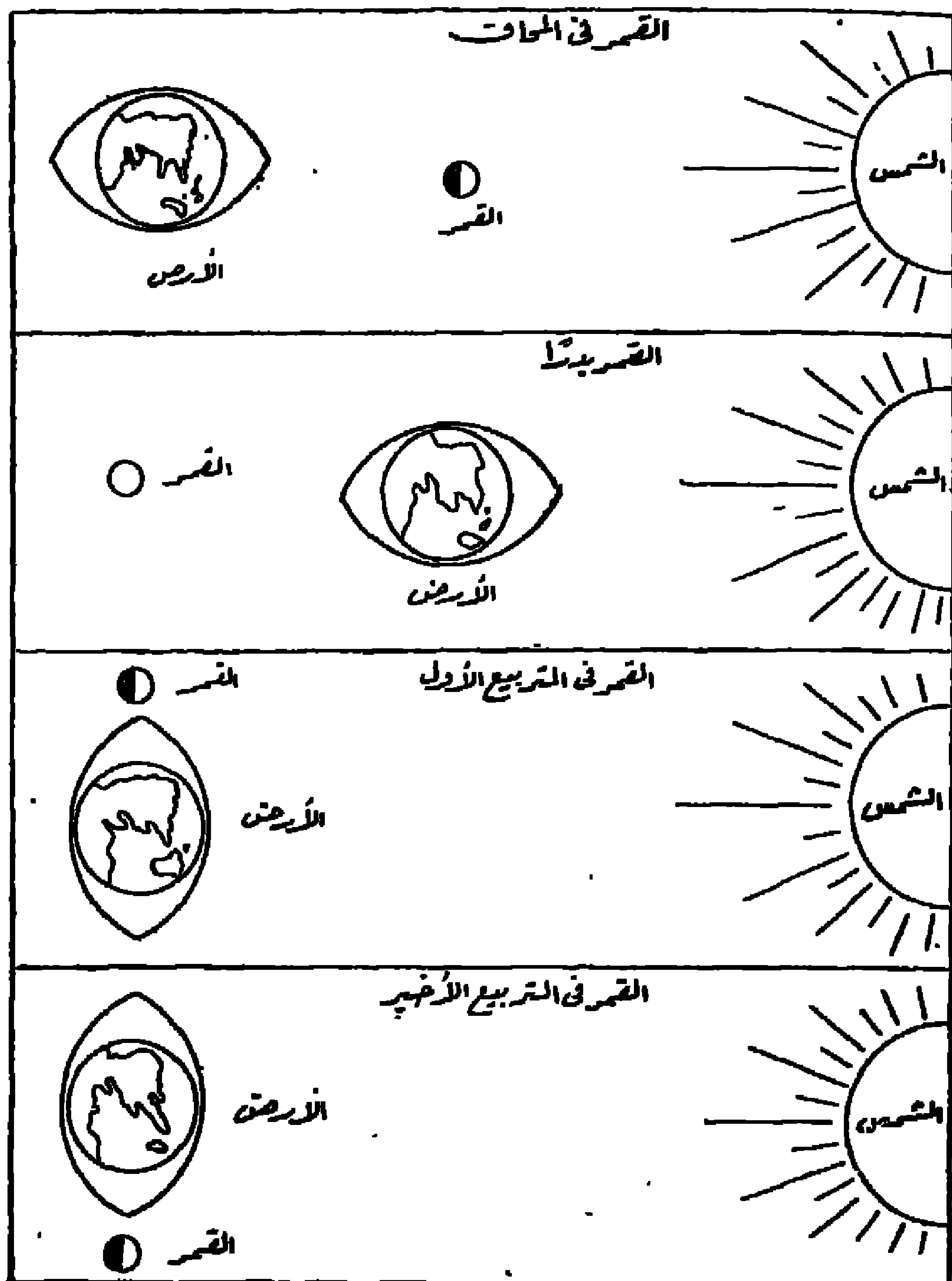
فإذا تصورنا أن الأرض محاطة كلها بغلاف مائى كتلته $ك_{١}$ وأن كتلة القمر $ك_{٢}$ والمسافة بين الأرض والقمر ف .

$$\text{فإن قوة الجذب بينهما تتناسب مع } \frac{\text{ك}_{١}\ \text{ك}_{٢}}{\text{ف}^{٢}}$$

ومع هذا القانون يتضح أنه إذا زاد البعد بين الجسمين قلت قوة الجذب بينهما وكلما اقتربنا زادت قوة الجذب .

وعلى هذا الأساس فإن حركة ارتفاع وانخفاض مستوى سطح الماء الناتج من قوى الجاذبية الناتجة من الشمس والقمر تسمى بظاهرة المد والجزر ويظهر هذا واضحاً فى الجهات الساحلية والبحار الضحلة . ويحدث المد والجزر مرتين فى اليوم كل ٢٥ دقيقة و ١٢ ساعة تقريباً ويسمى بالمد والجزر نصف اليومى . من هذا يتضح أن المد والجزر يتأخر كل يوم بحوالى ٥٠ دقيقة عن موعده فى اليوم السابق له . وفى بعض الأحيان يحدث أن أعلى مستوى لسطح البحر يحدث مرة واحده كل

يوم تقريباً وهو عبارة عن ٥٠ دقيقةو ٢٤ ساعة تقريباً وتسمى الظاهرة بالمد والجزر اليومى . وكما ذكرت سلفاً أن المد والجزر يحدث نتيجة للقوى الجاذبية الناتجة من القمر على الأرض أكثر من القوى الجاذبة الناتجة من الشمس على الأرض . وذلك لقرب القمر من الأرض . إذ أن المسافة بين الأرض والشمس أكبر بحوالى ٤٠٠ مرة من المسافة بين الأرض والقمر وأن قوة المد والجزر الناتجة من القمر حوالى ٢ ¼ مرة من القوة الناتجة من الشمس . وتكون قوة المد والجزر الناتجة من الشمس والقمر أكبر ما يمكن عندما تكون الشمس والقمر والأرض فى مستوى واحد . أى عندما يكون القمر بدراً أو فى المحاق وفى هذه الحالة يكون مدى المد والجزر أكبر ما يمكن ونحصل على أعلى وأقل مستوى لسطح الماء على التبادل . ويحدث هذا كل حوالى أسبوعين تقريباً ويسمى بالمد والجزر الربيعى . وعندما يكون القمر عمودياً على الخط الواصل بين الشمس والأرض تكون القوة الناتجة للمد والجزر أقل ما يمكن . وهذا يحدث عند ما يكون القمر فى التربيع الأول أو التربيع الأخير (الشكل ٢) . وفى هذه الحالة يكون مدى المد والجزر أى الفرق بين مستوى المياه العالية ومستوى المياه الواطئة أقل ما يمكن وتسمى هذه


القمر في المحاق
الشمس
القمر
الأرض
القمر بدرا
الشمس
القمر
الأرض
القمر في التربيع الأول
القمر
الشمس
الأرض
القمر في التربيع الأخير
الشمس
الأرض
القمر

شكل رقم (٢)

الظاهرة بالمد والجزر الصغير . ومن الطبيعي أنه إذا كانت الكرة الأرضية محاطة بطبقة متجانسة ومتساوية السمك من الماء فإنه من السهل تعيين القوى المنتجة للمد والجزر . ولكن فى الحقيقة أن الأرض تفصلها كتل القارات إلى محيطات وبحار مختلفة فى الاتساع والشكل والعمق والحجم بالإضافة إلى أن مستويات حركة الشمس والقمر تميل بزاوية على خط الاستواء. الشيء الذى يجعل حساب المد والجزر فى الأماكن المختلفة من المحيطات والبحار أكثر تعقيداً . وللمد والجزر أهميته الكبرى فى الملاحة البحرية . ففى المناطق التى يكون فيها مدى المد والجزر كبيراً ، فإنه يجب على قادة السفن معرفة وقت تغير مدى المد والجزر حتى لا تجنح السفن على الشطوط الرملية أو الأماكن الضحلة من البحار . ولهذا السبب بدأ العلماء فى تجهيز جداول للتنبؤ بالمد والجزر وتحديد مواعيد المناسيب المختلفة للمياه فى كل يوم من أيام السنة بل فى كل ساعة من ساعات النهار أو الليل فى الموانى المختلفة . وبالنسبة لشواطئنا فإن ظاهرة المد والجزر لا يمكن مشاهدتها بوضوح وذلك لأن مستوى ارتفاع الماء وانخفاضه ضئيل جداً ، ولا يتعدى ٣٠ سم . بعكس هذا فإنه يمكن مشاهدة هذه الظاهرة

بوضوح في بعض الجهات مثل خليج فنداى حيث يبلغ مدى المد والجزر حوالى ٥٠ قدماً .

ومن المد والجزر يمكن توليد الكهرباء من الطاقة التى تنشأ من فرق المدى . ومن المعلوم أن الطاقة الكهربائية تعتمد على فرق المدى للمد والجزر أى أنها تتناسب تناسباً طردياً مع كمية الماء المحصورة بين مستوى الماء العلوى ومستوى الماء السفلى. وقد وجد أن الطاقة الكهربائية التى يمكن أن تنتج نتيجة لتأثير المد والجزر فى العالم تساوى تقريباً ٢ × ١٠^{١٣} قوة حصان ساعة سنوياً . وهذا ما يعادل احتياجات العالم من الكهرباء فى عام ١٩٥٧ . بفرض الاستفادة من كل المناطق التى يكون فيها المد والجزر كبيراً . ومن الطبيعى أنه فى أيامنا هذه تغيرت هذه النسبة نظراً للتطور الذى حدث فى التقدم العلمى والاجتماعى وازدياد نسبة السكان مما أدى إلى زيادة استخدامات الكهرباء فأصبحت تدخل فى تسهيل عمليات كثيرة كإدارة المصانع والأجهزة العملية والأدوات المنزلية .

وتتلخص فكرة توليد الكهرباء من تأثير المد والجزر فيما يأتى :

ينشأ سد عند فتحة مصب النهر المتصل بالبحر مجهز

ببوابات للتحكم فى حصر الماء أو سيبانها . فعند وصول أعلى مستوى لسطح الماء نقفل البوابات ثم يستخدم الماء المحصور بين أعلى مستوى لسطح الماء وأقل مستوى له لإدارة التربينات حتى يصل مستوى الماء إلى أقل مداه فتبدأ عملية البوابات لاستخدام الماء المحصور وراء السد فى إدارة التربينات حتى وصول أعلى مستوى لسطح الماء مرة أخرى ثم تتكرر العملية . وقد فكر العلماء فى مشروعين مختلفين فى كيفية توليد الطاقة الكهربائية الناتجة من تأثير المد والجزر على النحو الآتى :

١ — مشروع الحوض الواحد — وهو مشروع بدائى جداً . وهو عبارة عن إنشاء سد عند فتحة للمضيق المتصل بفتحة مصب النهر أمامه حوض مجهز بوساطة بوابات . فبينما مستوى سطح الماء يرتفع تبدأ عملية البوابات . وعند وصول مستوى الماء إلى أعلى منسوب تقفل البوابات حاجزة وراءها الماء . ومن هنا تبدأ عملية دوران التربينات بوساطة كمية الماء المحصورة بين أسفل وأعلى مستوى لسطح الماء ، وعندما يصل منسوب الماء إلى أسفل ما يمكن تبدأ عملية فتح البوابات لانسياب الماء منها لمواصلة دوران التربينات . وتستمر هذه العملية حتى بدء وصول أعلى مستوى للماء فتقفل البوابات مرة أخرى

وتستمر العملية هكذا . وعيب هذه الطريقة هو أن الطاقة الكهربائية الناتجة غير ثابتة وذلك نتيجة لتغير أعلى متسوى لمنسوب الماء كل دورة جزرية .

٢ — مشروع الحوضين — وهو عبارة عن حوضين يفصلهما سد مجهز ببوابات ولكل حوض فتحة متصلة بالبحر — ويستعمل أحد الأحواض لأعلى مستوى لسطح الماء أما الحوض الآخر فيستعمل لأدنى منسوب لسطح الماء وتوضع التربينات بين الحوضين حيث إن حوض أعلى منسوب يؤثر أولا فى إدارة التربينات وفى نفس الوقت ينقل الماء إلى الحوض المختص بأسفل منسوب سطح الماء . وتستمر هذه العملية حتى وصول مستوى الماء أقل ما يمكن فيبدأ حوض أسفل منسوب فى تحريك التربينات وهكذا . ويمكن بوساطة الحوضين الحصول على تيار مستمر ثابت بقوة ثابتة مهما تغير منسوب أعلى وأقل مستوى لسطح الماء . وتوجد أماكن قليلة فى العالم يظهر فيها تأثير المد والجزر واضحاً ويمكن استخدامه فى توليد الكهرباء . وقد وجد أن أنجح مشروع يحتاج إلى مدى للمد والجزر على الأقل ٢٠ قدماً بحيث يكون الشاطئ ذا تكوين جيولوجى قوى يمكن أن يتحمل إنشاء خزان لتخزين المياه . ومن المناطق التى

يمكن توليد الكهرباء منها هو بحر سيفرن (Severn) بإنجلترا . وبحر لارانس ومونت سانت ميشيل بفرنسا . وبحر سان جرسى وديسيدو (Diseado) بالأرجنتين .. ومصبات أنهار بتيكودياك (Petit Codiac) ميمرامكوك (Memramcook) فى خليج فنداى بكندا وقد وجد فى خليج فنداى حيث يبلغ مدى المد والجزر حوالى ٤٠ قدماً يمكن توليد كهرباء بقوة قدرها ٣ × ١٠^٤ قوة حصان فى القدم المربع فى ١٢,٥٠ ساعة . بينما فى بحر لارانس بفرنسا فإن الطاقة الكهربائية المنتجة تقدر بحوالى ٥٦٥ مليون كيلوات فى الساعة سنوياً .

وفى الجمهورية العربية المتحدة لا يمكن الاستفادة من المد والجزر نظراً لصغر المدى ولكن أمكن فعلا من الاستفادة من انحدار ماء نهر النيل عند سد أسوان فقد أمكن إنشاء محطة لتوليد الكهرباء عام ١٩٦١ وتبلغ قدرتها نحو ٢٠٠٠ مليون كيلووات/ساعة سنوياً . وتستغل هذه الطاقة فى تشغيل مصانع السماد ومصانع كيما بأسوان . وفى إدارة طلمبات رفع الماء للأراضى الزراعية بمحافظتى قنا وأسوان وهذا ما يزيد من بقعة الأرض الزراعية التى ستعود بالنفع الكبير على أهالى هذه المناطق .

ومن فوائد مشروع السد العالى على اقتصادنا القومى نذكر ما يأتى :

١ ـ التوسع الزراعى بتوفير الرى لمليون فدان جديدة وتحويل ٧٠٠ ألف فدان بالوجه القبلى من رى الحياض إلى المستديم وبهذا تزيد المساحة المنزرعة الحالية بحوالى ٢٥٪ .

٢ ـ الوقاية الكاملة من أخطار الفيضانات العالية دون الحاجة إلى تعلية جسور النيل الحالية أو تقويتها التى تكبد مصلحة الرى أموالا طائلة كل عام .

٣ ـ توليدطاقة كهر بائية تقدر بنحو ١٠ مليار كيلووات/ساعة سنويًا أو ما يعادل حوالى خمسة أمثال الطاقة الكهربائية المولدة من محطة توليد الكهرباء بخزان أسوان الحالى مما يساعد على خلق صناعات جديدة وازدهار الصناعات الحالية .

وبالإضافة إلى هذا فإن السد العالى سيؤثر تأثيراً كبيراً فى اقتصاد الجمهورية السودانية حيث إنه ستصل المساحة المنزرعة إلى حوالى ثلاثة أمثالها . بينما سيرتفع الدخل القومى من الزراعة إلى حوالى ٣٠٠٪ .

(ب) الأمواج :

ومن المصادر الأخرى لتوليد الكهرباء هى الأمواج وتنقسم الأمواج إلى أنواع مختلفة من حيث طولها وزمن مرورها

واتجاهها وطبيعة الوسط التى تسير فيه والقوة المؤثرة عليها بالإضافة إلى عوامل أخرى .

فمن حيث الزمن التى تستغرقه الموجة فإنها تنقسم إلى :

الموجات الشعرية (Capilary) ومدتها أقل من ١,٠ من الثانية

موجات فوق الجاذبية (Ultra Gravity) ومدتها من ١, إلى ١ ثانية .

موجات الجاذبية (Gravity) ومدتها من ١ ثانية إلى ٣٠ ثانية .

موجات تحت الجاذبية (Infra Gravity) ومدتها من ٣٠ ثانية إلى ٥ دقائق .

موجات ذات الزمن الطويل (Long Period) ومدتها من ٥ دقائق إلى ١٢ ساعة .

موجات المد والجزر (Tidal) ومدتها من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة .

موجات ما وراء المد والجزر (Trans-Tidal) ومدتها أكبر من ٢٤ ساعة .

ومن حيث اتجاه مسارها فى مجال الحركة فإنها تنقسم إلى :

١ـــ موجات مستعرضة وتكون شدة المجال أو الوسط إن وجد يتذبذب فى اتجاه عمودى على اتجاه مسار الموجة كالموجات

الكهرومغناطيسية .

٢ - موجات طولية وفيها تتحرك جزيئات الوسط فى نفس الاتجاه أو موازى لمسار الموجة كالموجات الصوتية .

بالإضافة إلى هذا فإنه يوجد نوع آخر من الأمواج وهى الأمواج الثابتة (Standing) والأمواج الساكنة(Stationary) وتكون على شكل موجتين إحداهما تتحرك فى عكس اتجاه الأخرى والفرق بينهما أنه فى حالة الأمواج الساكنه تكون الموجتان تسيران فى عكس الاتجاه متساويتين فى القوة وفى الذبذبة بحيث تلاشى كل منهما الأخرى أما فى حالة الأمواج الثابتة فإنه يوجد فرق بين قوتى الموجتين المتضادتين الذى يعطى فى النهاية محصلة فى اتجاه بعيد عن مصدر الموجات .

ومن حيث العمق فإنها تنقسم إلى :

(ا) موجات مائية عميقة وفيها تكون خارج قسمة عمق الماء على طول الموجة كبيرة جدا ، أى عندما تكون النسبة أكبر من النصف .

(ب) موجات مائية ضحلة وفيها يكون خارج قسمة عمق الماء على طول الموجة صغير نسبياً أى عندما تكون النسبة أقل من $\frac{1}{2}$.

بالإضافة إلى أنواع الأمواج المختلفة التى ذكرت سالفاً فإنه توجد أنواع أخرى تعتمد على عوامل كثيرة ومتعددة . فمثلا يوجد نوع من الأمواج ينشأ بين وسطين بينهما فرق فى الكثافة كالأمواج التى تنشأ بين الطبقة السطحية للبحر وطبقة الجو الملاصقة لها وكذلك فى داخل البحر نفسه بين طبقتين مختلفتى الكثافة . هذا النوع من الأمواج يسمى بالأمواج الداخلية .

والأمواج البحرية هى النتيجة المباشرة لتأثير الرياح على البحار والمحيطات وفى هذه الحالة تكون سرعة وحجم الموجة يتناسب تناسباً طردياً مع سرعة الرياح .

وقد وجد أن العوامل التى تحدد نوع الموجة هى :

١ — عمق الماء التى تسير بها الموجة .

٢ — قوة الرياح .

٣ — المدة التى تستغرقها هبوب الرياح .

٤ — المسافة التى تغطيها الرياح عند هبوبها على سطح الماء .

٥ — الحالة العامة للبحر .

وإذا بحثنا فى المراحل المختلفة التى تمر على تكوين الأمواج المختلفة فإننا نجد أنه في أول مراحل هبوب الرياح على سطح

البحر تبدأ الأمواج في التكوين مكونة منطقة تعرف باسم البحر (Sea) وبازدياد شدة الرياح يبدأ ظهور الموج المتلاطم (Swell) وتستمر هذه الموجات مؤثرة لمسافات طويلة تتخللها بعض الأمواج القصيرة غير المنتظمة حتى تصل هذه الأمواج إلى منطقة ضحلة من الماء فتنكسر وتنتشر على هيئة أمواج ذى قمم بيضاء تعرف بأمواج الشاطئ (Surf) حيث تتعدى خط الساحل متجهة نحو الشاطئ .

والجدير بالذكر أن الأمواج البحرية ليست كلها نتيجة لتأثير هبوب الرياح وإنما ترجع إلى عوامل أخرى . فقد تكون نتيجة حدوث بركان أو زلزال فى منطقة ما فى قاع البحر الشيء الذى ينشأ عنه خسائر فادحة نتيجة لتكوين الأمواج الطويلة التى تعرف باسم أمواج المد والجزر مع أنها ليست لها أى علاقة بظاهرة المد والجزر .

(هذا بخلاف الأمواج التى تحدث نتيجة لقوى الجذب بين الشمس والقمر مع الغلاف المائى المتكون حول الكرة الأرضية) .

وهذه الأمواج تسمى باسم التسونامى (Tsunami) وهى تسير بسرعة هائلة حوالى ٦٠٠ قدم / ثانية فى الطبقات العميقة من

المحيطات ومن النادر أن ترى فى البحار . وبالإضافة إلى أنها تحدث نتيجة الزلازل والبراكين إلا أنه فى بعض الأحيان تكون نتيجة الانفجارات الذرية . وهذه الأمواج مع أنها قليلة الحدوث إلا أنها خطيرة جداً لأنه لا يمكن التنبؤ بها . وهى عادة توجد فى المناطق التى تكثر بها الزلازل كساحل المحيط الهادى وعلى الأخص الساحل اليابانى . ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وفى بعض الأحيان على سواحل المحيط الأطلنطى .

ومن المشاهدات المختلفة لأمواج البحر فإنه فى أغلب الأحيان نشاهد الأمواج المتوسطة الارتفاع حيث يصل ارتفاعها من ٣ أقدام إلى ١٥ قدماً .

وفى بعض الأحيان تصل من ٢٠ إلى ٢٥ قدماً . هذا فى حالة هبوب رياح شديدة .

ومع هذا من النادر أن تصل ارتفاع الموجة إلى أعلى من ذلك إلا أنه فى عام ١٩٣٣ فى السادس من فبراير وسط الجزء الجنوبى من المحيط الهادى أن سجلت (U.S.S. Ramapo ارتفاعاً) لموجة وصلت إلى ١١٢ قدماً أى ما يقرب من ٣٥ متراً .

والعجيب أننا إذا تصورنا هذا الارتفاع التى تحدثه الموجة وحسبنا القوة الهائلة الناتجة من هذا الارتفاع لوجدنا أنفسنا أننا

قد سرحنا فى عالم آخر من ضخامة هذه القوة . فهل تعلم أن الأمواج التى تبلغ ارتفاعها ٦ أقدام تؤثر بقوة قدرها ٣٠٠٠ رطل فى القدم المربع .

ومع أن ارتفاع الموجة قد يهدد فى بعض الأحيان إلا أن انحدار الموجة هو الشىء الأهم فى بعض الأحيان الذى يحدث التلف بالسفن وما تحمل من بشر وثروات والبحارة أنفسهم . وقد دلت الدراسات النظرية على أن الموجة لا يمكن أن تصل انحدارها إلى أكثر من $\frac{1}{7}$ ، وقد حدث فى أواخر عام ١٩٤٤ أن هبت رياح الأعاصير على جزر الفلبين كان من نتيجتها أن دمرت الأسطول الثالث بقيادة الأدميرال وليام هالسى (Admiral William Halsey) وفى نفس العام قرب ساحل فلوريدا غرقت الباخرة (U.S.S.Warington) وفقد طاقم بحارتها الذى يبلغ ٢٥١ بحاراً. وهنا يجب أن نذكر أن الموجات العالية من النادر أن تحدث فى منطقة العواصف الاستوائية وذلك لأن الرياح الشديدة تهب فى اتجاهات مختلفة على مساحات ضيقة الشىء الذى يجعلها غير كافية لوقوع الحوادث بالبواخر . والأمواج لها تطبيقاتها المختلفة فى جميع الحالات . فمن فكرة الأمواج اخترعت الأجهزة لقياس الأعماق وتحديد المواقع والمدى بالإضافة إلى

ذلك فإن دراسة الأمواج تطبق فى الطائرات فوق الصوتية والآفاق الخاصة بدراسة الرياح وأنابيب الصدمات وذبذبات احتراق الصواريخ وانفجارات القنابل الذرية وعمليات الصهر فى البلازما والطرق فوق الصوتية فى عمليات الكشف عن العيوب المختلفة فى المعادن والسبائك .

ومن المعلوم أن الأمواج فى السوائل يمكن أن تنكسر وتحيد ويمكن تجميعها لتنتج طاقة قوية مركزة . فمثلا فى أنابيب الصدمات يمكن تجميع كل الطاقات التى تحملها الأمواج وكذلك الموجات فوق الصوتية يمكن تجميعها وتوجيهها إلى خزانات الزئبق لاستخدامها فى العقل الإلكترونى .

كذلك تستخدم الأمواج فى الكشف عن البترول وفى الدراسات المختافة للأرصاد والتنبؤات ا لجوية بالاضافة إلى هذا فإنها عامل مهم فى الحرب للكشف عن مكان الغواصات وفى توليد الكهرباء وفى عملية تآكل الشواطى .

والأمواج كأى ظاهرة من الظواهر الطبيعية يمكن قياسها وتقديرها كمياً ونوعياً .

ويمكن قياس الأمواج بطريقتين أساسيتين : الأولى بقياس ميل مستوى سطح البحر . والثانية بقياس التغيرات

الطارئة على الضغط الجوى عند الأعماق المختلفة الناتجة من حدوث الأمواج .

أما بالنسبة للأجهزة التى تستعمل لقياس ميل مستوى سطح البحر فإنها تشمل :

١ — جسم يطفو على سطح الماء يتصل ميكانيكياً بجهاز التسجيل .

٢ — أجهزة لتسجيل قوى الدفع المؤثرة على أسطوانة عمودية مثبتة .

٣ — أجهزة تستخدم بواسطة معجل عمودى (Accelerometer) مثبت بواسطة عوامات سطحية .

٤ — أجهزة لتسجيل ارتفاع سطح البحر المطلق يستخدم من طائرات فى المنطقة التى يراد دراسة ميل المستوى فيها .

٥ — (Stereophotographs) أشكال أو صور مجسدة .

٦ — عناصر لها خواص كهربائية بحيث إن مقاومتها أو سعتها دالة لميل مستوى سطح البحر . أما بالنسبة للأجهزة المستخدمة لقياس تغيير الضغط الجوى تحت سطح الماء فإنها تعتمد اعتماداً كلياً على الطريقة الهيدروديناميكية لحساب ارتفاع الموجة بالإضافة إلى هذا فإنه يمكن تحويل إشارات الضغط

عند الأعماق المختلفة إلى إشارات كهربائية بواسطة (Transducer).

والتنبؤ بالأمواج ودراسة الحالة العامة للبحر تعتمد على الأرصاد الجوية من ضغط ورياح وخلافه والمعادلات النظرية التي تربط الرياح والأمواج.

وحيث إنه في بعض الأحيان تكون الأمواج المكونة لحالة البحر عبارة عن أمواج محلية نشأت من الظروف المحيطة بالمنطقة مضافاً إليها الأمواج المتلاطمة القادمة من مسافات طويلة نتيجة حدوث أعاصير. لذلك اتجه الباحثون إلى تقسيم طرق التنبؤ بالأمواج إلى طريقتين مختلفتين معتمدتين كل منهما على خرائط الأرصاد الجوية للبحار والمحيطات.

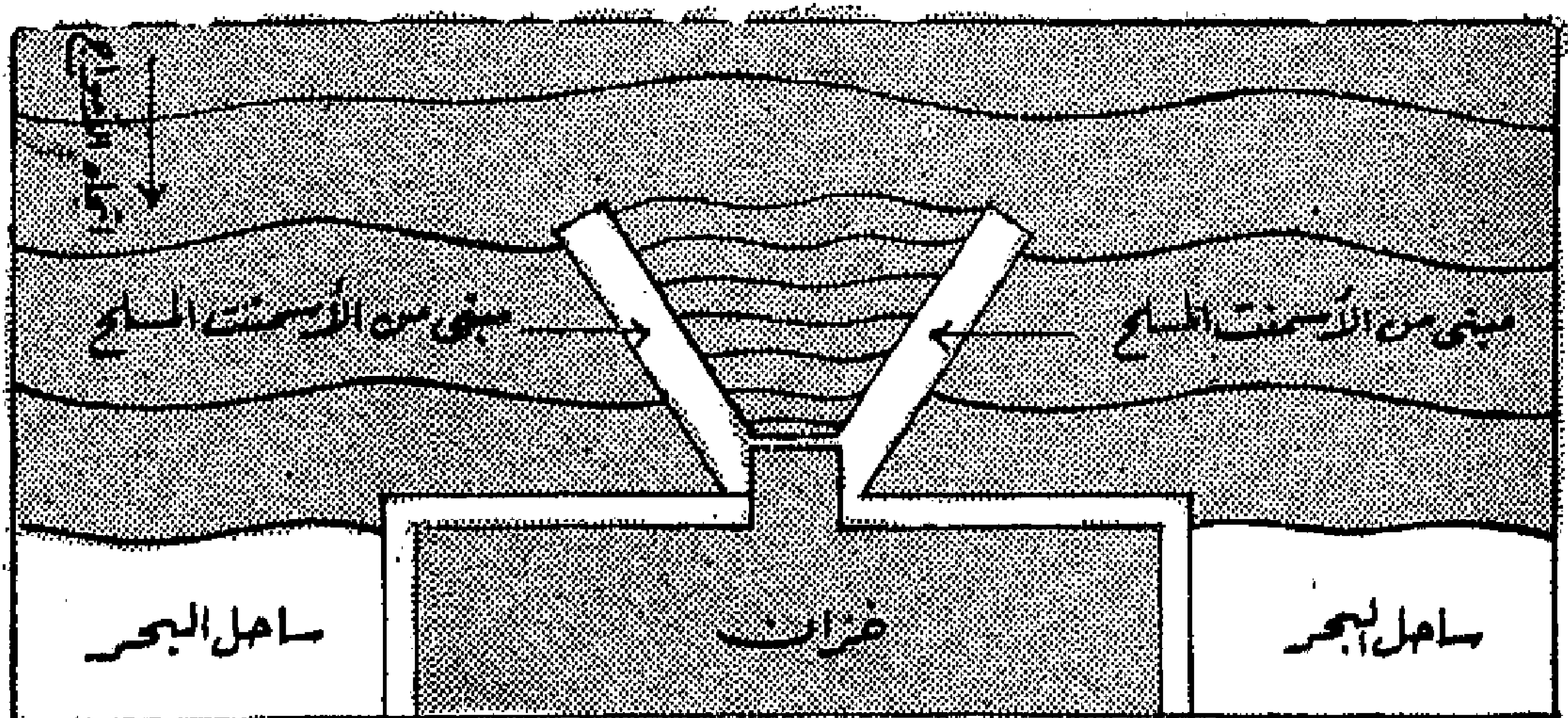
والطريقة الأولى هي إيجاد العلاقة بين تغير مقدار الطاقة التي تولدها الرياح مع الأمواج على امتداد مسافات طويلة والأزمنة المقارنة. أما الطريقة الثانية فهي تعتمد على دراسة تغير ارتفاع الموجة بتغير شدة الرياح.

وكما ذكرت سلفاً أن الأمواج من المصادر المتعددة لتوليد الكهرباء. فقد وجد أن الأمواج المائية التي تنشأ في شمال المحيط الأطلنطي التي قد يبلغ ارتفاعها حوالي ١٥ قدماً، يمكن أن تنتج طاقة كهربائية قوتها ٣ × ١٠^{٢} قوة حصان في القدم

المربع . ومن أهم المشاريع التى تنجح فيها توليد الطاقة الكهربائية من تأثير الأمواج هو مشروع الساحل الجزائرى . وتولد الكهرباء من تأثير الأمواج بإقامة بنيان من الأسمنت المسلح على شكل رقم ٧ (شكل٣) على الساحل أمام اتجاه الأمواج فحينما تقترب الأمواج من هذا البنيان فى نهايةالشكل ٧ وتبدأ المياه فى التجمع عند الجزء المسحوب ويبدأ منسوب المياه فى الارتفاع حتى يصبح عالياً لدرجة انسيابه من فوق السد إلى خزان لحصر الماء . ومن هذا الخزان يمكن مرور تيار من الماء لإدارة التربينات لتوليد الطاقة الكهربائية . وواضح أن هذا المشروع يحتاج إلى تدفق أمواج مائية باستمرار على مدار السنة الشيء الذى يجعل تطبيقه فى الحياة العملية صعباً .

بعد هذا العرض السريع عن الأمواج ونشأتها وطبيعتها والعوامل التى تؤثر على نشأتها . أنتقل إلى موضوع آخر لا يقل أهمية عن الأمواج بل هو إحدى نتائج تأثيرها وهو النحر أو تآكل الشواطئ .

والنحر هو النتيجة المباشرة لتأثير العوامل الطبيعية والكيميائية على طبقة الكرة الأرضية سواء كانت ملاصقة لقاع البحر أو مجاورة لمجرى الأنهار والبحار .



شكل رقم (٣) توليد الطاقة الكهربائية من الأمواج

والعوامل المؤثرة على النحر كثيرة ومتعددة مثال ذلك تحات الصخور بتأثير (Weathering) التقلبات الجوية والنحر تحت تأثير سريان المياه فى مجرى الأنهار وتجمد الطبقات المختلفة من المياه فى البحار والرياح والأمواج والمياه الجوفية بالإضافة إلى عوامل أخرى .

والجدير بالذكر أن عملية الترسيب تلاحق النحر فى كل مكان فنجد أنه عندما يحدث نحر فى منطقة ينشأ عنه انتقال المخلفات المتباينة من صخور ورمال وخلافه إلى منطقة أخرى حسب اتجاه التيارات والتأثيرات المختلفة فى هذه المنطقة .

وسأبدأ بشرح الطرق المؤثرة على النحر بطريقة موجزة :

النحر تحت تأثير التقلبات الجوية (Weathering) :

وهذه الظاهرة فى الحقيقة تنقسم إلى عاملين : عامل ينسب إلى الطرق الكيماوية ، والعامل الآخر ينسب إلى الطرق الميكانيكية وكلا العاملين مهمتهما الأساسية هى التأثير على الصخور بحيث تصبح جزئياتها متحاللة سهلة للانتقال من مكان إلى آخر إذا مر عليها تيار مائى أو سلسلة من الأمواج ؛

ومن المعلوم أن بعض المعادن فى الصخور النارية والصخور

المتحولة تكون معرضة للتجوية الكيماوية حيث إنها تكونت تحت تأثير عوامل مختلفة عن العوامل الموجودة على سطح الأرض . فمعادن الحديد والمغنسيوم يمكن أكسدتها بأكسوجين الجو يساعده فى ذلك حامض الكربونيك (الناتج من ذوبان ثانى أكسيد الكربون فى الماء) .

والأحماض العضوية الناتجة من النباتات المتحللة . ونجد أن الحديد يتحول إلى حديدوز ثم إلى أيدرات الحديديك الذى يعرف بلونه الأحمر أو البنى اللون الذى تشتهر به الصخور الغنية بالحديد . وإذا نظرنا إلى الحجر الجيرى نجد أنه من أشهر الصخور الرسوبية المعرضة للتأثير الكيميائى أكثر من أى نوع آخر من الصخور نظراً لذوبان الكالسيت (كربونات الكالسيوم) فى حامض الكربونيك .

بالإضافة إلى هذا فإن الكوارتز والميكا البيضاء تقاوم عوامل التجوية الكيميائية . فتبقى على هيئة حبيبات متفرقة بعد انحلال المكونات الأخرى فى الصخور .

أما الصخور المتكونة من السلكيا مثل حجر الصوان وبعض أنواع حجر الكوارتز فهى لا تتأثر بهذه العوامل .

النحر بتأثير مجارى الأنهار :

وهذا العامل يعتبر من أهم العوامل المؤثرة فى النحر فى حيث إن مرور المياه فى مجرى النهر تحدث نحراً فى الجوانب والقاع بالإضافة إلى حمل المخلفات الذى يحملها التيار أثناء مروره . وكمية النحر تعتمد على عاملين مهمين هما انحدار مجرى المياه وسرعة وحجم تيار المياه . ومن المعلوم أن نوع الرواسب التى يحملها التيار من رمال أو زلط وخلافه تعتمدأيضاً على هذين العاملين بالإضافة إلى أنهما يؤثران فى كمية النحر الناتجة فى الصخور المختلفة الصلابة المكونة لطبقات الوادى . ومن الطبيعى أنه إذا هبت عاصفة على الجهات المجاورة لمجرى النهر وكانت هذه العاصفة مصحوبة بأمطار غزيرة فإن هذا يساعد على زيادة النحر والترسيب فى المجرى .

وإذا تتبعنا نشأة مجرى النهر عندما يشق طريقه إلى الوادى نجد أنه فى دور تكوينه تبدأ عملية نحر الجانبين والقاع حتى يصل شكل المقطع للمجرى حرف ٧ . وتستمر هذه العملية فيتزايد تآكل الجانبين بينما يقف تقريباً تآكل القاع . ويتحول شكل قاع المجرى على هيئة نصف قطع ناقص . ومن هنا نجد أن تكوين شكل المقطع لمجرى يختلف باختلاف طبيعة الجو

والأرض فى المنطقة التى ينشأ فيها المجرى معتمداً على كمية الأمطار الساقطة . فمثلا عندما يكون الجو جافاً فإن مجرى النهر يخترق طريقه وسط الوادى فى منحنى متعرج بطريقة ملتوية بينما فى حالة جو ممطر فإن مستوى سطح الماء فى المجرى يرتفع فوق قناته الرئيسية ويطفح على الجانبين . ولهذا السبب نجد أن مجرى النهر يتحول من شكل ٧ إلى مستوى بانحناء بسيط (ضحل) فى حالة نزول أمطار غزيرة .

بعد تكوين مجرى النهر تبدأ عملية تكوين فروع مجرى النهر بطريقة مماثلة تقريباً مع اختلاف الفارق فى كمية الماء وسرعتها والطاقة المستخدمة فى شق طريقها والجدير بالذكر أن الدلتا نشأت نتيجة مرور المياه القادمة من الروافد إلى مجرى نهر النيل وتراكم الطمى على جانبى أفرع نهر النيل . وتفسير هذا أن عملية النحر تصحبها عملية ترسيب فبينما كان نهر النيل يشق طريقه كان يحدث عملية نحر فى الجانبين والقاع وعملية ترسيب المخلفات من طمى وخلافه على الجانبين حيث تهبط سرعة التيار وتصبح غير قابلة على حمل هذه المخلفات ولهذا السبب تكونت الدلتا على مر السنين من ترسيب الطمى الصالح للزراعة القادم مع الفيضان كل عام .

النحر بواسطة الرياح والأمواج والتيارات :

والنحر بواسطة الرياح مقصور على الجهات التى يكثر بها الأتربة وغير محمية بالنباتات كالشواطئ المعرضة للرياح والأراضى القاحلة كالصحراء والرياح فى حد ذاتها تحمل الأتربة الصغيرة جداً ولا تستطيع أن تحمل قطع الحجر الكبيرة .

ولذلك نجد أنه عند هبوب الرياح على منطقة ما فإنها تحمل الأتربة معها إلى طبقات الجو العليا وتسير بها إلى مسافات طويلة حيث تجد منطقة محمية تتراكم فيها الأتربة مكونة ما يسمى بالكثبان الترابية وكثيراً ما تستعمل الرياح فى تنقية المخلفات من زلط ورمل وخلافه من التراب الذى يحتويه . بالإضافة إلى هذا فإن الرياح عامل مهم فى تآكل جوانب الجبال المعرضة لها . وكذلك فإن الرياح من العوامل المهمة فى توليد الأمواج والتيارات البحرية نتيجة الاحتكاك بينها وبين طبقات المياه المختلفة . فنجد أنه عندما تتكسر الأمواج على الشواطئ تعطى نوعين من التيارات البحرية أحدهما يعرف باسم التيار الفاتق (Rip Current) متجهاً ناحية البحر على

هيئة أشرطة ضيقة من المياه وسط أمواج الشاطئ الصخرى surf والنوع الآخر يعرف- باسم التيارات الشاطئية الطولية حيث تتجه موازية للشاطئ وهى ناشئة من الأمواج التى تتقدم نحو الشاطئ فى اتجاه عمودى . والأمواج لها تأثيرها المباشر على نحر جوانب البحيرات التى تعلو مستوى سطح الماء فيها بينما يكون نحر الشواطىء فى المحيطات ناتجاً من قوة أمواج المد والجزر مكوناً ما يعرف بالميل أو الرصيف القارى. نضيف إلى ذلك أن تأثير الأمواج على خطوط السواحل المختلفة هو تأثير موسمى يتبع نظام هبوب الرياح حيث إنها العامل المهم فى توليد الأمواج . والتيارات البحرية عامل مهم أيضاً فى النحر والترسيب حيث إنها تحمل المخلفات الناتجة من تأثير الأمواج ومرور المياه فى مجرى الأنهار القادمة من الأماكن المختلفة إلى المحيطات فترسبها حيث تهبط سرعة التيار ويصبح غير قادر على حملها .

النحر بواسطة المياه الجوفية :

والمياه الجوفية بمعناها العلمى هى المياه الناتجة من تسرب مياه الأمطار إلى باطن الأرض وتجميعها حتى تصبح التربة

مشبعة فتبدأ فى الانتقال إلى الوادى حيث تغذى مجرى النهر.
وحركة المياه الجوفية تختلف باختلاف طبيعة التربة فإذا كانت التربة متكونة من الرمال والزلط سهل انتقال هذه المياه بينما إذا كانت التربة متكونة من طبقات مختلفة من الطفل فهذا يبطئ سرعة سريان المياه . ولو أن تحركات المياه الباطنية بطيئة إلا أن عمليات النحر التى تحدثها لا يمكن تجاهلها . حيث إنها يمكن أن تحدث عمليات تعرية ميكانيكية . فوجودها بين حبيبات التربة والصخور يساعدها على تذويب كمية من المواد القابلة للذوبان التى تكون فيها ثم ينتقل جزء منها إلى مجارى الأنهار المجاورة أو قد تترسب مرة أخرى فى أماكن أخرى التى أصابتها عمليات التجوية . وعملية التذويب تمتد إلى أعماق بعيدة تحت باطن الأرض حسب نوع الصخور الموجودة حيث إنه على وجه العموم كل أنواع الصخور يوجد بها بعض الشقوق والثقوب التى تسمح لكمية من الماء أن تتحرك داخلها (ولو أن الصخور النارية والمتحولة لا يوجد بها كمية مياه إلا قليلة جداً) وفى أعماق هذه الصخور تقل كمية الماء الموجودة فيها . ولهذا فى المناجم العميقة يوجد مياه كثيرة فى أجزائها العليا وتقل كلما اتجهنا إلى الأجزاء السفلى من المنجم .

وعمليات الترسيب من المياه الجوفية هى عمليات كيميائية بحته (أى ترسيب من المحاول) وهذا الترسيب قد يحدث نتيجة للتبخر من الماء أو لاختلاط مياه باطنية من جهات مختلفة أو لانخفاض درجة الحرارة أو لهروب غاز عند انخفاض الضغط المحيط به .

بعد هذا العرض السريع للعوامل المختلفة المؤثرة على النحر نجد أن ميكانيكية عملية النحر والترسيب على الشواطئ لها صلة وثيقة بالفرق بين سرعة كمية الماء فى الموج الداخل والخارج على الشاطئ .

لذلك نرى أن الموج الداخل على شاطئ منفذ للماء يقلل كمية الماء التى يحملها الموج الخارج من الشاطىء . وعلى هذا يكون هذا سبباً فى تراكم الماء الآتى مع الموج الداخل ويزيد من هذه العملية إذا كان الشاطئ جافاً ، ومن المعلوم أن الرمل أو الحبيبات الكبيرة أكثر نفاذا للماء وبالتالى أكثر تأثيراً للترسيب وعمل الشاطئ المنحدر . بينما فى حالة الشاطئ المشبع يكون الموج الخارج بسرعة أكبر وهذا يساعد على النحر . من هذا كله يتضح لنا أن انحدار الشاطئ يزداد مع زيادة حجم حبيبات المواد المترسبة وانخفاض ارتفاع الموجة وقوتها .

طرق حماية الشواطئ :

توجد طرق كثيرة لحماية الشواطئ تعتمد جميعها فى تصميمها على ما يأتى :

١ ــ قيمة الأرض والإصلاحات المطلوب حمايتها .

٢ ــ قيمة واتجاه ما يجرفه التيار الساحلى .

٣ ــ قوة دفع الأمواج .

٤ ــ التتبع التاريخى الجيولوجى لمنطقة النحر .

وسأعرض ثلاث طرق مختلفة مستخدمة فى حماية الشواطئ من التآكل الذى يحدث نتيجة العوامل المختلفة ووقف الترسيب الناتج فيها .

١ ــ الحائط أو الحاجز البحرى :

وهو عبارة عن حاجز من الأسمنت المسلح أو من الطوب أو الحجر ينشأ أمام الساحل الذى يراد حمايته بما فيه من مبانى ومصانع وخلافه . ويراعى فى تأسيس هذا الحاجز أنه يتحمل تأثير الأمواج المختلفة الارتفاع والقوة بالإضافة إلى الدفع الذى تحدثه الأمواج عند قدومها إليه . وفى بعض الأحيان تردم

المساحة التى أمام الحاجز بالرمال لتكسير الأمواج قبل وصولها إلى الحائط .

٢ ــ الرءوس الصناعية Croynes (Croins) :

وهى عبارة عن حاجز قصير فى الطول متوسط الارتفاع ينشأ عمودياً على خط الساحل لصد ما يجرفه التيار الساحلى . فيجمع أمامه المخلفات والرواسب المختلفة لتوسيع الساحل أو إصلاحه . وفى حالة وضع المقاسات المختلفة لهذا الحائط فإنه يجرى بعض التجارب المبدئية عن الظروف المحيطة بالمنطقة . وقد وجد أنه فى بعض الأحيان أن تأثير الأمواج القادمة على هذه الحواجز قد يحدث بها الشقوة لذلك اتجه المهندسون المدنيون لإيجاد الحلول العملية المناسبة ووصلوا للحل الناجح وهو جعل هذا الحاجز متصلا بحاجز آخر موازياً لخط الشاطئ .

٣ ــ رصيف للميناء (Jetties) :

وهو عبارة عن بناء ضخم يمتد إلى عشرات الأمتار من البحر. ووظيفته وقف كل ما يجرفه التيار الساحلى من رمال وخلافه محدثاً ترسيب مقابل اتجاه الريح ونحر فى اتجاه الريح نفسها .

بالإضافة إلى هذا فقد وجد فى بعض الأحيان لضخامة تكاليف إنشاء حاجز أو حائط بحرى فإنه اتجهت بعض الآراء إلى ردم المساحة من البحر أمام الشاطئ الذى يحدث فيها النحر بالرمال أو بالحجارة . وفى هذه الحالة تكون فائدة هذا الشاطئ الاصطناعى تكسير الأمواج قبل وصولها إلى الشاطئ الحقيقى وحفظ الأراضى والمساكن وراء الشاطئ .

وكل هذه المحاولات والمشاريع الخاصة بحماية الشواطئ تعتمد كلية على البيانات والأرصاد التى تجمع من واقع المكان الذى يوجد فيه نحر أو ترسيب حتى تكون الحلول المقترحة قريبة من الواقع الصحيح .

مشكلة تآكل شواطئ الجمهورية العربية المتحدة :

من المعلوم أن الدلتا نشأت نتيجة لعمليات النحر والترسيب المختلفة الناتجة من مرور تيار الماء فى مجرى نهر النيل القادم من روافده المختلفة محملا بالطمى .

وإذا نظرنا إلى فروع مجرى نهر النيل حسب أهميتها فإننا نجد أن الفرعين المهمين فى دراستنا هما فرعا دمياط ورشيد لما لهما من تأثير فى عملية النحر بواسطة التيار المائى والترسيب

بواسطة الطمى . وإذا بحثنا فى العوامل التى تؤثر فى تآكل شواطئنا فإنها كثيرة ومتعددة أهمها التيارات البحرية والرياح التى من أجلها تكونت الأمواج سواء كانت ناشئة على خط الساحل أو قادمة من جهات بعيدة . والنحر والترسيب هما محصلة القوى المؤثرة على الساحل المصرى الممثلة فى تيارات المد والجزر والتيارات القادمة من فرعى مجرى نهر النيل ثم إننا إذا تتبعنا نشأة البحيرات فإنها ترجع إلى عدم تكامل الإرساب النهرى فى بعض القاع فتبقى هذه منخفضة على شكل بحيرات أو مستنقعات ويساعد على انعزالها عن البحر تكون الشطوط الرملية والغرينية بينها وبينه فيتم انفصالها إلى حركة الهبوط التى انتابت ساحل البحر الأبيض المتوسط فى معظم أجزائه فى العصر الجيولوجى الحديث . والجدير بالذكر أن الوضع الحالى بالنسبة للتيارات البحرية قد تغير عما من قبل نتيجة إنشاءالسد العالى وذلك لأنخفاض مرور تيار المياه فى فرعى دمياط ورشيد .

أما من جهة الأمواج فإنه بالنظر فى تقارير الأرصاد الجوية نجد أن الرياح التى لها تأثير على عملية النحر والترسيب هى التى تهب على سواحلنا هى الشمالية والشمالية الغربية .

وأهمية المشكلة التى تواجه الجمهورية العربية المتحدة لها

أثرها المباشر فى تعرض المنشآت والقرى الساحلية لخطر الغرق بالإضافة إلى أطماء بواغيز البحيرات الشيء الذى يؤثر على الثروة السمكية .

والمعروف أن البحيرات يفصلها عن البحر الأبيض المتوسط أرصفة ضيقة الشيء الذى ربما إذا تركت لعمليات النحر والترسيب فإنها ستؤثر على هذه الأرصفة مما يسبب انهيارها واتصال البحيرات بالبحر الأبيض المتوسط وتحويلها إلى خلجان بحرية مما سينتج عنه بعد ذلك تعرض سواحل البحيرات الداخلية للأمواج والتيارات البحرية . وإذا نظرنا إلى أهمية المناطق المختلفة على الساحل المصرى المعرضة للنحر فإنه يمكن ترتيبها على النحو الآتى :

١ ــ منطقة شاطئ مصيف رأس البر وميناء دمياط .

٢ ــ منطقة شاطئ البرلس (شرق وغرب البحيرة) وتعرض البحيرة للاتصال بالبحر .

٣ ــ بحيرة أدكو والسبب فى إغلاق فتحتها .

٤ ــ بحيرة المنزلة وتحرك الفتحة الطبيعية لها وأثرها على إنشاء الطريق البرى .

٥ ــ الشاطئ عند رشيد .

٦ – منطقة جمصة .

٧ – بحيرة البردويل وتآكل المنطقة المحيطة بها .

وقد شكلت لجنة من جميع المهتمين والمتصلين بهذه المجالات التى تتعلق بحماية الشواطئ من خبراء الهندسة المدنية والبحرية والموانى والمنائر والأرصاد الجوية والجهات المختلفة المهتمة بعلوم البحار لدراسة هذه المشكلة ووضع الحلول المناسبة لها .

ونحن نرى أن حل مشكلة نحر الشواطئ ينقسم إلى شطرين : الشطر الأول يتعلق بجمع البيانات اللازمة على امتداد الساحل المصرى من أرصاد جيولوجية وجيومورفولوجية والأرصاد الجوية من رياح وضغط وخلافه وقياس التيارات والأمواج البحرية على مدار سنة كاملة حتى يمكن الحصول على صورة كاملة للتغيرات الطارئة على الساحل المصرى خلال هذا العام بالإضافة إلى التغيرات التى تحدث على فتحات البحيرات بالبحر الأبيض المتوسط .

يضاف إلى هذه الدراسات دراسة العوامل البيولوجية التى تؤدى إلى تغيرات القاع .

من كل هذه الدراسات ونتائجها يمكن وضع الحلول

المناسبة لوقف عملية النحر والترسيب الذى يحدث حالياً على الساحل .

والشطر الثانى يتعلق بالموارد المالية للصرف على هذا المشروع لأن هذه الدراسات تحتاج إلى أموال باهظة بالإضافة إلى أن الحلول المناسبة لها تتطلب الكثير من المال .

(ج) البخر :

والبخر عامل آخر من العوامل الطبيعية فى توليد الكهرباء . وهناك مشروعان يعتبران من أهم المشاريع فى الهندسة المدنية الحديثة لتوليد الكهرباء نتيجة لتأثير البخر . والمشروع الأول هو مشروع البحر الأحمر . فقد تمكن بعض العلماء المصريين وهو الدكتور السيد محمد حسن من تطبيق هذه الظاهرة عند باب المندب بالبحر الأحمر بالقرب من عدن ويتلخص المشروع فيما يأتى :

بما أن كمية البخر على البحر الأحمر أكبر من المطر المتساقط بمقدار ١,٥ × ١٠^٦ أقدام مكعبة فى الثانية وهذه الكمية تعوضها المياه القادمة من المحيط الهندى للتوازن بين مستوى سطح البحر فى المحيط الهندى والبحر الأحمر . فإذا أنشئ

سد عند باب المندب فهذا يمنع قدوم هذه المياه من المحيط الهندي ومن هذا ينشأ فرق مستوى سطح الماء بمقدار ١٢ قدماً سنوياً . وقد وجد أن هذا المشروع سوف يزيد الدخل العام للدولة بمعدل ٩ ملايين دولار فى السنة وأن كيلو الكهرباء سيصل ثمنه إلى نصف ثمن الكيلووات الناتج من استخدام الطاقة الذرية ..

والمشروع الآخر هو مشروع البحر المتوسط . فقد بحث عالم ألمانى فى مضيق جبل طارق فوجد أن حوالى ٣½ ملايين طن من الماء ناتجة من الأمطار والمصادر الأخرى تأتى سنوياً من المحيط الأطلنطى خلال مضيق جبل طارق إلى البحر المتوسط . وقد وجد أن معظم هذه الكمية تفقد نتيجة للبخر العالى فى البحر المتوسط . وبإنشاء سدين عند كل من مضيق جبل طارق ومضيق الدردنيل يمكن خفض كمية المياه القادمة من المحيط الأطلنطى إلى حوالى ٦٥٪ ، وبذلك ينخفض مستوى سطح الماء فى البحر المتوسط . وقد حسب سور جل معدل تغير مستوى سطح البحر فوجد أن المستوى سينخفض بمعدل خمسة أقدام كل سنة ولكن الإحصائيات الأخيرة دلت على أن هذا الرقم مبالغ فيه وأن معدل الانخفاض لايزيد على

٢,٥ قدماً سنوياً . وعلى هذا الأساس وجد أنه لكى ينخفض مستوى سطح البحر إلى الحد الذى افترضه سورجل لكى يكون ملائماً لتوليد الطاقة الكهربائية اللازمة بالإضافة إلى الحصول على أراض شاسعة للزراعة (وهو ٣٣٠ قدماً (يجب أن تستمر هذه العملية مده ١٠٠ عام تقريباً .

والواقع أن هذين المشروعين لم يخرجا من نطاق الدراسات النظرية نظراً للتكاليف الباهظة والمشاكل الدولية المتعددة المتعلقة بهذه المشاريع . ولكن هذا لا يفقد من قيمة هذه النظرية كما لا يمنع من تطبيقها فى بحار أخرى من أنحاء العالم .

(د) فرق درجات الحرارة :

ومن الطاقة الحرارية التى تحتويها البحار والمحيطات يمكن توليد الطاقة الكهربائية وهى ناشئة عن فرق درجة الحرارة بين الطبقات العليا والطبقات العميقة للماء وواضح أن من الخواص الطبيعية للماء أن البحار والمحيطات يمكنها أن تختزن الحرارة وتحتفظ بها لمدة دون تسربها إلى الطبقات العميقة . ومن هذا ينشأ فرق فى درجات الحرارة يصل فى بعض الأحيان إلى ٤٠ درجة فهرنهيتية بين الطبقات السطحية والعميقة . وتعتمد عملية

انتقال الحرارة بين الطبقات المختلفة للجو على أن الجو يسخن من أسفل نتيجة لسقوط أشعة الشمس على الأرض فتمتصها ثم تشعها مرة أخرى إلى الجو مما يرفع درجة حرارة الطبقة السفلى فتصبح أخف من الطبقة التى تعلوها فترتفع لتحل محلها طبقة أخرى من الهواء . أما فى حالة البحار والمحيطات بطريقة انتقال الحرارة فى الطبقات المختلفة للماء عكسية تماماً بالنسبة لانتقال الحرارة فى الجو . ففى البحار تمتص الطبقة العليا من الماء أشعة الشمس وتختزنها . وكما ذكرت سالفاً أن من خواص الماء أنها تحتفظ بحرارتها دون تشتتها ومن هذا ينتج أن الماء يصبح بارداً كلما اتجهنا إلى قاع البحر الشىء الذى ينشأ عنه فرق فى درجات الحرارة الناشئة من فرق درجات الحرارة بين طبقات المياه إلى طاقة كهربائية تعتمد على الـ ٥ مئوية هى الفرق فى درجة الحرارة بين السطح والقاع لمياه المناطق الاستوائية بعد وضعها تحت ضغط منخفض .

وجدير بالذكر أن مياه البحار تغلى عند درجة حرارة حوالى ١٠٠ درجة مئوية (ضغط جوى عادى) فإذا استعملنا نفس هذه المياه تحت ضغط منخفض فإنها تغلى عند درجة حرارة أقل بكثير من درجة غليانها . وهذا ما يحدث فى قمم

الجبال العالية حيث تكون المياه قد وصلت إلى درجة غليانها وغير كافية لطهو البيض مثلا . من هذه النظرية بنيت فكرة التربينات البخارية التى بواسطتها تدار المحركات لتوليد الطاقة الكهربائية .

وتتلخص فكرة التربينات البخارية فى أن البخار يمكن توليده فى غلايات حيث يكون الضغط فيها أعلى من الضغط الجوى . وبإمرار هذا البخار إلى مكثفات تنخفض درجة حرارة البخار فينشأ عنه انخفاض فى ضغط البخار من الغلاية إلى المكثف فيندفع البخار الذى فى طريقه لإدارة عجلات التربين . وتستمر هذه العملية هكذا . وفى المناطق الاستوائية يحول ماء سطح البحر الدافئ إلى ماء يغلى حيث يمر فى مسخنات تحت ضغط منخفض ثم يمر البخار إلى المكثفات التى تبرد بوساطة المياه العميقة عند أعماق حوالى ٥٠٠ قامة (حوالى ١٠٠٠ متر) أو أكثر حيث يكون فرق درجات الحرارة بين الطبقات السطحية والعميقة حوالى ٤٠ درجة فهرنهيتية (حوالى ٥ درجات مئوية) . وبالرغم من سهولة هذه الطريقة إلا أنه توجد عقبات كثيرة تحول دون تنفيذها ، منها إنشاء تربينات تحت ضغط منخفض .

وقد بدأ هذه الفكرة الدكتورج. كلود (G. Claude) وعملت محاولات جدية فى عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣٤ لتطبيق هذه الفكرة ولكن دون جدوى . ومنذ عام ١٩٤٢ بدأت الحكومة الفرنسية فى التفكير فى الاستفادة من هذه الطريقة وبعد مضى ست سنوات من الدراسة قررت إنشاء محطة لتوليد الكهرباء عند أبيجان بساحل العاج بغرب أفريقيا . وجدير بالذكر أن هذه المحطة ستنتج حوالى ٧٠٠٠ كيلو وات / ساعة سنوياً .

(هـ) التيارات البحرية :

ومن العوامل الطبيعية الأخرى التى لها دور كبير فى الملاحة هى التيارات البحرية وإذا عرفنا التيار المائى بأنه عبارة عن حركة كتلة من الماء فى إتجاه معين فينشأ عن ذلك وجود أنواع كثيرة من التيارات البحرية موجودة فى البحر نتيجة وجود العوامل المتعددة المؤثرة على حركة المياه . فالرياح والأمواج والمد والجزر وتغير الكثافة فى الطبقات المختلفة للبحار والمحيطات والضغط الجوى والقوى الداخلية بين جزيئات المياه كلها عوامل تؤثر فى حركة المياه . وبصفة عامة يمكن تقسيم أنواع التيارات البحرية إلى :

١ – تيارات الرياح الجارفة ذات المدة القصيرة .

٢ – التيارات الناتجة من الأمواج السطحية .

٣ – تيارات المد والجزر .

٤ – تيارات المحيط التى تعتبر جزءاً من دورات المياه فى المحيط التى تنشأ نتيجة اختلاف العوامل الطبيعية كالحرارة والملوحة فى الطبقات المختلفة للمياه .

بالإضافة إلى هذا فإنه يوجد أنواع أخرى من التيارات كالتيارات التى تنشأ نتيجة قدوم المياه من الأنهار إلى البحار ومن البحار إلى المحيطات .

والأنواع المختلفة للتيارات البحرية بصورتها الواسعة هى أحد عشر نوعاً وهى كالآتى :

١ – التيارات الناشئة من تأثير الأمواج .

٢ – التيارات الناشئة من المد والجزر .

٣ – التيارات الناشئة من الأمواج الكبيرة فى المضايق البحرية .

٤ – التيارات الناشئة نتيجة للرياح على الطبقة السطحية للبحار والمحيطات .

٥ – التيارات الناشئة نتيجة لحركة الكواكب .

٦ – التيارات الناشئة نتيجة لتغير الضغط الجوى .

٧ – تيارات الحمل .

٨ – التيارات الناشئة نتيجة لتغير الملوحة فى الطبقات المختلفة للبحار والمحيطات .

٩ – التيارات الناشئة من سريان المياه من الأنهار إلى البحار ومن البحار إلى المحيطات .

١٠ – التيارات التى تنشأ نتيجة للاحتكاك الذى يحدث بين الطبقات المختلفة ذات السرعات المختلفة .

١١ – التيارات الناشئة من الدوامات التى لها قطر كبير بحيث تحدث تيارات محسوسة .

ومن جهة أخرى فإن التيارات البحرية تنقسم إلى تيارات أفقية (سواء كانت تسير على السطح أو تحته فى مستوى أفقى) وتيارات رأسية (سواء كانت صاعدة أو هابطة) ومن حيث درجة الحرارة فإن التيارات تنقسم إلى تيارات دافئة وأخرى باردة .

وتلعب التيارات البحرية دوراً هاماً فى تلطيف المناخ وتوزيع الحرارة عند الأعماق المختلفة . ويعزى هذا إلى كبر الحرارة النوعية للماء . فالمحيطات تمتص كميات كبيرة من الطاقة

الحرارية من أشعه الشمس دون أن ترتفع درجة حرارتها ارتفاعاً كبيراً . وتقوم التيارات البحرية بتوزيع هذه الحرارة ويتاثر بها الهواء الملامس لها بسرعة فيتلطف مناخ الأرض التى يهب عليها .

وللتيارات البحرية تأثير كبير فى خصوبة بعض المناطق أو فقرها فى الأسماك ولذلك فإن الأسماك تتكاثر فى المناطق التى توجد فيها التيارات الصاعدة أو المنبثقة .

وتنشأ هذه التيارات عندما يصطدم تيار بارد عميق بجبل أو جرف قائم يعترض مساره على قاع البحر . أو نتيجة لهبوب الرياح على الساحل فى اتجاه معين . وعادة تكون هذه التيارات غنية بأملاح الفوسفات والنترات . وتوجد أمام سواحل بيرو شرق أفريقيا الاستوائية . ودراسة الأمواج والتيارات البحرية ذات صلة قوية بهندسية وقاية الشواطئ من النحر . وبالنواحى العسكرية للدفاع والهجوم البحرى وقد كان للتنبؤات التى أجراها علماء الأوقيانوغرافيا أثناء الحرب العالمية الأخيرة أثر كبير فى تحديد ميعاد هجوم الحلفاء فى شمال أفريقيا من البحر . كما وجد أن مناطق التقاء تيار بحرى بارد مع تيار دافئ تصلح

لتكون أوكارا للغواصات . لأن مثل هذه المناطق تكون فى العادة حاجبة لموجات الكشف بالردار .

(و) سرعة الصوت فى ماء البحر :

ينتقل الصوت فى مياه البحر بسرعة تساوى أربعة أو خمسة أمثال سرعته فى الهواء أى ما يوازى ١٥٠٠ متر / ثانية — وعندما ينتشر الصوت فى ماء البحر فإن شدته تتناقص عكسيًّا مع مربع المسافة بين المصدر ومكان الانتشار (هذا فى عدم وجود امتصاص أو انعكاس أو أنكسار أو تشتت محسوس لأشعة الصوت) . وبالرغم من أن الصوت يفقد جزءاً من طاقته فى مياه البحر أقل منها بكثير عندما ينتقل فى الهواء .

إلا أن الزيادة فى الامتصاص مع زيادة الذبذبات الصوتية يحد من المجال المؤثر للموجات فوق الصوتية . وهذه الظاهرة عامل مهم جدًّا فى الكشف عن الغواصات البحرية فى البحار والمحيطات . ومن هنا نجد أن تطبيقات الصوت كثيرة ومتعددة ممثلة فى الأجهزة البحرية المستعملة فى الغواصات والمراكب المجهزة بأحدث الأجهزة الإلكترونية فى قياس الأعماق حيث تستخدم على نطاق واسع فى جميع الدول سواء كانت دولة

متقدمة أو نامية .

وتتغير سرعة الصوت فى مياه البحر مع تغير درجة الحرارة والملوحة والضغط الجوى . وعلى هذا الأساس فإن أى شعاع من الأمواج فوق الصوتية حين ينتقل فى أى اتجاه فإنه قد ينكسر وينعكس مرة أو أكثر من فوق سطح الماء أو من قاع المحيط أو من أى طبقة من طبقات المياه حسب ترتيب كتل المياه . وبهذه الطريقة قد نستقبل عدداً من الأشعة المختلفة على فترات مختلفة من منبع واحد . والإرسال المباشر محدود لمسافات معينة تعتمد على عمق القاع ، وسرعة الصوت يمكن حسابها نظرياً إذا عرفت درجة الحرارة والملوحة وفى حالة المسافات الكبيرة تكون السرعة الأفقية الظاهرية أقل من مثيلتها المحسوبة نظرياً .

وهذا يرجع إلى عوامل كثيرة منها المسافة بين المرسل والمستقبل والعمق وشكل القاع وطبيعته والصفات الطبيعية لماء البحر . بالإضافة إلى هذا فإن سرعة الصوت العمودية تعتمد على العمق (أى الضغط) واختلاف درجات الحرارة والملوحة عند الأعماق المختلفة . وهى بصفة عامة تقل من السطح إلى الأعماق المتوسطة (بين ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ متر ، فيما عدا الأماكن

القطبية) . وهذا النقص فى سرعة الصوت العمودية يرجع إلى انخفاض درجة الحرارة كلما زاد العمق . ونجد أن سرعة الصوت تتناقص من السطح إلى عمق معين ثم تبدأ السرعة فى الازدياد مرة أخرى . وتحت هذا العمق يكون الضغط الجوى هو العامل المؤثر فى تغير سرعة الصوت حيث يكون تغير درجة الحرارة والملوحة غير محسوبة ويمكن إهمالها .

مجالات علوم البحار الكيميائية والجيولوجية

(أ) الأملاح والمعادن المختلفة :

الواقع أن علوم البحار الكيميائية ما هى إلا مجرد تحليل ماء البحر لتعيين كمية المركبات العضوية وغير العضوية ودراسة توزيع هذه المركبات عند الأعماق المختلفة من البحار والمحيطات وكذلك تعيين كمية الأكسجين الذائب ودرجه قلوية المياه وتركيز أيون الأيدروجين (الحامضة والقلوية) إلى جانب الأملاح الذائبة مثل الفوسفات والسليكات . هذا بالإضافة إلى بعض المواد المشعة مثل الاسترنشيوم ١٩ حيث إن البحار والمحيطات هى المكان الطبيعى لمخلفات المواد المشعة للمجارى. يضاف إلى ذلك تعيين العناصر النادرة سواء فى مياه البحر أو رواسب القاع أو فى المواد العالقة أو فى المياه المسامية الناتجة عن ضغط الرواسب لاستخلاص المياه المسامية المعروفة باسم Interstitial water أو Ooze water .

ويعتبر ملح الطعام أكثر الأملاح التى توجد فى البحار

والمحيطات بنسبة عالية تفوق فى كثرتها الأملاح الأخرى . فقد وجد أن كل ميل مكعب من ماء البحر يحتوى على ١٦٦ مليون طن من الملح . هذا وتستقبل البحار سنويًّا حوالى ٧٠٠٠ ميل مكعب من الماء العذب الآتية من الأنهار . وهذه المياه تجلب معها كميات كبيرة من معادن مختلفة ، بينما كمية الملح المحملة بها تقدر بحوالى ١٦٠ مليون طن . ولقد كانت الطريقة الوحيدة لاستخراج الملح فى العصور السالفة بوساطة تبخير الماء تحت تأثير حرارة الشمس . وفى بعض جهات العالم يوجد الملح على هيئة صخور يرجع أصلها إلى تاريخ جيولوجى طويل . والمعلوم أن هذه المناطق تكون اقتصادية أكثر بالمقارنة إلى كمية الملح المستخرجة من ماء البحار بوساطة التبخير . ومن المعروف أن الجمهورية العربية المتحدة تصدر الملح بما يوازى ٤٠٠ ألف جنيه .

وبجوار الملح توجد أملاح أخرى ومعادن مختلفة بعضها مترسب على القاع والبعض الآخر مذاب فى الماء . فمثلا الطمى والطين الخزفى التى تحمله المياه القادمة من الأنهار تحتوى على السليكا والألمونيوم والنحاس . وبجانب هذا يوجد الطمى الأزرق فى المياه العميقة ويحتوى على الحديد كذلك طين

السليكا الأحمر الذى يأتى نتيجة تناثر المواد البركانية الموجودة فى الأعماق الكبيرة . وفى بعض المناطق من البحار ذات الأعماق الكبيرة يوجد نوع من السليكا النقى الناتج من هياكل الحيوانات الأولية الدقيقة التى كانت تستخلص السليكا من مياه البحار وتبنى به هيكلها . وعندما تموت بالملايين فإنها تتساقط على قاع المحيط كما تتساقط حبات المطر على اليابسة . الأولى تكون بها جبالا من السيليكا والثانية تجرى بها أنهارا . وفى بعض المناطق الأخرى من المحيطات تكون ناتجة من هياكل طحالب صفراء أو ذهبية تستطيع أن تستخلص السيليكا أيضاً . وتبنيها على هيئة هياكل رافعة . وفى المياه الضحلة توجد طينة الحجر الجيرى الناتج من الحيوانات الرخوة الصغيرة ذات الأقدام الكاذبة . بينما تتواجد فى المناطق الاستوائية نتيجة لوجود الحيوانات المرجانية . وفى بعض أجزاء من البحار والمحيطات ترقد مناجم من المنجنيز والفوسفور على القاع على شكل عقد صلبة . والجدير بالذكر أن الكيلو متر المربع من المحيطات التى يتواجد فيها المنجنيز تحتوى على ٢٠،٠٠٠ طن من المنجنيز . وبصفة عامة فإن ماء البحر تحتوى على ١٠٣ مراكب منها حوالى ٥٠ مركباً توجد بنسبة ضئيلة جداً منها الذهب والفضة . ومن ناحية أخرى

فقد وجد أن كميات كبيرة من ملح الطعام والمغنسيوم والبروم والبوتاسيوم موجودة فى المحيطات ويمكن استخراجها وتحضيرها بسهولة والاستفادة منها فى الصناعات المختلفة .

ويوضح الجدول الآتى كمية المعادن المختلفة التى يحتويها ميل مكعب من ماء البحر :

كلوريدات الصوديوم	١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ طن
كلورات المغنسيوم	١٨,٠٠٠,٠٠٠ »
سلفات المغنسيوم	٨,٠٠٠,٠٠٠ »
سلفات الكالسيوم	٦,٠٠٠,٠٠٠ »
سلفات البوتاسيوم	٤,٠٠٠,٠٠٠ »
كربونات الكالسيوم (الحجر الجيرى)	٥٥٠,٠٠٠ »
بزوميد المغنسيوم	٣٠٠,٠٠٠ »
البروم	٣٠٠,٠٠٠ »
الاسترنشيوم	٦٠,٠٠٠ »
البورون	٢١,٠٠٠ »
الفلورين	٦,٤٠٠ »
الباريوم	٩٠٠ »
اليود	١٠٠ إلى ١٢,٠٠٠ »

الأرزنيك (الزرنيخ)	٥٠ إلى ٣٥٠	طن
الروبيديوم	٢٠٠	«
الفضة	إلى ٤٥ طناً	
النحاس والمنجنيز والزنك والرصاص	١٠ إلى ٣٠ طناً	
الذهب	إلى ٢٥ طناً	
اليورانيوم	٧ أطنان	
الراديوم	حوالى $\frac{1}{6}$ أوقية	

والاستفادة من هذه المركبات الموجودة فى المحيطات فى الصناعة قد يكون فى بعض الأحيان باهظة التكاليف وغير اقتصادية الشيء الذى يؤدي إلى الاكتفاء بالخامات الموجودة على الأرض لحين استنباط طرق جديدة لاستخراج هذه الأملاح بتكاليف قليلة . وقد تمكن الإنسان من استغلال الثروة المعدنية بطريقتين مختلفتين :

١ ــ باستخراج المركبات الكيماوية من النباتات والحيوانات التى تعيش فى الماء .

٢ ــ انتزاع هذه المركبات مباشرة من ماء البحر حيث توجد ذائبة أو عالقة .

ويدخل المغنسيوم فى صناعة الطائرات لخفته ومتانته وفى عمل المستحضرات الطبية وصناعة العوازل الحرارية . ويدخل البروم فى صناعة الأدوية وفى أعمال التصوير الفوتوغرافى أما البوتاس فيستخدم فى صناعة الزجاج والصابون . والأعشاب البحرية مصدر مهم لاستخداج اليود . فقد تبين أنه بالرغم من أن كل عشرين طناً من ماء البحر تحتوى فقط على جرام واحد من اليود فإن كل ٣٠٠ جرام من الأعشاب المخففة تحتوى على جرام واحدمن هذه المادة . وفى وقتنا الحاضر يحصل العالم على ثلث اليود من رماد الأعشاب البحرية المحروقة بينما ثلثى المحصول يأتى من بقايا الأعشاب البحرية المتحجرة فى منطقة صحراء شيلى . والأعشاب البحرية بالإضافة إلى استعمالها كمصدر لليود تستعمل فى عملية الأنسجة غير القابلة للاحتراق وكذلك تستعمل كسماد للأرض.

والرمال السوداء التى تترسب أمام الدلتا عند رشيد ودمياط تأتى محمولة مع مياه النيل كل عام خاصة فى الفيضان . وهى عبارة عن صخور ومعادن متفتتة من جبال الحبشة بفعل السيول . وهذه الرمال تحتوى على معادن فى غاية الأهمية الاقتصادية . إذ تحتوى على الألمنيت والمنجنيت والزيركون والجارنت والمونازيت والروتيل بكمية كبيرة وإنه لجدير بالذكر

أن الألمنيت يكون ٥٠,٧ ٪ من هذه المعادن. أما باقى المعادن فهى توجد بنسبة تتراوح بين ١٥ ، ١,٢٪ . ثم إن لهذه المعادن أهمية كبيرة فى الصناعة . فالألمنيت يستخدم فى صناعة البويات أما المونازيت فهو يحتوى على عنصرى الثوريوم واليورانيوم وهى من العناصر المشعة التى تستخدم وقوداً فى الأفران الذرية . ومعدن الجارنت يستعمل فى السنفرة وصقل المعادن ونذكر هنا أن قدماء المصريين قد استخدموا الرمال السوداء فى صقل التماثيل وأحجار بناء المعابد . أما الزركون فهو يستخدم فى أفران صهر المعادن لخواصه الحرارية الفائقة . وإنتاج الرمال السوداء المركزة فى منطقة رشيد يقدر بحوالى ٦٠,٠٠٠ طن سنوياً . يصنع جزء منها داخل الجمهورية العربية المتحدة ويصدر الباقى إلى الخارج . أما بالنسبة للألمنيت فإن الإنتاج السنوى يقدر بحوالى ٣٠,٠٠ طن والمجنتيت والمجنتيت ١٢,٠٠٠ طن والزركون ٤٠٠٠ طن والروتيل ١٠٠٠ طن والمونازيت ٣٠٠ طن والجارنن ١٠٠٠ طن .

ومن المصادر الأخرى للطاقة الهامة فى صناعة البترول الذى يرقد تحت البحر تحت طبقات الإفريز القارى على حواف القارات ويرجع أصله إلى البقايا الحيوانية والنباتية التى عاشت فى البحار وتحللت بالبكتريا والضغط والحرارة والإشعاعات.

وقد تم اكتشاف حوالى ٣×١٠^٧ ميل مكعب تحت البحار والمحيطات من الطبقات الحاملة للبترول وهى تمثل ثلث محصول البترول فى العالم .

(ب) إعذاب ماء البحر

لقد أصبحت مشكلة تزايد السكان اليوم تمثل خطراً كبيراً يهدد الكيان البشرى ونشر المجاعة فى أنحاء العالم . ولهذا كان لا بد من تفكير الدول فى إيجاد حلول لهذه المشكلة العويصة والواقع أن هناك حلولا كثيرة منها الحلول الجوهرية والحلول الجذرية . وقد وجد أنه إذا توافرت الأرض الزراعية فإن هذا يكون ركناً هاماً لمعالجة المشكلة . والزراعة فى حد ذاتها تحتاج إلى أراض شاسعة ومياه لريها وفى القارات يوجد كثير من الأراضى التى لم تستغل بعد لعدم توافر المياه . لذلك فكر العلماء فى إمكان تحويل ماء البحار إلى مياه عذبة تروى منها الأراضى القاحلة بجانب استعماله للشرب والرى والنظافة وفى الصناعات المختلفة .

ويطلق على الماء الذى يحتوى على حوالى ٥٠٠ جزء من الأملاح المختلفة فى مليون جزء بالوزن من الماء ماءاً عذباً . ويمكن

التجاوز عن هذه النسبة إلى ١٠٠ جزء فى وقت الضرورة . أما الماء المالح كقاعدة عامة يحتوى فى المتوسط على ٣٥,٠٠٠ جزء من الأملاح المختلفة فى مليون جزء بالوزن من الماء . والماء العذب الذي يستعمل فى رى الأراضى الزراعية لا تزيد كمية الأملاح فيها على ١٢٠٠ جزء فى مليون جزء بالوزن من الماء . ويعتمد هذا على درجة قلوية التربة وكمية الأملاح اللازمة للمحصول . وفى حالة استعمال الماء العذب فى الصناعات المختلفة فإن مجال اختلاف كميات الأملاح فيها يختلف اختلافاً كبيراً إذ أنه يمكن أن تتغير كمية الأملاح من ١ إلى ٣٥,٠٠٠ جزء فى مليون جزء بالوزن من الماء معتمداً هذا على طبيعة استعمالات الماء فى الصناعات المختلفة وكمية الأملاح التى تحتاجها .. وطرق تحضير الماء العذب من ماء البحر كثيرة ومتعددة منها :

١ ــ تغير الشكل الجوهرى للماء وذلك بالتجميد أو بالتبخير . ومن المعلوم أنه إذا تجمد ماء البحر فجأة فإن بلورات الماء العذب ستنفصل عن بلورات الملح ومنها يمكن الحصول على الماء العذب بصهر بللورات الثلج .

٢ ــ طريقة التحليل الغشائى الكهربائى . فعند إمرار

تيار كهربائى فى محلول ماء البحر فإن أيونات الملح الموجبة تتجه إلى الأقطاب السالبة خلال غشاء رقيق يوضع بين الأقطاب ومحلول ماء البحر .

٣ ــ إضافة بعض الكيماويات إلى ماء البحر فتساعد على تبادل الأيونات وترسيب الملح على القاع .

٤ ــ إضافة الأيدروكربون إلى محلول ماء البحر عند درجة حرارة معينة . وفى هذه الحالة ينفصل الملح على حدة ويبقى لنا مزيجاً من الماء والبروپان .عند تغيير درجة الحرارة أو الضغط يمكن فصل الماء العذب من البروبان ويمكن إعادة القصة بنفس البروبان المستخدم .

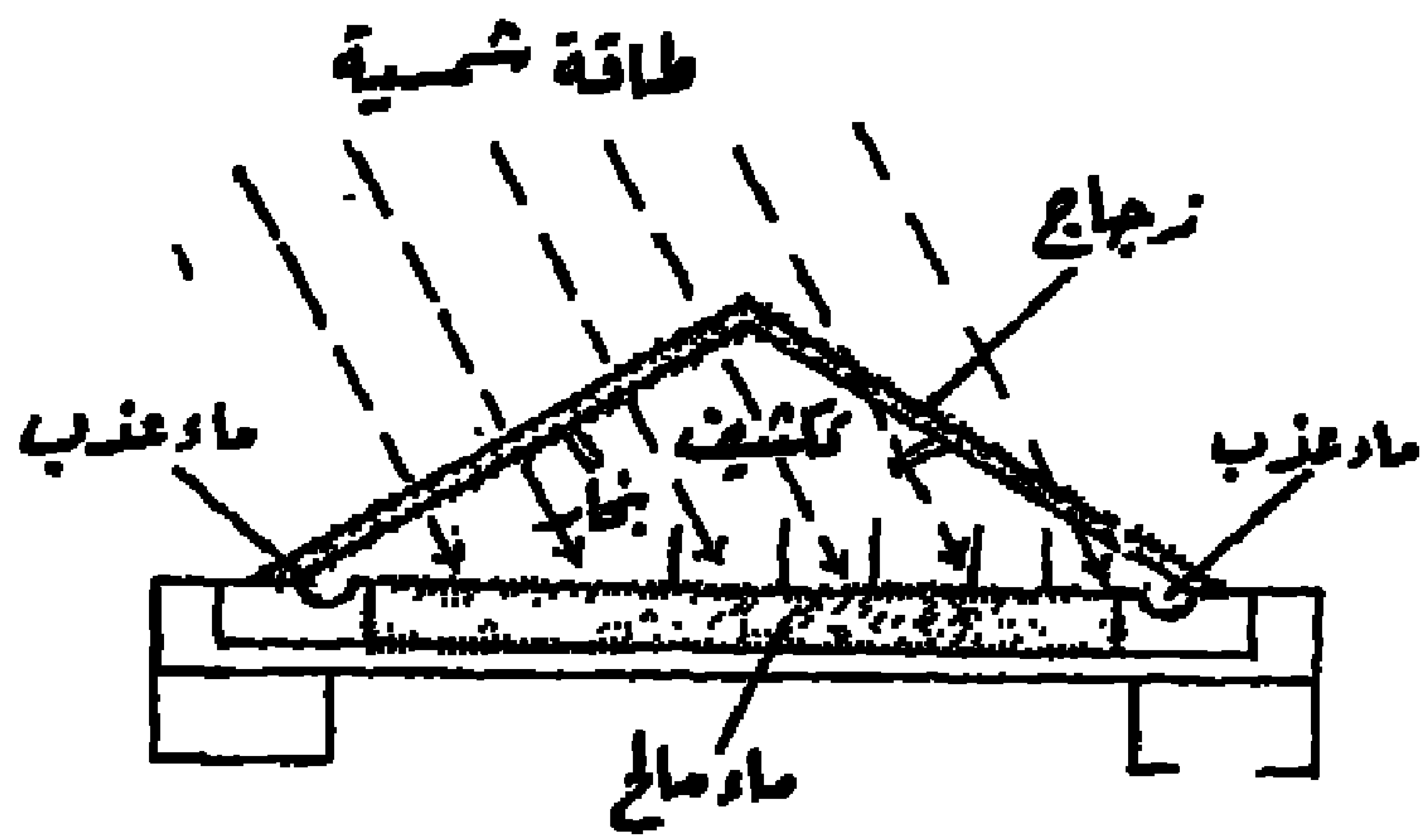
٥ ــ طريقة التقطير وذلك باستخدام الطاقة الشمسية أو أى مصدر للوقود سواء كان المصدر فحماً أو بترولا أو كهرباء بوساطة المفاعل الذرى .

وبجانب هذه الطرق توجد طرق أخرى كثيرة ولكنها غير مفيدة منها مثلا طريقة فصل البللورات بوساطة الانتشار الحرارى وامتصاص الماء العذب بوساطة مادة مجففة واستعمال التأثير الكهرومغناطيسى أو تيارات ذات ذبذبات عالية أو موجات

فوق الصوتية . ومنذ سنين عديدة تجرى البحوث العلمية على النظم الحديثة لإيجاد طريقة لتحضير الماء العذب من ماء البحر بحيث تكون التكاليف أقل ما يمكن بالمقارنة إلى الطرق الأخرى. وقد وجد أن الطاقة الكهربائية اللازمة لفصل ١٠٠٠ جالون من الماء العذب من ماء البحر هى ٢,٨ كيلووات/ساعة . وسأتناول بالإيجاز شرح طريقتين فقط لتحضير الماء العذب :

١ ـ طريقة التقطير بواسطة الطاقة الشمسية :

فى هذه الحالة تستخدم حرارة الشمس فى تبخير ماء البحر والتقطير بواسطة الطاقة الشمسية ينقسم إلى ثلاث طرق . الأولى عبارة عن تبخير وتكثيف ماء البحر فى جهاز واحد والطريقة الثانية باستعمال جهاز لتركيب كميات الحرارة فى مكان واحد حتى يمكن استعمالها . إذ أن هذه الطريقة تحتاج إلى درجات حرارة عالية . والطريقة الثالثة تحتاج لجهاز للتبخير وجهاز آخر لتكثيف ماء البحر . ومن عيوب الطريقة الثانية أنها تحتاج إلى مساحات كبيرة لجمع كميات عظيمة من الحرارة : وشكل (٤) يبين توضيحاً لجهاز التقطير بواسطة الطاقة الشمسية فى أبسط صورة وهو يتكون من مجمع من البلاستيك بدلا من الزجاج.



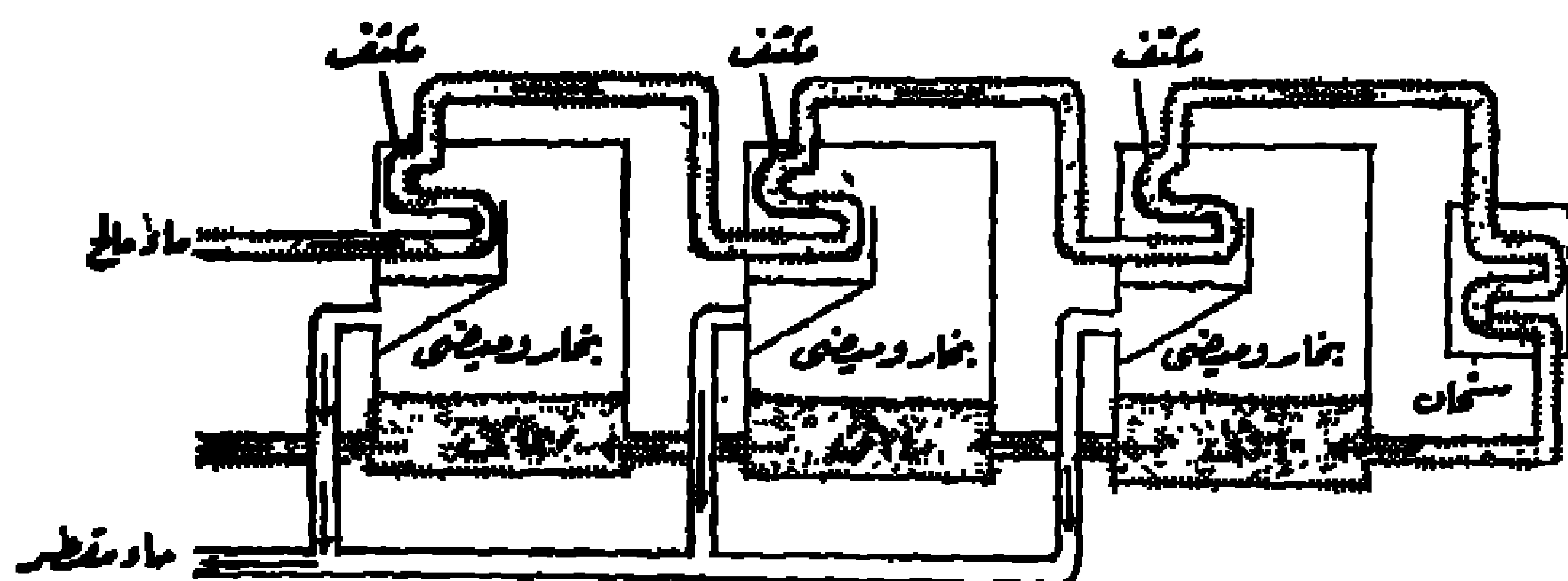
شكل رقم (٤)

طريقة التقطير بواسطة الطاقة الشمسية

وغالباً تكون مادة البلاستيك المستعملة من البوليفلوركارين وهى عبارة عن مادة خاملة ومقاومة للاشعة البنفسجية وصنع الجهاز من البلاستيك له عيوب كثيرة منها تكثيف قطرات الماء مما يحجز أشعة الشمس. وللتغلب على هذا العيب توضع مادة قابلة للتميع داخل المجمع .

٢ — التقطير الوميضى : Flash Distillation (شكل ٥).

وفى هذه الطريقة فإن ماء البحر عند درجة حرارة وضغط معينين تدفع إلى حجرة ذات ضغط منخفض نسبياً عن الضغط السابق حيث يتحول الماء إلى بخار ثم يتكثف . وفكرة الجهاز تقوم على التسخين التدريجى لماء البحر حتى درجة حرارة ١٨٠° ف (حوالى ٨٢°م) . والذى يتبعه التبخير على أجزاء فى حجرات متتابعة يزيد تخلخل كل منها عن الأخرى تدريجياً. ويتكثف البخار المترسب من كل عملية على الأنابيب المحتوية لماء البحر الداخلة والباردة وهذا يعطى الماء العذب . هذا ويمكن تعميم هذا الجهاز بحيث ينساب الماء فى أى من الاتجاهين هذه الطريقة كثيراً ما استعملت على المراكب وبدئ فى إقامة مصانع مماثلة على الأرض منذ سنة ١٩٥٥ فقط وأدخلت عليها



شكل رقم (٥)
التقطير الوميضى

التحسينات الكثيرة منذ هذا الوقت .

٨ - مستقبل الثروة السمكية والمعدنية فى مياهنا الأقليمية

بعد تلك الجولة فى عالم البحار وفوائدها فى حياتنا العملية نقف برهة لنرى ماذا يمكننا أن نستفيد من بحارنا الواسعة على خير وجه يكفل ازدهار اقتصادنا القومى ويسد حاجة الشعب من احتياجاته من البحر .

ذكر الميثاق « أن مصادر الثروة الطبيعية والمعدنية ما زالت تحتفظ بالكثير من أسرارها وأن العمل العلمى والصناعى وحده هو القادر على أن يجعل الأرض المصرية تبوح بكل أسرارها وتفيض بما فى باطنها من ثروات طبيعية ومعدنية لخدمة التقدم »

والجمهورية العربية المتحدة لأهمية موقعها الجغرافى حيث يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقاً البحر الأحمر ويخترقها نهر النيل ، فأول شىء يتبادر إلى ذهن الإنسان هو الثروة السمكية . تلك الثروة البروتينية المهمة فى تعويض النقص البروتينى الذى يمكن أن يعوض الشعب النقص فى الإنتاج الحيوانى حيث أن الدولة تصرف ملايين الجنيهات لشراء اللحوم المستوردة بالعملات الصعبة . وفى سبيل استغلال ثروتنا السمكية تقوم الآن مؤسسة الثروة المائية بالاشتراك مع قسم

علوم البحار بجامعة الإسكندرية ومعاهد علوم البحار بالجمهورية العربية المتحدة لوضع التخطيط الكافى الذى يضمن سلامة استغلال هذه الثروة . فبدأت المؤسسة بالاستعانة بالمراكب الروسية (لحين وصول أسطول الصيد المجهز بأحدث الآلات والأجهزة الحديثة التى تعاقدت عليه أخيراً لشرائه من أسبانيا) إكتشاف وبحث أماكن جديدة للسمك ودراسة الخواص الطبيعية والكيميائية والبيولوجية لمياهنا . بالإضافة إلى هذا تقوم هذه المراكب بالبحث عن أماكن تجمعات السمك وتحركاتها على سواحلنا الطويلة الممتدة من العريش إلى السلوم شمالا والبحر الأحمر شرقاً . ولو أن هذا المجهود مشكور إلا أنه يجب تضافر هذه الجهود مع الجهات المختلفة فى الدولة المعنية بالثروة السمكية. وعلى هذا الأساس يجب أن تضاعف من مراكب الصيد لتجوب سواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بل إذا أتيحت الفرصة أن تستغل المحيطات التى حولنا وبهذه الطريقة نتمكن من النتائج والدراسات المختلفة التى نحصل عليها من هذه المراكب استنتاج البحث الوافى الشامل الذى يقربنا إلى أقرب صورة لحقيقة واقعنا من الثروة السمكية . ويا حبذا إذا اشتملت هذه الرحلات على محاضرات عامة للصيادين لتعريفهم بأماكن تجمعات

الأسماك وتدريبهم على استعمال أجهزة الصيد الحديثة . أما بالنسبة للصيادين أصحاب المراكب الآلية فيجب تزويدهم بالسلفيات الكافية لتجهيز مراكبهم بأحدث وسائل الصيد وطرق حفظ الأسماك . فالصياد الماهر لا يكفى بل يجب أن يكون مزوداً بالأسلحة التى تساعده على إكمال رحلته على الوجه الصحيح والعودة بمحصوله طازجاً دون أن يمسه أى عطب . فهناك كميات هائلة من الأسماك فى البحر الأحمر لو وفر لها المصانع لإنتاجها والسيارات الكافية المجهزة بالثلاجات ولو شجع الصيادون هناك على احتراف هذه المهنة لحصلنا على محصول وفير من الأسماك يعوض النقص فى أسواقنا خاصة أن أسماك البحر الأحمر تمتاز بغناها بالمواد الفوسفورية والبروتينية .

بالإضافة إلى الثروة السمكية التى تسكن البحار والمحيطات فإننا لا ننسى قيمة تربية الأسماك الاقتصادية والفوائد التى تعود علينا منها . وهناك عدد من المزارع السمكية فى الجمهورية العربية المتحدة فى القناطر ومزرعة المكس بالإسكندرية وبالقرب من بحيرة المنزلة (مزرعة السرو) إلا أننا نقترح أن يعمل المسئولون على تزويد هذه المزارع بالعدد الكافى من الأخصائيين مع منحهم المعامل المجهزة تجهيزاً حديثاً حتى يتمكنوا من إجراء

تجاربهم التى تهدف إلى تحسين وتطوير طرق زراعة الأسماك بالإضافة إلى هذا يجب منع الصيد فى بعض أجزاء من البحيرات لاتخاذها كمرابى لها رغبة فى حماية الأسماك الموجودة بالبحيرات من صيدها فى مواسم توالدها وحفظاً على حياتها حتى يتم نموها . ونحن لا يعوزنا الأخصائيون بقدر ما تنقصنا الأجهزة الحديثة التى تساعدهم على إتمام تجاربهم وأبحاثهم . كذلك لو أعطت السلطات بعض العناية نحو تصنيع الكابوريا وحفظها بالعلب بطريقة علمية سليمة . وإذا نظر المسئولون إلى الأكوام المكدسة من الأعشاب البحرية وعرفوا أنه من الممكن الحصول على مواد مفيدة مثل الآجار واليود . فإن هذا يوفر للدولة الاستفادة من هذه المواد محلياً وعدم ضياع العملة الصعبة فى شرائها من الخارج . أما عن الإسفنج فكما ذكرت سالفاً أن الإسفنج المصرى يعتبر من أجود الأنواع العالمية . وبالإضافة إلى وجرده فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد فكر الباحثون فى زراعته بالبحر الأحمر . ولو أن بعض الآراء تتجه إلى الاكتفاء بالمنابت الطبيعية وتطويرها ودراستها ومعرفة قدرتها الأنتاجية والبحث عن منابت جديدة لم تستغل بعد .

أما من جهة ثروتنا المعدنية من البحار فهى متعددة وأهمها

بالطبع ملح الطعام وجدير بالذكر أن الملاحات المصرية تعتبر من أجود الملاحات فى العالم وذلك لارتفاع ملوحة ماء البحر الأبيض المتوسط ولشدة حرارة الشمس على منطقة الملاحات بالإضافة إلى صلاحية تربة الأحواض إذ أنها غير مسامية . وحالياً تقوم شركة النصر للملاحات بالإشراف عليها وتزويدها بالباحثين ومحاولة توسيعها وتطويرها لزيادة الإنتاج على النحو الآتى :

١ ـ زيادة إنتاج ملاحتى المكس وبورسعيد إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ (مليون طن) سنوياً بدلا من ٤٥٠ ألف طن .

٢ ـ مقابلة الازدياد فى الاستهلاك المحلى للأغراض الغذائية إلى ٢٢٠ ألف طن سنوياً بدلا من ١٨٠ ألف طن .

٣ ـ مقابلة الازدياد فى الاستهلاك المحلى للأغراض الصناعية إلى ٣٣٠ ألف طن سنوياً بدلا من ١٢٠ ألف طن .

٤ ـ مقابلة الازدياد فى التصدير للخارج إلى ٤٥٠ ألف طن سنوياً بدلا من ٢٥٠ ألف طن .

٥ ـ تحسين مواصفات الملح المنتج برفع درجة نقاوته إلى ٩٩ ٪ كلوريد صوديوم .

٦ ـ فتح مجال جديد للعمل أمام المواطنين بازدياد الإنفاق

فى بند العمالة عند بدء إنتاج المشروع بمقدار ٧٥ ألف جنيه سنوياً لتشغيل ٣٥٠ مواطن بين عامل عادى ونصف ماهر وماهر .

٧ - ستبلغ القيمة الإجمالية لمبيعات الملح بعد تنفيذ المشروعات ٣,٦٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً منها ٥٥٠,٠٠٠ جنيه بالعملات الصعبة .

أما بالنسبة للأملاح والمعادن الأخرى التى توجد فى البحار بالإضافة إلى الرمال السوداء فتوجد مؤسسة تشرف على هذه الصناعات تهدف إلى :

١ - العمل بطرق علمية صناعية على استغلال ثرواتنا المعدنية ومضاعفة إنتاجها وتحسين أنواعها بتنفيذ مشروعات تعدينية ضخمة ..

٢ - توفير الخامات الأولية اللازمة للصناعات المحلية .

٣ - تصدير الفائض على حاجة البلاد من هذه الخامات وزيادة حصيلة العملات الصعبة .

٤ - زيادة الرخاء فى البلاد عن طريق تشغيل مزيد من العاملين فى صناعات التعدين والعمل على رفع مستوى معيشتهم.

٥ ـ المساهمة فى تعمير الصحراء وزيادة الرقعة السكنية حول مناطق التعدين .

وأخيراً فهذه نظرة عامة على ما تزخر به البحار والمحيطات من خيرات وثروات لو أحسن استغلالها لكان فيها الخير العميم على الجنس البشرى .

والله ولى التوفيق .

المراجع

REFERENCES

1. Oceans, by, G.E.R. Deacon Published by Paul Hamlyn. London 1962.
2. Waves and tides, by R.C.H. Russel. Hutchinson's Scientific and Technical Publications. 1952.
3. Manual of Tidal prediction. Glasgow - Brown, son and Ferguson, Ltd.
4. Science and the future of mankind. by Hugo Boyko. Dr. W. Lunk Publishers. The Hague, 1964.
5. Exploration in Science, by Waldener Kaempffert. The Scientific Book club. 1953.
6. Meteorology, by, William L. Donn. McGraw - Hill Book Company, Inc. 1951.
7. Marine products of Commerce, by, Donald K. Tressler. Reinhold publishing Coorporation, 1951.
8. The mineral resources of the Sea. by John L. Mero Elsevier Publishing Company, 1965.
9. The sun, The sea, and tomorrow, by F.G. Walton Smith and Hery Chapin. Charles Scribner's sons New York, 1954.
1 . The Seas. by F.S. Russell and C.M. Yonge. Frederick Worne and Co. Ltd. 1947.
11. Mc. Graw - Hill Encyclopaedia of Science and technology, No. 9 and 12-1960.

١٢ –الإسفنج – وزارة الحربية – مصلحة السواحل والمصايد وحرس الجمارك ١٩٥٦

١٣ – مصايد البحر الأحمر

للدكتور عبد الرحمن الحولى – مطابع الهلال بالقاهرة

١٤ – البحار والمحيطات

تأليف الدكتور أنور عبد العليم (الدار القومية للطباعة والنشر)

١٥ – ثروتنا المائية

الدكتور أنور عبد العليم – سلسلة كتب المكتبة الثقافية رقم ١٢٩ (الدار المصرية للتأليف والترجمة)

الفهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم

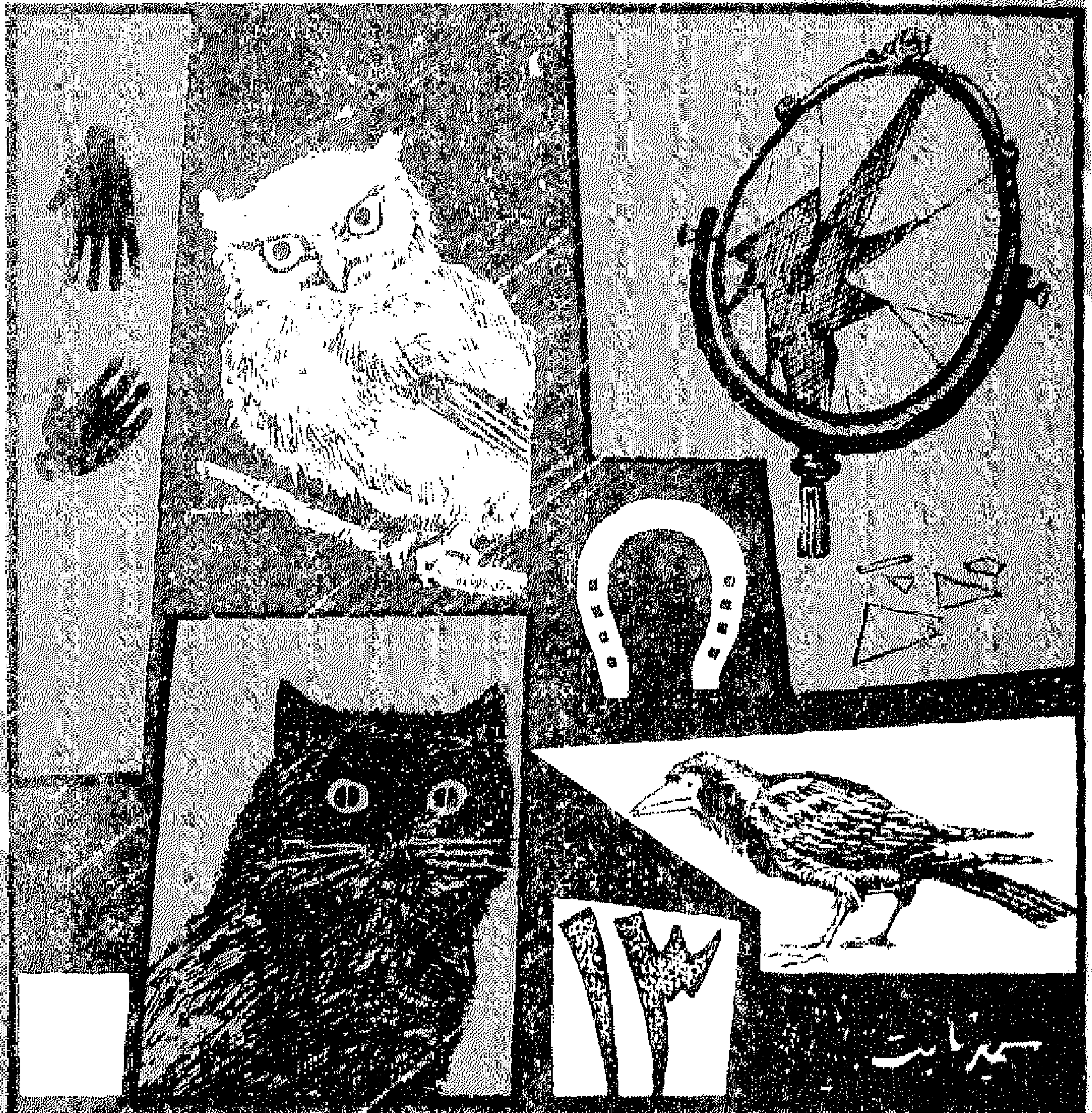
التفاؤل والتشاؤم

تأليف

الأستاذ : نجيب يوسف بدوى

إقرأ

التفاؤل والتشاؤم



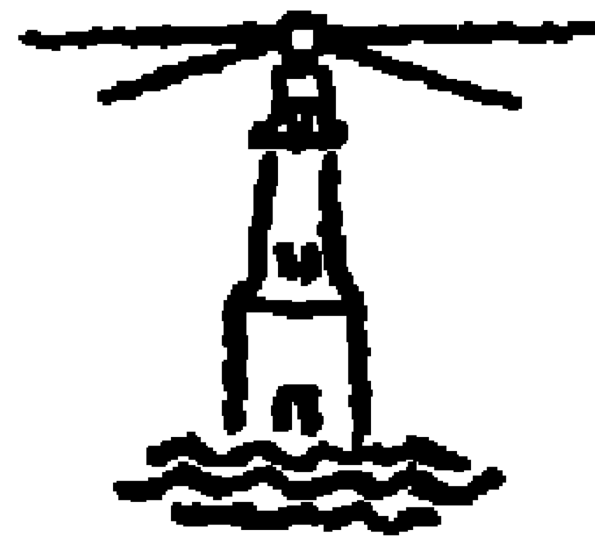
نجيب يوسف بدوي

دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



نجيب يوسف بدوى

التفاؤل والتشاؤم

اقرأ ٣٠٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٩ – سبتمبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

مقدمة

التطير هو التشاؤم من علامات الفأل الردىء ، مثل : البومة والغراب والمرآة المكسورة ورقم ١٣ . . . وغير ذلك من العلامات التى يعتبرها المتطيرون نذر سوء ويتوجسون منها الشر . ويقابل علامات الفأل الردىء، علامات أخرى للفأل الحسن ، مثل : التعاويذ وحدوة الفرس والقط الأسود وخمسة وخميسة . . . وغيرها من العلامات التى تبعث على التفاؤل .

والتطير من هذه الرموز والعلامات وأشباهها ظاهرة قديمة كانت معروفة منذ أقدم العصور ، كما أنها ذائعة الانتشار بين كثير من الشعوب ، وبصفة خاصة بين الشعوب البدائية ، كما لا تخلو منها تماماً المجتمعات الحديثة الراقية .

ولفظ التطير مشتق من عادة زجر الطير . فقد كان العرب فى الجاهلية يزجرون الطير (أى يصيحون به أو يرمونه بحجر) ، فإن ولاهم فى طيره ميامنة سموه سانحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسرة سموه بارحاً وتشاءموا منه .

والدراسة العلمية لأى ظاهرة ، تبدأ بتحديد موضوعها . والتطير ظاهرة محددة يمكن التعرف عليها ، وتصلح للعزل

والدراسة . والمقصود من التطير فى هذا البحث هو التشاؤم من نذر السوء وعلامات النحس ، والتفاؤل من بشائر الخير وعلامات السعد .

وللطريقة العلمية خطوات محددة : تبدأ بجمع أمثلة عن الظاهرة المراد دراستها ، ثم تصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها ، لاستخلاص النتائج منها فى النهاية . وإذا كنا فى البداية قد اتبعنا الطريقة المقارنة فى دراسة هذه الظاهرة ، فجمعنا أمثلة للتطير ، وقمنا بتبويبها ، فقد وجدنا أننا نحتاج فى تفسيرها وتحليلها إلى الاستعانة بطرق البحث فى العلوم الاجتماعية والنفسية ، وذلك لأن التطير ظاهرة اجتماعية ونفسية فى آن معاً .

وهذا الكتاب هو محاولة لدراسة التطير دراسة علمية من واقع أمثلته .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

الفصل الأول

الأمثلة الشائعة للتطير

بعد أن جمعت أمثلة كثيرة للتطير ، وأطلت النظر فيها ، تبينت أنها تختلف فيما بينها من حيث النوع ، ومن حيث الدرجة . واستطعت تصنيف حالات التطير فى ثلاث فئات متدرجة فى الشدة : حالات خفيفة ـ وحالات متوسطة ـ وحالات مرضية . وتتنوع أمثلة التطير ، كما يختلف تفسيره وطريقة اكتسابه فى كل حالة من هذه الحالات ، على النحو المبين فى الفصول التالية . ونبدأ فى هذا الفصل بالحالات الخفيفة من التطير .

أبسط أنواع التطير هو الفأل ، أو التفاؤل من الكلام الذى يسمع من الغير اتفاقاً ، كأن تكون مريضاً فتسمع : يا سالم ، فتتفاءل به ، كما أن كلام الأطفال الذى يصدر عنهم عفواً قد يكون لمن يسمعه ذا وقع حسن . وقيل فى ذلك: «خذوا فالكم من عيالكم» . وقد يوضح المثال التالى التفاؤل بالأسماء . حكى أن سعد بن أبى وقاص وجه إلى عمر رضى الله عنهما رسولا ، فلما جاءه قال : ما اسمك ؟ قال : ظفر . قال

ابن من ؟ قال : ابن قريب . قال : ظفر قريب إن شاء الله .
وقد يدل هذا الكلام على اللباقة وحسن الاستقبال أكثر مما يدل على التفاؤل فعلا بالأسماء .

وقد يكون التطير من الوجوه . فمن الناس من يتساءل : « اصطبحت بوش مين ؟ » كلما صادفه نحس فى يومه . ومنهم من يستبشر بوجه صبوح ويتفاءل به . وفى الأمثال العامية يقال : « يا قاعدين يكفيكم شر الجايين » للأنحاس المناكيد . كما يقال : « الخير على قدوم الواردين » لمن يستبشرون بهم من أصحاب الطلعة الميمونة وأقدام السعد .

يحكى أن بعض ملوك الفرس خرج إلى الصيد ، فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه ، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً ، فلما عاد استدعى الأعور فأمر له بمال ، فقال : لا حاجة لى به ، ولكن ائذن لى فى الكلام ، فقال : تكلم ، فقال : أيها الملك إنك تلقيتنى فضربتنى وحبستنى ، وتلقيتك فصدت وسلمت ، فأينا أشأم صباحاً على صاحبه !

وقد يكون التطير من الأوقات والأيام ، فيقال إن فى يوم الجمعة ساعة نحس . أما يوم الأربعاء « فيوم نحس مستمر ، فيه أغرق قوم نوح ، ودمرت ثمود وأصحاب الرس ، والحوائج

فيه منحوسة عن طريق الفأل ، فلا تخرج فى طلب حاجة » .

وقد يكون التطير أو التفاؤل من الأرقام . فهناك أرقام مثل رقم ٧ ورقم ١٣ اكتسبت دلالات قديمة فى الميثولوجيا والفولكلور واقترنت بارتباطات سارة أو مؤلمة . فيتفاءل بعض الناس برقم ٧ وهو رمز قديم فى الأساطير والأديان . وله علاقة بالأزمنة والأوقات . فالأسبوع سبعة أيام . ويتحكم فى حياة الإنسان دورات من سبع : فقد يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، ويعطى اسماً فى «السبوع» ، وتظهر أسنانه فى الشهر السابع وتتجدد فى السنة السابعة ... ولهذا الرقم دلالات أخرى قديمة منها : الكواكب السبعة ، والسماوات السبع ، والبقرات السبع والسنابل السبع فى قصة يوسف . ومن الأرقام التى تبعث على التطير رقم ١٣ ، ولذلك فهو مكروه . ويحذف عادة من أرقام حجرات الفنادق . ويقال فى تعليل التشاؤم من رقم ١٣ إنه يرمز إلى يهوذا الذى خان السيد المسيح فى قصة العشاء المقدس ، وكان ترتيبه الثالث عشر . وقد ندم أشد الندم على خيانته فانتحر .

وقد يكون التفاؤل والتشاؤم من الألوان . فاللون الأبيض يبعث على التفاؤل ، ويقترن بالفرح والسرور . واللون الأسود

يبعث على التطير ، ويدل على الحداد والحزن . واللون الأزرق من أكثر الألوان التى تبعث على التفاؤل بعد اللون الأبيض . أما اللون الأحمر فيدل على الحياة والحب والسرور والثراء . واللون الأخضر يرمز للحيوية والخصوبة ، كما أن الخضرة هي لباس أهل الجنة . واللون الأصفر يدل على المرض ، وعند أهل الغرب يدل على الجبن . وهذه هى الدلالات العامة المتعارف عليها التى تقترن بالألوان الأساسية . وقد تكون الألوان دلالات ذاتية خاصة تختلف من شخص إلى آخر تبعاً لاختلاف الأمزجة والأذواق وما يفضله كل شخص ويميل إليه من الألوان .

التطير من الرموز والتطير من الأعمال :

يجب أن نميز فى هذه الحالات الخفيفة من التطير ، بين التطير من الرموز والأشياء والعلامات من ناحية ، والتطير من الأعمال من ناحية أخرى. فمن أمثلة التطير من الرموز الاعتقاد فى علامات الفأل الحسن ، وعلامات الفأل الردىء . ومن أمثلة علامات الفأل الحسن : التعاويذ ـ حدوة الفرس ـ فرس النبي ـ القط الأسود ـ خمسة وخميسة ، السلحفاة ـ الحمامة ـ كعب

الأرنب . . . وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون بشائر خير ويتفاءلون بها . ومن علامات الفأل الرديء: البومة — الغراب — رقم ١٣ — المرآة المكسورة — المداس المقلوب . . . . وغير ذلك من العلامات التي يعتبرها المتطيرون نذر سوء وعلامات للنحس . وهذه الرموز سواء أكانت من علامات السعد أو علامات النحس كلها رموز خارجية .

أما التطير من الأعمال ، فمن أمثلته : التشاؤم من فتح المظلة داخل المنزل — ترك المبراة مفتوحة — كنس المنزل ليلا — تحريك المقص سريعاً فى الهواء دون أن يقص شيئاً — الدخول على السيدة المتزوجة حديثاً أو التى قامت من الوضع بمصاغ من الذهب أو بعقد من العقيق أو بلحم نىء أو بباذنجان . . . وهو ما يعرف عند العامة (بالكبس) ، والاعتقاد بأن ذلك يؤدى إلى جفاف لبن الأم أو يحدث لها العقم . والتطير من هذه الأعمال من سمات أشخاص نقابلهم فى الحياة اليومية العادية : فإذا جاء ترتيب أحدهم الثالث ، رفض أن يشعل سيجارته من نفس العود . وإذا سكب الملح على المائدة ، تناول المتطير قليلا منه بين أطراف أصابعه وألقى به من خلف كتفه اليسرى . وإذا صادفه فى طريقه سلم خشبى مسند إلى الحائط امتنع

عن المرور من أسفله ودار حوله . . .

ويقابل هذه الأعمال التى يمتنع المتطيرون عن إتيانها ويتوجسون منها الشر ، أعمالٌ أخرى مرغوبة ودلالتها مقبولة . فإذا عثر المتطير فى طريقه على قطعة من النقود المعدنية الصغيرة احتفظ بها إلى حين لاعتقاده أنها تجلب له الحظ . وإذا سكبت القهوة سهواً على ملابسه ، فهى علامة أنه سيحصل على كسوة جديدة . وإذا نبش القط البساط بمخالبه فهذه علامة على أن ضيوفاً سيحضرون .

هذه أمثلة للحالات الخفيفة من التطير ، وهى مأخوذة من العرف والتقاليد ، وتكتسب بالإيحاء أو بالمحاكاة عن الوالدين خاصة ومن البيئة المنزلية عامة . وذلك لأن الطفل الذى يشب فى أسرة تعتقد فى هذه الخرافات ، يتعود مجاراتها فيما تعتقد ، وخصوصاً أن الوالدين لا يقدمان تفسيراً مقبولا لاعتقاداتهم ، ولا يحاولان تعليل ما يبدر منهما من سلوك ينطوى على التطير . ومعنى ذلك أننا نأخذ الاعتقاد فى هذه الخرافاتُ عن آبائنا كما ننقل عنهم الجهل بأسبابها وعدم معرفة تعليل معقول لها .

ولو سألت المتطير من هذه الأعمال لما عرف لتطيره سبباً ، لأن هذه التطيرات يتوارثها الناس على مر الأجيال دون أن يعرفوا

منشأها . وكثير من هذه التطيرات يرتبط بمعتقدات قديمة . وغالباً ما يكون لهذه التطيرات أسباب ومبررات ، ولكنها نسيت بمضى الزمن ، وظلت بقاياها فى معتقدات الناس دون أن يدركوا لتصرفاتهم وسلوكهم سبباً . ومن الأمثلة على ذلك: التشاؤم من تحطيم المرآة . ومنشأ هذا التطير اعتقاد قديم هو أن خيال الإنسان فى المرآة أو على صفحة الماء أو ظله على الأرض هو روحه ، وأن ما يحدث للصورة المنعكسة أو للظل ، يحدث كذلك لذات صاحبها . فإن أصابت الصورة أو الخيال ضربة أو طعنة ، ألمت بصاحبها نفسه وعاناها ، وقد صور هذا الاعتقاد ببراعة فى قصة « صورة دوريان جراى » . وقد نسجت حول هذا الاعتقاد الذى شاع بين كثير من الجماعات البدائية طائفة كبيرة من الأمور المحرمة التى تبعث على التطير . ومن أمثلتها اعتقاد الزنوج فى أعالى النيل أن التمساح قد يخطف الروح أو الظل المنعكس على صفحة الماء ، فيموت صاحبه . ويتطير الهنود الحمر من النظر إلى صورتهم المنعكسة على الماء ، خوفاً من أن يخطف شيطان الماء أرواحهم ، ويتركهم بدون أرواح فيفنون . وكان الفراعنة يعتقدون أن انعكاس الصورة فى الماء أو فوق زجاج المرآة يمثل الروح أو ما كان يسميه قدماء

المصريين « بالقرين » . وبذلك يكون تحطيم المرآة نذيراً بتحطيم الروح وفراقها للجسد . ولهذه المعتقدات نظائر فى المجتمعات الحديثة . ومن الأمثلة على ذلك حرص اللحاد على ألا يقع ظله على تابوت الميت عند إغلاقه ، أو على قبره عندما يهيل عليه التراب . وإذا مات أحد أفراد أسرة محافظة ، فإنهم يديرون المرايا ويجعلون وجهها إلى الحائط ، وذلك لأن أرواح الموتى تنسب إليها القدرة على خطف أرواح الأحياء التى يغلق عليها مع الميت فى التابوت أو القبر ، أو التى تنعكس فى المرايا .

ويتطير أهل الريف من نزول المرأة الحائض فى حقل مزروع بالخضر كحقل طماطم أو حقل باذنجان ، ويعتقدون أن ذلك يؤدى إلى تلف المحصول وبوار الأرض . وهم يتطيرون من النجاسة بصفة عامة . ومنهم من إذا أهمل الاغتسال ، وصادفه فى يومه نحس أو كارثة أو خسارة ، نسبها إلى عدم طهارته . بل إنهم فى الريف ينسبون وقف الحال وقلة البركة عند أصحابها إلى عدم طهارتهم . وقد استخدم الاغتسال والاستحمام منذ أقدم العصور وعند كثير من الشعوب للتطهر من الذنوب . والاغتسال ولا شك أمر محمود ، والنظافة شىء ضرورى ومرغوب فيه فى حد ذاته ، ولكن التهاويل من أمر النجاسة ، وطقوس

التطهر المعقدة وتكرارها بصورة رتيبة ، قد تجعل الاغتسال أحياناً نوعاً من الوسواس المتسلط .

والاعتقاد فى أثر الاغتسال فى صلاح الحال وراحة البال وكشف الكروب وذهاب الهموم ، اعتقاد قديم راسخ . ويصور النابلسى هذا الاعتقاد تصويراً بليغاً فى الدلالة القديمة التى تنسب للاغتسال فى الأحلام . فيقول فى كتابه « تعطير الأنام فى تعبير الأحلام » : « من رأى أنه اغتسل ولبس ثياباً جدداً ، فإن كان مريضاً شفاه الله تعالى ، وإن كان مديناً قضى الله دينه ، وإن كان محبوساً نجا من حبسه ، وإن كان مهموماً فرج الله عنه همه ، وإن كان فقيراً أغناه الله تعالى ، وإن كان تاجراً أو سوقياً وقد تعسرت عليه تجارته وسوقه وكسبه جود الله تعالى تجارته وسوقه وأذهب عنه همومه . . . . . فإن أيوب عليه السلام حين اغتسل ولبس ثياباً جدداً ، رد الله تعالى عليه أهله وأولاده وكل ما ذهب عنه » .

وقلما تكون بداية التطير من شىء من الأشياء أو من عمل من الأعمال خبرة فردية حدثت لشخص معين ، ولكن غالباً ما يكون منشأ التطير خبرة جماعية . ولنضرب لذلك مثلا هو الامتناع عن المرور من تحت سلم الحائط الخشبى . قيل فى

تسويغ التطير من ذلك ، إنه يرجع إلى بضعة قرون مضت ، عندما كانت أحكام الإعدام تنفذ بشنق المجرم بحبل يربط إلى شجرة قريبة . وفى المدن كان يستخدم السلم الخشبى بأن يسند إلى الحائط ، ويتدلى منه حبل يشنق به المجرم . ولا يجسر أحد على المرور من تحت السلم لأنه لا يريد أن يقترب من أى شىء يتصل بفكرة الإعدام . ومن هنا نشأ الامتناع عن المرور من تحت السلم الخشبى المسند إلى الحائط . واتبع الناس هذه العادة ، دون أن يدركوا سببها أو منشأها .

الاقتران :

يمكن تفسير كثير من علامات الفأل والطيرة على أساس الاقتران . فالبومة من أشأم الطيور وأبعثها على التطير . وهى مكروهة وتطارد بقسوة لا لقبح نعيقها ، ولا للرهبة التى تبعثها الهالتان المستديرتان حول عينيها ، بل لأنها من طيور الليل التى لا تبصر إلا فى الظلام ، فتأوى بالنهار إلى الجهات المهجورة الخربة ، حتى صارت كنيتها « أم الخراب » . واقترنت البومة كذلك بالقبور . فمن المعتقدات القديمة أن الإنسان إذا مات أو قتل تتصور نفسه فى صورة طائر ، وتصرخ على قبره

مستوحشة بجسدها . والطائر هو البومة . وبذلك وجد ارتباط أو اقتران بين البومة والأماكن الخربة والقبور ، فأصبحت رمزاً للخراب وعلامة على النحس ، ومثيرة أو داعية للتشاؤم .

والغراب من أعظم ما يتطير به أهل الريف . والقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد . فهم يتطيرون من اسمه وقبح شكله ونعيقه وحركاته . فاسمه مكروه لأنه يدل على الغربة ، ونعيبه يدل على مصيبة ، وإذا نبش فى الأرض دل على الخراب ودفن الموتى . واعتبر الغراب شؤماً لأنه — منذ بدء الخليقة — اقترن فى القصص الدينية بارتباطات مشئومة . ففى قصة قابيل مع هابيل : « فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه » . كما أن نوحاً بعث الغراب ليعرف له أمر الماء فوجد جيفة طافية فوقع عليها واشتغل بها ولم يرجع ، فأرسل الحمامة فأتته بورقة خضراء فدعا لها .

والقط الأسود يتفاءل به كثير من الناس ، ويعتقدون أنه يجلب لهم الحظ . وإذا عبر طريقهم واتجه إلى اليمين ، فهو بشارة خير ومدعاة للتفاؤل ، أما إذا اتجه إلى اليسار فهو نذير سوء وعلامة على النحس . واقترن القط فى التراث الميثولوجي بارتباطات كثيرة . والمصريون القدماء هم أول من

استأنس القط . وقد عبدوه كإله ، وحنطوه بعد موته ودفنوه فى مقابر للقطط ، ومعه فيران صغيرة محنطة . والقط الفرعونى تمثال مشهور لقط أسود ، له قيمة فنية وتاريخية ، بصرف النظر عن مغزاه عند المتطيرين . ونسب القدماء إلى القط قدرة غيبية ، ولذلك امتنعوا عن إيذائه . ولا يزال بعض العامة يعتقدون أن القط يتقمص عفريت الميت أو أن روح الميت تتناسخ فيه . ولهذا الاعتقاد نظير فى المعتقدات الخرافية التى كانت سائدة فى أوربا فى العصور الوسطى ، ومنها أن الشيطان يتجسد فى شكل قط . كما أن العلاقة وثيقة فى هذه المعتقدات بين القطط والساحرات . فقد تتحول الساحرة إلى قط ، أو يصحب الساحرة شيطان تابع فى شكل قط . وتستخدم الساحرة جمجمة القط فى الأعمال السحرية .

ويفسر الاقتران كذلك التفاؤل بحدوة الحصان ، وهي ذائعة الانتشار فى معظم أنحاء العالم ، إذ يعتقد كثير من الناس أن حدوة الحصان تجلب الحظ الحسن ، وتمنع الحسد ، وتبعد الأرواح الشريرة ، وتقى من الأمراض ومن فعل السحرة ، ولذلك تسمر عادة فوق أبواب المساكن ، وكانت تسمر كذلك على ساريات السفن الشراعية . وقيل إن نلسن علق حدوة حصان

فى أعلى سارية السفنية فيكتوريا فى معركة الطرف الأغر :
ويقال فى تعليل التفاؤل بها إنها اقترنت بمولد السيد المسيح فى الإسطبل أو فى مذود البقر .

التفسير الجنسى لرموز التطير :

يمكن أن نطلق على تفسير رموز التطير وعلاماته على أساس الاقتران : « التفسير الوظيفى » ، وهو التفسير الذى يسترشد بدلالة الرموز فى التراث الميثولوجي . ويقابل التفسير الوظيفى للرموز : « التفسير المادى » لها الذى ينادى به علماء النفس التحليليين. والتفسير المادى للرموز تفسير جنسى . ويقول رجال التحليل النفسى إن كثيراً من التعاويذ ورموز الفأل الحسن عبارة عن رموز جنسية . فمن الرموز الجنسية المؤنثة حدوة الحصان ، والدليل على ذلك أن الألمان يقولون فى لغتهم الدارجة على من فقدت بكارتها : إنها فقدت حدوة حصانها . وكثيراً ما تصنع التعاويذ على شكل حدوة فرس أو حذاء دقيق . والحذاء أو الشبشب والمنزل والدبلة كلها رموز جنسية مؤنثة . ومن الرموز الجنسية المذكرة المظلة والمقص والمبراة المفتوحة وترمز كلها لعضو التذكير . وعلى ذلك يكون فتح المظلة داخل المنزل رمزاً للعملية

الجنسية ، ولكن لماذا يعتبر فألا رديئاً وعملا محرماً ؟ قد تكون رمزاً للاتصال الجنسي بالمحارم . ومن الأعمال التي تبعث على التطير تحريك المقص في الهواء دون أن يقص شيئاً ، وقد يرمز إلى الجنسية الذاتية (نظراً لعدم وجود موضوع) أي إلى العادة السرية . أما سكب الملح سهواً على المائدة ، فيسهل إدراك دلالته إذا عرفنا أن الملح رمز للمني . وعلى ذلك قد ترمز هذه الظاهرة التي تبعث على التطير إلى الاستمناء . وخمسة وخميسة وهي أصابع اليد الخمسة المخضبة بالحناء أو الدماء المبصومة على الحائط ، من علامات الفأل الحسن ، وتعتبر تعويذة ضد الحسد ، وقد ترمز من طرف خفي إلى اليد التي تمارس العادة السرية . أما المداس المقلوب ، والمرور أسفل السلم الحائطي فقد يرمزان للشذوذ الجنسي .

والرموز الجنسية فكرة موجهة في التحليل النفسي ، يستخدمها رجاله في تفسير الأحلام وفي علاج الأمراض النفسية كما يطبقونها في كثير من المجالات . والحقيقة أن تفسير التحليل النفسي للتعاويذ ولرموز التطير بأنها رموز جنسية يعتبر تفسيراً جزئياً . وللتحليل النفسي مساهمات أخرى أصيلة وآراء نافذة في تحليل الدوافع اللاشعورية للتطير ، وسنشير إليها في الفصول التالية .

أثر المهنة فى التطير :

للمهنة دخل كبير فى القابلية للتطير . وكلما تدخلت عناصر المصادفة والحظ فى مهنة كان احتمال قابلية أصحابها للتطير كبيراً . ولذلك يأتى فى مقدمة المتطيرين المحاربون والصيادون والمقامرون .

فالجندى فى الميدان يحمل قلبه بين يديه . وللحظ والمصادفة دخل كبير فى رسالته ، فرصاصة طائشة قد تودى بحياته ، وحركة شاردة قد تكون فيها نجاته .

والصياد كذلك من أكثر الناس اعتماداً على المصادفة والحظ ، ولا تغنيه مهارته فى الصيد إذا لم يجد ما يصيد . فالصيد مورد غير مضمون ولا ثابت للرزق ، لأنه يتوقف على عوامل ليس إلى التحكم فيها من سبيل . فهناك أوقات يمتنع فيها عن الصياد الصيد أو يجفل منه ، وأوقات أخرى يواتيه الحظ فيلتقى بصيد سهل المنال .

كذلك يعتمد المقامر اعتماداً مطلقاً على الحظ ، ويؤمن بالقدرة المطلقة لتوقعه ، ويلتمس النتائج من أيسر السبل وهو

احتمال الكسب الذى ينسبه بافتخار إلى نفسه . أما الخسارة فينسبها إلى سوء الحظ ، لأن لعب القمار لا يخضع لأى منطق ، وإنما هو متوقف على المصادفة والحظ .

ومن مظاهر التطير حمل التعاويذ . وقد تكون التعويذة حجاباً أو خاتماً أو قلادة أو تمثالا دقيقاً أو غير ذلك . ويحمل كثير من المحاربين والصيادين والمقامرين هذه التعاويذ معهم لا يفارقونها ولا تفارقهم لاعتقادهم أنها تجلب لهم الحظ وتدفع عنهم الضرر .

ومن الملاحظ أن أكثر الناس تطيراً هو من وجد نفسه فى نعمة لا يستحقها ، ويخشى أن تزول . . هو من أوتى الحظ الحسن ، فحالفه نجاح سريع ، أو أصاب ثروة من طريق سهل ، أو تولى منصباً كبيراً بغير جدارة . إنه يتوقع دائماً أن يدفع الثمن . ويشفق من تغير الحال وغدر الزمان . ويخاف من شىء غامض مجهول يخبئه له القدر ، كرد فعل لما حالفه من حظ حسن ونجاح سهل أخل بتوازنه النفسى . ولذلك فهو يخاف من الحسد ، ومن « قر » الناس ، ويتوخى الحرص والحذر ، ويتوجس الشر ، لأن لكل فعل رد فعل مساوياً له ومضاداً فى الاتجاه . ويكون مثله كمثل من أكل من الفاكهة المحرمة ،

فإنه يتوقع العقاب على هذا الإثم أو الذنب ، عقاباً يأتيه على شكل شر ونحس يتربص به ويتهدده ، وكأنه القصاص العادل . وإذا أصابه مكروه ، أو ألمت به كارثة ، قال إنه كان يعرف أنها آتية لا ريب فيها ، وإنه كان ينتظرها ويتوقعها ، ويعلم أن شيئاً من هذا القبيل سيحدث . وأعرف تاجراً من أغنياء الحرب ، بدأ من لا شيء ، وجمع ثروة طائلة من تجارة البصل . . . كان شديد التطير حتى إنه أغلق على نفسه باب منزله ، وامتنع عن مقابلة الناس فى يوم جمعة وافق ١٣ من الشهر .

أثر البيئة فى التطير :

ليس التطير ظاهرة فردية فحسب بل إنه ظاهرة اجتماعية كذلك . فالتطير إن كان من سمات بعض الأفراد العاديين الذين نقابلهم فى الحياة اليومية ، فإن رموزه وعلاماته تستمد غالباً من العرف والتقاليد السائدة فى المجتمع . وكلما زاد انتشار المعتقدات الزائفة فى مجتمع ، زاد احتمال تعلق أفراده بأهداب الخرافات . وخير شاهد على ذلك هو الجماعات البدائية التى تنتشر بينها الخرافات والتطورات والمحظورات ، ويعيش أفرادها فى رعب دائم من الغيبيات . ويمكن القول بصفة عامة إن التعلق

بأهداب الخرافات والخضوع لسطوة الغيبيات أكثر انتشاراً بين المجتمعات التى تعيش على الصيد والرعي والزراعة منه بين المجتمعات التى تعيش على الصناعة . كما أن الاعتقاد فى الغيبيات والإيمان بالخرافات كان أكثر انتشاراً فى العصور القديمة منه فى العصر الحديث . ولذلك نلاحظ أن الرموز التى تبعث على التطير رموز قديمة ، ويجب ألا نتوقع التطير من رموز أو أشياء أدخلتها المدنية الحديثة . وتعتبر قلة الخرافات والمعتقدات الزائفة فى مجتمع ما دليلا على تقدمه ، كما يعتبر انتشار الخرافات فى مجتمع آخر دليلا على تأخره .

وهذا القول الذى يصدق على المجتمعات ، يصدق كذلك على الأفراد . فاعتقاد الفرد فى الخرافات يخرجه من عداد الأسوياء . ويعتبر التطير من السمات غير السوية . فالشخص السليم لا يتطير ولا يتشاءم . والحالات المتطرفة من التطير تدخل فى عداد الحالات الشاذة أو المريضة . والحق أن الأعراض الشاذة التى تصيب شخصية الأفراد بالانحلال والتفكك ، قد تصيب كذلك المجتمع الذى يتكون من مجموع الأفراد ، لأن المجتمعات لها خصائص الترابط والتكامل بما يشبه تكامل الشخصية فى الأفراد . وقد تصاب شخصية المجتمع بالأعراض

التى يصاب بها الأفراد . كما أن أمراض المجتمع قد تنتقل بالعدوى إلى الأفراد .

والتطير كان له ما يبرره فى العصور القديمة لأنه يتفق مع الحالة العقلية التى كانت سائدة ، ويتمشى مع ما ساد فى هذه العصور من جهل وتأخر واعتقاد فى الخرافات . أما فى العصر الحديث فلم يعد له محل بعد كل هذا التقدم فى العلوم ، وبعد تفجير الذرة وارتياد الفضاء .

الفصل الثانى

طريقة اكتساب التطير

الأمثلة الشائعة التى ورد ذكرها فى الفصل الأول لعلامات الفأل الحسن وعلامات الفأل الردىء، كلها من الحالات الخفيفة من التطير . وجميع الرموز والعلامات فى هذه الأمثلة عبارة عن رموز خارجية . ويكتسب التطير من هذه الرموز والعلامات بالتقليد والمحاكاة من البيئة المنزلية ومن التقاليد . ويلعب الاقتران دوراً هاما فى تفسير اكتساب هذه الرموز والعلامات الخارجية دلالات خاصة ميمونة أو مشئومة ، وإن كان أصحاب التحليل النفسى يعتبرون بعض هذه الرموز رموزاً جنسية .

وأشد من الحالات الخفيفة للتطير من الرموز الخارجية الحالات المتوسطة للتطير من الرموز الداخلية ، التى تبدو فى الأكال والاختلاج . والأكال هو (هرش) كف اليد أو بطن القدم . والاختلاج يكون فى مختلف أعضاء البدن من الرأس إلى القدم ولكنه يبدو بصفة خاصة فى (رف) العين . وهذه الرموز والمنبهات الداخلية التى تبدو فى الأكال والاختلاج

رموز خاصة ذاتية . وفيها يقرن المتطير بين الرمز والنتيجة ويرتب على ظهور الرمز نتائج معينة يترقب حدوثها . فإذا شعر المتطير بأكال فى راحة يده اليمنى توقع أن يقبض نقوداً بيمينه ، أو توقع أن يسلم على آت من سفر . وإذا اختلجت (رفت) عينه اليمنى فإنها بشارة خير . أما عينه اليسرى فهى نذير شؤم . وإذا أحس بطنين فى أذنه اليمنى توقع أن يسمع نبأ سارًا ، أما طنين الأذن اليسرى فينبئ عن السوء والكدر . ولليمنى من كل هذه الرموز الداخلية توقعات . ولليسرى توقعات أخرى وهكذا .

هذه الحالات لا يستقيم تفسيرها على أساس الإيحاء أو المحاكاة وحسب ، نظراً لاختلاف المتطيرين من هذه العلامات بشأن مغزاها وما يتوقعونه منها ، وعدم اتفاقهم على دلالة المنبه أو الرمز الواحد : فالبعض منهم يتخذه بشير خير ويتفاءل به ، والبعض الآخر يتخذ نفس هذا الرمز نذير سوء ويتشاءم منه . كذلك لا يفسر لنا الإيحاء لماذا تكتسب بعض الرموز والعلامات مغزى خاصًا عند بعض المتطيرين ، على حين أن رموزاً وعلامات أخرى لا يلتفتون إليها وليس لها عندهم أى مغزى .

الفعل المنعكس الشرطى والتطير :

نستطيع أن نفسر هذه الحالات على أساس اكتساب الفعل المنعكس الشرطى . ويمكن اعتبار التطير من الرموز والمنبهات الداخلية من قبيل الاستجابات المكتسبة الشرطية . وكلما شاءت المصادفة أن يقبض المتطير نقوداً بعد أن شعر بأكال فى راحة يده اليمنى ، أو أن يسمع خبراً ساراً كما أنبأته بذلك عينه اليمنى ، رسخ الاعتقاد فى صدق هذه النذر أو البشائر . والمعول عليه فى تكوين هذه الاستجابات الشرطية للعلامات والرموز هو تكرار اتفاق المصادفة ، ومطابقة النتائج لدلالة الرموز ، وتكرار ما يبدو من تحقق ما سبق له أن توقعه . وهنا يدخل عامل المصادفة . فظروف الموقف لا تحتمل إلا واحداً من اثنين : أن تأتى النتيجة إيجابية أو أن تأتى سلبية ، أن تكون أو ألا تكون ، أن تأتى بخير أو تأتى بشر . فنسبة المصادفة ٥٠٪ . ويترتب على تكرار ظهور رمز معين مرتبط بحادث سعيد لشخص ما أن يصير هذا الفعل المنعكس الشرطى رمزاً للتفاؤل . ويترتب على تكرار ارتباط الرمز أو المنبه بالنتيجة السارة أن يصبح بمجرد ظهور الرمز أى المنبه الشرطى

داعياً أو مثيراً للتفاؤل . وكذلك يترتب على تكرار ارتباط هذا الرمز نفسه أو غيره من الرموز عند شخص آخر بحوادث نحس ، أن يصبح هذا الرمز مثيراً للتشاؤم . فإذا (رفت) عينه اليسرى ثم صادفه فى يومه ما يكدره ؛ أصبح (رف) العين اليسرى رمزاً مرتبطاً بحوادث نحس ، ومنبهاً شرطيًّا يتوجس منه الشر ، ونذيراً بالسوء ، وباعثاً على التشاؤم .

وتكاد هذه الحالات تنطبق انطباقاً تامًّا على تجربة (بافلوف) المشهورة التى استطاع بها أن يوجد عند كلبه ارتباطاً شرطيًّا بين دق الجرس وتقديم الطعام ، ترتب عليه سيل لعاب الكلب لمجرد سماعه دق الجرس . ودق الجرس هو المنبه الشرطى أو الرمز ، ويقابله فى أمثلة التطير منبه شرطى أيضاً هو النذير أو البشير . وسيل لعاب الكلب يقابله التشاؤم أو التفاؤل . أما تقديم الطعام — وهو المهم والمعول عليه — فيقابله تحقيق الحادث فعلا واتفاق النتيجة مع ما تعارف عليه المتطير من تطيره بسعد أو بنحس . وقد يكون تحقيق الحادث فعلا باعثاً إيجابيًّا هو بمثابة الجزاء الذى يساعد على رسوخ الاعتقاد .

ولا تقف المقابلة بين اكتساب التطير والفعل المنعكس

الشرطى عند هذا الحد ، بل إن تعدد الرموز التى يعتبرها المتطيرون بشائر خير أو نذر سوء ، يقابله فى تجارب (بافلوف) تنوع المثيرات (السمع — الرؤيا — الشم — اللمس) التى تمكن بواسطتها من إيجاد استجابة شرطية واحدة هى سيل اللعاب. وكما أن الفعل المنعكس الشرطى يثبت بالتكرار ، فكذلك يؤدى تكرار اتفاق المصادفة مع المتطير بحدوث ما يتوقعه من تطيره ، إلى توثيق الارتباط الشرطى وتثبيته ، فيجعله يجزم أن عينه لا تكذب أبداً . ولا يتعرف المتطير عادة إلا على الحادث الذى يتفق مع ما يتوقعه من تطيره . فهو يترقب مثل هذا الحادث من دون الحوادث الكثيرة التى تمر عليه فى يومه ويتهافت فى التعرف على أية بادرة أو سانحة تؤيد توقعه . فى حين يميل المتطير إلى أن يسقط من حسابه الحوادث التى أخلفت ظنونه وينساها وقد لا يتعرف عليها أصلا .

وإذا كان الفعل المنعكس الشرطى يقوى بتكرار الارتباط بين النتيجة والرمز ، فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدى إلى انفصام عرى الارتباط الشرطى وزواله . فالكلب الذى يتعلم إفراز اللعاب عند سماع قرع الجرس ، بعد أن كان قد قدم له الطعام عدة مرات مقترناً بقرع الجرس ، يتعلم أيضاً

عدم إفراز اللعاب إذا قرع الجرس عدة مرات بدون أن يتأيد هذا المنبه الصناعى ، بتقديم الطعام وهو المنبه الطبيعى لإفراز اللعاب . وعلى ذلك فإن تكرار عدم الارتباط بين النتيجة والرمز يؤدى إلى زوال الاستجابة المكتسبة الشرطية للتطير . فالرموز التى لا تتأيد بالنتائج المرجوة منها ، تصبح رموزاً عقيمة .

قد يبدو لنا أن نتساءل عن دوافع الاختلاج والأكال . فما السبب فى حدوث هذه المنبهات الداخلية ؟ قد يكون رف العين والأكال فى راحة اليد من قبيل الأفعال المنعكسة غير الخاضعة للإرادة . وقد يكون لها دوافع لا شعورية نتيجة لمواقف الترقب والتوقع وما قد يصاحبها من قلق وتوتر . وقد تظهر هذه المنبهات نتيجة للمخاوف . وبذلك يبدو وكأنما لا يصادف المتطير حوادث النحس كنتيجة لأن نذير السوء هو أن عينه الشمال (رفت) ، وإنما (رفت) عينه الشمال لأنه توجس الشر من قبل . وقد تكون هذه المنبهات نتيجة للرغبات ، وبذلك لا تأتى النقود لأن المتطير شعر بأكال فى راحة يده اليمنى ، وإنما شعر بهذا الأكال لحاجته الملحة إلى نقود ! وكلما تصادف ورود النقود بعد ذلك ، وتكرار اتفاق المصادفة ، أضيفت توكيدات جديدة للارتباط الشرطى تزيده تثبيتاً .

بعض التجارب :

الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية هما : الجزء من الموقف الذى يرمز للموقف كله ، والتكرار للتثبيت . والاستجابة للرمز أى للجزء من الموقف الذى يرمز للموقف كله ، طريقة ثابتة ومؤكدة بالتجربة ، ويعرفها الذين يربون الدواجن والحيوانات . وتستخدم فى تدريب الحيوانات وترويضها على القيام بأعمال معينة أو على ألعاب السيرك . فنحن نتعجب عندما نرى الدب مثلا يرفع رجليه الأماميتين لدى سماعه لدقة معينة على الطبل . يتم ترويض الدب على هذه الحركة بربطه أو وضعه فيما يشبه البرميل ، ثم تلسع رجليه الأماميتين بالنار ، فى الوقت الذى يدق فيه الطبل بطريقة معينة . يستجيب الدب للمنبه الطبيعى وهو لسع النار برفع رجليه الأماميتين إلى أعلى ، فى الوقت الذى يستمر فيه دق الطبل . وبذلك يصبح مجرد سماع دق الطبل « نذيراً » باللسع بالنار . وبتكرار هذا العمل مرات عديدة ، يتعود الدب الاستجابة للرمز وحده ، أى للمنبه الصناعى ، وهو دق الطبل ، بالوقوف ورفع رجليه الأماميتين . ثم يقدم له بعد ذلك طعامه المفضل على سبيل الجزاء الذى

يساعد على تثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية .

وبنفس الطريقة يدرب الفارس الصقر الذى يعاونه فى الصيد على الوقوف على ذراعه اليمنى . يضع قطعة صغيرة من اللحم فى كف يده اليمنى . ويرفع ذراعه ويثنيها عند الكوع لتصير فى محاذاة الكتف ، فيحط الصقر على ساعده لكى يلتقط اللحم من كفه . وبتكرار إطعام الصقر بهذه الطريقة ، يتعود الاستجابة للفارس كلما رفع ذراعه على هذا النحو ، فيسارع بالوقوف عليها طمعاً فى الجزاء .

وتفسر الشرطية كذلك التطير من الأعمال ، أى الامتناع عن إتيان أعمال معينة خوفاً مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة . ويمكن على سبيل المثال تفسير التطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب على أساس الشرطية . يقال فى تعليل التطير من هذا العمل إنه يرجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان الجنود يمضون أوقاتاً طويلة فى الخنادق . وعندما يشعل ثلاثة منهم سجائرهم بعود واحد من الثقاب ، كان ثالثهم يصاب برصاص الأعداء . وذلك لأن عود الثقاب المشتعل يكون فى الليل هدفاً تراه خطوط الأعداء . وفى المدة التى يشعل فيها الأول والثانى سجائرهم يكون العدو قد أحكم

التصويب فيصيب الثالث . وأدى تكرار هذا الحادث إلى نشوء هذا التحريم أو التطير .

وهناك أمور محرمة ينعقد إجماع كثير من الناس على التطير منها ويمتنعون عن إتيانها ، وهى أمور متعارف عليها لأنها مستمدة من التقاليد السائدة فى المجتمع . وقد تأيد بالتجربة إمكان تكوين استجابة جماعية للأمور المحرمة . ووصل المجرب إلى عمل تجربة عن تثبيت الإحساس بالمحرم لدى مجموعة من القرود بالطريقة الآتية :

علق إصبع موز فى رأس عمود بعيداً عن متناول جماعة من القرود فى قفص . وعندما تسلق واحد منها العمود ، وأمسك الموز ، أطلقت مياه ساخنة على أرض القفص ، فتضايقت جميع القرود ما عدا ذلك الذى كان متسلقاً العمود يأكل الجائزة التى حصل عليها . ولم يتطلب الأمر منهم وقتاً طويلا ليتعلموا سبب فيضان الماء فى القفص . وسرعان ما كان يعاقب كل قرد يحاول الصعود لأخذ الموز . فالفاكهة المشتهاة كانوا ينظرون إليها بافتتان من بعيد ، وأصبحت محرمة على كل القرود فى القفص . وهذا الموقف يوضح طبيعة كثير من محرماتنا الاجتماعية ، ويبين كيف أنه حتى فى المواقف المعقدة

يمكن القيام بها تجريبيًّا ودراستها . (نقلا عن : ج . ب . جيلفورد « ميادين علم النفس ») .

ولا يفوتنا أن نلاحظ توافر الدافع فى جميع هذه التجارب والأمثلة ، فهو شرط ضرورى لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية . وقد يكون هذا الدافع هو الجوع أو الخوف أو الدوافع اللاشعورية التى كشف عنها التحليل النفسى . فعندما يتوافر أحد هذه الدوافع ، يمكن إحداث التطير من أحد الرموز أو العلامات بطريقة تجريبية . ويشترك الإنسان مع الحيوان فى هذه القدرة على الاستجابة للرمز والامتثال له . ويدل إمكان تكوين استجابة للرمز أو تكوين استجابة مكتسبة شرطية المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية على أن التطير صفة مكتسبة ، وأنه يمكن أن يكون له أكثر من نشأة واحدة .

الاختلاف والتشابه فى رموز التطير وعلاماته :

لكل شعب رموزه وعلاماته الخاصة التى يتفاءل بها أو يتطير منها . وتختلف رموز التطير وعلاماته من شعب إلى آخر . فالرموز والعلامات التى تتطير منها الجماعات البدائية ، تختلف عن الرموز والعلامات التى كان يتطير منها أهل العصور

الوسطى . كما أن سكان شمال أوربا يتطيرون من رموز وأعمال تختلف عما يتطير به سكان جنوب شرق آسيا . ونحن نعلم أن الشرق له تطيرات خاصة ، والغرب له تطيرات أخرى . فمن التطيرات التى وصلت إلينا من الغرب — ولم يكن لها فى الشرق نظير — التطير من المرور من تحت سلم الحائط الخشبى ، والتطير من إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب ، والتطير من انسكاب الملح على المائدة ، ولمس الخشب حتى لا ينطوى الكلام على الحسد . ومن بين التطيرات التى ظلت حية فى تراثنا الميثولوجى منذ أيام قدماء المصريين : التطير من القط الأسود ، ومن المرآة الكسورة . ومن الرموز المسيحية : حدوة الحصان ورقم ١٣ . ومن العادات التى كانت شائعة عند العرب فى الجاهلية : زجر الطير والتفاؤل بسانحه ، والتشاؤم من بارحه .

وإلى جانب الرموز والعلامات الخاصة بكل شعب من الشعوب ، والتى تختلف من شعب إلى آخر ، هناك رموز أخرى وعلامات متشابهة ، والتطير منها ذائع الانتشار فى معظم أنحاء العالم ، مثل التفاؤل بحدوة الحصان وكعب الأرنب ؛ والتشاؤم من البومة والغراب . فكيف يمكن تفسير هذا التشابه ؟

وهل نشأ التطير من رمز من الرموز أو من عمل من الأعمال فى مكان واحد ، ومنه انتشر إلى جهات أخرى ، أو أنه يمكن أن يكون لمثل هذا التطير أكثر من نشأة واحدة ؟

ليس من شاك فى أن التطير من بعض الرموز أو الأعمال يمكن أن ينتشر من مكان إلى آخر بالتقليد والمحاكاة . وقد يفسر هذا الانتقال التشابه فى بعض رموز التطير وعلاماته الذى نجده فى أماكن متباعدة وأزمان مختلفة . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن يكون للتطير كذلك أكثر من نشأة واحدة ، فقد أثبتت تجارب الفعل المنعكس الشرطى . والتجارب التى أجريت على القردة ، إمكان تكوين استجابات معينة للرموز ، أو اكتساب التطير من الرموز المرة تلو الأخرى بطريقة تجريبية ، متى توافر الدافع والمنبه الطبيعى ، والمثير الصناعى أو (الرمز) ، والجزاء . وبذلك قد يكون التشابه فى بعض رموز التطير وعلاماته ، بين الشعوب المختلفة وفى العصور المختلفة ، مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بطريقة واحدة ، وقد يكون مرجعه إلى المصادفة وحدها .

الفصل الثالث

التحليل النفسى للتطير

لا تغنى معرفة طريقة اكتساب التطير بالفعل المنعكس الشرطى عن دراسة دوافعه اللاشعورية التى كشف عنها التحليل النفسى . ولذلك يجب أن نضيف إلى ميكانيزم اكتساب التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى ، الدوافع اللاشعورية له . وقد أسهم فرويد وتلاميذه من رجال التحليل النفسى فى الكشف عن الدوافع اللاشعورية للتطير بدراسة الأفعال أو الحركات العرضية Symptomatic Acts ؛ وقبل أن نتناول تفسير فرويد للتطير ، نبدأ بتحليل بعض أمثلة للتطير من الأفعال أو الحركات العرضية .

العثرة :

يتطير كثير من الناس من العثرة أو زلة القدم ، ويعتبرونها نذير سوء ويتوجسون منها الشر . ويقولون : من خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخرها . وينصحون من كان على سفر وتعثر أو زلت قدمه بأن يعدل عن السفر . والعثرة التى تبدو

وكأنها حادث غير مقصود وقع سهواً ، ليست فى الواقع ظاهرة اتفاقية ، بل إن لها معنى وترمى إلى غرض . ولهذا الفعل فى رأى التحليل النفسى دوافع لا شعورية هى التردد والإحجام وتوجس الشر ، أو تنم عن دوافع أخرى خاصة تنتمى للحياة اللاشعورية لمن تعثر أو زلت قدمه .

والتطير من العثرة اعتقاد قديم وذائع الانتشار . ومن الأمثلة المشهورة التى يرويها التاريخ لهذا النذير ، أن وليم دوق نورماندى عندما وطئت قدمه لأول مرة شاطئ إنجلترا ، زلت قدمه وتعثر ، فتطير من ذلك أتباعه . وما تطيرهم فى رأى التحليل النفسى إلا « حالة نفسية أسقطت فى العالم الخارجى » فقد جاء تعثره مطابقاً لما يخالج نفوس أتباعه من رهبة وإشفاق من مصير الحملة المعلق فى كفة القدر . ومعنى ذلك بقول آخر هو أن دلالة النذير الخارجية — وهى الإشفاق من الفشل — هى ذاتها الدلالة اللاشعورية ، على التردد وتوجس الشر .

ويحسن المتطير صنعاً إذا عدل عن السفر لعثرته . فالعثرة أو زلة القدم تدل على وجود شك وتردد وتوجس للشر من السفر ، وهو أمر غير مأمون العاقبة لمن كان على سفر . فكثير من حوادث التصادم أو السقوط التى تبدو قضاء وقدراً ، لا ترجع

للمصادفة ، بل يكون لها دوافع لا شعورية ، وتنطوى على حتمية وسبق إصرار ، وتتم طبقاً لخطة موضوعة لاشعوريًّا . وقد تكون الرغبة فى العقاب ، دافعاً إلى تعريض النفس للخطر فى حوادث السقوط أو الاصطدام . وليس بمستغرب أن نجد من صدر عنه هذا الفعل العرضى وهو العثرة ، يسهم بنفسه لاشعوريًّا فى جلب النتيجة المتوقعة . وقد يؤدى استمرار وجود الدافع إلى حدوث ما لا تحمد عقباه ، فيقع للمتطير حادث يقول الناس فيه إنه قضاء وقدر ، مع أنه محتم أو مقدر لاشعوريًّا . فالدافع اللاشعورى يؤدى إلى العثرة ، واستمرار هذا الدافع قد يؤدى إلى حدوث مكروه . وفى حالة الجهل بالدافع يبدو كأن التطير من العثرة كان له ما يبرره ، كما لو كان نذيراً .

ضياع الدبلة :

يتطير بعض الأزواج والزوجات من ضياع خاتم الزواج أو الدبلة ، ويوجسون من أن يكون ذلك نذيراً بوقوع الطلاق . ويعتبر أصحاب التحليل النفسى ضياع الدبلة حركة عرضية لها دوافع لاشعورية ، وتنم عن الرغبة فى التحرر من هذا القيد ، قيد الزواج أو الدبلة . وعلى ذلك فالدلالة الخارجية المتوقعة من

هذا النذير ، هى ذاتها الدلالة اللاشعورية . ولا يرجع ضياع خاتم الزواج إلى المصادفة ، وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية لحالة نفسية فى الحركة العرضية التى عبرت عن دافع داخلى هو الرغبة فى الطلاق . فلو لم يكن أحد الشريكين راغباً فى الطلاق ، لما أضاع خاتم الزواج سهواً وبدون قصد . وليس بمستغرب أن يشترك فى جلب النتيجة المتوقعة فعلا من صدرت عنه مثل هذه الحركة العرضية . وعلى ذلك قد يكون للتطير من فقدان الخاتم ما يبرره ، إذا عمل الزوج الذى أضاع الخاتم على إتمام الطلاق ، فالدافع يوجد الحركة العرضية ، واستمرار وجود الدافع يساعد على تحقيق ما يتوقعه المتطير من تطيره . وفى حالة الجهل بالدافع يبدو وكأن النذير تحقق . وعلى ذلك لن تطلق زوجتك لأنك أضعت الدبلة ، ولكنك أضعت الدبلة لرغبتك فى الطلاق .

الكاسورة :

إذا استعصى هذا العنوان على القارئ ، فليذكر المثل العامى القائل : « لولا الكاسورة ما كانت الفاخورة » . فالكاسورة هى الأوانى أو الأوعية المكسورة . ويتطير كثير من الناس من حوادث كسر الأوانى . ويتشاءمون من القلة المكسورة أو المرآة

المكسورة . فما قول التحليل النفسى فى الكاسورة ؟

لا يعتبر فرويد كسر الأوانى سهواً ، مصادفة . ولا هى – فى رأيه – غير مقصودة ، بل إنها أفعال عرضية لها دوافع لاشعورية . فالحوادث التى تكسر فيها الأكواب والأطباق ، والتى يظن أنها حدثت سهواً ، إنما هى حوادث موجهة ، ولها دوافع لا شعورية ، ويرى كل حادث منها إلى غرض . وتتفاوت هذه الدوافع وتلك الأغراض من حالة إلى أخرى . وتكثر حوادث كسر الأوانى والأكواب فى المنزل فى فترات ومناسبات خاصة يسهل على من يتأملها أن يجد لها فى الحقيقة دوافع وأسباباً. فلا بد أن تكون هناك علاقة بين كثرة كسر الأطباق والأكواب من يد خادم صغيرة ، وإساءة معاملتها . والسيدة التى تتسم بالاتزان من الناحية الانفعالية قلما تكسر شيئاً .

ويستدل فرويد من الأمثلة التالية على أن كسر الأوانى يحدث فى ظروف وملابسات خاصة ، ويحقق أغراضاً معينة :

قد يكون كسر غطاء المحبرة الزجاجية القديمة سهواً مثلا نتيجة للرغبة فى الحصول على محبرة أخرى جديدة . وقد يتلف شخص سهواً أو يفقد الأشياء أو الهدايا التى سئم منها ، ويريد عذراً يبرر به حصوله على غيرها . فإذا كسر الطفل قلمه الحبر

أو ساعته أو أضاعها قبيل عيد ميلاده مباشرة ، فهل يمكن اعتبار ذلك محض مصادفة ؟ أم حدث ذلك لأنه يتوقع إهداءه بهذه المناسبة هدايا جديدة بدلا مما أتلف أو فقد .

وقد يكون الغرض من كسر الأشياء الثمينة التضحية والفداء والشكر للقدر الذى منع أو أبعد بلايا أخرى أكثر جسامة . فقد يحمل كسر تمثال ثمين سهواً معنى الفداء والتضحية لنجاة قريبة عزيزة من موت محقق لولا لطف القضاء . وبذلك يبدو كسر التمثال الثمين عفواً بمثابة الشكر للقدر على إنقاذ حياة هذه القريبة العزيزة . ويؤيد هذا التفسير ما يقال فى الأمثال العامية على أثر كسر الأوانى سهواً : « خدت الشر وراحت » .

وقد يكسر الشخص أو يفقد الأشياء أو الهدايا التى أعطاها إياه شخص تخاصم أو تشاجر معه ، ولم يعد يرغب فى رؤية أى شىء يذكره به .

وقد يكون الغرض من كسر آلة أو جهاز سهواً، الرغبة فى الاستراحة . فقد يكسر العامل سهواً الآلة المكلف بإدارتها ، ليحصل على فترة راحة ، حتى ولو بدا كسر الآلة خطأ غير مقصود .

وفى الكاسورة تبدو الحالات الخفيفة من الهفوات العقلية ، وهناك حالات متطرفة ، كحوادث تصادم السيارات أو انحرافها

أو السقوط أثناء رياضة تسلق الجبال ، والتى تبدو وكأنها قضاء وقدر مع أنها أحياناً لا تكون محض مصادفة بل محتمة وأقرب إلى عقاب الذات أو الانتحار .

ومجمل القول أن حوادث كسر الأوانى والأوعية التى تحدث عفواً ، والتى تبعث على التطير ، لها دوافع لاشعورية ، وتبدو وكأنها محتمة . وتختلف الحتمية للحالة النفسية من حادث إلى آخر بحسب الظروف السابقة لحدوثه ، وما يحيط بكل حادث من ملابسات .

وإذا أمكننا القول بأن جميع رموز التطير وعلاماته إنما هى محض خرافات ، فإننا لا نستطيع أن نقول فى الأفعال العرضية كالعثرة وضياع الدبلة والكاسورة التى تحدث سهواً وبدون قصد ، إنها خرافات . فالتطير من هذه الحركات له ما يبرره ، لأنها حركات ذات مغزى ولها دوافع لاشعورية . وليس بمستغرب أن يؤدى استمرار وجود هذه الدوافع إلى تحقيق المتوقع منها . وقد يسهم المتطير بنفسه لا شعورياً فى تحقيقها .

تفسير فرويد للتطير :

يعرف فرويد الشخص المتطير بأنه من يتخذ من الأحداث

الخارجية علامات يضفى عليها مغزى ومعنى ، ويتخذ منها بشائر خير يتفاءل بها أو نذر سوء يتشاءم منها – كعادة العرب فى زجر الطير ، وكالنذر التى يرويها لنا التاريخ . ويرى فرويد أنه طالما لا توجد علاقة بين الشخص المتطير والحادث الخارجى (النذير) ، تكون المسألة مصادفة لا أكثر . ولكن الحالة تختلف تماماً عندما تصدرعن الشخص أفعال عشوائية أو أخطاء غير مقصودة (مثل العثرة وضياع الدبلة) . وهذه لا يعتبرها فرويد مصادفة بل إن لها دلالة ، إنها أفعال الدافع إليها لاشعورى تحتاج إلى تفسير .

وعلى ذلك يختلف فرويد عن الشخص المتطير فيما يأتى : إنه لا يؤمن بأن أى حادث خارجى لا يشترك فيه ذهنه يعلمه أى شىء عما يخبئه له القدر فى المستقبل . ولكنه يعتقد أن أى حادث عشوائى أو خطأ غير مقصود صدر عنه لابد أن يحتوى على شىء مخبأ فى نفسه ينتمى إلى حياته العقلية وحدها .

فهو يعتبر حقيقة المصادفة فى الأشياء الخارجية – ولكنه لا يعتبرها فى الأشياء الداخلية (النفسية) . أما مع الشخص المتطير فالحالة على عكس ذلك : إنه لا يعلم شيئاً عن دوافع الحوادث العشوائية ومع هذا يميل إلى أن يضفى على حوادث

المصادفة الخارجية معانى ، ويرى فى حوادث المصادفة المحضة الخارجية وسائل للتعبير عن أشياء مخبأة خارجة عن ذاته (أى غيبية) . فيوجد حينئذ وجهان للخلاف بين فرويد والشخص المتطير :

أولا : المتطير يفسر الدافع على أنه من الخارج ، بينما ينظر فرويد إلى الدافع فى نفسه .

ثانياً : المتطير يفسر الحادث بالمصادفة accident بأنه واقعة event بينما يرجعه فرويد إلى فكرة . وما يعتبره المتطير مخفيًّا يقابله عند فرويد اللاشعور .

ونظراً لأن الشخص المتطير لا يعرف شيئاً عن دوافع الأفعال العشوائية والأخطاء غير المقصودة التى تصدر عنه ، ونظراً لضرورة تعرفه هذه الدوافع ، فإنه يضطر إلى التخلص منها بأن ينسبها إلى العالم الخارجى . مع أن الدافع إلى هذه الأفعال لاشعورى وأنها نتيجة لوجود نزعات وميول ورغبات كبتت فى اللاشعور لأنها لا تتفق مع آداب المجتمع وتقاليده ولكنها لم تخمد ولم تفقد القدرة على الظهور بل ظلت حية تتحين الفرصة للإفلات من الرقيب والإفصاح عن نفسها فى الأعمال العشوائية والسهو والخطأ .

ويذكر فرويد أن التطير كان له ما يبرره فى العصور

القديمة وكان متفقاً ومتمشياً مع الحالة العقلية التي كانت سائدة وقتئذ . أما الآن فلا محل له فى المجتمع الحديث بعد كل هذا التقدم فى العلوم . فسلوك الرجل الرومانى الذى رأى سرباً من الطير فاتخذه نذير سوء وتشاءم منه ، له ما يبرره نسبيًّا لأنه يتفق مع الحالة العقلية التي كانت سائدة وقتئذ . ولكن لو أن هذا الرومانى عدل عن مشروع لأن قدمه تعثرت سهواً فى عتبة الباب ، فإنه يكون أفضل منا نحن التحليليين ، لأن زلة قدمه تدل على التردد والشك أو على إقباله على عمل وهو كاره له .

ومن دراسة فرويد للدوافع النفسية المختفية بواسطة التحليل النفسى ، اتضحت له الدوافع اللاشعورية التي تظهر فى التطير : « إن التطير منشؤه الدوافع العدائية القاسية المكبوتة ، فالجزء الأكبر من التطير ينم عن الخوف من شر مستطير . فمن يتمنَّ الشر لغيره ، ولكنه يضطر إلى كبت هذه النزعة الشريرة فى اللاشعور نتيجة لحسن تربيته ، فإنه يتوقع العقاب على هذا الشر المكبوت ، عقاباً يأتيه على شكل شر ونحس يتهدده من الخارج » .

وفى هذا التفسير يتناول فرويد ناحية التشاؤم . إلا أن للتطير — كما هو معروف — ناحيتين : علامات للسعد ، وعلامات للنحس . ويتفاءل المتطير بالأولى ويتشاءم من الثانية .

يتبقى إذاً ناحية التفاؤل ، أى عندما يتخذ الشخص المتطير بشائر للخير يتفاءل بها .. فهل يمكن — قياساً على تفسير فرويد — أن نقول إن التفاؤل شيمة من يتمنى الخير للغير ، وأن من أحب لغيره ما يحب لنفسه توقع أن يرتد إليه الخير فيستبشر به ويتفاءل له ؟

علاقة التطير بالشخصية :

إذا صح ذلك ، فإنه قد يكون من الممكن إضافة التطير إلى الصفات المزاجية والخلقية التى تميز الشخصية . فلو أمكن الوصول إلى طريقة لقياس التطير باختبار أو استبيان ، يضم إلى اختبارات الصفات المزاجية والخلقية ، لأمكن إضافة التشاؤم والتفاؤل إلى نماذج الحالات النفسية التى تميز الشخصية التى قام بتصنيفها يونج ، كأن يقال إن المنطوى أميل إلى التشاؤم ، والمنبسط أميل إلى التفاؤل . وكما أنه لا يمكن القول بذلك ما لم نصل إلى طريقة لقياس التطير ، فكذلك تقع البينة على من يدعى عكس ذلك .

فأمامنا إذن حدث خارجى هو النذير أو البشير من ناحية ، واستعداداً لتفسيره بحسب الصفات المزاجية والخلقية ونوع

الشخصية من ناحية أخرى (فالبعض يتفاءل من رقم ١٣ ، والبعض الآخر يتشاءم منه — ويتفاءل البعض من القط الأسود ، ويتشاءم البعض الآخر منه — كما لا يخفى أن كثيرين لا يبالون ولا يكترثون ولا يقيمون لهذه العلامات وزناً). يضاف إلى ذلك أن للمهنة والبيئة والسن دخلا كبيراً فى القابلية للتطير . وهذه كلها بعض الاعتبارات التى ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان عند عمل الاختبار المشار إليه .

وإذا وضعنا مستوى تقديرياً من ١ — ٥ لسمتى التفاؤل والتشاؤم كما تبدوان فى التطير ، بحيث تمثل ٣ العاديين ، وإذا افترضنا أن توزيع مجموعة من الناس على هذا المستوى ، سينتج لنا « منحنى تكرارياً معتدلا » أو منحنى يشبه الجرس ، فينتظر أن تكون غالبية الناس فى الوسط ، ويقل التوزيع كلما اتجهنا صوب الطرفين . كما ينتظر أن تكون حالات التشاؤم المفرط ، وحالات الإغراق فى التفاؤل قليلة ، وعلى طرفى نقيض فى مستوى التقدير . فهل تكون هذه الحالات المتطرفة على علاقة بالعصاب (أى بالمرض النفسى) ؟

من المعروف أن العصاب الذى يكون المنطوى معرضاً له بصفة خاصة هو العصاب القهرى ، وأن الهستيريا هى العصاب

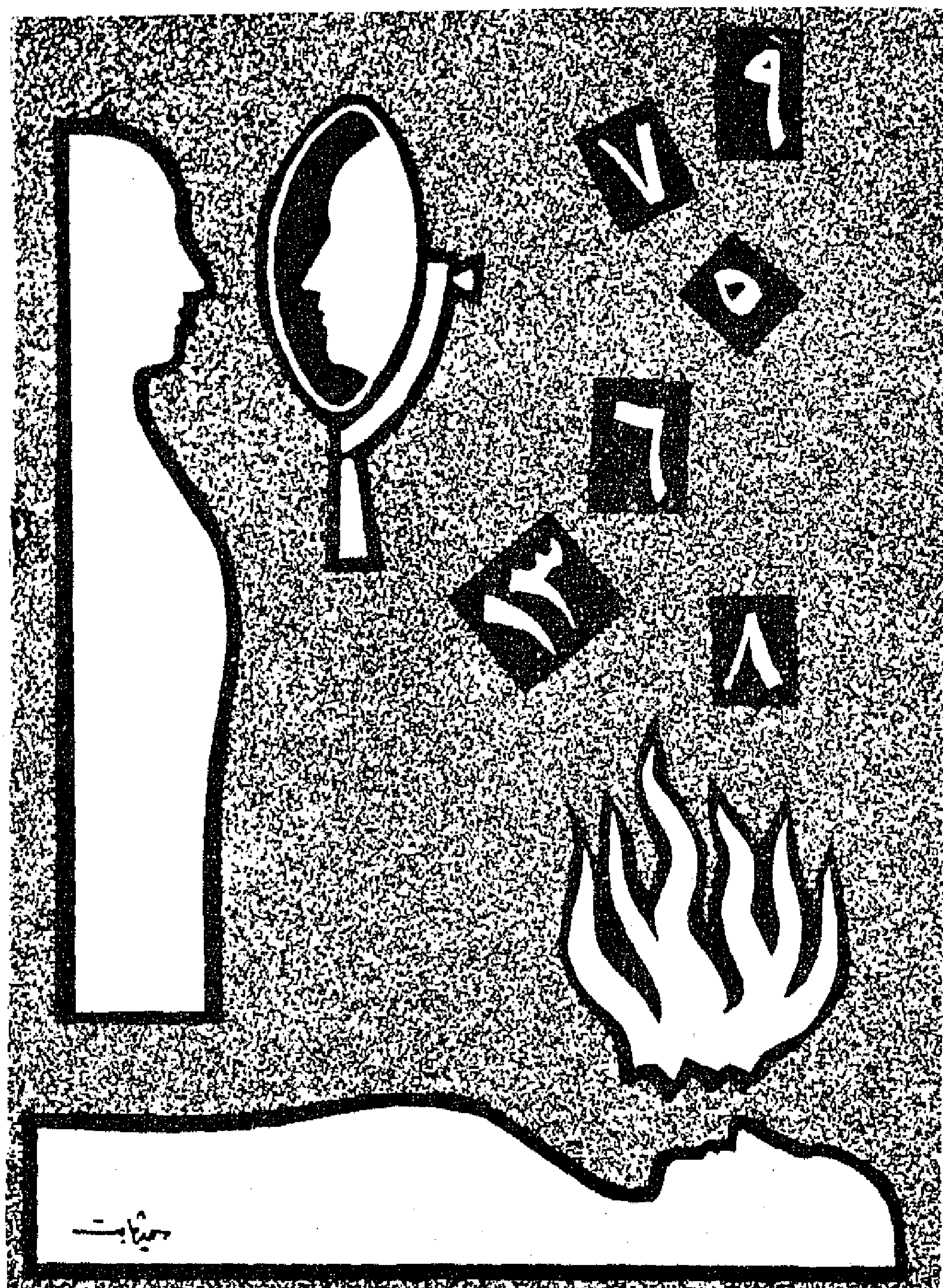
الأكثر شيوعاً بين من ينتمون إلى النموذج المنبسط . ولذلك نشير إلى احتمال إيجاد علاقة بين : التشاؤم والانطواء والعصاب القهرى من ناحية ، والتفاؤل والانبساط والهستيريا من ناحية أخرى.

التطير من الأحلام :

من أهم ما يستوقف نظر معظم الناس فى أحلامهم ويثير اهتمامهم بها هو قيمتها فى التنبؤ بالمستقبل . وإذا سألوا عن تفسيرها ، فإنما يسألون عما يصح لهم أن يتوقعوه وينتظروه ، لأنهم يتطلعون إلى التماس المعانى المخبوءة التى تنبئ عنها أحلامهم .

والتطير من الأحلام والاعتقاد فى قيمتها التنبئية اعتقاد قديم ظل سائداً بين الناس عصوراً طويلة . وكانت للقدماء أحلام لها دلالات متعارف عليها ، ومنها ما يستبشرون به ويتفاءلون ، ومنها ما يتشاءمون منه ويتطيرون . ومن هذه الأحلام « الأحلام النموذجية » وهى الأحلام المشهورة التى يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة ، وتتكرر رموزها ، وتحمل دائماً نفس المعنى ، وتؤول فى كل مكان تقريباً بدلالة واحدة لا تتغير .

وقد تناولت بالتحليل المفصل مجموعة من هذه الأحلام المشهورة ذات الدلالات الشعبية القديمة فى كتاب بعنوان :


٩
٧
٥
٦
٢
٨

« الأحلام النموذجية ودلالتها التنبئية » نشرته دار المعارف فى عام ١٩٦٠ ضمن مكتبة الثقافة الشعبية . ويدرس هذا الكتاب مجموعة كبيرة من الأحلام النموذجية وأهمها : حلم العرى — حلم الحفاء — حلم الطيران — حلم الامتحان — حلم النظر فى المرآة — الحلم بالحرامى — الحلم بالنار الموقدة — أكل الكعك ، وأكل التين فى الأحلام — الارتحال والسفر فى الأحلام — فقدان الأسنان فى الأحلام — قص الشعر فى الأحلام — العثرة وكسر الخاتم فى الأحلام — الصعود والسقوط فى الأحلام — الميلاد والموت فى الأحلام — وفاة الأهل فى الأحلام — المشى أثناء النوم — رؤى يوسف وفرعون — دلالة الأرقام فى الأحلام — دلالة الألوان فى الأحلام » .

وقد نسب القدماء لهذه الأحلام دلالات تنبئية ؛ منها دلالات ميمونة تبعث على التفاؤل ، ومنها دلالات مشئومة تدعو إلى التطير ، ومثال ذلك : حلم العرى ، ودلالته الافتضاح — حلم الحفاء، ودلالته العوز والفاقة — حلم النظر فى المرآة ،ودلالته المرض — الحلم بالنار الموقدة ، ودلالته نار جهنم وعذاب الآخرة ؛ وأكل الكعك فى الحلم ، ضيق ؛ وأكل التين ، ندامة وهم وغم ؛ والارتحال أو السفر فى الحلم دلالته الموت ؛

وفقدان السن فى الحلم دلالته وفاة أحد الأقارب ، وقص الشعر فى الحلم دلالته الوهن وفقدان القوة ؛ والضحك فى الحلم بكاء وحزن ؛ والبكاء فى الحلم ، فرح وسرور ؛ والصعود فى الحلم رفعة ؛ والسقوط فى الحلم يدل على تغير الأمر وتعذر المراد ... وهكذا . وتعتبر هذه الأحلام المشهورة ودلالتها الشعبية القديمة الواسعة الانتشار جزءاً من التراث الميثولوجى الذى توارثناه على مر الأجيال ، لأن الدلالات القديمة لهذه الأحلام استرشدت بمدلولات الرموز فى الأديان والأساطير والطقوس والفولكلور القديم .

وقد وازنت فى هذا الكتاب بين التفسيرات الشعبية القديمة لهذه الأحلام ممثلة فى تفسير محمد بن سيرين الذى عاش فى نهاية القرن الأول الهجرى ومات سنة ١٠٨ هـ (٧٢٨ م) ، وتفسيرات المحدثين من أقطاب التحليل النفسى . وقد هالنى ما تنطوى عليه تفسيرات ابن سيرين من فراسة وبصيرة نافذة . فالدلالات القديمة التى يقول بها والتى تشير إلى المستقبل غالباً ما تكون هى ذاتها الدلالات اللاشعورية التى يقول بها رجال التحليل النفسى . وقد أخذت الدلالات التنبئية القديمة للأحلام من كتاب ابن سيرين « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » الذى طبع بدار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

الفصل الرابع

العرافة واستطلاع الغيب

من مظاهر التطير الالتجاء إلى معرفة الطالع واستشارة العرافين ، والاعتقاد فى إمكان قراءة الفكر والضمير . وتكشف هذه الاعتقادات الشائعة عن رغبة متأصلة فى نفوس كثير من الناس لكشف حجب الغيب واستطلاع ما يخبئه لهم القدر فى المستقبل .

ويختلف حظ الناس فى مدى اقتناعهم بإمكان قراءة الطالع ، فيأخذ بعض الناس قول العراف مأخذ الجد ، ويستسخف البعض الآخر تنبؤاته . كما يختلف الناس فى قبول طرق العرافة المختلفة ، فمنهم من يصدق فى إمكان معرفة الماضى أو الحاضر ، ولكنه يشك فى إمكان التنبؤ بالمستقبل . ومنهم من يثق فى تنبؤات قارئ الكف أو الفلكى ، ولكنه ينكر طريقة الضاربة للرمل والهامسة فى الودع . ومنهم من يبدأ يومه باستطلاع بخته فى جريدة الصباح ، ويواظب على ذلك بإلحاح . ومهما جاءت الطوالع مغايرة للواقع ، فهو يتهافت على أى شىء يتفاءل به ، عسى أن يصدق .

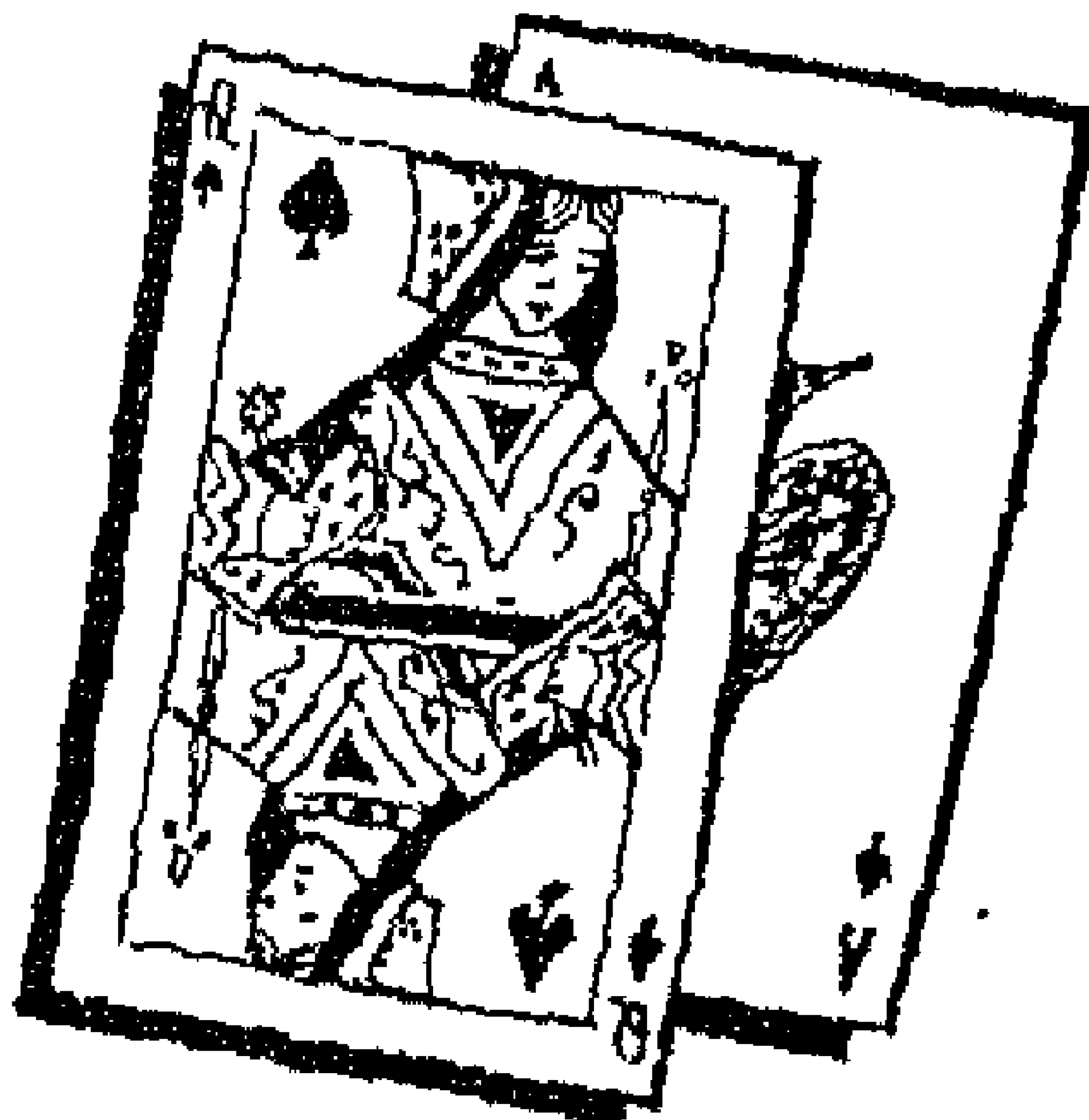
وفى كل مجتمع من المجتمعات القديمة والحديثة والبدائية والراقية ، فئة من الناس يدعون لأنفسهم قدرات خاصة ، ويعرفون بأسماء مختلفة منها : العرافون والراءون والدجالون والمجذوبون والوسطاء الروحيون والوسطاء المنومون تنويماً مغناطيسياً ، والكهان والفقراء والمنجمون والمتصوفة . . . ومن إليهم . ويختلف حظهم من هذه القدرات التنبئية أو الملكات النفسية ، فمنهم الأدعياء والمحتالون ، ومنهم من بلغت عنده هذه القدرة درجة خارقة للعادة ، تبعث على الدهشة والإعجاب . وفيما بين أولئك وهؤلاء تتفاوت كفاية العرافين بحسب ما أوتوا من قدرة أو فراسة .

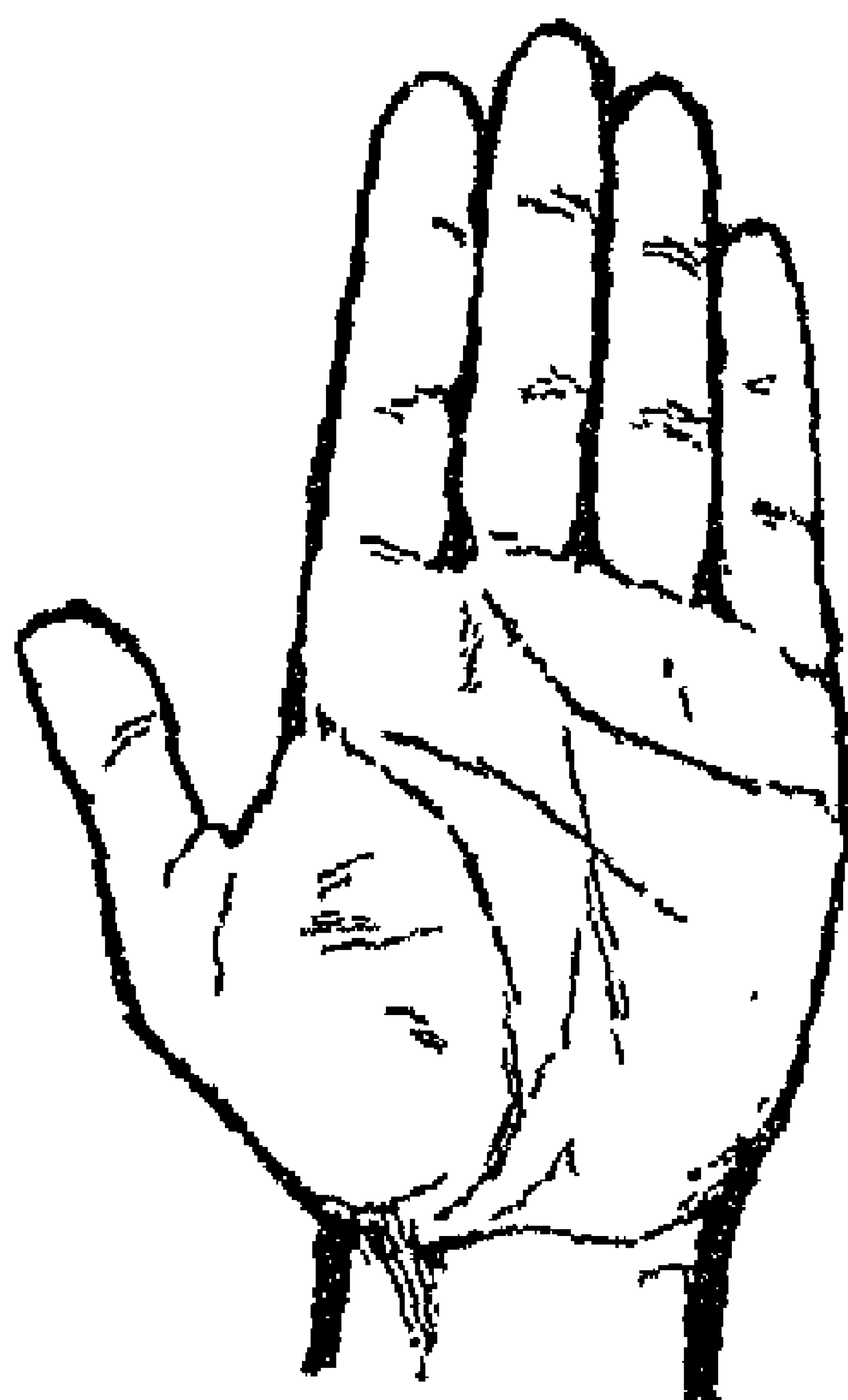
ويروى لنا التاريخ أمثلة كثيرة لعرافين وكهان ، كانت لهم مكانة مرموقة فى بلاط الملوك القدماء ، شرقيين وغربيين . وكان العرافون طوال العصور القديمة والوسطى موضع ثقة الملوك والحكام ، يعتمدون عليهم ويأخذون بمشورتهم قبل الإقدام على أمر هام ، مثل الشروع فى غزو ، أو إبرام صلح . وكان توقيت هذه الأمور رهن بظهور العلامات المبشرة بالنجاح للكاهن أو العراف .

والظاهرات الغيبية أو الخارقة للعادة قديمة معهودة فى جميع الأجيال والعصور . والثابت عند المعنيين بتاريخ هذه الظاهرات













أنها عرفت فى الشرق القديم عند قدماء المصريين والآشوريين والكلدانيين ، ثم امتزجت بما عرف منها عند اليونانيين والرومان . وانتقل هذا التراث الهيليني الذى جمع بين العناصر الشرقية والأفكار اليونانية إلى مفكرى الإسلام وأثر فى الكثيرين منهم ، ولا حاجة بنا إلى تتبع تاريخ هذه الظاهرات ، أو ذكر أمثلة لها فى عصور التاريخ المختلفة . وحسبنا أن نشير على القارئ بالرجوع إلى الدراسة التاريخية الشيقة التى صدرت ضمن هذه المجموعة[١] .

وميدان هذه الظاهرات الغيبية ميدان رحب فسيح ، ويتعذر أن نلم به فى مثل هذا الحيز المحدود، ولذلك لا بد لنا من تحديد مجال البحث بحيث يقتصر على علاقة العرافة واستطلاع الغيب بالتطير . وسنعنى بصفة خاصة بالنظريات التى قيلت فى تفسير هذه الظاهرات الغيبية ، ثم نحاول تطبيقها على طرق العرافة الحديثة المنتشرة فى مجتمعنا فى الوقت الحاضر ، التى ينم الاعتقاد فيها عن التطير .

ويجب ألا يتوقع منا القارئ أن نقطع برأى فى مدى صحة هذه

---

(١) انظر : « التنبؤ بالغيب — قديماً وحديثاً » ، تأليف الأستاذ أحمد الشنتناوى ، اقرأ ٢٠١ .

الظاهرات وثبوتها . كما أننا لا نستطيع أن نكذبها أو ننفى حدوثها بدعوى أنها خرافات. غاية ما يمكننا القول هو أن هذه الظاهرات لم تدرس بعد دراسة كافية ، ولم يصل العلماء بشأنها إلى يقين .

سنستخدم لفظ العراف أو قارئ الطالع لينصرف إلى أى واحد من المشتغلين بالتنبؤ بالغيب ، سواء استخدم التنجيم أو التنويم المغناطيسى أو الوساطة الروحية أو تحضير الجان أو الأرواح . وهذه الطرق وأشباهها بينها تداخل كبير ويتعذر الفصل بينها . وهى تقوم على أساس افتراض وجود قدرة معينة على الكشف والتلقى والإيحاء وما شابهها من الصلات النفسية عن طريق غير طريق الحواس المعروفة . وأساس هذه القدرة استعداد خاص عند بعض الأفراد ، يمكن تنميته بالمجاهدة والرياضة . وتنطوى هذه القدرة على ظاهرتين أساسيتين يدور حولهما بحث العلماء فى الوقت الحاضر ، هما التخاطر والاستشفاف .

والتخاطر Telepathy هو انتقال الأفكار والتأثيرات المختلفة من ذهن إلى آخر ، دون الاستعانة بمسالك الحس المعروفة .

أما الاستشفاف Clairvoyance فهو الكشف ، ويحتاج إلى جلاء بصرى يمكن صاحبه من إدراك أشياء أو حوادث دون

أن يراها ، ويصفها وهى محجوبة عنه ، سواء أكانت قريبة أم بعيدة .

وقد ذهب العلماء فى تعليل هذه الظاهرات الغيبية — التى تنطوى على التخاطر والاستشفاف — مذاهب شتى . وفيما يلى نتناول أهم النظريات التى قيلت فى تفسير هذه الظاهرات .

١ — الحاسة السادسة :

صاحب هذه النظرية[١] هو جوزيف سينيل . وهو ينسب القدرات الغيبية أو الصلات النفسية التى تتم عن طريق غير طريق الحواس المعروفة ، إلى الجسم الصنوبرى أسفل المخ . ويقرر أن الأجسام المادية يمكن أن تحس من بعيد لأنها تبعث حولها ذبذبات متلاحقة تسرى إلى مسافات بعيدة . وقد تخترق الحوائل كما تفعل الأشعة السينية ، ويعلل غرائز الأحياء التى تهتدى إلى أمثالها أو إلى الأماكن المحجوبة عنها على المسافات الطويلة بحاسة تتلقى هذه الذبذبات وتتبعها إلى مصادرها . أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهى تعتمد على الجسم

---

(١) انظر كتاب « الحاسة السادسة » تأليف جوزيف سينيل ، ترجمة الأستاذين محمد بدران ، وأحمد محمد عبد الخالق ، مكتبة الآداب ١٩٤٥ .

الصنوبرى فى الدماغ للشعور بالأشياء التى لا تنتقل إليها بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة . ويستبعد الأستاذ سينيل أن يخلق هذا الجسم الصنوبرى عطلا بغير عمل فى جميع الأحياء الفقارية ، لأن ملاحظاته الدقيقة عن موضع هذا الجسم فى الدماغ ، واختلاف حجمه بين الأحياء قد دلته على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه . فهو فى الأنثى أكبر منه فى الذكر ، وفى الهمجى أكبر منه فى المتحضر ، وفى الطفل أكبر منه فى الرجل ، وفى الحيوان أكبر منه فى الإنسان . وهو قريب إلى فتحات الرأس فى بعض الأحياء التى تعول على التحسس البعيد ولا تستغنى عنه بالقياس العقلى أو بالوسائل الصناعية كما يفعل الإنسان . وكلما انصرف الحى عن استخدام هذا الجسم الصنوبرى ضمر ، واقترن ضموره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المنتقلة من المسافات القصيرة .

قال الأستاذ سينيل : « أما الكشف كما أعرفه أنا — وكما ينبغى أن يعرف — فهو إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتى من شأنها أن تخرق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأى عضو من أعضاء الحس المعروفة . والكاشف فى رأيى هو كل من

يستطيع أن يضبط جانباً من مخه ويعده لكى يستقبل الإشعاع الصادر عن الحاجز ، يعنى من شىء ما – بعد استبعاده كل أشعة أخرى ، شأنه فى ذلك شأن الجهاز اللاسلكى الذى يضبط لكى يستقبل موجة منبعثة من محطة ما – مع استبعاد كل موجة أخرى سواها » .

وتتصل ظاهرتا الاستشفاف والتخاطر إحداهما بالأخرى اتصالا وثيقاً . وكثيراً ما يظهر أثرهما معاً ، ولكنهما فى جوهرهما ظاهرتان منفصلتان إحداهما عن الأخرى . والاستشفاف هو نوع من الإبصار ، يصل إلى المراكز الحسية البصرية بطريق آخر غير طريق العينين ، أما التخاطر فهو انتقال الذبذبات الأثيرية الصادرة من عقل إلى آخر ، وذلك أن التفكير فى شىء معين يولد ذبذبات ذهنية ، يستطيع أن يلتقطها من أوتى القدرة على استقبالها ، فتنتقل الأفكار . وهكذا ينسب سينيل إلى الجسم الصنوبرى القدرة على الاستشفاف والتخاطر . ويعتمد فى تفسيره لهاتين الظاهرتين على التعليل المادى أو الجسدى المحسوس .

والاعتراض الذى يمكن أن يوجه إلى هذه النظرية هو أن صاحبها لم يقم الدليل القاطع على أن الجسم الصنوبرى هو الذى

يقوم فعلا بتلك الوظيفة التى يعزوها إليه . كل ما هنالك أن هذا الجزء من أجزاء المخ لا يعرف رجال الطب له وظيفة ثابتة . وهو يفترض أن وظيفته هى تلقى تلك الموجات أو الإشعاعات المغناطيسية . وهذا الفرض لم تثبت صحته .

٢ ـ التنبؤ بالغيب عند الصوفية (١) :

يقسم مفكرو الإسلام أساليب التنبؤ إلى نوعين : طبيعية وصناعية. وتشمل الأساليب الطبيعية حالات التنبؤ إبان الجذب فى اليقظة ، والرؤيا الصادقة أثناء النوم . أما الأساليب الصناعية فتجىء صناعة واكتساباً ، وتشمل النظر فى الأجسام اللامعة ، والزجر والفأل ، والتنجيم والسحر ، وتأويل الخوارق .

ومرد القدرة على إدراك الغيب ــ فى نظر الصوفية ــ إلى ذهاب الحس وزوال حجابه سواء فى اليقظة أم فى المنام . وقد يتوافر هذا لبعض المجاذيب والمرضى والمعتوهين من المريدين ومن إليهم ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس من علائق البدن . فليس يمنع النفس عن تعقل

---

(١) انظر كتاب : « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » تأليف الدكتور توفيق الطويل ــ دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ .

المدراك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس وشواغلها . وعندما يرفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح المحفوظ ، تكشف للنفس مكنونات الغيب ، ويتجلى لها ما هو مكتوب فى اللوح المحفوظ .

ويصور ابن سينا هذا الاتجاه الصوفى فى تفسير الكشف وتعليل الرؤيا بقوله : « إن الأحداث منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى . وفى وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فإن أفرطت مخيلتهم فى القوة ظفروا بالاتصال أيقاظاً ، وأولئك هم الواصلون من الأولياء » ، « . . . واللوح لمحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب . وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا فى اليقظة . أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ، وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ، وتنكشف آفاق العالم المجهول . فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها ، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه » .

وهذا التصور الصوفى لكيفية العلم بالغيب فى الحلم ، على عكس نظرية التحليل النفسى للأحلام التى ترى أن الأحلام لا تهبط من عل ، وإنما دوافعها لاشعورية ، لا تسقط على النفس من الخارج ، وإنما تنبعث من الداخل ، لا تشير إلى المستقبل ، وإنما جذورها فى الماضى .

٣ — رأى التحليل النفسى :

مرت على فرويد ، خلال ممارسته الطويلة للتحليل النفسى ، أمثلة كثيرة للتخاطر أو انتقال الأفكار ، جعلته يقتنع بإمكان حدوث هذه الظاهرة . وقد أفرد فصلا ممتعاً عن « الأحلام والظواهر الغيبية » فى كتاب : « محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى » ، الذى ترجم إلى اللغة العربية ونشر ضمن مجموعة الألف كتاب . وحاول فرويد — فى هذا الفصل — أن يربط بين التخاطر وطريقته فى تفسير الأحلام والتحليل النفسى ، فقال بأن دوافع الأحلام هى الرغبات أو المخاوف اللاشعورية ، وكذلك يقرأ العراف أو قارئ الطالع الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه . وبذلك يحق للمحلل النفسى أن يحلل النبوءات التى يذكرها العراف بنفس الطريقة التى

يحلل بها الأحلام . وروى فرويد أمثلة كثيرة لحالات انتقال الأفكار أو التخاطر ، نذكر منها بإيجاز المثالين التاليين :

المثال الأول : لسيدة فى مقتبل العمر ، متزوجة ولم تنجب أطفالا . خلعت دبلة الزواج قبل أن تقصد إلى عراف شهير ليقرأ لها الطالع عن طريق بصمات الكف فى الرماد . أخبرها العراف بأشياء كثيرة . وكان من أهم ما قاله لها ، إنها ستتزوج وترزق بطفلين . ولم تصدق نبوءة العراف ، بسبب عقم زوجها . ولكن العراف استطاع أن يقرأ الرغبة اللاشعورية التى كانت تنطوى على جوانحها ، وهى الرغبة فى الأطفال . وكانت هذه الرغبة هى الشغل الشاغل لها وقت استشارة العراف . وكانت تنغص عليها حياتها ، وتعالج بالتحليل النفسى من جرائها .

المثال الثانى : لطالب طب فى السنة النهائية ، يعالجه فرويد من اضطرابات نفسية منشؤها تعلقه العصابى بأخته ، وكراهيته اللاشعورية لزوجها . سمع هذا الطالب عن عرافة شهيرة تشتغل بالتنجيم . وكانت طريقتها بسيطة ، فلم تكن تطلب سوى معرفة تاريخ ميلاد الشخص ، ثم تستشير بعض كتب التنجيم ، وتقوم بعمليات حسابية معقدة ، وتخبر بعد ذلك بطالعه . عول الطالب على أن يستشيرها ، لا عن نفسه بل عن زوج أخته .

فأعطاها تاريخ ميلاد زوج الأخت . وبعد أن حسبت النجم ، تنبأت له قائلة : « إن هذا الشخص سيموت مسموماً من أكلة محار فى الصيف القادم » . ومضى الصيف ، ولم تتحقق نبوءتها. روى هذا الطالب لفرويد أثناء جلسات التحليل ، أن زوج أخته مغرم فعلا بتناول المحار ، وأنه كاد يموت مسموماً بسبب طبقه المفضل ، منذ عامين ، أى قبل استشارة العرافة . وواضح أن العرافة لم تخبر عن المستقبل ، ولا عن الماضى ، وإنما هى قرأت الرغبة اللاشعورية للطالب الذى يستشيرها . ولتوضيح ذلك نقول : نفرض أن هذا الطالب حلم بموت زوج أخته . إن تفسير هذا الحلم البسيط هو أنه يضمر كراهية لاشعورية نحو زوج أخته ، عبرت عن نفسها فى الحلم بموته . وقد ينم هذا الحلم عن الرغبة فى مغنم ثانوى يعود على الحالم من وفاة زوج أخته . وكما أن هذه الرغبة يمكن أن تفصح عن نفسها فى الحلم ، فكذلك يمكن للعرافة أن تقرأها وتخبر بها . وهذا يؤيد قول فرويد إن ما يحاول العراف أو قارئ الطالع قراءته هو الرغبات أو المخاوف اللاشعورية لمن يستشيرونه .

وإذا كان فرويد يدعونا إلى أن ننظر بعين الاعتبار إلى احتمال حدوث التخاطر أو انتقال الأفكار ، فقد سبقه كثيرون

من علماء النفس أيدوا صحة ثبوت هذه الظاهرة . ومن هؤلاء العالم النفسى الكبير وليم مكدوجل الذى قال : « إننى أعتقد أن التخاطر أو انتقال الأفكار وشيك جداً أن يتقرر بصفة نهائية فى عداد الحقائق المعترف بها علمياً » . وكذلك يقول الدكتور أليكسيس كاريل فى كتابه : « الإنسان ، ذلك المجهول » : إن وجود الاستشفاف والتخاطر أمر مفروغ منه .

* * *

وهكذا تلقى كل نظرية من هذه النظريات الثلاث على ظاهرات الإدراك الغيبى — كما يبدو فى التخاطر والاستشفاف — أضواء من زوايا مختلفة . ومع أن هذه النظريات بينها تفاوت كبير ، إلا أنها مفعمة بالمعنى : فنظرية الحاسة السادسة التى تنادى بأن التخاطر والاستشفاف من وظائف الجسم الصنوبرى ، تعتمد على التفسير المادى الطبيعى المحسوس . وعلى النقيض منها تماماً التفسير الصوفى المجرد الذى يذهب إلى ما وراء الطبيعة ، ويحلق بين الأفلاك فى آفاق العالم العلوى واللوح المحفوظ . أما التفسير النفسى ، فيرد الإدراك الغيبى فى مختلف صوره إلى اللاشعور ، ويرى أنه ينبع من باطن النفس ، ولا يفد إليها من خارج .

وإذا انتقلنا من النظرية إلى التطبيق ، فهل تساعدنا هذه الشروح والتفسيرات على فهم طرق العرافة المعاصرة التى لا تزال شائعة فى المجتمعات الحديثة ، والتى يعتقد فيها المتطيرون ؟

يستعين العرافون فى الوقت الحاضر بوسائل معينة ، مثل : الفنجان — الكف — ورق الكوتشينة — حساب النجم — الرمل والودع — المندل — إلى غير ذلك من الطرق المعروفة . فى حالة قراءة الفنجان ، تتشكل بقايا البن فى الفنجان ، ويمكن لمن يتأمل فيها أن يتعرف على رموز وعلامات ، فتظهر سكة السفر ، والنصرة ، وشموع الفرح ، وما إلى ذلك . وخطوط الكف ، كل خط له معنى : خط للعمر ، وخط للصحة ، وخط للمال . . . وهكذا . هذه الخطوط تولد مع الشخص وتلازمه ، وهى غير قابلة للتغيير ، وهى أشبه بالبصمات ، ولذلك يندر أن يتشابه كفان . وورق الكوتشينة ، كل ورقة لها مغزى ودلالة معينة متعارف عليها ، ولا يختلف فيها اثنان ؛ أما المندل فهو طبق به زيت ، يطيل العراف أو صبيه النظر فيه ، ويخبر بما يتراءى له .

وإذا كان العرافون يسترشدون بهذه المعينات فى معرفة الطالع ، فإن طرق العرافة — فى ظاهرها — طرق « موضوعية »

تتوقف على ما يراه العراف أمامه ويقرؤه أو يفسر رموزه .

ويقابل هذه الوسائل « الموضوعية » ناحية ذاتية تتوقف على قدرة معينة ، نسميها موهبة أو فراسة أو بصيرة أو ملكة نفسية أو حاسة سادسة . . وأحياناً لا يدرى العراف نفسه كنهها . وغالباً ما تقوم هذه القدرة على استعداد طبيعى خاص ، أو يكتسبها العراف عقب التعرض لصدمة أو لخبرات مؤلمة أو لمرض طويل . ويمكن تنمية هذه القدرة بالرياضة الروحية والزهد والصوم والمجاهدة .

ولا تتم الرؤية فى جميع الحالات ، ولا مع جميع الأشخاص ، ولا فى كل الأوقات . فلا يقرأ العراف الأفكار أو يكشف الطوالع إلا وهو فى أحسن الحالات . وفى أوقات أخرى يغلق عليه ، ويخيم الضباب ، ويستعصى عليه الإدراك ، وتتعذر الرؤية.

قد نفترض وجود نوع من الاتصال بين العراف ومن يستشيره ، اتصال روحى أو نفسى أو غيبى أو لا شعورى ، تنتقل بواسطته الأفكار أو الصور من عقل إلى عقل ، كما يسرى التيار أو الموجات أو الذبذبات ، دون الاستعانة بوسائل الحس المعروفة . وهو ما يعرف بالتخاطر (أو انتقال الأفكار) والاستشفاف (أو الكشف) .

ويشترط لحدوث هذا الاتصال ، أن يكون العراف فى حالة سلبية ، يمتنع فيها عن التفكير ، ويزيل حجاب الحس ، ويستغرق فيما يشبه الاستبطان . هذه الحالة السلبية أو حالة التركيز والتجمع ، تساعده على الخروج من مستوى الشعور إلى مستوى ما تحت الشعور ، فيحدث التخاطر أو الاستشفاف .

والعراف الأصيل لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى عناء كبير . ومن العرافين من يكتفى بأن يشغل الحس بالبخور ثم يهيئه بالعزائم ، ويخبر بعد ذلك بما يدرك . ومنهم من يحصر جميع مداركه الحسية ويركزها فى نوع واحد منها ، فيطيل التحديق فى كرة كبيرة مصقولة من البلور ، وهو ما يعرف بالتحديق البلورى ، يستعين بها على بلوغ هذه الحالة السلبية . ويقال إن النظر فى بقايا القهوة فى الفنجان أو النظر فى ورق الكوتشينة أو فى الكف أو إلى النجوم أو إلى المندل ، يساعد العراف على الوصول إلى هذه الحالة السلبية . وهو يديم النظر فى هذه الأشياء حتى تغيب عن البصر ، ويبدو بينه وبينها غشاوة ، وتتشكل عليها صورة تتراءى له مجسمة ، تحكى له بالمثال والإثارة ما ينبغى إدراكه . وهو يدرك هذه الصورة والأشكال إدراكاً نفسياً لا يتصل بالبصر . ويشبه هذا ما يحدث فى حالة التنويم

المغنطيسى ، إذ أن التحديق فى شىء لامع صغير الحجم وتركيز الفكر فيه يساعد على وصول الوسيط إلى حالة الغيبوبة . ويشبه هذا ما يحدث كذلك فى الأحلام . فالحلم وسيلته فى التعبير هى الصور . ونرى صور الحلم وحوادثه — بوضوح تام أحياناً — بنوع من الإبصار ، مع أن أداة البصر وهى العين تكون مغمضة أثناء النوم .

والسؤال الهام الذى يلح علينا ولا نعرف له جواباً هو : من أين يستمد العراف الأفكار التى يقرؤها ؟ المفروض أن مصدرها هو الشخص الذى يستشيره وما يجول بخاطره من مشكلات ومشاغل . فهل يقرأ العراف ما يراه مسطراً أمامه فى ورق الكوتشينة أو فى خطوط الكف ، أو فى العلامات والأشكال التى يتشكل بها البن فى الفنجان أو بحساب النجم ، بطريقة « موضوعية » أم أنها موهبة ذاتية ، فيقرأ الأفكار التى تنتقل إليه بطريقة مباشرة من الشخص الذى يستشيره ، وفى هذه الحالة تكون الوسائل المعينة كالفنجان والكف والكوتشينة وسائل تساعده على التركيز والتجمع ورفع حجاب الحس ، وتعينه على الوصول إلى مستوى ما تحت الشعور الذى يتم فيه انتقال الأفكار واستشفاف الحوادث؟ ويقول آخر : هل مهمة العراف

أن يقرأ ما هو مسطر أمامه ويؤول الرموز والعلامات التى يراها ، ويعطيها المعانى والدلالات المتعارف عليها ، أم أنه يقرأ الأفكار التى تنتقل إليه بطريق مباشر من الشخص الذى يستشيره دون وساطة هذه الوسائل المعينة ، أم أنه يؤلف هذه الأفكار تأليفاً ؟

وإذا كان مصدر الأفكار هو هذه الوسائل المعينة التى تتراءى للعراف فيها أشكال وعلامات معينة تختلف من شخص إلى آخر ، فكيف يمكن تطويع هذه العلامات والرموز لتعبر عن أفكار ورغبات صاحبها ؟ وكيف تنتقل هذه الأفكار والرغبات إلى هذه الوسائل الصماء ؟ وهل تستطيع هذه الجمادات أن تتلقى تأثيرات من أفكار شخص ما وتنطبع فيها ؟ وكيف تنتقل هذه التأثيرات والانطباعات بعد ذلك إلى عقل شخص آخر هو العراف ؟

مهما يكن من شىء ، فكثيراً ما تختلط طرق العرافة بالتدجيل والشعوذة . وإذا كانت هناك نواة من الحقيقة ، فقد نسجت حولها ضروب من الأباطيل والخداع والشعوذة ، جعلت من المتعذر الوصول إلى لب الحقيقة . وحتى إذا سلمنا جدلا بأن بعض العرافين لهم قدرة معينة على قراءة الأفكار ، فليس

معنى ذلك أنهم قادرون على شفاء الأمراض ، أو علاج العقم ، أو رد المطلقة إلى زوجها ، أو غير ذلك من الادعاءات التى قد تأتى بنتيجة مع الأشخاص القابلين للتأثر بالإيحاء .

ومهما سمعنا من القصص العجيبة عن القدرة الخارقة لبعض قارئى الطالع ، وكيف يخبرون عن الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، وكيف تصدق تنبؤاتهم ، وجب ألا ننسى أن عامل الصدفة دائماً موجود ، وأن ما يقوله العراف غالباً ما يتناول عموميات دون تحديد ، وهذه العموميات تقبل التأويل ، فمنها ما يبدو كأنه تحقق ، ولكن أغلبها يخيب .

و « كذب المنجمون ولو صدقوا » .

الفصل الخامس

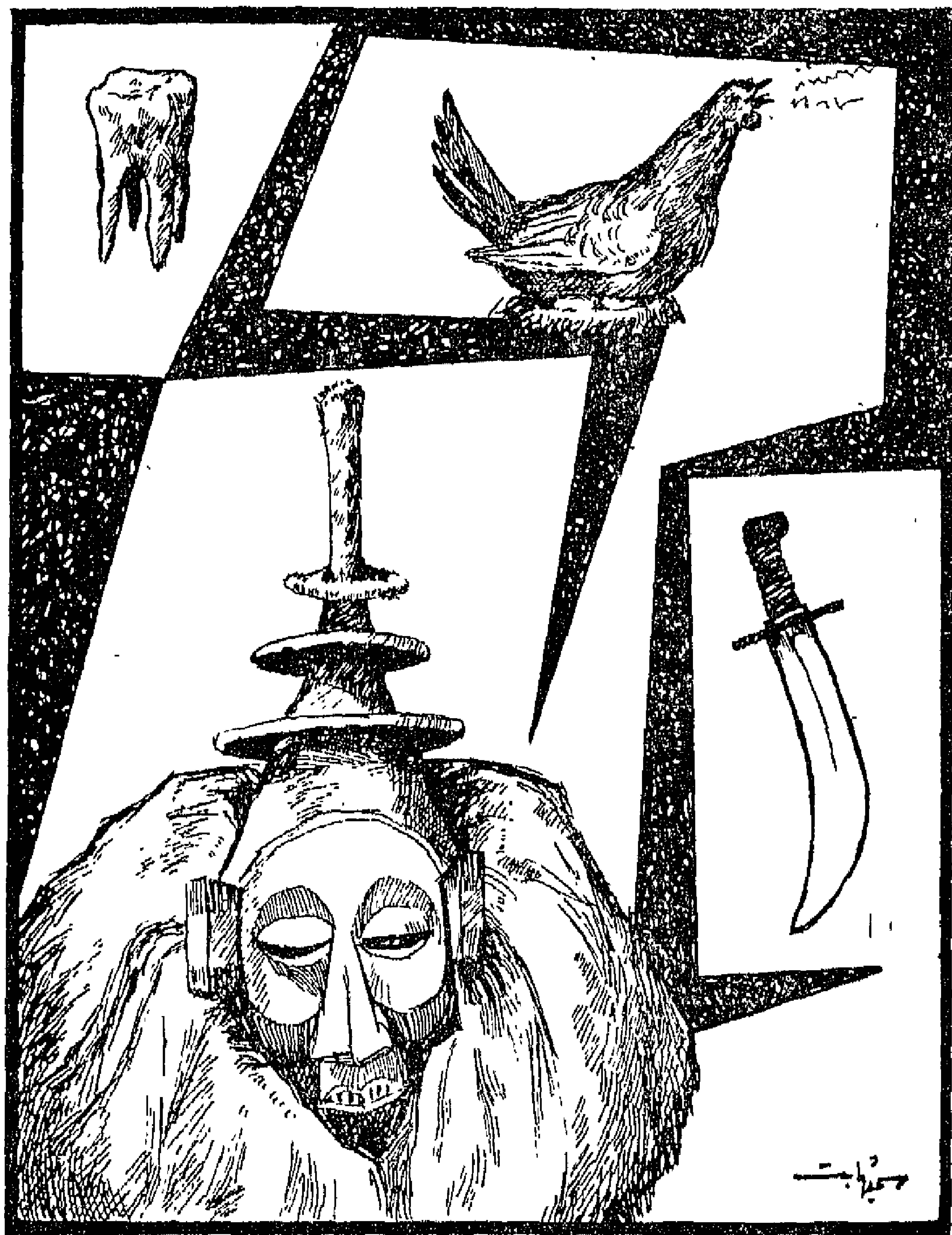
التطير عند الجماعات البدائية

التطير ذائع الانتشار بين مختلف الشعوب ، ويلعب دوراً كبيراً فى حياة الجماعات البدائية المعاصرة . فعند هذه الجماعات فؤول ميمونة ونذر مشئومة ؛ كأن يسمعوا هذا الطائر يصيح من جهة اليسار أو من جهة اليمين ، أو يروا ذاك الحيوان يعبر الطريق فى أثناء المسير . وهم يتعرفون على الفأل فى طير الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذى يأتى منه أويذهب إليه وهلم جرًّا . ويدرك البدائى الدلالة السعيدة أو المنحوسة لهذا الفأل أو ذاك ، ولا يبدأ فى عمل هام مثل إقامة كوخ أو بناء قارب أو الخروج فى رحلة صيد ، قبل أن يرى الفؤول المبشرة بالنجاح . ويعدل عن غرضه إذا لم تظهر هذه الفؤول أو ظهرت فؤول سيئة . فإذا لمح فألا ميموناً تحمس للعمل وأقبل عليه ، وإذا لمح فألا مشئوماً تخلى عنه وزهد فيه .

وتحقق علامات الفأل التى تظهرها الطيور والحيوانات للبدائيين — فى اعتقادهم — غرضين : (١) فهى تعلن عن حوادث مستقبلة ، وتدل على نجاحهم أو على إخفاقهم فيما هم

بصدد القيام به . وقد تحذر من أن خطراً لا يخطر بالبال سيقع عاجلا أو آجلا . (٢) وتعتبر فى الوقت نفسه سبباً غيبيا لهذه الحوادث . فليست العلامات التى تظهرها الطيور والحيوانات مجرد إشارات ونذر أو إعلان لما سيقع فحسب ، وإنما هى أسباب له كذلك . فهى تنبئ عن الحوادث ولها القدرة على إحداثها ولذا فهى علامات أكيدة لما سيقع . فهم يعتقدون أنها تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضرر .

ومن علامات الفأل الردىء التى تزعج البدائيين إزعاجاً شديداً ويتوجسون منها الشر ، الكائنات الممسوخة ، والظواهر التى تشذ عن المعتاد . فمن المعتقدات الشائعة عند كثير من الشعوب ، التطير من الدجاجة التى تصيح صياح الديك ، ولذلك فهى تطارد أو تذبح . ومن أقوال العرب : « إذا صاحت الدجاجة صياح الديك فلتذبح » قالها الفرزدق فى امرأة قالت الشعر ! وفى وسط أفريقيا (فى أوغندة) كان الأطفال الذين تنبت أسنانهم العليا قبل السفلى يقتلون ، لاعتقاد الأهالى أنهم إذا لم يفعلوا ذلك انهالت الكوارث على القرية بسبب هؤلاء الأطفال . وإذا حدث فى أثناء الوضع أن خرج الطفل برجليه أولا ، اعتبر — عند البانتو سكان أفريقية الشرقية — جالباً



للنحس وخطراً على الأسرة وعلى القرية بأسرها .

ويتصل بموضوع التطير اصطلاح عند علماء الأنثر وبولوجيا الاجتماعية الذين يدرسون حضارات الجماعات البدائية هو التابو Taboo ، وهو لفظة فى لغة سكان جزر بولينيزيا ، ولكنها تعبر عن ظاهرة عامة توجد لدى كثير من الجماعات البدائية ، ومعناها الأمور المحرمة .

وقد تكون الأمور المحرمة دائمة أو مؤقتة . فالكهنة والملوك والرؤساء والموتى محرمون بصفة دائمة ، وكذلك أسماؤهم وكل ما يتعلق بهم . أما الأشخاص المحرمون فى فترة معينة فهم النساء فى حالة الحيض وفى حالة الإجهاض وفى حالة الوضع ، والرجال قبل الخروج إلى الصيد أو الحرب .

ويعنينا فى دراسة التطير التفرقة بصفة خاصة بين نوعين رئيسيين من الأمور المحرمة هما :

(ا) الأشياء المحرمة : ومن أمثلتها ، الأسلحة القاطعة — الدم — قصاصات الشعر — الأسنان المخلوعة — بقايا الأظافر — بقايا الطعام .

(ب) الأعمال المحرمة : ومن أمثلتها ، الاتصال بالأجانب والغرباء — تحريمات خاصة بتناول الأطعمة والمشروبات —

الحجاب وإخفاء الوجه فى مواقف معينة ـ الامتناع عن مغادرة المنزل فى مناسبات خاصة ـ الامتناع عن ترك بقايا الطعام وضرورة التخلص منها ـ تحريمات خاصة بحيوان الطوطم الذى تقدسه القبيلة ، وتحرم على جميع أفرادها أن يذبحوه أو يأكلوه أو يمسوه بسوء .

وأول ما يستوقف النظر فى فكر التابو هو التحريم والنهى والامتناع عن إتيان أعمال معينة : لا تفعل هذا الأمر ، لا تأكل هذا الطعام ، لا تمس هذا الشيء . وهى تحريمات قديمة توارثتها هذه الجماعات على مر الأجيال دون أن تعرف لها سبباً . ودون أن يكون لها أى أساس من التفكير المنطقى . وهم لا يناقشون سببها ، ولكنهم يعتقدون أنهم إذا لم يلتزموا باجتناب هذه المحرمات ، أو خالفوا تلك النواهى ، حل بهم أشد أنواع العقاب ، وتعرضوا للكوارث وسوء المصير ، ومعظم العقوبات التى تنجم عن انتهاك هذه الأمور المحرمة من نوع غيبى . وتفضى كل خطيئة بطريقة آلية إلى العقاب أو المرض أو الموت. وتبدو الأمور المحرمة وكأنها مشحونة بطاقة غيبية مدمرة تصعق كل من يخالفها أو يستخف بها .

ومن دأب هذه الجماعات تأويل العوارض والكوارث تأويلا

غيبياً . فإذا حلت كارثة بفرد أو أسرة أو قرية أو نزلت بهم سلسلة من الخطوب وضروب الإخفاق ، لم يفكروا مطلقاً فى إرجاعها للمصادفة ، بل لا بد أن يكون مردها إلى إتيان أمر محرم . إن خرق التابو أو انتهاكه يعد سبباً عاماً لكل حدث غير مرغوب فيه : كسوء الجو والمرض والإخفاق فى الحرب وعدم النجاح فى الصيد . ولا يكاد الأهالى يشهدون وقوع مخالفة لإحدى المحرمات حتى يتوقعوا حلول كارثة أو مصيبة . ومن ناحية أخرى ، إذا ألمت بهم نازلة ، كعاصفة هوجاء ، أو جفاف طويل ، أو موت مفاجئ ، أو مرض خطير ، أو فشل فى الصيد ، فلا بد أن يفترضوا وقوع مخالفة وانتهاك عادة محرمة . فكل مخالفة تقابلها كارثة محققة ، كما أن كل كارثة أو إخفاق ترجع إلى انتهاك إحدى المحرمات .

وليس من المهم أن تكون المخالفة إرادية أو غير إرادية ، شعورية أو غير شعورية ، لأن المهم هو كونها وقعت بالفعل . وما دامت قد وقعت فلا بد من ظهور نتائجها ، بل إن ظهور هذه النتائج هو الذى يلفت النظر إلى وقوع المخالفة . فكل حادثة وكل كارثة دليل على إحدى المخالفات . وأى مخالفة إنما تنشأ عنها نتائج مستقلة عن نوايا الفاعل : فإذا أجهضت إحدى

الحبالى مثلا ، أدى إجهاضها إلى انقطاع المطر وهبوب العواصف واختفاء حيوانات الصيد بصورة حتمية ، لا بسبب أنها أرادت أن تتخلص من جنينها أو لم ترد ، بل لأن الإجهاض قد وقع بالفعل . أما أن يكون هذا الفعل مقصوداً أو غير مقصود فلا أهمية له . إن الذعر والفزع والخوف الشديد من العقاب يحول بين البدائى وخرق التابو أو الاستخفاف به عن عمد : وإذا انتهكه من غير قصد فقد يمرض أو يموت من هول ما اقترف ومن فرط الرعب والفزع الذى يتسلط عليه ، ما لم يبادر إلى درء الخطر والتكفير عن المخالفة بطقوس التطهير .

ويجب على من يخترق التابو أن يعترف أولا بخطئه ، حتى يزيح عبئاً ثقيلا عن كاهله ، وحتى تحترس الجماعة من النحس أو سوء الطالع الذى سيصادفها . فمثلا ، يعتقد الإسكيمو أن كل من لمس جثة أو دماء سائلة يصبح تابو . وإذا اشترك فى الصيد مع جماعة ، فإن الصيد يجفل منهم .

ويعتقد الرجل البدائى أنه يمكنه التكفير عن سيئاته وعن وقوعه فى المحظور وانتهاكه التابو بطقوس التطهير المعقدة . وقد تكون هذه الطقوس بتكرار بعض الشعائر أو بالعزلة والاغتسال . ومن أمثلة تلك الطقوس ما يقوم به المحاربون فى غينيا الجديدة بعد

عودتهم ظافرين من ميدان القتال ، فهم يعزلون لفترة من الزمن ، ويحرم عليهم الاتصال بزوجاتهم وأصدقائهم ، ويمتنعون عن أكل اللحوم ، ويقتصر طعامهم على الخضر والفاكهة ، ولا يلمسون طعامهم بأيديهم وإنما يطعمهم غيرهم . وهذه الطقوس يراد بها التطهير والتكفير عما اقترفوه في الحرب .

ويعتقد البدائي أن من لمس التابو صار هو ذاته تابو ، بمعنى أنه يعتقد أن التابو ينتشر كالعدوى وينتقل من شيء إلى آخر . مثال ذلك أن قبائل الماوري — سكان نيوزيلندة الأصليين — تعتبر كل ما يتعلق بشيخ القبيلة تابو يحرم الاقتراب منه أو لمسه . وعلى ذلك فلو فرض أن شيخ القبيلة نفخ في نار عليها قدر فيه لحم فإن اللحم يصير تابو ، لأن التابو انتقل من أنفاس الزعيم إلى النار ، ومن النار إلى القدر الذي يلامس النار ، ومن القدر إلى اللحم الذي يلامس القدر ، وبذلك يصبح اللحم محرماً وكل من أكله تعرض لخطر المرض أو الموت . ويروى أن أحد زعماء الماوري أضاع ذات مرة قداحته فوجدها بعض الأفراد وأشعلوا منها غلايينهم ، ولما عرفوا صاحبها انتابهم فزع عظيم ، لأن الشيخ يعتبر تابو وقداحته بذلك تابو ، وكذلك اللهب المنبعث عنها . وعلى ذلك فإن الدخان الذي كانوا يدخنونه

والذى أشعلوه بلهب القداحة كان هو أيضاً تابو . وانتهى أمرهم بأن ماتوا من الفزع .

ويجب ألا نخلط بين الأمور المحرمة عند البدائيين ، والنواهى الخلقية عند المتحضرين . فمثل هذه النواهى تقوم على أساس من العقل والمنطق ، أما الأمور المحرمة فلا يعرف لها سبب ، وليس لها أساس من التفكير المنطقى . والنواهى الخلقية عندنا لها غالباً سند فى الدين والقانون ، أما الأمور المحرمة فالعقاب يحل بمن يخرقها أو يستخف بها بطريقة غيبية تصعقه وكأنما مسته الكهرباء .

وانتهاك الأمور المحرمة لا يهم الفرد وحده ، بل قد يكون سيئ المغبة أيضاً بالنسبة إلى المجتمع . ومثال ذلك دم الحيض ، فهو تابو لأنه نجس . ولذلك يحرم كثير من الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء والزنوج فى أواسط إفريقيا على المرأة الحائض لمس الأشياء التى تخص الرجال ، ويقدم لها الطعام فى آنية خاصة أو فى أوراق شجر الموز الذى يسهل التخلص منه بعد ذلك . وقد يصل الأمر عند الهنود الحمر إلى حد عزل الفتاة أو المرأة الحائض حتى تنتهى فترة الحيض .

ويحرص رؤساء القبائل وشيوخها على إلزام الناس احترام

الأمور المحرمة ، لأن فى مراعاتها نجاة الجماعة وسلامتها . ولذلك استخدم هؤلاء الرؤساء التابو فى تأكيد سلطتهم . وأصبح التابو يقوم بالنسبة للسلطة الضابطة فى القبيلة بنفس الدور الذى يقوم به الضمير (أو الذات العليا) فى نفس الفرد . فالضمير هو الوازع الخلقى الذى ينهى ويحرم ، ويقوم بنفس الدور الذى يقوم به التابو فى المجتمعات البدائية .

ويرتبط كثير من الأمور المحرمة عند البدائيين بطقوس تنصيب المراهقين ، ويتم فى أثناء هذه الطقوس غرس هذه الأمور المحرمة وتأكيدها فى نفوس البالغين . وتوجد طقوس تنصيب المراهقين عند سكان أستراليا الأصليين ، وعند الزنوج فى جنوب إفريقية من قبائل البانتو ، كما توجد كذلك عند الهنود الحمر . وتتلخص هذه الطقوس فى عزل الفتيان الذين وصلوا سن البلوغ فى معسكر خاص بهم حيث يتمرسون على بعض الأعمال والحرف ، ويتعرضون لضروب من القسوة والحرمان ، فيحرم عليهم تناول أنواع معينة من الأطعمة كاللحوم والأسماك . ويحظر عليهم حمل السلاح أو استخدامه . ويجتازون اختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال . ويلقنون تقاليد القبيلة ، وعاداتها المحرمات ، والنواهى الخلقية ، والأمور

المقدسة فيها ، كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة ، ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم . وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال والاندماج مرة ثانية فى حياة القبيلة ، يقام حفل لتنصيبهم . وفى هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين وبعثهم من جديد بأسماء جديدة . وتجرى لكل مراهق عملية الختان ، ثم تخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى . وهناك اختلافات فى تفاصيل هذه الطقوس بين الجماعات المختلفة . ولكنها تشترك بوجه عام فى تلك المظاهر التى لخصناها .

ويفسر علماء التحليل النفسى هذه الطقوس القاسية التى يمر بها الفتيان أثناء تنصيبهم ، بأنها تفصح عن الصراع بين مشاعر متباينة ، وتدل على أن شعور الآباء نحو الأبناء ينطوى على تناقض وجدانى يجمع بين العطف والحب فى الشعور الظاهر والكراهية والعداء فى اللاشعور .

الفصل السادس

علاقة السحر بالتطير

تعتبر دراسة سير جيمس جورج فريزر للسحر فى كتابه : « الغصن الذهبى – The Golden Bough » من أوفى الدراسات وأكثرها شمولا ، ذلك لأنها دراسة مقارنة رحبة الأفق عالمية المجال . وقد جمع فريزر بين دفتى هذا الكتاب مئات الأمثلة للسحر من مختلف شعوب العالم البدائية والراقية ، ومن مختلف العصور قديمها وحديثها ، ثم قام بتصنيف هذه الأمثلة وتحليلها ومقارنتها ، واستخلص منها فى النهاية النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما : (١) السحر بالاقتران . (٢) السحر بالتقليد أو بالمحاكاة .

والنوع الأول وهو السحر بالاقتران ينطوى على تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران أو بالاتصال ، وفيه يرمز الجزء للكل . وفى هذا النوع من السحر يزعم الساحر أنه يستطيع إيذاء أى شخص بأن يحصل على أى شىء يرمز له ، مثل قصاصة من ملابسه أو خصلة من شعره أو بقايا أظافره أو سنه المخلوعة . وما يحدث لهذا الجزء يحل كذلك بالكل .

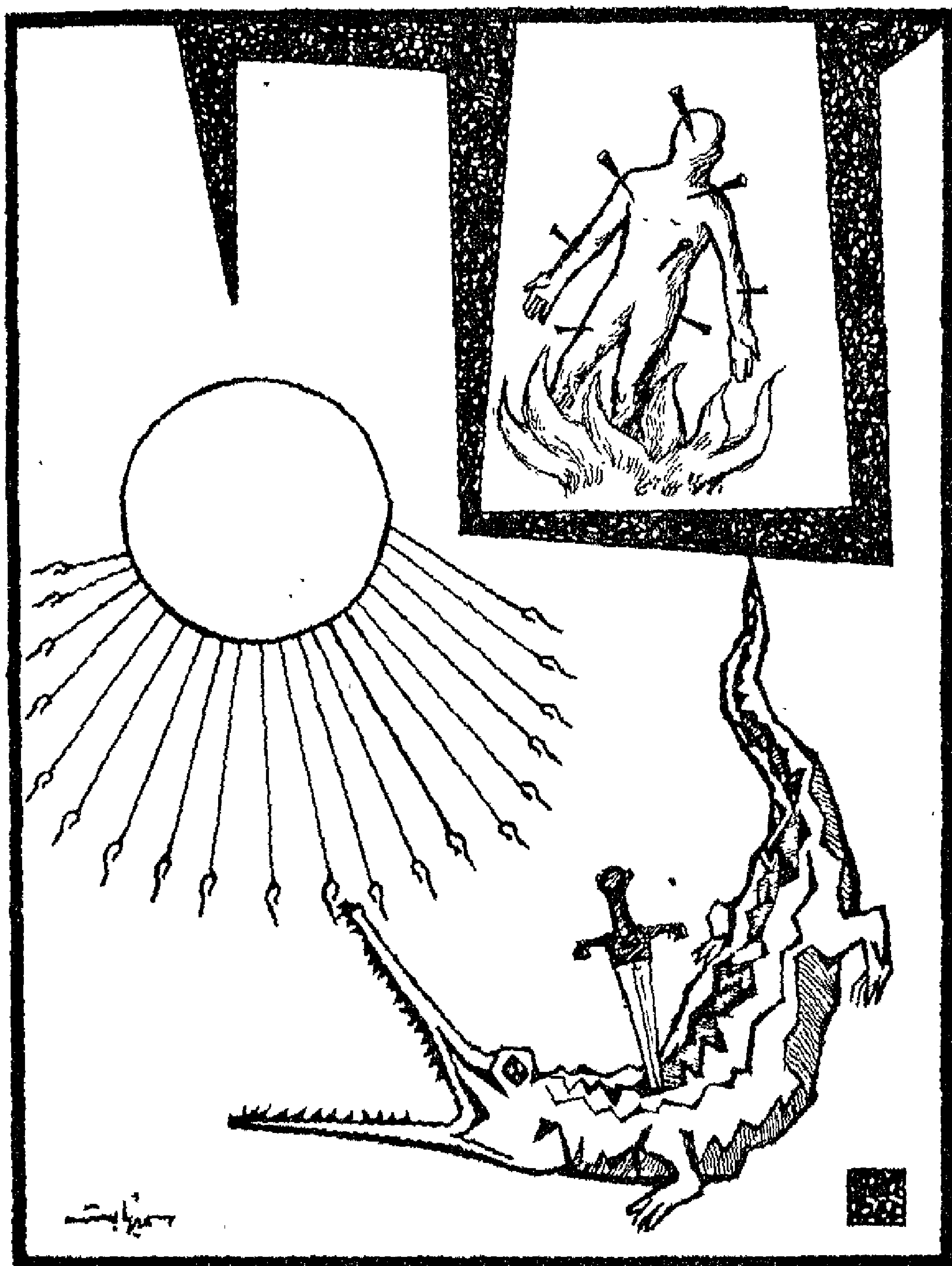
ويعتقد الرجل البدائى أن الصلة بينه وبين أى جزء من جسمه تستمر حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه ، بحيث إذا أصاب هذا الجزء (الشعر أو الدم أو السن أو قلامة ظفر) أى مكروه ، حل بصاحبه هذا المكروه عن بعد ، ولذلك يحرص البدائيون على ألا تقع هذه الأشياء فى يد عدو أو كائد ، لاعتقادهم أن من وقعت فى حوزته هذه الأشياء ، وأراد بصاحبها السوء ، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد . فكل ما يتعرض له الجزء ، يحل أيضاً بالكل أى بصاحبه .

أما النوع الثانى ، وهو السحر بالتقليد أو بالمحاكاة ، فهو تطبيق خاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه . وبمقتضاه يعتقد الساحر أن فى قدرته الحصول على النتائج المرغوبة بتقليدها أو بتمثيلها . وفى هذا النوع من السحر يستعين الساحر على من يريد إيذاءه بدمية صغيرة ترمز له يصنعها من الشمع أو الطين ، فإذا غرس إبرة فى أى موضع من هذه الدمية وكرر ذلك مرات عديدة ، فإنه يتوقع أن يصاب صاحبها فى ذات الموضع من جسمه . ونلاحظ فى هذا النوع من السحر أن شكل الطقوس السحرية ينم عن وظيفتها المرجوة منها ، وأن لكل غرض طقوساً خاصة هي تمثيل ومحاكاة للغرض المطلوب .

وتقسيم الطقوس السحرية إلى هذين النوعين هو لسهولة الدراسة . وفى الحياة العملية يوجد النوعان معاً . ومن أمثلة وجود النوعين معاً تلك الطقوس السحرية التى يقوم بها السحرة فى الملايو . فإذا أراد الساحر منهم بشخص سوءاً ، أخذ قليلا من شعره أو من بقايا أظافره ، وأدخلها فى دمية يصنعها من الشمع المأخوذ من خلية نحل مهجورة . وفى كل ليلة يقرب هذه الدمية من النار ويصليها فوقها بعض الوقت دون أن يحرقها . ويكرر ذلك مدة سبع ليال متوالية . وفى الليلة السابعة يلقى بها فى النار ، ويتوقع عندئذ وفاة صاحبها .

على أن السحر لا يقتصر استخدامه على الإيذاء ، بل يستخدم فى أغراض أخرى بدعوى المساعدة فى الولادة ، وفى علاج الأمراض ، وفى استنزال المطر ، وفى استجلاب الحظ فى الصيد وفى الحرب ، إلى غير ذلك من الأغراض والادعاءات ؛ وكلها تنطوى على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران ، وترابط الأفكار بالتشابه .

ويمكن أن نتعرف فى السحر عند قدماء المصريين على هذين النوعين . فقد كان الكهنة المصريون فى طيبة يقومون بطقوس سحرية للمعبود رع إله الشمس . وهذه الطقوس يراد بها مساعدة



الشمس على الظهور ، وذلك بالتنكيل بعدو الشمس المدعو (إبيبي) ويرمز له بالتمساح . وتتلخص هذه الطقوس فى عمل دمية للتمساح من الشمع يكتب عليها اسمه بالمداد الأخضر ، وتغلف هذه الدمية فى ورق البردى ويرسم على هذا الغلاف رسم آخر للتمساح بالمداد الأخضر ، ويربط بشعر أسود ، ثم يطعنها الكاهن بمدية ، ويطرحها أرضاً ويطؤها بقدمه اليسرى ، وأخيراً يلقى بها فى النار . وكانت هذه الطقوس تتكرر مرات عديدة فى اليوم الواحد . يتضح من هذا المثال بجلاء المبدآن الأساسيان اللذان يرجع فريزر السحر إلى تطبيقهما الخاطئ ، وهما ترابط الأفكار بالاقتران — أى الدمية التمساح ترمز لعدو الشمس ، وترابط الأفكار بالتشابه كأنما التنكيل بعدو الشمس وتكرار ذلك ، يساعد الشمس على الظهور والتغلب على عدوها .

وإلى هذين النوعين تستطيع أن تنسب شتى ضروب الدجل ومختلف صنوف الشعوذة كما توجد بين جميع الشعوب وفى مختلف العصور . ومن الطريف أن كلا النوعين معروف فى مصر . فإلى وقت قريب كان بعض العامة يلجأون إلى الدجالين وبصفة خاصة النساء اللائى يشكون من العقم ، والمرضى بأمراض مستعصية . ويدخل الدجال فى روعهم أنه معمول لهم عمل

سحرى أو كتابة وأنه يستطيع أن يستخرجها . ويفسر الدجال طريقة العمل بأن بعض ذوى النيات السيئة استحوذ على أثر (وتنطق بالمتاء) وهذا الأثر هو أى شيء من متعلقات الشخص الذى عمل له العمل كمنديل يخصه أو قصاصة من ملابسه ، وعمل عليه الكتابة عند أحد السحرة ، ثم دفن هذه الكتابة فى المقابر أو تحت عتبة الباب أو رشها له فى طريقه بحيث يمر عليها . ولو أتيح للقارئ أن يفحص إحدى هذه اللفائف التى يستخرجها الدجال (الكتابة ، أو العمل السحرى) لوجد قصاصة من قماش يزعم الدجال أنها من ملابس الشخص المعمول له العمل ، وورقة بالية مدونة فيها رموز غريبة واسم الشخص واسم والدته ، وأجزاء من عظام ميت وتراب المدفن ، وغالباً ما يشير الدجال بإلقاء هذه اللفافة بمحتوياتها فى الماء الجارى وبذلك يفك العمل ، وتذهب المتاعب إلى غير رجعة .

السحر والتابو :

رأينا أن التطير لمن التابو أو الأمور المحرمة ينتشر انتشاراً كبيراً بين الجماعات البدائية المعاصرة ، وأمثلته كثيرة لا تقع تحت حصر . وقد ذكرنا بعض هذه الأمثلة فى الفصل السابق .

والتابو هو الناحية السلبية للسحر . وينطوى كذلك على التطبيق الخاطئ لترابط الأفكار بالاقتران وترابط الأفكار بالتشابه .

وتوضح الأمثلة التالية العلاقة الوثيقة بين السحر والتابو :

الأسنان المخلوعة :

من العادات الغريبة لدى بعض الجماعات البدائية تحطيم سن أو اثنتين من المقاطع الأمامية فى الفك العلوى فى أثناء إجراء طقوس تنصيب المراهقين والاحتفال بختانهم . وقد أشرنا فيما سبق إلى هذه الطقوس . ولهذه الأسنان التى تخلع فى طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية . لأن هذه الجماعات البدائية تعتقد أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة . فالسن جزء يرمز للكل. وسن الشخص رمز للشخص نفسه . وما يتعرض له الجزء يحل كذلك بالكل عن بعد . ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو قلامة الظفر التى يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع فى يد عدو أو كائد ، لاعتقادهم أن من وقعت فى حوزته هذه الأشياء وأراد بصاحبها السوء ، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد : فكل ما يتعرض له الجزء يحل أيضاً بالكل أى بصاحبه ، بمقتضى السحر بالاقتران ، كما سبق القول .

ويعتقد سكان أستراليا الأصليون أنه إذا دفنت السن المخلوعة أسفل شجرة أو ألقيت فى النهر ، لا يصاب صاحبها بسوء . أما إذا جرى عليها النمل ، أصيب صاحبها بمرض فى فمه . ولا تزال بقايا هذه المعتقدات سائدة عندنا فى الريف حيث جرت العادة بإلقاء أسنان التبديل فى عين الشمس والقول « يا شمس يا شموسة خذى سنة الجاموسة وهاتى سنة العروسة » .

وتحقق الأسنان المخلوعة للبدائيين وظيفة هامة ، ذلك أن شيوخ القبائل يحتفظون بالأسنان المخلوعة فى طقوس تنصيب المراهقين . فالسن المخلوعة بمثابة (الأثر) أو الجزء الذى يرمز للكل فى طقوس السحر . ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأثر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا فى مصير الفتى . لأن من امتلك السن فكأنما امتلك زمام الشخص ، واستطاع بها إذا أراد أن يتحكم فى مصيره عن بعد . فهذه العادة وهى الاحتفاظ بالأسنان المخلوعة ، هى جزء من الطقوس التى تلجأ إليها السلطة الضابطة فى القبيلة لضمان طاعة أفرادها وضبط سلوكهم ، وللمحافظة على تقاليد القبيلة ونظامها ، ولغرس هذه التقاليد ، وضمان استمرارها وعدم الحيد عنها أو الاستخفاف بها .

خصلات الشعر :

إن الاعتقاد فى إمكان السحر بواسطة خصلة من شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه أو أى «أثر» له ذائع الانتشار فى جميع أنحاء العالم . وللشعر قيمة سحرية عند الجماعات البدائية بصفة خاصة . ذلك أن البدائى يعتقد أن الاتصال (الغيبى) يستمر بينه وبين أى جزء ينفصل عنه ، وأن ما يصيب الجزء يحل كذلك بصاحبه حتى بعد أن انفصل الجزء منه . ومن هنا كان لخصلة من شعره ، أو قلامة أظافره ، أو سنة مخلوعة من أسنانه قيمة سحرية ، إذا ما وقعت فى يد عدو أو ساحر يستخدمها فى إيقاع الأذى به .

ويعتبر الشعر عند بعض الجماعات البدائية من الأمور المحرمة « تابو » . والتابو هو الناحية السلبية للسحر . فالسحر عمل إيجابى بمعنى أنه بخصلة من الشعر يمكن عمل العمل السحرى . أما التابو فسلبى ، هو التطير من قص الشعر خوفاً من استخدامه فى السحر . ولذلك يحرص البدائى على ألا تقع قصاصات شعره فى يد ساحر أو عدو يكيد له ، ولذلك يتوخى الحرص فى التخلص من بقايا الشعر ، فيلقى بها فى الماء الجارى ، أو يدفنها

فى الأرض أو فى مكان مأمون . ولا تزال بقايا هذه الاعتقادات فى مجتمعنا الشرقى ، وتبدو فى حرص نساء الجيل القديم على التخلص من بقايا الشعر المتخلف فى المشط بعناية بإلقائه فى المرحاض .

ومن أسباب التطير من قص الشعر ، اعتبار الشعر مكمن القوة ، وقصه ينذر بفقدان هذه القوة . وهو اعتقاد قديم ورد فى التوراة فى قصة شمشون ودليلة ، إذ فقد شمشون قوته حين قص شعره . والاعتقاد بأن الشعر مكمن القوة ، وأن حلقه يؤدى إلى تبديد هذه القوة ، اعتقاد شائع لدى كثير من الشعوب البدائية. فعند زنوج غرب إفريقية طبقة من السحرة يطلق عليهم « صناع الأمطار » وظيفتهم فى كل قبيلة استنزال المطر ! وهؤلاء السحرة يمتنعون عن حلق شعر رؤوسهم طوال حياتهم ، لظنهم أنهم إذا حلقوا رؤوسهم ، فقدوا القدرة على استنزال المطر . وكذلك من كان عليه أن يأخذ بثأر ، احتفظ بخصلة من شعره غير محلوقة حتى يتم له أخذ الثأر ثم يحلقها ، لأن حلقه إياها قبل أن يأخذ بثأره يبدد عزيمته . والأمثلة كثيرة على أن قص الشعر يقترن عند الجماعات البدائية بفقدان القوة . وقد يصل التطير من قص الشعر إلى حد عدم قصه على الإطلاق ، كما يروى عن ملوك الفرنجة القدماء . كذلك تروى قصص

محاكم التفتيش فى العصور الوسطى فى أوربا ، اضطهاد الساحرات وقص شعورهن حتى يفقدن القدرة على السحر .

وينطوى قص الشعر فيما يلوح للبدائى على خطر غيبى . ولذلك تقوم بعض الجماعات البدائية بطقوس معقدة قبل عملية حلق شعر الرأس أو فى أثنائها أو بعدها . والغرض من هذه الطقوس اتقاء الخطر الناشئ من قص الشعر . فعند الماورى – سكان نيوزيلندة الأصليين – تتلى التعاويذ على سكين الصوان الذى يقطع به الشعر . كما أن كل من يقص شعره يعزل بضعة أيام ويصبح بدوره « تابو » . كذلك يعيش الحلاق عندهم فى عزلة ويحرّم عليه الاختلاط بالناس ولا يسمح له بلمس طعامه بيديه ، لذلك يطعمه غيره ويقوم بطقوس معقدة من وقت إلى آخر لتطهير نفسه .

ويحتفظ شيوخ القبيلة فى هذه الجماعات بالشعر المحلوق كرهينة عندهم . به يضمنون حسن سير وسلوك الأفراد الذين يصبحون طوع أمر هؤلاء الكبار الذين ملكوا زمامهم فلا تسوّل لهم نفوسهم الخروج على نظم القبيلة وعاداتها. فوظيفة بقايا الشعر المحلوق عند شيوخ القبيلة كوظيفة الأسنان المخلوعة فى طقوس تنصيب المراهقين. فهى رهائن يحتفظون بها ويستطيعون بواسطتها

التحكم فى مصائر الفتيان ، لأن خصلة الشعر أو السن بمثابة (الأثر) ومن امتلكها فكأنما امتلك زمام صاحبها إذ يمكنه استخدامها فى الأغراض السحرية .

ومجمل القول ، تقع أمثلة التابو فى نوعين رئيسيين هما :

١ ـ الأشياء المحرمة :

وهى الأشياء التى يعتقد البدائيون أنها يمكن أن تستخدم فى السحر مثل : الشعر ـ بقايا الأظافر ـ الأسنان ـ الدم ـ اللعاب ـ الملابس ـ الأثر ـ الاسم ـ بقايا الطعام . . . . وهى ذاتها الأشياء المحرمة أو التابو التى تبعث على التطير . ويعتقد الرجل البدائى أن الصلة بينه وبين أى جزء من جسمه كخصلة من شعره أو دمه أو سنه أو قلامة أظافره أو أى جزء من ملابسه أو أدواته ، تستمر حتى بعد أن ينفصل هذا الجزء منه ، بحيث إذا أصاب هذا الجزء مكروه حل ذلك المكروه به عن بعد . وهذا هو التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران. فالأشياء التى تبعث على التطير ، والتى تعتبر تابو ، كلها بمثابة « الأثر » الذى يمكن أن يستخدم فى السحر بالاقتران . ولذلك يحرص الرجل البدائى حرصاً شديداً على ألا يعرض هذه الأشياء

للخطر ، وعلى ألا تقع فى يد غريم أو ساحر حتى لا يستخدمها فى الإضرار به .

٢ ـ الأعمال المحرمة :

التابو هو الناحية السلبية للسحر . هو الامتناع عن إتيان أعمال خوفاً من نتائجها الضارة . وإذا كان الرجل البدائى يعتقد أنه يستطيع أن يحصل على نتائج معينة بمحاكاتها بطقوس السحر بالتقليد ، فهو يمتنع كذلك عن عمل أشياء يعتقد أنها تؤدى إلى نتائج ضارة . أى يتجنب الأعمال المحرمة أو التابو ، بنفس الطريقة التى يمتنع بها المتطير عن المرور أسفل السلم الحائطى أو فتح المظلة داخل المنزل . وإذا كان الهدف من السحر هو تحقيق الرغبات والحصول على النتائج بتمثيلها ومحاكاتها ؛ فإن هدف التابو ـ أو السحر السلبى كما يسميه فريزر ـ هو النهى عن أعمال خوفاً مما قد يترتب عليها من نتائج ضارة أو خطرة. وبذلك ينطوى تجنب الأعمال المحرمة والتطير منها على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه .

الاستجابة المكتسبة الشرطية :

سبق لنا أن أثبتنا بما لا يدع مجالا للشك طريقة اكتساب

التطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى ، وتجارب بافلوف — (انظر الفصل الثانى). ونستطيع أن نفسر السحر كذلك على أساس الاستجابة المكتسبة الشرطية . لقد رأينا أن فريزر استخلص فى دراسته المقارنة للسحر النموذجين الرئيسيين للطقوس السحرية وهما : السحر بالاقتران ، والسحر بالمحاكاة . وهذا التقسيم هو لسهولة الدراسة. وفى الحياة العملية يوجد النوعان معاً .

ومن الطريف أن هذين النوعين يقابلان ناحيتين متكاملتين فى ميكانيزم الشرطية ورمزيتها . ويتوافر فيهما الشرطا اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية . وهذان الشرطان هما : الجزء الذى يرمز للكل ، والتكرار للتثبت . ففى النموذج الأول ، وهو السحر بالاقتران ، يرمز الجزء للكل ، أى أن شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه ترمز للشخص كله . وفى النموذج الثانى ، وهو السحر بالتقليد، ترمى الطقوس إلى تكرار تمثيل وتقليد الغرض المطلوب . ومثال ذلك وخز الدبابيس فى المسخ المصنوع من الشمع أو من الطين ، وميكانيزم الشرطية فى هذا النوع هو التكرار للتثبيت .

ومما يؤيد صحة تفسير السحر والتطير من التابو على أساس الشرطية ، تلك المقابلة التى نتبينها بين نموذجى السحر (السحر

بالاقتران والسحر بالتشابه) والتطير من التابو أى الأشياء المحرمة والأعمال المحرمة ، وينطوى السحر والتابو كلاهما على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار . (١) فالسحر بالاقتران ، ويقابله التطير من الأشياء والرموز ، ينطوى على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالاقتران . (٢) والسحر بالمحاكاة . ويقابله التطير من الأعمال ، ينطوى على التطبيق الخاطئ لمبدأ ترابط الأفكار بالتشابه. وهذه المقابلة بين السحر والتطير من التابو ، وتفسيرهما على أساس الفعل المنعكس الشرطى . على جانب كبير من الأهمية ، وذلك لأن الشرطية تستند إلى التجريب العلمى.

ولا تقف المقابلة بين السحر والتطير من التابو عند حد اعتبار التطير ناحية سلبية للسحر ، وإمكان تفسير كل من السحر والتطير على أساس الشرطية ، بل إنهما يشتركان فى خصائص أخرى كثيرة ، أهمها :

السببية الخاطئة :

يقوم السحر على السببية الخاطئة ، فنظراً للجهل بأسباب الظاهرات الطبيعية كالمطر ، ينسب سقوطه إلى قدرة الساحر على استنزاله . وفى حالة الجهل بأسباب المرض ، ينسب

المرض إلى فعل السحرة . ولذلك قيل فى تعريف السحر بأنه التماس النتائج من غير أسبابها. وهذا هو الفارق الهام بين السحر والعلم . فالقوانين السببية العلمية ثابتة ومؤكدة ، ويمكن إعادة إجراء تجربتها للتأكد من صدقها وثبوتها . فإذا قلنا إن الحديد يتمدد بالحرارة ، وإن الملاريا ينقلها نوع خاص من البعوض ، فالحرارة هى سبب التمدد ، والبعوض هو حامل ميكروب الملاريا وسبب نقل هذا المرض . وليس تمدد الحديد ولا الملاريا نتيجة أسباب أخرى . أما فى السحر فالنتائج قد ترجع للقضاء والقدر ، أو للمصادفة . وقد ترجع لأسباب كشف عنها العلم ، ومع ذلك تنسب النتائج إلى السحر ، أى إلى غير أسبابها . ومثال ذلك : هب أن النور الكهربائى انطفأ فجأة . سبب ذلك معروف ، ويرجع غالباً لوجود عطل أو خلل فى الأسلاك أدى إلى انقطاع التيار . ولكن هب أن دجالا أطلق البخور وتمتم بالتعاويذ ، فهل تفيد هذه الطقوس فى إعادة النور؟ وعندما يعود النور بعد ذلك فجأة ، فهل تكون عودة النور نتيجة لطقوس الدجال أم لأنه قد تم إصلاح ما فى الأسلاك من خلل ؟ وكذلك يسقط المطر فى الجهات الاستوائية والمدارية فى معظم أيام السنة. وهو يرجع لعوامل مناخية معروفة ، ولكن القدرة على استنزاله تنسب

– عند الجماعات البدائية التى تسكن هذه الجهات – إلى سبب وهمى خاطىء هو الطقوس السحرية. وكذلك خسوف القمر ، وهو ظاهرة كشف العلم بجلاء عن سببها . ولكن العامة تعتقد أن بنات الحور هى التى تخنق القمر ، ويبدو وكأنما دق الصفائح هو الذى يكشف عن القمر غمته ، ويحيل ظلمته نوراً .

والتطير كذلك لحمته وسداه السببية الخاطئة . ونستطيع أن نفسر التطير من كثير من الأمور المحرمة الشائعة بين العامة فى مصر على أساس السببية الخاطئة . فمن المعتقدات السائدة بين العامة اعتقاد قديم مؤداه أن الدخول على المرأة التى قامت من الوضع بلحمة نيئة أو باذنجان أسود أو جريد أخضر أو ذهب بندق يؤدى إلى ما يعرف بالكبس ، فيجف لبن الأم وتسوء صحة الطفل ، أو تصاب الأم بالعقم فلا تحمل بعد ذلك . وهذه الأمور المحرمة التى يظن العامة عندنا أنها تؤدى إلى الكبس ، لها نظائر عند كثير من الجماعات المحدودة المدنية فى المحرمات والنواهى التى ترتبط بولد الطفل تعرف باسم الكوفيد ، التى سنتكلم عنها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب . أما بالنسبة لما يعرف عندنا بالكبس ، فالدافع إلى تحريم الدخول بهذه

الأشياء على السيدة التى قامت من الوضع حديثاً هو الحرص على صحة الأم وصحة الطفل باتخاذ هذه الاحتياطات الوهمية . ونظراً للجهل بالوسائل الطبية الناجعة للمحافظة على صحة الأم وصحة الطفل، نسبت إلى هذه الأشياء القدرة على إحداث الضرر بالطفل الوليد أو بأمه ، وعندما ساد الاعتقاد فى ضرر هذه الأعمال المحرمة ، لم يجسر أحد على تحديها .

ويلوح أن الفترة التى تقترب فيها الحامل من الوضع من الفترات العصبية التى يصحبها الترقب والتوقع. وعندما ترزق الأسرة طفلا يختل النمط الذى تسير عليه حياتها . وليس بمستغرب فى هذه الفترة الحرجة التى تضطرب فيها حياة الأسرة التى طرأ عليها شىء من التغير فى وتيرة العلاقات بين أفرادها ، أن تتخذ الاحتياطات الوهمية والتحريمات التى تبدو فى ظاهرها وكأنما ترمى إلى المحافظة على صحة الأم وصحة الطفل ، ولكن التحليل النفسي يبين أن هذه المغالاة فى الحرص والحذر إنما هى رد فعل أو تعويض يخفى عكس ما يظهر ، ويعبر عن تناقض وجدانى حيال الأم وحيال الطفل ينطوى على المحبة والعطف فى الشعور الظاهر ، ويخفى العداء والكراهية اللاشعورية — كما سيتضح من دراستنا لطقوس الكوفيد .

الفصل السابع

الحالات العصابية من التطير

التطير درجات ودرجات ، يبدأ بالحالات الخفيفة المستمدة من المعتقدات السائدة فى المجتمع ، وينتهى بالحالات العصابية (أى المرضية النفسية) . وقد اعتبرنا الحالات المشروطة للتطير من الرموز والمنبهات الداخلية- كما تبدو فى الأكال والاختلاج- حالات متوسطة ، هى من ناحية أشد فى الدرجات من الحالات الخفيفة التى تكتسب بالمحاكاة من البيئة المنزلية - ومعظمها من الرموز الخارجية - وهى من ناحية أخرى أخف وطأة أو أقل فى الدرجة والشدة من الحالات العصابية .

والفرق بين العصابى والسليم فرق فى الدرجة. إذ أن الحالات العصابية تبدو وكأنما ننظر إليها وهى تحت المجهر فتظهر مكبرة ، ولها نظائر بصورة مصغرة لدى الأشخاص العاديين الذين نصادفهم فى الحياة اليومية . ومع أن الفرق بين العصابى والسليم فرق فى الدرجة ، إلا أن هناك نوعين رئيسيين من العصاب هما : الهستيريا ، والعصاب القهرى ، وهما على طرفى نقيض ، والعلاقة بينها علاقة استقطاب وتناقض . ويتوقف الاتجاه إلى أحد هذين النوعين أو إلى الآخر على التأثير النسبى للدوافع المكبوتة

أو القوى الكابتة . فى حالة الهستيريا يبدو وكأنما تغلبت الرغبات والدوافع المكبوتة . أما فى حالة العصاب القهرى ، فتظهر المغالاة فى الضبط والقمع ، وكأنما تغلبت القوى الكابتة فى العقل أو الضمير .

وهذان النوعان من العصاب على علاقة بنماذج الشخصية ليونج . فالهستيريا هى العصاب الأكثر شيوعاً لدى المنبسط ، على حين أن المرض النفسى الذى يكون المنطوى معرضاً له بصفة خاصة هو العصاب القهرى .

العصاب القهرى :

تدخل الحالات المتطرفة من التطير فى عداد حالات العصاب القهرى أو الوسواس المتسلط . والمصابون بهذا المرض النفسى يحرمون على أنفسهم أشياء كثيرة لا ضرر منها ، دون أن يعرفوا لهذا التحريم سبباً . ولهم فى ذلك تحريمات غريبة . فمنهم من يحرم على نفسه لمس شىء معين . ومنهم من لا يطيق أشياء أو أدوات مما تستخدم فى الحياة العادية ويصر على إبعادها من أمامه ، ولا يستريح ويهدأ له بال إلا إذا تم له ما أراد . ومنهم من يجد نفسه مجبراً على تكرار أعمال معينة دون سبب معقول ، مثل غسل اليدين عدة مرات فى اليوم ، أو عد درجات السلم التى يعرف عددها وقام بعدها فى صعوده وهبوطه عليها كل مرة .

ومنهم من يخاف أن يبدأ سيره بالقدم اليسرى أو يتنجب المشى على الخطوط البيضاء فى الشارع ، إلى غير ذلك من ضروب الوسواس وفنونه التى لا أساس لها من التفكير المنطقى . ويدرك المصاب بهذا الداء إدراكاً واعياً غرابة أطواره ، وأن مخاوفه غير معقولة ولا مبرر لها ، وأن الأعمال التى يحظرها على نفسه أو يعافها ويتهيبها خاصة به دون غيره من سائر الناس . ولكنه لا يملك أن يغير من أمره أو أن يتحرر من مخاوفه . وإذا تصادف ووقع فى المحظور، أو لمس الشىء الممنوع ، أو خرج عن القيود والتحريمات التى فرضها على نفسه ، توقع الشر المستطير ، وانتابه القلق الذى لا يطاق . ومثل العصابى الذى يتجنب أعمالا أو أشياء معينة مخافة أذاها وما ينجم عنها من شر ، كمثل المتطير الذى يمتنع عن إشعال ثلاث سجائر بعود واحد من الثقاب ، أو يتجنب السير تحت سلم الحائط الخشبى ، مع فارق هام هو أن التطير من مثل هذه الأعمال يشترك فيه كثير من الناس ، ويكتسب بالتقليد والمحاكاة ، ويشتق من العادات السائدة فى المجتمع . أما تحريمات المصاب بالعصاب القهرى التى يلتزمها ويرقبها بدقة ، فهى تحريمات خاصة به ، يضعها بنفسه لنفسه ، وتختلف عن التطيرات المنتشرة فى المجتمع .

ومن أعراض العصاب القهرى التشاؤم المفرط وتوجس الشر وتوقع أسوأ الاحتمالات . وهذه هي سمات المنطوى . وغالبية الذين يصابون بالعصاب القهرى ينتمون إلى النموذج المنطوى . والمريض بهذا الداء تختل فى حسه قيم الأعمال والأشياء والأفكار . وقد رأينا أمثلة من الأعمال التى يحرمها المصاب بهذا العصاب على نفسه أو التى يرى نفسه مجبراً على القيام بها ، كما رأينا أمثلة الأشياء التى يعافها ويتهيبها . بقى عالم الأفكار الذى يهيم فيه المصاب بهذا الداء . إنه عالم ملىء بالأفكار السوداء التى تطارد صاحبها وتلاحقه . وفى أحلام يقظته قد يجتر أفكاراً تدور حول الدفاع عن نفسه ضد مايوجه إليه من تهم أو ذنوب لم يقترفها ! ! ومع ذلك يشرد ذهنه فى محاولة تبرئة نفسه منها بالأدلة والبراهين ، الأمر الذى يبين بوضوح أنه كان يتوق فى قرار نفسه إلى ارتكاب هذه الذنوب . وظلت هذه الأفكار فى مستوى ما قبل الشعور دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ وتغلبت القوى الكابتة فى العقل ، قوى القمع والضبط ، فأسفر الصراع عن تيار متصل من الهواجس والوسواس وتأنيب الضمير . فالضمير (أو الذات العليا) هو الذى يقوم بالتحريم والقمع والعقاب ، وهو الذى يضع النواهي والمحرمات والتابوات . ولذلك نرى المصاب بهذا

العصاب يتوجس الشر ، ويستشف الخطر ، ويتوقع الكوارث ، ويتسلط عليه الخوف من أن تحل بعائلته أو بأحد أفرادها كارثة أو مصيبة . وإذا استفسر عن أحد من معارفه يكون قد غاب عنه مدة طويلة ، توقع أن يسمع أنه توفى . وإذا ذكر أى شخص بسوء تسلطت عليه فكرة أنه سيموت قريباً ، فيبهظ كاهله بالشعور بالذنب وبأنه مسئول عن وفاته . وهذه المبالغة فى الشعور بالذنب على جرم لم يرتكبه فعلا ، الدافع إليها لا شعورى نتيجة لتمنياته الشريرة السابقة للغير بالموت .

ومن أعراض العصاب القهرى كذلك ، ما يطلق عليه فرويد « القدرة المطلقة للفكر» أى المغالاة فى تقدير الفكرة النفسية فى الداخل إذا ما قورنت بما يقابلها من حقيقة الواقع فى الخارج ، بحيث يكون المعول عليه هو الفكرة ، فهى قادرة فى حد ذاتها على إحداث التأثير فى الخارج تلقائياً بمجرد ورودها على الخاطر . وإذا ما حاول المعالج أن يكشف عن خبيئة ما فى اللاشعور ، خشى المريض المتطير أن يفصح عن هذه المخاوف ، حتى لا تتحقق فعلا فيرى مكروهاً فى عزيز لديه .

مرض التابو :

يرجع إلى فرويد الفضل فى إثبات العلاقة بين العصاب

القهرى والتابو ، فى كتابه « الطوطم والتابو » الذى أورد فيه أمثلة عديدة للتابو بين الجماعات البدائية ، نقلا عن كتاب « الغصن الذهبى » لفريزر ، وأمثلة أخرى لتحريمات المصابين بالعصاب القهرى . ووازن بين الأمراض فى الحالتين ، فوجد من الخصائص المشتركة بينهما ما دعاه إلى أن يطلق على العصاب القهرى اسم « مرض التابو » .

فالمريض بالعصاب القهرى يضع لنفسه تحريمات خاصة يلزم نفسه باتباعها . وهذه التحريمات مستقلة عن التطيرات المتعارف عليها فى المجتمع ، ولذلك تختلف هذه التحريمات من عصابى إلى آخر . ومع أن العصابى يدرك غرابة أطواره ، فإنه لايدرى عن دوافع هذه التحريمات شيئاً ، ولكنه يجد نفسه مجبراً على الامتناع عن أشياء أو أعمال معينة ، ويحس بقلق شديد إذا لم يلتزم بهذه النواهى والمحرمات ، ويتوقع العقاب الذى لا مفر منه فى شكل خطر محقق يحل بأحد أفراد عائلته .

وقد رأينا أن التابو ينتقل كالعدوى باللمس . فالشخص أو الشىء الذى يلامس شيئاً محظوراً يصبح بدوره محرماً . فمثلا يعتبر رئيس القبيلة عند الماورى محرماً ، وإذا نفخ فى النار ، فإن الخطر يمتد إلى القدر ثم إلى اللحم فى القدر ، فمن يأكله

يتعرض لخطر الموت . وخاصية انتقال التابو من شىء إلى آخر نجدها أيضاً فى الأفعال العصابية القهرية . ونضرب مثلا لذلك حالة سيدة من مرضى فرويد كانت لا تطيق رؤية بعض الأدوات المنزلية أو لمسها . وتلح فى إبعادها من أمامها . وقد وجد بالتحليل النفسى أن سبب ذلك هو أنها عرفت أن زوجها اشترى هذه الأدوات من محل يقع فى شارع معين وليكن اسمه مثلا شارع (شتاج) ، وظهر أن هذه السيدة كانت قبل أن تتزوج قد أحبت رجلا يدعى شتاج ، وأنها تقاوم فى نفسها الرغبة فى العودة إليه . وبذلك أصبح هذا الاسم مستحيلا أى تابو ، ثم انتقلت هذه (الاستحالة) حتى شملت كل شىء يتصل بهذا الاسم من قريب أو بعيد .

وموقف العصابى إزاء التحريمات القهرية التى يفرضها على نفسه ، كموقف البدائى إزاء التابو أو الأمور المحرمة ، كلاهما ينطوى على تناقض وجدانى ، فالمبالغة فى التحريم والقمع فى الظاهر ، تخفى رغبة لا شعورية فى إتيان الأمر المحرم ، لأن كل ممنوع مرغوب ، ولو لم يكن مرغوباً لما كانت هناك ضرورة لتحريمه أو منعه . وأداة التحريم والمنع عند الجماعات البدائية هى السلطة الضابطة فى المجتمع ممثلة فى رؤساء القبيلة وشيوخها

الذين يرغمون أفرادها على احترام الأمور المحرمة . وأداة التحريم والقمع عند المصاب بالعصاب القهرى هى القوى الكابتة فى العقل أى الضمير أو الذات العليا .

ومثل التحريمات العصابية القهرية ، كمثل الأمور المحرمة أو التابو يمكن التكفير عنها بالقيام ببعض طقوس التطهير التى تبدو كالأفعال الوسواسية المتسلطة التى تلح على المريض ويجد نفسه ملزماً أو مجبراً على القيام بها ، مثل غسل اليدين عدة مرات فى اليوم أو التزام نظام معين فى الاستحمام والخلع واللبس ، إذا حاد عنه بدأ من جديد . وهذه الأفعال المتسلطة التى تتكرر فى صورة رتيبة أشبه بطقوس التطهير أو التكفير عن الأمور المحرمة عند البدائيين . وعلى ذلك يمكن تلخيص الخصائص المشتركة بين التابو وأعراض العصاب القهرى فيما يلى :

١ ــ عدم وجود دافع شعورى للتحريمات أو النواهى . فالعصابى لا يدرى شيئاً عن الدوافع التى تجبره على وضع التحريمات القهرية التى يلزم نفسه بها . كما أن البدائى لا يستطيع أن يقدم تفسيراً واضحاً للأمور المحرمة أو التابو . وذلك لأن الدافع فى كلتا الحالتين لاشعورى .

٢ ــ الإلحاح الداخلى المتسلط فى التحريمات القهرية وفى

الأمور المحرمة أو التابو . وصفة الإلزام والجبر : وشعور الإنسان بقلق شديد إذا لم يراعيها بدقة . وتوقع العقاب الذى لا مفر منه إذا حاد عنها .

٣ — قدرتها على الانتقال من شىء إلى آخر والانتشار كالعدوى باللمس أو بغيره . فالماورى لا يذوق اللحم الذى نضج فى قدر وضع على نار نفخ فيها شيخ القبيلة . والعصابى القهرى لا يطيق أن يضع فى منزله شيئاً يذكره بشخص آخر صار يكرهه كراهية التحريم ، ولا يطيق أن يرى ما يذكره به .

٤ — الأمور المحرمة فى التابو وفى العصابى القهرى تخفى رغبة لا شعورية فى إتيانها . فأساس المحظور شىء يمنع ويحرم وينطوى على رغبة كامنة ملحة فى استباحته . وكل ممنوع يمنع رغبة .

٥ — الأمور المحرمة فى التابو وفى العصابى القهرى تملى على من تتسلط عليه فعل عمل معين دائماً لا يستطيع أن يتحرر منه ، يتكرر فى صورة معينة لا تتغير حتى يصير بمثابة نوع من الشعائر أو المراسيم ، ينشأ من الشىء المحرم ، ويرمى إلى التكفير عنه .

على أن هناك اختلافات بين التابو والعصاب القهرى أهمها :

١ — العصابى القهرى هو الذى يضع التحريمات والنواهى الخاصة به . فهو يضع لنفسه بنفسه تطيرات أو تابوات خاصة به مستقلة عن الأمور المحرمة السائدة فى المجتمع ، بعكس

البدائى الذى ينقل عن آبائه الأمور المحرمة القديمة المتعارف عليها فى قبيلته أو فى مجتمعه .

٢ ـ الرجل البدائى يخشى أن يخرق التابو خوفاً من الأضرار الوخيمة التى تقع عليه أو على قبيلته . أما المصاب بالعصاب القهرى فهو لا يخاف من أن يقع العقاب على شخصه ، بل على أحد أقاربه ، أو أحد أفراد عائلته .

* * *

لابد أن القارئ قد لاحظ أننا فى دراستنا للتطير لم نتقيد بمنهج مدرسة معينة من مدارس البحث فى العلوم الاجتماعية والنفسية ، وإنما اصطنعنا المنهج الملائم لطبيعة المشكلة ، وهو المنهج الذى يأخذ بأحسن ما فى مبادئ الأنثربولوجيا والتحليل النفسى وتجارب الفعل المنعكس الشرطى ، بالنسبة لموضوع البحث . فكل من هذه المدارس يلقى ضوءاً على ظاهرة التطير من زاوية خاصة . وعلى ضوء العلاقات الكثيرة التى أوجدناها بين : التطير والفعل المنعكس الشرطى ، وبين التطير فى مجتمعنا والتابو فى المجتمعات البدائية ، وبين السحر والتطير ، وبين التابو والمرض النفسى ، نتناول — فى الفصل التالى — بالتحليل المفصل مجموعة من الأمور المحرمة التى ترتبط بمولد الطفل ، والتى تعرف باسم الكوفيد .

الفصل الثامن

الكوفيد

من العادات القديمة التى كانت منتشرة عند كثير من المجتمعات البدائية والمتخلفة ، عادة غريبة ترتبط بمولد الطفل ، يطلق عليها علماء الأنثربولوجيا اسم الكوفيد . فعندما ترزق الأسرة طفلا ، يتصنع الأب القيام بدور الأم ، ويعتكف فى الفراش بضعة أيام . ويحرم على نفسه كثيراً من الأمور : فيمتنع عن تناول أنواع معينة من الأطعمة ، ويتجنب القيام بأى عمل عنيف ، ولا يلمس أى نوع من الأسلحة . أما الأم الوالدة فتقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية .

وكلمة كوفيد Couvade مشتقة من الكلمة الفرنسية Couver أى يرقد على البيض ليفقس . مع أن هذه العادة لم تعرف مطلقاً فى فرنسا .

والكوفيد عادة قديمة . وقد وصف ديودور الصقلى هذه العادة عند سكان جزيرة كورسيكا القدماء بقوله : عندما يولد طفل لا يهتم أحد بالأم ، فبدلا من أن تستريح بعد الوضع ، تقوم لتمارس أعمالها العادية . أما الأب فيلزم فراشه بضعة أيام

ويحاط بالعناية . وكذلك وصف ماركو بولو هذه العادة . ففى الصين ، عندما تضع الزوجة طفلا ، تقوم بعد الوضع بساعات لتمارس أعمالها اليومية . أما الزوج فيعتكف فى فراشه ولا يبرحه لمدة شهر كامل .

وتنتشر هذه العادة فى كثير من أنحاء العالم ، فتوجد فى أمريكا الجنوبية فى معظم البرازيل . وكانت معروفة عند الهنود الحمر فى كليفورنيا ، وعند الدرافيدا فى جنوب الهند ، وفى ملبار وعند الداياك فى جزيرة بورنيو ، وفى جزيرة سلبيس ، وفى جزيرة لوزون بالفلبين ، وفى اليابان . وكانت موجودة فى كورسيكا وعند الباسك فى شمال أسبانيا . وإذا استعرضنا مدى انتشار هذه العادة ، تبينا أنها توجد فى أمريكا الجنوبية وفى جنوب شرق آسيا بصفة خاصة . ولكنها لا توجد عند بعض الجماعات البدائية كالأستراليين القدماء أو زنوج أفريقية . كذلك لا توجد هذه العادة فى المجتمعات الحديثة الراقية . وعلى ذلك يمكن القول بأن الكوفيد يوجد بصفة خاصة عند الجماعات التى تعتبر وسطاً بين الجماعات البدائية القديمة المتأخرة ، والجماعات المتحضرة .

وتتشابه طقوس الكوفيد فى الجوهر ، ولا تختلف بين

الجماعات التى تمارس فيها إلا فى بعض التفاصيل . كما يتضح من الأمثلة التالية :

فى جنوب الهند : عندما تحس امرأة من قبائل الدرافيدا أنها أوشكت أن تضع ، تخبر زوجها . فيرتدى عندئذ بعض ملابسها ، وينقش على جبهته العلامة المميزة للنساء ، ويعتكف فى حجرة مظلمة ، ويلزم فراشه . وبمجرد أن يولد الطفل يغسل ثم يوضع بجانب والده ، الذى يناولونه الأدوية والمشروبات التى تحتاج إليها عادة المرأة التى قامت من الوضع . ومعنى ذلك أن تنصرف العناية إلى الأب بدلا من الأم .

وفى جزر سليمان فى جنوب المحيط الهادى ، تمتنع الحامل عن تناول أطعمة خاصة ؛ وقرب نهاية مدة الحمل تقام بعض الطقوس لتسهيل عملية الوضع . وعندما تشعر الحامل باقتراب موعد الوضع تخبر زوجها ، فيحضر لها إحدى قريباتها لتقيم معها ، ثم يذهب إلى كوخ آخر يعتكف فيه ولا يبرحه مدة ثلاثة أيام . وفى هذه المدة يحرم على نفسه رفع أى شىء ثقيل الوزن ، أو لمس سكين أو فأس أو أى آلة قاطعة ، لاعتقاده أنه إذا فعل ذلك أضر بصحة الطفل . وفى اليوم الرابع يسمح له بالذهاب إلى كوخ الأم ليرى الطفل . وفى اليوم الخامس يذهب مع

زوجته للاستحمام فى البحر ، ويباح لهما بعد ذلك مزاولة أعمالهم العادية .

وعند الداياك فى جزيرة بورنيو ، قبل أن يولد الطفل ، يمتنع الأب عن تناول الآلات القاطعة أو الصيد أو الأعمال العنيفة حتى لا يؤذى الطفل فى بطن أمه . وبعد أن يولد الطفل يعتزل الأب وحده بضعة أيام فى كوخه ، ويقصر غذاؤه على الأرز والملح حتى لا يؤذى معدة الطفل الوليد !

وعند الهنود الحمر فى غيانة ، تواصل الحامل أعمالها العادية إلى ما قبل الوضع بساعات قليلة ، عندما تذهب إلى داخل الغابة يصحبها لفيف من النساء لتضع . وفى مدى ساعتين أو ثلاث ساعات بعد الوضع تعود إلى ممارسة أعمالها العادية . أما الأب فيلجأ إلى كوخه ليعتكف فيه ، ويحرم على نفسه الغذاء المعتاد ، ويكتفى بقليل من الفاكهة ، كما يمتنع عن التدخين أو الاستحمام . وتقوم على خدمته نساء القبيلة عدة أيام قد تطول إلى أسابيع .

وفى جزر البحر الكاريبى ، عندما يولد الطفل تقوم الأم لتمارس أعمالها اليومية. أما الأب فيعتكف فى كوخه ولا يبرحه . ويصوم مدة ثلاثة أيام ، ثم يحرم على نفسه بعد ذلك بعض

الأطعمة مثل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة . ولحم الطيور والأسماك ، حرصاً على عدم إيذاء الطفل الوليد . وفى نهاية مدة أربعين يوماً ، يقبل عليه أصدقاؤه فيدمون جلده بأسنان بعض الحيوانات ، وعليه ألا يظهر أية علامة على الألم حتى يشب ابنه شجاعاً ، لأنه إذا تألم أو صرخ ، فقد يشب ابنه جباناً . وبعد ذلك يأتون بفلفل أسود مطحون ويدلكون به جسمه فى المواضع الدامية .

تفسير الكوفيد :

يقسم علماء الأنثربولوجيا المعنيين بدراسة حضارات الجماعات البدائية عادات الكوفيد إلى نوعين :

النوع الأول : هو الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل . ويوجد فى جنوب الهند بصفة خاصة . وهو يقوم على تحريم تناول بعض أنواع الطعام على الوالدين قبل ولادة الطفل أو بعدها فيمتنعان عن أكل لحم الخنزير أو لحم السلحفاة مثلا ، اعتقاداً منهما أن لحومها تؤذى معدة الطفل . كما يعتقد البدائيون كذلك أنه إذا تناول الأب أو الأم من لحم بعض الحيوانات ، فإن خصائص هذه الحيوانات تنتقل إلى الطفل . فمثلا تعتقد قبائل

الهوتنتوت فى جنوب غرب أفريقية أن الحامل لو أكلت لحم الأسد ، فإن الطفل يكتسب شجاعته . وهناك تحريمات أخرى تسرى على الأب ، فيحرم عليه تناول الأسلحة ، أو الاشتراك فى الصيد أو القيام بالأعمال العنيفة ، خوفاً من إيذاء الطفل .

والنوع الثانى : هو الكوفيد القائم على تمثيل الأم ، ويوجد فى أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . وفيه يعتكف الزوج ويلازم الفراش بدلا من الزوجة التى تقوم بعد الوضع لتمارس أعمالها العادية .

ويعتقد البدائيون أن فترة الوضع من الفترات العصبية التى تتيح فرصة مؤاتية للأرواح الشريرة التى تكون متربصة للأم والطفل متحفزة لإنزال الضرر بهما . ولذلك يتكفل الأب بحراستهما من القوى الغيبية الشريرة ، فهو إذ يقوم بدور بديل للأم ويحل محلها ، إنما يخدع الشياطين ويضللها . فلا تلتفت إلى المرأة التى تقوم بأعمالها العادية ، وإنما تلتفت إلى الرجل الذى حل محلها ، باعتبار أنه أقدر على احتمالها من الأم .

وهذا التقسيم لسهولة الدراسة . لأنه غالباً ما يوجد النوعان من طقوس الكوفيد معاً . ويندر أن يوجد النوع الواحد منهما فى شكله الخالص المطابق لهذا التقسيم . وكثيراً ما يختلط النوعان

من الكوفيد ، فترمى طقوسه إلى حماية الطفل والأم معاً .

يرى فريزر أن طقوس الكوفيد تشبه طقوس السحر ويتعرف فيها على النوعين الرئيسيين للسحر وهما : السحر بالاقتران والسحر بالمحاكاة . فطقوس الكوفيد التى ترمى إلى حماية الطفل بتحريم بعض المأكولات على الأب تقابل السحر بالاقتران ، إذ يعتقد الأب أن ابنه جزء لا يتجزأ منه ، وأن ما يحدث للأب ، يحدث كذلك للابن . فإذا أكل الأب طعاماً عسيراً ، مرض الطفل أو أحس بألم فى معدته . أما طقوس الكوفيد التى تقوم على تقليد الأب لدور الأم ، فترمى إلى تيسير الولادة على الأم ، وتقابل السحر بالتقليد والمحاكاة ، فيقوم الأب بالتزام سريره حتى يحمل عن الأم آلام الوضع ويحولها إلى نفسه ، وكأنما تمثيل الشىء بما يشابهه يحققه ، وتقليد الفكرة يؤدى إلى حدوثها .

تفسير الكوفيد فى ضوء التحليل النفسى :

أفرد ثيودور ريك فى كتابه « الطقوس » (Ritual) فصلا رائعاً عن الكوفيد قدم فيه تفسيراً لطقوسه فى ضوء التحليل النفسى . واتخذ تقسيم فريزر لنوعي الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل ، والذى يقوم على تقليد دور الأم أساساً لدراسته .

الكوفيد الذى يرمى إلى حماية الطفل :

الأمور المحرمة فى هذا النوع من الكوفيد تقضى بالامتناع عن تناول أنواع خاصة من المأكولات ، وتقييد السلوك بتحريمات أخرى كعدم استعمال الأسلحة أو القيام بأعمال عنيفة. وقد رأينا أن فريزر يفسر هذا النوع من الكوفيد بأنه ضرب من طقوس السحر بالاقتران ، فما يصيب الأب ، يصيب الابن كذلك . ولكن كيف يضار الابن إذا ما احتطب الأب أو أكل لحم السلحفاة ؟

قد تلقى أعراض العصاب القهرى بعض الضوء على سلوك البدائى . وعندما يصادف رجال التحليل النفسى مثل هذه التحريمات عند العصابيين ، فإنهم يتبينون أن دوافعها اللاشعورية هى النزعات العدائية الشريرة المكبوتة حيال الطفل ، التى تظهر فى رد الفعل لها عند الأب فى الحرص والإشفاق على صحة الطفل ، والمغالاة فى الاهتمام به . إن الوسواس المتسلط الذى يحرم على العصابى إتيان أعمال معينة خشية أن يصاب أحد المقربين إليه بسوء تشبه تحريم الأب البدائى على نفسه الأعمال العنيفة أو استعمال السلاح أو تناول أنواع خاصة من الطعام ، إشفاقاً

على ابنه من أن يصاب بمكروه . ومنشأ التحريم فى كلتا الحالتين هو الصراع بين النزعات العدائية القاسية المكبوتة فى اللاشعور نحو الطفل من ناحية ، والمحبة الواجبة نحوه والعطف والإشفاق عليه فى الشعور الظاهر من ناحية أخرى . وقد يكون تحريم الأفعال العنيفة أو تناول الأسلحة على الأب مرجعه اعتبارها أفعالا بديلة لتحقيق النزعات العدائية القاسية المكبوتة حيال الطفل . وبذلك تكون التحريمات والتابوات الخاصة بالطفل الوليد عند البدائيين ، ونظائرها عند العصابيين ، منشؤها واحد هو النزعات العدائية القاسية المكبوتة نحو الطفل التى تفصح عن نفسها فى المغالاة فى الحرص والإشفاق عليه . ويمكن أن نتبين الفارق الهام بين التابو عند البدائيين وعند العصابيين ، وهو أن البدائى يتجنب خرق التابو خوفاً من الضرر الذى ينزل به هو ، أما العصابى فيمتنع عن إتيان الأمور المحرمة خوفاً من الضرر الذى يحل بأحد المقربين إليه . فسلوك البدائى هو سلوك أنانى ينطوى على الأثرة ، أما سلوك العصابى فهو سلوك غيرى ينطوى على الإيثار .

الكوفيد القائم على تقليد الأم :

يقوم هذا النوع من طقوس الكوفيد على محاكاة الأب لدور

الأم ، فيعتكف ويلازم الفراش ، بقصد تيسير الولادة على الأم وتخفيف آلام الوضع عنها بمقتضى السحر بالمحاكاة ، وكأنما يؤدى تقليد الفكرة إلى حدوثها . وإذا كان الغرض من اعتكاف الرجل هو تيسير الوضع على الأم وتخفيف آلامها اعتقاداً منه فى السحر بالمحاكاة ، فما الدافع إلى ذلك ؟ هل هو خداع الشيطان وتحويله من الأم إلى الأب ؟

يبين لنا التحليل النفسى أن الاعتقاد فى الأرواح والشياطين إن هو إلا إسقاط[1] فى العالم الخارجى لنزعات العداء والكراهية المكبوتة . فإذا وجد صراع لاشعورى بين نزعات متعارضة كالحب والكراهية نحو شخص معين ، فإن مما يخفف من حدة التوتر والصراع إسقاط النزعات العدائية فى العالم الخارجى فى صورة شيطان .

ويمكن أن نفترض أن علاقة الرجل بامرأته تقوم على

---

(١) الإسقاط عملية لاشعورية تشبه العملية التى يقوم بها جهاز العرض السينمائى . فالصورة التى نشاهدها على الشاشة ليس مصدرها الشاشة ، ولكنها أسقطت عليها من الفانوس أو آلة العرض . وكذلك الإسقاط فى الميدان النفسى هو عملية لاشعورية يتم بفضلها الشخص إخراج ما بداخل نفسه من مشاعر محظورة أو مؤلمة ، ونسبة هذه المشاعر إلى العالم الخارجى وكأنها صادرة عنه وليست نابعة من النفس ذاتها .

التناقض الوجدانى ، وتنطوى على الحب والكراهية فى آن معاً بحيث يكون الحب فى الشعور الظاهر ، أما الكراهية أو العداء فتكون لاشعورية . وهذه المغالاة فى الإشفاق على الزوجة الأم ومحاولة تيسير عملية الوضع وتخفيف آلامه عنها بالسحر بالمحاكاة ، قد تكون رد فعل لا شعورى يخفى نزعات العداء المكبوتة حيال الزوجة .

كذلك يرى التحليل النفسى أن هذا التقليد وتلك المحاكاة التى يقوم فيها الأب بدور الأم ، هى مظهر للتقمص الذى كثيراً ما نصادفه فى حالات العصاب بل فى الحياة العادية . وبذلك تكون الدوافع اللاشعورية لطقوس الكوفيد التى تجعل الرجل يتقمص دور امرأته الحامل فيعتكف ويلازم فراشه هى النزعات العدائية القاسية المكبوتة فى لاشعوره نحو زوجته . وهذه النزعات العدائية اللاشعورية يقابلها فى الشعور الظاهر رد فعل أو تعويض يبدو فى الإشفاق والمبالغة فى الحرص والقلق على سلامة الأم ، والرغبة فى تيسير عملية الوضع وتخفيف آلامه بطقوس السحر بالمحاكاة . ويظهر الصراع اللاشعورى فى نفس الرجل بين هذه النزعات المتعارضة بصفة خاصة.فى حالة إشراف الأم على الوضع وتسقط هذه النزعات اللاشعورية الشريرة فى

الخارج فى صورة الشيطان الذى يتربص ويتحفز للإيذاء فى هذه الفترة العصيبة .

ويتفق هذا التفسير إلى حد كبير مع تفسير فريزر ، ويمتاز عنه بأنه يبين الدافع اللاشعورى للكوفيد القائم على تقليد الأم ، ولا يقتصر على تفسير أعراضه الخارجية . كما أن تفسير فريزر لا يبين لنا لمَ يبقى الرجل فى فراشه مدة قد تطول إلى شهر أو أكثر بعد انتهاء عملية الوضع ، فى حين تعود زوجته إلى ممارسة أعمالها اليومية العادية . لو أن الغرض من طقوس الكوفيد كان غرضاً سحرياً لانتهى بانتهاء عملية الوضع . والتحليل النفسى يفسر استمرار اعتكاف الرجل بأنه تعبير عن استمرار وجود الدوافع العدوانية والصادية اللاشعورية فى نفس الرجل ، كما أن استمرار اعتكافه قد يهدف إلى حماية زوجته من نزعاته الجنسية الصادية نحوها .

ولا يفوتنا — فى ختام هذا البحث — أن نشير إلى حقيقة هامة وهى أن معظم الجماعات البدائية التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب ، قد أخذت بأسباب المدنية الحديثة نتيجة لاتصالها بغيرها من الثقافات والشعوب ، فتغيرت معالم حضارتها القديمة ، واختفى كثير من العادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس التى

كانت تميز هذه الحضارات . ولذلك فإن الكثير من الخرافات والتطيرات التى كانت منتشرة بين هذه الجماعات حتى مطلع القرن الحالى ، لم يعد له – فى الوقت الحاضر – وجود ، إلا كبقايا مترسبة فى معتقدات الناس ، تخلفت من آثار الماضى .

خاتمة

هذه الرحلة الطويلة فى مجاهل التطيرات والتصورات الخاطئة ، ظهرت لنا أن التطير يتفشى مع الجهل والتأخر بين السذج والبسطاء من العامة ، وينتشر بين الجماعات البدائية المعاصرة ، كما أن له نظيراً فى بعض الأمراض النفسية . فهو ظاهرة شاذة . والرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ، ولا يتوجس منها شراً . إن ضرر التطير لمن خافه وخشى مغبته ، وينعدم أثره عند من يغفل شأنه ويسقطه من حسابه ولا يبالى به . ولا بد أن يؤدى انتشار التعليم والثقافة إلى تبديد سحب هذه الخرافات والتطيرات .

وقد نهت جميع الأديان عن التطير . وهذه الآية من التوراة تنهى حتى عن التفاؤل : « متى دخلت الأرض التى يعطيك الرب إلهك ، فلا تتعلم أن تفعل مثل رجس تلك الأمم . لا يوجد فيكم من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يتعاطى عرافة ، ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جاناً أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » تثنية ، إصحاح ١٨ .

وكان التطير شائعاً عند الكثيرين من العرب فى الجاهلية حتى تكدر بذلك عيشهم وفسد دينهم وتفتحت عليهم أبواب الوسوسة . فلما أقبل الإسلام نهى النبى عليه السلام عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » . وعن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير . وذكرت الطيرة عند رسول الله فقال : « من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك . اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

الفهرست

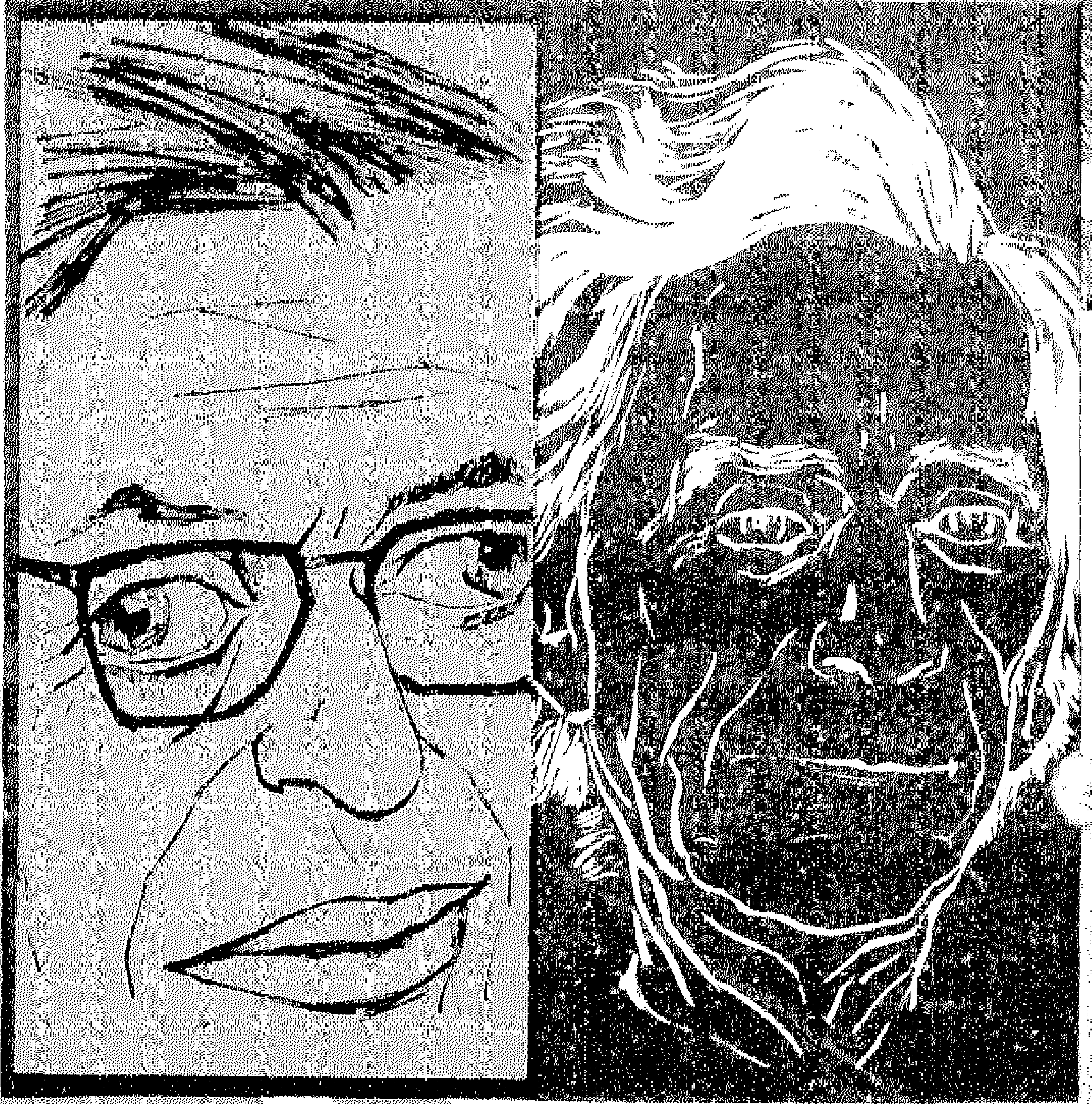
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

Mahmoud

إقرأ

حوار مع

برتراند رسل وسارتر



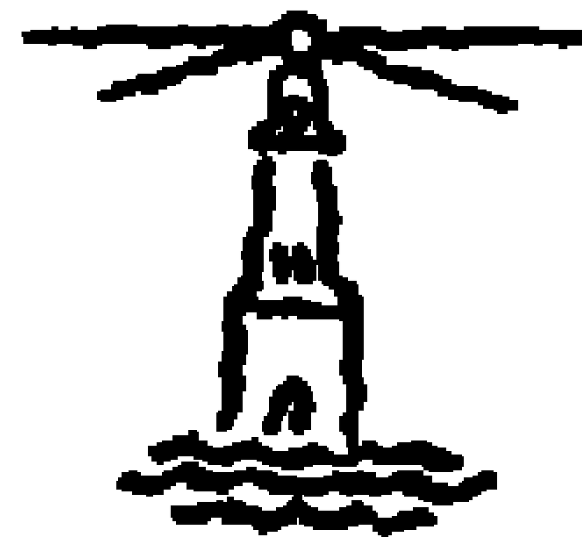
لطفى الخولى

دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

لطفى الخولى

حوار مع

برتراند رسل وجان بول سارتر

اقرأ ٣١٠

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٠ – اكتوبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م

هذا الحوار

يدور هذا الحوار مع عقلين ، هما بلا جدال، من أنبغ وأنشط عقول عالمنا المعاصر، وأعنى بهما الفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » ، والفيلسوف الفرنسى « جان بول سارتر » .

والحق أنهما ليسا من نوع الفلاسفة الذين يلوذون بالصمت إلا عن الجدل الفلسفى النظرى داخل أبراجهم العاجية ، فإذا ما تحركوا لم يخطوا إلى أبعد من قاعات الجامعات . لا .. إن « رسل » و « سارتر » من فلاسفة الحركة والنشاط الفكرى والعملى فى قلب الحياة المعاصرة ، دفاعاً عن الإنسان : حريته وأمنه ومستقبله فى عالم متطهر من الاستبداد والاستعمار والحرب والاستغلال .

ولعل هذا هو ما جعلهما — رغم اختلاف اتجاهاتهما الفلسفية — يوحدان جهودهما فى عمل مشترك هام ، وهو محاكمة العدوان الأمريكى على شعب فيتنام .

ولقد أتاحت لى الظروف أن أتعرف عليهما عن قرب ، وأن يفتح لى كل منهما — برحابه — باب بيته وعقله . ومن هنا كان حوارى معهما .

وإذا كان هذا الحوار قد أكسبنى — ذاتيًّا — متعة وفائدة عظيمتين ، فقد كان أيضاً طريقاً لعرض قضايا الوطن العامة التى تشغل اهتمام ونضال شعوبنا العربية أمام هذين العقلين الكبيرين .

وليس هناك بديل عن الحوار ، إذا أردت أن تكسب لقضيتك مناصرين ومتفهمين ، وخاصة من وزن « رسل » و « سارتر » . فإن إيمانك « بعدالة قضيتك » لا يكفى لكى يراها الآخرون عادلة ، وإنما هم يرونها عادلة إذا اقتنعوا بذلك . وللإقناع طرق متعددة . . دراسة وثائق ، معاينة على الطبيعة إلخ . . . ولكن يبقى دائماً « الحوار » فى كل الظروف ، الطريق الهام والذى يجب استمراره دون انقطاع .

ونحن نقع فى خطأ فادح إذا رفضنا الحوار مع « الغير » لمجرد أن هذا « الغير » قد أخذ فى يوم ما موقفاً معادياً منا ، أو أن له رأياً مسبقاً بالنسبة لنا أو لعدونا لا نقره عليه ، أو أنه لا يتفهم قضيتنا على النحو المطابق مطابقة شاملة لفهمنا لها .

إن هذا الرفض — فوق أنه موقف عاطفى لا عقلى — يعنى تأمين كسب العدو لهذا الغير من ناحية ، كما يعنى تقوقعنا وجمودنا عن الحركة من ناحية أخرى . وبالتالى فهو غير علمى وغير ثورى معاً .

ولا يكفى أن نسوق فى تبرير هذا الرفض الحجة القائلة إنه لا فائدة من الحوار مع هذه العقول ، التى رغم نضجها وخبرتها ، لا ترى وجه العدالة فى القضية ، فهذا — ليس فقط — نوع من الكسل العقلى ، وإنما هو أيضاً تجاهل لحقيقة موضوعية أكدتها الأحداث التاريخية . وأعنى بها ، أن هذه العقول الكبيرة ترى الأمور والقضايا من مواقع جغرافية وتاريخية وفكرية ونفسية مختلفة عن مواقعنا ، وبالتالى فزوايا الرؤية بالضرورة ليست متطابقة مع زوايا رؤيتنا . وكذلك فإن هذه العقول رغم نضجها العام ، تظل أسيرة — بحدود نسبية — لما يلقى إليها يومياً — عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون والكتب — من تلوين خاص للأحداث ، فضلا عن نشاط الدعاية المضادة واتصال كتابها ومفكريها بهذه العقول فى حوار متصل ومتعدد الوجوه .

ولذلك فنحن نجد كثيراً من العقول الناضجة والكبيرة فى أوربا مثلا تناصر — بوجه عام — نضال شعوبنا العربية ضد

الاستعمار والتخلف والاستغلال ، ولكنها — نتيجة ظروف خاصة — تتحفظ إزاء نضالنا ضد الواقع الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين بالذات . ولعل فى مقدمة هذه الظروف الخاصة رد الفعل التاريخى لدى المثقفين فى أوربا تجاه حملات الإبادة النازية لليهود . وما يقع نتيجة لذلك من خلط بين المشكلة اليهودية والصراع العربى الإسرائيلى .

إن كلا من « رسل » و « سارتر » ، يمثل اتجاهاً بين المثقفين فى أوربا ، يدرك نضال شعوبنا العربية نحو التحرر والاشتراكية والوحدة ويتعاطف معه ، وعلى الرغم من ذلك فهو فى بعض القضايا الأساسية ، ما زال لا يتفهم بعمق وشمول وجهة النظر العربية مما جعله يتخذ مواقف معينة لا تتفق وحقيقة هذا الواقع ، ويتجلى هذا بشكل واضح فيما يتعلق بوضع وطبيعة دور إسرائيل وحقيقتها الموضوعية ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف الجذرى ، بل بسبب هذا الاختلاف يجب أن نتعرف — برحابة صدر — على وجهة نظر هؤلاء المثقفين ، وأن نثابر — من أرضية موضوعية وثورية — على الحوار معهم ، فنحن أصحاب قضية عادلة لا ينبغى أن نكف لحظة واحدة عن الدفاع عنها حتى تقتنع بها كل العناصر المعادية للاستعمار ، التى هى موضوعياً

وفى المدى الطويل قوة مناصرة لنا ، تاريخياً .

وانطلاقاً من هذا التحليل ، حرصنا فى « الأهرام » و « الطليعة » ، على فتح أبواب الحوار مع جميع العقول الكبيرة فى عالمنا المعاصر ، والتى تترك بصماتها الواضحة على حركة الإنسانية ضد الاستعمار والعدوان والاستغلال .

وفى هذا الكتاب أقدم نص الحوار الذى أجريته مع كل من : « برتراند رسل » و « جان بول سارتر » .

والحوار مع « رسل » وقع خلال شهر سبتمبر عام ١٩٦٥ بمنزله بمقاطعة ويلز ببريطانيا ، وأما الحوار مع « سارتر » فقد وقع خلال شهر يونيو عام ١٩٦٧ بعد العدوان الإسرائيلى الاستعمارى وذلك بمنزله بباريس .

وإذا كان الحوار الأول قد تميز بطرق موضوعات عديدة من بينها قضية فلسطين ، فإن الحوار الثانى تركز — بسبب توقيته بعد العدوان — على قضية الصراع العربى الإسرائيلى فحسب .

وقراءة نصوص كل من الحوارين ، تكشف عن ظاهرة هامة ، وهى أن رؤية قضايانا ليست واضحة ، وأحياناً مشوهة ، أمام مثل هذه العقول التقدمية الكبيرة ، وليس من

شك فى أن هذه العقول تتحمل قدراً من المسئولية عن ذلك ؛ ولكن يظل القدر الأكبر من المسئولية يمسك بنا نحن أساساً .

ومن هنا كان عملا ضرورياً وملحاً ، أن نفتح أبوابنا ونخرج — بثقة ورحابة أفق وفكر علمى — إلى حلبة الحوار والجدل بالساحة العالمية .

القاهرة : يناير ١٩٦٧ — لطفى الخولى

١

حوار مع « برتراند رسل » .

(سبتمبر ١٩٦٥)

كان أول شيء فعلته عند وصولى إلى لندن ، هو طلب مقابلة داعية السلام العظيم فى عصرنا ، المفكر والفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » . ولكنى فوجئت ، إذ علمت من تلميذه وصديقه « رالف شونمان » سكرتير مؤسسة رسل السلام ، أن « برتى » — كما يحلو لأصدقائه وتلاميذه أن ينادوه دائماً — لا يقيم بصفة دائمة فى لندن .. وأنه لا يحضر إليها إلا فى المناسبات .. قيادة مظاهرة من أجل السلام . . مناقشة من أجل تحريم الأسلحة النووية وتدميرها . . إلقاء خطاب أو محاضرة ضد العدوان على الكونجو أو الفيتنام أو الجنوب العربى . . دخوله السجن — بعد إصراره على رفض دفع الغرامة المالية — كعقاب له على تعكيره غير القانونى لصفو المجتمع البريطانى بأعماله الجماهيرية .. ولو كان من أجل صفو وأمان وسلام كل المجتمع

الإنسانى . ولم تكن هناك مناسبة لحضوره خلال أسبوع إقامتى بلندن . قلت لشومان :

ـ ما العمل إذن ؟

ـ سأحدثه بالتليفون مساء اليوم فى بيته بمقاطعة ويلز وأتدبر معه الأمر .

و « رسل» يقيم بصفة شبه دائمة فىقرية منعزلة تطل بوداعة عل بحر إيرلندا بمقاطعة ويلز تسمى « بنرينديرث » على بعد ٦٠٠ ميل من لندن .

وبعد منتصف الليل أيقظنى تليفون من « شومان » يبلغنى بأن رسل يدعونى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه فى ويلز .

وشملتنى حالة من السعادة الغامرة لدعوة رسل . ولكن ما إن وضعت سماعة التليفون فى غرفتى بالفندق حتى راح شعور بالقلق الغريب يتسرب إلى نفسى . ولم تنفع فى مقاومته كمية السجاير التى رحت أدخنها فى فراشى . ظللت أفكر طول الليل فى صعوبة مواجهة مثل هذا العقل الإنسانى الجبار الذى يحمله رسل .

وفى الصباح هرعت إلى مكتبة « كوليت » العتيدة ، بحثاً وراء كتب لرسل ، وكتب عن رسل .

وخرجت من المكتبة أخيراً بكتابين ، أحدهما مجموعة

القصص الشيقة التى تروى « ليالى الكابوس » والآخر « هل للإنسان مستقبل » . ولم أكن قد قرأت لرسل من قبل علاوة على بعض المقالات والأحاديث المتفرقة غير ثلاثة كتب فحسب هى « طرق الحرية » و « مشاكل الفلسفة » و « مبادئ لإعادة البناء الاجتماعى » الذى ترجم للعربية بعنوان « نحو عالم أفضل » . المهم حبست نفسى مع الكتابين الجديدين طوال اليوم.

وجاءت اللحظة التى بدأت فيها رحلة السمائة ميل مع « رالف شونمان » فى سيارته الصغيرة التى رحنا نخترق بها بسرعة مائة ميل فى الساعة عدداً من المدن والقرى الإنجليزية .

وخلال ساعات الرحلة الست ، تمكنت أثناء الدردشة التى لا بد أن تتسكع جيئة وذهاباً بين اثنين لا ثالث لهما يجمعهما مشوار طويل ، أن ألتقط من « شونمان » بعض معلومات داخلية مفيدة عن رسل .

فمثلا عندما بلغ رسل السابعة والعشرين من عمره ، وكان ذلك فى عام ١٨٩٩ تنازل عن كل ما ورثه من ممتلكات بلغت قيمتها حوالى المليون جنيه إسترلينى إلى جمعيات البحث العلمى والدراسات الاشتراكية وتحرير المرأة ، وقرر أن يعيش من دخل عرقه وعمله فحسب . ومنذ ذلك الوقت وهو لا يعتمد فى

معاشه إلا على نتاج عمله . . لا يملك شيئاً حتى البيت الذى يعيش فيه « بويلز » ، أو البيت الصغير الذى يقيم فيه « بلندن » عندما يحضر إلى العاصمة . . كلاهما بالأجرة . إن رسل بهذا التنازل عن أمواله الموروثة أراد – كما يقول – أن يحرر نفسه من مرض عبادة المال وأن يجعل من العمل وحده محور حياته .

شىء آخر .. تزوج رسل أربع مرات . فى المرتين الأولى والأخيرة من سيدتين أمريكيتين ، أما فى المرتين الثانية والثالثة فمن سيدتين بريطانيتين . وله ولدان « كونراد » – مدرس للتاريخ بكلية برفورد بلندن ، و« جون » عضو بمجلس العموم ، وابنة واحدة متزوجة من « شارلس تات » . وكان موظفاً بوزارة الخارجية الأمريكية ولكنه استقال احتجاجاً على سياسة أمريكا العدوانية ، وعمل قسيساً – بروتستانتياً ، مبشراً فى أوغندا . ويقول عنه رسل : « لقد احتج زوج ابنتى ضد أمريكا وضدى فى نفس الوقت . . استقال من وزارة الخارجية الأمريكية وعمل مبشراً مسيحياً على الرغم من أن حماه هو صاحب كتاب " لماذا لست مسيحياً " . . على العموم هو حر فى احتجاجه » .

وزوجة رسل الأخيرة « لادى أيدث » تشاركه حياته

الفكرية والنضالية من أجل السلام . وكانت تعمل من قبل مدرسة للأدب الإنجليزى وأصدرت فى عام ١٩٥١ كتاباً عن تاريخ حياة « بلنت » ، المحامى والسياسى البريطانى الليبرالى الذى دافع عن « أحمد عرابى» بعد هزيمة الثورة عام ١٨٨٢ ، وتزعم حملة عالمية وقتذاك للعفو عنه .

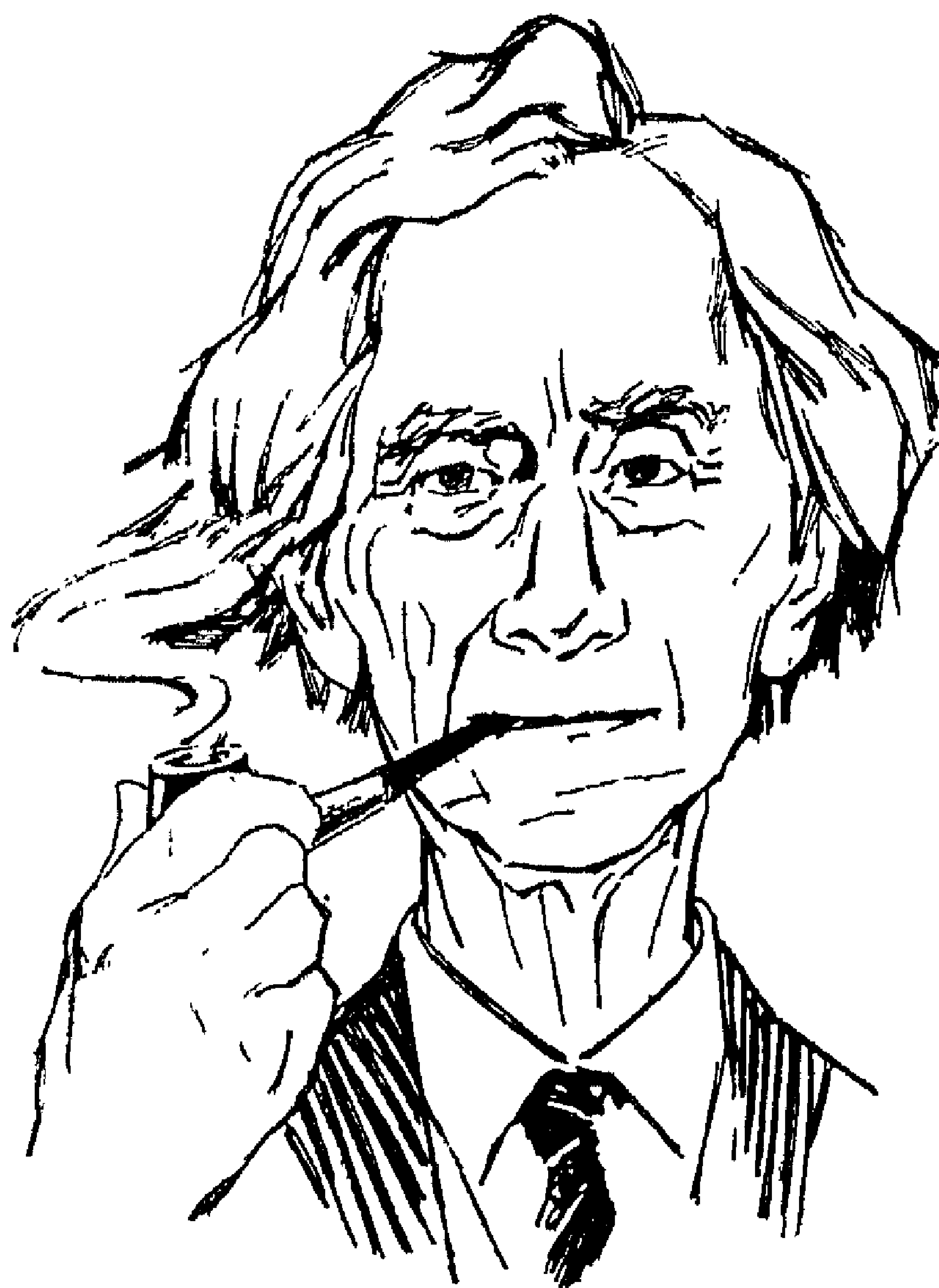
شيء ثالث . . . يعيش رسل منذ ثمانى سنوات على تناول السوائل وحدها المطعمة بالفيتامينات ومواد كيمائية خاصة لتمنحه الإحساس بالشبع . وذلك بعد إصابته بالتواء فى أمعائه ، يستحيل معه استقبال وهضم أى مواد غذائية غير سائلة .

وشيء رابع . . انتابت رسل خلال السنوات الأخيرة ثلاث أزمات من الأرق والقلق العصبى الشديد ، حتى لقد خشى المقربون منه على حياته . وكان ذلك على التحديد خلال كل من أزمة البحر الكاريبى بسبب كوبا ، والتى وضعت العالم على حافة الحرب فى أكتوبر ١٩٦٢ ، ومقتل الرئيس كيندى فى نوفبر ١٩٦٣ ، وتنحية خروشوف عن السلطة فى الاتحاد السوفييتى فى أكتوبر ١٩٦٤ . . وكان يقول دائماً لمن حوله : « إذا لم نتحرك فى كل مكان بالسرعة الحاسمة والقوة الكافية فإن مجانين الحرب سيسيطرون على الإنسانية » .

وأخيراً . . . وصلنا إلى القرية الموعودة ، ورحنا نصعد الطريق الأخضر الضيق ، إلى الهضبة التى يتربع عليها بيت « رسل » المطل على البحر الأيرلندى . بيت متواضع ، أبيض فى لون الحليب . ولمحت من نافذة السيارة رجلا جالساً القرفصاء على باب البيت يداعب كلباً ، ولم أكن فى حاجة إلى ما همس لى به « شونمان » لأعرف أن هذا الرجل هو رسل نفسه . . كان شعره الأبيض الهايش فوق رأسه ، وسحابات البايب التى تتماوج على صفحة وجهه تفصح عنه . ظللت أحدق النظر فيه ، وصورته تكبر وتتحدد خطوطها أكثر فأكثر فى عينى ونحن نقترب منه ، حتى إذا ما استقرت السيارة أخيراً على بعد خطوات من باب الدار ، تمرد الكلب على صاحبه ومرق من بين ذراعيه وراح يلف حول العربة ينبح مهتاجاً ، ورسل يقوم متقدماً خطوات محاولا تهدئة كلبه بصوت عميق ساخن :

— « لا داعى لكل هذا الهياج . . إنه رالف وصديق من مصر . . . لماذا تفسد علينا فرصة اصطناع الأدب الإنجليزى أمام ضيفنا المصرى » .

ومد إلىّ — مع بسمته — يداً نحيفة ، ولكنها ، مستقيمة وثابتة . . . وقال مرحباً :



ـ « أرجو ألا تكون قد تعبت خلال الرحلة . أنا جد آسف لأنى لم أستطع لقاءك فى لندن ، وسعيد جداً بقبولك دعوتى . . أرجو ألا أكون قد سببت لك إزعاجاً بتأخير سفرك . . رالف أخبرنى أنك أخرت سفرك خصيصاً من أجلى » .

كانا يتكلم ببساطة وسرعة ، لم أستطع أن أجاريهما بغير الابتسام الخجول .

وأخرج ساعة قديمة من جيبه وتطلع إليها ثم قال :

ـ « الساعة السادسة والربع . . أظنكم تأخرتم ساعة على الأقل » .

ولم أدر ماذا أقول . وبادر « شونمان » بالقول :

ـ توقفنا أكثر من مرة بالطريق للفرجة .

عاد يقول :

ـ « هل أعجبك ريفنا ؟ »

وفى هذه المرة نطقت :

ـ لم أكن أظن أنه على هذه الدرجة من الجمال والتنسيق .

ـ « على العموم الفضل للمطر وللإنسان . . أعتقد أن ريفكم فيه الإنسان، ولكنه مفتقد للمطر .. على العموم النيل العظيم يعوضكم عنه . هذا هو الفرق على ما أظن » .

ـ وهناك على ما أعتقد فرق آخر هو أن الريف الإنجليزى ريف لمجتمع صناعى متقدم ، أمد الفلاحين بالآلات الحديثة وبالكهرباء . أما ريفنا فهو ريف مجتمع ظل زراعياً متخلفاً مدة طويلة . . إن قيامنا بالتصنيع الآن سوف يطور الريف تطويراً جذرياً .

ـ « بلا شك . . . تفضلوا الشاى فإنه ينتظركم » .

وأصر « رسل» على أن أتقدمه داخل المنزل. وتحركت إلى الأمام بخطوات جانبية متأنية . كنت قد أعددت كلمات كبيرة لهذا اللقاء . ولكنى أحسست أمام تواضع الرجل وبساطته وروحه الفكهة بسخافة كل ما أعددته من كلمات . . وشعرت وقتها أنى لو قلتها لكنت كذلك الممثل الذى يقف على خشبة مسرحنا بالقاهرة يصرخ بلغة عربية فصحى ، متقعرة متشنجة ، فى مسرحية مترجمة « يا سيدى اللورد العظيم » وكأنه يؤذن فى مالطة . . هو فى واد وجمهوره فى واد آخر تماماً، أو ما شابه ذلك . واكتفيت بأن قلت وأنا أهم بالجلوس فى حجرة الصالون ذات الأثاث الإنجليزى القديم المريح.

ـ أنا شاكر لك دعوتك وإتاحة فرصة اللقاء معك .

ـ « بل أنا الذى أشكرك » .

وجلب « رسل » مائدة الشاى قريباً منه ، وراح يصبه فى الأقداح . وفجأة لمح « شونمان » شخصاً يتحرك فى الحديقة خلف الشرفة الزجاجية فهب سائلا رسل :

— هل تنتظر أحداً يا برتى ؟

— « لا .. لماذا ؟ »

— هناك شخص غريب لا أعرفه يتحرك فى الحديقة .

— « وماذا فيها؟ .. ليتحرك .. هو حر طالما لا يزعجنا .. لعل شيئاً من جمال الطبيعة قد جذبه ولفت انتباهه .. دعه فى حاله ».

ولوى شونمان رقبته وقال :

— برتى ! إنك دائماً تستخف بمسألة التجسس والمراقبة .

وانطلق خارجاً من الغرفة إلى الحديقة عبر الشرفة الزجاجية يطارد الرجل الغريب فى حين أطلق رسل ضحكة هادئة دافئة ، وهو يقدم لى قدحاً من الشاى قائلا :

— « إن رالف يشك دائماً فى أن الحكومة تراقبنا وتتجسس علينا حتى فى المكالمات التليفونية . . ليفعلوا . . هم يعلمون تماماً أننا نرتكب باستمرار جريمة العمل من أجل السلام ، ونحن لا نخفى ذلك . . فاللعبة مكشوفة ولا جدوى للتجسس أو للإخفاء.. لكن يبدو أن كلا من الحكومة ورالف يحب دوره فى اللعبة.

. . تصور أن رالف فى حالات كثيرة يفضل أن يقطع مشوار لندن ـ ويلز ذهاباً وإياباً ، ليخطرنى بأشياء أو يناقشنى فى أمور يمكن أن نسويها بالتليفون؛ فى الأسبوع الماضى مثلا قطع المشوار ليخطرنى بأن " بيكاسو " أهدى منظمتنا صورة من رسمه لتباع لحساب تمويل نشاطنا السلامى . إنى أشجع دائماً نزعة الشك فى الإنسان ضد كل المسلمات . . ضد كل التقاليد الموروثة . . ضد كل الأفكار الجاهزة . . ضد كل القيم المتعارف عليها . . هذا ضرورى جداً لاستمرار عملية التطور المادى والمعنوى على السواء ، وخاصة إذا كانت تحرك الشباب وتدفعهم إلى تحدى الواقع وكشف جوانب جديدة منه تغنى المعرفة الإنسانية . ولكنى ضد الشك فى الإنسان . . أقصد فى إنسانية الرجل ، ولو كان جاسوساً ، إن الشك فيه يزيد من عقدته ولا يحللها . . »

وقطع الحديث صوت رقيق لسيدة رقيقة ، بسيطة الثياب ، وقفت بباب الحجرة قائلة :

ـ برتى! ! ما الذى يفعله رالف بالجنايني الجديد ؟

وضحك راسل وهو يفرك يديه فى حبور تشوبه مسحة ذات براءة صبيانية :

– « إذن هو الجنايني الجديد يا صغيرتي . . يا لخيبة أمل رالف ! »

واستطردت « الصغيرة أيدث » التي هاجم الشيب شعر رأسها :

– لقد أمسك بسترة الرجل وراح يمطره بالأسئلة والرجل حائر مرتبك بين يدي رالف .

لماذا كل هذا يا برتي ؟

ودحرج راسل نظرة إلى زوجته تعمد أن يغلفها بالغموض المثير ، وهمس :

– « إنه يشك في أنه جاسوس »

– جاسوس ! جاسوس لمن ؟ وكيف علم رالف أنه جاسوس؟

– « لا أدري . اسأليه . . »

– طبعاً . . هذه قضية خطيرة يا برتي .

وهرعت «الصغيرة » إلى الخارج بخطوات سريعة . في حين غرق رسل في الضحك وهو يقول :

– «وهكذا تولدت في بيتنا قضية خطيرة من مجرد سوء التفاهم والشك في إنسانية الإنسان . . تأكد أنه على مستوى الدولة وعلى مستوى العلاقات بين الدول تتخلق قضايا خطيرة على هذا المنوال

وبهذا الأسلوب ، تهدد حياة وسلام العالم . . إن سوء التفاهم الذى تولد بين كيندى وخروشوف مثلا عند أزمة كوبا المشهورة كاد يودى بالعالم إلى كارثة الحرب النووية لولا أن سيطر التعقل والحكمة على الموقف قبل فوات الأوان . ويمكن فى أى وقت أن تفتعل من العدم ، نتيجة الشك فى إنسانية بعضنا بعضاً ، قضايا خطيرة بين رجال الحرب فى أمريكا وبين رجال الحرب فى روسيا أو فى الصين. وإذا بهم يتبادلون القنابل النووية والصواريخ ويدمرون العالم . . اسمع . . اسمع . . »

قالها بروح الطفل البرىء الذى ما يزال يعيش فى أعماقه . .

وترامت إلينا داخل الحجرة أصوات مختلطة فى الخارج « لرالف » والصغيرة « أيدث » تتشابك فى حوار :

— لكن لماذا يا رالف ؟

— مجرد شك يا أديث . . لم أكن قد رأيته من قبل .

— هل تعرف عنه شيئاً من قبل ؟

— إطلاقاً . أقول لك مجرد شك فى رجل لم أره من قبل . لم أكن أعرف أنكم استخدمتم جناينياً جديداً .

— ولكن برنى يقول إنك تظن أنه جاسوس .

— لقد قلت له ذلك قبل أن أعرف أنه الجناينى الجديد .

— ولكن . .

وابتعدت الأصوات أو سكنت وارتفع صوت « رسل » يقول :

— « ستظل " لكن " هذه تلون نظرة زوجتى إلى الجنايني المسكين مدة طويلة ، وتؤول تصرفاته وسكناته . وسيشعر هو بنظرة الشك فيرتبك ، وربما أثر ذلك فى تصرفاته فعلا . . حلقة مفرغة . . رالف شك ، أيدث تسأل ، برتى قال . . لكن هل صحيح الرجل فعل كذا ؟ وهكذا . . وربما تولد عن هذا رأى عام فى البيت ضد المسكين على أساس أنه جاسوس وربما امتد إلى القرية كلها . . إن أصحاب المصالح المعادية للسلام والأمن والديمقراطية والحرية والاشتراكية فى المجتمعات، كثيراً ما ينجحون فى زرع أوهام من هذا النوع ، ويكونون بأساليبهم الشيطانية من حول هذه الأوهام رأياً عامًّا لصالحهم يقاوم كل تطور أو تقدم ، ويعدم ثقة الناس بعضهم فى بعض . ولذلك فإن علينا أن لا نقع فى هذا الأسلوب أو نمارسه » .

وعاد رالف . وسأله رسل :

ـ « ماذا اكتشفت ؟ »

ـ إنه الجنايني الجديد . . واعتذرت له .

ـ « فعلت خيراً لأنك أسرعت فى الحكم عليه . . لقد برد شايك خلال قيامك بمطاردة الرجل المسكين . أرجوك أن تطلب من أيدث بعض الماء الساخن » .

وذهب شونمان لإحضار الماء الساخن . إن « اللورد برتراند رسل » الذى تعدى التسعين من عمره ، وزوجته « الليدى أيديث رسل » التى بلغت السادسة والخمسين ، يعيشان معاً فى منزل بسيط دون خدم أوحشم . فقط تساعدهما امرأة لمدة أربع ساعات يومياً تقوم بأعمال النظافة وتنصرف .

وفتح راسل باب الحديث مرة أخرى . قال :

ـ « أود أن أشكركم فى " الأهرام" و" الطليعة " على الاهتمام بمقالاتى ورسائلى ونشرها ، وإنى لسعيد أن يكون لى " قراء " فى مصر والبلاد العربية » .

ـ إننا نحن الذين نشكرك . وتأكد أن القاهرة مفتوح بابها بترحاب وتقدير دائماً لآرائك وأفكارك ومقالاتك .

ـ « حتى لو كنتم تختلفون معها ؟ »

ـ أظن أن الاختلاف فى وجهات النظر مقبول ما دام

موضوعياً ، وأعتقد أن التجربة قد دلت على أن اختلافنا لم يمنعنا يوماً من الاستماع الكامل مع الاحترام لآرائك ومناقشاتها.

— « هذا صحيح . ولا أخفى عليك أنه أدهشنى بعض الشىء.. لا أقصد بالضبط معنى الدهشة وإنما حيرنى . . بصراحة مصر سببت لى حيرة كبيرة » .

— لماذا ؟

— « إن الصورة التى تكونت لدى من قبل عن مصر ، أنها وقعت فى قبضة الدكتاتورية العسكرية منذ ١٩٥٢ . وهى صورة تكونت طبعاً من السماع وقراءة صحفنا ، وليس من المشاهدة الواقعية ، لأنه لم يتح لى أن أزور مصر للأسف . ولكن إذا بمصر تعلن الاشتراكية وبناء مجتمع متطهر من الرأسمالية . . وأقول لنفسى كيف تقوم الدكتاتورية ببناء الاشتراكية ؟ ثم أجد من يأتى ليقول لى وماذا تقول عن المعتقلين والمساجين فى مصر بسبب آرائهم ، وأسمع بعد ذلك بالإفراج عنهم : ولكنى أسمع فى نفس الوقت عن عدم توافر الديمقراطية ، وضماناتها . ثم يجىء نشركم لرسالتى فى " الطليعة " إلى المثقفين العرب كاملة بكل ما وجهته فيها من نقد لبعض الأوجه فى التجربة المصرية وفى الحياة العربية بوجه عام ، ومناقشتكم لها علناً . . إن نشر

النقد معناه حرية التعبير . . وحرية التعبير معناها الديمقراطية . ثم نسمع عن دعوتكم التى يتزعمها بقوة الرئيس ناصر تحت شعار القومية العربية والتى تعطى هنا انطباعاً بأنكم تريدون السيطرة على البلاد العربية . ولكننا فى نفس الوقت نسمع عن مواقفكم ومواقف الرئيس اصر شخصياً مع ثورات التحرير الوطنية فى كل مكان ومع السلام العالمى وضد العدوان الأمريكى . . وطبعاً هذا موضع تقديرى العميق . . ولكن ماذا عن أوجه الصورة الأخرى ؟ هذا هو مصدر حيرتى إزاء التجربة المصرية . . أرجو أن يتسع صدرك لكلمات رجل تعدى التسعين ويعيش على بعد آلاف الأميال من وطنكم . . ولكنه يحاول جاداً وصادقاً أن يفهمكم خاصة وقد أصبحتم الآن بعد تحرركم تلعبون دوراً رئيسياً فى مصير العالم ومستقبله وهذا ما يهمنى » .

وسكت « رسل » لحظات شغل نفسه خلالها بحشو غليونه ثم استطرد قائلا :

– « إذا كان الكلام فى هذا الأمر يحرجك ، فلنصرف النظر عنه . لا أريد أن أسبب لك مشاكل . . وعلى العموم الحديث بيننا لن يخرج من هذه الحجرة . . أنا أريد المعرفة فقط » .

وابتسمت وأنا أقول لنفسى : « إذا كان كل هذا التشويه قد نفذ إلى رسل فما بال الرجل العادى فى بريطانيا أو أوربا » ، وقلت لرسل :

— لا مشاكل بالمرة . على العكس إنى أرحب بأن يخرج الحديث من هذه الحجرة . وإنى أريد أن أستأذنك فى نشر حوارنا هذا كاملا « بالأهرام » فى القاهرة .

— « كما تشاء . لا مانع عندى . . ولكن هل لى أن أسألك ، لماذا ؟ »

— لسببين : أولا لأثبت لك عمليًّا زيف الصورة التى نسجت هنا فى بريطانيا وفى أوربا عامة عن التجربة المصرية سواء بحسن أو بسوء نية . وثانياً : لأطلع مواطنى على كيفية تصور جهودهم وثورتهم تصويراً مشوهاً حتى لدى صديق عظيم كبرتراند رسل .

— « شكراً لتلقيبك إياى " بالصديق " » .

— هذه هى مشاعرنا الحقيقية تجاهك فعلا .

وأطلق « رسل » ضحكته الدافئة وهو يلوح بغليونه فى الهواء :

— « لا تنفخنى بالغرور . . هل أنا بهذه الشهرة حقًّا فى مصر » .

وأحسست (بالإنسان فى رسل) يلح فى معرفة أبعاد قيمته خارج بلاده ، فاستطردت قائلا :

— فى مصر والوطن العربى كله . . لا أقول لك هذا مديحاً ذاتياً . إنه حقيقة . ونحن فى مصر مثلا نعرف « اثنين رسل » . رسل باشا حكمدار بوليس القاهرة خلال ثورة ١٩١٩ وكان أداة باطشة من أدوات الاستعمار والرجعية الحاكمة ضد شعبنا ؛ وبرتراند رسل المفكر والفيلسوف وداعية السلام العظيم فى عصرنا . وبقدر ما ندين الأول ، وأظنه عمك . بقدر ما نحترم ونقدر الثانى ونقرأ له ونترجم كتبه وأبحاثه .

وراح رسل يفرك يديه مسروراً ، وهو يقول :

— « أولا رسل باشا ليس عمى ولكنه مجرد قريب . وإذا كنت أطمع فى أن تستمروا فى التمييز بينه وبينى فى الأفكار والاتجاهات والسلوك ، فأظن أن رسل باشا على الرغم من موقفه الاستعمارى البغيض كان له على ما علمت بعض الفضل فى محاربة تجارة الحشيش فى مصر » .

— وهناك من يؤكد أنها كانت محاربة شكلية ، لأن الاستعمار قد عمل على تشجيع تجارة وإدمان الحشيش كجزء من سياسته لمحاولة تحطيم معنويات الشعب المصرى .

— « جائز . جائز جداً . ولكن هل تعلم أن احتلالنا . . أقصد احتلال الاستعمار الإنجليزى لمصر بالذات كان إحدى الصدمات العنيفة التى أصابتنى وهزتنى وجعلتنى أنفصل ، فكراً وحياة ومصيراً ، عن طبقتى الاستعمارية التى نشأت وتربيت فيها » .

— كيف ؟

— « كان لى مربية ألمانية ، صارمة ومثقفة ، ما زلت أذكر حتى الآن وجهها البيضاوى الكبير القاسى القسمات ، اختارها لى جدى الذى عشت معه بعد وفاة والدى ، لترعانى وتنشئنى على النظام والطاعة فقد كنت ولداً مشاكساً مغامراً لا يحترم التقاليد. ولكن جدى لم يدر بأن هذه المربية الألمانية لم تكن تكره فى الوجود شيئاً قدر كرهها للإنجليز وصلفهم وكبريائهم ونفاقهم .. وطبعاً لقنتنى هذا كله مع حب النظام فى العمل . وكان احتلال الإنجليز لمصر ، الذى زعموا أنه مؤقت وأنهم سيجلون عاجلاً عن أرض النيل ، هو الموضوع الذى ظلت المربية الإنجليزية تطرقه معى باستمرار كدليل على الكذب والخداع والنفاق الإنجليزى . وكنت أقاومها وأؤكد لها بأننا سنجلوا عن مصر طالما وعدنا بذلك. وكانت هى على العكس تؤكد لى أن الاحتلال مستمر ولن

يخرج الإنجليز من مصر إلا عنوة بثورة مصرية . . وطبعاً أكدت الأحداث صدق رأيها وبددت آمالى فى أن يفى الإنجليز، بنو وطنى، بوعودهم . ودفعتنى للثورة على كل طبقتى وتقاليدها وأفكارها ونظمها . وللأسف لم تعش مربيتى حتى جلاء الإنجليز عن مصر ، كما توقعت . ونتيجة لثورات متوالية كان آخرها ثورة ١٩٥٢ » .

قلت : ولم تر أيضاً كيف حاولوا أن يعودوا مرة أخرى بعدوانهم مع الفرنسيين والإسرائيليين عام ١٩٥٦ بعد تأميم قناة السويس . ولكن ردتهم مقاومة الشعب المصرى .

وضحك رسل طويلا قبل أن يقول :

ــ « لو كانت حية حتى عام ١٩٥٦ ورأت بلاهة الاستعمار الإنجليزى وهزيمته ، لماتت وقتها من الفرحة . يا إلهى .. كم كانت تكره الإنجليز » .

وعاد شونمان إلى الحجرة بالماء الساخن وفوجئ بموجات الضحك المتبادلة بين رسل وبينى فتساءل .

ــ مم تضحكان ؟

وهمس رسل :

— « عن مربيتى الألمانية . . ولكن باحترام . . نعم ! بكل احترام . . »

وفغر « شونمان » فه دهشاً :

— مربيتك ؟ وما علاقة مربيتك بلطفى . . . لا أظن أنه أتيحت له فرصة معرفتها .

وانفجر رسل ضاحكاً ، وهو يربت مسندى مقعده بيديه :

— « لا . . لا . . علاقته بها أنه مصرى . . وكانت مربيتى تقول لى عن مصر .. والإنجليز .. هه . . لا .. لا ... هذه حكاية طويلة ومعقدة أحكيها لك فيما بعد . . فيما بعد . . »

وفجأة شعرت « برسل » يسرح بعيداً وعيناه تغيمان ونزل به الصمت وهو منهمك فى صب الماء الساخن داخل إبريق الشاى . وأرسلت نظرة قلقة إلى شونمان ، فبادرنى قائلا :

— أتركه خمس دقائق .. إنه يريح نفسه من إجهاد الحديث. هذه عادته . . لا تنسى السن . . ثلاثة وتسعون سنة . ..قل ما هى حكاية المربية ؟

ورحت أروى له الحكاية وأشاركه الضحك عليها من جديد..

وإذا « برسل » يلتفت إلينا سائلا :

— « ما الذى يضحككما ؟ »

وسارع « شونمان » إلى الرد :

ـ مربيتك الألمانية يا برتى !

واعتدل « رسل » فى جلسته ، يواصل حديثه من حيث انقطع تماماً ، وكأن الخمس الدقائق التى غاب فيها عنا ، لا حساب لها ولا أثر .

ـ « دعنا من الماضى . . ماذا عن مصر الآن . . مصر الحاضر والمستقبل . لقد أوضحت لصديقنا حيرتى . . وأكد لى أن الصورة التى لدينا عن مصر الآن ، فيها تشويه . فهل يمكن أن نعرف أين التشويه ؟ »

وأدار شونمان رأسه ناحيتى مع سؤال رسل . وهيأت نفسى للإجابة وللحظة داهمتنى الحيرة . . من أين أبدأ ؟ وبسرعة قررت أن أدخل إلى الموضوع بالمفتاح الذى قدمه رسل حينما قال : « ولكننا فى نفس الوقت نسمع عن مواقفكم ومواقف الرئيس ناصر شخصياً مع ثورات التحرير الوطنية فى كل مكان ومع السلام العالمى ضد العدوان الأمريكى . . » .

وقلت :

ـ وهل يمكن تصور أن فى قدرة الشعب المصرى وجمال عبد الناصر القيام بهذا الدور ضد قوى الاستعمار العالمى ، القديمة

والحديدة ، ومحاربتها سياسياً ودعائياً ، وبالمساعدة العسكرية والمادية أحياناً كما حدث فى الجزائر والكونجو والجنوب العربى . وبالتدخل المسلح المباشر أحياناً أخرى كما حدث بالنسبة لثورة الشعب اليمنى . . هل كان يمكن ممارسة هذا الدور بكل هذه الحيوية لو أن الشعب المصرى غير متحد وغير واع بما يفعله ، وبالتالى يملك حريته ومصيره بين يديه ، أو كان جمال عبدالناصر دكتاتوراً ؟ إن قوى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وضعت حساباتها على أساس أن الشعب المصرى يئن تحت حكم دكتاتورى عسكرى ، وأنه ما إن يرى جيوش الإنجليز والفرنسيين تقتحم البلاد لإسقاط ناصر حتى يتحالف معها ليخلص نفسه من الحكم الدكتاتورى . فماذا حدث فى الواقع . .

— « حدث العكس تماماً .. وهذا من حسن حظ التاريخ».

— بالضبط . وإذا بالشعب والجيش وناصر قوة واحدة متماسكة تقاوم العدوان حتى تدحره فى بورسعيد والسويس .

— « ليت مربيتى الألمانية كانت حاضرة معنا الحديث ..»

— وخلال هذا العدوان لم يحارب الشعب المصرى وحده . . وإنما حاربت معه كل الشعوب العربية ، قطعت أنابيب البترول ، وأرغمت حتى الحكومات الرجعية العربية وقتذاك على

أن تقطع علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا . وكشفت معركة العدوان ما سبق أن كشفت عنه مؤامرة اغتصاب فلسطين من أن البلاد العربية تواجه مصيراً مشتركاً واحداً : وأنه لا بد من بناء وحدتها القومية . . وعلى هذا الأساس قامت أول وحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٥٨ .

— « ولكن هذه الوحدة لم تصمد حسب علمى . وإنما أصابها الانفصال بعد سنتين أو ثلاث . . هل يمكن القول بأن أسس الوحدة القومية غير متوافرة ، وأن المسألة — كما يقولون — هى عملية فرض للوحدة من جانب الرئيس ناصر ؟ »

— إن انفصال سوريا عن الوحدة وقع بعد أن صدرت قوانين يوليو ١٩٦١ التى فتحت الطريق للتحول الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها المصرى والسورى وقتذاك . ومن الذى قام بالانفصال؟ وكيف قام ؟قام به أصحاب المصالح الإقطاعية والرأسمالية الكبيرة فى سوريا بتمويل ومساندة من القوى الاستعمارية والرجعية فى المنطقة ، المعادين لأى تحول اشتراكى . واستخدموا فى هذا مجموعة من العسكريين المغامرين قاموا بانقلاب عسكرى . . وإذن فالانفصال هنا فى حقيقته ثورة مضادة ، ضد الثورة التحررية العربية وتطورها نحو الاشتراكية

ولأن هذا الانفصال معاد لحكم الواقع الثورى والتاريخى فى البلاد العربية لم يستطع حكم الانفصال أن يعيش ... لفظه الشعب السورى نفسه. وليست القومية العربية والوحدة العربية « اختراعات» سياسية حديثة ، ولكنها نداء الأجيال المتعاقبة قبل ظهور ناصر بزمان بعيد. وتقوم قومياً على أساس وحدة الأرض واللغة والناس والتكوين التاريخى والحضارى والنفسى والروحى المشترك ؛ والمصالح الاقتصادية المشتركة . ثم هناك نقطة أخرى . . لقد كانت هذه البلاد موحدة — علوياً — سياسياً واقتصادياً تحت حكم الاستعمار سواء العثمانى أو البريطانى فى المشرق، والفرنسى فى المغرب . فلماذا تصبح الوحدة جريمة إذا جاءت من أسفل نتيجة إرادة الشعوب نفسها ووعيها لمصيرها المشترك . والهجوم الذى ينصب على مصر وناصر هنا ، هو هجوم استعمارى رجعى يهدف ضرب قلب هذه الوحدة . فمصر بحكم أنها أكثر البلاد العربية تطوراً وسكاناً نسبياً، تلعب دوراً رئيسياً فى عملية الوحدة وخاصة بعد تحررها السياسى والاقتصادى الكاملين نتيجة ثورة ١٩٥٢ ومعركة السويس عام ١٩٥٦ . ويزداد الهجوم طبعاً بانتهاج مصر طريق الاشتراكية ، لأن الوحدة العربية حينئذ لا يمكن أن تكون إلا لصالح الطبقات الشعبية صاحبة

المصلحة فى بناء الاشتراكية . . أرجو أن أكون واضحاً .

وتوقفت عن الحديث ، ورحت أبحث فى جيوبى عبثاً عن سيجارة أشعلها . كانت كل سجائرى قد نفدت . . وقام « رسل » فأحضر علبة سجاير فضية وقدمها لى قائلا :

— « يبدو أنك مثلى مدمن تدخين . . . إن البايب لا يفارقنى تقريباً إلا عند النوم » .

— ولكن ماذا نفعل الآن أمام تقارير الأطباء عن خطر التدخين وعلاقته بالسرطان .

وصدرت عن رسل حلقات متتابعة من القهقهات قبل أن يقول :

— « لا تصدق . . إنها تخمينات حتى الآن لم تثبت علمياً بشكل قاطع . .وعلى العموم فإن وجودى شخصياً أمامك بصحة جيدة . . . كالحصان . . . أدخن بلا انقطاع منذ أكثر من ستين عاماً ، دليل على ذلك » .

وراح رسل يحشو غليونه ببطء ومزاج . وبدا كما لو كان فى نفس الوقت يحشو فى فمه ذلك السؤال الذى جرى بكلمات متمهلة على لسانه :

— « لقد تحدثت عن انفصال سوريا واتهمته بأنه كان

انقلاباً عسكرياً ... ولكن ، إذا لم أكن مخطئاً ، أليس ما حدث فى مصر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان أيضاً انقلاباً عسكرياً؟".

ـ فعلا كان انقلاباً عسكرياً فى الشكل والصورة . ولكنه كان ثورة تحررية تقدمية فى المضمون والمحتوى . . وهذا هو الفارق الأساسى . أنا أعلم أن الانقلاب العسكرى يثير بطبيعته الشك والنفور من جانب كل التقدميين والديمقراطيين فى العالم .

وكأنى لمست بهذه العبارة الأخيرة « وتراً حساساً » فى رسل فقد أحسست به وكأنه ينتفض ، حينما نطق بانفعال :

ـ « بالضبط . . بالضبط »

واستطردت قائلا :

ـ هذا هو بالضبط منبع سوء الفهم الذى وقع فيه كل الديمقراطيين والتقدميين فى العالم ـ ولا يزال بعضهم حتى الآن ـ بالنسبة لرؤية ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر . لقد وقفوا عند شكل الحدث الثورى دون التعرف على حقيقته الموضوعية وجذوره ، فاعتبروه مجرد انقلاب عسكرى . . ولكن إذا بهذا الانقلاب العسكرى يواصل المعركة التاريخية ضد الاستعمار السياسى والاقتصادى بلا هوادة ، حتى يحقق لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث الاستقلال الكامل والحقيقى . وإذا به يصفى الأسرة

الملكية ورواسب الإقطاع والاحتكارية الأجنبية والرأسمالية الكبيرة الريفية والصناعية والمالية والتجارية ويشق الطريق بإصرار ووضوح نحو الاشتراكية .

وقاطعنى « رسل » بحماس :

— « ولكن ما هى الظروف التى جعلت هذه الثورة تنفجر بهذه الصورة . . لا بد أن لذلك أسباباً موضوعية . إذا مضينا مع تحليلك ، خصوصاً وأنا أعرف أن لشعبكم من قبل عديداً من الثورات الشعبية الجماهيرية . . ثورتكم ضد الفرنسيين . . ثم ثورتكم ضد الإنجليز فى البداية بقيادة عرابى وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى بقيادة زغلول . . سعد زغلول . . أليس كذلك ؟ » .

وحركت رأسى بالإيجاب : وتابعت حديثى وقد عدانى « رسل » بحماسته :

— إن معرفتكم الواسعة والعميقة بتاريخ بلادى ، والتى تظهر من خلال حديثكم ، لا يغيب عنها بلا جدال أن كل هذه الثورات قد انتهت إلى إحدى نتيجتين ، إما الفشل والانكسار كما حدث بالنسبة لثورة عرابى ، وإما المساومة والحلول الوسطى ، فى إطار التصالح مع الاستعمار . كما حدث بالنسبة لثورة

١٩١٩ . . لماذا ؟ هناك طبعاً أسباب متعلقة بطبيعة القيادات الطبقية لهذه الثورات . ولكن هناك أيضاً أسباباً أخرى ، وخاصة فى الظروف المعاصرة لثورة يوليو ١٩٥٢ . إن مصر كما تعلمون كانت واقعة مباشرة تحت القبضة المباشرة للاستعمار البريطانى . وكانت قوات الاحتلال فى عام ١٩٥٢ تبلغ ٨٠ ألف جندى ، تراقب بعين مفتوحة مع السراى والطبقة الحاكمة وجهاز دولتها كل تحرك شعبي منظم وثورى مكشوف ، وقادرة على البطش به وتخريبه بكل ما تملكه من إمكانيات ووسائل.. كذلك فإن الطبقات الشعبية كانت مفككة وضعيفة ، وفضلا عن ذلك فإن طبيعة مصر الجغرافية الخالية من أية جبال أو مرتفعات أو غابات تساعد على تحصن تنظيمات ثورية بها وإدارة حرب عصابات ، لم تكن مواتية لقيام ثورة شعبية بالمفهوم التقليدى . ومن هنا كان لا بد لأى قيادة واعية تتصدى لممارسة الثورة من أن تبحث عن أسلوب آخر . وهذا ما فعله جمال عبد الناصر ، لقد كون تنظيم الثورة من الضباط الأحرار داخل الجيش . وحول بذلك جهاز القسر والقهر من أداة باطشة بالشعب ، إلى أداة تمارس العمل الثورى وتلتحم بالشعب منذ اللحظة الأولى . ومن هنا كانت صورة الانقلاب العسكرى للثورة .

كان رسل خلال الحديث قد سدد نظراته إلىّ فصافحتنى عيناه اللتان تشعان ذكاء وضياء من خلال التجاعيد التى تحاصرهما . . . . وعندما توقفت مد إلىّ يده بسيجارة جديدة وقال :

ـ « هذا حسن . . هذا يفسر كثيراً من الأمور . . لماذا لا تنشرون هذا الكلام ؟ ولا تناقشون هذه الأوضاع علانية . إننا لا نعرف شيئاً هنا عن هذه الأمور » .

ـ نحن ننشره ونناقشه . . ومجتمعنا اليوم يموج بمناقشات واسعة وصريحة حول طبيعة الثورة وأهدافها ومشاكل البناء ونقد الأخطاء . ولكن ما يحدث بالنسبة لغالبية من يزورنا من الصحفيين والكتاب الغربيين هو أنهم يفعلون مثل ما يفعل « السياح » يأتون لمجرد الفرجة العابرة ، وفى غالبية الأحيان لا يتاح لهم الاتصال ـ بسبب اللغة ـ إلا بالعناصر المعادية للثورة والذين صفيت امتيازاتهم الاستغلالية . . فهى التى تستطيع أكثر من القوى الشعبية التحدث باللغات الأجنبية .

وهنا فاجأنى « رسل » بسؤال :

ـ « لأى طبقة ينتمى الرئيس ناصر ؟ »

ـ يمكن القول اجتماعياً أنه ينتمى ـ بحكم المكانة الوظيفية

لأسرة والده كموظف صغير فى الحكومة ، ثم له شخصياً كضابط بالجيش — إلى الطبقة المتوسطة .. وأقول اجتماعياً لأنه من الناحية الاقتصادية لا يملك شيئاً على الإطلاق — قبل وبعد رياسته للجمهورية — غير مرتبه الشهرى فحسب . وهو بهذا يمثل استثناء فريداً فى تاريخ حكام مصر . وهذه طبعاً ميزة كبيرة .

— « ليست ميزة فحسب. إن هذا من حسن حظه الشخصى والموضوعى كقائد ثورة وكحاكم . وهذا يفسر جانباً كبيراً من حريته فى الحركة وشجاعته فى اتخاذ القرارات التاريخية لصالح شعبه دون ما عوائق أو عقد نفسية . لقد وضعت الآن أصبعى على مصدر هام من مصادر قوته وحيويته . لا تتصور مدى سوء الحظ الذى يصاب به إنسان تقدمى لو كان مالكاً وصاحب ثروة . لقد كنت أنا شخصياً من سيئى الحظ الذين ولدوا مالكين وأصحاب ثروة . ولو لم أستطع التخلص من هذه الأثقال المرعبة فى وقت مبكر ، لأصبحت أسيرها فى فكرى وحركتى ومصيرى . ولربما كنت أصبحت من نوع تشرشل أو إيدن أو ماكميلان أو جونسون بل ربما أسوأ منهم جميعاً .

إن جرثومة الملكية إذا تمكنت من الإنسان شحذت فيه إلى أقصى حد غريزة الاقتناء . وهذه الغريزة تتشكل فى صورة

نزعات هدامة تؤدى به إلى عبادة المال أولا وأخيراً على حساب كل القيم . ولهذا يصبح هذا الإنسان سجين منطق وحركة ما يعبده . . وهو المال .

انظر إلى المليونير الأمريكى مثلا أو فى الغرب عموماً . . إنه يملك بالفعل كل الإمكانيات المادية التى تجعله يعيش حياته على أعلى مستوى بلغته الإنسانية . ولكنه مع ذلك لا يشبع ولا يكتفى . . تراه ينطلق إلى مزيد من العمليات والصفقات يستغل ويسرق جهد الآخرين ويفلس منافسيه ويهدم كل القيم ويخلق أزمات الجوع والبطالة والحرب من أجل أن يزيد من رصيد ثروته المالية باستمرار . . وتراه فى هذا المجال يعمل بلا كلل ليل نهار وكأنه يجرى وراء لقمة عيش تقيه غائلة الجوع أو ليضمن ثمن عشائه .

وإذا استحكمت عبادة المال كقيمة اجتماعية أو نزعة " مشروعة قانوناً " فى مجتمع ما ، خربته معنوياً ثم مادياً تخريباً شاملا . إن عبادة المال تصبح هدفاً فى حد ذاته . ويتحول المجتمع إلى غابة من الوحوش تنهش بعضها بعضاً . . وليس فى هذا فرق بين غابة الأدغال قديماً ، وغابة الصالونات والبورصات والبنوك الحديثة . إن كل شرور عالمنا المعاصر ، ابتداء من

الدعارة حتى الحرب ، مصدرها الرئيسى عبادة المال .

والإنسان لا يمكن أن تتفتح فيه نزعات بناء السلام والخلق والابتكار وحب الغير واحترام المرأة كإنسان ، وكل هذه النزعات الإنشائية ما لم يستطع أن يطهر نفسه من عبادة المال.. إن هذا التطهر يمنحه قوة هائلة على الحركة البناءة الخيرة الواعية بمسئولياتها نحو الإنسانية ككل لا يتجزأ . . هذا التطهر يجب أن يكون مسئولية جيلنا الحاضر من أجل سعادة المستقبل .. لست متشائماً فى المدى البعيد . ولكن . . كم يؤرقنى المستقبل القريب للإنسانية » .

كانت كلمات « رسل » برنينها الخشن الدافئ ، تتوهج بالضياء وسط الغرفة التى راحت ظلمة الليل تحتضنها فى سكون. ونهض الرجل من مقعده يخطو خطوات متمهلة وهو يتمتم بلا توقف ، وكأنه يرتل مع نفسه تعويذة مقدسة « المستقبل ! المستقبل ! » . أشعل النور . . ارتكن إلى زجاج الشرفة الواسعة المطلة على بحر الشمال ، وسرح سرحته المعتادة لخمس دقائق أخرى . فماذا أفعل ؟ سرحت أنا بدورى مع نفسى أفكر ، حاسداً بتقدير وحب — لو صح التعبير — هذا الرجل الذى ولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، بقلب الإمبراطورية البريطانية عام

١٨٧٢ ، حين كانت الشمس لا تغرب عنها ، وكان جده « اللورد جون رسل » رئيساً لوزراء الإمبراطورية . ولكنه يصب بشجاعة ووعى ، جام سخطه وثورته على « عبادة المال » . . هذا الرجل الضئيل الحجم الذى يحمل على كتفيه ما يقرب من قرن من الزمان عمراً . ولكنه بشفافيته النفسية والعقلية يصب كل تفكيره واهتمامه فى « المستقبل » . . .

أى شاب مهيب فى الثالثة والتسعين من عمره هذا الذى أجلس إليه أحاوره .

وعاد إلينا رسل مرة أخرى ، وعلى فمه بسمة فيها معنى الاعتذار الرقيق عن غيابه ، ولكنها سرعان ما اختفت مع أول كلمة جرى بها لسانه من جديد :

— « هل تعلم شيئاً » ؟

— ماذا

— « لم يقتل أوزوالد ، كيندى . . هذا شىء أكاد أجزم به . أقصد أن القاتل الحقيقى ليس هو أوزوالد . . إنه ضحية مثله ، مثل كيندى تماماً ، إن الذى قتل كيندى هم عباد المال الشرهون فى أمريكا .

لقد قتلوه لأنهم اعتبروه "ولداً عاقاً" بدأ يخونهم . . يخون

أطماعهم وصفقاتهم ومغامراتهم العدوانية . . وبدأ يحكم العقل ويتجه ، دون أن يغير من طبيعته كرأسمالى ، للاقتناع بالتعايش السلمي وبجنون الحرب النووية . وكشفوا ذلك بوضوح عندما اصطدم مع جماعة الصلب . ثم أخيراً حينما تفاهم مع خروشوف حول " أزمة كوبا " وقبل الحل السلمى . لقد هزنى مقتل كيندى . . كنت لا أوافقه على كثير من آرائه واتجاهاته . ولكنى كنت أرى فيه على الرغم من ذلك بارقة أمل جديد نحو تطوير السياسة الأمريكية ، لتتفهم العصر والإنسانية تفهماً جديداً أكثر تعقلا واستنارة .

لقد عكفت على دراسة ظروف الجريمة وقرأت تقرير لجنة وارن وعديداً من التقارير والتحقيقات الأخرى . وها أنذا أكاد أنتهى من قراءة مخطوط كتاب جديد عميق عن الحادث وملابساته وظروفه ، كتبه المحامى الأمريكي " مارك لين " . (وأشار إلى المخطوط المفتوح على المائدة الصغيرة بجانبه) وخلصت من ذلك الكتاب إلى هذه النتيجة : لقد قتل عباد المال ومغامرو الحرب كيندى . وإنى لأكاد أشير بإصبعي إلى أشخاص محددين بالذات لهم صالح حيوى فى هذه الجريمة . وسوف تكون هذه النتيجة هي محور مقدمتى التى طلب إلى " مارك لين "

أن أصدر بها كتابه القيم الذى سوف يلقى، أضواء هامة على هذه الجريمة التى غطيت عمداً بضباب كثيف » .

— ومتى يصدر هذا الكتاب ؟

— « حسب ما أخبرنى به " لين " سيصدر الكتاب فى يونيو ١٩٦٦ على الأكثر . . أرجو أن تحرصوا على قراءته فى بلادكم . إنى أعتقد أننالا يجب أن نسكت لحظة عن هذه الجريمة ، بنفس القوة التى لا نسكت بها عن حرب فيتنام والجرائم التى ترتكب هناك فالخيوط فى النهاية واحدة » .

وراح يقلب صفحات المخطوط بعصبية ؛ فسألته :

— ترى لو أن كيندى كان لا يزال حيًّا ورئيساً للولايات المتحدة أكان يفعل الآن ما يفعله جونسون فى فيتنام ؟

— « لقد راودنى هذا السؤال كثيراً . . فكرت فيه أكثر من مرة وانتهيت إلى أن كيندى على الأقل لم يكن ليتورط فى هذه الحرب إلى هذه الدرجة المرعبة التى وصل إليها جونسون . . ولو كانت قوى الضغط قد اضطرته إلى ممارسة العدوان والحرب ، فأعتقد أنه كان سيعمل على محاولة حل المسألة سلميًّا بأسرع وقت ، مثلما فعل فى أزمة كوبا وقبل أن تصبح مجزرة رهيبة تهدد بإشعال الحرب العالمية كما هي الآن .

إن كيندى يختلف اختلافاً جوهرياً عن جونسون . هذا مؤكد . إن جونسون فى رأيى أسوأ رئيس جمهورية فى تاريخ الولايات المتحدة . . إن الشعب الأمريكي مسئول عن ذلك . . لا أدرى لماذا انتخبوه ؟ ! »

ـ أعتقد أنهم كانوا فى موقف خيار بين جونسون وبين جولد ووتر ، الذى كان يجاهر باتجاهاته العنصرية واستخدام القنبلة النووية لحل المنازعات الدولية .

ـ « لا أعتقد أن جونسون فى النهاية يختلف فى شىء عن جولد ووتر . . لقد نفذ جونسون بالفعل كل ما جاهر به جولد ووتر خلال المعركة الانتخابية من آراء واتجاهات . . وحرب فيتنام واستخدام الغازات السامة ضد الشعب الفيتنامى دليل على ذلك . لقد كان جولد ووتر صريحاً ، أما جونسون فكان مناوراً وهذا أخطر . وجونسون من طراز الساسة ذوى الفكر الإقطاعى المتخلف ، امتد إلى عصرنا . وأعتقد أنى إذا كنت مواطناً أمريكياً لما انتخبت أحداً على الإطلاق .. على الإطلاق .. فلا أحد يستحق »

ـ ألا ترى أن مثل هذا الموقف لا يعدو أن يكون أمراً سلبياً وبالتالى غير منتج . أو بتعبير أكثر صراحة هو موقف مثقف شريف واعٍ ، يرى ويقيم ويدين ، ولكنه لا يتحرك ولا يفعل شيئاً .


COMMITTEE of 100
ACTION FOR LIFE
DEFENCE MINISTRY
18 FEB 1961

وأطلق رسل ضحكته الخشنة قائلا وهو يشوح بذراعيه :

— « كنت على ثقة من أنك ستواجهني بهذا الرأى . . إن الشباب عموماً يكره السلبية . وهذا شيء فى طبيعته وهو ظاهرة صحية . وقد تكون على حق عندما تصف مثل هذا الموقف الذى تصورته لنفسى إذا كنت مواطناً أمريكياً بالسلبية ، ولكن هذه السلبية التى أدعو إليها ، ليست من النوع التقليدى حيث انعزل فيه عن الحياة . . عن القضية . . عن المشكلة . . وأجلس وحيداً فى بيتى ، وأقفل بابى على ، وأقول أنا لست موافقاً . . أنا أدين ، وإذن لن أشارك ، وعليكم اللعنة . لا . إن سلبيتى ، إذا شئت أن تسميها كذلك ، فهى أن أقول " لا " فى قلب الحياة . فى لب المشكلة . فى قلب القضية . وأن أعمل على تجميع كل من يقول " لا " فى حركة مضادة لمن يقول " نعم " ، كرأى عام يحاصر ويضغط . فإذا كنت لا أريد أن أنتخب أحداً فى أمريكا ، فإنى أدعو كل من يوافق معى على هذا الموقف ، أن يتحرك كرأى عام يجاهد ويضغط ، بحيث يحدث إضراباً عن الانتخاب . أو على الأقل يضعف إلى حد كبير نسبة المنتخبين ، الأمر الذى يضعف من قوة الرئيس المنتخب ويزلزل الاستقرار الاجتماعى له .

ونحن هنا فى بريطانيا نقول " لا " للتسلح النووى لحكومتنا ونقول " لا" لسباق التسلح النووى المجنون فى عالمنا . ولكننا لا نقف عند حد القول . بل نتحرك لخلق رأى عام فى بريطانيا والعالم كله من أجل أن تصبح " لا " هى كلمة وحكم الضمير الإنسانى كله ، أمام القنبلة النووية . ومن أجل هذا أسست مع زملائى مؤسسة السلام التى شرفتنى بحمل اسمى . وقمنا بالمظاهرات والعصيان المدنى ، وتحدى أوامر البوليس ودخلنا السجن . . وهكذا .

وأيضاً حينما بدأت فى عام ١٩١٦ أعارض قانون التجنيد الإجبارى وأنتقد الحرب كسلوك بربرى غير إنسانى . واتخذت فى عام ١٩١٨ موقفاً ضد الحرب العالمية الأولى معتبراً إياها حرباً بين مجانين سلطة وعباد مال ، يدفع ثمنها الإنسان فى النهاية . . لم أقف عند هذا الحد . بل ناديت بعصيان أوامر الحرب خلال مقالات علنية سجنت من أجلها ٦ شهور . وإن كانت هذه ضريبة ضرورية ، فقد أفادتنى شخصياً إلى أقصى حد من حيث تعميق إدراكى بأزمة المجتمع البريطانى والحضارة الأوربية عامة ، ومن حيث إتاحة الفرصة لى لتأليف كتابى " مقدمة إلى الفلسفة الرياضية " الذى أؤرخ به بداية مساهمتى المتواضعة

فى الفكر الإنسانى .

آه ! لقد ثرثرت أكثر من اللازم عن نفسى . . اعذرنى . إن ما أردت أن أقوله فى الحقيقة هو أن الشعب الأمريكى بعدم اتخاذه موقف " لا " من حكومة جونسون ، ومن الحرب الفيتنامية ، ومن أساليب الضغط العسكرية والاقتصادية على الشعوب الجديدة ، ومن التفرقة العنصرية ، يصبح مسئولا فى الواقع عن كل هذه السياسة . وأنا لا أميل ، بتجربتى ، إلى القول بأن الشعب فى أى بلد غير مسئول عن فظائع حكامه . إن هذا غير صحيح . . فى رأيى أن الشعب الألمانى كان مسئولا عن هتلر وفظائعه لأنه وافقه ومشى معه . . وقد يكون هناك بعض أفراد قالوا : لا .. ولكن لم يكن هناك رأى عام شعبى . . كذلك الحال فى أمريكا اليوم . . » .

ـ ولكنا نشهد فى أمريكا الآن حركة شعبية تزداد نمواً واتساعاً ضد حرب فيتنام وضد التفرقة العنصرية . . وفى اعتقادى أن هذه ظاهرة صحية فى المجتمع الأمريكى .

ـ « لا أختلف معك عندما يتحرك الشعب تحركاً فعالا . ولكن يظل الشعب ـ فعلياً ومنطقياً ـ مسئولا حتى يتحرك . وبدون هذا فإننا ننتحل الأعذار ونبسط الأمور » . .

– ترى ما هو رأيك فى حل قضية الحرب فى فيتنام ؟

– « الحل الوحيد هو إنزال الهزيمة بالعدوان الأمريكى وتحرير فيتنام وتركها للمصير الذى يقرره أهلها بحرية » .

– ولكن ألا ترى هذا الرأى يظل مجرد أمل طبيعى ومنطقى على الورق فحسب ، ويبقى كيف يمكن أن يتحقق هذا الأمل ؟

– « يتحقق هذا الأمل بطريق وحيد ، وهو أن يستطيع شعب فيتنام شمالا وجنوباً من أن يصمد للعدوان الأمريكى ويواصل الحرب حتى الانتخابات الأمريكية الرئاسية القادمة . إن هذا سوف يوقظ الشعب الأمريكى على حقيقة الهوة التى يسير إليها نتيجة سياسة العنف التى تمارسها حكومته فى الداخل والخارج على السواء . وهذا سوف يمنع بالتأكيد وصول أناس من أمثال جونسون أو جولد ووتر إلى السلطة مرة أخرى . ويعيد فتح الباب أمام أناس جدد من أمثال كيندى أو حتى أكثر منه تطوراً . وسوف يؤدى هذا أيضاً إلى هزيمة نهائية لسياسة العدوان والعنصرية فى المجال الدولى والمجال الداخلى على السواء . فالعنصرية فى أمريكا هى الوجه الآخر لسياسة العنف العدوانى فى الخارج ضد الشعوب . ولعلنا بعد ذلك نبدأ عصراً جديداً للمستقبل ، عصراً إنسانياً يقضى على العنف بكل صوره

ابتداء من " لكمة اليد " حتى " القنبلة النووية " . ويصفى مجتمعنا الدولى من كل صور الكراهية والتميز اللاخلاقى بين البيض والملونين . . بين الشرق والغرب . . بين الهند و باكستان . . بين الروس والصينيين . . بين الساميين واللاساميين . . ! »

وهنا انتقلت بالحوار إلى منطقة جديدة تشغل حيزاً عظيما من اهتمام رسل . .

قلت له :

ـ ألاحظ من حديثك أنك تتحدث عن الكراهيات بشكل مجرد ومطلق . . بل تعتبر بعض الخلافات الأيدلوجية أو السياسية « كراهيات » . .

ولم يتركنى راسل أواصل حديثى بل قاطعنى قائلا :

ـ « لا مفر فى الحياة الإنسانية من وجود اختلافات فى وجهات النظر سواء على المستوى السياسى أو الفكرى وحتى بالنسبة للنظريات العلمية . . هذا ضرورى ومفيد للإنسانية وتطورها ، وإلا جمدنا عند مواقف محددة ونزل الموت والجفاف بحقلنا الإنسانى . ولكن عندما يتمنطق كل طرف فى الخلاف بالسيف والمدفع وربما بالقنبلة الذرية ويتقاتل مع الطرف الآخر وتسيل بينهما أنهار من دماء البشر . . فهنا " الكراهية " التى

تحركها نزعات التدمير والتخريب ، إما على أساس عنصرى ، وإما على أساس التسلط والسيادة وإما على أساس الاستغلال .

إن الخلاف بين الهند والصين تحول إلى كراهية عندما راحا يتقاتلان . . والروس والصينيون يوشك الخلاف بينهما أن يتحول إلى « كراهية » ، إن لم يكن قد تحول بالفعل فى المجالات السياسية والاقتصادية . أما الخلاف فيظل على مستوى الخلاف إذا ما بقيت أسلحته محصورة فى النقاش والحجج ، وميدانه العقل والحكمة والاقتناع الحر . . إن ما أقصد أن أوضحه لك ، هو أننى أقف موقفاً مبدئياً مضاداً من كل استخدام للعنف والقوة فى جسم خلاف إنسانى » .

ـ إذا سمحت لى أريد هنا أن أستوضحك : هل قيام شعوب المستعمرات بحمل السلاح لمقاومة المستعمر وعدوانه وخوض الحرب التحريرية . . مثل حرب شعبنا العربى التحريرية فى الجنوب العربى واليمنى مثلا ، تنسحب عليه مواقفكم المبدئية هذه ؟

ـ « بالطبع لا . . إن الحرب التحريرية رد فعل ضرورى ومشروع ضد العدوان الاستعمارى . ولقد كتبت مؤيداً كل حركة تحريرية ضد الاستعمار فى أى مكان . لعلى كتبت

بالذات عن حرب التحرير فى الجنوب العربى ونشرتم ما كتبت فى الأهرام . وكذلك فإن حرب التحرير فى اليمن الذى تخرج به من ظلمة التأخر البشع والاستبداد الوحشى . . حرب مشروعة. ولو لم أقف مع حروب التحرير لكنت فى الواقع بذلك مؤيداً للاستعمار ولعدوانه ، وبالتالى لمنطق القوة المسلحة فى حسم الأمور . وهذا التمييز هو الذى جعلنى أقف ضد الحرب العالمية الأولى كحرب استعمارية جنونية بين قوى كلها عدوانية، وذات نزعات شريرة وهدامة للإنسانية، فى حين وقفت بجانب الحرب العالمية الثانية لأنها كانت رد فعل ديمقراطى وإنسانى بأقصى ما يمكن أن يصل إليه مفهوم عصرها ــ ضد عدوان النازية والفاشية على العالم . ولو لم أقف هذا الموقف لكنت وضعت نفسى فى معسكر النازية والفاشية . ومن أجل هذا أيضاً أقف مع حرب التحرير الفيتنامية ضد العدوان الأمريكى. أرجو أن يكون موقفى من هذه الناحية واضحاً بالدرجة الكافية » .

ــ تماماً .

وأرسل لى رسل نظرة باسمة غلف بها سؤاله :

ــ « لماذا إذن لاتحلون مشاكلكم مع اليهود سلمياً ؟ »

—ليس بيننا وبين اليهود أية مشاكل من أى نوع حتى يمكن القول بحلها سلمياً أو عسكرياً .

وارتسمت علامات الدهش على وجه رسل ، وانطلق قائلا :

— « كيف ؟ ألا تعادون اليهود وتتسلحون لإبادتهم ؟ألستم "بصراحة" معادين للسامية ؟ »

وفهمت أننا نقترب فى الحديث من « مشكلة الصهيونية وإسرائيل » . ولكن من زاوية الدعاية الصهيونية التى تحاصر الرأى العام فى أوروبا وترسم له صورة مشوهة عن القضية وحقيقتها.. ماذا أفعل ؟ هل أقفز إلى قلب القضية مباشرة أم أصاحب رسل فى أسئلته كما يلقيها على ؟ وفضلت الطريق الأخير وأجبت :

— نحن يا سيدى لا نعادى اليهود ، ولسنا معادين للسامية وبالتالى فليس هناك محل للتسلح لإبادتهم . . بل على العكس نحن ضد كل حركة معادية للسامية ، أولا : لأننا كعرب ساميين . وثانياً: لأننا ضد كل حركة عنصرية، طوال تاريخنا الطويل حتى اليوم ، سواء على أساس الدين أو الجنس أو اللون إلخ . . .

— « إنى أحاول أن أفهم من حديثك أن هذا هو رأيك الشخصى ، لا رأى قومك أو رأى الرئيس ناصر مثلا » .

– بل هو رأى قومى ورأى الرئيس ناصر ، لأنه نابع عن تراث شعبنا العميق الجذور ونظرتنا الثورية التقدمية . . فلا يزال فى بلادنا يعيش اليهود فى أمان وسلام ، إما كمواطنين لهم ما لنا من حقوق وواجبات ، وإما كأجانب لهم كل الرعاية والضيافة طالما لا يخلون بأمننا . .

– « فسر لى موقفكم من إسرائيل إذن ؟ »

– هذه قضية أخرى تماماً يا سيدى . إن إسرائيل ليست هى اليهود . وإنما هى تجسيد للحركة الصهيونية العنصرية العدوانية المشتركة المصالح مع القوى الاستعمارية ، احتلت بالقوة والسلاح والعدوان جزءاً من أرضنا، وشردت مليوناً من شعب فلسطين ، وأقامت قاعدة عسكرية عدوانية ضدنا لصالح توسعاتها العنصرية وعمليات الاستعمار المعادية لنا ، وذلك فى شكل دولة . ولعله لا يخفى عليكم أن هذه القاعدة تحركت بالعدوان ضدنا مع الاستعمارين الفرنسى والبريطانى خلال حرب السويس عام ١٩٥٦ . ولا تزال تحتل جزءاً من أرضنا وتسوم بالتعذيب والقتل والإرهاب أكثر من ٢٥٠ ألف عربى سجين فى قبضة نظامها العسكرى العنصرى ، ونحن فى نظرتنا وتصرفاتنا نفرق تماماً بين اليهود كبشر وكدين ، وبين إسرائيل

كقاعدة استعمارية عنصرية عدوانية لا نستطيع أن نقف منها موقف المتفرج وهى تجهز وتعد وتحشد بالسلاح والمغامرين العنصريين من كل أنحاء الأرض لتمارس العدوان على شعبنا وأرضنا وحقنا فى التحرر والوحدة والاشتراكية . ومن هنا فموقفنا منها هو نفس موقفنا من القواعد العسكرية العدوانية الأخرى فى الجنوب العربى وقبرص مثلا . ومن هنا أيضاً فإن مصيرها هو مصير نفس هذه القواعد .

— « هذا تصوير جديد للموقف على ما أرى » .

— بل هو التصوير الوحيد الذى يعطيه الواقع الموضوعى : إنه على طول التاريخ مثلا فى مصر ، لم تحدث حادثة اضطهاد واحدة لإنسان لمجرد أنه يهودى . . أقول حادثة واحدة . أما فى إسرائيل فهناك يومياً أحداث اضطهاد بها قتل لبشر لمجرد أنهم عرب مسلمون ومسيحيون . وأذكر خلال مناقشات دارت مؤخراً فى القاهرة بين وفد الحزب الشيوعى الإيطالى وبين الاتحاد الاشتراكى ، أن تعرضنا لهذه القضية . وروى لنا الوفد الإيطالى أنهم انزعجوا عند ما كانوا يزورون إسرائيل لأن من التقوا معهم من العرب ، اضطروا إلى قطع الاجتماع قبيل الغروب للعودة إلى بيوتهم ، وذلك حتى لا يتعرضوا لرصاص الجنود

الإسرائيليين إذا التقوا بهم فى الشارع بعد غروب الشمس .

وضرب رسل مسند مقعده بقبضة يده ونفث ، دخاناً كثيفاً من البايب عدة مرات قبل أن يقول :

— « هذا كلام أسمعه لأول مرة تقريباً » .

— أؤكد لك أنه ليس ذنبنا يا سيدى . إننا نقوله ونفعله باستمرار . ولكن هناك حواجز أجادت الدعاية الإسرائيلية صنعها فى أوربا بحكم نفوذها ، هى التى تمنع حقيقة ما يجرى فى الشرق الأوسط من أن يرى أو يسمع دون تشويه أو تزييف هنا فى أوربا .

— « ولكن ألا تطلب إسرائيل باستمرار الاجتماع معكم من أجل السلام وأنتم ترفضون ؟ »

— سيدى أود ملحاً أن . لا تكتفى بما تقوله إسرائيل بل بما تفعله وما زالت تفعله . إن إسرائيل احتلال عنصرى عدوانى لأرض عربية . . إسرائيل ارتكبت ضد العرب مذابح لا حصر لها ، ولعل المعروف منها فى أوربا قليل جداً ومشوه ، مثل مذبحة دير ياسين . . إسرائيل تعتدى باستمرار على البلاد العربية ، إما منفردة ، وإما بالاشتراك مع القوى الاستعمارية كالعدوان على مصر عام ١٩٥٦ . . إسرائيل شردت أكثر من مليون فلسطينى من ديارهم وترفض عودتهم . . إسرائيل ضربت بعرض الحائط

كل قرارات الأمم المتحدة ولم تنفذ واحداً منها . . إسرائيل تشارك بالتدريب والسلاح في كل الحركات المضادة لثورات الشعوب فى أفريقيا ، إنها هى التى دربت وجهزت جيش موبوتو فى الكونجو مثلا . . فهل يمكن أن ينبع من مثل هذه الطبيعة العدوانية العنصرية . . سلام ؟ أى سلام يمكن أن يكون مثلا بين العدوان العنصرى المغتصب للأرض والسلطة فى بلد كجنوب أفريقيا أو روديسيا ، وبين الشعب الأفريقى . إننا نرفض خديعة السلام المزيف — كما رفضت أنت خديعة السلام مع الفاشية والعنصرية الألمانية والإيطالية فى الحرب العالمية الثانية ، ولكنا مع السلام العادل .

— « ماذا تعنى بالسلام العادل؟ »

— السلام الذى يعيد ما اغتصب إلى أهله .

— « واليهود فى إسرائيل الآن ، بعد أن ظلوا وأقاموا وامتزجوا بأرضها وكونوا شعباً منذ عام ١٩٤٨ ؟ »

— إذا كان هناك « شعب » يمكن أن يفبرك فى عدة سنوات قليلة على هذا النحو فإن معنى ذلك أن نتشكك فى التاريخ وقوانينه العلمية التى تعلمناها . لقد وفد ولا يزال يفد على إسرائيل مهاجرون مغامرون من جميع أنحاء العالم تلهبهم المشاعر العنصرية التى تذكى فيهم . . هؤلاء لهم أوطان أصلية جاءوا منها . . .

يخيروا بين البقاء فى فلسطين أو العودة إلى بلادهم . . وأما اليهود الفلسطينيون فلهم حق البقاء مع كل عرب فلسطين كمواطنين :

— « والحل إذن ؟ »

— الحل الجذرى ستفرضه حركة التاريخ والتطور الثورى لمنطقتنا وللعالم كله . فالزمن معنا . ونحن نسير كمائة مليون عربى فى طريق الثورة التقدمية من أجل التحرر الكامل من الاستعمار ، والاشتراكية والوحدة .. ونحن نكسب كل يوم ، شعوباً وأصدقاء جدداً فى العالم يكتشفون حقيقة إسرائيل كقاعدة عنصرية وعدوانية حتى بالنسبة لهم . . غينيا وسيكوتورى . . مالى وموديبوكيتا . . إلخ . ولم نعد نحن تلك الكتلة البشرية المستعمرة المتأخرة ذات الأنظمة الإقطاعية ، والتى كانت إسرائيل تصور نفسها وسطها كنموذج للحضارة والتقدم الأوربى. وإنما أصبحنا كتلة إنسانية متحركة تتحرر من الاستعمار والإقطاع والاستغلال ، وتتطور إقتصادياً واجتماعياً وتبنى مجتمعات متقدمة جديدة وتسير على طريق الاشتراكية ، كما فى مصر أكبر البلاد العربية نسبياً . ولعل هذا هو السبب الرئيسى لتركيز الحملة الصهيونية على مصر وناصر .

ومسح رسل وجهه براحة يده وهو يقول :

— « المشكلة معقدة » .

قلت :

— معقدة ، طالما ظل للاستعمار نفوذ فى المنطقة ، ولكنها تصبح سهلة بزوال النفوذ الاستعمارى . . وهذا النفوذ قد أصبح عمره قصيراً بحكم حركة التاريخ .

ولم يعقب « رسل » بشىء . غاب عنا بعض الوقت سارحاً مع نفسه من جديد . وحينما عاد ، طرحت عليه السؤال التالى :

— ما هو المفتاح الرئيسى فى رأيكم لقضية السلام فى عالمنا اليوم ؟

وتريث قليلا وهو يمسح جبهته العريضة براحة يده قبل أن يقول :

— « الإجابة عن هذا السؤال سهلة للغاية ويمكن تلخيصها فى العبارة الآتية : " العمل المستمر من أجل السلام دون أن يداخلنا اليأس لحظة واحدة " . ولكن الصعوبة الحقيقية هى فى كيفية العمل وأسلوبه من ناحية ، وفى كيف نحصن نفوسنا البشرية — أفراداً وجماعات — من جرثومة اليأس من ناحية أخرى .

إن ثمة حقيقة أولية يجب أن تنفذ أولا وبعمق إلى الإنسان

ومؤسسات حياته المختلفة ، ابتداء من الأسرة والمصانع حتى الأحزاب والدول والحكومات ، وهى أن كل ما هو إنسانى فى عالمنا — أيًّا كان لونه أو دينه أو اتجاهه أو ثقافته أو ذوقه أو وضعه — سيكون مصيره الدمار التام والشامل ، إذا ما اشتعلت الحرب النووية .

وخطر هذه الحرب كامن وعلى وشك الانفجار فى أى لحظة ، طالما ظلت الكراهية تصوغ وتلون العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، وبين الدول بعضها وبعض . وإذا ظلت الأسلحة النووية تنتج بلا توقف ، وتتطور باستمرار وتتكدس فى المخازن ، وتغدو رصيد قوة فى أيدى حكام بعض الدول .

وإذا ظلت « الثقافة » تفهم وتدرس على أساس عنصرى ، أو على أساس التفريق بين الشعوب ، لا وحدتها . ومن هنا فإن العمل من أجل السلام يجب أن يستهدف القضاء على الكراهية وعلى الأسلحة النووية جميعها ، وعلى الأساليب غير الإنسانية للثقافة . ولن نستطيع العمل إلا إذا كان داخل كل بلد ، وبالتالى على محيط العالم كله ، رأى عام قوى متحرك ضد الحرب والعنف والكراهية والعنصرية .

إن هذا الرأى العام سوف يقيم فى كل بلد حكومة ديمقراطية تؤمن وتنتصر للسلام كوسيلة وهدف معاً ، ويعزل عن السلطة

كل المغامرين وأصحاب المصلحة فى الحرب . . والمجانين السياسيين أيضاً .

ولتكوين هذا الرأى العام ، نحن فى حاجة إلى الوعى بضرورة المبادرة بتدريس التاريخ الإنسانى بصورة ومضمون موحد ومتفق عليه فى كل بلد ، تقوم بوضع برنامجه وخطوطه لجنة دولية مشتركة موحدة . إن هذا الفهم الواحد للتاريخ الإنسانى سوف يكون الأساس الضرورى لبناء رأى عام عالمى موحد الاتجاه نحو السلام والأخوة الإنسانية » .

— ولكن . . .

وقاطعنى رسل بسرعة قائلا :

— « أعلم مقدماً ما وراء " لكن " هذه . . اعذرنى . لقد سمعتها كثيراً بأكثر من لغة وبأكثر من معنى : لكن هناك صعوبات . . لكن هذا المشروع خيالى . أعلم هذا وأفهمه . ولكن ما لا أفهمه هو أن نكتفى بذكر هذه الصعوبات التى أعترف بوجودها ، وبذكر الطموح الكبير فى مشروعى والذى لا أنكره . ولكن ما هو جوهر العمل إذن ، إذا لم نتصد للصعوبات ونتغلب عليها ونحلها . والمشكلة هى بالدقة فى هذه

الصعوبات ، لأنه إذا لم تكن هذه الصعوبات قائمة فإن المشكلة نفسها لم تكن لتوجد . لقد أتاح لى عمرى والأحداث ، أن أمر بتجارب عديدة وبممارسة مهن متعددة منها التدريس فى الجامعة والكتابة فى الصحافة وتربية النشء الصغير . وأستطيع أن أقرر لك دون مبالغة أن أهم وسيلة للتربية الإنسانية ، المحصنة من الكراهية وعبادة المال واضطهاد الناس بعضهم لبعض ، هو توحيد رؤيتهم منذ الصغر لتاريخهم الإنسانى .

لقد سبق أن اقترحت من قبل ضرورة قيام مؤسسة عالمية تضم جميع الدول من أجل التفاهم بينها وبين بعضها لحل المشكلات . وقيل يومها أيضاً . . ولكن الصعوبات ! ولكن هذا خيال ! واليوم ! استطاعت الإنسانية أن تخلق منظمة الأمم المتحدة ومن قبلها عصبة الأمم .. صحيح أن الممارسة ليست فعالة بالدرجة المطلوبة حتى الآن ، ولكن نواة المؤسسة العالمية قد بذرت فى الحقل الدولى ونبتت بالفعل » .

كانت كلمات « رسل » مشحونة بالحرارة بدرجة أشعرتنى بسخونة الجو فجأة رغم عاصفة الرياح الباردة التى كانت تعوى فى الخارج فوق بحر الشمال . وأحسست بدفء حرارة « رسل » يسرى إلى عقلى وقلبى فقلت :

أعتقد هنا ، أنه يمكن للأدب والفن فى المجتمعات الإنسانية أن يلعبا دوراً هاماً .

وابتسم رسل ابتسامة خفيفة قائلا :

— « ربما . ولكنه دور غير أساسى . . دور مساعد فقط . أنا شخصياً أحب الأدب والفن . ولكنهما لا يؤثران تأثيراً مباشراً فى ميدان السياسة .

والعمل المطلوب اليوم هو العمل السياسى . قد يمكن استغلال الصحافة كرأى وخبر فى هذا الصدد لأنها غدت مع انتشار التعليم وسيلة سياسية قوية جداً ، لأنها تحشد وتعبئ الرأى العام حول عمل معين أو موقف محدد . أما الأدب والفن فهما لا يوجهان السياسة والعمل السياسى وإلا أصبحا مباشرين ، وبالتالى فقدا اعتبارهما كأدب وفن . ولكنهما بالطبع يعكسان مفهومات سياسية بدرجات متفاوتة . وفى العمل السياسى ، أنت تريد الوسيلة التى تؤثر وتوجه مباشرة ، لا الوسيلة التى تعكس وتصور بحيل أدبية وفنية غير مباشرة . إن أقصى ما نستطيع أن نطلبه من الفنانين والأدباء هو أن يقاوموا بأعمالهم روح الكراهية والتأخر والاستبداد بالإنسان بصفة عامة » .

— ولكن . . أرجو أن لا تزعجك « لا كنانى » هذه . .

نجد أديباً مثل سارتر مثلا يتخذ من الكلمة الأدبية سلاحاً ، وموقفاً سياسياًّ تقدمياًّ . ولماذا أذهب بعيداً أنت مثلا ؟

— « لا . إن سارتر لا يتخذ مواقفه السياسية التي أحترم الكثير منها ، بصفته أديباً ، وإنما بصفته سياسياًّ . إن كلمته هنا لا توزن بميزان أدبي أو فني وإنما بميزان سياسي لأنها مباشرة وصريحة . أما أعماله الأدبية والفنية فهي غير مباشرة ، قد تعطي انطباعاً عاماًّ لدى القارئ بموقف معين ، ولكنه لا يستفزه ولا يعبئه لاتخاذ هذا الموقف عملياًّ » .

— بهذه المناسبة ما رأيك في الفلسفة الوجودية . . لقد أتيح لي أخيراً أن أقرأ قصتك القصيرة عن كابوس الفيلسوف الوجودي ؟

وأطلق رسل ضحكة عالية الرنين ، قبل أن يقول :

— « إذا كنت قد قرأتها فلا بد أنك عرفت رأيي . ومع ذلك فأنا صادقاً حاولت أن أفهم الوجودية وفشلت . وفي رأيي المتواضع أن لا علاقة لما يسمونه بالوجودية بالفلسفة . وعموماً فإني لا أميل الآن إلى ما يسمى بفلسفة المجردات . . إنها كلام وجهد لا معنى ولا فائدة حقيقية له » .

— والماركسية ؟

— « ليس موقفي منها هو موقفي من الوجودية مثلا . ولكني

لا أوافق عليها بصفة مطلقة .

والذى يعنيني دائماً من كل فلسفة ليس فروضها أو قوانينها النظرية المجردة ، وإنما صدقها الواقعى فى التطبيق . إن تجربة الاتحاد السوفييتي حتى وفاة ستالين لم تكن مشجعة على الإطلاق. طبعاً الوضع تغير إلى أحسن جداً بعد ستالين .

والمشكلة الهامة فى هذا كله هو حرية الإنسان والديمقراطية ، وفى رأيى أن التطبيق الماركسى حتى الآن لم يستطع أن يؤمن حرية الإنسان . والديمقراطية ، ما برحت هناك ضغوط كثيرة فى هذا المجال من ناحية التعبير عن الرأى وممارسته . لقد حلت مشكلة لقمة العيش بالنسبة للإنسان ، أو هى على الأقل فى طريقها إلى الحل فى المجتمعات الشيوعية . ولكن لم تحل بعد ، بدرجة مقبولة إنسانيًّا ، مشكلة لقمة الحرية . ولست أطلب هنا حرية زائفة أو ديمقراطية صورية ، كما هى الحال فى المجتمعات الرأسمالية . ولكنى أطلب ببساطة أن تلغى كل الضغوط السياسية على حرية الرأى والتعبير للإنسان ، كما ألغيت أو تلغى نظم الاستغلال لحياة الإنسان المادية .

وأعتقد أن تجارب جديدة ، مثل تجاربكم ، يمكن بما اختزنته من آلام فظيعة للإنسان ثارت عليها ، أن تقدم مساهمة

إيجابية لحل هذه المشكلة التى يتوقف عليها — فى رأيى — مستقبل الإنسان وعلمه على السواء . . »

— كيف تتصورون هذا عمليًّا ؟

— « لا أستطيع ولا أملك بالطبع أن أحدد أشياء وعلامات قاطعة . ولكنى على الأقل أقول إنكم تصعدون بدم جديد ، ومشاكل جديدة ، وإصرار جديد ، إلى المجتمع الإنسانى . وفى هذا المجتمع الإنسانى تنظرون ، يميناً ، فيهولكم زيف وخداع الديمقراطية التى يسيطر عليها عبادة المال ونفاق واستغلال القلة الأرستقراطية . وتنظرون ، يساراً ، فيهولكم ما تعرض له الإنسان فى المجتمع الشيوعى من قسوة وجبر وإهدار تحت الحكم الستالينى . وأنتم بذلك تملكون — وعجينة المجتمع فى أيديكم ما تزال طازجة وطرية للتشكيل — أن تتجنبوا على الأقل عيوب ونواقص وأخطاء اليمين واليسار الستالينى . وهذه ميزة وقدرة لم يتوافرا من قبل لأحد . . ترى هل كنت واضحاً بالدرجة الكافية فى الإجابة عن سؤالك ؟ »

— تماماً . ولعل هذا ، إذا سمحتم لى ، يقودنى إلى سؤال آخر أرجو أن يتسع له صدرك وهو : إذا أردت أن أقيم « برتراند رسل » اليوم وأحدد منهجه الفكرى وموقفه الاجتماعى فما هى

الخطوط العامة لهذا التقييم ؟

وأطرق رسل برأسه قليلا ، وتحركت على فمه ابتسامة تواضع تروح وتجيء هنا وهناك بين قسمات وجهه ، حتى افترشتها تماماً ثم قال :

— «لا أدرى ماذا أقول لك . فالإنسان يستطيع أن يحدد من الأحداث الجارية موقفاً ، ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يقيم نفسه بنفسه موضوعياً . ومع ذلك فأعتقد أنى كنت وما زلت مؤمناً وممارساً لشيئين ، أولهما الإيمان بالعلم منهجاً وأسلوباً ، وهذا قادنى دائماً إلى احترام العقل الإنسانى وحريته فى التصدى للحياة ومشاكلها ومقدساتها ومسلماتها دون ما حدود . وبدون هذا فإننا نرتد من جديد إلى الحيوانية . وأذكر لك هنا ما كتبه (فولتير) إلى صديقة (جان جاك روسو) بعد أن قرأ كتبه قائلا : (بعد أن قرأت كتبك أيها الصديق أحسست أنى تحولت إلى حيوان يسير على أربع ، ولكنى لما كنت قد ابتعدت منذ زمن طويل عن هذه العادة فإنى أجدها صعبة على جداً) . هذا هو الإنسان الذى يحكم العقل ويطلقه باستمرار لغزو المجهول .

أما الشيء الثانى ، فهو أنى أومن إيماناً لا يتزعزع بضرورة

أن يعيش الإنسان حراً وقادراً على الإبداع . ولن يستطيع ذلك دون تحقيق حياة السلام والأمن له باستمرار . أما موقفى الاجتماعى فإنى أعتبر نفسى اشتراكياً ، أعادى عبادة المال واستغلالها ، لا على أساس اقتصادى فحسب ، بل على أساس أخلاقى أيضاً . ولهذا فإنى أربط الاشتراكية ربطاً عضوياً بحرية الإنسان أمام سلطان الدولة أياً كانت .

ولكن موقفى الاشتراكى اجتماعياً ، لا يمنعنى لحظة أو يحول بينى وبين التعاون المخلص والصادق مع غير الاشتراكيين فى العمل من أجل السلام العالمى . فالقنبلة النووية ، سواء أكانت أمريكية أم روسية لن تفرق فى ضحاياها بين الرأسماليين والاشتراكيين . ومن هنا فالسلام مطلب وحق إنسانى شامل يعلو على كل المواقف والصراعات والأجناس والقوميات ».

قلت :

— هل يمكن أن أعتبر هذا التقييم حيثيات نظرية لانسحابك من عضوية حزب العمال أخيراً ؟

— « أعتقد ذلك . ولقد آلمنى كثيراً أن أترك الحزب . ولكن قياداته المتعاقبة وبعض الكتل المسيطرة عليه أرغمانى على اتخاذ هذا الموقف إزاء عدم إمكانية الإصلاح من الداخل . إن

الحزب لم يساوم فى مواقفه السياسية فحسب ، سواء فى الصعيد الداخلى أو الدولى ، وإنما حتى فى فكرياته . وبريطانيا تحت حكم العمال ، لا تختلف إلا من حيث الأسماء والوجوه ، وهى تحت حكم المحافظين . فلا تغيير اشتراكى جذرى فى الداخل ، وإنما مجرد مسكنات مؤقتة . وفى الخارج فنحن لا نبرح مكاننا التقليدى كقوة استعمارية ، انظر موقفنا من الجنوب العربى مثلا ومن فيتنام ومن التسلح النووى .

« كل التغير الذى حدث ، هو أننا بعد أن كنا قوة استعمارية قيادية أصبحنا قوة استعمارية تابعة . إننا الآن مجرد عجلة فى عربة سياسة العنف الأمريكية . وعلينا أن نأمل ونعمل لحزب بريطانى اشتراكى حقيقى فى المستقبل . . وليكن المستقبل القريب قبل أن تضيع الفرصة » .

كانت « الصغيرة أديث » قد جاءت ووقفت بعتبة الباب دون ما كلمة . ولكنى أحسست من نظراتها المتبادلة مع « شونمان » أن الوقت قد تأخر « برسل » . وألقيت نظرة على ساعتى ، فإذا بها قد تجاوزت التاسعة مساء . وفهمت أن جلستى مع هذا المفكر العظيم قد بلغت لحظة النهاية . فقلت له :

لا يزال فى جعبتى أسئلة كثيرة لم أطرحها بعد . ولكنى

أخشى أن أكون قد أثقلت عليك واعتديت على نظام يومك الذى يرجع ولاشك إلى المربية الألمانية صديقة بلادنا .

وابتسم رسل قائلا فى تواضع بشوش :

« لا . . نظامى الآن من نوع آخر لأنه من صنع صغيرتى أديث . لقد سعدت بلقائك وأشكرك على صبرك معى .

سوف أنتظرك مع أسئلتك التى لم تطرحها فى اللقاء القادم . ستجدنى هنا أو فى لندن ، لا تخشى شيئاً ، لقد بلغت الثالثة والتسعين حقاً ولكن العمل من أجل السلام والثقة فى المستقبل والإنسان ، يجعلانى فى صحة من لم يتجاوز الثالثة والعشرين . . صدقنى إن هذا هو الإكسير الحقيقى لإطالة العمر . جربه وسترى النتيجة ، وانصح به غيرك دون تردد . . إلى اللقاء إذن ».

ونهض الرجل ، يجمع حاجاته : البايب . . علبة الكبريت . . كتابان . . مخطوط مارك لين عن مصرع كيندى . صافحته بيدى وعينى ، وهو يخطو بثبات وقامة معتدلة ، تاركاً غرفة الصالون بالدور الأرضى إلى الدور العلوى وهو يضع بحنان ذراعه على كتف صغيراته « أديث » .

وهمس « شونمان » فى أذنى : ما رأيك فى رسل ؟

قلت بعد لحظة صمت :

ــ شاب فى الثالثة والتسعين تشغله هموم المستقبل ، كما لا تشغل شيخاً فى الثالثة والعشرين .

٢

حوار مع « جان بول سارتر »

(يونيو ١٩٦٧)

استدار نحوى فجأة الأستاذ البروفسير « جاك بيرك » الأستاذ بالكولیج دى فرانس ، والذى يقود مع زميله البروفسير ، « مكسيم رودنسون » حملة تنوير شجاعة داخل الرأى العام الفرنسي خاصة ، والأوربى عامة ، لتبديد الضباب الصهيونى الاستعمارى الكثيف حول « القضية الفلسطينية » وقال لى :

ــ هل قابلت سارتر ؟

ــ لا . . .

قلتها باقتضاب ، وأنا أحس بالكلمة تكاد تلهب حلقى . كنت قد قرأت البيان الذى صدر عن سارتر ، قبل العدوان فى جريدة الموند ، وأنا فى طريقى من الجزائر إلى باريس . ولاحظت أنه وقع على البيان مع عدد من الفرنسيين من بينهم شخص يدعى « مزراحى » وصفه لى هو نفسه ذات يوم بأنه:

« صهيونى حتى أطراف أصابعه » .

وصحيح أن البيان حوى بعض الكلمات الطيبة عن العرب . وصحيح أن سارتر نفسه – كما علمت بذلك من بيرك – هو الذى أضافها ، وأنه كان متردداً حتى آخر لحظة فى توقيعه ، ولكن ذلك كله لا ينفى أن البيان فى مجمله وفى الجو الهستيرى المعادى للعرب وقتذاك ، قد احتسب فى النهاية لصالح إسرائيل وادعاءاتها بأنها مهددة بخطر العدوان العربى المتجمع ضدها فى « وحدة صليبية » . وليس أدل على ذلك من أن الإذاعة الإسرائيلية ظلت تذيع البيان لمدة يومين بمعدل سبع مرات كل يوم !

ولذلك عندما عاد « جاك بيرك » يقول لى :

– ولكن لماذا لا تقابله . . إنه يسأل عنك . . ماذا ستخسر ؟

أجبت : لقد اختار هو ببيانه موقفاً محدداً هو أن نخسره .

– لا . . ليس إلى هذا الحد . . هل تعلم أنه فى حالة تمزق داخلى عميق .

وسكت ولم أجب بحرف . وإن ظل رأسى يموج بعلامات الاستفهام المتلاطمة : كيف يمكن لرجل أمين وشجاع أن لا



يرى وجه الحقيقة فى الصراع ؟ كيف يمكن لرجل اشتهر بمواقفه من أجل الحرية أن يتخذ موقفاً مضاداً منها عندما يتعلق الأمر بإسرائيل ؟ تحت أى تأثير ووفق أى معلومات وقع « سارتر » هذا البيان جنباً إلى جنب مع ذلك الصهيونى حتى أطراف أصابعه؟ ألم يزر الشرق الأوسط ولمس بنفسه الأوضاع على الطبيعة وأقر بحقوق الشعب الفلسطينى القومية ؟

وتتابعت الأيام الهادرة العصبية ، ووقع العدوان ، وامتلأت الصحف بالزيف ، ثم راح الضباب الكثيف ينقشع هنا وهناك عن لمحات من التواطؤ الصهيونى الاستعمارى ، وعن حملات الإبادة العنصرية ضد العرب ، وعن قنابل النابالم إلخ .. وأخذت الأضواء تكشف جوانب من الصورة الإسرائيلية التى تقطر دماً وبشاعة .

وفكرت للحظات أن أتصل بسارتر وأقول له كلمة واحدة : ها هى نتيجة بيانك . . ولكنى عدلت ونشرت « بجريدة الموند » بعد وقوع العدوان ، باسم هيئة تحرير « الطليعة » خطاباً مفتوحاً إلى « المثقفين اليساريين الفرنسيين الذين بطريقة أو بأخرى اتخذوا مواقفا فى صالح إسرائيل » .

وقلت فى هذا البيان : « إن الأحداث قد أثبتت مرة أخرى أن إسرائيل قد بادرت بالعدوان المبيت على الشعوب العربية .

وإنه لم تكن سوى أكذوبة تلك الادعاءات التى هولت لها إسرائيل ، بأنها مهددة من جانب الشعوب العربية بحملة إبادة عنصرية معادية للسامية . . هذه العنصرية التى كنا ولا زلنا دائماً ندينها رغم أن العدوان قد أغرق القضية كلها فى الدم الآن. وإن إسرائيل لم تكن لتقدم على عدوانها بكل هذه القوة ما لم تكن مؤيدة ومساعدة من الإمبريالية بحكم كونها امتداداً للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط . وإنكم بمواقفكم هذه قد ساهمتم فى تشجيع إسرائيل والإمبريالية على العدوان . . فماذا أنتم فاعلون الآن تجاه هذه المسئولية » ؟ .

واتصل بى سارتر يدعونى على الغداء لنتكلم . وقبلت الدعوة. وعندما تقابلنا بادرنى بعتاب :

ـ « كيف تكون هنا فى باريس منذ أول يونيو ولا تحاول الاتصال بى ؟ »

قلت :

ـ لأنك اتخذت موقفاً ضد نضال الشعوب العربية .

وهاج سارتر وماج :

« ما هذا الذى تقوله ؟ . وأى موقف ؟ إن الموقف الذى اتخذته كان ضد الحرب . . الحرب فقط من حيث المبدأ .

إنى لم أغير موقفى قط فى تأييد نضال الشعوب العربية من أجل التحرر والتقدم بما فى ذلك الشعب الفلسطينى ، وعلى الأخص الشعب المصرى الذى أكن له ولقيادته كل الإعجاب والاحترام، كل ما أنا ضده هو الحرب كوسيلة » .

وتدخلت « سيمون دى بوفوار » فى الحديث متطرقة إلى موضوع إغلاق خليج العقبة فى وجه السفن الإسرائيلية، وكيف أنه اعتبر لدى الرأى العام الأوربى نوعاً من الاستفزاز للحرب . فتدخلت شارحاً لها حقيقة الوضع ، وكيف أن هذه المياه إقليمية تدخل كلها وفقاً للقانون الدولى فى نطاق السيادة المصرية، وأن هذه السيادة قد انتزعت بالقوة من مصر خلال عدوان عام ١٩٥٦ الاستعمارى الصهيونى الثلاثى . وكيف أن « إيلات » نفسها قد استولت عليها إسرائيل بعد اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية فى ٩ مارس عام ١٩٤٩ من الجانب الأردنى . وأنها كانت دائماً عربية باسم بلدة « أم الرشراش » . إن كل ما حدث هو استرداد جزء من حقوقنا المهدرة .

وارتج على « دى بوفوار » ، وأرسلت نظرة تساؤل إلى سارتر الذى أجاب بدوره بنظرة يتبعها صوت متعب :

— « هذا صحيح قانوناً . . لقد عرفت ذلك أخيراً . . »

وصاحت سيمون دى بوفوار :

ــ لماذا لم توضحوا ذلك . . لماذا لم تشرحوه للرأى العام هنا .

وقلت :

ــ هذه فعلا بعض أخطائنا . . وأنا أعترف بها . ولكن حتى لو شرحناه ، فهل نجد مجالا واسعاً هنا فى هذه الصحافة التى تسيطر على معظمها القوى الصهيونية والعداء العنصرى للعرب؟

ودار حديث طويل حول هذه النقطة . وعاد سارتر يقول :

ــ « لقد شرحت لك موقفى ، والظروف التى صدر فيها ومن أجلها البيان الذى وقعت عليه . فهل يساعدك ذلك على فهم الوضع ؟ »

قلت :

ــ بصراحة . . . لا

وهز سارتر رأسه مفكراً قليلا ثم قال :

ــ « اسمع ! لماذا لا نتفق على موعد لحوار شامل . أنا حريص فعلا على توضيح موقفى للأصدقاء العرب » .

ــ ونحن العرب نشاركك نفس الحرص ، حتى نكون على نور فالمعركة ما برحت مستمرة .

واتفقنا على لقاء فى الغد بمنزله .

وكان أول سؤال طرحته على سارتر ونحن جالسان فى حجرة مكتبه الصغيرة التى تقوم فى نفس الوقت بمهام الاستقبال والطعام والمبيت ، هو :

ـ لاحظت أنك قد التزمت الصمت التام منذ بيانكم عن الموقف فى الشرق الأوسط الذى صدر قبل بدء العمليات الحربية والعدوان . . هذا البيان الذى اعتبر أنه معاد للعرب ، واستغلته إسرائيل ، كما تعلم ، بهذا المعنى؟

وتريث سارتر لحظات قبل أن يشرع فى القول :

ـ « يسرنى أن أخرج الآن عن صمتى ، وذلك بتوجيه حديثى للمصريين والعرب عامة . وأن أنتهز هذه الفرصة لكى أبدي رأيى فى المشكلة . كان الهدف من هذا البيان ، الذى تتحدث عنه ، هو محاولة منع وقوع الحرب . لأن الحروب فى نظرى ليست أبداً بحلول سليمة أو إنسانية للمشاكل . وكما تعلم فقد ابتعدنا الآن للأسف أكثر من أى وقت مضى عن الوصول إلى حل . ولم يكن القصد من هذا البيان هو خروجى من حياد كنت أرغب فى الالتزام به وقتذاك ، نظراً لأن العدد الخاص من مجلة « الأزمنة الحديثة » عن النزاع العربى الإسرائيلى كان على وشك الصدور بعد ذلك بأيام معدودة . كنت فقط أريد

أن أشير إلى أننى كنت آمل فى إيجاد تسوية للمشكلة التى ثارت بعد إغلاق خليج العقبة ، تعتمد على التفاوض بدلا من اللجوء إلى العنف . ولا ينبغى بأى حال من الأحوال أن يعتبر هذا البيان معادياً للعرب . فإننى أصر على أننى كنت وما زلت وسأكون دائماً ، حليفاً للشعوب العربية وصديقاً لها . وإذا كنت قد التزمت الصمت إلى الآن فهو بالدقة لأنه لم يتح لى فرصة مخاطبة العرب مباشرة . أنت تتيح لى هذه الفرصة اليوم وأشكرك لذلك » .

وقدمت ملاحظتى الثانية فى شكل السؤال التالى :

— لقد لاحظت أن هناك اتجاهاً عامًّا فى فرنسا — تحت ضغط الصهيونية العالمية ودعايتها — يرمى إلى تصوير النزاع العربى الإسرائيلى على أنه نزاع بين اليهود والعرب . مع التركيز على أن طبيعة هذا النزاع دينية بحتة من جانب العرب . ويستند هذا الاتجاه إلى تعريف العرب بأنهم المسلمون فقط . وهذا غير صحيح كما تعلمون . فالشعب العربى وهو يشكل فى الأساس كياناً قوميا من مختلف الديانات يناضل ضد الصهيونية فى إطار نضاله العام ضد الاستعمار والتخلف والاستغلال . إن طرح القضية على أرضية دينية يؤدى إلى تشويهها . وقد انتشر هذا التشويه

حتى فى بعض الدوائر اليسارية هنا . . فما هو رأيكم فى ذلك ؟

قال سارتر :

— « يجب أن أؤكد أولا أننى رأيت عرباً ليسوا مسلمين . هذا صحيح فعلا . ومن هنا فأنا لا أوافق على اعتبار المشكلة مشكلة دينية . كذلك قال لى الرئيس جمال عبد الناصر فى مصر : كيف " تنتظر منا أن نكون معادين للسامية ونحن أنفسنا ساميون ؟ " . وإذا صح أن ثمة يهوداً خلال احتدام المعركة الحربية قد نظر إليهم مؤقتاً على أنهم ممثلون لإسرائيل كما حدث فى تونس مثلا ، إذا أحرق الشعب هناك المعبد اليهودى ، إلا أن هذا فى تقديرى ليس إلا عملا انفعاليًّا . ولا ينفى أن المشكلة الحقيقية هى فى جوهرها مشكلة العالم المتخلف الذى يناضل ضد الاستعمار ومن أجل تحسين الظروف المعيشية للشعب . بل من أجل بناء الاشتراكية . ولذلك أعتقد فى الحقيقة أن حدوث مثل هذا اللبس بهذه الصورة يعد أمراً فى غاية الخطورة. طبعاً وجد من الجانبين عناصر رجعية نادت بالحرب المقدسة ، ولكنى أعتقد أنه لا ينبغى تفسير الظاهرة على هذا الأساس » .

وعدت أقول :

— إنى فى الواقع أريد منك أن تفسر لى هذه الظاهرة

الملموسة والمتحركة فعلا هنا في المجتمع الفرنسي بالذات . هل هي أيضاً قائمة في رأيك وتسهم في التشويه والتضليل أم لا ؟

وأشعل سارتر سيجارة ببطء ، أغلب الظن ليعطي نفسه فرصة لترتيب أفكاره ، قبل أن يستطرد قائلا :

— « صحيح يوجد فعلا اتجاه هنا في فرنسا يرى المشكلة من هذه الزاوية . ولكن لعلك لاحظت أن الرأى العام قد تغير كثيراً عما كان عليه عند بداية الأزمة . لقد اعتقد عدد كبير من الناس ذوى النيات الطيبة — نظراً للتباين الواضح في نوعيات المواطنين من هذا الجانب أو ذاك ، وبحكم ما كانوا يقرءونه كل يوم — أن الحرب سوف تبدأ من العرب وتنتهى بتحطيم سريع ومؤكد لإسرائيل وإبادة اليهود هناك . وقد أثار ذلك شعوراً بالقلق العميق لدى الرأى العام في فرنسا ، بصورة معقدة وعلى مستويات متباينة . وذلك سواء من عناصر لم تكن تناصر إسرائيل إلا لعدائها للعرب ، وأخرى كانت تعطف بصدق على العرب والإسرائيليين معاً . ومن المؤكد أن فرنسا انفعلت لهذه الأحداث بقوة . ولكن من المؤكد أيضاً أننا تبينا أن المشكلة كانت تنطوى على جانب آخر . . لقد ثبت أن إسرائيل تملك جيشاً حديثاً معداً إعداداً جيداً وأنها كانت متأهبة للهجوم فعلا . .

وهاجمت وحطمت واحتلت . ولست أشك فى أنك توافقنى على أن الرأى العام الفرنسى قد بدأ يتغير منذ ذلك الوقت . ولكن فيما يتعلق بنفسى فرأيى لم يتغير على الإطلاق . إننى لم أكن أرغب بالفعل أن تقوم حملة إبادة ضد اليهود . ولكنى أرى الآن أنه يتعين الوقوف بجانب العرب لنناقش معهم من وجهة نظرهم عدداً من المشكلات ذات الأهمية القصوى مثل الاتجاه التوسعى لإسرائيل ، الذى قد لا يكون موقف جميع الإسرائيليين ، ولكنه على وجه التأكيد اتجاه عدد من الرجال المتربعين فى السلطة حالياً مثل ديان ، وكذلك للمطالبة بحل للمشكلة الفلسطينية . وهناك قضية أخرى قد لا يشعر بها العرب بسبب أن موقفنا قد فهم خطأ ومس مشاعرهم . . وقد أثيرت اليوم حتى – من الصحف اليمينية – وهى أنه "يجب التعرض لأساس المشكلة". وهذا هو الجانب الإيجابى وراء كل أحداث العنف . ومنذ وضحت هذه الحرب فى الأفق برزت المشكلة الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى القومية .. وهى مشكلة كانت غالبية الناس هنا تجهلها لأنه لم تكن لديهم أيه معلومات عنها.. » .

– قيل لى إن ٧٠٪ من الشعب الفرنسى لا يعلم أن هناك مشكلة أكثر من مليون لاجئ فلسطينى مطرود من وطنه .

— « طبعاً . . وكيف تتوقع منهم أن يعلموا بهذا الأمر؟ »

— ولكن من هو المسئول عن هذا التجهيل المتعمد للقضية؟

— « الحكومة والصحافة معاً. فلا يجب أن ننسى أن قطاعاً واسعاً من الرأى العام الفرنسى قد احتفظ به فى حالة عداء للعرب بعد عام ١٩٥٤ بسبب حرب الجزائر . هناك مجموعة كبيرة من الناس تقول إن مصر ساعدت الجزائريين . وقد نظر إلى النزاع العربى الإسرائيلى من هذه الزاوية بالذات ، ونسيت تماماً مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . وفى تقديرى أنه لا بد من زيارتهم — كما فعلت أنا — ليتبين إلى أى حد أصبحت هذه المشكلة عاجلة وملحة » .

وتطرقت فى حديثى إلى الجانب الآخر من القضية التى أثارت مع الصهيونية والاستعمار ثلاث حروب خلال أقل من عشرين عاماً ، وما زالت هادرة ساخنة تزداد تعقيداً وغرقاً فى الدم ! . . قلت :

— أنت تعلم أن مشكلة العداء للسامية مشكلة أوربية بحتة. وهى مشكلة لم تعرفها البلدان العربية فى تاريخها القديم والمعاصر قط . نعم . . هناك مشكلة يهودية لا ريب فى ذلك نشأت بسبب اضطهاد اليهود فى أوربا . هل تعتقد أن الحل الذى تتقدم

به الصهيونية العالمية ، وهو حل قائم على العنصرية والتعصب الديني ومرتبط بالاستعمار ويستهدف إقامة دولة ، خدمة لكل هذه المصالح .. هل يمكن أن يكون هذا حلا إنسانياً وديمقراطياً للمشكلة اليهودية في العالم . . مع العلم أن هذه الدولة لكي تقوم وتعيش طردت شعباً كاملا من أرضه ؟

ـ « أعتقد أن هناك اتجاهين للصهيونية الآن . أحدهما يقول : سنقبل اليهود الراغبين في الحضور فقط . والآخر يقول : سنجلب اليهود بالدعاية إلى الدولة اليهودية . في حين أن الوجه الأول للصهيونية والذي يسمى أيضاً "بالنداء الصهيوني" لا يمكن اعتباره اليوم خطراً ، إذ لا يتضمن اتجاهات توسعية . أما الوجه الآخر ، وهو الذي يمكن اعتباره الصهيونية الإيجابية العاملة ، يشكل بعكس الاتجاه الأول خطراً ضخماً . وبرغم أني أعتقد أن الـ ١٢,٥ مليون يهودي المقيمين خارج إسرائيل ، تكيفوا مع الحياة خارج أوطانهم وترتبط مصالحهم بالبقاء في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ويفضلونها على الذهاب إلى إسرائيل ، إلا أن هذا الاتجاه الذي يمثل الصهيونية بالمعنى الدقيق للكلمة ، والذي يستهدف إحضار أكبر عدد ممكن من اليهود إلى إسرائيل ، والبحث في سبيل تركيز عدد كبير جداً من

الناس فى مساحة ضيقة للغاية لا يمكن إلا أن ينطوى على أهداف توسعية . فلا يمكن لـ ١٥ مليون يهودى أن يعيشوا فى أرض فلسطين وحدها » .

ورفعت يدى هنا قائلا :

ـ إن ما تقوله عن اختلاف بين اتجاهين فى الصهيونية ليس إلا اختلافاً فى الوسائل والتكتيك فحسب ، ولكن يبقى جوهر الصهيونية ، وهو فى قيامه على العنصرية والتعصب أساساً .

وهز هو رأسه على الفور مجيباً :

ـ « من الواضح أن دولة إسرائيل تتشكل فقط من يهود . هذا صحيح . بل أكثر من ذلك لا يمكن فى إسرائيل أن تتزوج فتاة غير يهودية من يهودى إلا إذا تهودت . فالدولة إذن دولة مشكلة من يهود فقط . ولكن فيما يتعلق بهذه النقطة فالمشاكل متداخلة ومشوشة بدرجة أنه يصعب إيجاد إجابة شافية سليمة . فهناك يهود غير صهيونيين فى إسرائيل ، وهم يريدون بقاء إسرائيل فقط لأنهم يشعرون بأنها أمتهم . وهناك يهود صهيونيون أعرفهم فى الجناح اليسارى داخل حزب المابام ، ولا تنطوى كلمة الصهيونية على مدلول خاص عندهم . إنها مشكلة فى غاية التعقيد . وهناك داخل العناصر اليسارية حركة قوية لمناهضة

الجوانب الدينية فى الصهيونية وفى مؤسسات الدولة . فمثلا ، عدد كبير من الإسرائيليين يقفون ضد الإجراءات الدينية التى تؤدى إلى وقف القطارات والأوتوبيسات يوم السبت ، وضد منع الزواج بين اليهود وغير اليهود إلخ .. وهناك صراع لا يجب التقليل من شأنه بين العناصر الصهيونية المتزمتة وبين بعض العناصر اليسارية المضادة للصهيونية . . ولكن للأسف القوى العسكرية والدينية المتعصبة والرجعية هى القوى المسيطرة فى إسرائيل فى هذه الظروف » .

وسكت سارتر عند هذا الحد فقلت له : إنه لم يجب عن سؤالى بالتحديد : — أنا أريد أن أعرف بالدقة رأيكم فى حل المشكلة اليهودية وهل الطريق الصهيونى الإسرائيلى ، هو الحل الموضوعى والإنسانى السليم ، وخاصة بعد أن زرتم إسرائيل ؟

وراح سارتر يردد مرات عبارتى . « تريد أن تعرف بدقة » قبل أن يسترسل قائلا :

— « أنا أفهم ارتباط عدد من أصدقائى اليه د بإسرائيل . ولكن من الواضح مع وجود ١٢,٥ مليون يهودى خارج إسرائيل وعدم رغبة هؤلاء فى الهجرة إلى إسرائيل ، بينما لا يوجد داخل إسرائيل إلا ٢,٥ مليون يهودى . . أقول . . من الواضح أن

إسرائيل لا تشكل حلا للمشكلة اليهودية . لقد آمنت دائماً أن المشكلة اليهودية ، التى هى فى نظرى مشكلة يهودية مسيحية ، لن تجد حلا لها إلا داخل العالم اليهودى المسيحى ذاته . وأضيف أن هذا التناقض بين اليهود والمسيحيين هو الذى أنتج قوة الحضارة اليهودية وأفاد المسيحيين أيضاً. المشكلة إذن حلها فى التناقض بين اليهود والمسيحيين . . . »

– المسيحيون الأوربيون ؟

– « المسيحيون الأوربيون بالطبع بل الغربيون عامة . . فى أمريكا يوجد أيضا عدد كبير من اليهود . ولذلك أعتقد أن وجود ١٢,٥ مليون يهودى خارج إسرائيل ، و ٢,٥ مليون يهودى داخلها لا يمكن أن يجعل من إسرائيل حلا للمشكلة اليهودية . إن إسرائيل ليست حلا لمشكلة العداء للسامية . إن المشكلة اليهودية ينبغى أن تجد حلها حيثما يوجد اليهود . وينبغى علينا نحن الغربيين ، أن نناضل من أجل هذا الحل . أى فى المكان الذى لا يبحث فيه عن هذا الحل أبداً . ولكن أريدكم مع هذا أن تحاولوا النظر إلى المشكلة من زاوية الرؤية هنا فى الغرب . فإذا كنت أسلم بوجود إسرائيل ، فليس ذلك لأننى أعتبرها حلا للمشكلة اليهودية . ولكن بوصفها حقيقة إنسانية قائمة ،

تضم رجالا ونساء وأطفالا . . وهؤلاء الأطفال لا يفهمون شيئاً عن المشكلة . ومن هذه الزاوية فالقول بإبادتها لا يمكن إلا أن تثير الألم . ولكنى مرة أخرى لا أعتقد أن إسرائيل تحقق الحل للمشكلة اليهودية » .

– ولكن إسرائيل دعى إليها وأنشئت بقوة السلاح كحل للمشكلة اليهودية فى الأساس ، وليس كمجرد واقع إنسانى لعدد معين من اليهود يلجأون إلى رحاب دولة ما هرباً من الاضطهاد . وترتب على ذلك مأساة إنسانية مروعة عند العرب . هنا جوهر الحقيقة الموضوعية .

– « أنت تعلم موقفى بشأن أثر إنشاء إسرائيل على العرب ، ولا أرى ضرورة تكرار ذلك الآن . وفى تقديرى أن الصهيونية كما تصورها "هرتزل" فى نهاية القرن التاسع عشر ، أى القائمة على فكرة إنشاء دولة يهودية فى القدس ، لم تكن جريمة بمقياس ذلك العصر . . لماذا ؟ لقد كانت حلا استعمارياً مثل كل الحلول الأخرى فى ذاك الحين . لم يكن أحد يفكر فى ذلك الوقت فى مصير الشعوب المستعمرة أو التى كان يفرض عليها الاستعمار بالانتداب . وكانت فلسطين تتبع فى ذلك الوقت الأتراك . فالذين تقدموا بذلك الحل وقتذاك كانوا يتقدمون

بحل يعكس معطيات عصرهم . . والكارثة هى أن هذا الحل لم يتحقق إلا فى عصر آخر . . عصر أخذت الشعوب فيه تعى مصيرها وأخذ الاستعمار طريقه إلى الزوال . ولذلك فالحل عند تنفيذه يحمل البصمات الواضحة لمفهوم غربى » .

— ولكن ألا ترى أن الأمر الخطير هو أن الصهيونية تهدف باستمرار — وبحكم مفهوم الأحداث المتوالية — إلى توسيع حدود إسرائيل على حساب العرب لإفساح المجال لمهاجرين جدد وعلى الدوام ؟

— « نعم . وأعتقد أن هذا الاتجاه خطير بالفعل ولا ينبغى التسليم به . وأنا أعرف يهوداً هنا فى فرنسا مناصرين بقوة لإسرائيل ولكنهم يتناقضون مع أنفسهم لأنهم لا يريدون الحياة فى إسرائيل ويفضلون الحياة هنا . أفكر مثلا فى مزراحى . . إنه يدافع عن إسرائيل ويتبنى وجهة نظرها بقوة لدرجة أنه خلال الأحداث الأخيرة قد وقع صريع أزمة صحية حادة .

ومع ذلك كله فمزراحى ما زال هنا . وهذا تناقض مألوف جداً عند يهود أوربا . إنهم يريدون إسرائيل ولكنهم لا يريدون الذهاب للإقامة بها » .

وعندما تقدم الحوار إلى هذا الحد وضعت أمام عين سارتر

ظاهرة موضوعية أخرى محددة، طالباً منه تفسيرها . وهى أنه فى كل مرة تنشب حرب بين إسرائيل والبلدان العربية تكون إسرائيل وقادتها الصهيونيون هم الذين يبادرون بالعدوان العسكرى بمساعدة مادية وعسكرية وسياسية ، مباشرة وغير مباشرة من القوى الاستعمارية .

ومضت لحظات صمت قبل أن يعطى سارتر التفسير التالى :

ــ « لتحديد موقف دقيق بشأن هذه المشكلة.، يجب أن نلاحظ أولا أن إسرائيل لا تستطيع أن تقضى على حقيقة وجود مائة مليون عربى . ولذلك فمن المتصور أنها ترمى إلى أعمال توسعية أو تسهم فى إحداث انقلاب ضد حكومة عربية ، ولكن من غير المتصور أن إسرائيل عندما ترفع السلاح ضد مصر تهدف إلى القضاء على مصر كأمة أو دولة . . فهذا عد المعنى . ولكن من الناحية الأخرى أن التهديد الذى يواجه إسرائيل فى حالة وقوع الحرب ، ومهما احتاط العرب لعدم المساس بحياة الأفراد ، هو القضاء على إسرائيل كدولة . ولذلك فالموقف من الحرب ليس واحداً من الجانبين . فمن ناحية ، يناضل العرب للدفاع عن منجزاتهم الاجتماعية ضد الاستعمار وضد إسرائيل التى يعتبرونها رأس رمح للاستعمار . ومن الناحية

الأخرى أى بالنسبة لإسرائيل فالقضية ليست قضية المنجزات الاجتماعية ضد الاستعمار وإنما القضية هى قضية وجودها غير المعترف به من جانب الدول العربية . . ومن هنا فهى تتسلح بصورة استثنائية وتقيم سياسة تنهض على القوة العسكرية ، وقد زادت هذه السياسة تفاقماً نتيجة اعتمادها على عدد محدود من السكان . ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار إسرائيل فى حالة تأهب عسكرى دائم وسط العرب . ولما كانت الدوائر الحاكمة فى إسرائيل مكونة من "الاشكيناز" ، أى اليهود الوافدين من أوربا ، كانت النتيجة أنها تمثل رأس رمح غربى . وفى هذه النقطة يهمنى أن أبرز موافقتى ، بشكل عام وغير تفصيلى ، مع وجهة النظر العربية القائلة بأنه فى عام ١٩٥٦ وفى عام ١٩٦٧ قد حدث تواطؤ بين الاستعمار وإسرائيل . وهذا التواطؤ هو فى الحقيقة مؤامرة كاملة . وقد استخدم الاستعماريون الأمريكيون إسرائيل استناداً إلى تواطئها معهم بوعى ، لضرب الشعوب العربية . ورأيى الشخصى هو أن الأمور تفضى إلى أن إسرائيل فى كل مرة تطلق عدوانيتها ، لأسباب تتعلق بكيانها وجودها . ولكنها تخدم موضوعياً المخطط الاستعمارى . . »

ـــ المخطط الاستعمارى الأمريكى بالدرجة الأولى . .

— « نعم . . الاستعمار الأمريكى خاصة . وفى هذه المرة أغلب الظن أنه ليس هناك اتفاق محدود ومكتوب بين أمريكا وإسرائيل من خلال مبعوثين أمريكيين مثلا . . ومع ذلك فأنا أسلم موضوعيا أن الحرب التى أشعلتها إسرائيل أخيراً لا يمكن إلا أن تخدم المصالح الأمريكية » .

مضت أكثر من ساعة وأنا أجلس إلى سارتر ونبرات الحوار ترفع حيناً وتخفت حيناً آخر ، ومقاطعات كل منا للآخر تروح وتجىء بلا انقطاع . وموجة الحرارة التى طافت بباريس يومها ، أسهمت فى إشعال العديد من الكلمات .

قلت لسارتر ، متابعاً الحوار معه :

— هل لى أن أوجه إليك سؤالا معيناً ؟ كيف تفسر أنه فى كل مرة يحقق فيها النضال العربى مرحلة معينة من التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى يتبلور فى إنجازات تقدمية ؛ تتحرك إسرائيل على الفور للعدوان سواء فى تحالف صريح أو خفى مع القوى الاستعمارية ؟

أجاب :

— « الحق أن إسرائيل عام ١٩٥٦ قد استفادت من المؤامرة البريطانية الفرنسية المتعلقة بالسويس . أى من واقع أن الدول

الاستعمارية كانت قد قررت التدخل فى السويس . ولا أظن أن إسرائيل فى ذاتها قادرة ، أو تسعى وحدها لتحطيم العرب . ويمكن أن أقول بشكل عام إننى على سبيل القطع لا أعتبر إسرائيل بلداً تقدمياً . إن تطور إسرائيل لا يجرى فى اتجاه تقدمى . إن يهود "الكيوبتز" القدامى الذين وفدوا إلى فلسطين فى وقت لم تكن فيه إسرائيل دولة ، حاولوا صنع اشتراكية . ولكنها لم تتمكن بالطبع من أن تنهض بنفسها . والآن أعتقد أن تطور القطاع الخاص الحالى فى إسرائيل قد قضى تماماً على كل المعطيات التقدمية التى وجدت فى البداية حين لم تكن هناك دولة إسرائيل ، وإنما فلسطين كمأوى لليهود . . أولئك الذين ، كان يطلق عليهم فى الغرب اسم اليهود القذرين . . إذن فلست أظن أن ثمة تقدمية إسرائيلية هناك . وهذا لا يعنى أنه ليس هناك صراع طبقى فى إسرائيل لأن اليهود الشرقيين أى السفارديم ، يمثلون العنصر البروليتارى المعرض للاستغلال وهم لا يندمجون فى المجتمع الإسرائيلى المسيطر عليه اليهود الغربيون أى الأشكناز ، إلا ببطء وصعوبة » .

قلت لسارتر :

ــ لعلك لاحظت خلال الحملات التى شنت على نطاق

واسع فى فرنسا ضد القضية العربية ، أن العناصر الموالية لإسرائيل ومن بينها بعض الذين عارضوا حرب الجزائر ركزوا على اتهام مصر بأنها بلد فاشى ، وقارنوا الرئيس جمال عبد الناصر بهتلر . لقد زرتم بلادنا وقابلتم جمال عبد الناصر فهل ترون أن هناك أساساً ما لذلك الاتهام وهذه المقارنة ؟

وارتفع صوت سارتر بحدة وهو يقول :

— « إننى أعتقد أن هذا الاتهام فى غاية السخف ، وأنه من ذلك النوع الذى يتولد عن اندفاع أهوج والذى يتعين إهماله وإدانته تماماً . لقد وصفت شخصياً الرئيس جمال عبد الناصر ، ليس فقط فى المؤتمر الصحفى الذى عقدته فى القاهرة حيث يمكن الظن أن حديثى كان من قبيل المجاملة ، وإنما كذلك فى مؤتمرى الصحفى بإسرائيل وأمام المسئولين الإسرائيليين أنفسهم ، وصفته بأنه سياسى واع وقدير وحكيم ، يعتبر واجبه الأساسى كرئيس للدولة هو خلق ظروف اجتماعية أفضل عن طريق بناء الاشتراكية فى مصر . ولقد لمست بنفسى خلال حديثى معه مدى اهتمامه العميق بالمنجزات المصرية ومقدار وعيه الكبير بما تواجهه البلاد من مشاكل التنمية حتى فى الداخل، مثل الزيادة الكبيرة فى عدد السكان . وكان



حديثنا يدور حول هذه القضايا . ولقد تكلم الرئيس جمال عبد الناصر عن مشكلة إسرائيل بطريقة غاية فى الشمول والعمق والاتزان . وليس بالتالى ثمة وجه للمقارنة بين رجل الدولة هذا الواعى تماماً بالواقع والأهداف والمصاعب وبين هتلر ، ولا حتى بينه وبين أى دكتاتور من أولئك الذين يحكمون هنا وهناك فى العالم حاليًّا . ليس ثمة وجه للمقارنة إطلاقاً . ولا شك أن محاولة بناء الاشتراكية قد بدأت حتى الآن على نحو ما بقيادة من أعلى . وربما كان مرجع ذلك عدم النمو الكافى للوعى الطبقى فى مصر . والآن بعد هذا الحدث الكبير الذى شهدته البلاد عندما أعلن عبد الناصر يوم ٩ يونيو ١٩٦٧ تنحيته ، فتمسكت به الجماهير الشعبية بقوة ، يثبت أن عبد الناصر يجد خلفه القوى الشعبية الهائلة التى تسنده . وهذا دليل على الوحدة الثورية التى تتم تحت قيادته . وإذا كانت الوحدة الثورية تؤكد نفسها فى مثل هذه الظروف التى وصفها هو بالنكسة . فإنه يجب أن نذكر فى نهاية الأمر أن الكوارث والنكسات هى دائماً تصنع الثورات . . تصنع الثورات القوية . وإننى أعتقد أن مصر والشعوب العربية تنطلق اليوم فى الاتجاه الصحيح » .

— أود لو أمكنكم أن تفسروا لى حقيقة الدوافع التى تحرك

هذا الاتهام بالذات فى الدعاية المعادية للعرب فى فرنسا ، على وجه خاص ؟

— « إن ناصر مكروه فى قطاع كبير من الرأى العام الفرنسى ، وأعنى به قطاع اليمين بالذات . وجزءاً من القطاع اليسارى . . وهو مكروه بقدر ما أثبت أنه تقدمى . فالفرنسيون اليمينيون لا يغتفرون له أنه ساعد جبهة التحرير الجزائرية فى نضالها من أجل استقلال الجزائر . ومن ناحية أخرى توجد ثمة أنواع من العناصر اليسارية مثل " جى موليه " لا تغتفر له إطلاقاً هزيمتها فى حرب السويس . والواقع أنه يجب أن نفهم هذا التماثل فى الموقف . فلم يكن لفرنسا نفس المصلحة التى كانت لبريطانيا فى السعى لقلب نظام جمال عبد الناصر : على أثر تأميم قناة السويس . ولكنها كانت تريد قلب النظام الذى كان يساند الجزائريين . وبعبارة أخرى كان الدافع الحقيقى لمغامرة السويس عند الفرنسيين ، هو الرغبة فى القضاء على نظام تقدمى كان يساعد الجزائر . ومن هذا الحقد تولدت الدعاية التى تريد أن تصور من عبد الناصر دكتاتوراً هتلرياً . . صورة زائفة وحقودة » .

وانعطف الحوار مرة أخرى إلى الحرب والعدوان فتساءلت :

ــ لقد أدنتم فى محكمة رسل التى عقدتموها أخيراً فى السويد استخدام أسلحة الإبادة الجماعية مثل النابالم . ولقد استخدمت إسرائيل فى عدوانها المفاجئ ضد البلاد العربية النابالم ، ضد العسكريين والمدنيين معاً . ويفاخر ديان بهذا ويعتبره أمراً طبيعياً فى الحرب . فما هو رأيكم فى هذا الموقف ؟ وفى تصريح ديان بأن إسرائيل لا يعنيها فى قليل أو كثير مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين يتزايد عددهم اليوم باستمرار بسبب طرد مئات الألوف الجدد من جانب إسرائيل ؟

واعتدل سارتر فى مقعده وكأنه قاض يتلو حكماً ثم قال :

ــ « إننى أعتبر بوضوح أن استخدام النابالم فى أى مكان سواء فى فيتنام أو ضد المصريين والسوريين والأردنيين عمل إجرامى فى جميع الأحوال » .

قلت :

ــ هل أفهم من ذلك أنك تعتبر « ديان » مجرم حرب ؟

هتف بلهجة قاطعة :

ــ « نعم . . الجنرال ديان مجرم حرب بسبب استعمال النابالم ، وبصفة خاصة بسبب الرغبة فى التوسع » .

وتريث سارتر برهة قبل أن يستطرد :

— « من الأمور الغريبة أنني حين ألقيت في تل أبيب حديثاً عن محكمة رسل كان ديان بين الحاضرين في مقدمة الصفوف . إنني لم أره ولم أتحدث إليه ، ولكنني علمت بأنه كان هناك . ولست أدرى لماذا حضر ، ولا ماذا كان يبغى ؟ .. على العموم فيما يتعلق بتصريحاته التي أشرت إليها ، ورفضه الكامل لعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم ، فإنني أعتقد أن هذا الموقف ضار للغاية لا من وجهة نظر الفلسطينيين فحسب بل بالنسبة للإسرائيليين أنفسهم . إنني أعتقد أن المأساة التي تقع عندهم هي عكس ما يحدث في البلاد العربية . فغرور العسكريين الإسرائيليين ونجاحهم فيما فعلوه خلال الحرب قد ترتب عليه أن القوى الرجعية والمتعصبة دينيًا هي التي تستولى حاليًا على السلطة تماماً .

إن الأمور الواضحة لدى الآن ، أن أول ما كان ينبغي على الحكومة الإسرائيلية أن تفعله أن تناقش وتحدد فوراً موعد انسحاب قواتها إلى قواعدها الأصلية أي إلى حدود سنة ١٩٤٩ . ولكن من الواضح أيضاً أنهم لا يفعلون هذا . في حين أنني أتصور أنه كان يجب أن يفعلوا هذا خلال ثلاثة أيام على الأكثر .

كذلك يتعين علينا أن ندين بشدة الاتجاهات التوسعية التى ظهرت فى إسرائيل ، حيث إنه من المسلم به اليوم أن الحروب المشروعة هى حروب التحرير وحدها . وليست بحال حروب التوسع والاحتلال . ولكن ضم أى مناطق بالقوة مثل ضم مدينة القدس العربية فهو عمل جنونى تماماً . ومن هنا أقول إننى أعتبر استخدام النابالم فى الحرب ، كما أعتبر الاتجاه التوسعى إذا ما تحددت معالمه ، أعتبرهما أمرين إجراميين » .

قلت لسارتر :

ـ لقد استخدمت الآن فى حديثك عبارة « إن الحرب المشروعة هى حروب التحرير وحدها » . .

وقاطعنى :

ـ « تماماً . . أليس كذلك ؟ »

واستأنفت :

ـ تماماً . . وهنا أريد أن أثير معك نقطة جوهرية . . ألا تعتبر أن نضال الشعب الفلسطينى المطرود من أرضه من أجل العودة إلى وطنه ، نضالا تحررياً مشروعاً . . أم أنك تضعه ، كما تضعه الدوائر الصهيونية فى إطار الأعمال الإرهابية ؟

أجاب :

— « إن ما أعتبره أنا شخصياً من قبيل الأعمال الإرهابية لاينطبق على نضال الشعب الفلسطيني من أجل العودة . إننا هنا بصدد نضال من أجل الاستقلال . وهذا النضال هو الذى سيحمل الجميع دون استثناء بما فى ذلك الدول الكبرى على الإقرار بأن القضية الفلسطينية قضية أساسية . وأعتقد فيما يخصنى أن مشكلة الدولة الإسرائيلية مشكلة ثانوية . أما المشكلة الأساسية فهى عودة الفلسطينيين إلى وطنهم . وارتباط الإسرائيليين والفلسطينيين بشرق أوسط تقدمى» .

قلت :

— هل تقصد هنا الطوائف اليهودية والعربية ؟

قال :

— « تماماً . وإن الشرق الأوسط الذى يتكون بهذا الشكل يمكنه أن يجد حلا لمشكلاته بعيداً عن الحرب » .

وهنا طرحت على سارتر ظاهرة الاستقطاب فى القوى الدولية بسبب العدوان فقلت :

— لقد أصبح واضحاً الآن أن إسرائيل تتمتع أساساً بمساندة الاستعمار العالمى ، وهى تقف اليوم فى جبهة مع أمريكا وبريطانيا وألمانيا الغربية ، وذلك فى مواجهة جبهة مكونة من

الشعوب العربية والقوى الاشتراكية والعالم الثالث . . كيف تحلل هذه الظاهرة ؟

وجاء تحليل سارتر على النحو التالى :

– « إننى أعتقد أن إسرائيل ، بكل أسف ، من حيث إنها قد نشأت بفعل مهاجرين قادمين من الغرب . وإنها حين وجدت كدولة تمتعت بعون القوى الغربية . . هذا فضلا عن رفض العرب لأى تعامل معها . بهذا كله أصبحت إسرائيل اليوم موضوعياً إلى جانب الاستعمار . ومساندة إسرائيل يقوم بها اليوم الإنجلو أمريكيون وبصفة خاصة الأمريكيون . هذا واقع . وكما قلت لك هو واقع تاريخى تطور من تلقاء ذاته . وهنا أختلف معك فى أن هذا كان منذ البداية ثمرة تواطؤ مباشر مقصود من جانب الإسرائيليين . بعبارة أخرى نحن الآن بصدد واقع موضوعى تكون تاريخياً ، وفى تقديرى أنه ربما كان من الممكن أن تسير الأمور فى غير هذا الاتجاه عام ١٩٤٨ ، ولكن ما حدث كان غير ذلك . ومن ناحية أخرى فإننى أعتبر من المنطقى والمشروع تماماً أن يعلن العالم الثالث والقوى الاشتراكية تضامنهما مع العرب ، حيث إن العرب مناضلون من أجل الاستقلال والسيادة القومية ضد المصالح الاستعمارية ، وبصفة خاصة

المصالح البترولية . وأنا واثق كذلك أن الاستعماريين يحرصون على استخدام إسرائيل ككلب حراسة ، ولكنى ألح شخصياً على اعتبار أن هذا الدور ليس فى مصلحة الإسرائيليين . . إن مصلحة الإسرائيليين عكس ذلك . إنها فى القضاء على الالتحام الموضوعى الذى أشرت إليه . وإن دولة تتكون من عنصرين ساميين ، عرب فلسطين واليهود لن يكون لها عندئذ طابع استعمارى أو غربى أو عنصرى » .

وتساءلت :

– هل تعتقد أن حرب ٥ يونيو فى الشرق الأوسط قد وضعت نهاية المفهوم التقليدى للتعايش السلمى ؟

أجاب سارتر :

– « الحقيقة أنى أعتقد أن سياسة التعايش السلمى قد تهددت بالفعل منذ حرب فيتنام . وأعتبر أننا الآن على مشارف حرب عالمية ثالثة . ولست أرى – فى تقديرى – عنصراً يسمح بتطور العالم الثالث فى ظل السلام إلا القنبلة الصينية . ذلك أنى لا أعتبرها من عوامل الحرب ، بالعكس إنها عامل من عوامل توازن الرعب . وحين ينجح الصينيون فى صناعة الصواريخ ، حيث يصبحون دولة ذرية مهيبة ، سيحس العالم الثالث بأن

عنده وسائل الدفاع ويمكن بذلك أن تسير الأمور فى مجرى يختلف عن مجراها الحالى . إننى أثق تماماً بكلمة الصين بأنها لن تبدأ باستخدام القنابل الذرية . ولكن امتلاك الصين للقنبلة الذرية سيطلق حرية الحركة لأولئك السبعمائة مليون الذين يمثلون إلى نحو ما مصالح العالم الثالث ، والذين يتهددهم دائماً كون سمائهم مفتوحة للانتقام الذرى . وعندئذ سينشأ توازن جديد قائم على الرعب ، يتوافر فى ظله ضمان لجهود العالم الثالث من أجل الاستقلال والارتقاء بمستواه الاجتماعى وبمنجزات التنمية. ولا ينبغى أن يفسر كلامى هذا على أنه موقف موال للصين أو معاد للروس . فليس ذلك قصدى » .

— هل لأن الاستعمار الأمريكى قد حقق موضوعيًّا بالفعل مكاسب كثيرة أخيراً ؟

— « لقد كسب الاستعمار الأمريكى كثيراً فى الفترة الأخيرة ، وبالدقة لأن الصين لم تملك بعد وسائل وقفه » .

— هل يمكن القول بأن الاستعمار الأمريكى نتيجة حركته التخريبية العدوانية الشاملة هذه ، قد أصبح مسئولا عن خطر اندلاع الحرب العالمية الثالثة ؟

— « طبعاً » . .

وعاد الحوار من جديد إلى جوهر الصراع العربى الإسرائيلى عندما قال سارتر :

ـ « إن القضية كما ترى هنا فى الغرب معقدة . . وهذا ما ألح على أصدقائى العرب أن يدرسوه ويبحثوه . إن القضية هنا هى قضية يهود عاشوا سنوات الاحتلال فى فرنسا ، وما شهدته من الرعب والمجازر . والذين لمسوا تواطؤ الفرنسيين والألمان فى ذلك الوقت ، أنبت عندهم فكرة مغادرة هذا العالم الغربى بدل فكرة الاندماج فيه . لقد استبدت بهم فكرة البحث عن مكان يكون لهم ، ويقبلون فيه . . ولست أعنى بذلك طبعاً أن النتيجة المنطقية لمثل هذا التفكير أن تكون إقامة دولة إسرائيل على حساب العرب . وإنما أردت فقط أن أكشف لكم عن شعور أولئك الناس . حقًّا إنه من الصحيح أيضاً ما تقولونه أنتم من أن الغربيين تخلصوا من عقدة الذنب إزاء اليهود بإرسالهم عند العرب ، الذين لم يكونوا طرفاً فى الموضوع ولا يتحملون بحال مسئولية مذابح اليهود . ولكن يجب النظر للمسألة من الجانب الآخر أيضاً . . »

ـ ياسيدى . . لقد قلت الآن إن هؤلاء اليهود الغربيين هاجروا من أوطانهم لأنهم كانوا يريدون مكاناً يقبلون فيه هرباً من

الاضطهاد . ولكنهم هبطوا فى الواقع على فلسطين بالقوة ، وتمتعوا فى هذا المكان بامتيازات على أساس أنهم يهود . وذلك على حساب غيرهم من الناس أهل البلاد الأصليين الذين إما طردوا وإما ظلوا تحت الإرهاب لا يتمتعون بأى امتياز فى بلدهم لأنهم أولا وأخيراً غير يهود !

— « إذا تحدثت عن هذا فإننى قلت فى إسرائيل ، وأقول من جديد ، إن وضع العرب فى إسرائيل هو وضع مواطنين من الدرجة الثانية . وليس فى هذا أى شك . هناك مشكلتان مرتبطتان معاً كل الارتباط ويجب حلها قبل كل شىء وهما المشكلة الفلسطينية بمعنى هؤلاء الذين طردوا ، ومشكلة العرب داخل إسرائيل . وهى مشكلة صعبة لأن السلطات الإسرائيلية منحتهم شكليًّا حقوق الديموقراطية البرجوازية ، فهم يتمتعون بحق الانتخاب ؛ وهذا لا يسبب أية مشكلة للإسرائيليين الذين يبلغ عددهم ٢,٥ مليون يهودى ، فى حين أن عدد العرب ٣٠٠ ألف فقط . ومعنى هذا إمكانية وجود بعض النواب العرب ، ولكنهم بالطبع أقلية ضئيلة جداً لا تستطيع أن تفعل شيئاً . وليس هناك أى حزب عربى . . غير مسموح . ويجب على العرب أن ينضموا إلى الأحزاب الإسرائيلية فقط ، وكذلك اتحادات الطلبة

وغيرها . . ومن هنا العنصرية . ومن الواضح كذلك أن من الناحية الاقتصادية لا يمكن أن يحصل العرب على وظائف ذات درجات عالية ، والأغلبية منهم يعملون فى مقاولات البناء » .

ــ ماذا قالوا لك هناك عندما أعلنت الحق القومى للشعب الفلسطينى فى العودة ؟

ــ « لقد تناقشت فى ذلك مع بن جوريون مثلا . وهو ضد . . ضد . هم ضد . من المحتمل أن يوافق على هذا ما أسميه باليسار الإسرائيلى ، ولكنه خائف . . يخافون هناك أن تنفجر البلد لو عاد اللاجئون . وعلى العموم اليسار ضعيف » .

ــ هذا هو بالدقة منبع العدوان . طرد أهل البلاد وإقامة دولة عنصرية بالقوة المسلحة مستندة إلى القوى الاستعمارية واحتكاراتها .

ولم يعلق سارتر بشىء ومضت فترة صمت . وكان واضحاً أن كلا منا قد فرغ رأسه من القضايا أو الأسئلة التى يريد طرحها . وقطعت الصمت قائلا بمزاح : عندما كنت أعمل محامياً كان كل نقاش فى موضوع قضائى ينتهى بسؤال : هل لديك أقوال أخرى ؟

وابتسم سارتر وقال :

— « نعم أريد أن أنهى هذا الحديث بما أعتقد أنه فهم خطأ . بمعنى أنى أريد أن أؤكد لأصدقائى العرب أن ما وقع بسبب البيان الذى وقعت عليه قبل الحرب لا يعدو أن يكون مجرد سوء تفاهم .

لقد قلت من قبل فى مصر وفى إسرائيل ، إنى أنطلق من نقطتين : ضد إبادة الإسرائيليين . ومع الاعتراف بالحقوق القومية الكاملة للفلسطينيين جميعاً فى العودة إلى الوطن . قلت هذا فى المرتين . . ولم أفعل شيئاً آخر فى الوقت الراهن . وأكثر من ذلك فإن لى رأياً محدداً ، وهو أنى أقف إلى جانب الإنجازات التقدمية لمصر والعالم العربى كله . إننى الآن كما كنت دائماً . لقد أسىء فهم موقفى وأسىء فهم البيان وتأويله . لقد أردت فقط الإشارة إلى عدم موافقتى على اتخاذ أسلوب الحرب . وكان يبدو لى وقتذاك أن قرار إغلاق خليج العقبة من شأنه أن يزيد من خطر الصدام المسلح . وقلت لا تفعلوا ذلك . . »

— ولكن من المؤكد أنك تعرف الآن حقوق المصريين بالنسبة لموضوع خليج العقبة .

— « أعرف كل حقوق المصريين . ولكن كما قلت كنت أفكر وقتذاك فى المسألة من ناحية التوقيت ، وليس كمسألة حق» .

— ولكن جاء تعيين مناحم بيجين وديان فى الوزارة الإسرائيلية كتدبير مبيت للحرب والعدوان .

— « فعلا . . منذ تعيين ديان كانوا قد قرروا العدوان . ليس هناك شك فى ذلك ، قرار تعيين ديان كان قراراً بإعلان الحرب » .

— هل يمكن فى رأيك ، ربط حرب ٥ يونيو ، بالانقلاب العسكرى الذى وقع فى أبريل باليونان ؟

— « على كل حال . . فإن هذا كله يشكل مجموعة أحداث متشابكة ومتقابلة » .

وعلى باب البيت صافحنى سارتر مودعاً وهو يقول :

— « أرجو أن تنقل للشعب المصرى وجميع الشعوب العربية تضامنى معها فى هذه المرحلة . إننى أفهم جيداً جراحها وأشاركها مشاعرها وأتمنى لها الاستمرار فى نضالها . كما أتمنى للرئيس جمال عبد الناصر أن يلقى دائماً ، ما تأكد أخيراً ، من تأييد الجماهير الشعبية ليواصل نضاله وإنجازاته » .

٣

وثائق

(ا) خطابات مفتوحة بين « رسل » وبين « الطليعة »

(ب) آراء « لسارتر » حول القضية الفلسطينية .

خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة وغزة فى فبراير– مارس عام ١٩٦٧ .

(١) خطابات مفتوحة بين « رسل » وبين « الطليعة »

خطاب مفتوح من برتراند رسل إلى المثقفين العرب

[وجه رسل هذا الخطاب إلى الطليعة فى أواخر مارس عام ١٩٦٥ مفتتحاً بذلك الحوار بينه وبين المثقفين العرب . وقد نشرت الطليعة الخطاب وتعليقها عليه فى عددها الصادر فى أول أبريل عام ١٩٦٥]

تواجه البشرية أزمة خطيرة لا يقتصر أثرها على مطالب الإنسان الأولية ، بل تهدد بقاءه على هذا الكوكب . فإن الجزء المتقدم من عالمنا عندما وجه أغلب موارده إلى التسلح ، فرض حياة مشحونة بالخطر على الجزء الآخر من العالم ، وأكد استمرار شقاء شعوبه ، كما بعث شبح الإبادة يخيم على الجميع. لهذا أصبح على المثقفين العرب مسئوليات خطيرة تجاه شعوبهم ؛ فإن الظروف التى أوضحتها باختصار قد أثرت على العالم العربى تأثيراً حيوياً ، وكان تحرر العرب من السيطرة الغربية من أعظم

الحركات الثورية فى عصرنا الحاضر . ونظراً لوجود المصالح الحيوية للدول الاستعمارية التى تعتمد صناعاتها على البترول فى الشرق الأوسط ، فقد انغمست هذه الدول فى التآمر على وقف التيار الكاسح للاستقلال والتقدم الاقتصادى الذى ساد البلاد العربية ، وذلك حتى تحمى هذه المصالح الاستعمارية .

وقد أدى هذا الموقف ليس فقط إلى سمة بروز الانضباط بل أيضاً الحكم القيادى الفردى الطابع ، فى كثير من الأحيان بين حركات التحرر الوطنى التى تعبر عن آمال الشعوب العربية .

ونحن فى الغرب ندرك أن الضغط الرهيب الذى تمارسه حكوماتنا ضد البلاد العربية ، والذى يتخذ شكلا اقتصادياً مرة ، وشكلا عسكرياً مرة أخرى أوجد مشاكل عديدة فى مواجهة الحكومات المستقلة وحركات الاستقلال الشعبية فى هذه المنطقة . فكانت النتيجة أيضاً عدم الترحيب بالاختلافات فى الرأى ، الأمر الذى يمكننا إدراكه وفهمه ، بل قد يكون حتمياً فى بعض الحالات . كل هذه الظروف الخاصة تضع مسئوليات مضاعفة على عاتق المثقفين العرب قد تفوق مسئوليات غيرهم من الجماعات المثقفة . لأنه فى بعض الحالات الهامة كان

التشدد مع الآراء المختلفة المعارضة سبباً فى تعريض استقلال وتطور الشعوب العربية ، للتعويق والتشويه .

إن شعوبكم تتطلع إليكم ، وتلقى مسئولية تأكيد الديمقراطية ، خلال عملية التطور عليكم ؛ فإن أمجاد الشعوب العربية لم يصنعها أدبها ولا شعرها ولا فنها ولا علومها ولا حتى جمال لغتها فحسب ، بل إن عظمة هذه الشعوب وتقدمها يصنعه أيضاً الذين يملكون الاستقلال الثقافى ويمارسون النقد الذكى ، لأن هذا هو ثروة أى شعب ، وسر قوته الخالدة التى تمكنه من تحقيق الاستقلال الفعلى ، والاكتفاء الذاتى ، ويتيح له القدرة على الخلق وتوفير الأمن . والقوة العسكرية لم تحقق لأى أمة من الأمم الاستقرار ولا راحة البال ما دامت ثقافتها عاجزة عن توفير الحياة المثمرة ، وعن إثارة حوافز التحدى لدى هذه الأمة ، بل إن التقدم الاقتصادى فى حد ذاته إذا اقتصر على تحقيق الربح الشخصى يصبح تقدماً فجاً وفاسداً ، كما نرى فى الغرب ، ما لم توجه ثمار هذا العمل نحو أهداف أخلاقية . وترتبط هذه المشاكل كلها ارتباطاً مباشراً بآمالنا المعلقة على السلام . لأنه فى هذا العالم المعقد ، عندما يواجه المسئولون عن شئون أمة ما ضغوطاً هائلة ، فمن الضرورى أن يتخذ المثقفون

العرب موقفاً صريحاً إلى جانبي حرية التعبير ، والديموقراطية الحقيقية لكل المستويات فى المجتمع ، وأن يعملوا على خلق مناخ من الحماس للنقد البناء .

ونحن إذ نواجه سباقاً للتسلح الذرى فى العالم بما فيه الشرق الأوسط ، نجد أن التناقضات المختلفة التى تهدد السلام فى العالم تمثل أيضاً خطراً جسيما على حياة الشعوب العربية . فإذا اتخذ المثقفون العرب سبيل الصراحة والاستقلال كان فى استطاعتهم مشاركة كل العاملين بإخلاص من أجل السلام — بدون استثناء — على استكشاف احتمالات تحقيق السلام . وإذا كانت العواطف القوية ضرورة للعمل الإنسانى ، فلا بد أن يوجه العقل هذه العواطف بعناية شديدة نحو خدمة الأهداف البناءة دون غيرها . وتقع على المثقف مسئولية البحث بشجاعة عن كل الطرق التى توصل إلى الحل السلمى للمشاكل الصعبة .

وفى مقدمة القضايا التى تواجه الشعوب العربية اليوم ، نزع السلاح الذرى ، إلغاء القواعد والأحلاف العسكرية ، تحقيق الاستقلال الاقتصادى الحقيقى بالإضافة إلى تخطى كافة العقبات التى تعوق طريق تجنب الحرب . وإنى أتطلع إلى مبادرة المثقفين العرب ، وإلى تعاونهم الوثيق فى العمل على التقدم نحو أغراضنا

المشتركة ، فى تجنب الحرب ، وتنمية الموارد من أجل الأهداف البناءة ، واتباع كافة السبل الممكنة لحل الخلافات القائمة .

* * *

تعليق « الطليعة »

حول خطاب « رسل » المفتوح

تنشر « الطليعة » — بترحاب وتقدير — الخطاب المفتوح الذى بعث به إليها ، رجل السلام العظيم « برتراند رسل » ، ويوجهه على صفحاتها إلى المثقفين العرب وتود الطليعة — بادئ ذى بدء — أن تؤكد « لرسل» ما يكنه المثقفون العرب الذين يخوضون معركة شعوبهم من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة والسلام — من تأييد حار ومشاركة إيجابية ، بجهوده الشجاعة والبناءة — الفردية والتنظيمية— فى سبيل انتصار قوى السلام على قوى الحرب والعدوان فى عالمنا .

وفى هذا الإطار تسمح « الطليعة » لنفسها بأن تبدى بعض الملاحظات على ما جاء بخطاب رسل المفتوح :

أولا : أن التعميم الذى أبداه « رسل » فى خطابه حول « تحرر العرب من السيطرة الغربية » لا يتفق والواقع الموضوعى

تماماً . فإذا كانت بعض أجزاء الوطن العربى الطليعية قد تحررت بثوراتها فعلاً عن التبعية الاستعمارية ، فما زالت بعض الأجزاء الأخرى مقيدة الحرية إما بطريق غير مباشر ، يكون فيه الاستقلال شكلياً ، مفرغاً من مضمونه السياسى والاقتصادى ، وإما بطريق احتلالى مباشر أو عدوانى مسلح ، كما هو الحال فى الجنوب العربى المحتل ، أو فى الاعتداء على جمهورية اليمن ، أو فى العدوان الصهيونى العنصرى المستمر على عرب فلسطين .

ومن هنا فمعركة الشعوب العربية — ككل — مع الاستعمار العالمى — القديم والجديد — ما تزال مستعرة ومستمرة . وتشترك فيها بنصيب حيوى شعوب الأجزاء المتحررة ، بحكم المصير المشترك وبحكم أن الحرية لا يمكن أن تستقر آمنة بطريق التجزئة .

هذا فضلا عن أن حركة التحرر العربى ترتبط ارتباطاً عضوياً وثيقاً بحركة التحرر الأفريقى . إن ٧٢٪ من أراضى الوطن العربى أفريقية ، وبالتالى فمصيرها جزء لا يتجزأ من مصير هذه القارة . ولهذا تمارس الأجزاء المتحررة من الوطن العربى بوعى ، مسئولياتها المباشرة وغير المباشرة ، المادية والمعنوية ،

بالنسبة لجميع حركات التحرر العربية والأفريقية المعاصرة . ولا يمكن القول إذن بأن البلاد العربية قد تحررت نهائياً من الاستعمار والسيطرة الغربية .

ثانياً : إن طابع الانضباط والحكم القيادى الفردى الذى يتحدث عنه « رسل » ملاحظاً إياه من خلال فهمه لظروف حركات التحرر الوطنى ، يجب أن يقيم من خلال تحليل موضوعى لهدف ومضمون هذا الطابع الاجتماعى . بمعنى هل هو منضبط قيادياً لصالح دكتاتورية شخصية أو لصالح فئة اجتماعية رجعية مستغلة ، أم هو تعبير حتمى — بحكم الظروف — عن قيادة ثورية منتخبة ممثلة للقوى الاجتماعية العاملة الأكثر تقدماً فى مجتمعها ، والتى تمارس فى الواقع ثورة قومية تحررية واجتماعية تقدمية فى نفس الوقت . وبالتالى فالفرد القائد هنا يلعب بالضرورة والحتم دوراً تقدمياً فى تاريخ التطور العام ، مخالفاً ومناقضاً لدور الفرد الدكتاتورى البرجوازى المعادى لحركة التقدم محلياً وعالمياً على السواء. وبدون هذا التمييز نقع فى التجريد الذى يخلط الملح بالسكر لمجرد التشابه الشكلى بينهما ، فلا نستطيع أن نفرق جذرياً مثلا بين دور رجل كسالازار مثلا فى البرتغال ، وتشومبى فى الكونجو . . وبين رجال مثل عبد الناصر

وسيكوتورى وموديبوكيتا ؛ فى كل من مصر وغينيا ومالى .

إن هؤلاء الرجال الآخرين — وإن تصدرت شخصياتهم فى مقدمة شعوبهم ، بحكم الظروف التاريخية ومركزية القيادة الضرورية فى مراحل الانتقال الثورية المعقدة الصعبة . إلا أنهم فى الحقيقة نتاج ديمقراطى لنضال القوى الشعبية فى بلادهم ضد الاستعمار والاستغلال . ومن هنا فهم يمثلون فى وقت واحد ديموقراطية قوى الشعب العاملة من ناحية . ودكتاتورية هذا الشعب من ناحية أخرى ضد الطبقات الرجعية المستغلة والمرتبطة بالمصالح الاستعمارية . وفى هذا المجال تمارس الحرية والديموقراطية من جانب القوى الشعبية فى إطارها الاجتماعى الثورى ، وبأسلوب النقد والنقد الذاتى الشامل لكل نواحى المجتمع .

ولعل فى المناقشات الرحبة والصراعات الفكرية الحية التى يشهدها اليوم مجتمع كالمجتمع المصرى أو المجتمع الجزائرى ، ويسهم فيها إيجابياً العمال والفلاحون والمثقفون والبورجوازية الوطنية حول بناء التنظيم السياسى والمجتمع الاشتراكى ووسائل ممارسة الديمقراطية من أوسع نطاق وأوجه التفاعل الإيجابى مع حركات التحرير الوطنى والسلام العالمى . . ما يؤكد « لرسل » ؛ المناخ الصحى الديمقراطى لهذه المجتمعات .

فالمسئولية الفردية التقدمية المتفاعلة مع خط التطور ، لا تنفى ولا تتعارض مع القيادة الجماعية والديمقراطية الحقيقية بل تدعمها . وليس من شك فى أن حركة السلم التى يقودها رسل قد اكتسبت ــ بهذا المفهوم ــ جزءا هاماً من قيمتها بانتسابها إلى جهود وشخصية المفكر العظيم .

ولذلك حرصت على أن تطلق على نفسها اسم « مؤسسة ــ برتراندرسل للسلام » . وليس لهذا من معنى إلا تفاعل المسئولية الفردية لرسل مع القيادة الجماعية والتنظيم الجماهيرى للمؤسسة. ومن هنا كان الطابع الفردى لهذه المؤسسة طابعاً تقدمياً .

ثالثاً : إننا نؤمن مع رسل بضرورة حل كل الخلافات القائمة بين الدول فى عالمنا المعاصر بالطرق السليمة . ولكنا فى نفس الوقت نؤمن بأنه من البديهى والطبيعى أن نخرج تماماً من نطاق هذه « الخلافات » ، الصراع الثورى بين الشعوب المستعمرة والمغتصبة أراضيها وبين القوى الاستعمارية والقواعد العدوانية تحت أية صورة أو شكل . وبدون هذا التمييز فإننا نتورط ــ كما لا يخفى ــ من أن إضفاء الشرعية على الاستعمار وقواعده ، منبع الحرب والعدوان .

وبعد . . فإننا نرحب بخطاب راسل المفتوح ، ونشاركه

بعمق الإحساس بمسئوليتنا الإنسانية — المادية والمعنوية — فى العمل المشترك من أجل تجنب الحرب . وتنمية الموارد من أجل الأهداف البناءة للسلام العالمى ، والإنسان حر ، آمن ، غير مستغل فوق كل أرض وتحت كل سماء دون ما تمييز أو تفريق لونى أو عنصرى أو دينى . « لطفى الخولى » الطليعة

* * *

الخطاب المفتوح الثانى من «رسل» إلى الأصدقاء العرب

دعا المفكر والفيلسوف البريطانى « برتراند رسل » داعية السلام العظيم المعاصر ، « لطفى الخولى » رئيس تحرير « الطليعة » لقضاء عطلة نهاية الأسبوع الثانى من شهر سبتمبر الماضى معه فى بيته الريفى الصغير الكائن بقرية بنرهنديرث بمقاطعة ويلز ببريطانيا والمطل على بحر الشمال .

وقد أتيح للطفى الخولى خلال هذا اللقاء أن يجرى مناقشات مثمرة مع المفكر الكبير حول كثير من قضايا السلام والساعة . وأن يستفيد من كل دقيقة قضاها فى رحاب هذا العقل المضىء والذى يختزن خبرة ٩٣ عاماً متصلة علماً وجهاداً .

وفى هذا اللقاء تحدث « رسل » عن قضية الديمقراطية فى العالم . . وكيف أنها ما برحت على الرغم من كل التقدم المادى

والمعنوى الذى أحرزه الإنسان سؤالا يبحث عن جواب فى مختلف المجتمعات والنظم بدرجات متفاوتة . وأكد ثقته فى أن تجارب المجتمعات النامية الجديدة مثل التجربة المصرية قادرة بجرأتها وجديتها وفتوتها ، أن تجسد عمليًّا إجابات أكثر إنسانية على سؤال الديمقراطية .

وقال « رسل » إنه يتجه إلى هذا الرأى من خلال تجربتين له مع كل من مصر وأمريكا . فقد حدث أن بعث إلى « الطليعة » بخطاب مفتوح إلى المثقفين العرب تضمن نقداً لبعض أوجه الحياة العربية المعاصرة ، فنشرته « الطليعة » بترحاب كامل ، وأدارت معه حواراً علمياً ديمقراطيًّا(١).

أما فى أمريكا فقد حدث أن طلب منه بعض الناشرين الأمريكيين مقالا عن « بروز سياسة العنف الأمريكية » وذلك خلال حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية التى دارت بين كل من جونسون وجولد ووتر . وبعث لهم بالمقال ولكنهم ما إن اطلعوا عليه حتى اعتذروا عن نشره رغم أنهم هم الذين طلبوه . واعتقد راسل فى بداية الأمر أن هؤلاء الناشرين يخالفون رأيه وأن هذا سر الامتناع عن النشر . ولكنه فوجئ فيما بعد بأن كل

(١) نشر خطاب وسل المفتوح وتعليق الطليعة بالعدد الرابع (أبريل ١٩٦٥).

الصحف الأمريكية امتنعت عن نشر المقال . وكان واضحاً أن هناك تعليمات وأوامر عامة بعدم النشر . وهكذا لم ير المقال حتى اليوم النور وأصبح مشهوراً باسم « مقال رسل الممنوع »[1]

خطاب رسل إلى الأصدقاء العرب

كتب هذا المقال قبل إجراء انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة التى جاءت بالرئيس « جونسون » إلى السلطة . إن الازدياد السريع للعنف الفوضوى داخل الولايات المتحدة يسير جنباً إلى جنب مع التوسع فى العدوان العنيف باعتباره سياسة قومية ينتهجها أولئك الذين يحكمون أمريكا الآن. ورغم أن هذا المقال قد كتب بناء على طلب صحف أمريكية ، إلا أنها رفضت نشره عندما اطلعت على محتواه .

لقد أثبتت الحوادث صحة جوانب معينة فى هذا المقال ، فقد اتخذ الرئيس « جونسون » جميع أوجه سياسات خصمه ، وأظهر أنه يتبع — فى الأساس — نفس أهدافها ويمثل نفس القوى التى مثلها السناتور « جولدووتر » منافسه السياسى اسما . وتؤكد هذه الحقيقة أن سياسات وأهداف المجموعة الحاكمة فى

---

(١) أى حتى نشره مع خطاب رسل الثانى فى الطليعة — العدد الحادى عشر (نوفمبر ١٩٦٥) .

أمريكا لا ولن ترضى بتنازلات أو تقبل المهادنة ، وأنها يمكن أن تنتهى فحسب عندما تهزم هذه المجموعة وتقصى عن السلطة . إن سلام العالم وسعادة الشعوب يتوقفان على تحقيق ذلك . وإنى لأعلم أن هذه الأفكار ستجد استجابة فكريه وقلبية من الشعب العربى لأنه جرب القهر الشديد الصارم للإمبريالية الأمريكية واستغلالها وعنفها .

هناك نقطة واحدة أود توضيحها بطريقة لا يتطرق إليها الخطأ ، هى أن الشعب الأمريكى — فى مجموعه — لا يعد مسئولا تماماً عن جرائم أولئك الذين يحكمونه ، لأن الشعب الأمريكى هو أيضاً ضحية لحكامه . لقد أظهر كثير من الأمريكيين شجاعة عظمى فى معارضة سياسة الولايات المتحدة فى فيتنام . وعندما حاولت الولايات المتحدة أن تهين كرامة الشعب المصرى ، بالإيحاء بأن سياسة الجمهورية العربية المتحدة يجب أن تتغير إذا ما أريد استمرار المعونة الأمريكية ، انضم كثير من الأمريكيين إلى الشعب المصرى فى إدانته وازدرائه لمحاولة الابتزاز هذه .

وفى الوقت الحالى ، تقوم وكالة المخابرات المركزية بضغط كبير وبالتآمر على الرئيس ناصر والشعب المصرى وإنجازاته الثورية وأمانيه . وينبغى أن نتذكر ، ولا ننسى بسهولة أن

ميزانية وكالة المخابرات المركزية تبلغ خمسة عشر ضعف مجموع ميزانيات كل النشاط الديبلوماسى لحكومة الولايات المتحدة . ولا يوجد بلد واحد لم تشتر فيه وكالة المخابرات المركزية أقساماً من الجيش والبوليس ورجال السلك المدنى ، ولم تدبر فيه الخطط لاغتيال الشخصيات الوطنية المرموقة . هذا هو السجل الذى تفخر به وكالة المخابرات المركزية نفسها ، والوثائق التى تثبت عمل هذه العصابة من القتلة المنظمين معروفة جيداً . لقد تابعنا باهتمام، مؤامرات وكالة المخابرات المركزية ضد شعب مصر والتى كشف عنها أخيراً ، ولقد تحدث عبد الناصر باسم الأمة العربية فكشف النقاب عن هذه المؤامرات وهزيمتها ، وينبغى علينا أن نعمل بلا كلل لنرى إنجازات وآمال الشعب المصرى والأمة العربية وقد تحققت .

وإنى لمغتبط أن دعتنى « الطليعة » ــ المجلة الاشتراكية الرائدة فى العالم العربى وأفريقيا ــ التى تصدر بالجمهورية العربية المتحدة إلى المشاركة فى تحريرها بهذا المقال وذلك من خلال المناقشات القيمة التى دارت بين رئيس تحريرها السيد لطفى الخولى وبينى فى منزلى بويلز ، وعلى صفحات « الطليعة » نشر من قبل خطابى المفتوح إلى المثقفين العرب الذى بدأ من

خلاله حوار حول المسائل التى ينبغى عملها من أجل سلام العالم والديمقراطية والتقدم الاجتماعى . وإننى أرحب بالحرية الكاملة التى التزمتها الطليعة فى تبادل الرأى ، وهى ظاهرة مشجعة. وإنى لمبتهج أن أتيحت لى هذه الفرصة لأعبر عن تقديرى وإعجابى بالدور الحيوى الذى تقوم به « الطليعة » فهى ترتقى إلى مستوى اسمها فيما يتعلق بالمهمة التى وضعتها نصب عينيها ، مهمة المساهمة الإيجابية فى التوعية الشعبية لتحقيق الإنجازات الجوهرية لأمانى الشعب المصرى الوطنية عبر الاشتراكية . « فالطليعة » قد أخذت على عاتقها تلك الرسالة الهامة القائمة على بحث المشاكل الواقعية التى تواجه شعب مصر اليوم ، وتواجه كل المهتمين بتطور الأفكار الاشتراكية والأهداف الدولية التى برزت على صفحاتها .

لقد انتقدت فى خطابى السابق جوانب معينة فى الحياة السياسية المصرية وفى الثورة العربية . وقد نشرت هذه الانتقادات بحرية وبلا تردد . والمقال التالى ينتقد بعض الجوانب الهامة فى الحياة الأمريكية. وقد رفض نشره فى الولايات المتحدة من عديد من كبريات الصحف . إن الولايات المتحدة تدعى الإيمان بالديمقراطية وحرية التعبير ، لكنها تتخذ فى الحقيقة

خطوات لمنع كليهما . وإن الترحيب الذى قابلت به « الطليعة » تعليقاتى النقدية هو بالنسبة لى واحد من أكثر التطورات المشجعة فى الصورة العربية .

« برتراند رسل »

* * *

بروز سياسة العنف الأمريكية

برتراند رسل

تتزايد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، سياسة العنف غير المشروع فى مناطق متعددة من العالم . لقد وضعت هزيمة النازيين حداً لتفوقهم فى هذا المجال ، إلا أن أعمالهم الشريرة لم تنته بعد، فقد انتشرت روح العنف فى بلاد أخرى وخاصة فى أمريكا التى جسمت خطر الشيوعية ، وصورتها كشر يبلغ فى ضراوته حداً يبرر معه شرعية الأساليب المتخذة للتصدى لها .

وفى الوقت الذى تتهم فيه أمريكا ، الشيوعيين بالرغبة فى السيطرة على العالم ، تحاول أمريكا نفسها — تحت ستار هذا الشعار — أن تفعل بالدقة نفس الشىء الذى تتهم به أعداءها . والأساليب التى تنتهجها أمريكا فى هذا الصدد، ليست معروفة تماماً للرجل الأمريكى العادى. ويعزى هذا — من جهة — إلى سياسة إخفاء الحقائق عنه عن عمد ، كما يعزى من جهة

أخرى إلى نفور المواطنين المسالمين من التعرف على الأعمال القذرة التى ترتكب باسمهم .

ولسوف أتناول شرورهم من زوايا أربع : الأولى عن الحرب فى فيتنام الجنوبية . والثانية عن سياسة العنف داخل الولايات المتحدة . والثالثة عن اغتيال كيندى . والرابعة عن تهديدات جولد ووتر .

١

الحرب فى فيتنام الجنوبية

كانت فيتنام الجنوبية – حتى نهاية الحرب العالمية الثانية – جزءاً من الهند الصينية الفرنسية . لكن الحركة الوطنية أشعلت ثورة عامة فى كل أنحاء الهند الصينية ، وأنزلت بفرنسا هزيمة ساحقة فى ديان بيان فو عام ١٩٥٤ ، وقام مؤتمر جنيف بتقسيم المنطقة إلى عدة دول مستقلة جديدة . وتم تقسيم فيتنام – مؤقتا – إلى جزأين : الشمال والجنوب . وكان مقرراً أن يتحد الشطران بعد إجراء أنتخابات عامة فى وقت قريب . وفى ختام مؤتمر جنيف صرح و . بيديل سميث باسم الولايات المتحدة قائلا : « إننا قد أبلغنا بنصوص الاتفاقيات والفقرات من

١ إلى ١٢ التى تضمنها البيان النهائى .. ولسوف تمتنع الولايات المتحدة عن استخدام القوة أو التهديد بها . . ولسوف ترقب الولايات المتحدة أى تجديد لاستخدام القوة باهتمام بالغ « باعتباره خرقاً للاتفاقيات » وتهديداً للسلام والأمن الدولى » .

وتولت السلطة فى فيتنام الجنوبية حكومة رجعية تعتمد على المساندة الأجنبية . وتدفقت منذ ذلك الوقت القوات الأمريكية على فيتنام الجنوبية لمساندة حكم الدكتاتور نجو دينه ديم الذى ارتكب — بمساندة أمريكا — سلسلة من الفظائع التى أدت إلى وقوع تمرد ضده وتخلت أمريكا عنه ، وعلى أية حال لم تكن الحكومة الجديدة — التى كانت لعبة فى يد أمريكا — بأقل سوءاً من حكومة ديم . فمنذ وصولها إلى السلطة اقترفت بدورها — بمساعدة أمريكا العسكرية أيضاً — سلسلة من الجرائم التى لا تكاد تجد مثيلا لها فى العصر الحديث . إن الفظائع التى ارتكبت فى فيتنام الجنوبية خلال السنوات الماضية وفى ظل حكومتى فيتنام الجنوبية — والذى تم بتدبير ومساعدة أمريكا والضباط والجنود الأمريكيين — يحتاج سردها إلى مساحة تزيد كثيراً على المتاح لى فى هذا المجال .

لقد لاقت حكومة فيتنام الجنوبية ، استنكار ومقت الفلاحين

الذين يمثلون غالبية السكان، وكان الفلاحون ينضمون ــ كلما أمكنهم ذلك ــ إلى قوات حرب العصابات المعروفة بالفيت كونج . وللحد من هذا التيار الجارف من جانب الفلاحين ، نقلت نسب كبيرة منهم من بيوتهم ليسجنوا فيما يسمى «بالقرى الاستراتيجية » . وفى هذه القرى أرغموا على العمل الإجبارى تحت إشراف ثلثمائة ألف جندى من البوليس السرى . كما تشن قوات الحكومة هجمات بربرية على القرى ، بالأسلحة والمساعدات الأمريكية . وتقترف هذه القوات ــ التى يقودها أمريكيون ــ فظائع مرعبة .

ومعظم سكان فيتنام الجنوبية من البوذيين ــ ومما جاء فى بحث أخير أعده سيتشى ثين هاو ــ أحد زعماء الطائفة البوذية ــ أن الحكومة قد أبادت ١٦٠ ألف فلاح حتى منتصف عام ١٩٦٣ كما عذب وتسبب فى عجز ٧٠٠ ألف آخرين . وألقى فى السجن بـ ٤٠٠ ألف واغتصب ٣١ ألف امرأة. وانتزعت أمعاء وأكباد ٣ آلاف وهم أحياء . كما أحرق ٤ آلاف من الأحياء . ودمر ألف معبد. وأغير فيما بين يناير ومارس عام ١٩٦٤ على ٤٦ قرية استخدمت فيها الغازات السامة .

وتتطابق هذه الأرقام التى وردت أيضاً فى تقرير جبهة

التحرر الوطنى ، مع ما جاء فى تقارير كل من جمعية الصليب الأحمر الحرة فى فيتنام الجنوبية واتحاد نساء فيتنام الجنوبية والحزب الديمقراطى الفيتنامى . كما جاء فى تقرير اتحاد العلماء الأمريكيين أن الولايات المتحدة تستخدم الغازات السامة فى جنوب فيتنام وتتخذ من هذه البلاد حقل تجارب لاختبار الأسلحة الكيميائية والبيولوجية . كما جاء فى تقرير نشرته مجلة لوك (فى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٣) ومجلة ترو «الحقيقة» (فى ديسمبر ١٩٦٣) — وهما مجلتان لا تعارضان السياسة الأمريكية بشكل عام — إن قوات حكومة فيتنام الجنوبية تستخدم رصاص دمدم المحرم استخدامه دولياً باعتباره سلاحاً بربرياً . ولقد جاء فى تقرير لمراسل مجلة ترو : «لقد شاهدت أحد الذين أصيبوا برصاص دمدم فى ذراعه . فبمجرد ما أصابت ذراعه لف الرجل حول نفسه ثم تطاير ذراعه أشلاء . ورأيت شخصاً آخر أصابته رصاصة فى ظهره فأطاحت بقلبه خارج جسمه ليتدلى منه بالفعل . وشاهدت آخر أصيب برصاصة فى عجزه ، فلم يعش أكثر من خمس دقائق أما البعض الآخر فقد مات على التو . وكان من الممكن أن تصبح إصابات كل هؤلاء سطحية لو استخدم رصاص من نوع آخر » .

وفى تقرير للحزب الديمقراطى الفيتنامى المعروف بعدائه للشيوعية ـ حيث جعل شعاره « من أجل هزيمة الشيوعية ولصالح الأحرار فى كل مكان » ـ يقول التقرير : «لنفرض أن الغرض من تحصين القرى هو منع الفيت كونج من دخولها . لكن السلك الشائك يمنع الخروج منها، بالضبط كما يمنع الدخول . ويُجبر الفلاحون الفيتناميون بقوة السلاح على دخول المعسكرات التى تعد من الوجهة العملية معسكرات اعتقال . كما تحرق بيوتهم وممتلكاتهم ومحاصيلهم . واقتيد سبع من القرويين فى إقليم كيين تيونج إلى الميدان وأبقرت بطونهم وأخرجت أكبادهم لتعرض على المارة . وكان جميع هؤلاء الضحايا من النساء والأطفال . وقطعت رءوس اثنتى عشرة امرأة أمام أعين المواطنين فى قرية أخرى . كما قامت قوات الحكومة فى بعض القرى الأخرى ، بدعوة الحوامل إلى الميدان لتكرمهن؛ إلا أنها قامت بتمزيق بطونهن وانتزاع الأجنة التى لم تر الحياة بعد » وكم يبدو مثيراً أن نعرف أن هذا التقرير قد نشر فى إحدى صحف ولاية دالاس الأمريكية . وهى صحيفة دالاس مورننج نيوز فى أول يناير عام ١٩٦٣ .

لقد كان هناك اتجاه بحظر نشر مثل هذه الحوادث .

وفى ٥ مايو من عام ١٩٦٤ ، أعلنت الأسوشيتدبرس « أن هناك وثيقة خطيرة جداً ومثيرة بين أيدى أعضاء إحدى اللجان الفرعية بمجلس النواب ، أدت بإدارة التوجيه لأن تضع القيود على حركة مراسلى الصحف الذين يقومون بتغطية أخبار الحرب فى فيتنام الجنوبية . وتقضى هذه القيود : ١ — بإبعاد المراسلين عن المناطق التى تدير القوات الأمريكية الحرب فيها بشكل كامل أو شبه كامل . ٢ — إبعاد المراسلين عن أى منطقة يتوقع — بناء على تطور الأحداث فيها — فشل إمكانية الاحتفاظ بالولاء الكامل لشعب فيتنام الجنوبية » .

إن الأحداث السابقة — رغم فظاعتها — تعد مجرد عينة صغيرة لأحداث كثيرة مماثلة . إنها تعطى لنا صورة عن نوع الحرب التى تشنها الولايات المتحدة فى فيتنام الجنوبية . تلك الحرب التى يمكن أن تتكرر فى أية منطقة أخرى من آسيا ، والتى يبدو أنها تتبع بالفعل فى الكونجو . إن كل أمريكى لا يعلن احتجاجه على هذه الحرب ، إنما يتحمل وزر هذه الأعمال البربرية . تماماً كما يحمل الرجل الألمانى العادى وزر جرائم أوستر ليتز .

والأمر الذى يجعل من استمرار الحرب فى فيتنام أكثر مثاراً للدهشة والفزع ، هو أن الطريق لإنهاء هذه الحرب واضح ،

والأمر لا يتطلب أكثر من تذكر اتفاقية جنيف والسماح لهذه المنطقة المعذبة أن تحظى بما تريد — أعني بالحياد . لقد دعت عدة دوائر لها نفوذها ، إلى اتباع هذه السياسة ولكن دون جدوى .

إنه لمن الصعب علينا أن نقاوم الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يأمرون بارتكاب هذه الفظائع فى فيتنام وأولئك الذين يقومون بتنفيذها ، يستمتعون بتلك الجرائم ، يدانون بارتكابها . ومن بين هؤلاء الذين يأمرون بهذه الفظائع ، مسئولون أمريكيون يتدرجون حتى رئيس الولايات المتحدة نفسه .

٢

العنف داخل أمريكا

لقد امتدت سياسة العنف الأمريكية ، لتنعكس على حياة الأفراد وخاصة فى الجزء الغربى من الولايات المتحدة . ويتضح من تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالى الذى نشر حديثاً فى (صحيفة إيفننج ستاندارد فى ٢٠ يوليو عام ١٩٦٤) ، أن جريمة قتل ترتكب كل ساعة فى أمريكا ، وفى كل ٣٢ دقيقة تقع جريمة اغتصاب .

لقد نمت عادة عدم احترام القانون فى أمريكا خلال الصراع مع الهنود والزنوج وخلال الثورة الأمريكية والحرب الأهلية والحرب ضد المكسيك وخلال غزو الغرب . وإلى حد كبير بسبب التدفق المستمر للمهاجرين من غير الأمريكيين على الولايات المتحدة والذين لم يندمجوا بعد فى المجتمع الأمريكى. هذا بالإضافة إلى عدد من الأسباب الأخرى الأقل أهمية .

إن سياسة التمييز بين الزنوج والبيض . لمن أكثر المشاكل القائمة فى الولايات المتحدة خطورة وتفجراً وأكثرها استعصاء على الحل . وعلى أية حال لن أكتب الكثير عن هذا الموضوع ، فهو معروف جيداً فى أمريكا كما أن الاهتمام به شائع فى كل مكان . ويبدو لى أنه من الأفضل أن أركز فى هذا الحيز المحدود ، على بعض المخاطر والفظائع التى تبدو غير معروفة على نطاق واسع .

حتى وقت قريب فى بعض الولايات الجنوبية بأمريكا، كان الرجل الأبيض يستطيع أن يطلق النار على زنجى ، دون أن يعتبر هذا الفعل جريمة قتل . وكان الرجل الأبيض يفلت من العقاب على الأرجح . إلا أن هذا الواقع يتغير اليوم تحت تأثير ثورة الزنوج . فقد تفجرت اضطرابات هارلم على أثر مقتل

صبي زنجي على يدى رجل بوليس أبيض . وأيًّا كان ما يقول به القانون ، فالواقع أن الزنوج فى أنحاء كثيرة من البلاد يعتبرون خارجين على القانون من الوجهة العملية ، إن لم يكن من الوجهة النظرية . ولقد صار شعور الاستهتار بحياة الزنوج — وحتّى بحياة البيض — شائعاً فى غرب أمريكا منذ بدأ تعميره . بل إن المحاكم نفسها لا تبدى احتراماً كبيراً للعدالة على نحو ما كان ينتظر منها . ومنذ حكم آدمز ثانى رؤساء الولايات المتحدة تتابعت على البلاد موجات من انتهاك القوانين .

فقد أعدم ساكو وفانزيتى فى عصرنا هذا ، على الرغم من أن براءتهما كانت واضحة . كما حكم على سوبل بالسجن لمدة ٣٠ عاماً ، لمجرد أنه كان صديقاً لأسرة روزنبرج . وكان الدليل الوحيد ضده ، ذلك الذى قدمه شاهد زور محترف ، لم يقدم للمحاكمة قط . وقد أعلنت الدائرة الثانية لمحكمة الاستئناف فى ٦ فبراير عام ١٩٦٣ ، أن من حق سوبل إعادة محاكمته ولكنها رفضت إعادتها بدعوى أنه تأخر فى طلبه فسقط حقه فى إعادة المحاكمة . وقالت المحكمة إن المحاكمة الأصلية كانت غير عادلة ؛ ولكن فات أوان إعادة النظر فى محاكمته بعد أن قضى ١٣ عاماً

فى السجن – قضى معظمهم فى سجن الكاترار * . (من مذكرات لجنة النظر فى قضية سوبل – ١٩٦٣) . ولا يزال سوبل سجيناً حتى هذه اللحظة .

ومن الأفكار السائدة فى أمريكا ، أنه إذا كان المرء شيوعياً فلا حقوق له . ومن ثم يحق للمحاكم أن تدينه بأية جريمة تتراءى لها . وهكذا تتخذ الخرافة السائدة عن الحرية الأمريكية أشكالا بشعة ومنفرة . ولنأخذ على سبيل المثال قضية مقاومة قانون التعبئة العسكرية التى اتهم فيها رسل جودارد الذى قبض عليه فى ٦ يوليو ١٩٦٤ فى سانت لويس . فقد قال القاضى روى و . هاربر الذى حاكم جودارد، عند النطق بالحكم : « إننى سعيد لأننى أعيش فى بلاد يستطيع أى إنسان فيها أن يتخذ الموقف الذى اتخذته . إنك تتمتع هنا بحرية التعبير عن رأيك بسبب الدماء والعرق والجهد والدموع التى بذلها الملايين» . وبعد أن ألقى القاضى بخطبته العصماء عن الحرية الأمريكية حكم على ضحيته بالسجن لمدة خمس سنوات . ولا شك أن القاضى هاربر لا يزال يعتقد أن أمريكا هى بلاد الحريات .

---

* أردأ سجن فى أمريكا . . ويعرف بأن من يدخله لا يخرج منه ، ففيه يقضى المحكوم عليهم بمدد طويلة ، مدة عقوبتهم .

ويؤكد افتقاد الحريات فى أمريكا ، الاعتقاد السائد هناك بأن الشيوعيين قوم بالغوا الخبث والشر . ويفترض فى كل إنسان له آراء مخالفة للمألوف ، أنه شيوعى وأنه عدو للبشرية . ويتحمس الأمريكيون لهذا الاعتقاد ، كما لو كان عقيدة دينية أشبه بعقيدة العبرانيين فى كتاب يهوذا ، حيث ذبحت جيل ، ساسيرا وهو نائم ، وترتب على فعلتها هذه أن اعتبرت بطلة قومية . وتنتشر مثل هذه الروح فى أمريكا بسبب سياسة العداء للشيوعية .

وقد كشف حادث اغتيال كيندى حقيقة أن الحصول على الأسلحة النارية فى أمريكا ، عملية سهلة للغاية بصورة تثير الدهشة . لقد قدم السناتور دود . على أثر هذا الحادث ، مشروعاً بقانون يدعو للتشدد فى شروط حمل السلاح بالنسبة للأفراد . ولكن دود صرح بعد ذلك أن مشروعه قد وئد على يد الجمعية القومية للأسلحة النارية .

وعلى ذلك ، ما زال الناس يموتون فى أمريكا من أجل أن تمتلىء خزائن الجمعية القومية للأسلحة النارية . وطبقاً للقانون يستطيع أى إنسان فى أمريكا ، الحصول على سلاح نارى بالبريد ونتيجة لهذا تتعدد حوادث إطلاق النار . (المصدر صحيفة جارديان فى ١٤ أغسطس ١٩٦٤) .

ويبدو أن قيمة حياة الإنسان قد فقدت أهميتها فى أمريكا. وربما لا نجد فى ذلك ما يثير الدهشة ، إذ يربى الأطفال الأمريكيون فى سن مبكرة للغاية ، على الإعجاب بالعنف كدليل على الشجاعة . واعتاد الأطفال أن ينظروا إلى رجال البوليس ورجال مكتب التحقيقات الفيدرالية والعسكرية — وكل من يحمل سلاحاً — باعتبارهم أبطالا . ولا يعير الناس أى اهتمام للحوادث الخطيرة التى تقع نتيجة للعب بالأسلحة النارية . وترمى سياسة « عبادة » العنف والقتال فى أمريكا ، إلى جعل الأبطال أنفسهم مجانين تماماً .

ذكرت صحيفة تايمز اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٢ يوليو ١٩٦٤ ، أن جندياً أمريكياً قد أطلق الرصاص على امرأة يابانية لأنها ضلت طريقها إلى أحد المعسكرات الأمريكية فى طوكيو.

وجاء فى التايمز فى عدد ٣٠ يوليو ١٩٦٤ «حوكم بالأمس جندى (٢٢ سنة) من سلاح الطيران الأمريكى ، أمام محكمة عسكرية أمريكية فى القاعدة التابعة لأمريكا فى ويذرس فيلد بمقاطعة إسكس ، وذلك بتهمة اللعب بسلاح نارى فى محاولة لإظهار تفوقه فى سرعة إطلاق النار . وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ٦ أشهر . ولويدلا بارون (اسم الجندى) ، أحد

جنود الدرجة الثانية فى البوليس الحربى لسلاح الطيران وقد خفضت رتبته وخصم من راتبه ٢٠ دولاراً فى الشهر لمدة ٦ أشهر. هذا ولم يصدق على الحكم بعد». وقد ذكر ل.ل. ريد، وهو من رجال سلاح الطيران، أنه قد ذهب فى ٢١ أبريل إلى الموقع رقم ١٣ حيث كان لابارون يقوم بنوبة خدمته، وقال ريد — وهو أيضاً من رجال البوليس الحربى لسلاح الطيران — « كان لاباررن يجلس خلف مكتبه عندما دخلت. وقد بادرنى بالقول (دعنا نختبر مدى سرعتك فى إطلاق النار) . وقفز من وراء مكتبه والتقط مسدسه فأسرعت بدورى بسحب مسدسى . وهنا انطلقت رصاصة » . لقد قال لا بارون إنه غير مذنب . ثم ذكر أنه كان يرد على مكالمة تليفونية فى الموقع رقم ١٣ وأضاف « وبمجرد أن وضعت سماعة التليفون استدرت وقلت لريد : اسحب مسدسك فسحبه وأصابنى بطلق منه » . واستطرد لا بارون أنه جرح فى بطنه، وأن مسدسه كان على المكتب بقدر ما يستطيع أن يتذكر، إذ أنه لا يحمله أثناء قيامه بتنظيف الموقع.

وهناك حقائق كثيرة عن تنظيمات معسكرات القواعد الأمريكية فى بريطانيا — وغيرها من البلاد دون شك — والتى تجعل شعارها « السلام هدف لنا » إلا أن إلمامنا بهذه الحقائق

قاصر إلى حد بعيد . وكانت مجلة نيوستيتسمان قد نشرت مقالا لى فى ١٧ فبراير ١٩٦١ ، ولست فى حل من ذكر مصدر المعلومات التى جاءت بالمقال فقد وصلتنى هذه الحقائق عن طريق إنسان عاشها وخالط آخرين عاشوا وقائع مماثلة لها . ومن الواضح أنه يصعب علىّ أن أكشف عن أسمائهم . وكنت قد قليت فى هذا المقال : هل هناك من يعلم أنه فى كل قاعدة من القواعد الأمريكية فى بريطانيا توجد نواة صلبة من الطيارين على درجة عالية من المران تمكنهم من أن يحلقوا فى الجو خلال دقيقة أو دقيقتين من لحظة أن يصلهم فيها أى إنذار . وهذه المجموعة تعيش فى عزلة تامة عن بقية أعضاء القاعدة ، ولا يسمح لأحد بأن يختلط بهم أو يرتاد موقعهم إذ أن لهم أماكن خاصة لتناول الطعام والنوم والمكتبات والسينما إلخ . . وهناك أيضاً حراس مسلحون يحولون بين الجنود الأمريكيين الآخرين فى القاعدة و بين الوصول إلى هذه الأماكن الخاصة . ويعود كل فرد من هذه المجموعة ـــ بما فى ذلك قائدهم إلى أمريكا كل شهر أو شهرين ليحل محلهم مجموعة أخرى . ويكاد ألا يسمح لأفراد هذه المجموعة بأى اتصال بباقى الأمريكيين فى القاعدة ولا بأى فرد من سكان المناطق المجاورة لهذه القواعد . ويبدو

بوضوح أن الهدف من هذه الإجراءات ، يرمى إلى إخفاء أمر وجود هذه الجماعة عن البريطانيين . كما تهدف أيضاً إلى الحفاظ على طبيعة ردود الفعل الآلية للأوامر التى تصدر لهذه الجماعة والدعاية التى يعبثون بها . وذلك بالضبط ما يهدف إليه نظام التدريب المعد لهم . والأكثر من هذا أن الأوامر لا تصدر إلى هذه المجموعة من قيادتها المحلية ، وإنما من واشنطن مباشرة ».

ترى كم منا يعرف أن الحكومة الأمريكية ، كانت تمد المدنيين — طوال السنوات الماضية وما تزال — بالسلاح والذخيرة ، وتدربهم على استخدامها ؟ يقول ستانلى ما يزلر فى مقالة له بمجلة ذى نيشن (الأمة) فى ٨ يونيو ١٩٦٤ : « فى نهاية عام ١٩٦٣ ، كان الجيش الأمريكى يقوم بتدريب ٣٨٤٩٥٠ مدنيًّا على إطلاق النار وإصابة الهدف . ويزيد هذا الرقم على ثلث القوات الأمريكية المسلحة كلها . كما أن نصف هؤلاء من الشبان الذين لم يبلغوا بعد الثامنة عشر من أعمارهم . وقد كلف هذا البرنامج ، الحكومة ٦٢٠ ألف دولار فى السنة المالية الأخيرة » . ويمضى المقال كاشفاً عن الحقائق المفزعة التالية التى سأورد هنا بعضاً منها فقط « لقد وضع الجيش الأمريكى نحو نصف مليون بندقية مستعملة فى أيدى المدنيين ، خلال

السنوات الخمس الأخيرة » . ويستطرد نقلا عن هنرى ب . جونز الز نائب دالاس بولاية تكساس ، من تصريحه فى مضبطة اجتماع الكونجرس الأمريكى يوم ٢٦ مايو ١٩٦٤ ، إن الحكومة الفيدرالية تؤيد وتساعد وتشجع قيام منظمة « الرجال الصغار » وهي منظمة من المتعصبين اليمينيين المعادين للشيوعية والمدربة على أساليب حرب العصابات وذلك من خلال برنامج تدريب المدنيين على إصابة الأهداف » وقد أورد جونز الز أيضاً ، فقرة من خطاب مفتوح بقلم : م. س. رايكا الابن ، مؤسس منظمة اتحاد بول ريفيز للحرس ، يحض فيها الأعضاء على الانضمام إلى الجمعية القومية للأسلحة الصغيرة وتخزين البنادق والرشاشات الخفيفة والمسدسات والالتحاق بمنظمة « الرجال الصغار » وكان رايكا يبرر مطالبته الأعضاء بالانضمام إلى الجمعية بقوله: إن الشيوعيين لن يستطيعوا قهر شعب مسلح . ويطالب رايكا بضرورة استمرار الجمعية القومية للأسلحة الصغيرة فى أداء رسالتها لكسب الرأى العام غير المستنير والمعادى للتسلح إلى صفها .

وباختصار ، إن فى أمريكا اليوم جيوشاً خاصة مستقلة ذاتيًّا عن الجيش الأمريكى ، ومدججة بالسلاح حتى قمة

رأسها ، تقوم بمحاربة كل شخص يبدى أى ميل للاختلاف معها سياسيًا . كما أن هناك منابر خاصة للدعاية مثل برنامج هـ. ل. هانت الإذاعى ،والبرنامج المعروف باسم « خط الحياة » الذى يذاع من واشنطن ويصل إلى ٥ ملايين مستمع فى ٤٥ ولاية أمريكية . (المصدر مقال روبرت ج شيريل فى مجلة ذى نيشن عدد ٢٤ فبراير ١٩٦٤) .

وتوجد فى أمريكا أيضاً ، جمعيات تتميز بخروجها عن القانون وأساليبه البالغة العنف فى نفس الوقت . مثل جمعية جون بيرش والكوكلوكس كلان . وهى – برغم ذلك – غير محظورة قانونيًا وتتسم مواقفهم بوحشية لم يسبق لها مثيل فى أى مكان من العالم ، حتى فى حالة عزلها عن موقفهم من الزنوج .

لقد أدت هذه الظروف المتعددة إلى خلق طائفة من المواطنين الذين يسعدهم العبث بالأسلحة النارية ، يعجبون بالعنف وينظرون إلى المسألة كدليل على الجبن ، مما ينمى لديهم باطراد الشعور بالحقد والميل إلى العنف . ومما لا يثير الدهشة ، أن بلاداً يسودها مثل هذا المناخ النفسى تنجب رجالا يقتلون رئيس جمهوريتهم .

٣

اغتيال كيندى

يتضح مما سبق ، أن أمريكا تعيش فى محيط تمزقه الخلافات والعنف ، وتمتلىء بجيوش خاصة تدعم اليمين فى الولايات المتحدة . ولا ينبغى لنا أن نندهش إذا أخذ العنف فى أمريكا طابعاً سياسيًّا. ورغم ذلك فقد ظلت أمريكا تتشبث بواجهة دستورية مما أصاب العالم بصدمة قاسية عند ما سمع نبأ اغتيال كيندى .

لقد حاول بوليس مدينة دالاس ورجال المخابرات المركزية الأمريكية ، أن يلصقوا جريمة اغتيال كيندى بإنسان مغمور هو أوزوالد ، وسعوا إلى أن يحملوا العالم على الاعتقاد بأن أوزوالد كان يتصرف بمفرده ودون شركاء له ، كما حاولت كل الصحف أن تؤكد هذا الزعم . وكان من الممكن أن تنجح هذه الجهات فى غيها ، لولا الجهد الخارق للعادة الذى قام به نفر قليل من الشخصيات الحريصة على المصالح العامة . وفى مقدمة هذه الشخصيات ، ماركلين ، وهو محام من نيويورك صاحب نظرة سياسية متحررة ، وإن كان أبعد مايكون عن اليسار .

لقد عين الرئيس جونسون هيئة ، عرفت باسم لجنة وارين ،

افترض أن تكون مهمتها وضع تقرير تفصيلى عن الظروف التى أحاطت باغتيال كيندى . وبعد أن انتهت اللجنة من وضع التقرير أخفى لمدة شهرين بقصد أن يتضمن التقرير تفنيداً للحقائق التى جمعها مارك لين . إن التقرير لم ينشر بعد[1] حتى كتابة هذه السطور . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتنبأ بالنغمة الأساسية التى ستسود اتجاهه . والكثيرون فى أوربا يؤيدون جهود مارك لين ، ففضح مثل هذه الأعمال الفجة غير القانونية — التى يبدو أن المسئولين فى الحكومة يحاولون إخفاءها — أمر لا يقل أهمية بالنسبة لنا، عنه بالنسبة للأمريكيين أنفسهم . وقد تعرض كثير من هؤلاء الأوربيين المؤيدين لجهود مارك لين ، لتهديدات من قبل السفارات الأمريكية فى بلادهم المختلفة ، تنذرهم وعائلاتهم بعواقب وخيمة إذا استمروا فى تأييد جهود مارك لين .

وسرعان ما صدر تقرير مارك لين الذى وضح لكل من أقدم على قراءته ، أن سلطات مدينة دالاس قد نسجت سلسلة من الأكاذيب . كما أوضح أنه لا يوجد أى مبرر لافتراض أن أوزوالد مذنب . ولو كانت الأمور قد تطورت فى مجراها الطبيعى لظهرت هذه الحقائق أثناء محاكمة أوزوالد ولكن البوليس

(١) نشر التقرير بعد كتابة هذا المقال.

اكتشف طريقة سهلة للحيلولة دون الكشف عن هذه الحقائق . فقد أتاح الفرصة لشخص من صنائعه يدعى روبى ، وهو صاحب ملهى ليلى ، أن يدخل إلى فناء السجن فى نفس الوقت الذى كان رجال البوليس يصطحبون فيه أوزوالد إلى المحكمة حيث أطلق روبى الرصاص على أوزوالد زاعماً أنه فعل ذلك بدافع من حميته الأخلاقية ضد جريمة اغتيال الرئيس كيندى . عندئذ تنفست سلطات البوليس الصعداء ، وواصلت أعمالها فى تشويه ذكرى أوزوالد . ورغم ذلك كله ، فقد واصل أولئك الذين لم يقتنعوا بالاتهام الذى وجه لأزوالد ، سعيهم للكشف عن الأكاذيب الرسمية . وقد نشرت نتائج بعض هذه الأبحاث فى كتاب بقلم يواقيم جوستن تحت عنوان « أوزوالد . . قاتل أم ضحية ؟ » . (الناشر مارزانى ومنسل نيويورك عام ١٩٦٤) . وقد استقيت ما سأقوله عن جريمة اغتيال كيندى من هذا الكتاب بشكل أساسى .

لقد كان أوزوالد شخصاً مغموراً ، يعيش على هامش الحياة السياسية . وقد قضى فترة من حياته فى روسيا مدعياً الشيوعية . وقد قيل بعد عودته إلى أمريكا ثانية ، إنه ذهب إلى روسيا كجاسوس للمخابرات الأمريكية ويبدو أن السلطات الأمريكية

قد تقبلت هذه الرواية . وقد قام بوليس مدينة دالاس باستجواب كل شخص ثارت حوله أية شبهات ، عندما أعلن عن زيارة كيندى للولاية . ولكن أوزوالد لم يكن من بين هؤلاء الذين استجوبوا . وكان أوزوالد يعمل فى مبنى مخزن كبير للكتب بدالاس . ولم يكن الفضل فى حصوله على هذا العمل يرجع إليه . ولم يكن من المقرر — عندما نشر خط سير موكب كيندى فى مدينة دالاس — أن يمر الموكب بالقرب من مخزن الكتب . ولكن تغير خط سير الموكب فى اللحظة الأخيرة حيث تقرر أن يمر الموكب — فى جزء من خط سيره — فى متناول مرمى بندقية بمخزن الكتب . وقد أعدت هذه الترتيبات بحيث يصبح ممكناً إلصاق التهمة بأوزوالد .

وعلى أية حال ، فقد شاب البيانات الرسمية التخبط والاضطراب فى المراحل التالية من التحقيق فهناك جدل كثير حول المصدر الذى أطلقت منه الرصاصة ، وعما إذا كانت الإصابة القاتلة ، قد أحدثتها رصاصة أطلقت من الأمام أم من الخلف وقد توصل جوستن من دراسته للقضية إلى أن رصاصات ثلاثة أو أربعة قد أطلقت على كيندى . ولو افترضنا أن الرصاصات جميعها قد أطلقت من مخزن الكتب ، فينبغى

أن تبلغ — فى تقديره — أربعة . أما إذا كانت ثلاثة ، فمعنى ذلك أن إحدى هذه الرصاصات ، لابد أن تكون قد أطلقت من مكان أكثر قرباً إلى موكب كيندى . ويرجع غموض هذا الاستنتاج إلى حقيقة أن التقارير الطبية عن إصابة كيندى لم تكن محددة . فقد قرر الأطباء الذين فحصوا الجثة بعد حادث الاغتيال مباشرة ، بالإجماع ، أن الرصاصة قد أطلقت من الأمام . إلا أنه عند ما نقلت الجثة إلى واشنطن ، تضمن التقرير الذى أعدته مصادر « موثوق بها » من أطباء وشنطن ، أن الطلقات جاءت من الخلف . ومنذ لحظة الاغتيال وبقية الرواية عبارة عن محاولة واضحة لتلفيق الأدلة والضغط على الشهود ليسلس قيادهم ومنعهم من الإفضاء بما شاهدوه أو عرفوه . ومن الأدلة الصارخة الجديرة بالملاحظة أن البوليس شريك فى جريمة اغتيال كيندى ، الإذاعة التى وجهها عمدة مدينة دالاس ، قبل إطلاق الرصاص على كيندى بخمس دقائق . فقد قال : « لست أدرى ماذا جرى » ثم أضاف موجهاً الحديث إلى مساعديه « احشدوا كل رجال البوليس الذين فى السجن وفى المكاتب ، واتجهوا إلى ساحة الخط الحديدى القادم من ألم ، بالقرب من الممر الثلاثى السفلى » .

أما كيف عرف العمدة أن شيئاً مفزعاً على وشك أن يحدث فذلك ما لم يقدم أحد تفسيراً له . وعندما عرف نبأ إطلاق الرصاص على الرئيس كيندى ، توجه رجال من البوليس إلى مخزن الكتب وقاموا باستجواب كل الموجودين فيه باستثناء أوزوالد . ولما قيل لهم إن أوزوالد يعمل فى هذا المبنى ، سمحوا له بالانصراف . وقد زعمت السلطات أن أوزوالد قد توجه بعد ذلك إلى مكان ما فى أطراف المدينة حيث قام بقتل رجل بوليس يدعى تيبيت . ولكن السلطات لم تقدم دليلا على إدانة أوزوالد فى هذا الحادث أو تفسيراً لقيامه به . والواقع أن كل الحقائق التى نعرفها ، تحملنا على الاعتقاد بأن أوزوالد لم يقترف مثل هذا الحادث أيضاً . والأكثر غرابة من هذا كله ، أن اتهام أوزوالد بأنه قاتل تيبيت ، قد صدر فى المدينة قبل أن يتعرض تيبيت لإطلاق الرصاص بحوالى نصف ساعة . إن هناك أدلة أخرى تنحو إلى تبرئة أوزوالد من هذا كله . منها على وجه الخصوص نتيجة اختبار البرافين الذى أثبت أن وجنة أوزوالد لم تلامس كعب بندقية . ولو أن قضية أوزوالد قد قدمت إلى المحاكمة فمن غير المعقول أن أية محكمة كانت ستدينه . فالقضية فى مجموعها واضحة ومقنعة تماماً .

وليس هناك ما يصعب تصديقه من القول بأن بوليس مدينة دالاس ومكتب التحقيقات الفيدرالية ، أو أجزاء منها ، ضالعان فى جريمة اغتيال . فقد كان لكيندى أعداء أقوياء وخاصة فى صناعة البترول . وكانت صحف مدينة دالاس قد عبرت عن عدائها المرير لكيندى قبل وفاته بفترة قصيرة . وتعتبر المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالى والأجهزة المماثلة نفسها فوق القانون . كما أنها تملك القدرة على التحكم فى أعمال الحكومة المدنية . ولقد سمح لهذه الأجهزة أن تنمو بسبب الخوف المحموم من الشيوعية .

إن هناك خطراً حقيقياً يقول باحتمال قيام دكتاتورية فاشية فى أمريكا .

٤

تهديد جولد ووتر

إن أمريكا — كما سبق أن رأينا — بلاد يختمر فيها الاضطراب . وتقوم فيها عدد من الجيوش الخاصة التى تتكون كلها تقريباً من عناصر رجعية متطرفة . ونتيجة لهذا ، نجد أن الأمريكيين الذين لا يستمعون لنداء العقل ، مدججون بالسلاح

بينما لا يملكه المتعقلون الراشدون منهم . ولقد كان اغتيال كيندى أول نتائج هذا الواقع القائم بالفعل . أما النتيجة الثانية ، فتتمثل فى اختيار جولد ووتر كمرشح للحزب الجمهورى لرئاسة الجمهورية . ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما ستكون عليه سياسة جولد ووتر لو انتخب ، إلا أن الخطاب الذى ألقاه بنفسه فى سان فرانسسكو ليعلن قبول ترشيحه لانتخابات الرئاسة ، هو خير تعبير عن سياسته . لقد رفض جولد ووتر فى خطابه أية محاولة للوفاق مع الشيوعيين . لقد صرح أن العداء للشيوعية ، ينبغى أن يكون حجر الزاوية لسياسة الولايات المتحدة . مما يستتبع بالتالى انتهاج سياسة حافة الهاوية . ويعتقد جولد ووتر — أو يزعم أنه يعتقد — بأنه إذا تعرضت روسيا للتهديد بشكل دائم ، فلسوف تتراجع وتستسلم فى النهاية وبهذا يمكن — فى اعتقاده — القضاء على الشيوعية ، دون ما حاجة إلى حرب عالمية .

ويرى جولد ووتر أن قائد قوات حلف الأطلنطى ، يجب أن يتمتع بصلاحيات وحق استخدام الأسلحة النووية الأمريكية وقتما يشاء ، وذلك بدلا من رئيس الولايات المتحدة . إن القائد العام لحلف الأطلنطى أمريكى الجنسية ومن المحتمل أن يظل هذا المنصب فى يد الأمريكيين . ومن المتوقع أن يشغل أحد

أنصار جولد ووتر هذا المنصب فى حالة فوزه . وإنه لمن الصعب أن نتنبأ مقدماً ما إذا كان جولد ووتر سينجح فى انتخابات الرئاسة ، أم لا .

لقد تربى الرأى العام الأمريكى ، على أن يتقبل فكرة زائفة تماماً عن كل من الشيوعية وأمريكا نفسها . والاعتقاد الشائع لدى الأمريكيين ، أن بلادهم تقف فى جبهة الحرية بينما تمثل الشيوعية الاستبداد المقيت للأقلية ، وكلا الاعتقادين زائف ، وإنه لمن الصعب على أمريكا أن تلعب دوراً رشيداً فى السياسة الدولية ، ما لم تتخل عن هاتين الفكرتين . وجولد ووتر يتزعم الاتجاه غير الصادر عن العقل . وإذا فاز فى الانتخابات ، فاحتمالات أن يكون المستقبل مظلماً قائمة . ويصدق نفس المصير ، لو خسر جولد ووتر الانتخابات شخصياً ، وتبنى منافسه نفس السياسة . إن الظواهر تدل — حتى الآن — على أن الاحتمال الأكبر ، هو نبذ جولد ووتر كرئيس للولايات المتحدة — وأن يتبنى منافسه سياسته ، وما يحدث فى فيتنام الجنوبية أخيراً ، مصداق لهذا القول .

ورغم ما يزعمه جولد ووتر عن حبه للحرية ، فإن ذلك لا يحمله على تقبل الجهود التى تبذل بقصد تغيير الاتجاه

المتعصب لدى السواد الأعظم من سكان الولايات المتحده فلقد ساد خطابه فى سان فرانسسكو لهجة التعصب والغوغائية. وتنتشر مثل هذه الحالة النفسية بسهولة حيث تصعب مقاومتها فيما بعد .

ما هى – إذن – النتائج المحتملة ، لو انتصرت سياسة جولد ووتر ؟ إنه لمن الصعب أن نعتقد أن الدول الشيوعية سوف ترضخ بهدوء للتهديدات الأمريكية والمزيد من الأعمال الاستفزازية ، كحادث طائرة التجسس ى ٢ ، الذى وقع أثناء مؤتمر القمة فى باريس . أو كحادث الطائرة المماثلة الأكثر خطورة والأقرب عهداً ، الذى وقع فى ذروة أزمة الكاريبى . فمن الواضح أن مثل هذه التهديدات والأعمال الاستفزازية لن تنتهى ، إلا بانتهاء كل الحكومات الشيوعية . ولو افترضنا أن خروشوف نفسه كان على استعداد لأن يرضخ لمثل هذه التهديدات فإن أشباه جولد ووتر من الروس الذين افترض وجود بعض منهم فى روسيا ، سوف يسقطون خروشوف ، ويصرون على انتهاج سياسة أكثر حدة وستكون النتيجة فى هذه الحالة حرباً نووية عالمية وتقويضاً للحضارة إن لم يكن فناء البشرية نفسها . ولا شك أن مثل هذه الصورة للمستقبل ، لا ترضى حلفاء أمريكا الأوربيين . فمن المتوقع أن تضع سياسة

جولد ووتر ، حداً لوجود حلف شمال الأطلنطى نفسه .

ولو افترضنا نجاح سياسة جولدووتر ، ورضوخ الدول الشيوعية لها ، فإن أولى النتائج التى ستترتب على ذلك هى سيطرة طغيان العسكرية الأمريكية على العالم كله باسم الحرية . ولن تستقر أسس هذا الطغيان طويلا . ولن يلبث أن ينهار ويتحول إلى فوضى خلال سنوات قلائل .

ولا بد أن تفرخ ظاهرة جولد ووتر ، أحد هذين الاحتمالين وكلاهما مفزع ، وكلاهما يلقى استنكار ومعارضة كل من لم تذهب بعقله الدعايات المعادية للشيوعية .

وأمريكا تزعم أنها قائدة « العالم الحر » . ولكنها لا تستطيع أن تقوم بهذا الدور — بكفاءة — بسبب فزعها من الاشتراكية . ولنتأمل على سبيل المثال اضطرابات هارلم . فسوف يدعو منهج جولد ووتر للتسامح مع رجال البوليس البيض الذين أطلقوا الرصاص على الصبية الملونين باعتباره أولى الخطوات نحو الحرية . أما السياسة الأكثر تعقلا فهى تلك التى تدعو إلى إنفاق الأموال العامة لإزالة حى هارلم القديم وإقامة مساكن جديدة ملائمة لسكنى الزنوج . ولكن فكرة كهذه تعد — فى نظر الجولد ووتريين — فكرة اشتراكية . إن التخطيط الذى

تقوم به المؤسسات الخاصة من أجل مصالحها يثير الإعجاب . أما التخطيط الحكومى لتحسين مستوى معيشة الفقراء المعدمين ، فيعد أيضاً عملا اشتراكيًّا ، ومن ثم عملا شريراً . ويعتقد هؤلاء ، أن نزع السلاح يجعل المشاكل الاقتصادية مستعصية على الحل . إن المنهج الاقتصادى الأمريكى ، منهج متخلف بما يساوى مائة عام . مما يحد من قدرة أمريكا على قيادة (العالم الحر) .

إن العلاج الوحيد لهذا الموقع ، يكمن فى تغيير أسلوب التفكير الأمريكى تغييراً جذريًّا ، والعمل على خلق مناخ فكرى أمريكى جديد . وذلك عن طريق أجهزة الدعاية الرسمية وأجهزة الإعلانات ، وهى نفس الأجهزة التى ربت الشبان على روح الإعجاب بالذين يسفكون الدماء دون مبالاة ، وعلى ازدراء أولئك الذين تسفك دماؤهم ، هذه الأجهزة التى تصور رجل البوليس ، فى صورة الرجل الشجاع بينما تصور ضحيته كجبان . لقد كان ذلك كله جزءاً من الطريق نحو دولة بوليسية وأصبحت الدولة نفسها ضحية — ربما عن غير قصد — لمفاهيم مجموعة من المسلمات التى تروج لمنهج فكرى يقول بأنه لا يمكن القضاء على جميع الشرور ، إلا بإطلاق النار أو إحدى وسائل العنف

المماثلة . ورغم أن الولايات المتحدة ، مليئة بالكثيرين من علماء الاجتماع المتخصصين والذين يمكن أن تستفيد من نصائحهم فى علاج كثير من هذه الشرور ، إلا أن الحكومة الأمريكية تصم آذانها عن هذه النصائح ، بل تستمر فى تثقيف الشعب بصياغة مفاهيم معينة لتشويه الاشتراكية والشيوعية ، وتصور سجن خصومها على أنه دليل على (الحرية) .

إن أمريكا مريضة . ومرضها هذا يعرض العالم كله للخطر . وقوة هذه البلاد الجبارة ومواردها الضخمة تحتم ضرورة إيجاد علاج لمرضها. وأول ما تحتاج إليه أمريكا، هو أن تعلم أبناءها أن التفوق لا يكمن فى العنف وأنه لابد من نبذ مشاعر الحقد والكراهية. إن تغيير وجهة النظر لمهمة عظمى ينبغى على الأمريكيين الراديكاليين أن يحاولوا الاضطلاع بها ولست أدرى ما إذا كان لدى هؤلاء الراديكاليين، روح الإقدام التى تتطلبها مثل هذه الضرورة أم لا . ولكننا نأمل أن يكونوا فى مستوى الموقف .

ب ـ آراء « لسارتر » حول القضية الفلسطينية

خلال زيارته للجمهورية العربية المتحدة وغزة فى فبراير مارس عام ١٩٦٧

قام جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بزيارة الجمهورية العربية المتحدة وقطاع غزة فى الفترة من ٢٥ فبراير ـ ١٣ مارس عام ١٩٦٧ . وذلك بدعوة من الأهرام .

وخلال هذه الفترة عقدت لقاءات واسعة بين سارتر وبين جماهير الشعب العربى فى مصر وغزة من مختلف القطاعات ، وكان فى مقدمة القضايا التى نوقشت خلال هذه اللقاءات ، قضية فلسطين ، حيث أدلى سارتر فيها بآراء محددة سواء فى غزة ، أو خلال لقائه مع أساتذة وطلبة وطالبات جامعة القاهرة[١] .

من حوار سارتر مع الشعب الفلسطينى فى غزة :

ـ شكراً لكم . . فبفضل معونتكم استطعت أن أرى الواقع

---

(١) نشرت الطليعة فى عددها الصادر فى أول أبريل ١٩٦٧ ملفا خاصا يضم حوار سارتر وسيمون دى بوفوار مع العمال والفلاحين والمثقفين العرب فى مصر وغزة.

الفلسطيني وأن أفهم جيداً ما يمكن أن يشعر به الرجال والنساء والأطفال الذين يعيشون في معسكرات بعيدين عن أرضهم ، وأن أفهم أيضاً رغبتهم العميقة في العودة إليها . وأنا أعرف أنكم تنظمون أنفسكم للوصول إلى هذا الهدف، وعلى ذلك وبسبب فهمي هذا فإن عواطفي معكم .

(سارتر – في لقائه مع اللاجئين والشعب الفلسطيني في غزة في ١٩٦٧/٣/١٠)

– إنكم تطلبون مني خلال زيارتي لإسرائيل أو كما تعبرون عنها فلسطين المحتلة ، أن أزور هناك بعض القرى العربية مثل كفر قاسم وأن أرى وأتحدث مع العرب هناك . وهذا أمر لم أنسه بل إنني منذ البداية أبديت رغبتي الواضحة الصريحة في مقابلة العرب وأعدكم أنني سوف أفعل هذا وأزور جميع الأماكن التي طلبتم مني زيارتها والتحدث إلى العرب هناك وتحقيق حالتهم ووضعهم . وسوف أنشر في عدد مجلتي « العصور الحديثة » الذي سوف أصدره عن القضية من وجهتي النظر العربية والإسرائيلية وثيقة خاصة بالمنظمة العربية داخل إسرائيل المعروفة باسم الأرض . وإني لأشكركم على هذه الصراحة في الحديث معي وأستطيع أن أوكد لكم أنني سوف أنقل وجهة

نظركم إلى فرنسا وزملائى الفرنسيين .

(سارتر – فى لقائه مع اللاجئين والشعب الفلسطينى فى غزة فى ١٠/٣/١٩٦٧)

– أستطيع مطمئناً أن أقرر لكم أنى أعترف دون تحفظ بالحق القومى لجميع اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى بلادهم .

(سارتر – فى لقائه مع اللاجئين والشعب الفلسطينى فى غزة فى ١٠/٣/١٩٦٧)

من حوار سارتر مع أساتذة وطلبة جامعة القاهرة :

– الذى أستطيع أن أقوله لكم الآن بعد أن زرت غزة هو ملاحظتين : الأولى هى أنى أحسست إحساساً عميقاً بمأساة كل هؤلاء اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظروف بائسة بل ولا تحتمل فى بعض الأحيان ، الذين يعيشون على حدود البلد الذى كان بلدهم . والملاحظة الثانية هى أنى أعتبر أن حق الفلسطينيين القومى فى العودة إلى البلد الذى كانوا يعيشون فيه هو حق لهم لا تجوز مناقشته إطلاقاً . ولن أذهب فى حديثى اليوم إلى أبعد من هذا ، لأنه قد يتساءل البعض وكيف يعودون إلى بلدهم وما هى العلاقة التى يفترض أن توجد بينهم وبين من يوجدون بإسرائيل اليوم إلخ ؟ أقول لن أذهب

إلى أبعد مما قلت وسأقول لكم السبب : إننا نقوم الآن فى مجلة « العصور الحديثة » بتحضير عدد خاص عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، سنقدم فيه لأول مرة وجهة النظر العربية بأقلام كتاب عرب ، وسيقدم هؤلاء الكتاب كل وجهات نظرهم ، ومن بين هؤلاء الكتاب كتاب فلسطينيون ينتمون إلى (منظمة التحرير أى الحكومة المؤقتة السرية) وفى نفس الوقت سنقدم وجهة نظر معروفة فى فرنسا اليوم أكثر من وجهة النظر العربية وأعنى بها وجهة النظر الإسرائيلية . سنقدم وجهتى النظر وذلك لأننا لو أعطينا وجهة نظر واحدة ؛ فإن إعلام الجمهور الفرنسى ، هذا الجمهور الذى أعرفه تماماً ، سيكون إعلاماً ناقصاً . إن الرأى العام الفرنسى فى حاجة إلى وجهتى النظر لكى يحكم . ولكى نحصل على وجهتى نظر الجانبين ، أعنى العرب والإسرائيليين ، وهما يرفضان الحوار تماماً فيما بينهما فقد قررنا ، لا أن نكون محايدين وإنما متغيبين تماماً . أى أن نكون غير ممثلين على الإطلاق فى هذا العدد . إن هذا العدد سيتكون من جزء سيكتبه الإسرائيليون وجزء آخر منفصل سيكتبه العرب ، ولن نضيف أى شىء أكثر من هذا . سنقول ببساطة إننا نقدم هذا العدد . . مفهوم إذن أنه لن

يكون هناك حوار من أى نوع بين العرب والإسرائيليين ، كما أنه ليس هناك أى تدخل من جانبنا . فى مثل هذه الظروف لو أننى ذهبت إلى البحث فى أعماق المشكلة .فإنى فى مثل هذه اللحظة سأكون منحازاً وإذا حدث فإنى أحنث بالعهد الذى قطعته على نفسى فى مواجهة هذا العدد الذى أعده ، إذن فإنى أتوقف عند حد هذا القول الذى أعلنته .

(سارتر – فى لقائه مع أساتذة وطلبة وطالبات
جامعة القاهرة فى ١١ مارس ١٩٦٧)

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم

اقرأ

حرب الأثير

تأليف

محمد العزب موسى

